ألف ليلة وليلة

(الجزء الثاني)




مكتبة .. هنا سور الأزبكية على التليجرام
mohamed khatab

ألف ليلة وليلة (الجزء الثاني)



ألف ليلة وليلة (الجزء الثاني)

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٠٠ ٥

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

فلما كانت الليلة ١٣٠

حكاية الأميرة دنيا مع تاج الملوك

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير دندان قال لضوء المكان: إن والد تاج الملوك قال له: يا ولدي، إن أباها ملك وبلاده بعيدة عنا، فدَعْ عنك هذا وادخل قصر أمك، فإن فيه خمسمائة جارية كالأقمار، فمَن أعجبَتْكَ منهم فخذها، وإن لم تعجبك جارية منهن، نخطب لك بنتًا من بنات الملوك تكون أحسن من السيدة دنيا. فقال له: يا والدي لا أريد غيرها، وهي التي صورت صورةَ الغزال التي رأيتُها، فلا بد لي منها، وإلا أهجُّ في البراري وأقتل روحي بسببها. فقال له أبوه: يا ولدي، أمهل عليَّ حتى أرسل إلى أبيها وأخطبها منه وأبلغك المرامَ مثلما فعلتُ لنفسي مع أمك، وإن لم يرضَ زلزلتُ عليه مملكتَه وجرَّدْتُ عليه جيشًا يكون آخِره عندي وأوله عنده. ثم دعا بالشاب عزيز وقال له: يا ولدي، هل أنت تعرف الطريق؟ قال: نعم. قال له: أشتهي منك أن تسافر مع وزيري. فقال له عزيز: سمعًا وطاعةً يا ملك الزمان. ثم أحضر وزيره وقال له: دبِّرْ لي أمرَ ولدي كما تعرف، واذهب إلى جزائر الكافور واخطب بنتَ ملكها. فأجابه الوزير: بالسمع والطاعة. ثم عاد تاج الملوك إلى منزله وقد زادت به الأمراض والحسرات، وحين جنَّ عليه الليلُ أنشد هذه الأبيات:

جَنَّ الظَّلَامُ وَدَمْعِي زَائِدُ الْمَدَدِ　　وَالْوَجْدُ مِنْ شِدَّةِ النِّيرَانِ فِي كَبِدِي
سَلُوا اللَّيَالِي عَنِّي وَهْيَ تُخْبِرُكُمْ　　إِنْ كَانَ يَرْثُو لِقَلْبِي فِي الْهَوَى كَمَدِي
أَبِيتُ أَرْعَى نُجُومَ اللَّيْلِ فِي سَهَرٍ　　وَالدَّمْعُ مُنْهَمِلٌ فِي الْخَدِّ كَالْبَرَدِ
وَقَدْ بَقِيتُ وَحِيدًا لَيْسَ لِي أَحَدٌ　　كَمِثْلِ صَبٍّ بِلَا أَهْلٍ وَلَا وَلَدِ

فلما فرغ من شعره وقع مغشيًّا عليه، ولم يفِقْ إلا وقتَ الصباح؛ فلما أصبح الصباح جاء إليه أبوه، فرآه قد تغيَّرَ لونه وزاد اصفراره ووعده بجمْعِ شمله، ثم جهَّزَ عزيزًا مع وزيره وأعطاهم الهدايا، فسافروا أيامًا وليالي إلى أن أشرفوا على جزائر الكافور، فأقاموا على شاطئ نهر وأنفَذَ الوزيرُ رسولًا من عنده إلى الملك ليخبره بقدومهم، وبعد ذهاب الرسول بنصف يوم، لم يشعر إلا وحجَّاب الملك وأمراؤه قد أقبلوا عليهم ولاقوهم من مسيرة فرسخ، فتلقَّوْهم وساروا في خدمتهم إلى أن دخلوا بهم على الملك، فقدَّموا له الهدايا وأقاموا عنده أربعةَ أيام، وفي اليوم الخامس قام الوزير ودخل على الملك ووقف بين يديه وحدَّثه بحديثه، وأخبره بسبب مجيئه، فصار الملك متحيِّرًا في ردِّ الجواب؛ لأن ابنته لا تحبُّ الزواج، وأطرق رأسه إلى الأرض ساعةً ثم رفع رأسَه إلى بعض الخدام وقال له: اذهب إلى سيدتك دنيا وأخبرها بما سمعتَ وبما جاء به هذا الوزير. فقام الخادم وغاب ساعةً، ثم عاد إلى الملك وقال له: يا ملك الزمان، إني لما دخلتُ على السيدة دنيا أخبرتُها بما سمعتُ، فغضبَتْ غضبًا شديدًا ونهضت عليَّ بمسوقة وأرادَتْ كسْرَ رأسي، ففررتُ منها هربًا وقالت لي: إنْ كان أبي يغصبني على الزواج، فالذي أتزوَّج به أقتله. فقال أبوها للوزير وعزيز: سلِّمَا على الملك وأخبراه بذلك، وأن ابنتي لا تحبُّ الزواجَ. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٣١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان قال للوزير وعزيز: سلما على الملك وأخبراه بما سمعتماه من أن ابنتي لا تحبُّ الزواجَ. فرجع الوزير ومَن معه من غير فائدة، وما زالوا مسافرين إلى أن دخلوا على الملك وأخبروه بما جرى؛ فعند ذلك أمر النقباء أن ينبِّهوا العسكرَ إلى السفر من أجل الحرب والجهاد، فقال له الوزير: لا تفعل ذلك فإن الملك لا ذنبَ له، وإنما الامتناع من ابنته، فإنها حين علمَتْ بذلك أرسلت تقول: إن غصبني أبي على الزواج أقتل من أتزوَّج به وأقتل نفسي بعده. فلما سمع الملك كلامَ الوزير، خاف على ولده تاج الملوك وقال: إن حاربتَ أباها وظفرتَ بابنته، قتلَتْ نفسها. ثم إن الملك أعلم ابنه تاج الملوك بحقيقة الأمر، فلما علم بذلك قال لأبيه: يا والدي، أنا لا أطيق الصبرَ عنها، فأنا أروح إليها وأتسبَّب في اتصالي بها ولو أموت، ولا أفعل غير هذا. فقال له أبوه: وكيف تروح إليها؟ فقال: أروح في صفة تاجر. فقال الملك: إن كان ولا بد، فخُذْ معك الوزيرَ وعزيزًا. ثم إنه أخرج له شيئًا من خزائنه وهيَّأ له متجرًا بمائة ألف دينار، واتفقَا معه على ذلك، فلما جاء الليل ذهب تاج الملوك وعزيز إلى منزل عزيز، وباتَا هناك تلك الليلة، وصار تاج الملوك مسلوبَ الفؤاد، ولم يطِبْ له أكلٌ ولا رقادٌ، بل هجمت عليه الأفكار، وغرق منها في بحار، وهزَّه الشوق إلى محبوبته، فأفاض دمع العين، وأنشد هذين البيتين:

تُرَى هَلْ لَنَا بَعْدَ الْبِعَادِ وُصُولُ فَأَشْكُو إِلَيْكُمْ صَبْوَتِي وَأَقُولُ
تَذَكَّرْتُكُمْ وَاللَّيْلُ نَاءٍ صَبَاحُهُ وَأَسْهَرْتُمُونِي وَالْأَنَامُ غُفُولُ

لما فرغ من شعره بكى بكاءً شديدًا، وبكى معه عزيز وتذكَّرَ ابنةَ عمه، وما زالَا يبكيان إلى أن أصبح الصباح، ثم قام تاج الملوك ودخل على والدته وهو لابس أهبة السفر،

فسألَتْه عن حاله، فأخبرها بحقيقة الأمر، فأعطته خمسين ألف دينار ثم ودَّعَتْه وخرج من عندها ودعت له بالسلامة والاجتماع بالأحباب، ثم دخل والده واستأذنه أن يرحل، فأذن له وأعطاه خمسين ألف دينار، وأمر أن تُضرَب له خيمة في خارج المدينة، فضُرِبت له خيمة عظيمة وأقاموا فيها يومين ثم سافروا، واستأنس تاج الملوك بعزيز وقال له: يا أخي، أنا ما بقيت أطيق أن أفارقك. فقال عزيز: وأنا الآخَر كذلك، وأحبُّ أن أموت تحت رجلَيْك، ولكن يا أخي قلبي اشتغل بوالدتي. فقال له تاج الملوك: لما نبلغ المرامَ لا يكون إلا خيرًا. وكان الوزير قد وصَّى تاج الملوك بالاصطبار، وصار عزيز ينشد له الأشعار، ويحدِّثه بالتواريخ والأخبار. ولم يزالوا سائرين بالليل والنهار مدةَ شهرين، فطالت الطريق على تاج الملوك، واشتدَّ عليه الغرامُ وزاد به الوَجْد والهيام، فلما قربوا من المدينة، فرح تاج الملوك غاية الفرح، وزال عنه الهم والترح، ثم دخلوها وهم في هيئة التجار، وابن الملك في زي تاجر، ثم أتوا إلى مكان يُعرَف بمنزل التجار وهو خان عظيم، فقال تاج الملوك لعزيز: أهذا منزل التجار؟ قال عزيز: لكنه غير الخان الذي كنتُ نزلتُ فيه أنا والقافلة التي كنتُ معها، إلا أنه أحسن منه. فأناخوا فيه مطيَّهم، وحطوا رحالهم، وخزنوا أمتعتهم في المخازن وأقاموا للراحة أربعة أيام.

ثم إن الوزير أشار عليهم أن يكتروا لهم دارًا كبيرة فأجابوه، واكتروا لهم دارًا متسعة معدَّة للأفراح، فنزلوا فيها، وأقام الوزير وعزيز يدبِّران حيلةً من أجل تاج الملوك، وصار تاج الملوك متحيِّر الأيدي ماذا يفعل؟ ولم يجد له حيلة غير أنه يفتح له دكانًا للتجارة في سوق البز. ثم إن الوزير أقبل على تاج الملوك وعزيز وقال لهما: اعلمَا أنه إن كان مقامنا على هذه الحالة، فإننا لا نبلغ مرادنا ولا يحصل مطلوبنا، وقد خطر ببالي شيء ولعله فيه الصلاح إن شاء الله. فقال له تاج الملوك وعزيز: افعل ما بَدَا لك، فإن المشايخ فيهم البركة، لا سيما وأنت قد مارست الأمور، فأَشِرْ علينا بما خطر ببالك. فقال لتاج الملوك: الرأي أننا نكتري لك دكانًا في سوق البز وتقعد فيها للبيع والشراء؛ لأن كل واحد من الخاص والعام يحتاج إلى البز، وإذا قعدتَ في تلك الدكان ينصلح أمرك إن شاء الله تعالى، خصوصًا وصورتك جميلة، ولكن اجعل عزيزًا أمينًا عندك وأجلِسْه في داخل الدكان ليناولك الأقمشة. فلما سمع تاج الملوك ذلك الكلام قال: إن هذا رأي سديد. فعند ذلك أخرج تاج الملوك بدلةً تجاريةً ولبسها، وقام يمشي وغلمانه خلفه، وأعطى لأحدهم ألفَ دينار معه ليقضي بها مصالح الدكان، وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى سوق البز، فلما رأت التجار تاج الملوك وشاهدوا حُسْنَه وجماله، تحيَّرَتْ عقولهم وصاروا يقولون: هل رضوان

فتح أبواب الجنان وسها عنها، فخرج هذا الشاب البديع الحُسْن؟ وبعضهم يقول: لعل هذا من الملائكة. فلما دخلوا عند التجار سألوا عن دكان شيخ السوق فدلوهم عليه، فتوجَّهوا إليه.

فلما قربوا منه قام إليهم هو ومَن عنده من التجار وعظَّموهم، خصوصًا الوزير الأجل، فإنهم رأوه رجلًا كبيرًا مهابًا، ومعه تاج الملوك وعزيز، فقال التجار لبعضهم: لا شك أن هذا الشيخ والد هذين الغلامين. فقال لهم الوزير: مَن شيخ السوق فيكم؟ فقالوا: ها هو. فنظر إليه الوزير وتأمَّلَه، فرآه رجلًا كبيرًا صاحب هيئة ووقار وخدم وغلمان، ثم إن شيخ السوق حيَّاهم تحيةَ الأحباب، وبالَغَ في إكرامهم وأجلَسَهم جنبه وقال لهم: هل لكم حاجة نفوز بقضائها؟ فقال الوزير: نعم، إني رجل كبير طاعن في السن، ومعي هذان الغلامان، وسافرتُ بهما سائرَ الأقاليم والبلاد، وما دخلتُ بلدةً إلا أقمتُ بها سنةً كاملة، حتى يتفرَّجَا عليها ويعرفَا أهلها، وإني قد أتيتُ بلدكم هذه واخترتُ المقام فيها، وأشتهي منك دكانًا تكون من أحسن المواضع حتى أجلسهما فيها، ليتاجرَا ويتفرجَا على هذه المدينة ويتخلَّقَا بأخلاق أهلها، ويتعلَّمَا البيعَ والشراء والأخذ والعطاء. فقال شيخ السوق: لا بأس بذلك. ثم نظر إلى الولدين وفرح بهما وأحَبَّهما حبًّا زائدًا، وكان شيخ السوق مغرَمًا بفاتك اللحظات، ويغلِّب حبَّ البنين على البنات، ويميل إلى الحموضة. فقال في نفسه: سبحان خالقهما ومصوِّرهما من ماء مهين. ثم قام واقفًا في خدمتهما كالغلام بين أيديهما، وبعد ذلك سعى وهيَّأ لهما الدكان، وكانت في وسط السوق، ولم يكن أكبر منها ولا أوجه منها عندهم؛ لأنها كانت متَّسِعةً مزخرفةً فيها رفوفٌ من عاج وأبنوس؛ ثم سلَّمَ المفاتيح للوزير وهو في صفة تاجر وقال: جعلها الله مباركةً على ولَدَيْكَ. فلما أخذ الوزير مفاتيح الدكان، توجَّهَ إليها هو والغلامان ووضعوا فيها أمتعتهم، وأمروا غلمانهم أن ينقلوا إليها جميعَ ما عندهم من البضائع والقماش. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٣٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما أخذ مفاتيح الدكان توجَّهَ إليها هو والغلامان، ووضعوا فيها أمتعتهم، وأمروا غلمانهم أن ينقلوا إليها جميعَ ما عندهم من البضائع والقماش والتحف، وكان ذلك شيئًا يساوي خزائن مال، فنقلوا جميعَ ذلك إلى الدكان وباتوا تلك الليلة. فلما أصبح الصباح، أخذهما الوزير ودخل بهما الحمام، فلما دخلوا الحمام تنظفوا وأخذوا غايةَ حظِّهم، وكان كلٌّ من الغلامين ذا جمال باهر، فصار في الحمام على حد قول الشاعر:

بُشْرَى لَقَيِّمَةٌ إِذْ لَامَسَتْ يَدُهُ　　جِسْمًا تَوَلَّدَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنُّورِ
مَا زَالَ يُظْهِرُ لُطْفًا مِنْ صِنَاعَتِهِ　　حَتَّى جَنَى الْمِسْكَ مِنْ تِمْثَالِ كَافُورِ

ثم خرجَا من الحمام، وكان شيخ السوق لما سمع بدخولهما الحمامَ قعد في انتظارهما، وإذا بهما قد أقبلَا وهما كالغزالين، وقد احمرَّتْ خدودهما واسودَّتْ عيونهما ولمعت أبدانهما، فكأنهما غصنان مثمران أو قمران زاهيان. فقال لهما: يا أولادي، حمَّامكم نعيم دائم. فقال تاج الملوك بأعذب كلام: ليتك كنتَ معنا. ثم إن الاثنين قبَّلَا يدَيْه ومشيَا قدامه حتى وصلَا إلى الدكان تعظيمًا له؛ لأنه كبير السوق، وقد أحسن إليهما بإعطائهما الدكان. فلما رأى أردافهما في ارتجاج، زاد به الوَجْد وهاج، وشخر ونخر، ولم يَبْقَ له مصطبر؛ فأحدق بهما العينين وأنشد هذين البيتين:

يُطَالِعُ الْقَلْبَ بَابُ الاخْتِصَاصِ بِهِ　　وَلَيْسَ يَقْرَأُ فِيهِ مَبْحَثَ الشَّرِكَةْ
لَا غَرْوَ فِي كَوْنِهِ يَرْتَجُّ مِنْ ثِقَلٍ　　فَكَمْ لِذَا الْفَلَكِ الدَّوَّارِ مِنْ حَرَكَةْ

فلما سمعَا منه هذا الشعر، أقسمَا عليه أن يدخل معهما الحمَّام، وكانا قد تركَا الوزير داخل الحمام؛ فلما دخل معهما شيخ السوق الحمامَ ثاني مرة، سمع الوزير بدخوله، فخرج إليه من الخلوة واجتمع به في وسط الحمام وعزم عليه فامتنع، فمسك في إحدى يديه تاج الملوك وفي يده الأخرى عزيز، ودخلَا به خلوة أخرى، فانقاد لهما ذلك الشيخ الخبيث، فحلف تاج الملوك ألَّا يحمِّيه غيره، وحلف عزيز ألَّا يصب عليه الماء غيره، فقال له الوزير: إنهما أولادك. فقال شيخ السوق: أبقاهما الله لك، لقد حلَّتْ في مدينتنا البركةُ والسعود بقدومكم وقدوم أتباعكم. ثم أنشد هذين البيتين:

أَقْبَلْتَ فَاخْضَرَّتْ لَدَيْنَا الرُّبَى   وَقَدْ زَهَتْ بِالزَّهْرِ لِلْمُجْتَلِي
وَنَادَتِ الْأَرْضُ وَمَنْ فَوْقَهَا   أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ مُقْبِلِ

فشكروه على ذلك، وما زال تاج الملوك يحميه وعزيز يصبُّ عليه الماء، وهو يظن أن روحه في الجنة، حتى أتمَّا خدمته، فدعا لهما، وجلس جنب الوزير على أنه يتحدَّث معه، ولكن معظم قصده النظر إلى تاج الملوك وعزيز، ثم بعد ذلك جاءت لهم الغلمان بالمناشف، فتنشفوا ولبسوا حوائجهم ثم خرجوا من الحمام، فأقبل الوزير على شيخ السوق وقال له: يا سيدي، إن الحمام نعيم الدنيا. فقال شيخ السوق: جعله الله لك ولأولادك عافيةً، وكفاهما الله شرَّ العين، فهل تحفظون شيئًا مما قالته البلغاء في الحمَّام؟ فقال تاج الملوك: أنا أنشد لك بيتين وهما:

إِنَّ عَيْشَ الْحَمَّامِ أَطْيَبُ عَيْشٍ   غَيْرَ أَنَّ الْمَقَامَ فِيهِ قَلِيلُ
جَنَّةٌ تَكْرَهُ الْإِقَامَةَ فِيهَا   وَجَحِيمٌ يَطِيبُ فِيهَا الدُّخُولُ

فلما فرغ تاج الملوك من شعره قال عزيز: وأنا أحفظ في الحمَّام شيئًا. فقال شيخ السوق: أسمعني إياه. فأنشد هذين البيتين:

وَبَيْتٍ لَهُ مِنْ جَلْمَدِ الصَّخْرِ أَزْهَارُ   أَنِيقٍ إِذَا مَا أُضْرِمَتْ حَوْلَهُ النَّارُ
تَرَاهُ جَحِيمًا وَهْوَ فِي الْحَقِّ جَنَّةٌ   وَأَكْثَرُ مَا فِيهَا شُمُوسٌ وَأَقْمَارُ

فلما فرغ عزيز من شعره، تعجَّبَ شيخ السوق من صباحتهما وفصاحتهما وقال لهما: والله لقد حزتُمَا الفصاحةَ والملاحة، فاسمعا أنتما مني. ثم أطرب النغمات وأنشد هذه الأبيات:

يَا حُسْنَ نَارٍ وَالنَّعِيمُ عَذَابُهَا   تُحْيَى بِهِ الْأَرْوَاحُ وَالْأَبْدَانُ
فَاعْجَبْ لِبَيْتٍ لَا يَزَالُ نَعِيمُهُ   غَضًّا وَتُوقَدُ تَحْتَهُ نِيرَانُ
عَيْشُ السُّرُورِ لِمَنْ أَلَمَّ بِهِ وَقَدْ   سَفَحَتْ عَلَيْهِ دُمُوعَهَا الْغُدْرَانُ

ثم سرح في رياض حسنهما نظر العين، وأنشد هذين البيتين:

وَافَيْتُ مَنْزِلَهُ فَلَمْ أَرَ حَاجِبًا   إِلَّا وَيَلْقَانِي بِوَجْهٍ ضَاحِكِ
وَدَخَلْتُ جَنَّتَهُ وَزُرْتُ جَحِيمَهُ   فَشَكَرْتُ رِضْوَانًا وَرَأْفَةَ مَالِكِ

فلما سمعوا ذلك، تعجبوا من هذه الأبيات، ثم إن شيخ السوق عزم عليهم فامتنعوا ومضوا إلى منزلهم ليستريحوا من تعب الحمام، ثم أكلوا وشربوا وباتوا تلك الليلة في منزلهم على أتم ما يكون من الحظ والسرور. فلما أصبح الصباح، قاموا من نومهم وتوضئوا وصلوا فرضهم واصطبحوا، ولما طلع النهار وفتحت الدكاكين والأسواق، خرجوا من المنزل وتوجهوا إلى السوق وفتحوا الدكان، وكان الغلمان قد هيَّئُوها أحسن هيئة وفرشوها بالبسط الحرير، ووضعوا فيها مرتبتين، كل واحدة منهما تساوي مائة دينار، وجعلوا فوق كل مرتبة نطعًا ملوكيًّا دائره من الذهب؛ فجلس تاج الملوك على مرتبة، وجلس عزيز على الأخرى، وجلس الوزير في وسط الدكان، ووقف الغلمان بين أيديهم، وتسامعت بهم الناس، فازدحموا عليهم وباعوا بعض أقمشتهم، وشاع ذكر تاج الملوك في المدينة، واشتهر فيها خبر حُسْنه وجماله، ثم أقاموا على ذلك أيامًا، وفي كل يوم يهرع الناس إليهم، فأقبل الوزير على تاج الملوك وأوصاه بكتمان أمره، وأوصى عليه عزيزًا ومضى إلى الدار ليدبِّر أمرًا يعود نفعه عليهم، وصار تاج الملوك وعزيز يتحادثان، وصار تاج الملوك يقول عسى أن يجيء أحد من عند السيدة دنيا. وما زال تاج الملوك على ذلك أيامًا وليالي وهو لا ينام، وقد تمكَّنَ منه الغرام، وزاد به النحول والأسقام، حتى حُرِم لذيذ المنام، وامتنع من الشراب والطعام، وكان كالبدر في تمامه؛ فبينما تاج الملوك جالس، وإذا بعجوز أقبلت عليه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٣٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الوزير دندان قال لضوء المكان: فبينما تاج الملوك جالس، وإذا بعجوز أقبلت عليه وتقدمت إليه وخلفها جاريتان، وما زالت ماشية حتى وقفت على دكان تاج الملوك، فرأت قدَّه واعتدالَه وحُسْنَه وجماله، فتعجبت من ملاحته ورشحت في سراويلها، ثم قالت: سبحان مَن خلقك من ماء مهين، سبحان مَن جعلك فتنةً للعالمين، ولم تزل تتأمَّل فيه وتقول: ما هذا بشر، إن هذا إلا ملك كريم. ثم دنت منه وسلمت عليه، فردَّ عليها السلام، وقام لها واقفًا على الأقدام، وتبسَّمَ في وجهها؛ هذا كله بإشارة عزيز. ثم أجلسها إلى جانبه وصار يروح عليها إلى أن استراحت، ثم إن العجوز قالت لتاج الملوك: يا ولدي يا كامل الأوصاف والمعاني، هل أنت من هذه الديار؟ فقال تاج الملوك بكلام فصيح عذب مليح: والله يا سيدتي، عمري ما دخلت هذه الديار إلا هذه المرة، ولا أقامت فيها إلا على سبيل الفرجة. فقالت: لك الإكرام من قادم على الرحب والسعة، ما الذي جئتَ به معك من القماش؟ فأرني شيئًا مليحًا، فإن المليح لا يحمل إلا المليح.

فلما سمع تاج الملوك كلامها خفق فؤاده ولم يفهم معنى كلامها، فغمزه عزيز بالإشارة، فقال لها تاج الملوك: عندي كل ما تشتهين من الشيء الذي لا يصلح إلا للملوك وبنات الملوك، فلمَن تريدين حتى أقلِّب عليك ما يصلح لأربابه؟ وأراد بذلك الكلام أن يفهم معنى كلامها. فقالت له: أريدها قماشًا يصلح للسيدة دنيا بنت الملك شهرمان. فلما سمع تاج الملوك ذِكْر محبوبته، فرح فرحًا شديدًا وقال لعزيز: ائتني بأفخر ما عندك من البضاعة. فأتاه عزيز ببقجة وحلها بين يديه، فقال لها تاج الملوك: اختاري ما يصلح لها، فإن هذا شيء لا يوجد عند غيري. فاختارت العجوز شيئًا يساوي ألف دينار وقالت: بكم هذا؟ وصارت تحدِّثه وتحكُّ بين أفخاذها بكلوة يديها، فقال لها: وهل أساوم مثلك في هذا الشيء الحقير؟ الحمد لله الذي عرَّفني بك. فقالت له العجوز: أعوذ وجهَك المليح برب الفلق، إن وجهك مليح وفعلك مليح، هنيئًا لِمَن تنام في حضنك وتضم قوامك الرجيح،

وتحظى بوجهك الصبيح، وخصوصًا إذا كانت صاحبة حُسْن مثلك. فضحك تاج الملوك حتى استلقى على قفاه، ثم قال: يا قاضي الحاجات على أيدي العجائز الفاجرات. فقالت له: يا ولدي ما الاسم؟ قال: اسمي تاج الملوك. فقالت: إن هذا الاسم من أسماء الملوك، ولكنك في زيِّ التجار. فقال لها عزيز: من محبته عند أهله ومعزته عليهم سموه بهذا الاسم. فقالت العجوز: صدقتَ، كفاكم الله شر الحساد، ولو فتَّتَ بمحاسنكم الأكباد.

ثم أخذت القماش ومضت وهي باهتة في حُسْنه وجماله وقدِّه واعتداله، ولم تزل ماشية حتى دخلت على السيدة دنيا وقالت لها: يا سيدتي، جئتُ لك بقماش مليح. فقالت لها: أرني إياه. فقالت: يا سيدتي ها هو، فقلِّبيه وانظريه. فلما رأته السيدة دنيا قالت لها: يا دادتي، إن هذا قماش مليح ما رأيته في مدينتنا. فقالت العجوز: يا سيدتي، إن بائعه أحسن منه، كأنَّ رضوانًا فتح أبواب الجنان وسها فخرج منها التاجر الذي يبيع هذا القماش، وأنا أشتهي في هذه الليلة أن يكون عندك وينام بين نهودك؛ فإنه فتنة لَمن يراه، وقد جاء مدينتنا بهذه الأقمشة لأجل الفرجة. فضحكت السيدة دنيا من كلام العجوز وقالت: أخزاك الله يا عجوز النحس، إنك خرفت ولم يبقَ لك عقل. ثم قالت: هات القماش حتى أبصره بصرًا جيدًا. فناولتها إياه فنظرته ثانيًا فرأته شيئًا قليلًا وثمنه كثير، وتعجَّبَتْ من حُسْن ذلك القماش؛ لأنها ما رأت في عمرها مثله، فقالت لها العجوز: يا سيدتي، فلو رأيتِ صاحبَه لَعرفتِ أنه أحسن مَن يكون على وجه الأرض. فقالت لها السيدة دنيا: هل سألتِه إن كان له حاجة يُعلِمنا بها فنقضيها له؟ فقالت العجوز وقد هزَّتْ رأسها: حفظ الله فراستَكِ، والله إن له حاجة، وهل أحد يخلو من حاجة؟ فقالت لها السيدة دنيا: اذهبي إليه وسلِّمي عليه وقولي له: شرفَتْ بقدومك مدينتُنا، ومهما كان لك من الحوائج قضيناه لك على الرأس والعين. فرجعت العجوز إلى تاج الملوك في الوقت، فلما رآها طار قلبه من الفرح، ونهض لها قائمًا على قدميه، وأخذ يدها وأجلسها إلى جانبه؛ فلما جلست واستراحت، أخبرته بما قالته السيدة دنيا. فلما سمع ذلك فرح غاية الفرح، واتسع صدره وانشرح، وقال في نفسه: قد قضيت حاجتي. ثم قال للعجوز: لعلك توصلين إليها كتابًا من عندي وتأتيني بالجواب. فقالت: سمعًا وطاعة. فلما سمع ذلك منها قال لعزيز: ائتني بدواة وقرطاس، وقلم من نحاس. فلما أتاه بتلك الأدوات كتب هذه الأبيات:

كَتَبْتُ إِلَيْكَ يَا سُؤْلِي كِتَابًا بِمَا أَلْقَاهُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ
فَأَوَّلُ مَا أُسَطِّرُ نَارُ قَلْبِي وَثَانِيهِ غَرَامِي وَاشْتِيَاقِي

وَثَالِثُهُ مَضَى عُمْرِي وَصَبْرِي وَرَابِعُهُ جَمِيعُ الْوَجْدِ بَاقِ
وَخَامِسُهُ مَتَى عَيْنِي تَرَاكُمْ وَسَادِسُهُ مَتَى يَوْمُ التَّلَاقِي

ثم كتب في إمضائه: إن هذا الكتاب، من أسير الأشواق المسجون في سجن الاشتياق، الذي ليس له إطلاق إلا بالوصال ولو بطيف الخيال؛ لأنه يقاسي أليم العذاب من فرقة الأحباب. ثم أفاض دمع العين وكتب هذين البيتين:

كَتَبْتُ إِلَيْكَ وَالْعَبَرَاتُ تَجْرِي وَدَمْعُ الْعَيْنِ لَيْسَ لَهُ انْقِطَاعُ
وَلَسْتُ بِيَائِسٍ مِنْ فَضْلِ رَبِّي عَسَى يَوْمٌ يَكُونُ بِهِ اجْتِمَاعُ

ثم طوى الكتاب وختمه وأعطاه العجوز وقال: أوصليه إلى السيدة دنيا. فقالت: سمعًا وطاعة. ثم أعطاها ألف دينار وقال: اقبلي هذه مني هدية. فأخذتها وانصرفت داعية له، ولم تزل ماشية حتى دخلت على السيدة دنيا، فلما رأتها قالت لها: يا دادتي، أي شيء طلب من الحوائج حتى نقضيها له؟ فقالت لها: يا سيدتي، قد أرسل معي كتابًا ولا أعلم بما فيه. ثم ناولتها الكتاب، فأخذته وقرأته وفهمت معناه ثم قالت: من أين إلى أين حتى يراسلني هذا التاجر ويكاتبني؟ ثم لطمت وجهها وقالت: لولا خوفي من الله تعالى لصلبته على دكانه. فقالت العجوز: وأي شيء في هذا الكتاب حتى أزعج قلبك؟ هل فيه شكاية مظلمة، أو فيه طلب ثمن القماش؟ فقالت لها: ويلكِ، ما فيه ذلك، وما فيه إلا عشق ومحبة، وهذا كله منك، وإلا فمن أين يتوصَّل هذا الشيطان إلى هذا الكلام؟ فقالت لها العجوز: يا سيدتي، أنت قاعدة في قصرك العالي، وما يصل إليك أحد ولا الطير الطائر، سلامتك من اللوم والعتاب، وما عليك من نبيح الكلاب، فلا تؤاخذيني حيث أتيتُكِ بهذا الكتاب ولا أعلم ما فيه، ولكن الرأي أن تردي إليه جوابًا وتهدِّديه فيه بالقتل وتنهيه عن هذا الهزيان، فإنه ينتهي ولا يعود. فقالت السيدة دنيا: أخاف أن أكاتبه فيطمع. فقالت العجوز: إنه إذا سمع التهديد والوعيد رجع عمَّا هو فيه. فقالت: عليَّ بدواة وقرطاس، وقلم من نحاس. فلما أحضروا لها تلك الأدوات، كتبت هذه الأبيات:

يَا مُدَّعِي الْحُبَّ وَالْبَلْوَى مَعَ السَّهَرِ وَمَا يُلَاقِيهِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ فِكْرِ
أَتَطْلُبُ الْوَصْلَ يَا مَغْرُورُ مِنْ قَمَرٍ وَهَلْ يَنَالُ الْمُنَى شَخْصٌ مِنَ الْقَمَرِ

إِنِّي نَصَحْتُكَ عَمَّا أَنْتَ طَالِبُهُ فَاقْصِرْ فَإِنَّكَ فِي هَذَا عَلَى خَطَرِ
وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ فَقَدْ أَتَاكَ مِنِّي عَذَابٌ زَائِدُ الضَّرَرِ
وَحَقِّ مَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَمَنْ أَنَارَ ضِيَاءَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
لَئِنْ رَجَعْتَ إِلَى مَا أَنْتَ ذَاكِرُهُ لَأَصْلِبَنَّكَ فِي جِذْعٍ مِنَ الشَّجَرِ

ثم طوت الكتاب وأعطته للعجوز وقالت لها: أعطيه له وقولي له: كفَّ عن هذا الكلام. فقالت لها: سمعًا وطاعة. ثم أخذت الكتاب وهي فرحانة ومضت إلى منزلها وباتت في بيتها، فلما أصبح الصباح، توجهت إلى دكان تاج الملوك فوجدته في انتظارها، فلما رآها كاد أن يطير من الفرح، فلما قربت منه، نهض إليها قائمًا وأقعدها بجانبه، فأخرجت له الورقة وناولته إياها وقالت له: اقرأ ما فيها. ثم قالت له: إن السيدة دنيا لما قرأَتْ كتابك اغتاظت، ولكنني لاطفتها ومازحتها حتى أضحكتها ورقَّتْ لك وردَّتْ لك الجوابَ. فشكر تاج الملوك على ذلك وأمر عزيزًا أن يعطيها ألف دينار، ثم إنه قرأ الكتاب وفهمه وبكى بكاءً شديدًا، فرَقَّ له قلب العجوز وعظم عليها بكاؤه وشكواه، ثم قالت له: يا ولدي، وأي شيء في هذه الورقة حتى أبكاك؟ فقال لها: إنها تهدِّدني بالقتل والصلب وتنهاني عن مراسلتها، وإن لم أراسلها يكون موتي خيرًا من حياتي، فخذي جوابَ كتابها ودعيها تفعل ما تريد. فقالت له العجوز: وحياة شبابك، لا بد أني أخاطر معك بروحي وأبلغك مرادك وأوصلك إلى ما في خاطرك. فقال لها تاج الملوك: كل ما تفعلينه أجازيك عليه ويكون في ميزانك، فإنك خبيرة بالسياسة وعارفة بأبواب الدناسة، وكل عسير عليك يسير، والله على كل شيء قدير. ثم أخذ ورقة وكتب فيها هذه الأبيات:

أَمَسْتَ تُهَدِّدُنِي بِالْقَتْلِ وَا حَرَبِي وَالْقَتْلُ لِي رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ مَقْدُورُ
وَالْمَوْتُ أَغْنَى لِصَبٍّ أَنْ تَطُولَ بِهِ حَيَاتُهُ وَهْوَ مَمْنُوعٌ وَمَقْهُورُ
بِاللهِ زُورُوا مُحِبًّا قَلَّ نَاصِرُهُ فَإِنَّنِي عَبْدُكُمْ وَالْعَبْدُ مَأْسُورُ
يَا سَادَتِي فَارْحَمُونِي فِي مَحَبَّتِكُمْ فَكُلُّ مَنْ يَعْشَقِ الْأَحْرَارَ مَعْذُورُ

ثم إنه تنفَّسَ الصعداءَ وبكى حتى بكت العجوز، وبعد ذلك أخذت الورقة منه وقالت له: طِبْ نفسًا وقَرَّ عينًا، فلا بد أن أبلِّغَك مقصودَك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٣٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن تاج الملوك لما بكى قالت له العجوز: طِبْ نفسًا وقَرَّ عينًا، فلا بد أن أبلِّغَك مقصودَك. ثم قامت وتركته على النار وتوجَّهَتْ إلى السيدة دنيا، فرأتها متغيِّرة اللون من غيظها بمكتوب تاج الملوك، فناولتها الكتاب، فازدادت غيظًا وقالت للعجوز: أَمَا قلتُ لكِ إنه يطمع فينا؟ فقالت لها: وأيُّ شيء هذا الكلب حتى يطمع فيك؟ فقالت لها السيدة دنيا: اذهبي إليه وقولي له: إنْ راسَلْتَها بعد ذلك ضربَتْ عنقَك. فقالت لها العجوز: اكتبي له هذا الكلام في مكتوب، وأنا آخذ المكتوب معي لأجل أن يزداد خوفه. فأخذت ورقةً وكتبَتْ فيها هذا الأبيات:

أَيَا غَافِلًا عَنْ حَادِثَاتِ الطَّوَارِقِ　　وَلَيْسَ إِلَى نَيْلِ الْوِصَالِ بِسَابِقِ
أَتَزْعُمُ يَا مَغْرُورُ أَنْ تُدْرِكَ السُّهَا　　وَمَا أَنْتَ لِلْبَدْرِ الْمُنِيرِ بِلَاحِقِ
فَكَيْفَ تُؤَمِّلُنَا وَتَرْجُو وِصَالَنَا　　لِتَحْظَى بِضَمٍّ لِلْقُدُودِ الرَّوَاشِقِ
فَدَعْ عَنْكَ هَذَا الْقَصْدَ خِيفَةَ سَطْوَتِي　　بِيَوْمٍ عَبُوسٍ فِيهِ شَيْبُ الْمَفَارِقِ

ثم طوت الكتاب وناولته للعجوز، فأخذته وانطلقت به إلى تاج الملوك، فلما رآها قام على قدميه وقال: لا أعدمني الله بركةَ قدومك. فقالت له العجوز: خذ جواب مكتوبك. فأخذ الورقة وقرأها وبكى بكاءً شديدًا وقال: إني أشتهي مَن يقتلني الآن، فإن القتل أهون عليَّ من هذا الأمر الذي أنا فيه. ثم أخذ دواةً وقلمًا وقرطاسًا وكتب مكتوبًا، ورقم فيه هذين البيتين:

فَيَا مُنْيَتِي لَا تَتْبَعِي الْهَجْرَ وَالْجَفَا　　وَزُورِي مُحِبًّا فِي الْمَحَبَّةِ غَارِقُ
وَلَا تَحْسَبِينِي فِي الْحَيَاةِ مَعَ الْجَفَا　　فَرُوحِي مِنْ بَعْدِ الْأَحِبَّةِ طَالِقُ

ثم طوى الكتاب وأعطاه للعجوز وقال لها: قد أتعبتك بدون فائدة. وأمر عزيزًا أن يدفع لها ألف دينار وقال لها: يا أمي إن هذه الورقة لا بد أن يعقبها كمال الاتصال أو كمال الانفصال. فقالت له: يا ولدي، والله ما أشتهي لك إلا الخير، ومرادي أن تكون عندك، فإنك أنت القمر صاحب الأنوار الساطعة، وهي الشمس الطالعة، وإن لم أجمع بينكما فليس في حياتي فائدة، وأنا قد قطعت عمري في المكر والخداع حتى بلغت التسعين من الأعوام، فكيف أعجز عن الجمع بين اثنين في الحرام؟ ثم ودَّعَتْه وطيَّبَتْ قلبه وانصرفت.

ولم تزل تمشي حتى دخلت على السيدة دنيا وقد أخفت الورقة في شعرها، فلما جلست عندها حكَّتْ رأسَها وقالت: يا سيدتي، عساك أن تفلِّي شوشتي، فإن لي زمانًا ما دخلت الحمام. فكشفت السيدة دنيا عن مرفقَيْها، وحلَّتْ شعرَ العجوز وصارت تفلِّي شوشتها، فسقطت الورقة من رأسها، فرأتها السيدة دنيا فقالت: ما هذه الورقة؟ فقالت: كأني قعدت على دكان التاجر، فتعلَّقَتْ معي هذه الورقة، هاتيها حتى أوديها له. ففتحتها السيدة دنيا وقرأتها وفهمت ما فيها وقالت للعجوز: هذه حيلة منكِ، ولولا أنكِ ربيتِني لَبطشتُ بك في هذا الوقت، وقد بلاني الله بهذا التاجر، وكلُّ ما جرى لي منه تحت رأسك، وما أدري من أي أرض جاءنا هذا، ولم يقدر أحد من الناس أن يتجاسر عليَّ غيره، وأنا أخاف أن ينكشف أمري، وخصوصًا في رجل ما هو من جنسي ولا من أقراني. فأقبلت العجوز عليها وقالت: لا يقدر أحد أن يتكلَّمَ بهذا الكلام خوفًا من سطوتك وهيبة أبيك، ولا بأس أن تردي له الجواب. فقالت: يا دادتي، إن هذا شيطان، كيف تجاسَرَ على هذا الكلام ولم يَخَفْ من سطوة السلطان؟ وقد تحيَّرْتُ في أمره، فإن أمرتُ بقتله فليس بصواب، وإن تركته ازداد في تجاسُرِه. فقالت لها العجوز: اكتبي له كتابًا لعله ينزجر. فطلبت ورقةً ودواةً وقلمًا، وكتبت له هذه الأبيات:

طَالَ الْعِتَابُ وَفَرْطُ الْجَهْلِ أَغْرَاكَا ... فَكَمْ بِخَطٍّ يَدِي فِي الشِّعْرِ أَنْهَاكَا
وَأَنْتَ تَزْدَادُ عِنْدَ النَّهْيِ فِي طَمَعٍ ... وَلَسْتُ إِلَّا بِكَتْمِ السِّرِّ أَرْضَاكَا
اكْتُمْ هَوَاكَ وَلَا تَجْهَرْ بِهِ أَبَدًا ... وَإِنْ نَطَقْتَ فَإِنِّي لَسْتُ أَرْعَاكَا
وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى مَا أَنْتَ تَذْكُرُهُ ... فَقَدْ أَتَاكَ غُرَابُ الْبَيْنِ يَنْعَاكَا
وَعَنْ قَلِيلٍ يَكُونُ الْمَوْتُ مُنْدَفِعًا ... عَلَيْكَ وَالدَّفْنُ تَحْتَ الْأَرْضِ مَثْوَاكَا
وَتَتْرُكُ الْأَهْلَ يَا مَغْرُورُ فِي نَدَمٍ ... وَمِنْ سُيُوفِ الْهَوَى قَدْ شَطَّ مَنْجَاكَا

ثم طوت الورقة ودفعَتْها للعجوز، فأخذتها وتوجَّهت إلى تاج الملوك فأعطتها له، فلما قرأها علم أنها قاسية القلب، وأنه لا يصل إليها، فشكا أمره إلى الوزير وطلب منه حسن التدبير، فقال له الوزير: اعلم أنه ما بقي يفيد فيها غير أنك تكتب لها كتابًا وتدعو عليها فيه. فقال: يا أخي يا عزيز، أكتب لها عن لساني مثل ما تعرف. فأخذ عزيز ورقةً وكتب الأبيات:

يَا رَبُّ بِالْخَمْسَةِ الْأَشْيَاخِ تُنْقِذُنِي ... وَمَنْ بُلِيتُ بِهِ فَاجْعَلْهُ فِي شَجَنِي
فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فِي جَوَى لَهَبٍ ... وَقَدْ جَفَانِي حَبِيبٌ لَيْسَ يَرْحَمُنِي
فَكَمْ أَرِقُّ لَهَا فِيمَا بُلِيتُ بِهِ ... وَكَمْ تَجُوزُ عَلَى ضَعْفِي وَتَظْلِمُنِي
أَهِيمُ فِي غَمَرَاتٍ لَا انْقِضَاءَ لَهَا ... وَلَا أَرَى مُسْعِفًا يَا رَبُّ يُسْعِفُنِي
وَكَمْ أَرُومُ سُلُوًّا فِي مَحَبَّتِهَا ... وَكَيْفَ أَسْلُو وَصَبْرِي فِي الْغَرَامِ فَنِي
يَا مَانِعِي فِي الْهَوَى طِيبَ الْوِصَالِ فَهَلْ ... أَمِنْتَ مِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ وَالْمِحَنِ
أَلَسْتَ فِي عَيْشَةٍ مَسْرُورَةٍ وَأَنَا ... مُغَرَّبٌ فِيكَ عَنْ أَهْلِي وَعَنْ وَطَنِي

ثم إن عزيزًا طوى الكتابَ وناوله لتاج الملوك، فلما قرأه أعجبه، فختمه ثم ناوله للعجوز، فأخذته العجوز وتوجَّهَتْ به إلى أن دخلت على السيدة دنيا، فناولتها إياه، فلما قرأته وفهمت مضمونه، اغتاظت غيظًا شديدًا وقالت: كل الذي جرى لي من تحت رأس هذه العجوز النحس. فصاحت على الجواري والخدام وقالت: امسكوا هذه العجوز الماكرة واضربوها بنعالكم. فنزلوا عليها ضربًا بالنعال حتى غُشِي عليها، فلما أفاقت قالت لها: والله يا عجوز السوء، لولا خوفي من الله تعالى لقتلتُكِ. ثم قالت لهم: أعيدوا عليها الضرب. فضربوها حتى غُشِي عليها، ثم أمرتهم أن يجروها ويرموها خارج الباب، فسحبوها على وجهها ورموها قدام الباب، فلما أفاقت قامت تمشي وتقعد حتى وصلت إلى منزلها وصبرت إلى الصباح، ثم قامت وتمشَّتْ حتى أتت إلى تاج الملوك وأخبرته بجميع ما جرى لها، فصعب عليه ذلك وقال لها: يعزُّ علينا يا أمي ما جرى لك، ولكن كل شيء بقضاء وقدر. فقالت له: طِبْ نفسًا وقَرَّ عينًا، فإني لا أزال أسعى حتى أجمع بينك وبينها، وأوصلك إلى هذه العاهرة التي أحرقتني بالضرب. فقال لها تاج الملوك: أخبريني ما سبب بغضها للرجال. فقالت: لأنها رأت منامًا أوجَبَ ذلك. فقال لها: وما ذلك المنام؟ فقالت: إنها كانت نائمةً ذاتَ ليلةٍ، فرأت صيادًا نصب شَرَكًا في الأرض وبذَرَ حوله قمحًا، ثم جلس قريبًا منه، فلم يَبْقَ شيء من الطيور إلا وقد أتى إلى ذلك الشَّرَك، ورأت في الطيور حمامتين ذكرًا

وأنثى، فبينما هي تنظر إلى الشَّرَك، وإذا برِجْل الذكر تعلَّقَتْ في الشَّرَك وصار يختبط، فنفرت عنه جميع الطيور وفرَّتْ، فرجعت إليه امرأته وحامت عليه، ثم تقدَّمَتْ إلى الشَّرَك والصياد غافل، فصارت تنقر العين التي فيها رِجْل الذكر، وصارت تجذبه بمنقارها حتى خلصت رِجْله من الشَّرَك وطارت هي وإياه، فجاء بعد ذلك الصياد وأصلح الشَّرَك وقعد بعيدًا عنه، فلم يمضِ غير ساعة حتى نزلت الطيور وعلق الشَّرَك في الأنثى، فنفرت عنها جميعُ الطيور ومن جملتها الطير الذَّكَر، ولم يَعُدْ لأنثاه، فجاء الصياد وأخذ الطيرة الأنثى وذبحها، فانتبهت مرعوبةً من منامها وقالت: كلُّ ذَكَرٍ مثل هذا ما فيه خير، والرجال جميعهم ما عندهم خير للنساء.

فلما فرغت من حديثها لتاج الملوك قال لها: يا أمي، أريد أن أنظر إليها نظرةً واحدةً، ولو كان في ذلك مماتي، فتحيَّلِي لي بحيلة حتى أنظر إليها. فقالت: اعلم أن لها بستانًا تحت قصرها وهو برسم فرجتها، وإنها تخرج إليه في كل شهر مرة من باب السر وتقعد فيه عشرة أيام، وقد جاء أوانُ خروجها إلى الفرجة، فإذا أرادتَ الخروجَ أجيء إليك وأُعلِمك حتى تخرج وتصادفها، واحرص على أنك لا تفارِق البستانَ، فلعلها إذا رأت حُسْنَك وجمالك يتعلق قلبها بمحبتك، فإن المحبة أعظم أسباب الاجتماع. فقال: سمعًا وطاعة. ثم قام من الدكان هو وعزيز وأخذَا معهما العجوز ومضيَا إلى منزلهما وعرَّفاه لها، ثم إن تاج الملوك قال لعزيز: يا أخي ليس لي حاجة بالدكان، وقد قضيتُ حاجتي منها ووهبتُها لك بجميع ما فيها؛ لأنك تغرَّبْتَ معي وفارقتَ بلادك. فقَبِلَ عزيز منه ذلك ثم جلسَا يتحدثان، وصار تاج الملوك يسأله عن غريب أحواله وما جرى له، وصار هو يخبره بما حصل له، وبعد ذلك أقبلَا على الوزير وأعلماه بما عزم عليه تاج الملوك وقالَا له: كيف العمل؟ فقال: قوموا بنا إلى البستان. فلبس كلُّ واحدٍ منهم أفخرَ ما عنده وخرجوا وخلفهم ثلاثة مماليك، وتوجَّهوا إلى البستان، فرأوه كثيرَ الأشجار غزيرَ الأنهار، ورأوا الخولي جالسًا على الباب فسلَّموا عليه، فردَّ عليهم السلام. فناوله الوزير مائة دينار وقال: أشتهي أن تأخذ هذه النفقة وتشتري لنا شيئًا نأكله، فإننا غرباء ومعي هؤلاء الأولاد، وأردتُ أن أفرجهم. فأخذ البستاني الدنانيرَ وقال لهم: ادخلوا وتفرَّجوا وجميعه ملككم، واجلسوا حتى أحضر لكم بما تأكلون. ثم توجَّه إلى السوق، ودخل الوزير وتاج الملوك وعزيز داخل البستان بعد أن ذهب البستاني إلى السوق، ثم بعد ساعة أتى ومعه خروف مشوي ووضعه بين أيديهم، فأكلوا وغسلوا أيديهم وجلسوا يتحدثون، فقال الوزير: أخبرني عن هذا البستان، هل هو لك أم أنت مستأجره؟ فقال الشيخ: ما هو لي وإنما هو لبنت الملك السيدة دنيا.

فقال الوزير: كم لك في كل شهر من الأجرة؟ فقال: دينار واحد لا غير. فتأمَّلَ الوزير في البستان فرأى هناك قصرًا عاليًا، إلا أنه عتيق، فقال الوزير: يا شيخ، أريد أن أعمل هنا خيرًا تذكرني به. فقال: وما تريد أن تفعل من الخير؟ فقال: خذ هذه الثلاثمائة دينار. فلما سمع الخولي بذكر الذهب قال: يا سيدي، مهما شئتَ فافعل. ثم أخذ الدنانير، فقال له: إن شاء الله تعالى نفعل في هذا المحل خيرًا.

ثم خرجوا من عنده وتوجَّهوا إلى منزلهم، وباتوا تلك الليلة. فلما كان من الغد أحضر الوزير مبيضًا ونقاشًا وصائغًا جيدًا، وأحضر لهم جميعَ ما يحتاجون إليه من الآلات، ودخل بهم البستان وأمرهم ببياض ذلك القصر وزخرفته بأنواع النقش، ثم أمر بإحضار الذهب واللازورد وقال للنقاش: اعمل في صدر هذا الإيوان صورة آدمي صياد كأنه نصب شَرَكَه وقد وقعَتْ فيه حمامة واشتبكت بمنقارها في الشَّرَك. فلما نقش النقاش جانبًا وفرغ من نقشه، قال له الوزير: افعل في الجانب الآخَر مثل الأول وصوِّر صورةَ الحمامة في الشَّرَك، وأن الصياد أخذها ووضع السكينَ على رقبتها، واعمل في الجانب الآخَر صورة جارح كبير قد قنص ذَكَرَ الحمام وأنشب فيه مخالبه. ففعل ذلك، فلما فرغ من هذه الأشياء التي ذكرها الوزير، ودَّعوا البستاني، ثم توجَّهوا إلى منزلهم وجلسوا يتحدَّثون، فقال تاج الملوك لعزيز: يا أخي أنشدني بعض الأشعار لعل صدري ينشرح وتزول عني هذه الأفكار، أو يبرد ما بقلبي من لهيب النار. فعند ذلك أطرب عزيز بالنغمات، وأنشد هذه الأبيات:

جَمِيعُ مَا قَالَتِ الْعُشَّاقُ مِنْ كَمَدٍ ... حَوَيْتُهُ مُفْرَدًا حَتَّى وَهَى جَلَدِي
وَإِنْ تَرِدْ مَوْرِدًا مِنْ أَدْمُعِي اتَّسَعَتْ ... لِلْوَارِدِينَ بِحَارُ الدَّمْعِ فِي مَدَدِ
أَنْ يَرَى الْعُشَّاقُ مَا صَنَعَتْ ... أَيْدِي الْغَرَامِ بِهِمْ فَانْظُرْ إِلَى جَسَدِي

ثم أفاض العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

مَنْ كَانَ لَا يَعْشَقُ الْأَجْيَادَ وَالْحَدَقَ ... ثُمَّ ادَّعَى لَذَّةَ الدُّنْيَا فَمَا صَدَقَا
فَإِنَّ فِي الْعِشْقِ مَعْنًى لَيْسَ يُدْرِكُهُ ... مِنَ الْبَرِيَّةِ إِلَّا كُلُّ مَنْ عَشِقَا
لَا خَفَّفَ اللهُ عَنْ قَلْبِي صَبَابَتَهُ ... بِمَنْ هَوَيْتُ وَلَا عَنْ جَفْنِيَ الْأَرَقَا

ثم أطرب بالنغمات، وأنشد هذه الأبيات:

زَعَمَ ابْنُ سِينَا فِي أُصُولِ كَلَامِهِ … أَنَّ الْـمُـحِـبَّ دَوَاؤُهُ الْأَلْـحَـانُ
وَوِصَالُ مِثْلِ حَبِيبِهِ مِنْ جِنْسِهِ … وَالنُّقْلُ وَالْمَشْرُوبُ وَالْبُسْتَانُ
فَصَحِبْتُ غَيْرَكَ لِلتَّدَاوِي مَرَّةً … وَأَعَانَنِي الْمَقْدُورُ وَالْإِمْكَانُ
فَعَلِمْتُ أَنَّ الْحُبَّ دَاءٌ قَاتِلٌ … فِيهِ ابْنُ سِينَا طِبُّهُ هَذَيَانُ

فلما فرغ عزيز من شعره، تعجَّبَ تاج الملوك من فصاحته وحُسْن روايته، وقال له: قد أزلتَ عني بعضَ ما بي. ثم قال له: إنْ كان يحضرك شيء من جنس هذا، فأَسمِعْني ما حضرك من الشعر الرقيق وطول الحديث. فأطرب بالنغمات وأنشد هذه الأبيات:

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ وَصْلَكَ يُشْتَرَى … بِكَرَائِمِ الْأَمْوَالِ وَالْأَشْبَاحِ
وَظَنَنْتُ جَهْلًا أَنَّ حُبَّكَ هَيِّنٌ … تَفْنَى عَلَيْهِ نَفَائِسُ الْأَرْوَاحِ
حَتَّى رَأَيْتُكَ تَجْتَبِي وَتَخُصُّ مَنْ … أَحْبَبْتُهُ بِلَطَائِفِ الْإِمْنَاحِ
فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَا تُنَالُ بِحِيلَةٍ … وَلَوَيْتُ رَأْسِي تَحْتَ طَيِّ جَنَاحِي
وَجَعَلْتُ فِي عُشِّ الْغَرَامِ إِقَامَتِي … فِيهِ غُدُوِّي دَائِمًا وَرَوَاحِي

هذا ما كان أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر العجوز، فإنها انقطعت في بيتها، واشتاقت بنت الملك إلى الفرجة في البستان وهي لا تخرج إلا بالعجوز، فأرسلت إليها وصالحتها وطيَّبَتْ خاطرها وقالت: إني أريد أن أخرج إلى البستان لأتفرج على أشجاره وأثماره، وينشرح صدري بأزهاره. فقالت لها العجوز: سمعًا وطاعة، ولكن أريد أن أذهب إلى بيتي وألبس أثوابي وأحضر عندك. فقالت لها: اذهبي إلى بيتك ولا تتأخري عني. فخرجت العجوز من عندها وتوجَّهَتْ إلى تاج الملوك وقالت له: تجهَّزْ والبس أفخرَ أثوابك واذهب إلى البستان، وادخل على البستاني وسلِّم عليه ثم اختفِ في البستان. فقال: سمعًا وطاعة. وجعلت بينها وبينه إشارة، ثم توجَّهَتْ إلى السيدة دنيا، وبعد ذهابها قام الوزير وعزيز والبسَا تاجَ الملوك بدلةً من أفخر ملابس الملوك تساوي خمسة آلاف دينار، وشدَّا في وسطه حياصة من الذهب مرصَّعة بالجواهر والمعادن، ثم توجَّهوا إلى البستان. فلما وصلوا إلى باب البستان وجدوا الخولي جالسًا هناك، فلما رآه البستاني نهض له على الأقدام وقابله بالتعظيم والإكرام، وفتح له الباب وقال له: ادخل وتفرج في البستان. ولم

يعلم البستاني أن بنت الملك تدخل البستان في هذا اليوم. فلما دخل تاج الملوك لم يلبث إلا مقدار ساعة وسمع ضجة، فلم يشعر إلا والخدم والجواري خرجوا من باب السر، فلما رآهم الخولي ذهب إلى تاج الملوك وأعلَمَه بمجيئها وقال له: يا مولاي، كيف يكون العمل وقد أتَتِ ابنة الملك السيدة دنيا؟ فقال: لا بأس عليك، فإني أختفي في بعض مواضع البستان. فأوصاه البستاني بغاية الاختفاء ثم تركه وراح.

فلما دخلت بنت الملك هي وجواريها والعجوز في البستان، قالت العجوز في نفسها: متى كان الخدم معنا فإننا لا ننال مقصودنا. ثم قالت لابنة الملك: يا سيدتي، إني أقول لك على شيء فيه راحة لقلبك. فقالت السيدة دنيا: قولي ما عندك. فقالت العجوز: يا سيدتي، إن هؤلاء الخدم لا حاجةَ لك بهم في هذا الوقت، ولا ينشرح صدرك ما داموا معنا، فاصرفيهم عنَّا. فقالت السيدة دنيا: صدقتِ. ثم صرفتهم، وبعد قليل تمشَّتْ فصار تاج الملوك ينظر إليها وإلى حُسْنها، وصارت العجوز تسارقها في الحديث إلى أن أوصلَتْها إلى القصر الذي أمر الوزير بنقشه، ثم دخلت ذلك القصر وتفرَّجَتْ على نقشه، وأبصرَتِ الطيورَ والصياد والحمام. فقالت: سبحان الله، إن هذه صفة ما رأيتُه في المنام. وصارت تنظر إلى صور الطيور والصياد والشَّرَك وتتعجَّب، ثم قالت: يا دادتي، إني كنتُ ألوم الرجال وأبغضهم، لكن انظري الصياد كيف ذبح الطيرة الأنثى، وتخلَّصَ الذكرُ وأراد أن يجيء إلى الأنثى ويخلِّصها فقابله الجارح وافترسه! وصارت العجوز تتجاهل عليها وتشاغلها بالحديث إلى أن قربَا من المكان المختفي فيه تاج الملوك، فأشارت إليه العجوز أن يتمشى تحت شبابيك القصر؛ فبينما السيدة دنيا كذلك، إذ لاحت منها التفاتة فرأته وتأمَّلَتْ جمالَه وقدَّه واعتداله، ثم قالت: يا دادتي، من أين هذا الشاب المليح؟ فقالت: لا أعلم به، غير أني أظنُّ أنه ولد ملك عظيم، فإنه بلغ من الحُسْن النهايةَ، ومن الجمال الغاية. فهامت به السيدة دنيا وانحلَّتْ عُرَى عزائمها، وانبهَرَ عقلها من حُسْنه وجماله وقدِّه واعتداله، وتحركت عليها الشهوة. فقالت للعجوز: يا دادتي، إن هذا الشاب مليح. فقالت لها العجوز: صدقتِ يا سيدتي. ثم إن العجوز أشارت إلى ابن الملك أن يذهب إلى بيته، وقد التهبت به نارُ الغرام، وزاد به الوَجْدُ والهيام، فسار وودَّعَ الخولي وانصرف إلى منزله، إلا أنه لم يخالف العجوز، وأخبر الوزير وعزيزًا بأن العجوز أشارت إليه بالانصراف، فصارَا يصبِّرانه ويقولان له: لولا أن العجوز تعلم أن في رجوعك مصلحة، ما أشارت عليك به.

هذا ما كان من أمر تاج الملوك والوزير وعزيز، وأما ما كان من أمر بنت الملك السيدة دنيا، فإنها غلب عليها الغرام، وزاد بها الوَجْدُ والهيام، وقالت للعجوز: أنا ما أعرف

اجتماعي بهذا الشاب إلا منك. فقالت لها العجوز: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أنتِ لا تريدين الرجال، وكيف حلَّتْ بك من عشْقِه الأوجال؟ ولكن والله ما يصلح لشبابك إلا هو. فقالت السيدة دنيا: يا دادتي، أسعفيني باجتماعي به ولكِ عندي ألف دينار، وخلعة بألف دينار، وإنْ لم تسعفيني بوصاله فإني ميتة لا محالة. فقالت العجوز: امضِ أنتِ إلى قصرك وأنا أتسبَّبُ في اجتماعكما، وأبذل روحي في مرضاتكما. ثم إن السيدة دنيا توجَّهَتْ إلى قصرها وتوجَّهَتِ العجوز إلى تاج الملوك. فلما رآها، نهض لها على الأقدام، وقابلها بإعزاز وإكرام، وأجلسها إلى جانبه. فقالت له: إن الحيلة قد تمَّتْ. وحكت له ما جرى لها مع السيدة، فقال لها: متى يكون الاجتماع؟ قالت: في غد. فأعطاها ألف دينار وحلة بألف دينار، فأخذتهما وانصرفت، وما زالت سائرة حتى دخلت على السيدة دنيا، فقالت لها: يا دادتي، ما عندك من خبر الحبيب؟ فقالت لها: قد عرفت مكانه، وفي غدٍ أكون به عندك. ففرحت السيدة دنيا بذلك وأعطتها ألف دينار وحلة بألف دينار. فأخذتها وانصرفت إلى منزلها وباتت فيه إلى الصباح، ثم خرجت وتوجَّهَتْ إلى تاج الملوك وألبسَتْه لبسَ النساء، وقالت له: امشِ خلفي وتمايَلَ في خطواتك ولا تستعجل في مشيك، ولا تلتفت إلى مَن يكلِّمك.

وبعد أن أوصت تاج الملوك بهذه الوصية، خرجت وخرج خلفها وهو في زيِّ النسوان، وصارت تعلِّمه في الطريق حتى لا يفزع، ولم تزل ماشية وهو خلفها حتى وصلَا إلى باب القصر، فدخلت وهو وراءها وصارت تخترق الأبواب والدهاليز إلى أن جاوزت به سبعة أبواب، ولما وصلت إلى الباب السابع، قالت لتاج الملوك: قوِّ قلبك، وإذا زعقتُ عليك وقلتُ لك: يا جارية اعبري، فلا تتوانَ في مشيك وهروِلْ، فإذا دخلتَ الدهليز، فانظر إلى شمالك ترى إيوانًا فيه أبواب، فعدَّ خمسةَ أبواب وادخل الباب السادس، فإن مرادك فيه. فقال تاج الملوك: وأين تروحين أنتِ؟ فقالت له: ما أروح موضعًا، غير أني ربما أتأخَّر عنك وأتحدَّث مع الخادم الكبير. ثم مشت وهو خلفها حتى وصلت إلى الباب الذي فيه الخادم الكبير، فرأى معها تاج الملوك في صورة جارية، فقال لها: ما شأن هذه الجارية التي معكِ؟ فقالت له: هذه جارية قد سمعَتِ السيدة دنيا بأنها تعرف الأشغال وتريد أن تشتريها، فقال لها الخادم: أنا لا أعرف جارية ولا غيرها، ولا يدخل أحد حتى أفتِّشه كما أمرني الملك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٣٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنا الحاجب قال للعجوز: أنا لا أعرف جارية ولا غيرها، ولا يدخل أحدٌ حتى أفتِّشَه كما أمرني الملك. فقالت له العجوز وقد أظهرت الغضب: أنا أعرف أنك عاقل ومؤدب، فإن كان حالك قد تغيَّرَ فإني أُعلِمها بذلك وأخبرها أنك تعرَّضْتَ لجاريتها. ثم زعقت على تاج الملوك وقالت له: اعبري يا جارية. فعند ذلك عبر إلى داخل الدهليز كما أمرته، وسكت الخادم ولم يتكلم، ثم إن تاج الملوك عدَّ خمسة أبواب ودخل الباب السادس، فوجد السيدة دنيا واقفةً في انتظاره، فلما رأته عرفته، فضَمَّتْه إلى صدرها وضمَّها إلى صدره، ثم دخلت العجوز عليهما وتحيَّلَتْ على صرف الجواري، ثم قالت السيدة دنيا للعجوز: كوني أنتِ بوَّابةً. ثم اختلت هي وتاج الملوك، ولم يزالَا في ضمٍّ وعناقٍ والتفاف ساق على ساق إلى وقت السَّحَر. ولما أصبح الصباح، أغلقَتْ عليهما الباب ودخلت مقصورةً أخرى وجلست على جري عادتها وأتَتْ إليها الجواري، فقضَتْ حوائجهن وصارت تحدِّثهن، ثم قالت للجواري: اخرجْنَ الآنَ من عندي، فإني أريد أن أنشرح وحدي. فخرج الجواري من عندها، ثم إنها أتت إليهما ومعها شيء من الأكل، فأكلَا وأخذَا في الهراش إلى وقت السَّحَر، فأغلقت عليهما الباب مثل اليوم الأول، ولم يزالَا على ذلك مدة شهر كامل.

هذا ما كان من أمر تاج الملوك والسيدة دنيا، وأما ما كان من أمر الوزير وعزيز، فإنهما لما توجَّهَ تاج الملوك إلى قصر بنت الملك ومكث تلك المدة، علمَا أنه لا يخرج منه أبدًا وأنه هالك لا محالة. فقال عزيز للوزير: يا والدي ماذا تصنع؟ فقال الوزير: يا ولدي، إن هذا الأمر مشكل، وإن لم نرجع إلى أبيه ونُعلِمه، فإنه يلومنا على ذلك. ثم تجهَّزَا في الوقت والساعة وتوجَّهَا إلى الأرض الخضراء والعمودين وتخت الملك سليمان شاه، وسارَا يقطعان الأودية في الليل والنهار إلى أن دخلَا على الملك سليمان شاه وأخبراه بما جرى

لولده، وأنه من حين دخل قصر بنت الملك لم يعلمَا له خبرًا؛ فعند ذلك قامت عليه القيامة، واشتدت به الندامة، وأمر أن ينادي في مملكته بالجهاد، ثم برز العساكر إلى خارج مدينته ونصب لهم الخيام، وجلس في سرادقه حتى اجتمعت الجيوش من سائر الأقطار، وكانت رعيته تحبه لكثرة عدله وإحسانه، ثم سار في عسكر سدَّ الأفقَ، متوجِّهًا في طلب ولده تاج الملوك.

هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر تاج الملوك والسيدة دنيا، فإنهما أقامَا على حالهما نصف سنة وهما كل يوم يزدادان محبةً في بعضهما، وزاد على تاج الملوك العشق والهيام، والوَجْد والغرام، حتى أفصح لها عن الضمير وقال لها: اعلمي يا حبيبة القلب والفؤاد، أني كلما أقمتُ عندك ازددتُ هيامًا ووَجْدًا وغرامًا؛ لأني ما بلغت المرام بالكلية. فقالت له: وما تريد يا نور عيني وثمرة فؤادي؟ إن شئتَ غير الضمِّ والعناقِ والتفاف الساق على الساق، فافعل الذي يرضيك وليس لله فينا شريك. فقال: ليس مرادي هكذا، وإنما مرادي أن أخبرك بحقيقتي، فاعلمي أني لستُ بتاجر، بل أنا ملك ابن ملك، واسم أبي الملك الأعظم سليمان شاه الذي أنفذ الوزير رسولًا إلى أبيك ليخطبك لي؛ فلما بلغكِ الخبر، ما رضيتِ — ثم إنه قصَّ عليها قصته من الأول إلى الآخِر، وليس في الإعادة إفادة — وأريد الآن أن أتوجَّه إلى أبي ليرسل رسولًا إلى أبيك ويخطبك منه ونستريح.

فلما سمعَتْ ذلك الكلام فرحت فرحًا شديدًا؛ لأنه وافَقَ غرضها، ثم باتَا على هذا الاتفاق، واتفق بالأمر المقدور أن النوم غلب عليهما في تلك الليلة من دون الليالي، واستمرَّا إلى أن طلعت الشمس، وفي ذلك الوقت كان الملك شهرمان جالسًا في دست مملكته وبين يديه أمراء دولته، إذ دخل عليه عريف الصياغ وبيده حق كبير، فتقدَّمَ وفتحه بين يدي الملك وأخرج منه علبة لطيفة تساوي مائة ألف دينار، لما فيه من الجواهر واليواقيت والزمرد، مما لا يقدر عليه أحد من ملوك الأقطار؛ فلما رآها الملك تعجَّبَ من حُسْنها، والتفت إلى الخادم الكبير الذي جرى له مع العجوز ما جرى، وقال له: يا كافور، خذ هذه العلبة وامضِ بها إلى السيدة دنيا. فأخذها الخادم ومضى حتى وصل إلى مقصورة بنت الملك، فوجد بابها مغلقًا والعجوز نائمة على عتبته، فقال الخادم: إلى هذه الساعة وأنتم نائمون؟ فلما سمعت العجوز كلامَ الخادم، انتبهَتْ من منامها وخافت منه وقالت: اصبر حتى آتيك بالمفتاح. ثم خرجت على وجهها هاربةً.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر الخادم، فإنه عرف أنها مرتابة، فخلع الباب ودخل المقصورة، فوجد السيدة دنيا معانقة لتاج الملوك وهما نائمان، فلما رأى ذلك تحيَّرَ في أمره وهَمَّ أن يعود إلى الملك، فانتبهَتِ السيدة دنيا فوجدَتْه، فتغيَّرَتْ واصفرَّ

لونها وقالت له: يا كافور، استر ما ستر الله. فقال: أنا لا أقدر أن أخفي شيئًا عن الملك. ثم قفل الباب ورجع إلى الملك، فقال له الملك: هل أعطيتَ العلبةَ لسيدتك؟ فقال له الخادم: خُذِ العلبة ها هي، وأنا لا أقدر أن أخفي عنك شيئًا، اعلم أني رأيت عند السيدة دنيا شابًّا جميلًا نائمًا معها في فراش واحد وهما متعانقان. فأمر الملك بإحضارهما، فلما حضرَا بين يديه قال لهما: ما هذه الفعال؟ واشتدَّ به الغيظ، فأخذ نمشة وهمَّ أن يضرب تاج الملوك، فرمت السيدة دنيا وجهها عليه وقالت لأبيها: اقتلني قبله. فنهرها الملك، وأمرهم أن يمضوا بها إلى حجرتها، ثم التفت إلى تاج الملوك وقال له: ويلك، من أين أنت؟ ومَن أبوك؟ وما جسرك على ابنتي؟ فقال تاج الملوك: اعلم أيها الملك أنك إنْ قتلتني هلكتَ وندمتَ أنت ومَن في مملكتك. فقال له الملك: ولِمَ ذلك؟ فقال: اعلم أني ابن الملك سليمان شاه، وما تدري إلا وقد أقبَلَ عليك بخيله ورجله. فلما سمع الملك شهرمان ذلك الكلام، أراد أن يؤخر قتله ويضعه في السجن حتى ينظر صحة قوله، فقال له وزيره: يا ملك الزمان، الرأي عندي أن تعجِّل قتل هذا العلق، فإنه تجاسر على بنات الملوك. فقال للسياف: اضرب عنقه فإنه خائن. فأخذه السياف وشدَّ وثاقه ورفع يده، وشاوَرَ الأمراء أولًا وثانيًا، وقصد بذلك أن يكون في الأمر توانٍ، فزعق عليه الملك وقال له: إلى متى تشاور؟ إنْ شاورتَ مرةً أخرى ضربتُ عنقك. فرفع السياف يده حتى بان شعر إبطه، وأراد أن يضرب عنقه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فقال كانت الليلة ١٣٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السياف رفع يده حتى بان شعر إبطه، وأراد أن يضرب عنقه، وإذا بزعقات عالية والناس أغلقوا الدكاكين، فقال الملك للسياف: لا تعجِّلْ. ثم أرسَلَ مَن يكشف له الخبر، فمضى الرسول ثم عاد إليه وقال له: رأيت عسكرًا كالبحر العجاج المتلاطم بالأمواج، وخيلهم في ركض وقد ارتجَّتْ لهم الأرض، وما أدري خبرهم. فاندهش الملك وخاف على ملكه أن يُنزَع منه، ثم التفت إلى وزيره وقال له: أَمَا خرج أحد من عسكرنا إلى هذا العسكر؟ فما تمَّ كلامه إلا وحجَّابه قد دخلوا عليه ومعهم رسل الملك القادم ومن جملتهم الوزير، فابتدأه بالسلام، فنهض لهم قائمًا وقرَّبهم وسألهم عن شأن قدومهم، فنهض الوزير من بينهم وتقدَّمَ إليه وقال له: اعلم أن الذي نزل بأرضك ملك ليس كالملوك المتقدمين، ولا مثل السلاطين السالفين. فقال له الملك: ومَن هو؟ قال الوزير: هو صاحب العدل والأمان، الذي شاعت بعلوِّ همته الركبان، السلطان سليمان شاه وصاحب الأرض الخضراء والعمودين وجبان أصفهان، وهو يحب العدل والإنصاف، ويكره الجور والاعتساف، ويقول لك إن ابنه عندك وفي مدينتك، وهو حشاشة قلبه وثمرة فؤاده، فإن وجده سالمًا فهو المقصود وأنت المشكور المحمود، وإن كان فُقِدَ من بلادك وأصابه شيء، فأبشِرْ بالدمار وخراب الديار؛ لأنه يصيِّر بلدك قفراءَ ينعق فيها الغراب، وها أنا قد بلغتك الرسالة والسلام.

فلما سمع الملك شهرمان ذلك الكلام من الرسول، انزعج فؤاده وخاف على مملكته، وزعق على أرباب دولته ووزرائه وحجَّابه ونوَّابه، فلما حضروا قال لهم: ويلكم، انزلوا وفتِّشوا على ذلك الغلام. وكان تحت يد السياف وقد تغيَّرَ من كثرة ما حصل له من الفزع، ثم إن الرسول لاحت منه التفاتة، فوجد ابن ملكه على نطع الدم، فعرفه وقام

ورمى روحه عليه، وكذلك بقية الرسل، ثم تقدَّموا وحلُّوا وثاقه، وقبَّلوا يدَيْه ورجلَيْه؛ ففتح تاج الملوك عينه، فعرف وزير والده وعرف صاحبه عزيزًا، فوقع مغشيًّا عليه من شدة فرحته بهما. ثم إن الملك شهرمان صار متحيِّرًا في أمره، وخاف خوفًا شديدًا لما تحقَّقَ أن مجيء هذا العسكر بسبب هذا الغلام، فقام وتمشَّى إلى تاج الملوك وقبَّلَ رأسه ودمعت عيناه، وقال له: يا ولدي، لا تؤاخذني ولا تؤاخذ المسيء بفعله، فارحم شيبتي ولا تخرب مملكتي. فدنا منه تاج الملوك وقبَّلَ يده وقال: لا بأس عليك وأنت عندي بمنزلة والدي، ولكن الحذر أن يصيب محبوبتي السيدة دنيا شيء. فقال: يا سيدي، لا تَخَفْ عليها، فما يحصل لها إلا السرور. وصار الملك يعتذر إليه ويطيِّب خاطر وزير الملك سليمان شاه، ووعده بالمال الجزيل على أن يُخفِي من الملك ما رآه. بعد ذلك أمر كبراء دولته أن يأخذوا تاج الملوك ويذهبوا به إلى الحمام، ويُلبِسوه بدلةً من خيار ملابس الملوك ويأتوا به بسرعة، ففعلوا ذلك، وأدخلوه الحمَّام وألبسوه البدلة التي أفردها له الملك شهرمان، ثم أتوا به إلى المجلس، فلما دخل على الملك شهرمان، وقف له هو وجميع أرباب دولته، وقام الجميع في خدمته، ثم إن تاج الملوك جلس يحدث وزير والده وعزيزًا بما وقع له، فقال له الوزير وعزيز: ونحن في تلك المدة مضينا إلى والدك فأخبرناه بأنك دخلتَ سراية بنت الملك ولم تخرج، والتبس علينا أمرك، فحين سمع بذلك، جهَّزَ العساكر ثم قَدِمنا هذه الديار، وكان في قدومنا الفرج والسرور. فقال لهما: ما زال الخير يجري على أيديكما أولًا وآخرًا.

وكان الملك في ذلك الوقت قد دخل على ابنته السيدة دنيا، فوجدها تبكي على تاج الملوك، وأخذت سيفًا وركزت قبضته إلى الأرض، وجعلت ذبابته على رأس قلبها بين نهديها، وانحنت على السيف وصارت تقول: لا بد أن أقتل نفسي ولا أعيش بعد حبيبي. فلما دخل عليها أبوها ورآها في هذه الحالة، صاح عليها وقال لها: يا سيدة بنات الملوك، لا تفعلي وراحمي أباكِ وأهل بلدك. ثم تقدَّمَ إليها وقال لها: أحاشيك أن يصيب والدك بسببك سوء. ثم أعلمها بالقصة، وأن محبوبها ابن الملك سليمان شاه يريد الزواج بها، وقال لها: إن أمر الخطبة والزواج مفوَّض إلى رأيك. فتبسَّمَتْ وقالت له: أَمَا قلتُ لكَ إنه ابن سلطان؟ فأنا أخليه يصلبك على خشبة تساوي درهمين. فقال لها: بالله عليك أن ترحمي أباكِ. فقالت له: رُحْ إليه وائتني به. فقال لها: على الرأس والعين. ثم رجع من عندها سريعًا ودخل على تاج الملوك وسارره بهذا الكلام، ثم قام معه وتوجَّهَ إليها، فلما رأت تاج الملوك، عانقَتْه قدام أبيها وتعلقت به وقالت له: أوحشتني. ثم التفتت إلى أبيها وقالت: هل أحد يفرط في هذا الشاب المليح وهو ملك ابن ملك؟ فعند ذلك خرج الملك

شهرمان وردَّ الباب عليهما، ومضى إلى وزير أبي تاج الملوك ورسله، وأمرهم أن يُعلِموا السلطان سليمان شاه بأن ولده بخير وعافية، وهو في ألذ عيش.

ثم إن السلطان شهرمان أمر بإخراج الضيافات والعلوفات إلى عساكر السلطان سليمان شاه والد تاج الملوك، فلما أخرجوا جميع ما أمر به، أخرج مائة جواد من الخيل ومائة هجين ومائة مملوك ومائة سرية ومائة عبد ومائة جارية، وأرسل الجميع إليه هدية، ثم بعد ذلك توجَّهَ إليه هو وأرباب دولته وخواصه حتى صاروا في ظاهر المدينة، فلما علم بذلك السلطان سليمان شاه تمشَّى خطوات إلى لقائه، وكان الوزير وعزيز أعلَمَاه بالخبر، ففرح وقال: الحمد لله الذي بلغ ولدي مناه. ثم إن الملك سليمان شاه أخذ الملك شهرمان بالحضن وأجلسه بجانبه على السرير، وصار يتحدَّث هو وإياه، ثم قدموا لهم الطعام، فأكلوا حتى اكتفوا، ثم قدَّموا لهم الحلويات، ولم يمضِ إلا قليل حتى جاء تاج الملوك وقدم عليه بلباسه وزينته، فلما رآه والده قام له وقبَّله، وقام له جميع مَن حضر وجلس بينهم يتحدثون، فقال الملك سليمان شاه: إني أريد أن أكتب كتاب ولدي على ابنتك على رءوس الأشهاد. فقال له: سمعًا وطاعة. ثم أرسل الملك شهرمان إلى القاضي والشهود، فحضروا وكتبوا الكتاب وفرح العساكر بذلك، وشرع الملك شهرمان في تجهيز ابنته، ثم قال تاج الملوك لوالده: إن عزيزًا رجل من الكرام، وقد خدمني خدمة عظيمة، وتعب وسافَرَ معي وأوصلني إلى بغيتي، ولم يزل يصبِّرني حتى قضيتُ حاجتي؛ مضى له معنا سنتان وهو مشتت من بلاده، فالمقصود أننا نهيِّئ له تجارة؛ لأن بلاده قريبة. فقال له والده: نِعم ما رأيتَ. ثم هيَّئُوا له مائة حمل من أغلى القماش، وأقبل عليه تاج الملوك وودَّعه وقال له: يا أخي، اقبَلْ هذه على سبيل الهدية. فقبِلَها منه وقبَّلَ الأرضَ قدامه وقدام والده الملك سليمان شاه، ثم ركب تاج الملوك وسار مع عزيز قدر ثلاثة أميال، وبعدها أقسم له عزيز أن يرجع، وقال: لولا والدتي ما صبرت على فراقك، فبالله عليك لا تقطع أخبارك عني. ثم ودَّعَه ومضى إلى مدينته، فوجد والدته بنَتْ له قبرًا وسط الدار وصارت تزوره، ولما دخل الدارَ وجدها قد حلت شعرها ونشرته على القبر وهي تفيض دمع العين، وتنشد هذين البيتين:

بِاللهِ يَا قَبْرُ هَلْ زَالَتْ مَحَاسِنُهُ أَمْ قَدْ تَغَيَّرَ ذَاكَ الْمَنْظَرُ النَّضِرُ؟
يَا قَبْرُ مَا أَنْتَ بُسْتَانٌ وَلَا فَلَكٌ فَكَيْفَ يُجْمَعُ فِيكَ الْبَدْرُ وَالزَّهْرُ؟

ثم صعدت الزفرات، وأنشدت هذه الأبيات:

مَا لِي مَرَرْتُ عَلَى الْقُبُورِ مُسَلِّمًا   قَبْرَ الْحَبِيبِ فَلَمْ يَرُدَّ جَوَابِي
قَالَ الْحَبِيبُ وَكَيْفَ رَدُّ جَوَابِكُمْ   وَأَنَا رَهِينُ جَنَادِلَ وَتُرَابِ
أَكَلَ التُّرَابُ مَحَاسِنِي فَنَسِيتُكُمْ   وَحُجِبْتُ عَنْ أَهْلِي وَعَنْ أَحْبَابِي

فما تمَّتْ شعرها إلا وعزيز داخل عليها، فلما رأَتْه قامَتْ إليه واحتضنته وسألته عن سبب غيابه، فحدَّثَها بما وقع له من أوله إلى آخِره، وأن تاج الملوك أعطاه من المال والأقمشة مائة حمل، ففرحت بذلك، وأقام عزيز عند والدته متحيِّرًا فيما وقع له من الدليلة المحتالة التي خصته.

هذا ما كان من أمر عزيز، وأما ما كان من أمر تاج الملوك، فإنه دخل بمحبوبته السيدة دنيا وأزال بكارتها، ثم إن الملك شهرمان شرع في تجهيز ابنته للسفر مع زوجها وأبيه، فأحضر لهم الزاد والهدايا والتحف، ثم حملوا وساروا، وسار معهم الملك شهرمان ثلاثة أيام لأجل الوداع، فأقسم عليه الملك سليمان شاه بالرجوع فرجع، وما زال تاج الملوك ووالده وزوجته سائرون في الليل والنهار حتى أشرفوا على بلادهم، وزُيِّنت لهم المدينة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٣٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك سليمان شاه سار هو وولده وزوجة ولده حتى أشرفوا على بلادهم، وزُيِّنت لهم المدينة، ثم دخلوا المدينة وجلس الملك سليمان شاه على سرير مملكته وولده تاج الملوك إلى جانبه، ثم أعطى ووهب وأطلق مَن كان في الحبوس، ثم عمل لولده عرسًا ثانيًا، واستمرت به المغاني والملاهي شهرًا كاملًا، وازدحمت المواشط على السيدة دنيا، وهي لا تملُّ من الجلاء ولا يملَلْنَ من النظر إليها. ثم دخل تاج الملوك على زوجته بعد أن اجتمع مع أبيه وأمه، وما زالوا في ألذِّ عيش وأهناه.

فعند ذلك قال ضوء المكان للوزير دندان: مثلك مَن ينادم الملوك، ويسلك في تدبيرهم أحسن السلوك. هذا كله وهم محاصِرون للقسطنطينية، حتى مضى عليهم أربع سنين، ثم اشتاقوا إلى أوطانهم وضجرت العساكر من الحصار وإدامة الحرب في الليل والنهار؛ فأمر الملك ضوء المكان بإحضار بهرام ورستم وتركاش، فلما حضروا قال لهم: اعلموا أننا أقمنا هذه السنين، وما بلغنا مرامًا فازددنا غمًّا وهمًّا، وقد أتينا لنخلص ثأر الملك عمر النعمان، فقُتِل أخي شركان، فصارت الحسرة حسرتين والمصيبة مصيبتين، وسبب هذا كله العجوز ذات الدواهي، فإنها قتلت السلطان في مملكته، وأخذت زوجته الملكة صفية، وما كفاها ذلك حتى عملت الحيلة علينا وذبحت أخي، وقد حلفتُ الإيمان العظيمة إنه لا بد من أخذ الثأر؛ فما تقولون أنتم؟ فافهموا هذا الخطاب وردُّوا عليَّ الجواب. فأطرقوا رءوسهم وأحالوا الأمرَ على الوزير دندان، فعند ذلك تقدَّمَ الوزير دندان إلى الملك ضوء المكان وقال له: اعلم يا ملك الزمان، أنه ما بقي في إقامتنا فائدة، والرأي إننا نرحل إلى الأوطان ونقيم هناك برهة من الزمان، ثم نعود ونغزو عَبَدَة الأصنام. فقال الملك: نِعْمَ هذا الرأي؛ لأن الناس اشتاقوا إلى رؤية عيالهم، وأنا أيضًا أقلقني الشوق إلى ولدي «كان ما كان»، وإلى ابنة أخي «قضى فكان»؛ لأنها في دمشق ولا أعلم ما كان من أمرها. فلما سمعت العساكر ذلك، فرحوا ودعوا للوزير دندان.

ثم إن الملك ضوء المكان أمر المنادي أن ينادي بالرحيل بعد ثلاثة أيام، فابتدءوا في تجهيز أحوالهم، وفي اليوم الرابع دُقَّتِ الكاسات ونُشِرت الرايات، وتقدَّمَ الوزير دندان في مقدم العسكر، وسار الملك في وسط العساكر وبجانبه الحاجب الكبير، وسارت الجيوش، وما زالوا مُجِدِّين السيرَ بالليل والنهار حتى وصلوا إلى مدينة بغداد، ففرحت بقدومهم الناس وزال عنهم الهم والبأس. ثم ذهب كل أمير إلى داره، وطلع الملك إلى قصره ودخل على ولده «كان ما كان»، وقد بلغ من العمر سبع سنين، وصار ينزل ويركب. ولما استراح الملك من السفر، دخل الحمام هو وولده «كان ما كان»، ثم رجع وجلس على كرسي مملكته، ووقف الوزير دندان بين يديه، وطلعت الأمراء وخواص الدولة ووقفوا في خدمته؛ فعند ذلك أمر الملك ضوء المكان بإحضار صاحبه الوقَّاد الذي أحسن إليه في غربته، فحضر بين يديه، فلما رآه الملك ضوء المكان قادمًا عليه، نهض له قائمًا وأجلسه إلى جانبه، وكان الملك ضوء المكان قد أخبر الوزير بما فعل معه صاحبه الوقاد من المعروف، فعظم في عينه وفي أعين الأمراء. وكان الوقاد قد غلظ وسمن من الأكل والراحة، وصار عنقه كعنق الفيل، ووجهه كبطن الدرفيل، وصار طائش العقل؛ لأنه كان لا يخرج من المكان الذي هو فيه، فلم يعرف الملك بسيماه، فأقبَلَ عليه الملك وبَشَّ في وجهه وحيَّاه أعظم التحيات وقال له: ما أسرع ما نسيتني. فأمعن فيه النظر، فلما تحقَّقَ منه وعرفه، قام له على الأقدام وقاله له: يا حبيبي، من عملك سلطانًا؟ فضحك عليه، فأقبل عليه الوزير بالكلام وشرح له القصة وقال له: إنه كان أخاك وصاحبك والآن صار ملك الأرض، ولا بد أن يصل إليك منه خير كثير، وها أنا أوصيك، إذا قال لك: تمنَّ عليَّ، فلا تتمنَّ إلا شيئًا عظيمًا؛ لأنك عنده عزيز. فقال الوقاد: أخاف أن أتمنى عليه شيئًا، فلا يسمح لي به أو لا يقدر عليه. فقال له الوزير: كل ما تمنيته يعطيك إياه. فقال له: والله لا بد أن أتمنَّى عليه الشيء الذي في خاطري، وكل يوم أرجو منه أن يسمح لي به. فقال له الوزير: طيِّبْ قلبك، والله لو طلبتَ ولايةَ دمشق موضع أخيه لولَّاك عليها.

فعند ذلك قام الوقاد على قدميه، فأشار له ضوء المكان أن اجلس، فأَبَى وقال: معاذ الله، قد انقضت أيام قعودي في حضرتك. فقال له السلطان: لا بل هي باقية إلى الآن، فإنك كنت سببًا لحياتي، والله لو طلبتَ مني مهما أردتَ لأعطيتُكَ إياه، فتمنَّ على الله. فقال له: يا سيدي، إني أخاف أن أتمنى شيئًا، فلا تسمح لي به أو لا تقدر عليه. فضحك السلطان وقال له: لو تمنيتَ نصف مملكتي لشاركتُكَ فيها، فتمنَّ ما تريد. قال الوقاد: أخاف أن أتمنى شيئًا لا تقدر عليه. فغضب السلطان وقال له: تمنَّ ما أردتَ. فقال له: تمنيتُ أن

تكتب لي مرسومًا بعرافة جميع الوقَّادين الذين في مدينة القدس. فضحك السلطان وجميع مَن حضر وقال له: تمنَّ غير هذا. فقال الوقاد: أنا ما قلتُ لك إني أخاف أن أتمنى شيئًا لا تسمح لي به وما تقدر عليه؟ فغمزه الوزير ثانيًا وثالثًا وفي كل مرة يقول: أتمنى عليك أن تجعلني رئيس الزبالين في مدينة القدس أو في مدينة دمشق. فانقلب الحاضرون على ظهورهم من الضحك عليه، وضربه الوزير، فالتفت الوقاد إلى الوزير وقال له: ما تكون حتى تضربني وما لي ذنب؟ فإنك أنت الذي قلتَ لي تمنَّ شيئًا عظيمًا. ثم قال: دعوني أسير إلى بلادي. فعرف السلطان أنه يلعب، فصبر قليلًا ثم أقبل عليه وقال له: يا أخي، تمنَّ عليَّ أمرًا عظيمًا لائقًا بمقامي. فقال له: أتمنى سلطنةَ دمشق موضع أخيك. فكتب له التواقيع بذلك، وقال للوزير دندان: ما يروح معه غيرك، وإذا أردتَ العود فأحضِرْ معك بنت أخي «قضى فكان». فقال الوزير: سمعًا وطاعة. ثم أخذ الوقاد ونزل به وتجهَّزَ للسفر، وأمر السلطان ضوء المكان أن يُخرِجوا للوقاد تختًا جديدًا وطقم سلطنة، وقال للأمراء: مَن كان يحبني، فَلْيقدِّم إليه هدية عظيمة. ثم سمَّاه السلطان الزبلكان ولقَّبَه بالمجاهد، وبعد شهر كملت حوائجه وطلع الزبلكان وفي خدمته الوزير دندان، ثم دخل ضوء المكان ليودِّعه، فقام له وعانَقَه وأوصاه بالعدل بين الرعية، وأمره أن يأخذ الأهبة للجهاد بعد سنتين، ثم ودَّعه وانصرف.

وسار الملك المجاهد المسمَّى بالزبلكان بعد أن أوصاه الملك ضوء المكان بالرعية خيرًا، وقدَّمت له الأمراء المماليك، فبلغوا خمسة آلاف مملوك وركبوا خلفه، وركب الحاجب الكبير، وأمير الديلم بهرام، وأمير الترك رستم، وأمير العرب تركاش، وساروا في توديعه وما زالوا سائرين معه ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى بغداد، وسار السلطان الزبلكان هو والوزير دندان، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى دمشق، وكانت الأخبار قد وصلت إليهم على أجنحة الطيور، بأن الملك ضوء المكان سلطَنَ على دمشق ملكًا يقال له الزبلكان ولقَّبَه بالمجاهد، فلما وصل إليهم الخبر، زيَّنوا له المدينةَ وخرج إلى ملاقاته كلُّ مَن في دمشق، ثم دخل دمشق وطلع القلعة وجلس على سرير المملكة، ووقف الوزير دندان في خدمته يعرِّفه منازِلَ الأمراء ومراتبهم، وهم يدخلون عليه ويقبِّلون يدَيْه ويدعون له، فأقبل عليهم الملك الزبلكان وخلع وأعطى ووهب، ثم فتح خزائن الأموال وأنفَقَها على جميع العساكر كبيرًا وصغيرًا، وحكم وعدل. وشرع الزبلكان في تجهيز بنت السلطان شركان السيدة «قضى فكان»، وجعل لها محفة من الإبريسم، وجهَّزَ الوزير وقدَّمَ له شيئًا من المال، فأبى الوزير دندان وقال له: أنت قريب عهد بالمُلْك وربما تحتاج إلى الأموال، أو نرسل إليك نطلب منك

مالًا للجهاد أو غير ذلك. ولما تهيَّأ الوزير دندان للسفر، ركب السلطان المجاهد لوداعه، وأحضر «قضى فكان»، وأركبها في المحفة وأرسل معها عشر جوارٍ برسم الخدمة، وبعد أن سافَرَ الوزير دندان، رجع الملك المجاهد إلى مملكته ليدبِّرها، واهتمَّ بآلة السلاح وصار ينتظر الوقتَ الذي يرسل إليه فيه الملك ضوء المكان.

هذا ما كان من أمر السلطان الزبلكان، وأما ما كان من أمر الوزير دندان، فإنه لم يزل يقطع المراحل بـ «قضى فكان»، حتى وصل إلى الرحبة بعد شهر، ثم سار حتى أشرف على بغداد وأرسَلَ أعلَمَ ضوءَ المكان بقدومه، فركب وخرج إلى لقائه، فأراد الوزير دندان أن يترجَّلَ، فأقسم عليه الملك ضوء المكان ألَّا يفعل، فسار راكبًا حتى جاء إلى جانبه وسأله عن المجاهد، فأعلمه أنه بخير وأعلمه بقدوم «قضى فكان» بنت أخيه شركان، ففرح وقال له: دونك والراحة من تعب السفر ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك تعال عندي. فقال: حبًّا وكرامة. ثم دخل بيته وطلع الملك إلى قصره ودخل على ابنة أخيه «قضى فكان»، وهي ابنة ثمان سنين؛ فلما رآها فرح بها وحزن على أبيها، وأعطاها حليًّا ومصاغًا عظيمًا، وأمر أن يجعلوها مع ابن عمها «كان ما كان» في مكان واحد، وكانت أحسن أهل زمانها وأشجعهم؛ لأنها كانت صاحبة تدبير وعقل ومعرفة بعواقب الأمور.

وأما «كان ما كان»، فإنه مولع بمكارم الأخلاق، ولكنه لا يفكِّر في عاقبة شيء، ثم بلغ عمر كل واحد من الاثنين عشر سنين، وصارت «قضى فكان» تركب الخيل وتطلع مع ابن عمها في البر، ويتعلمان الضربَ بالسيف والطعن بالرمح، حتى بلغ عمر كلٍّ منهما اثنتي عشرة سنة. ثم إن الملك انتهت أشغاله للجهاد وأكمل الأهبة والاستعداد، فأحضر الوزير دندان وقال له: اعلم أني عزمتُ على شيء وأريد إطلاعك عليه، فأسرع في ردِّ الجواب. فقال الوزير دندان: ما هو يا ملك الزمان؟ قال: عزمتُ على أن أسلطن ولدي «كان ما كان» وأفرح به في حياتي، وأقاتل قدامه إلى أن يدركني الممات. فما عندك من الرأي؟ فقبَّلَ الوزير دندان الأرض بين يدي الملك ضوء المكان وقال له: اعلم أيها الملك السعيد صاحب الرأي السديد، أن ما خطر ببالك مليح، غير أنه لا يناسب في هذا الوقت لخصلتين؛ الأولى: أن ولدك «كان ما كان» صغير السن، والثانية: ما جرَتْ به العادة، من أنَّ مَن سلطَنَ ولده في حياته لا يعيش إلا قليلًا، وهذا ما عندي من الجواب. فقال: اعلم أيها الوزير، إننا نوصي عليه الحاجب الكبير، فإنه صار منَّا وإلينا، وقد تزوَّجَ أختي فهو في منزلة أخي. فقال له الوزير: افعل ما بَدَا لك، فنحن ممتثلون أمرك. فأرسل الملك إلى الحاجب الكبير فأحضره، وكذلك أكابر مملكته وقال لهم: إن هذا ولدي «كان ما كان»، قد

علمتم أنه فارس الزمان، وليس له نظير في الحرب والطعان، وقد جعلته سلطانًا عليكم، والحاجب الكبير وصيٌّ عليه. فقال الحاجب: يا ملك الزمان، إنما أنا غريس نعمتك. فقال ضوء المكان: أيها الحاجب، إن ولدي «كان ما كان» وابنة أخي «قضى فكان» أولاد عمٍّ، وقد زوَّجتها به وأُشهِد الحاضرين على ذلك.

ثم نقل لولده من المال ما يعجز عنه اللسان، وبعد ذلك دخل على أخته نزهة الزمان وأعلمها بذلك، ففرحت وقالت: إن الاثنين ولداي، والله تعالى يبقيك لهما مدى الزمان. فقال: يا أختي، إني قضيت من الدنيا غرضي وأمنت على ولدي، ولكن ينبغي أن تلاحظيه بعينك وتلاحظي أمه. ثم صار يوصي الحاجب ونزهة الزمان على ولده وعلى زوجته ليالي وأيامًا، وقد أيقَنَ بكأس الحمام ولزم الوساد، وصار الحاجب يتعاطى أحكام العباد. وبعد سنة، أحضر ولده «كان ما كان» والوزير دندان وقال: يا ولدي، إن هذا الوزير والدك من بعدي، واعلم أني راحل عن الدار الفانية إلى الدار الباقية، وقد قضيت غرضي من الدنيا، ولكن بقي في قلبي حسرة يزيلها الله على يديك. فقال ولده: وما تلك الحسرة يا والدي؟ فقال: يا ولدي، أن أموت ولم نأخذ بثأر جدك الملك النعمان وعمك الملك شركان، من عجوز يقال لها: ذات الدواهي، فإن أعطاك الله النصر، لا تغفل عن أخذ الثأر وكشف العار من الكفار، وإياك من مكر العجوز، وأقبل ما يقوله لك الوزير دندان؛ لأنه عماد ملكنا من قديم الزمان. فقال له ولده: سمعًا وطاعة. ثم هملت عيناه بالدموع، وبعد ذلك ازداد المرض بضوء المكان، وصار أمر المملكة للحاجب، فصار يحكم ويأمر وينهي، واستمرَّ على ذلك سنة كاملة وضوء المكان مشغول بمرضه، وما زالت به الأمراض مدة أربع سنين والحاجب الكبير قائم بأمر الملك، وارتضى به أهل المملكة ودعت له جميع البلاد.

هذا ما كان من أمر ضوء المكان والحاجب، وأما ما كان من أمر «كان ما كان»، فإنه لم يكن له شغل إلا ركوب الخيل واللعب بالرمح والضرب بالنشاب، وكذلك ابنة عمه «قضى فكان»، وكانت تخرج هي وإياه من أول النهار إلى الليل، فتدخل إلى أمها ويدخل هو إلى أمه فيجدها جالسة عند رأس أبيه تبكي، فيخدمه بالليل، وإذا أصبح الصباح، يخرج هو وبنت عمه على عادتهما. وطالت بضوء المكان التوجُّعات، فبكى وأنشد هذه الأبيات:

تَفَانَتْ قُوَّتِي وَمَضَى زَمَانِي ... وَهَا أَنَا قَدْ بَقِيتُ كَمَا تَرَانِي
فَيَوْمَ الْعِزِّ كُنْتُ أَعَزَّ قَوْمِي ... وَأَسْبَقَهُمْ إِلَى نَيْلِ الْأَمَانِي
وَقَدْ فَارَقْتُ مُلْكِي بَعْدَ عِزِّي ... إِلَى ذُلٍّ تَخَلَّلَ بِالْهَوَانِ

تُرَى قَبْلَ الْمَمَاتِ أَرَى غُلَامِي ... يَكُونُ عَلَى الْوَرَى مَلِكًا مَكَانِي
وَيَـفْـتِـكُ بِـالْـعُـدَاةِ لِأَخْـذِ ثَـأْرٍ ... بِضَرْبِ السَّيْفِ أَوْ طَعْنِ السِّنَانِ
أَنَـا الْـمَـغْـبُونُ فِـي هَـزْلٍ وَجِـدٍّ ... إِذَا مَـوْلَايَ لَا يَـشْـفِـي جَـنَـانِـي

فلما فرغ من شعره، وضع رأسه على الوسادة ونام، فرأى في منامه قائلًا يقول له: أَبْشِرْ فإنَّ ولدك يملك البلاد وتطيعه العباد. فانتبه من منامه مسرورًا، ثم بعد أيام قلائل طرقه الممات، فأصاب أهل بغداد لذلك مصاب عظيم وبكى عليه الرضيع والعظيم، ومضى عليه الزمان كأنه ما كان، وتغيَّرَ حال «كان ما كان»، وعزله أهل بغداد وجعلوه هو وعياله في بيت على حدة؛ فلما رأت أم «كان ما كان» ذلك، صارت في أذل الأحوال، ثم قالت: لا بد لي من قصد الحاجب الكبير، وأرجو الرأفة من اللطيف الخبير. فقامت من منزلها إلى أن أتت إلى بيت الحاجب الذي صار سلطانًا، فوجدته جالسًا على فراشه، فدخلت على زوجته نزهة الزمان وقالت: إن الميت ما له صاحب، فلا أحوجكم الله مدى الدهور والأعوام، ولا زلتم تحكمون بالعدل بين الخاص والعام، قد سمعت أذناك ورأت عيناك ما كنَّا فيه من الملك والعز والجاه والمال وحسن المعيشة والحال، والآن انقلب علينا الزمان، وقصَدَنا الدهرُ بالعدوان، وأتيتُ إليك قاصدة إحسانك بعد إسدائي للإحسان؛ لأن الرجل إذا مات ذلت بعده النساء البنات. ثم أنشدت هذه الأبيات:

كَفَاكَ بِأَنَّ الْمَوْتَ بَادِي الْعَجَائِبِ ... وَمَا غَائِبُ الْأَعْمَارِ عَنَّا بِغَائِبِ
وَمَـا هَـذِهِ الْأَيَّـامُ إِلَّا مَـرَاحِـلُ ... مَوَارِدُهَا مَمْزُوجَةٌ بِالْمَصَائِبِ
وَمَا ضَرَّ قَلْبِي مِثْلُ فَقْدِ أَكَارِمِ ... أَحَاطَتْ بِهِمْ مُسْتَعْظَمَاتُ النَّوَائِبِ

فلما سمعت نزهة الزمان هذا الكلام، تذكرت أخاها ضوء المكان وابنه «كان ما كان»، فقرَّبتها وأقبلت عليها وقالت: أنا الآن غنية وأنت فقيرة، فوالله ما تركنا افتقارك إلا خوفًا من انكسار قلبك، لئلا يخطر ببالك أن ما نهديه إليك صدقة، مع أن جميع ما نحن فيه من الخير منك ومن زوجك؛ فبيتنا بيتك ولك ما لنا وعليك ما علينا. ثم خلعت عليها ثيابًا فاخرة، وأفردت لها مكانًا في القصر ملاصقًا لمقصورتها، وأقامت عندهم في عيشة طيبة هي وولدها «كان ما كان»، وخلعت عليه ثياب الملوك، وأفردَتْ لهما جواري برسم خدمتهما. ثم إن نزهة الزمان بعد مدة قليلة، ذكرت لزوجها حديثَ زوجة أخيها ضوء المكان، فدمعت عيناه وقال: إن شئتِ أن تنظري الدنيا بعدك، فانظريها بعد غيرك، فأكرمي مثواها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٣٨

مغامرة كان ما كان ابن ضوء المكان

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوج نزهة الزمان قال لها: إن شئتِ أن تنظري الدنيا بعدك، فانظريها بعد غيرك، فأكرمي مثواها، وأغني فقرها.

هذا ما كان من أمر نزهة الزمان وزوجها وأم ضوء المكان، وأما ما كان من أمر «كان ما كان» وابنة عمه «قضى فكان»، فإنهما كبرا وترعرعا حتى صارا كأنهما غصنان مثمران، أو قمران أزهران، وبلغا من العمر خمسة عشر عامًا. وكانت «قضى فكان» من أحسن البنات المخدرات: بوجه جميل، وخصر نحيل، وردف ثقيل، وريق كالسلسبيل، وقَدٍّ رشيق، وثغر ألذ من الرحيق، كما قال فيها بعض واصفيها هذين البيتين:

كَأَنَّ سُلَافَ الْخَمْرِ مِنْ رِيقِهَا بَدَتْ وَعُنْقُودَهَا مِنْ ثَغْرِهَا الدُّرُّ يُقْطَفُ
وَأَعْنَابُهَا مَالَتْ إِذَا مَا ثَنَيْتَهَا فَسُبْحَانَ خَلَّاقٍ لَهَا لَا يُكَيَّفُ

وقد جمع الله كل المحاسن فيها؛ فقَدُّها يخجل الأغصان، والورد يطلب من خدها الأمان، وأما الريقُ فإنه يهزأ بالرحيق، تسر القلب والناظر كما قال فيها الشاعر:

مَلِيحَةُ الْوَصْفِ قَدْ تَمَّتْ مَحَاسِنُهَا أَجْفَانُهَا تَفْضَحُ التَّكْحِيلَ بِالْكَحَلِ
كَأَنَّ أَلْحَاظَهَا فِي قَلْبِ عَاشِقِهَا سَيْفٌ بِكَفِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي

وأما «كان ما كان»، فإنه كان بديع الجمال، فائق الكمال، عز في الحُسْن عن مثال الشجاعة تلوح بين عينيه، والشجاعة تشهد له لا عليه، وتميل كل القلوب إليه، وحين اخضرَّ منه العذار كثرت فيه الأشعار، كقول بعضهم:

مَا بَانَ عُذْرِيَ فِيهِ حَتَّى يَعْذِرَا ... وَمَشَى الدُّجَى فِي خَدِّهِ فَتَحَيَّرَا
رَشَأ إِذَا رَنَتِ الْعُيُونُ لِحُسْنِهِ ... سَلَّتْ لَوَاحِظُهُ عَلَيْهَا خَنْجَرَا



كان بديعَ الجَمال فائقَ الكمال، وتميل كلُّ القلوب إليه.

وقول الآخَر:

نَسَخَتْ نُفُوسُ الْعَاشِقِينَ بِخَدِّهِ   نَمْلًا وَتَمَّ بِهَا النَّجِيعُ الْأَحْمَرُ
فَاعْجَبْ لَهُمْ شَهْدًا وَمَسْكِنُهُمْ لَظًى   وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا الْحَرِيرُ الْأَخْضَرُ

واتفق في بعض الأعياد أنَّ «قضى فكان» خرجت تعيِّد على بعض أقاربها من الدولة، والجواري حواليها والحُسْن قد عَمَّها، وورد الخد يحسد خالها، والأقحوان يتبسَّمَ عن بارق ثغرها؛ فجعل «كان ما كان» يدور حولها ويطلق النظر إليها، وهي كالقمر الزاهر، فقوَّى جنانه وأطلق بالشعر لسانه، وأنشد هذين البيتين:

مَتَى يَشْتَفِي قَلْبُ الدُّنُوِّ مِنَ الْبُعْدِ   وَيَضْحَكُ ثَغْرُ الْوَصْلِ مِنْ زَائِلِ الصَّدِّ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً   بَوَصْلِ حَبِيبٍ عِنْدَهُ بَعْضُ مَا عِنْدِي

فلما سمعت «قضى فكان» هذا الشعر، أظهرت له الملامة والعتاب، وتوعَّدَتْه بأليم العقاب، فاغتاظ «كان ما كان» وعاد إلى بغداد غضبان، ثم طلعت «قضى فكان» إلى قصرها، وشكَتِ ابنَ عمها إلى أمها، فقالت لها: يا بنتي، لعله ما أرادك بسوء، وهل هو إلا يتيم؟ ومع هذا لم يذكر شيئًا يُعِيبك، فإياك أن تُعلِمي بذلك أحدًا، فإنه ربما بلغ الخبر إلى السلطان، فيقصِّر عمره ويُخمِد ذِكْره، ويجعل أثره كأمس الدابر والميت القابر. وشاع في بغداد حبُّ «كان ما كان» لـ «قضى فكان» وتحدثت به النسوان، ثم إنَّ «كان ما كان» ضاق صدره وقلَّ صبره واشتغل باله، ولم يَخْفَ على الناس حالُه، واشتهى أن يبوح بما في قلبه من لوعة البين، فخاف من غضبها وأنشد هذين البيتين:

إِذَا خِفْتَ يَوْمًا عِتَابَ الَّتِي   تُغَيِّرُ أَخْلَاقَهَا الصَّافِيَة
صَبَرْتَ عَلَيْهَا كَصَبْرِ الْفَتَى   عَلَى الْكَيِّ فِي طَلَبِ الْعَافِيَةْ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٣٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحاجب الكبير لما صار سلطانًا، سموه الملك ساسان، ثم إنه بلغه حبُّ «كان ما كان» لـ «قضى فكان»، فندم على جعلهما معًا في محل واحد، ثم دخل على زوجته نزهة الزمان وقال: إنَّ الجمع بين الحلفة والنار لَمِنْ أعظم الأخطار، وليست الرجال على النساء بمؤتَمَنِين، ما دامَتِ العيون في دعج والمعاطف في لين، وإن ابن أخيك «كان ما كان» قد بلغ مبلغ الرجال، فيجب منعه عن الدخول على ربَّات الحجال، ومنع بنتك عن الرجال أوجب؛ لأن مثلها ينبغي أن يُحجَب. فقالت: صدقتَ أيها الملك العاقل، والهمام الكامل. فلما أصبح الصباح، جاء «كان ما كان» ودخل على عمته نزهة الزمان على جري عادته، وسلَّمَ عليها فردَّتِ السلامَ وقالت له: عندي لك كلام ما كنتُ أحبُّ أن أقوله، ولكن أخبرك به رغمًا عني. فقال لها: وما ذاك الكلام؟ قالت: إن الملك سمع بحبك لـ «قضى فكان»، فأمر بحجبها عنك، وإذا كان لك حاجة، فأنا أرسلها إليك من خلف الباب، ولا تنظر «قضى فكان». فلما سمع كلامها، رجع ولم ينطق بحرف واحد، وأعلم والدته بما قالت عمته، فقالت له: إنما نشأ هذا من كثرة كلامك، وقد علمت أن حديث حبك لـ «قضى فكان» شاع وانتشر في كل مكان، وكيف تأكل زادهم وبعد ذلك تعشق بنتهم؟ فقال: إني أريد الزواج بها؛ لأنها بنت عمي، وأنا أحقُّ بها. فقالت له أمه: اسكت لئلا يصل الخبر إلى الملك ساسان، فيكون ذلك سببًا لغرقك في بحر الأحزان، ولم يبعثوا لنا في هذه الليلة عشاء، ولو كنا في بلد غير هذه، لَمتنا من ألم الجوع أو ذل السؤال. فلما سمع «كان ما كان» كلامَ أمه، زادت بقلبه الحسرات وأنشد هذه الأبيات:

أَقِلِّي مِنَ اللَّوْمِ الَّذِي لَا يُفَارِقُ ... فَقَلْبِي إِلَى مَنْ تَيَّمَتْنِي مُفَارِقُ
وَلَا تَطْلُبِي عِنْدِي مِنَ الصَّبْرِ ذَرَّةً ... فَصَبْرِي وَبَيْتِ اللهِ مِنِّيَ طَالِقُ

إِذَا سَامَنِي اللُّوَّامُ نَهْيًا عَصَيْتُهُمْ وَهَا أَنَا فِي دَعْوَى الْمَحَبَّةِ صَادِقُ
وَقَدْ مَنَعُونِي عَنْوَةً أَنْ أَزُورَهَا وَإِنِّي وَالرَّحْمَنِ مَا أَنَا فَاسِقُ
وَإِنَّ عِظَامِي حِينَ تَسْمَعُ ذِكْرَهَا تُشَابِهُ طَيْرًا خَلْفَهُنَّ بَوَاشِقُ
أَلَا قُلْ لِمَنْ قَدْ لَامَ فِي الْحُبِّ إِنَّنِي وَحَقِّ إِلَهِي بِنْت عَمِّيَ عَاشِقُ

ولما فرغ من شعره قال لأمه: ما بقي عند عمتي ولا عند هؤلاء القوم مقام، بل أخرج من القصر وأسكن في أطراف المدينة بجوار قوم صعاليك. ثم خرج وفعل كما قال، وصارت أمه تتردَّد إلى بيت الملك ساسان، وتأخذ منه ما تقتات به هي وإياه، ثم إن «قضى فكان» اختلت بأم «كان ما كان» وقالت لها: يا امرأة عمي، كيف حال ولدك؟ فقالت: إنه باكي العين، حزين القلب، ليس له من أَسْرِ الغرام فكاك، ومقتنص من هواك في إشراك. فبكت «قضى فكان» وقالت: والله ما هجرتُه بغضًا له، ولكن خوفًا عليه من الأعداء، وعندي من الشوق أضعاف ما عنده، ولولا عثرات لسانه وخفقان جنانه، ما قطع أبي عنه إحسانَه وأولاه منعه وحرمانه، ولكن أيام الورى دول، والصبر في كل الأمور أجمل، ولعل مَن قضى بالفراق أن يمنَّ علينا بالتلاق. ثم أفاضت دمع العين وأنشدت هذين البيتين:

فَعِنْدِي يَا ابْنَ عَمِّي مِنْ غَرَامِي كَأَمْثَالِ الَّذِي حَلَّ عِنْدَكْ
وَلَكِنِّي كَتَمْتُ النَّاسَ وَجْدِي فَهَلَّا كُنْتَ أَنْتَ كَتَمْتَ وَجْدَكْ

فشكرَتْها أم «كان ما كان» وخرجت من عندها، وأعلمت ولدها «كان ما كان» بذلك، فزاد شوقه إليها وقال: ما أبدلها من الحور بألفين. وأنشد هذين البيتين:

فَوَاللهِ لَا أُصْغِي إِلَى قَوْلِ لَائِمٍ وَلَا بُحْتُ بِالسِّرِّ الَّذِي كُنْتُ كَاتِمَا
وَقَدْ غَابَ عَنِّي مَنْ رَجَوْتُ وِصَالَهُ فَكَمْ سَهِرَتْ عَيْنِي وَقَدْ بَاتَ نَائِمَا

ثم مضت الأيام والليالي وهو يتقلَّب على جمر المقالي، حتى مضى له من العمر سبعة عشر عامًا، وقد كمل حسنه؛ ففي بعض الليالي أخذه السهر وقال في نفسه: ما لي أرى جسمي يذوب؟ وإلى متى لا أقدر على نيل المطلوب، وما لي عيب سوى عدم الجاه والمال؟

ولكن عند الله بلوغ الآمال، فينبغي أن أشرد نفسي عن بلادها، حتى تموت أو تحظى بمرادها. ثم أضمر على هذه العزمات، وأنشد هذه الأبيات:

دَعْ مُهْجَتِي تَزْدَادُ فِي خَفَقَانِهَا لَيْسَ التَّذَلُّلُ فِي الْوَرَى مِنْ شَأْنِهَا
وَاعْذُرْ فَإِنَّ حَشَاشَتِي كَصَحِيفَةٍ لَا شَكَّ أَنَّ الدَّمْعَ مِنْ عُنْوَانِهَا
هَا بِنْتُ عَمِّي قَدْ بَدَتْ حُورِيَّةً نَزلَتْ إِلَيْنَا عَنْ رِضَى رِضْوَانِهَا
مَن رَامَ أَلْحَاظَ الْعُيُونِ مُعَارِضًا فَتَكَاتِهَا لَمْ يَنْجُ مِنْ عُدْوَانِهَا
سَأَسِيرُ فِي الْأَرْضِ الْوَسِيعَةِ مُنْقِذًا نَفْسِي وَأَمْنَحُهَا سِوَى حِرْمَانِهَا
وَأَعُودُ مَسْرُورَ الْفُؤَادِ بِمَطْلَبِي وَأُقَابِلُ الْأَبْطَالَ فِي مَيْدَانِهَا
وَلَسَوْفَ أَسْتَاقُ الْغَنَائِمَ عَائِدًا وَأَصُولُ مُقْتَدِرًا عَلَى أَقْرَانِهَا

ثم إن «كان ما كان» خرج من القصر ماشيًا حافيًا في قميص قصير الأكمام، وعلى رأسه لبدة لها سبعة أعوام، وصحبته رغيف له ثلاث أيام، حافيًا سار في حندس الظلام، حتى وصل إلى باب بغداد، فوقف هناك، ولما فتحوا بابَ المدينة كان هو أول خارجٍ منه، ثم صار يقطع الأوديةَ والقفار في ذلك النهار، ولما أتى الليل طلبَتْه أمه فلم تجده، فضاقت عليها الدنيا باتساعها، ولم تلتَذَّ بشيء من متاعها، ومكثت تنتظره أولَ يوم وثاني يوم وثالث يوم إلى أن مضى عشرة أيام، فلم تَرَ له خبرًا؛ فضاق صدْرُها وبكت ونادت قائلةً: يا مؤنسي، قد هيَّجْتَ أحزاني، حيث فارقْتَني وتركت أوطاني. يا ولدي، من أي الجهات أناديك؟ ويا هل تُرَى أيُّ بلد تأويك؟ ثم صعدت الزفرات، وأنشدت هذه الأبيات:

عَلِمْنَا بِأَنَّا بَعْدَ غَيْبَتِكُمْ نُبْلَا وَمَدَّتْ قِسِيٌّ لِلْفِرَاقِ لَنَا نَبْلَا
وَقَدْ خَلَّفُونِي بَعْدَ شَدِّ رِحَالِهِمْ أُعَالِجُ كَرْبَ الْمَوْتِ إِذْ قَطَعُوا الرَّمْلَا
لَقَدْ هَتَفَتْ بِي جُنْحَ لَيْلٍ حَمَامَةٌ مُطَوَّقَةٌ نَاحَتْ فَقُلْتُ لَهَا مَهْلَا
لَعَمْرُكَ لَوْ كَانَتْ كَمِثْلِي حَزِينَةً لَمَا لَبِسَتْ طَوْقًا وَلَا خَضَّبَتْ رِجْلَا
وَفَارَقَنِي إِلْفِي فَأَلْقَيْتُ بَعْدَهُ دَوَاعِيَ هَمٍّ لَا تُفَارِقُنِي أَصْلَا

ثم إنها امتنعت عن الطعام والشراب، وزادت في البكاء والانتحاب، وصار بكاؤها على رءوس الأشهاد، واشتهر حزنها بين العباد والبلاد، وصار الناس يقولون: أين عينك

يا ضوء المكان؟ ويا هل ترى ما جرى على «كان ما كان»، حتى بعد عن وطنه وخرج من المكان، وكان أبوه يشبع الجيعان، ويأمر بالعدل والأمان؟ ووصل خبر «كان ما كان» إلى الملك ساسان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك ساسان وصل إليه خبر «كان ما كان»، من الأمراء الكبار، وقالوا له: إنه وُلِد ملكًا، ومن ذريَّة الملك عمر النعمان، وقد بلغنا أنه تغرَّبَ عن الأوطان. فلما سمع الملك ساسان هذا الكلام، اغتاظ غيظًا شديدًا، وتذكَّرَ إحسانَ أبيه إليه، وأنه أوصاه به، فحزن على «كان ما كان»، وقال: لا بد من التفتيش عنه في سائر البلاد. ثم بعث في طلبه الأمير تركاش في مائة فارس، فغاب عشرة أيام ثم رجع وقال: ما اطلعت له على خبر، ولا وقفت له على أثر. فحزن عليه الملك ساسان حزنًا شديدًا، وأما أمه فإنها صارت لا يقرُّ لها قرار، ولا يطاوعها اصطبار، وقد مضى له عشرون يومًا.

هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر «كان ما كان»، فإنه لما خرج من بغداد صار متحيِّرًا في أمره، ولم يدرِ إلى أين يتوجه، ثم إنه سافر في البر ثلاثة أيام وحده، ولم يَرَ راجلًا ولا فارسًا، فطار رقاده، وزاد سهاده، وتفكَّرَ أهله وبلاده، وصار يتقوَّت من نبات الأرض، ويشرب من أنهارها، ويقيل وقت الحر تحت أشجارها، ثم خرج من تلك الطريق إلى طريق أخرى، وسار فيها ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أشرف على أرض معشَّبة الفلوات، مليحة النبات، وهذه الأرض قد شربت من كئوس الغمام على أصوات القُمْريِّ والحمام، فاخضرَّتْ رباها، وطاب فلاها، فتذكَّرَ «كان ما كان» بلادَ أبيه، فأنشد من فرط ما هو فيه:

خَرَجْتُ وَفِي أَمَلِي عَوْدَةٌ وَلَكِنَّنِي لَسْتُ أَدْرِي مَتَى
وَشُرِّدْتُ عَنْ وَطَنِي لَمْ أَجِدْ سَبِيلًا إِلَى دَفْعِ مَا قَدْ أَتَى

فلما فرغ من شعره، أكل من ذلك النبات، وتوضأ وصلى ما كان عليه من الفريضة، وجلس يستريح، ومكث طول ذلك اليوم في ذلك المكان، فلما جاء الليل نام، واستمر نائمًا إلى نصف الليل، ثم انتبه فسمع صوت إنسان ينشد هذه الأبيات:

مَا الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ يُرَى لَكَ بَارِقٌ … مِنْ ثَغْرِ مَنْ تَهْوَى وَوَجْهٌ رَائِقُ
وَالْمَوْتُ أَسْهَلُ مِنْ صُدُودِ حَبِيبَةٍ … لَمْ يَغْشَنِي مِنْهَا خَيَالٌ طَارِقُ
يَا فَرْحَةَ النُّدَمَاءِ حَيْثُ تَجَمَّعُوا … وَأَقَامَ مَعْشُوقٌ هُنَاكَ وَعَاشِقُ
لَا سِيَّمَا وَقْتَ الرَّبِيعِ وَزَهْرِهِ … طَابَ الزَّمَانُ بِمَا إِلَيْهِ تُسَابِقُ
يَا شَارِبَ الصَّهْبَاءِ دُونَكَ مَا تَرَى … أَرْضٌ مُزَخْرَفَةٌ وَمَاءٌ دَافِقُ

فلما سمع «كان ما كان» هذه الأبيات، هاجت به الأشجان، وجرت دموعه على خده كالغدران، وانطلقت في قلبه النيران، فقام ينظر قائل هذا الكلام، فلم يرَ أحدًا في جنح الظلام، فأخذه القلق، ونزل من مكانه إلى أسفل الوادي، ومشى على شاطئ النهر، فسمع صاحب الصوت يصعد الزفرات، وينشد هذه الأبيات:

إِنْ كُنْتَ تُضْمِرُ مَا فِي الْحُبِّ إِشْفَاقًا … فَأَطْلِقِ الدَّمْعَ يَوْمَ الْبَيْنِ إِطْلَاقَا
بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّائِي عُهُودُ هَوًى … لِذَا إِلَيْهِمْ أَظَلُّ الدَّهْرَ مُشْتَاقَا
يَرْتَاحُ قَلْبِي إِلَى تَيْمٍ وَيَطْرِبُنِي … نَسِيمُ تَيْمٍ إِذَا مَا هَبَّ أَشْوَاقَا
يَا سَعْدُ هَلْ رَبَّةُ الْخَلْخَالِ تَذْكُرُ لِي … بَعْدَ الْبِعَادِ لَنَا عَهْدًا وَمِيثَاقَا
وَهَلْ تَعُودُ لَيَالِي الْوَصْلِ تَجْمَعُنَا … يَوْمًا وَيَشْرَحُ كُلٌّ بَعْضَ مَا لَاقَى
قَالَتْ: فُتِنْتَ بِنَا وَجْدًا فَقُلْتُ لَهَا: … كَمْ قَدْ فَتَنْتِ رَعَاكِ اللهُ عُشَّاقَا
لَا مَتَّعَ اللهُ طَرْفِي فِي مَحَاسِنِهَا … إِنْ كَانَ مِنْ بَعْدِهَا طِيبَ الْكَرَى ذَاقَا
يَا لَسْعَةً فِي فُؤَادِي مَا رَأَيْتُ لَهَا … إِلَّا الْوِصَالَ وَرَشْفَ الثَّغْرِ تِرْيَاقَا

فلما سمع «كان ما كان» هذه الأشعار من صاحب ذلك الصوت ثاني مرة ولم يَرَ شخصه، عرف أن القائل مثله عاشق، مُنِع عن الوصول إلى مَن يحبه، فقال في نفسه: لعلي أجتمع بهذا فيشكو كلٌّ واحد منَّا لصاحبه، وأجعله أنيسي في غربتي. ثمَّ تنحنح ونادى قائلًا: أيها السائر في الليل العاكر، تقرَّبْ مني وقصَّ قصتَكَ عليَّ، لعلك تجدني معينًا لك على بليتك. فلما سمع صاحب الصوت هذا الكلام، أجابه قائلًا: أيها المنادي السامع

لإنشادي، مَن تكون من الفرسان؟ وهل أنت من الإنس أو من الجان؟ فعجِّلْ عليَّ بكلامك قبل دنوِّ حمامك، فإن لي عشرين يومًا وأنا سائر في هذه البرية، فلم أرَ شخصًا، ولم أسمع صوتًا غير صوتك. فلما سمع «كان ما كان» هذا الكلام، قال في نفسه: إن هذه القصة كقصتي، فإنَّ لي أيضًا عشرين يومًا وأنا سائر ولم أسمع صوتًا. فقال له صاحب الصوت: إن كنتَ من الجان، فاذهب بسلام، وإن كنتَ إنسيًّا، فالْبَثْ مليًّا حتى يطلع النهار، ويذهب الليل بالاعتكار. فلما أصبح الصباح، نظر إليه «كان ما كان» فوجده رجلًا من عرب البادية، فتقدَّمَ إليه وسلَّمَ عليه، فردَّ البدوي عليه السلام، وقابله بالتحية والإكرام، إلا أنه احتقره لما رأى صغر سنِّه، وحالته حالة فقير، وقال له: يا فتى، من أي القوم أنت؟ وإلى مَن تُنسَب من العربان؟ وما قصتك وأنت سائر بالليل؟ فإن هذا فعل الأبطال، وقد كلَّمْتَني في الليل كلامًا لا يتكلم به إلا كل فارسٍ همام، وبطل مصدام، وقد صرتَ الآن في قبضتي، إلا أني أرحمك لصغر سنك، فأجعلك رفيقي، وتكون عندي برسم خدمتي.

فلما سمع «كان ما كان» فظاعةَ كلامه بعد ما أبداه من حُسْن نظامه، عرف أنه احتقره وطمع فيه، فقال له بلين الكلام: يا وجه العرب، دعنا من صغر سني وكوني أخدمك، وأخبرني عن سبب سيرك بالليل في القفار، وإنشادك الأشعار؛ فما حملك على هذا؟ فقال له: اسمع يا غلام، إنني صباح بن رماح بن همام، وقومي من عرب الشام، ولي بنت عم اسمها نجمة، كلُّ مَن رآها أتته النعمة، ومات والدي وتربَّيت عند عمي أبي نجمة، فلما كبرَتْ وكبرْتُ، حجبها عني لما رآني فقير الحال، قليل المال، فسقت عليه العرب الكبار وسادات القبائل، فاستحى منهم وأجابني إلى زواجها، إلا أنه اشترط عليَّ خمسين رأسًا من الخيل، وخمسين ناقة، وعشرة عبيد، وعشر جوارٍ، وخمسين حملًا قمحًا ومثلها شعيرًا، وحمَّلني ما لا أطيق، وأكثَرَ عليَّ الصداق، وها أنا أسافر من الشام إلى العراق، ولي عشرون يومًا ما نظرتُ أحدًا سواك، وقصدي أن أدخل أرض بغداد، وأنظر مَن يخرج منها من التجار المياسير الكبار، فأخرج في إثرهم وأسلب أموالهم وأقتل رجالهم وأسوق جمالهم وأحمالهم، فمَن تكون أنت من الناس؟ قال «كان ما كان»: إن قصتي كقصتك، غير أن مرضي أخطر من مرضك؛ لأن ابنة عمي ابنة ملك، وأهلها لا يكفيهم ما ذكرتَ، ولا يرضيهم شيء مثل هذا. فقال صباح: لعلك مهبول أو من كثرة العشق مخبول، كيف تكون بنت عمك بنت ملك وأنت ما عليك سيمة الملوك وما أنت إلا صعلوك؟ فقال: يا واحد العرب، لا تستغرب هذا الحال على تصرفات الزمان، وإن شئت مني البيان، فأنا «كان ما كان» ابن السلطان ضوء المكان ابن الملك عمر النعمان، صاحب بغداد وأرض خراسان،

وقد جار عليَّ الزمان، وتسلطن الملك ساسان، وخرجت من بغداد خفيةً لئلا يراني إنسان، وسافرتُ في هذه الأرض عشرين يومًا ما رأيت أحدًا غيرك، فقصصتك كقصتي، وطلبتك نظير طلبتي.

فلما سمع صباح ذلك الكلام صاح: وا فرحتي قد بلغت منيتي، وليس لي اليوم كسب غيرك؛ لأنك من ذرية الملوك، وإن كنت في زيٍّ صعلوك، فلا بد أن أهلك لا يتركونك، وإذا علموا مكانك بأموالهم يفدونك، فأَدِرْ كتافك يا غلامي، وامشِ قدامي. فقال «كان ما كان»: لا تفعل يا أخا العرب؛ لأن أهلي لا يشترونني بفضةٍ ولا ذهب، وأنا رجلٌ فقير، وما سعى قليل ولا كثير، فدَعْ عنك هذه الأخلاق، واتخذني من الرفاق، واخرج من أرض العراق لنجول في الآفاق؛ لعلنا نفوز بالمهر والصداق، ونحظى من بنتَيْ عمنا بالبوس والعناق. فلما سمع صباح ذلك، غضب وزاد به الالتهاب، وقال له: ويلك أترادني في الجواب يا أخس الكلاب؟ أدِرْ كتافك وإلا أنزلت عليك العذاب. فتبسَّم «كان ما كان» وقال: كيف أدير الكتاف؟ أمَا عندك إنصاف؟ أمَا تخشى معايرة العربان، حيث تأسر غلامًا بالذل والهوان، وما اختبرته في حومة الميدان، وما علمت أهو فارس أم جبان؟ فضحك صباح وقال: يا لله العجب، إنك في سن الغلام، ولكنك كبير الكلام؛ لأن هذا القول لا يصدر إلا عن البطل المصدام. فقال «كان ما كان»: الإنصاف أنك إذا شئتَ أخذي أسيرًا خادمًا لك، أن ترمي سلاحك، وتخفِّف لباسك وتصارعني، وكلُّ مَن صرع صاحبه بلغ منه مرامه، وجعله غلامه. فضحك صباح وقال: ما أظن كثرة كلامك إلا لدنوِّ حمامك. ثم رمى سلاحه، وشمَّرَ أذياله، ودنا من «كان ما كان» وتجاذَبَا، فوجده البدوي يرجح عليه كما يرجح القنطار على الدنيا، ونظر إلى ثبات رجليه في الأرض، فوجدهما كالمئذنتين المؤسستين أو الجبلين الراسخين، فعرف من نفسه قصر باعه، وندم على الدنوِّ من صراعه، وقال في نفسه: ليتني قاتلتُه بسلاحي. ثم إن «كان ما كان» قبضه وتمكَّنَ منه وهزَّه، فحسَّ أن أمعاءه تقطَّعَتْ في بطنه، فصاح: أمسك يدك يا غلام. فلم يلتفت إلى ما أبداه من الكلام، بل حمله من الأرض، وقصد به النهر، فناداه صباح قائلًا: يا أيها البطل، ما تريد أن تفعل بي؟ قال: أريد أن أرميك في هذا النهر، فإنه يوصلك إلى الدجلة، والدجلة توصلك إلى نهر عيسى، ونهر عيسى يوصلك إلى الفرات، والفرات يلقيك إلى بلادك، فيراك قومك فيعرفونك، ويعرفون مروءتك، وصدق محبتك. فصاح صباح ونادى: يا فارس البطاح، لا تفعل فعل القباح، أطلقني بحياة بنت عمك سيدة الملاح. فحطَّه «كان ما كان» على الأرض، فلما رأى نفسه خالصًا، ذهب إلى ترسه وسيفه وأخذهما، وصار يشاور نفسه على الهجوم عليه، فعرف

«كان ما كان» ما يشاور نفسه عليه، فقال له: قد عرفتُ ما في قلبك، حيث أخذتَ سيفك وترسك، فإنه قد خطر ببالك أنك ليس لك يد في الصراع تطول، ولو كنت على فرس تجول، لَكنتَ بسيفك عليَّ تصول، وها أنا أبلغك ما تختار حتى لا يبقى في قلبك إنكار، فأعطني الترس واهجم عليَّ بسيفك، فإما أن تقتلني وإما أن أقتلك. فرمى له الترس، وجرَّد سيفَه، وهجم به على «كان ما كان»، فتناوَلَ الترس بيمينه، وصار يلاقي به عن نفسه، وصار صباح يضربه ويقول له: ما بقي إلا هذه الضربة الفاصلة، فيتلقاها «كان ما كان» وتروح ضائعة، ولم يكن مع «كان ما كان» شيء يضرب به، ولم يزل صباح يضربه بالسيف حتى كلَّت يده، وعرف «كان ما كان» ضعف قوته، وانحلال عزيمته، فهجم عليه وهزَّه، وألقاه في الأرض، وكتَّفه بحمائل سيفه، وجرَّه من رجليه إلى جهة النهر، فقال صباح: وما تريد أن تصنع بي يا فارس الزمان وبطل الميدان؟ قال: أَلَمْ أقل لك إنني أُرسِلك إلى قومك في النهر، حتى لا يشتغل خاطرهم عليك، وتتعوَّق عن عرس بنت عمك؟ فتضجَّرَ صباح وبكى وصاح، وقال: لا تفعل يا فارس الزمان، واجعلني لك من بعض الغلمان. ثم أفاض دمع العين، وأنشد هذين البيتين:

تَغَرَّبْتُ عَنْ أَهْلِي فَيَا طُولَ غُرْبَتِي ... وَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَمُوتُ غَرِيبَا
أَمُوتُ وَأَهْلِي لَيْسَ تَعْرِفُ مَقْتَلِي ... وَأُودَى غَرِيبًا لَا أَزُورُ حَبِيبَا

فرحمه «كان ما كان»، وأطلقه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق أنه يصحبه في الطريق، ويكون له نِعْمَ الرفيق، ثم إن صباحًا أراد أن يقبِّل يدَ «كان ما كان»، فمنعه من تقبيلها، ثم قام البدوي إلى جرابه وفتحه، وأخذ منه ثلاث قرصات شعير وحطَّها قدام «كان ما كان»، وجلس معه على شاطئ النهر، وأكلَا مع بعضهما ثم توضَّآ وصلَّيَا وجلسَا يتحدَّثان فيما لقياه من صروف الزمان، فقال «كان ما كان» للبدوي: أين تقصد؟ فقال صباح: أقصد بغداد بلدك، وأقيم بها حتى يرزقني الله بالصداق. فقال له: دونك والطريق. ثم ودَّعه البدوي وتوجَّهَ في طريق بغداد، وقام «كان ما كان» وقال في نفسه: يا نفسي، أي وجه للرجوع مع الفقر والفاقة؟ فوالله لا أرجع خائبًا، ولا بد لي من الفرج إن شاء الله. ثم تقدَّمَ إلى النهر وتوضأ وصلَّى، فلما سجد ووضع جبهته على التراب، نادى ربَّه قائلًا: اللهم منزِّل القطر، ورازق الدود في الصخر، أسألك أن ترزقني بقدرتك ولطيف رحمتك. ثم سلَّمَ من صلاته، وضاق به كل مسلك، فبينما هو جالس يلتفت يمينًا وشمالًا، وإذا بفارسٍ أقبَلَ على جواد وقد اقتعد ظهره، وأرخى عنانه، فاستوى «كان ما كان» جالسًا،

وبعد ساعة وصل إليه الفارس، وهو في آخِر نفس؛ لأنه كان به جرح بالغ، فلما وصل إليه جرت دمعة على خده مثل أفواه القرب، وقال لـ «كان ما كان»: يا وجه العرب، اتخذني ما عشت لك صديقًا، فإنك لا تجد مثلي، واسقني قليلًا من الماء، وإن كان شرب الماء لا يصلح للجروح، سيَّما وقت خروج الروح، وإن عشت أعطيتُكَ ما يدفع فقرك، وإن متُّ فأنت المسعود بحسن نيتك.

وكان تحت الفارس حصان يتحيَّر في حُسْنه الإنسان، ويكلُّ عن وصفه اللسان، وله قوائم مثل أعمدة الرخام، مُعَدٌّ ليوم الحرب والزحام، فلما نظر «كان ما كان» إلى ذلك الحصان، أخذه الهيام وقال في نفسه: إن مثل هذا الحصان لا يكون في هذا الزمان. ثم إنه أنزل الفارس، ورفق به، وجرعه يسيرًا من الماء، ثم صبر عليه حتى أخذ الراحة، وأقبل عليه وقال له: مَن الذي فعل بك هذه الفعال؟ فقال الفارس: أنا أخبرك بحقيقة الحال؛ إني رجل سلال غيَّار، طول دهري أسلُّ الخيل، واختلسها في الليل والنهار، واسمي غسان، آفة كل فرسٍ وحصان، وقد سمعت بهذا الحصان في بلاد الروم عند الملك أفريدون، وقد سمَّاه بالقاتول، ولقَّبه بالمجنون، وقد سافرت إلى القسطنطينية من أجله، وصرت أراقبه، فبينما أنا كذلك إذ خرجت عجوز معظَّمة عند الروم، وأمرها عندهم في الخداع متناهٍ، تسمَّى شواهي ذات الدواهي، ومعها هذا الجواد، وصحبتها عشرة عبيد لا غير برسم خدمة ذلك الحصان، وهي تقصد بغداد وتريد الدخول على الملك ساسان لتطلب منه الصلح والأمان، فخرجتُ في إثرهم طمعًا في الحصان، وما زلت تابعهم ولا أتمكَّن من الوصول إليه؛ لأن العبيد شداد الحرص عليه، إلى أن وصلوا إلى تلك البلاد، وخفت أن يدخلوا مدينة بغداد، فبينما أنا أشاور نفسي في سرقة الحصان، إذ طلع عليهم غبار حتى سدَّ الأقطار، ثم انكشف ذلك الغبار عن خمسين فارسًا مجتمعين لقطع الطريق على التجار، ورئيسهم يقال له كهرداش، ولكنه في الحرب كأسد يجعل الأبطال كالفراش. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الفارس المجروح قال لضوء المكان: فخرج على العجوز ومَنْ معها كهرداش، ثم أحاط بهم وهاش وناش، فلم تمضِ ساعة حتى ربط العشرة عبيد والعجوز وتسلَّم الحصان، وسار بهم وهو فرحان، فقلت في نفسي: قد ضاع تعبي وما بلغت أربي. ثم صبرت حتى أنظر ما يئُول إليه الأمر، فلما رأت العجوز روحها في الأسر، بكت وقالت لكهرداش: أيها الفارس الهمام والبطل الضرغام، ماذا تصنع بالعجوز والعبيد، وقد بلغت من الحصان ما تريد؟ وخادعته بلين الكلام، وحلفت أنها تسوق له الخيل والأنعام، فأطلقها هي والعبيد، ثم سار هو وأصحابه وتبعتهم حتى وصلت إلى هذه الديار وأنا ألاحظه، فلما وجدتُ إليه سبيلًا سرقتُه وركبته، وأخرجت من مخلاتي سوطًا فضربته، فلما أحسُّوا بي لحقوني وأحاطوا بي من كل مكان ورموني بالسهام والسنان، وأنا ثابت عليه، وهو يقاتل عني بيديه ورجليه، إلى أن خرج بي من بينهم مثل النجم الطارق والسهم الراشق، ولكن لما اشتد الكفاح أصابني بعض الجراح، وقد مضى لي على ظهره ثلاثة أيام لم أستطعم بطعام، وقد ضعفت مني القوى وهانت عليَّ الدنيا، وأنت أحسنتَ إليَّ وشفقتَ عليَّ، وأراك عاري الجسد ظاهر الكمد، ويلوح عليك أثر النعمة، فما يقال لك؟ فقال: أنا يقال لي «كان ما كان» ابن الملك ضوء المكان، ابن الملك عمر النعمان، قد مات والدي ورُبيت يتيمًا، وتولَّى بعده رجل لئيم، وصار ملكًا على الحقير والعظيم. ثم حدَّثه بحديثه من أوله إلى آخره، فقال الرجل السلَّال وقد رقَّ له: إنك ذو حسب عظيم، وشرف جسيم، وليكن لك شأن وتصير أفرس هذا الزمان، فإن قدرت أن تحملني وتركب ورائي وتودِّيني إلى بلادي، يكن لك الشرف في الدنيا والأجر في يوم التنادي؛ فإنه لم يَبْقَ لي قوة أمسك بها نفسي، وإنْ متُّ في الطريق، فزتُ بهذا الحصان، وأنت أولى به من كل إنسان. فقال له «كان ما كان»: والله لو قدرتُ أن أحملك على أكتافي لَفعلتُ، ولو كان

عمري بيدي لَأعطيتُكَ نصفه من غير هذا الجواد؛ لأني من أهل المعروف وإغاثة الملهوف، وفعل الخير لوجه الله تعالى يسدُّ سبعين بابًا من البلاء. وعزم على أن يحمله على الحصان ويسير متوكلًا على اللطيف الخبير، فقال له: اصبر عليَّ قليلًا. ثم أغمض عينيه وفتح يديه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. وتهيَّأ للممات وأنشد هذه الأبيات:

ظَلَمْتُ الْعِبَادَ وَطُفْتُ الْبِلَادَ وَأَمْضَيْتُ عُمْرِي بِشُرْبِ الْخُمُورِ
وَخُضْتُ السُّيُولَ لِسَلِّ الْخُيُولِ وَهَدْمِ الطُّلُولِ بِفِعْلِ النُّكُورِ
وَأَمْرِي عَظِيمٌ وَجُرْمِي جَسِيمٌ وَقَاتُولُ مِنِّي تَمَامُ الْأُمُورِ
وَأَمَّلْتُ أَنِّي أَنَالُ الْمُنَى بِذَاكَ الْحِصَانِ فَأَعْيَا مَسِيرِي
وَطُولَ الْحَيَاةِ أَسَلُّ الْخُيُولَ فَكَانَتْ وَفَاتِيَ عِنْدَ الْقَدِيرِ
وَآخِرُ أَمْرِي شَقِيتُ تَعِبْتُ لِرِزْقِ الْغَرِيبِ الْيَتِيمِ الْفَقِيرِ

فلما فرغ من شعره، أغمض عينيه وفتح فاه وشهق شهقة، ففارَقَ الدنيا، فحفر له «كان ما كان» حفرةً وواراه في التراب، ثم مسح وجه الحصان ورآه لا يوجد في حوزة الملك ساسان، ثم أتته الأخبار من التجار بجميع ما جرى في غيبته بين الملك ساسان والوزير دندان، وأن الوزير دندان خرج عن طاعة الملك ساسان هو ونصف العسكر، وحلفوا أنهم ما لهم سلطان إلا «كان ما كان»، واستوثق منهم بالأيمان، ودخل بهم إلى جزائر الهند والبربر وبلاد السودان، واجتمع معهم عساكر مثل البحر الزاخر، لا يعرف لهم أول من آخِر، وعزم على أن يرجع بجميع الجيوش إلى البلاد، ويقتل مَن خالَفَه من العباد، وأقسَمَ على أنه لا يردُّ سيفَ الحرب إلى غمده، حتى يملك «كان ما كان». فلما بلغته الأخبار، غرق في بحر الأفكار، ثم إن الملك ساسان علم أن الدولة انحرفت عليه الكبار والصغار، فغرق في بحر الهموم والأكدار، وفتح الخزائن وفرَّق على أرباب الدولة الأموال والنِّعَم، وتمنى أن يقدم عليه «كان ما كان»، ويجذب قلبه إليه بالملاطفة والإحسان، ويجعله أميرًا على العساكر الذين لم يزالوا تحت طاعته، لتقوى به شرارة جمرته.

ثم إن «كان ما كان» لما بلغه ذلك الخبر من التجار، رجع مسرعًا إلى بغداد على ظهر ذلك الجواد، فبينما الملك ساسان في ربكته حيران، إذ سمع بقدوم «كان ما كان»، فأخرج جميع العساكر ووجهاء بغداد لملاقاته، فخرج كلُّ مَن في بغداد ولاقوه ومشوا قدامه إلى القصر، ودخلت الطواشية بالأخبار إلى أمه، فجاءت إليه وقبَّلَتْه بين عينيه، فقال: يا أماه،

دعيني أمضي إلى عمي السلطان ساسان، الذي غمرني بالنعمة والإحسان. ثم إن أرباب الدولة تحيَّروا في وصف ذلك الحصان، وفي وصف صاحبه سيد الفرسان، وقالوا للملك ساسان: أيها الملك، إننا ما رأينا مثل هذا الإنسان. ثم ذهب الملك ساسان إليه وسلَّمَ عليه، فلما رآه «كان ما كان» مُقبِلًا عليه، قام إليه وقبَّلَ يديه ورجليه، وقدَّم إليه الحصان هدية، فرحَّب به وقال: أهلًا وسهلًا بولدي «كان ما كان»، والله لقد ضاقت بي الأرض لأجل غيبتك، والحمد لله على سلامتك.

ثم نظر السلطان إلى هذا الحصان المسمَّى بالقاتول، فعرف أنه الحصان الذي رآه سنة كذا وكذا في حصار عَبَدة الصلبان مع أبيه ضوء المكان، حين قتل عمه شركان وقال له: لو قدر عليه أبوك لَاشتراه بألف جواد، ولكن الآن عاد العز إلى أهله، وقد قبلناه، ومنَّا لك وهبناه، وأنت أحقُّ به من كل إنسان؛ لأنك سيد الفرسان. ثم أمر أن يحضروا لـ «كان ما كان» خلعة سنيَّة وجملة من الخيل، وأفرد له في القصر أكبر الدُّورِ، وأقبل عليه العز والسرور، وأعطاه مالًا جزيلًا، وأكرمه غاية الإكرام؛ لأنه كان يخشى عاقبة أمر الوزير دندان، ففرح بذلك «كان ما كان»، وذهب عنه الذل والهوان، ودخل بيتَه وأقبَلَ على أمه وقال: يا أمي، ما حال ابنة عمي؟ فقالت: والله يا ولدي، إنه كان عندي من غيبتك ما أشغلني عن محبوبتك. فقال: يا أمي، اذهبي إليها وأقبلي عليها؛ لعلها تجود عليَّ بنظرة. فقالت له: إن المطامع تذلُّ أعناقَ الرجال، فدَعْ عنك هذا المقال؛ لئلا يفضي بك إلى الوبال، فأنا لا أذهب إليها، ولا أدخل بهذا الكلام عليها. فلما سمع من أمه ذلك، أخبرها بما قاله السلَّال من أن العجوز ذات الدواهي طرقت البلاد، وعزمت على أن تدخل بغداد، وقال: هي التي قتلت عمي وجدي، ولا بد أن أكشف العار وآخذ الثأر. ثم ترك أمه، وأقبل على عجوز عاهرة محتالة ماكرة اسمها سعدانة، وشكا إليها حاله، وما يجده من حب «قضى فكان»، وسألها أن تتوجه إليها وتستعطفها عليه، فقالت له العجوز: سمعًا وطاعةً. ثم فارقَتْه ومضت إلى قصر «قضى فكان»، واستعطفت قلبها عليه، ثم رجعت إليه وأعلمته بأنَّ «قضى فكان» تسلِّم عليه، ووعدتها أنها في نصف الليل تجيء إليه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤٢

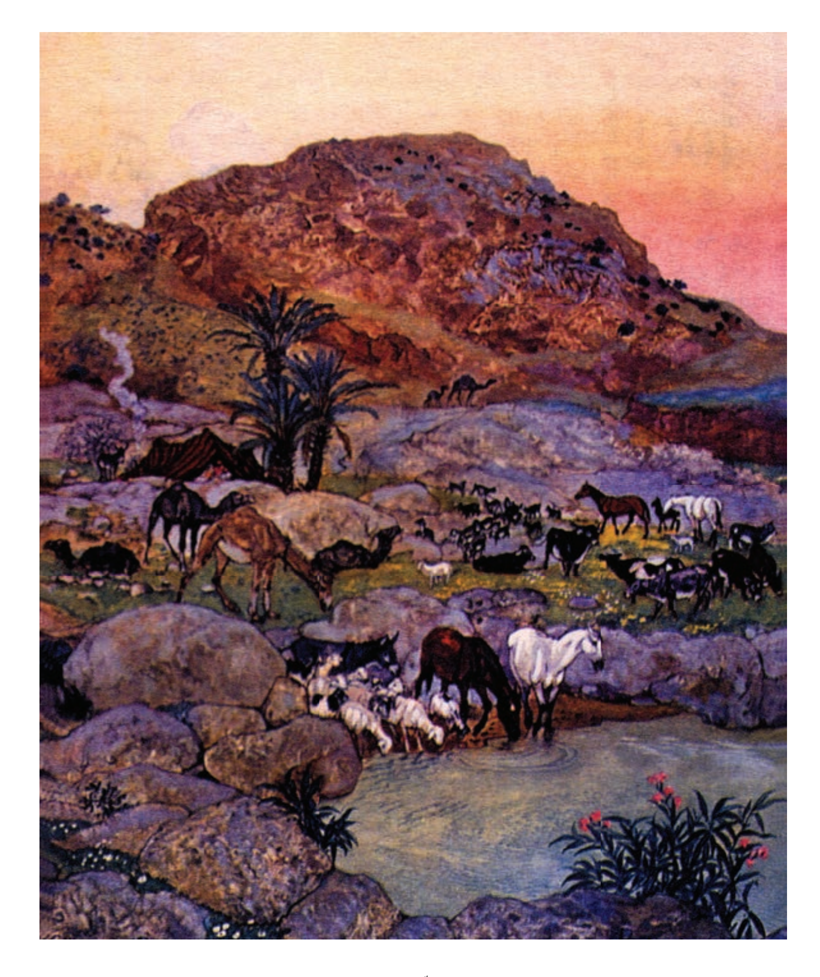
قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز رجعت إلى «كان ما كان»، وأعلمته بأن «قضى فكان» تسلِّم عليه، ووعدتها أنها في نصف الليل تجيء إليه؛ فلما بلغه ذلك الخبر، فرح لوعد ابنة عمه «قضى فكان»، فلما جاء نصف الليل أتته بملاءة سوداء من الحرير، ودخلت عليه ونبَّهَتْه من نومه، وقالت له: كيف تدَّعِي أنك تحبني، وأنت خليُّ البال، نائم على أحسن الحال؟ فانتبه وقال: والله يا منية القلب، إني ما نمتُ إلا طمعًا في أن يزورني منك طيفُ الخيال. فعند ذلك عاتبَتْه بلطيف الكلمات، وأنشدت هذه الأبيات:

لَوْ كُنْتَ تَصْدُقُ فِي الْمَحَبَّـ ـةِ مَا جَنَحْتَ إِلَى الْمَنَامِ
يَا مُدَّعِي طُرُقَ الْمَحَبَّـ ـةِ فِي الْمَوَدَّةِ وَالْغَرَامِ
وَاللهِ يَا ابْنَ الْعَمِّ مَا رَقَدَتْ عُيُونُ الْمُسْتَهَامِ

فاستحيا منها «كان ما كان»، وتعانَقَا وتشاكيا ألمَ الفراق، وعظيم الوَجْد والاشتياق، ولم يزالا كذلك إلى أن بدت غرةُ الصباح، وطلع الفجر ولاح، فبكى «كان ما كان» بكاءً شديدًا، وصعَّد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

فَيَا زَائِرِي مِنْ بَعْدِ فَرْطِ صُدُودِهِ وَفِي الثَّغْرِ مِنْهُ الدُّرُّ فِي نَظْمِ عَقْدِهِ
فَقَبَّلْتُهُ أَلْفًا وَعَانَقْتُ قَدَّهَ وَبِتُّ وَخَدِّي لَاصِقٌ تَحْتَ خَدِّهِ
إِلَى أَنْ بَدَا نُورُ الصَّبَاحِ فَرَاعَنَا كَحَدِّ حُسَامٍ لَاحَ مِنْ جَوْفِ غُمْدِهِ

فلمَّا فرغ من شعره، ودَّعَتْه «قضى فكان»، ورجعت إلى خدرها، وأظهرت بعض الجواري على سرِّها، فذهبت جارية منهن إلى الملك ساسان، وأعلمته بالخبر، فتوجَّه إلى



وفي اليوم الخامس أشرَفا على تلٍّ عالٍ، تحته مَرابعُ فيها إبلٌ وغَنَم.

«قضى فكان»، وجرَّدَ عليها الحسام، وأراد أن يضرب عنقها، فدخلت عليه أمها نزهة الزمان، وقالت له: بالله لا تفعل بها ضررًا، فإنك إنْ فعلتَ بها ضررًا يشيع الخبر بين الناس، وتبقى معيرة عند ملوك الزمان؛ إنَّ «كان ما كان» صاحب عرض ومروءة، ولا يفعل أمرًا يُعاب عليه، فاصبر ولا تعجل؛ فإن أهل القصر وجميع أهل بغداد قد شاع عندهم أن الوزير دندان قاد العساكر من جميع البلدان، وجاء بهم ليملِّكوا «كان ما كان».

فقال لها: لا بد أن أرميه في بلية، بحيث لا أرض تقله ولا سماء تظله، وإني ما طيبت خاطره ولا أنعمت عليه إلا لأجل أهل مملكتي لئلا يميلوا إليه، وسوف ترين ما يكون. ثم تركها وخرج يدبر أمر مملكته.

هذا ما كان من أمر الملك ساسان، وأما ما كان من أمر «كان ما كان»، فإنه أقبل على أمه في ثاني يوم، وقال لها: يا أمي، إني عزمت على شن الغارات، وقطع الطرقات، وسوق الخيل والنِّعَم والعبيد والمماليك، وإذا كَثُر مالي وحَسُن حالي، خطبت «قضى فكان» من عمي ساسان، فقالت: يا ولدي، إن أموال الناس غير سائبة؛ لأن دونها ضرب الصفاح، وطعن الرماح، ورجالًا تقتنص الأسود، وتصيد الفهود. فقال لها «كان ما كان»: هيهات أن أرجع عن عزيمتي إلا إذا بلغتُ منيَّتي. ثم أرسَلَ العجوز إلى «قضى فكان» ليعلمها أنه يريد السير حتى يحصِّل لها مهرًا يصلح لها. وقال للعجوز: لا بد أن تأتيني منها بجواب. فقالت له: سمعًا وطاعة. ثم ذهبت إليها ورجعت له بالجواب، وقالت له: إنها في نصف الليل تكون عندك. فأقام سهران إلى نصف الليل من قلقه، فلم يشعر إلا وهي داخلة عليه، وتقول له: روحي فداك من السهر. فنهض لها قائمًا وقال: يا مُنية القلب، روحي فداكِ من جميع الأسواء. ثم أعلمها بما عزم عليه فبكت، فقال لها: لا تبكي يا بنت العم، فأنا أسأل الذي حكم علينا بالفراق أن يمنَّ علينا بالتلاقي والوفاق.

ثم إن كان ما كان أخذ في السفر، ودخل على أمه وودَّعها، ونزل من القصر، وتقلَّد بسيفه وتعمَّم وتلثَّم، وركب جواده القاتول، ومشى في شوارع المدينة وهو كالبدر حتى وصل إلى باب بغداد، وإذا برفيقه صباح بن رباح خارج من المدينة، فلما رآه جرى في ركابه وحيَّاه، فردَّ عليه السلام، فقال صباح: يا أخي، كيف صار لك هذا الجواد وهذا المال، وأنا الآن لا أملك غير سيفي؟ فقال له «كان ما كان»: ما يرجع الصياد إلَّا بصيد على قدر نيَّته، وبعد فراقك بساعة حصلَتْ لي السعادة، وهل لك أن تأتي معي، وتخلص النية في صحبتي، ونسافر في تلك البرية؟ فقال: ورب الكعبة ما بقيت أدعوك إلا مولاي. ثم جرى قدام الجواد وسيفه على عاتقه، وجرابه بين كتفيه، ولم يزالَا سائرَيْن في البر أربعة أيام، وهما يأكلان من صيد الغزلان، ويشربان من ماء العيون. وفي اليوم الخامس أشرفَا على تلٍّ عالٍ، تحته مرابع فيها إبل وغنم وبقر وخيل قد ملأت الروابي والبطاح، وأولادها الصغار تلعب حول المراح، فلما رأى ذلك «كان ما كان» زادت به الأفراح، وامتلأ صدره بالانشراح، وعوَّل على القتال، وأَخْذِ النياق والجمال، فقال لصباح: انزل بنا على هذا المال الذي عن أهله وحيد، ونقاتل دونه القريب والبعيد، حتى يكون لنا في أخذه نصيب. فقال

صباح: يا مولاي، إن أصحابه خلق كثير، وجمٌّ غفير، وفيهم أبطال من فرسان ورجال، وإن رمينا أرواحنا في هذا الخطب الجسيم، فإننا نكون من هوله على خطر عظيم، فضحك «كان ما كان»، وعلم أنه جبان، فتركه وانحدر من الرابية عازمًا على شنِّ الغارات، وترنَّمَ بإنشاد هذه الأبيات:

وَآلُ نُعْمَانَ نَحْنُ ذُو الْهِمَمِ وَالسَّادَةُ الضَّارِبُونَ فِي الْقِمَمِ
قَوْمٌ إِذَا مَا الْهِيَاجُ قَامَ لَهُمْ قَامُوا بِأَسْوَاقِهِ عَلَى قَدَمِ
تَنَامُ عَيْنَا الْفَقِيرِ بَيْنَهُمُ وَلَا يَرَى قُبْحَ صُورَةِ الْعَدَمِ
وَإِنَّنِي أَرْتَجِي مُعَاوَنَةً مِنْ مَالِكِ الْمُلْكِ بَارِئِ النَّسَمِ

ثم حمل على ذلك المال مثل الجمل الهائج، وساق جميع الإبل والبقر والغنم والخيل قُدَّامه، فتبادرت إليه العبيد بالسيوف الصقال والرماح الطوال، وفي أولهم فارس تركي إلا أنه شديد الحرب والكفاح، عارف بأعمال سمر القنا وبيض الصفاح، فحمل على «كان ما كان»، وقال له: ويلك! لو علمتَ لَمَن هذا المال ما فعلتَ هذه الفِعال، اعلم أن هذه الأموال للعصابة الرومية والفرقة الجركسية، الذين ما فيهم إلا كل بطل عابس، وهم مائة فارس قد خرجوا عن طاعة كل سلطان، وقد سُرِق منهم حصان، وحلفوا ألَّا يرجعوا من هنا إلا به. فلما سمع «كان ما كان» هذا الكلام، صاح قائلًا: هذا هو الحصان الذي تعنون، وأنتم له طالبون، وفي قتالي بسببه راغبون، فبارزوني كلكم أجمعون، وشأنكم وما تريدون. ثم صرخ بين أذني القاتول، فخرج عليهم مثل الغول، وعطف على الفارس وطعنه فأخرج كلاه، ومال على ثانٍ وثالث ورابع أعدمهم الحياة، فعند ذلك هابته العبيد، فقال لهم: يا بني الزواني، سوقوا المال والخيول وإلا خضبتُ من دماكم سناني. فساقوا المال، وأخذوا في الانطلاق، وانحدر إليه صباح، وأعلن بالصياح، وزادت به الأفراح، وإذا بغبار علا وطار حتى سدَّ الأقطار، وبان من تحته مائة فارس مثل الليوث العوابس، فلما رآهم صباح فرَّ إلى الرابية وترك البطاح، وصار يتفرج على الكفاح، وقال: ما أنا فارس إلا في اللعب والمزاح. ثم إن المائة فارس داروا حول «كان ما كان»، وأحاطوا به من كل مكان، فتقدَّمَ إليه فارس منهم وقال له: أين تذهب بهذا المال؟ فقال له «كان ما كان»: دونك والقتال، واعلم أن من دونه أسد أروع، وبطل سميدع، وسيف أينما مال قطع.

فلما سمع الفارس ذلك الكلام، التفت إليه فرآه فارسًا كالأسد الضرغام، إلا أن وجهه كبدر التمام، وكان ذلك الفارس رئيس المائة فارس، واسمه كهرداش، فلما رأى

«كان ما كان» مع كمال فروسيته بديعَ المحاسن، يشبه حُسْنُه حُسْنَ معشوقةٍ له يقال لها «فاتن»، وكانت من أحسن النساء وجهًا، قد أعطاها الله من الحُسْن والجمال وكرم الخصال ما يعجز عن وصفه اللسان، ويشغل قلب كل إنسان، وكانت فرسان القوم تخشى سطوتها، وأبطال ذلك القُطْر تخاف من هيبتها، وحلفت أنها لا تتزوج إلا مَن يقهرها، وكان كهرداش من جملة خُطَّابها، فقالت لأبيها: ما يقربني إلا مَن يقهرني في الميدان، وموقف الحرب والطعان. فلما بلغ كهرداش هذا القول اختشى أن يقاتل جارية، وخاف من العار، فقال له بعض خواصه: أنت كامل الخصال في الحسن والجمال، فلو قاتلتها وكانت أقوى منك فإنك تغلبها؛ لأنها إذا رأت حُسْنَك وجمالك تنهزم قدَّامك حتى تملكها؛ لأن النساء لهنَّ غرض في الرجال، ولا يخفى عنك هذا الحال. فأبى كهرداش وامتنع من قتالها، واستمرَّ على امتناعه من القتال إلى أن جرت له مع «كان ما كان» هذه الأفعال، فظنَّ أنه محبوبته فاتن، وقد عشقَتْه لما سمعت بحُسْنه وشجاعته، فتقدَّمَ إلى «كان ما كان» وقال: ويلك يا فاتن! قد أتيتِ لتريني شجاعتك، فانزلي عن جوادك حتى أتحدث معك، فإني قد سقتُ هذه الأموال، وقطعت الطريق على الفرسان والأبطال، وكل هذا لحُسْنك وجمالك الذي ما له مثيل، وتزوَّجِيني حتى تخدمك بنات الملوك، وتصيري ملكةَ هذه الأقطار.

فلما سمع «كان ما كان» هذا الكلام، صارت نار غيظه في اضطرام، وقال: ويلك يا كلب الأعجام! دَعْ فاتنًا وما بها ترتاب، وتقدَّمْ إلى الطعن والضراب، فعن قليل تبقى على التراب. ثم جال وصال، وطلب الحرب والنزال، فلما نظر كهرداش إليه علم أنه فارس همام، وبطل مصدام، وتبيَّنَ له خطأ ظنه؛ حيث لاح له عذار أخضر فوق خده كآسٍ نبتَ خلال ورد أحمر، وقال للذين معه: ويلكم! ليحمل واحد منكم عليه، ويظهر له السيف البتار، والرمح الخطار، واعلموا أن قتال الجماعة للواحد عار، ولو كان في سنان رمحه شعلة نار. فعند ذلك حمل عليه فارس تحته جواد أدهم، بتحجيل وغرَّة كالدرهم، يحيِّر العقلَ والناظر، كما قال فيه الشاعر:

قَدْ جَاءَكَ الْمُهْرُ الَّذِي نَزَلَ الْوَغَى ... جَزْلَانَ يَخْلِطُ أَرْضَهُ بِسَمَائِهِ
وَكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ ... وَاقْتَصَّ مِنْهُ فَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ

ثم إن ذلك الفارس حمل على «كان ما كان»، وتجاولَا في الحرب برهة من الزمان، وتضاربا ضربًا يحيِّر الأفكار، ويغشي الأبصار، فسبقه «كان ما كان» بضربة بطل شجاع

قطعت منه العمامة والمِغفر، فمال عن الجواد كأنه البعير إذا انحدر، وحمل عليه الثاني والثالث والرابع والخامس، ففعل بهم كالأول، ثم حمل عليه الباقون، وقد اشتد بهم القلق، وزادت الحرق؛ فما كان إلا ساعة حتى التقطهم بسنان رمحه، فنظر كهرداش إلى هذا الحال، فخاف من الارتحال، وعرف من نفسه أن عنده ثبات الجنان، واعتقد أنه أوحد الأبطال والفرسان، فقال لـ «كان ما كان»: قد وهبتُ لك دمك ودم أصحابي، فخذ من المال ما شئتَ واذهب إلى حال سبيلك، فقد رحمتك لحُسْن ثباتك والحياة أولى بك. فقال له «كان ما كان»: لا عدمت مروءة الكرام، ولكن اترك عنك هذا الكلام، وفُز بنفسك ولا تخشَ الملام، ولا تطمع نفسك في ردِّ الغنيمة، واسلك لنجاة نفسك طريقة مستقيمة.

فعند ذلك اشتد بكهرداش الغضب، وحصل عنده ما يوجب العطب، فقال لـ «كان ما كان»: ويلك! لو عرفت مَن أنا ما نطقت بهذا الكلام في حومة الزحام، فاسأل عني، فأنا الأسد البطَّاش المعروف بكهرداش، الذي نهب الملوك الكبار، وقطع الطريق على جميع السفار، وأخذ أموال التجار، وهذا الحصان الذي تحتك طِلبتي، وأريد أن تعرِّفني كيف وصلتَ إليه حتى استوليت عليه. فقال: اعلم أن هذا الجواد كان سائرًا إلى عمي الملك ساسان تحت عجوز كبيرة، ولنا عندها ثأر من جهة جدي الملك عمر النعمان وعمي الملك شركان. فقال كهرداش: ويلك! ومَن أبوك لا أم لك؟ فقال: اعلم أني كان ما كان بن ضوء المكان بن عمر النعمان. فلما سمع كهرداش هذا الخطاب قال: لا يُستنكَر عليك الكمال، والجمع بين الفروسية والجمال. ثم قال له: توجَّهْ بأمان؛ فإن أباك كان صاحب فضل وإحسان. فقال له «كان ما كان»: أنا والله ما أوقِّرك يا مهان. فاغتاظ البدوي، ثم حمل كلٌّ منهما على صاحبه، فسدت لهما الخيل آذانها، ورفعت أذنابها، ولم يزالا يصطدمان حتى ظن كلٌّ منهما أن السماء قد انشقت، ثم بعد ذلك تقاتلا ككباش النطاح، واختلفت بينهما طعنات الرماح، فحاوله كهرداش بطعنة، فزاغ عنها «كان ما كان»، ثم كرَّ عليه وطعنه في صدره، فأطلع السنان من ظهره، وجمع الخيل والأسلاب، وصاح في العبيد: دونكم والسوق الشديد. فنزل عند ذلك صباح، وجاء إلى «كان ما كان» وقال له: أحسنت يا فارس الزمان، إني دعوت لك وقد استجاب ربي دعائي. ثم إن صباحًا قطع رأس كهرداش، فضحك «كان ما كان» وقال له: ويلك يا صباح! كنتُ أظن أنك فارس الحرب والكفاح. فقال له: لا تنسَ عبدك من هذه الغنيمة، لعلي أصل بسببها إلى زواج بنت عمي نجمة. فقال له: لا بد لك فيها من نصيب، ولكن كن محافظًا على الغنيمة والعبيد.

ثم إن كان ما كان سار متوجهًا إلى الديار، ولم يزل سائرًا بالليل والنهار، حتى أشرف على مدينة بغداد، وعلمت به جميع الأجناد، ورأوا ما معه من الغنيمة والأموال،

ورأس كهرداش على رمح صباح، وعرف التجار رأس كهرداش، ففرحوا وقالوا: لقد أراح الله الخلق منه؛ لأنه كان قاطع الطريق. وتعجَّبوا من قتله، ودعوا لقاتله، وأتت أهل بغداد إلى «كان ما كان» بما جرى من الأخبار، فهابته جميع الرجال، وخافته الفرسان والأبطال، وساق ما معه إلى أن أوصله تحت القصر، وركَّز الرمح الذي عليه رأس كهرداش إلى باب القصر، ووهب للناس وأعطاهم الخيل والجمال، فأحبه أهل بغداد ومالت إليه القلوب، ثم أقبل على صباح، وأنزله في بعض الأماكن الفساح، ثم دخل على أمه، وأخبرها بما جرى له في سفره، وقد وصل إلى الملك خبره، فقام من مجلسه واختلى بخواصه، وقال لهم: اعلموا أني أريد أن أبوح لكم بسري، وأبدي لكم مكنون أمري، اعلموا أن «كان ما كان» هو الذي يكون سببًا لانقلاعنا من هذه الأوطان؛ لأنه قتل كهرداش، مع أن له قبائل من الأكراد والأتراك، وأمرنا معه آيل إلى الهلاك، وأكثر خوفنا من أقاربه، وقد علمتم بما فعل الوزير دندان، فإنه جحد معروفي بعد الإحسان، وخانني في الأيمان، وبلغني أنه جمع عساكر البلدان، وقصد أن يسلطن «كان ما كان»؛ لأن السلطنة كانت لأبيه وجده، ولا شك أنه قاتلي لا محالة.

فلما سمع خواص مملكته منه هذا الكلام، قالوا له: أيها الملك، إنه أقل من ذلك، ولولا أننا علمنا بأنه تربيتك لم يقبل عليه منَّا أحد، واعلم أننا بين يديك؛ إنْ شئتَ قتْلَه قتلناه، وإن شئتَ بُعْدَه أبعدناه. فلما سمع كلامهم قال: إن قتله هو الصواب، ولكن لا بد من أخذ الميثاق. فتحالفوا على أنهم لا بد أن يقتلوا «كان ما كان»، فإذا أتى الوزير دندان وسمع بقتله، تضعف قوته عمَّا هو عازم عليه، فلما أعطوه العهدَ والميثاقَ على ذلك، أكرمهم غايةَ الإكرام، ثم دخل بيته، وقد تفرَّق عنه الرؤساء، وامتنعت العساكر من الركوب والنزول حتى يبصروا ما يكون؛ لأنهم رأوا غالب العسكر مع الوزير دندان، ثم إن الخبر وصل إلى «قضى فكان»، فحصل عندها غمٌّ زائد، وأرسلت إلى العجوز التي عادتها أن تأتيها من عند ابن عمها بالأخبار، فلما حضرت عندها أمرتها أن تذهب إليه وتخبره بالخبر، فلما وصلت إليه العجوز سلَّمت عليه ففرح بها، وأخبرته بالخبر، فلما سمع ذلك قال: بلِّغي بنت عمي سلامي، وقولي لها: إن الأرض لله — عز وجل — يورثها مَن يشاء من عباده، وما أحسن قول القائل:

الْمُلْكُ للهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ مُنًى ... يَرْدُدْهُ قَهْرٌ وَيَضْمَنْ عِنْدَهُ الدَّرَكَا
لَوْ كَانَ لِي أَوْ لِغَيْرِي قَدْرُ أَنْمُلَةٍ ... مِنَ التُّرَابِ لَكَانَ الْأَمْرُ مُشْتَرَكَا

فرجعت العجوز إلى بنت عمه وأخبرتها بما قاله، وأعلمتها بأن «كان ما كان» أقام في المدينة، ثم إن الملك ساسان صار ينتظر خروجه من بغداد ليرسل وراءه مَن يقتله،

فاتفق أنه خرج إلى الصيد والقنص وخرج صباح معه؛ لأنه كان لا يفارقه ليلًا ولا نهارًا، فاصطاد عشر غزالات، وفيهنَّ غزالة كحلاء العيون، صارت تتلفت يمينًا وشمالًا فأطلقها، فقال له صباح: لأي شيء أطلقتَ هذه الغزالة؟ فضحك «كان ما كان» وأطلق الباقي، وقال له: إن من المروءة إطلاق الغزالات التي لها أولاد، وما تتلفت تلك الغزالة إلا لأن لها أولادًا، فأطلقتُها وأطلقت الباقي في كرامتها. فقال له صباح: أطلقني حتى أروح إلى أهلي. فضحك وضربه بعقب الرمح على قلبه، فوقع على الأرض يلتوي كالثعبان.

فبينما هما كذلك، وإذا بغبرة ثائرة، وخيل تركض، وبان من تحتها فرسان وشجعان، وسبب ذلك أن الملك ساسان أخبره جماعة أن «كان ما كان» خرج إلى الصيد والقنص، فأرسل أميرًا من الديلم يقال له جامع، ومعه عشرون فارسًا، ودفع لهم المال، ثم أمرهم أن يقتلوا «كان ما كان»، فلما قربوا منه حملوا عليه وحمل عليهم، فقتلهم عن آخِرهم، وإذا بالملك ساسان ركب وسار ولحق بالعسكر، فوجدهم مقتولين فتعجَّبَ ورجع، وإذ بأهاليهم قبضوا عليه وشدُّوا وثاقه، ثم إن «كان ما كان» توجَّهَ بعد ذلك من ذلك المكان، وتوجَّهَ معه صباح البدوي، فبينما هو سائر إذ رأى في طريقه شابًّا على باب دار، فألقى «كان ما كان» عليه السلام، فردَّ الشاب عليه السلام، ثم دخل الدار وخرج ومعه قصعتان: إحداهما فيها لبن، والثانية ثريد، والسمن في جوانبها يموج، ووضع القصعتين قدام «كان ما كان»، وقال له: تفضل علينا بالأكل من زادنا. فامتنع «كان ما كان» من الأكل، فقال له الشاب: ما لك أيها الإنسان لا تأكل؟ فقال له «كان ما كان»: إنه عليَّ نذر. فقال له الشاب: وما سبب نذرك؟ فقال له «كان ما كان»: اعلم أن الملك ساسان غصب ملكي ظلمًا وعدوانًا، مع أن ذلك الملك كان لأبي وجدي من قبلي، فاستولى عليه قهرًا بعد موت أبي، ولم يعتبرني لصغر سني، فنذرت أنني لا آكل لأحدٍ زادًا حتى أشفي فؤادي من غريمي. فقال له الشاب: أبشِرْ فقد وفَّى الله نذرك، واعلم أنه مسجون في مكان، وأظنه يموت قريبًا. فقال له «كان ما كان»: في أي بيت هو معتقل؟ فقال له: في تلك القبة العالية. فنظر «كان ما كان» إلى قبة عالية، ورأى الناس في تلك القبة يدخلون، وعلى ساسان يلطمون، وهو يتجرع غصص المنون، فقام «كان ما كان»، ومشى حتى وصل إلى تلك القبة، وعاين ما فيها، ثم عاد إلى موضعه، وقعد على الأكل وأكل ما تيسَّر، ووضع ما بقي من اللحم في مزوده، ثم جلس في مكانه، ولم يزل جالسًا إلى أن أظلم الليل، ونام الشاب الذي ضيَّفه.

ثم ذهب «كان ما كان» إلى القبة التي فيها ساسان، وكان حولها كلاب يحرسونها، فوثب له كلب من الكلاب، فرمى له قطعة لحم من الذي في مزوده، وما زال يرمي للكلاب

لحمًا حتى وصل إلى القبة، وتوصَّلَ إلى أن صار عند الملك ساسان، ووضع يده على رأسه، فقال له بصوت عالٍ: مَن أنت؟ فقال: أنا «كان ما كان» الذي سعيتُ في قتله، فأوقعك الله في سوء تدبيرك، أَمَا يكفيك أخذ ملكي وملك أبي وجدي حتى تسعى في قتلي؟ فحلف ساسان الأيمان الباطلة أنه لم يسعَ في قتله، وأن هذا الكلام غير صحيح، فصفح عنه «كان ما كان» وقال له: اتبعني. فقال: لا أقدر أن أخطو خطوة واحدة لضعف قوتي. فقال «كان ما كان»: إذا كان الأمر كذلك نأخذ لنا فرسين، ونركب أنا وأنت ونطلب البر. ثم فعل كما قال، وركب هو وساسان، وسارَا إلى الصباح، ثم صلوا الصبح وساروا، ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا إلى بستان، فجلسوا فيه يتحدثون، ثم قام «كان ما كان» إلى ساسان، وقال له: هل بقي في قلبك مني أمر تكرهه؟ قال ساسان: لا والله. ثم اتفقوا على أنهم يرجعون إلى بغداد، فقال صباح البدوي: أنا أسبقكما لأبشِّر الناس. فسبق يبشر النساء والرجال، فخرجت إليه الناس بالدفوف والمزامير، وبرزت «قضى فكان» وهي مثل البدر بهي الأنوار في دياجي الاعتكار، فقابَلَها «كان ما كان»، وحنَّتِ الأرواح للأرواح، واشتاقت الأشباح للأشباح، ولم يَبْقَ لأهل العصر حديث إلا في «كان ما كان»، وشهد له الفرسان أنه أشجع أهل الزمان، وقالوا: لا يصلح أن يكون سلطانًا علينا إلا «كان ما كان»، ويعود إلى ملك جده كما كان.

وأما ساسان فإنه دخل على نزهة الزمان فقالت له: إني أرى الناس ليس لهم حديث إلا في «كان ما كان»، ويصفونه بأوصاف يعجز عنها اللسان، فقال لها: ليس الخبر كالعيان، فإني رأيته ولم أرَ فيه صفة من صفات الكمال، وما كل ما يُسمَع يقال، ولكن الناس يقلد بعضهم بعضًا في مدحه ومحبته، وأجرى الله على ألسنة الناس مدحه حتى مالت إليه قلوب أهل بغداد، والوزير دندان الغادر الخوان، وقد جمع له عساكر من سائر البلدان، ومَن الذي يكون صاحب الأقطار، ويرضى أن يكون تحت يد حاكم يتيم ما له مقدار. فقالت له نزهة الزمان: وعلى ماذا عوَّلتَ؟ فقال لها: عوَّلتُ على قتله، ويرجع الوزير دندان خائبًا في قصده، ويدخل تحت أمري وطاعتي، ولا يبقى له إلا خدمتي. فقالت له نزهة الزمان: إن الغدر قبيح بالأجانب فكيف بالأقارب؟ والصواب أن تزوِّجه ابنتك «قضى فكان»، وتسمع ما قيل فيما مضى من الزمان:

إِذَا رَفَعَ الزَّمَانُ عَلَيْكَ شَخْصًا ... وَكُنْتَ أَحَقَّ مِنْهُ وَلَوْ تَصَاعَدْ
أَنِلْهُ حَقَّ رُتْبَتِهِ تَجِدْهُ ... يُنِيلُكَ إِنْ دَنَوْتَ وَإِنْ تَبَاعَدْ

وَلَا تَـقُـلِ الَّـذِي تَـدْرِيـهِ فِـيـهِ   تَكُنْ مِمَّنْ عَنِ الْحُسْنَى تَقَاعَدْ
فَكَمْ فِي الْخِدْرِ أَبْهَى مِنْ عَرُوسٍ   وَلَـكِنْ لِلْـعَرُوسِ الدَّهْرُ سَاعِدْ

فلما سمع ساسان هذا الكلام، وفهم الشعر والنظام، قام مغضبًا من عندها وقال: لولا أني أعرف أنك تمزحين، لَعلوت بالسيف رأسك وأخمدت أنفاسك. فقالت: حيث غضبت مني فأنا أمزح معك. ثم وثبت إليه، وقبَّلت رأسه ويديه، وقالت له: الصواب ما تراه، وسوف أتدبَّر أنا وأنت في حيلة نقتله بها. فلما سمع منها هذا الكلام، فرح وقال لها: عجِّلي بالحيلة وفرِّجي كربتي، فلقد ضاق عليَّ باب الحِيَل. فقالت له: سوف أتحيَّل لك على إتلاف مهجته. فقال لها: بأي شيء؟ فقالت له: بجاريتنا التي اسمها باكون، فإنها في المكر ذات فنون. وكانت هذه الجارية من أنحس العجائز، وعدم الخبث في مذهبها غير جائز، وكانت قد ربَّتْ «كان ما كان» و«قضى فكان»، غير أن «كان ما كان» يميل إليها كثيرًا، ومن فرط ميله إليها كان ينام تحت رجليها. فلما سمع الملك ساسان من زوجته هذا الكلام، قال: إن هذا الرأي هو الصواب. ثم أحضر الجارية باكون وحدثها بما جرى، وأمرها أن تسعى في قتله، ووعدها بكل جميل، فقالت له: أمرك مطاع، ولكن أريد يا مولاي أن تعطيني خنجرًا قد سُقِي بماء الهلاك، لأعجِّل لك بإتلافه. فقال لها ساسان: مرحبًا بك. ثم أحضر لها خنجرًا يكاد أن يسبق القضاء، وكانت هذه الجارية قد سمعت الحكايات والأشعار، وتحفظ النوادر والأخبار، فأخذت الخنجر وخرجت من الديار مفكرةً فيما يكون به الدمار، وأتت إلى «كان ما كان» وهو قاعد ينتظر وعد السيدة «قضى فكان»، وكان في تلك الليلة قد تذكَّرَ بنت عمه «قضى فكان»، فالتهبَتْ من حبها في قلبه النيران، فبينما هو كذلك وإذا بالجارية باكون داخلة عليه وهي تقول: آنَ أوان الوصال، ومضت أيام الانفصال. فلما سمع ذلك قال لها: كيف حال «قضى فكان»؟ فقالت له باكون: اعلم أنها مشتغلة بحبك. فعند ذلك قام «كان ما كان» إليها، وخلع أثوابه عليها، ووعدها بكل جميل، فقالت له: اعلم أنني أنام عندك الليلة وأحدثك بما سمعت من الكلام، وأسلِّيك بحديث كل متيَّم أمرضه الغرام. فقال لها «كان ما كان»: حدثيني بحديث يفرح به قلبي، ويزول به كربي. فقالت له باكون: حبًّا وكرامة. ثم جلست إلى جانبه وذلك الخنجر من داخل أثوابها، فقالت له: اعلم أن أعذب ما سمعت أذني أن رجلًا كان يعشق المِلاح، وصرف عليهن ماله حتى افتقر وصار لا يملك شيئًا، فضاقت عليه الدنيا، فصار يمشي في الأسواق ويفتش على شيء يقتات به، فبينما هو ماشٍ وإذا بقطعة مسمار شكته

في إصبعه فسال دمه، فقعد ومسح الدم وعصب إصبعه، ثم قام وهو يصرخ حتى جاز على الحمَّام ودخلها، ثم قلع ثيابه، فلما صار داخل الحمَّام وجدها نظيفة، فجلس على الفسقية، وما زال ينزح الماء على رأسه إلى أن تعب. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه جلس على الفسقية وما زال ينزح الماء على رأسه إلى أن تعب، فخرج إلى الحوض البارد فلم يجد أحدًا، فاختلى بنفسه وطلع قطعة حشيش وبلعها، فساحت في مخه فانقلب على الرخام، وخيَّلَ له الحشيش أن مهتارًا كبيرًا يكبسه، وعبدين واقفان على رأسه؛ واحد معه الطاسة، والآخَر معه آلة الحمَّام وما يحتاج إليه البلان، فلما رأى ذلك قال في نفسه: كأن هؤلاء غلطوا فيَّ أو من طائفتنا الحشاشين. ثم إنه مد رجليه، فتخيَّلَ له أن البلان قال له: يا سيدي، قد أزف الوقت على طلوعك، واليوم نوبتك. فضحك وقال في نفسه: ما شاء الله يا حشيش. ثم قعد وهو ساكت، فقام البلان وأخذ بيده، وأدار على وسطه ميزرًا من الحرير الأسود، ومشى العبدان وراءه بالطاسات والحوائج، ولم يزالوا به حتى أدخلوه الخلوة وأطلقوا فيها البخور، فوجدها ملآنة من سائر الفواكه والمشموم، وشقُّوا له بطيخة، وأجلسوه على كرسي من الأبنوس، ووقف البلان يغسله، والعبدان يصبَّان الماء، ثم دلكوه دلكًا جيدًا وقالوا له: يا مولانا الصاحب، نعيم دائم. ثم خرجوا وردُّوا عليه الباب، فلما تخيَّلَ ذلك، قام ورفع الميزر من وسطه، وصار يضحك إلى أن غُشِي عليه، واستمر ساعة يضحك، ثم قال في نفسه: ما بالهم يخاطبونني خطاب الوزير، ويقولون يا مولانا الصاحب؟ ولعل الأمر التبس عليهم في هذه الساعة، وبعد ذلك يعرفونني ويقولون هذا زليط، ويشبعون صكًّا في رقبتي.

ثم إنه استحمى وفتح الباب، فتخيَّل أن مملوكًا صغيرًا وطواشيًّا قد دخلَا عليه؛ فالمملوك معه بقجة، ففتحها وأخرج منها ثلاث فوط من الحرير، فرمى الأولى على رأسه، والأخرى على أكتافه، وحزمه بالثالثة، وقدم له الطواشي قبقابًا فلبسه، وأقبلت عليه مماليك وطواشية وصاروا يسندونه، وكل ذلك حصل وهو يضحك إلى أن خرج، وطلع الليوان، فوجد فرشًا عظيمًا لا يصلح إلا للملوك، وتبادرت إليه الغلمان، وأجلسوه على المرتبة،

وصاروا يكبسونه حتى غلب عليه النوم، فلما نام رأى في حضنه صبية فباسها، ووضعها بين فخذيه، وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، وقبض ذكره بيده، وسحبها عنده وعصرها تحته، وإذا بواحد يقول له: انتبه يا زليط، قد جاء الظهر وأنت نائم. ففتح عينه فوجد روحه على الحوض البارد، وحوله جماعة يضحكون عليه، وأيره قائم، والفوطة انحلت من وسطه، وتبيَّنَ له أن كل هذا أضغاث أحلام وتخيلات حشيش، فاغتمَّ ونظر إلى الذي نبَّهَه، وقال: كنت اصبر حتى أحطَّه. فقال له الناس: أَمَا تستحي يا حشاش وأنت نائم وذكرك قائم؟ وصكوه حتى احمرَّ قفاه وهو جيعان، وقد ذاق طعم السعادة وهو في المنام.

فلمَّا سمع «كان ما كان» من الجارية هذا الكلام، ضحك حتى استلقى على قفاه، وقال لباكون: يا دادتي، إن هذا حديث عجيب؛ فإني ما سمعت مثل هذه الحكاية، فهل عندك غيرها؟ فقالت له: نعم. ثم إن الجارية باكون لم تزل تحدِّث «كان ما كان» بمخارق حكايات ونوادر مضحكات حتى غلب عليه النوم، ولم تزل تلك الجارية جالسة عند رأسه حتى مضى غالب الليل، فقالت في نفسها: هذا وقت انتهاز الفرصة. ثم نهضت وسلَّت الخنجر، ووثبت على «كان ما كان» وأرادت ذبحه، وإذا بأم «كان ما كان» دخلت عليهما، فلمَّا رأتها باكون قامت لها واستقبلتها، ثم لحقها الخوف فصارت تنتفض كأنها أخذتها الحمَّى، فلما رأتها أم «كان ما كان» تعجَّبت ونبَّهت ولدها من النوم، فلما استيقظ وجد أمه جالسة فوق رأسه، وكان السبب في حياته مجيئها، وسبب مجيء أمه إليه أن «قضى فكان» سمعت الحديث والاتفاق على قتله، فقالت لأمه: يا زوجة عمي، الحقي ولدك قبل أن تقتله العاهرة باكون. وأخبرتها بما جرى من أوله إلى آخره، فخرجت وهي لا تفعل شيئًا حتى دخلت في الساعة التي نام فيها، وهمَّت باكون عليه تريد ذبحه، فلما استيقظ قال لأمه: لقد جئتِ يا أمي في وقت طيب، ودادتي باكون حاضرة عندي في تلك الليلة. ثم إنه التفت إلى باكون، وقال لها: بحياتي عليك، هل تعرفين حكاية أحسن من الحكايات التي حدَّثتني بها؟ فقالت له الجارية: وأين ما حدَّثتك به سابقًا مما أحدِّثك به الآن؟ فإنه أعذب وأغرب، ولكن أحكيه لك في غير هذا الوقت. ثم قامت باكون وهي لا تصدق بالنجاة، فقال لها: مع السلامة. ولمحت بمكرها أن أمه عندها خبر بما حصل، فذهبت إلى حالها، فعند ذلك قالت له والدته: يا ولدي، هذه ليلة مباركة حيث نجَّاك الله من هذه الملعونة. فقال لها: وكيف ذلك؟ فأخبرته بالأمر من أوله إلى آخِره، فقال لها: يا والدتي، إن الحي ما له قاتل، وإنْ قُتِل لا يموت، ولكن الأحوط لنا أننا نرحل من عند هؤلاء الأعداء، والله يفعل ما يريد.

فلما أصبح الصباح خرج «كان ما كان» من المدينة، واجتمع بالوزير دندان، وبعد خروجه حصلت أمور بين الملك ساسان ونزهة الزمان أوجبت خروج نزهة الزمان أيضًا من المدينة، فاجتمعت بهم، واجتمع عليهم أرباب دولة الملك ساسان الذين يميلون إليهم، فجلسوا يدبِّرون الحيلة، فأجمع رأيهم على غزو ملك الروم وأخذ الثأر، ثم توجهوا إلى غزو الروم ووقعوا في أسر الملك رومزان بعد أمور يطول شرحها كما يظهر من السياق. فلما أصبح، أَمَرَ الملكُ رومزان أن يحضر «كان ما كان» والوزير دندان وجماعتهما، فحضروا بين يديه وأجلسهم بجانبه، وأمر بإحضار الموائد فأُحضِرت، فأكلوا وشربوا واطمأنوا بعد أن أيقنوا بالموت لما أمر بإحضارهم، وقالوا لبعضهم: إنه ما أرسَلَ إلينا إلا لأنه يريد قتلنا. وبعد أن اطمأنوا قال لهم الملك: إني رأيت منامًا، وقصصته على الرهبان، فقالوا: ما يفسِّره لك إلا الوزير دندان. فقال له الوزير: خيرًا رأيتَ يا ملك الزمان. فقال له: أيها الوزير، رأيتُ أني في حفرة على صفة بئر أسود، وكان أقوامًا يعذبونني، فأردتُ القيامَ، فلمَّا نهضت وقعت على أقدامي، وما قدرت على الخروج من تلك الحفرة، ثم التفتُّ فرأيت فيها مِنْطَقة من ذهب، فمددت يدي لآخذها، فلما رفعتها من الأرض رأيتها مِنْطقتين، فشددت وسطي بهما، فإذا هما قد صارتا مِنْطقة واحدة، وهذا أيها الوزير منامي، والذي رأيته في لذيذ أحلامي.

فقال له الوزير دندان: اعلم يا مولانا السلطان، أن رؤياك تدل على أن لك أخًا وابن أخ أو ابن عم أو أحدًا يكون من أهلك من دمك ولحمك، وعلى كل حال هو من العصب. فلما سمع الملك هذا الكلام، نظر إلى كان ما كان ونزهة الزمان وقضى فكان والوزير دندان ومَن معهم من الأسارى، وقال في نفسه: إذا رميت رقابَ هؤلاء انقطعت قلوب عسكرهم بهلاك أصحابهم، ورجعت إلى بلادي عن قريب لئلا يخرج الملك من يدي. ولما صمَّمَ على ذلك استدعى بالسيَّاف وأمره أن يضرب رقبة «كان ما كان» من وقته وساعته، وإذا بداية الملك قد أقبلَتْ في تلك الساعة، فقالت له: أيها الملك السعيد، على ماذا عوَّلتَ؟ فقال لها: عوَّلتُ على قتل هؤلاء الأسارى الذين في قبضتي، وبعد ذلك أرمي رءوسهم إلى أصحابهم، ثم أحمل أنا وأصحابي عليهم حملة واحدة، فنقتل الذي نقتله ونهزم الباقي، وتكون هذه وقعة الانفصال، وأرجع إلى بلادي عن قريب قبل أن يحدث بعد الأمور أمور في مملكتي.

فعندما سمعت منه دايته هذا الكلام، أقبلَتْ عليه وقالت له بلسان الإفرنج: كيف يطيب عليك أن تقتل ابن أختك وأختك وابنة أختك؟ فلما سمع الملك من دايته هذا الكلام، اغتاظ غيظًا شديدًا وقال لها: يا ملعونة، ألم تعلمي أن أمي قد قُتِلت، وأن أبي قد مات

مسمومًا، وأعطيتني خرزة وقلتِ لي: إن هذه الخرزة كانت لأبيك، فلِمَ لا تَصدُقيني في الحديث؟ فقالت له: كل ما أخبرتك به صدق، ولكن شأني وشأنك عجيب، وأمري وأمرك غريب؛ فإنني أنا اسمي مرجانة، واسم أمك إبريزة، وكانت ذات حُسْنٍ وجمال، وشجاعتها تُضرَب بها الأمثال، واشتهرت بالشجاعة بين الأبطال، وأما أبوك فإنه الملك عمر النعمان صاحب بغداد وخراسان من غير شك ولا ريب، ولا رجم غيب، وكان قد أرسل ولده شركان إلى بعض غزواته صحبة هذا الوزير دندان، وكان منهم الذي قد كان، وكان أخوك الملك شركان تقدَّمَ على الجيوش، وانفرد وحده عن عسكره، فوقع عند أمك الملكة إبريزة في قصرها، ونزلنا وإياها في خلوة للصراع، فصادفنا ونحن على تلك الحالة، فتصارع مع أمك وغلبته لباهر حسنها وشجاعتها، ثم استضافته أمك مدة خمسة أيام في قصرها، فبلغ أباك ذلك الخبر من العجوز شواهي الملقبة بذات الدواهي، وكانت أمك قد أسلمت على يد شركان أخيك، فأخذها وتوجه بها إلى مدينة بغداد سرًّا، وكنت أنا وريحانة وعشرون جارية معها، وكنا قد أسلمنا كلنا على يد الملك شركان، فلما دخلنا على أبيك الملك عمر النعمان، ورأى أمك الملكة إبريزة، وقع في قلبه محبتها، فدخل عليها ليلة واختلى بها فحملت بك، وكان مع أمك ثلاث خرزات فأعطتها لأبيك، فأعطى خرزة لابنته نزهة الزمان، وأعطى الثانية لأخيك ضوء المكان، وأعطى الثالثة لأخيك الملك شركان، فأخذتها منه الملكة إبريزة وحفظتها لك، فلما قربت ولادتها اشتاقت أمك إلى أهلها، وأطلعتني على سرها، فاجتمعت بعبد أسود يقال له الغضبان، وأخبرته بالخبر سرًّا، ورغَّبته في أن يسافر معنا، فأخذنَا العبد وطلع بنا من المدينة وهرب بنا، وكانت أمك قد قربت ولادتها، فلما دخلنا على أوائل بلادنا في مكان منقطع، أخذ أمك الطلق بولادتك، فحدَّث العبد نفسه بالخنا فأتى أمك، فلما قرب منها راودها على الفاحشة، فصرخت عليه صرخة عظيمة وانزعجت منه، فمن عظم انزعاجها وضعتك حالًا، وكان في تلك الساعة قد طلع علينا في البر من ناحية بلادنا غبار قد علا وطار حتى سد الأقطار، فخشي العبد على نفسه الهلاك، فضرب الملكة إبريزة بسيفه فقتلها من شدة غيظه، وركب جواده وتوجه إلى حال سبيله، وبعدما راح العبد انكشف الغبار عن جدك الملك حردوب ملك الروم، فرأى أمك ابنته وهي في ذلك المكان قتيلة، وعلى الأرض جديلة، فصعب ذلك عليه وكبر لديه، وسألني عن سبب قتلها وعن سبب خروجها خفية من بلاد أبيها، فحكيتُ له جميع ذلك من الأول إلى الآخِر؛ وهذا هو سبب العداوة بين أهل بلاد الروم وبين أهل بغداد، فعند ذلك احتملنا أمك وهي قتيلة، ودفناها في قصرها، وقد احتملتُكَ أنا وربَّيْتُك، وعلَّقْتُ لك الخرزة التي كانت مع

أمك الملكة إبريزة، ولما كبرت وبلغت مبلغ الرجال، لم يمكنِّي أن أخبرك بحقيقة الأمر؛ لأنني لو أخبرتك بذلك لثارت بينكم الحروب، وقد أمرني جدك بالكتمان، ولا قدرة لي على مخالفة أمر جدك الملك حردوب ملك الروم، فهذا سبب كتمان الخبر عنك، وعدم إعلامك بأن أباك الملك عمر النعمان، فلما استقللتَ بالمُلْك أخبرتُكَ، وما أمكنني أن أُعلِمَك إلا في هذا الوقت يا ملك الزمان، وقد كشفتُ لك السرَّ والبرهان، وهذا ما عندي من الخبر، وأنت برأيك أخبر.

وكان الأسارى قد سمعوا من الجارية مرجانة داية الملك هذا الكلام جميعه؛ فصاحت نزهة الزمان من وقتها وساعتها صيحة عظيمة، وقالت: هذا الملك رومزان أخي من أبي عمر النعمان، وأمه الملكة إبريزة بنت الملك حردوب ملك الروم، وأنا أعرف هذه الجارية مرجانة حق المعرفة. فلمَّا سمع الملك رومزان هذا الكلام أخذته الحدة، وصار متحيِّرًا في أمره، وأحضر من وقته وساعته نزهة الزمان بين يديه، فلما رآها حنَّ الدم للدم، واستخبرها عن قصته فحكت له القصة، فوافَقَ كلامُها كلامَ دايته مرجانة، فصحَّ عند الملك أنه من أهل العراق من غير شك ولا ارتياب، وأن أباه الملك عمر النعمان، فقام من تلك الساعة وحلَّ كتاف أخته نزهة الزمان، فتقدَّمَتْ إليه وقبَّلت يديه، ودمعت عيناها، فبكى الملك لبكائها، وأخذته حنيَّة الأخوَّة، ومال قلبه إلى ابن أخيه السلطان «كان ما كان»، وقام ناهضًا على قدميه، وأخذ السيف من يد السيَّاف، فأيقن الأسارى بالهلاك لما رأوا منه ذلك، فأمر بإحضارهم بين يديه وفك وثاقهم، وقال لدايته مرجانة: اشرحي حديثك الذي شرحتِه لي لهؤلاء الجماعة. فقالت دايته مرجانة: اعلم أيها الملك أن هذا الشيخ هو الوزير دندان، وهو لي أكبر شاهد؛ لأنه يعرف حقيقة الأمر. ثم إنها أقبلت عليهم من وقتها وساعتها، وعلى مَن حضرهم من ملوك الروم وملوك الإفرنج، وحدَّثتهم بذلك الحديث، والملكة نزهة الزمان والوزير دندان ومَن معها من الأسارى يصدقونها على ذلك، وفي آخِر الحديث لاحت من الجارية مرجانة التفاتة، فرأت الخرزة الثالثة بعينها رفيقة الخرزتين اللتين كانتا مع الملكة إبريزة في رقبة السلطان «كان ما كان» فعرفتها، فصاحت صيحة عظيمة دوَّى لها الفضاء، وقالت للملك: يا ولدي، اعلم أنه قد زاد في تلك الساعة صدق يقيني؛ لأن هذه الخرزة التي في رقبة هذا الأسير نظير الخرزة التي وضعتها في عنقك، وهي رفيقتها، وهذا الأسير هو ابن أخيك، وهو «كان ما كان».

ثم إن الجارية مرجانة التفتت إلى «كان ما كان»، وقالت له: أرني هذه الخرزة يا ملك الزمان. فنزعها من عنقه وناولها لتلك الجارية داية الملك رومزان، فأخذتها منه

ثم سألَتْ نزهة الزمان عن الخرزة الثالثة فأعطتها لها، فلما صارت الخرزتان في يد الجارية، ناولتهما للملك رومزان فظهر له الحق والبرهان، وتحقق أنه عم السلطان «كان ما كان»، وأن أباه الملك عمر النعمان، فقام من وقته وساعته إلى الوزير دندان وعانقه، ثم عانق الملك «كان ما كان»، وعلا الصياح بكثرة الأفراح، وفي تلك الساعة انتشرت البشائر، ودقت الكاسات والطبول، وزمرت الزمور، وزادت الأفراح، وسمع عساكر العراق والشام ضجيج الروم بالأفراح، فركبوا عن آخرهم، وركب الملك الزبلكان، وقال في نفسه: يا ترى ما سبب هذا الصياح والسرور الذي في عسكر الإفرنج والروم؟ وأما عسكر العراق فإنهم قد أقبلوا، وعلى القتال عوَّلوا، وصاروا في الميدان، ومقام الحرب والطعان، فالتفت الملك رومزان فرأى العساكر مقبلين للحرب متهيئين، فسأل عن سبب ذلك فأخبروه بالخبر، فأمر «قضى فكان» ابنة أخيه شركان أن تسير من وقتها وساعتها إلى عسكر الشام والعراق، وتعلمهم بحصول الاتفاق، وأن الملك رومزان ظهر أنه عم السلطان «كان ما كان»، فسارت «قضى فكان» بنفسها، ونفت عنها الشرور والأحزان حتى وصلت إلى الملك الزبلكان، وسلمت عليه وأعلمته بما جرى من الاتفاق، وأن الملك رومزان ظهر أنه عمها وعم «كان ما كان»، وحين أقبلت عليه وجدَتْه باكي العين، خائفًا على الأمراء والأعيان، فشرحت له القصة من أولها إلى آخرها، فزادت أفراحهم، وزالت أتراحهم، وركب الملك الزبلكان هو وجميع الأكابر والأعيان، وسارت قدَّامهم الملكة «قضى فكان» حتى أوصلتهم إلى سرادق الملك رومزان.

فلما دخلوا عليه وجدوه جالسًا مع ابن أخيه السلطان «كان ما كان»، وقد استشاره هو والوزير دندان في أمر الملك الزبلكان، فاتفقوا على أنهم يسلِّمون إليه مدينة دمشق الشام ويتركونه ملكًا عليها كما كان مثل العادة، وهم يدخلون إلى العراق؛ فجعلوا الملك الزبلكان عاملًا على دمشق الشام، ثم أمروه بالتوجُّه إليها، فتوجَّه بعساكره إليها، ومشوا معه ساعة لأجل الوداع، وبعد ذلك رجعوا إلى مكانهم، ثم نادوا في العسكر بالرحيل إلى بلاد العراق، واجتمع العسكران مع بعضهم، ثم إن الملوك قالوا لبعضهم: ما بقيت قلوبنا تستريح ولا يشفى غيظنا إلا بأخذ الثأر، وكشف العار بالانتقام من العجوز شواهي الملقبة بذات الدواهي، فعند ذلك سار الملك رومزان مع خواصه وأرباب دولته، وفرح السلطان «كان ما كان» بعمِّه الملك رومزان، ودعا للجارية مرجانة حيث عرَّفتهم ببعضهم، ثم ساروا، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى أرضهم، فسمع بهم الحاجب الكبير ساسان، فطلع وقبَّل يد الملك رومزان فخلع عليه. ثم إن الملك رومزان جلس وأجلس ابن أخيه

السلطان «كان ما كان» إلى جانبه، فقال «كان ما كان» إلى عمه الملك رومزان: يا عم، ما يصلح هذا الملك إلا لك. فقال له: معاذ الله أن أعارضك في ملكك. فعند ذلك أشار عليهما الوزير دندان أن يكون الاثنان في الملك سواء، وكل واحد يحكم يومًا، فارتضيا بذلك. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أنهما اتفقا على أن كل واحد يحكم يومًا، ثم أولموا الولائم، وذبحوا الذبائح، وزادت بهم الأفراح، وأقاموا على ذلك مدة من الزمان، كل ذلك والسلطان «كان ما كان» يقطع ليله مع بنت عمه «قضى فكان»، وبعد تلك المدة، بينما هم قاعدون فَرِحون بهذا الأمر، وانصلاح الشأن؛ إذ ظهر لهم غبار قد علا وطار حتى سدَّ الأقطار، وقد أتى إليهم من التجار صارخٌ يستغيث وهو يصيح ويقول: يا ملوك الزمان، كيف أسلم في بلاد الكفر وأُنهَب في بلادكم وهي بلاد العدل والأمان؟ فأقبل عليه الملك رومزان وسأله عن حاله، فقال له: أنا تاجر من التجار، ولي غائب عن الأوطان مدة مديدة من الزمان، واستغرقت في البلاد نحو عشرين سنة من الأعوام، وإن معي كتابًا من مدينة دمشق كان قد كتبه لي المرحوم الملك شركان، وسبب ذلك أنني كنت قد أدَّيت إليه جارية، فلمَّا قربت من تلك البلاد، وكان معي مائة حمل من تحف الهند، وأتيت بها إلى بغداد التي هي حرمكم، ومحل أمنكم وعدلكم، فخرجت علينا عربان ومعهم أكراد مجتمعة من جميع البلاد، فقتلوا رجالي ونهبوا أموالي، وهذا شرح حالي.

ثم إن التاجر بكى بين يدي الملك رومزان وحوقَلَ واشتكى، فرحمه الملك ورقَّ إليه، وكذلك رحمه ابن أخيه الملك «كان ما كان»، وحلفوا أنهم يخرجون إليهم، فخرجوا إليهم في مائة فارس، كل فارس منهم يُعَدُّ بين الرجال بألوف، وذلك التاجر سار أمامهم يدلُّهم على الطريق، ولم يزالوا سائرين ذلك النهار وطول الليل إلى السَّحَر، حتى أشرفوا على وادٍ غزير الأنهار كثير الأشجار، فوجدوا القوم قد تفرَّقوا في ذلك الوادي، وقسَّموا بينهم أحمال ذلك التاجر، وبقي البعض فأطبق عليهم المائة فارس، وأحاطوا بهم من كل مكان، وصاح عليهم الملك رومزان هو وابن أخيه «كان ما كان»، فما كان غير ساعة حتى أسروا الجميع، وكانوا نحو ثلاثمائة فارس مجتمعين من أوباش العربان، فلما أسروهم

أخذوا ما معهم من مال التاجر، وشدوا وثاقهم، وطلعوا بهم إلى مدينة بغداد، فعند ذلك جلس الملك رومزان هو وابن أخيه الملك «كان ما كان» على تخت واحد مع بعضهما، ثم عرضوا الجميع بين أيديهما، وسألاهم عن حالهم، وعن كبارهم، فقالوا: ما لنا كبار غير ثلاثة أشخاص، وهم الذين جمعونا من سائر النواحي والأقطار. فقالا لهم: ميِّزوهم لنا بأعيانهم. فميَّزوهم لهما، فأمرَا بالقبض عليهم، وإطلاق بقية أصحابهم بعد أخذ جميع ما معهم من الأموال، وتسليمه للتاجر، فتفقَّدَ التاجر قماشه وماله فوجده قد هلك رُبعه، فوعداه أنهما يعوِّضان له جميع ما ضاع منه، فعند ذلك أخرج التاجر كتابين: أحدهما بخط شركان، والآخر بخط نزهة الزمان، وقد كان التاجر اشترى نزهة الزمان من البدوي وهي بكر، وقدَّمها لأخيها شركان، وجرى بينها وبين أخيها ما جرى.

ثم إن الملك «كان ما كان» وقف على الكتابين، وعرف خط عمِّه شركان، وسمع حكاية عمَّته نزهة الزمان، فدخل بذلك الكتاب الثاني الذي كانت كتبته للتاجر الذي ضاع منه المال، وأخبرها «كان ما كان» بقصة التاجر من أوَّلها إلى آخرها، فعرفته نزهة الزمان وعرفت خطَّها، وأخرجت للتاجر الضيافات، ووصَّت عليه أخاها الملك رومزان، وابن أخيها الملك «كان ما كان»، فأمرَا له بأموال وعبيد وغلمان من أجل خدمته، وأرسلت إليه نزهة الزمان مائة ألف درهم من المال، وخمسين حملًا من البضائع، وقد أتحفته بهدايا، وأرسلت إليه تطلبه، فلما حضر طلعت وسلَّمت عليه، وأعلمته أنها بنت الملك عمر النعمان، وأن أخاها الملك رومزان، وأن ابن أخيها الملك «كان ما كان»، ففرح التاجر بذلك فرحًا شديدًا، وهنَّأها بسلامتها واجتماعها بأخيها وابن أخيها، وقبَّل يدها وشكرها على فعلها، وقال لها: والله ما ضاع الجميل معك. ثم دخلت إلى خدرها، وأقام التاجر عندهم ثلاثة أيام ثم ودَّعهم ورحل إلى بلاد الشام.

وبعد ذلك أحضر الملوك الثلاثة أشخاص اللصوص الذين كانوا رؤساء قُطَّاع الطريق، وسألوهم عن حالهم؛ فتقدَّمَ واحد منهم وقال: اعلموا أني رجل بدوي، أقف في الطريق لأخطف الصغار والبنات الأبكار، وأبيعهم للتجار، ودمت على ذلك مدة من الزمان إلى هذه الأيام، وأغراني الشيطان فاتفقت مع هذين الشقِيَّين على جمع الأوباش من الأعراب والبلدان لأجل نهب الأموال، وقطع الطريق على التجار. فقالوا له: احكِ لنا على أعجب ما رأيت في خطفك الصغار والبنات. فقال لهم: أعجب ما جرى لي يا ملوك الزمان، أنني من مدة اثنتين وعشرين سنة خطفت بنتًا من بنات بيت المقدس ذات يوم من الأيام، وكانت تلك البنت ذات حُسن وجمال، غير أنها كانت خدَّامة، وعليها أثواب خَلِقة، وعلى رأسها قطعة عباءة، فرأيتها قد خرجت من الخان، فخطفتها بحيلة في تلك الساعة، وحملتها على

جمل وسبقت بها، وكان في أملي أنني أذهب بها إلى أهلي في البرية، وأجعلها عندي ترعى الجمال، وتجمع البعر من الوادي، فبكت بكاءً شديدًا، فدنوت منها وضربتها ضربًا وجيعًا، وأخذتها وسرت بها إلى مدينة دمشق، فرآها معي تاجر فتحيَّر عقله لما رآها، وأعجبته فصاحتها وأراد شراءها مني، ولم يزل يزيدني في ثمنها حتى بعتها له بمائة ألف درهم، فعندما أعطيتها له رأيت منها فصاحة عظيمة، وبلغني أن التاجر كساها كسوة مليحة، وقدَّمها إلى الملك صاحب دمشق، فأعطاه قدر المبلغ الذي دفعه إليَّ مرتين، وهذا يا ملوك الزمان أعجب ما جرى، ولعمري إن ذلك الثمن قليل في تلك البنت.

فلما سمع الملوك هذه الحكاية تعجَّبوا، ولما سمعت نزهة الزمان من البدوي ما حكاه صار الضياء في وجهها ظلامًا، وصاحت وقالت لأخيها رومزان: إن هذا البدوي كان خطفني من بيت المقدس بعينه من غير شك. ثم إن نزهة الزمان حكت لهم جميع ما جرى لها معه في غربتها من الشدائد والضرب والجوع والذل والهوان، ثم قالت لهم: الآن حلَّ لي قتله. ثم جذبت السيف وقامت إلى البدوي لقتله، وإذا هو صاح وقال: يا ملوك الزمان، لا تدعوها تقتلني حتى أحكي لكم ما جرى لي من العجائب. فقال لها ابن أخيها «كان ما كان»: يا عمتي، دعيه يحكي لنا حكاية، وبعد ذلك فافعلي ما تريدين. فرجعت عنه، فقال له الملوك: الآن احكِ لنا حكاية. فقال: يا ملوك الزمان، إنْ حكيتُ لكم حكايةً عجيبة تعفوا عني؟ قالوا: نعم. فابتدأ البدوي يحدِّثهم بأعجب ما وقع له، وقال: اعلموا أني من مدة يسيرة، أرقت ليلة أرقًا شديدًا، وما صدَّقت أن الصباح يصبح، فلما أصبح الصباح قمت من وقتي وساعتي، وتقلَّدت سيفي، وركبت جوادي، واعتقلت رمحي، وخرجت أريد الصيد والقنص، فواجهني جماعة في الطريق، فسألوني عن قصدي فأخبرتهم به، فقالوا: ونحن رفقاؤك. فنزلنا كلنا مع بعضنا، فبينما نحن سائرون، وإذا بنعامة ظهرت لنا فقصدناها، ففرَّت من بين أيدينا وهي فاتحة أجنحتها، ولم تزل شاردة ونحن خلفها إلى الظهر حتى رمتنا في برية لا نبات فيها ولا ماء، ولم نسمع فيها غير صفير الحيَّات، وزعيق الجان، وصريخ الغيلان، فلما وصلنا إلى ذلك المكان، غابت عنا فلم ندرِ أفي السماء طارت أم في الأرض غارت، فرددنا رءوس الخيل وأردنا الرواح، ثم رأينا أن الرجوع في هذا الوقت الشديد الحر لا خيرَ فيه ولا إصلاح، وقد اشتد علينا الحر وعطشنا عطشًا شديدًا، ووقفت خيولنا فأيقنَّا بالموت.

فبينما نحن كذلك إذ نظرنا من بعيد مرجًا أفيح فيه غزلان تمرح، وهناك خيمة مضروبة، وفي جانب الخيمة حصان مربوط، وسنان يلمع على رمح مركوز، فانتعشت نفوسنا من بعد اليأس، ورددنا رءوس خيلنا نحو تلك الخيمة نطلب ذلك المرج والماء، وتوجه إليه جميع أصحابي وأنا في أولهم، ولم نزل سائرين حتى وصلنا إلى ذلك المرج،

فوقفنا على عين وشربنا، وسقينا خيلنا، فأخذتني حمية الجاهلية وقصدت باب ذلك الخباء، فرأيت فيه شابًّا لا نبات بعارضيه وهو كأنه هلال، وعن يمينه جارية هيفاء كأنها قضيب بان، فلما نظرتُ إليها وقعَتْ محبتها في قلبي، فسلمت على ذلك الشاب فردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أخا العرب، أخبرني مَن أنت؟ وما تكون لك تلك الجارية التي عندك؟ فأطرق الشاب رأسه إلى الأرض ساعة، ثم رفع رأسه وقال: أخبرني مَن أنت؟ وما الخيل التي معك؟ فقلت: أنا حمَّاد بن الفزاري الفارس الموصوف، الذي أُعَدُّ بين العرب بخمسمائة فارس، ونحن خرجنا من محلنا نريد الصيد والقنص، فأدركَنَا العطش، فقصدت أنا باب تلك الخيمة لعلي أجد عندكم شربة ماء. فلما سمع مني ذلك الكلام التفت إلى الجارية المليحة، وقال: ائتِ إلى هذا الرجل بالماء، وما حصل من الطعام. فقامت الجارية تسحب أذيالها، والحجول والذهب تخشخش في رجليها وهي تتعثر في شعرها، وغابت قليلًا، ثم أقبلت وفي يدها اليمنى إناء من فضة مملوء ماءً باردًا، وفي يدها اليسرى قدح ملآن تمرًا ولبنًا وما حضر من لحم الوحوش، فما استطعتُ أن آخذ من الجارية طعامًا ولا شرابًا من شدة محبتي لها، فتمثلت بهذين البيتين، وقلت:

كَأَنَّ الْخِضَابَ عَلَى كَفِّهَا ... غُرَابٌ عَلَى ثَلْجَةٍ وَاقِفُ
تَرَى الشَّمْسَ وَالْبَدْرَ مِنْ وَجْهِهَا ... قَرِيبَيْنِ خَافٍ وَذَا خَائِفُ

ثم قلت للشاب بعد أن أكلت وشربت: يا وجه العرب، اعلم أني أوقفتك على حقيقة خبري، وأريد أن تخبرني بحالك، وتوقفني على حقيقة خبرك. فقال الشاب: أما هذه الجارية فهي أختي. فقلت: أريد أن تزوِّجني بها طوعًا، وإلا أقتلك وآخذها غصبًا. فعند ذلك أطرق الشاب رأسه إلى الأرض ساعة، ثم رفع بصره إليَّ وقال لي: لقد صدقتَ في دعواك أنك فارس معروف، وبطل موصوف، وأنك أسد البيداء، ولكن إن هجمتم عليَّ غدرًا وقتلتموني قهرًا وأخذتم أختي، فإن هذا يكون عارًا عليكم، وإن كنتم على ما ذكرتم من أنكم فرسان تُعدُّون من الأبطال، ولا تبالون بالحرب والنزال، فأمهلوني قليلًا حتى ألبس آلة حربي، وأتقلَّد سيفي، وأعتقل رمحي، وأركب فرسي، وأصبر أنا وإياكم في ميدان الحرب، فإن ظفرتُ بكم أقتلكم عن آخِركم، وإن ظفرتم بي وقتلتموني فهذه الجارية أختي لكم. فلما سمعتُ منه هذا الكلام قلتُ له: إن هذا هو الإنصاف، وما عندنا خلاف. ثم رددتُ رأس جوادي إلى خلفي، وقد زادني الجنون في محبة تلك الجارية، ورجعت إلى أصحابي ووصفت لهم حسنها وجمالها، وحسن الشاب الذي عندها، وشجاعته وقوة

جنانه، وكيف يذكر أنه يصادم ألف فارس، ثم أعلمت أصحابي بجميع ما في الخباء من الأموال والتحف، وقلت لهم: اعلموا أن هذا الشاب ما هو منقطع في تلك الأرض إلا لكونه ذا شجاعة عظيمة، وأنا أوصيكم أن كل مَن قتل هذا الغلام يأخذ أخته. فقالوا: رضينا بذلك. ثم إن أصحابي لبسوا آلة حربهم، وركبوا خيولهم، وقصدوا الغلام، فوجدوه قد لبس آلة حربه، وركب جواده، ووثبت إليه أخته وتعلقت بِركابه، وبلَّت برقعها بدموعها، وهي تنادي بالويل والثبور من خوفها على أخيها، وتنشد هذه الأبيات:

إِلَـى اللـهِ أَشْـكُو مِـحْـنَـةً وَكَـآبَـةً لَعَلَّ إِلَهَ الْعَرْشِ يُرْهِقُهُمْ رُعْبَا
أُخَـيَّ أَرَادُوا أَنْ تَـمُـوتَ تَـعَـمُّـدًا وَلَا شَيْءَ مِنْ قَبْلِ الْقِتَالِ وَلَا ذَنْبَا
وَقَدْ عَرَفَتْ ذَا الْخَيْلِ أَنَّكَ فَارِسٌ وَأَشْجَعُ مَنْ حَلَّ الْمَشَارِقَ وَالْغَرْبَا
تُحَامِي عَنِ الْأُخْتِ الَّتِي قَلَّ عَزْمُهَا فَأَنْتَ أَخُوهَا وَهْيَ تَدْعُو لَكَ الرَّبَّا
فَلَا تَتْرُكِ الْأَعْدَاءَ تَمْلُكُ مُهْجَتِي وَتَأْخُذُنِي قَهْرًا وَتَأْسِرُنِي غَصْبَا
وَلَـسْـتُ وَحَـقِّ الـلـهِ أَبْـقَـى بِـبَـلْـدَةٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ فِيهَا وَإِنْ مُلِئَتْ خِصْبَا
وَأَقْـتُـلُ نَـفْـسِـي فِـي هَـوَاكَ مَـحَـبَّـةً وَأَسْكُنُ لَحْدًا فِيهِ أَفْتَرِشُ التُّرْبَا

فلما سمع أخوها شعرها بكى بكاءً شديدًا، وردَّ رأس جواده إلى أخته، وأجابها على شعرها بقوله:

قِفِي وَانْظُرِي مِنِّي وُقُوعَ عَجَائِبٍ إِذَا مَا الْتَقَيْنَا حِينَ أُثْخِنُهُمْ ضَرْبَا
وَإِنْ بَرَزَ اللَّيْثُ الْمُقَدَّمُ فِيهِمُ وَأَشْـجَـعُـهُـمْ قَـلْـبًـا وَأَثْـبَـتُـهُـمْ لُـبَّـا
سَـأَسْـقِـيـهِ مِـنِّـي ضَـرْبَـةً ثَـعْـلَـبِـيَّـةً وَأَتْرُكُ فِيهِ الرُّمْحَ يَسْتَغْرِقُ الْكَعْبَا
وَإِنْ لَمْ أُقَاتِلْ عَنْكِ أُخْتِي فَلَيْتَنِي قَتِيلٌ وَلَيْتَ الطَّيْرَ تَنْهَبُنِي نَهْبَا
أُقَاتِلُ عَنْكِ مَا اسْتَطَعْتُ تَكَرُّمًا وَهَذَا حَدِيثٌ بَعْدَنَا يَمْلَأُ الْكُتُبَا

فلما فرغ من شعره قال: يا أختي، اسمعي ما أقوله لك، وما أوصيك به. فقالت له: سمعًا وطاعة. فقال لها: إنْ هلكتُ فلا تمكِّني أحدًا من نفسك. فعند ذلك لطمت على وجهها وقالت: معاذ الله يا أخي أن أراك صريعًا وأمكِّن الأعداءَ مني. فعند ذلك مد الغلام يده إليها، وكشف برقعها عن وجهها، فلاحت لنا صورتها كالشمس من تحت الغمام، فقبَّلها بين عينيها وودَّعها، وبعد ذلك التفت إلينا وقال لنا: يا فرسان، هل أنتم ضيفان أم تريدون الضرب والطعان؟ فإن كنتم ضيفانًا فأبشروا بالقِرَى، وإن كنتم تريدون القمر

الزاهر فَلْيبرز لي منكم فارس بعد فارس في هذا الميدان، ومقام الحرب والطعان. فعند ذلك برز إليه فارس شجاع، فقال له الشاب: ما اسمك؟ وما اسم أبيك؟ فإني حالف أني ما أقتل مَن اسمه موافِق لاسمي، واسمُ أبيه موافق لاسم أبي، فإن كنتَ بهذا الوصف فقد سلَّمت إليك الجارية. فقال له الفارس: اسمي بلال. فأجابه الشاب بقوله:

كَذَبْتَ فِي قَوْلِكَ مِنْ بِلَالِ وَجِئْتَ بِالزُّورِ وَبِالْمُحَالِ
إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاسْتَمِعْ مَقَالِي أَنَا مُجَنْدِلُ الْأَبْطَالِ فِي الْمَجَالِ
بِصَارِمٍ مَاضٍ كَمَا الْهِلَالُ فَاصْبِرْ لِطَعْنِ مُرْجِفِ الْجِبَالِ

ثم حملَا على بعضهما، فطعنه الشاب في صدره، فخرج السنان من ظهره، ثم برز إليه واحد فقال الشاب:

يَا أَيُّهَا الْكَلْبُ الرَّخِيمُ الرَّجْسِ فَأَيْنَ غَالٍ سِعْرُهُ مِنْ بَخْسِ
وَإِنَّمَا اللَّيْثُ الْكَرِيمُ الْجِنْسِ مَنْ لَمْ يُبَالِ فِي الْوَغَى بِنَفْسِ

ثم لم يمهله الشاب دون أن يتركه غريقًا في دمه، ثم نادى الشاب: هل من مبارز؟ فبرز إليه واحد، فانطلق على الشاب وجعل يقول:

إِلَيْكَ أَقْبَلْتُ وَفِي قَلْبِي لَهَبْ مِنْهُ أُنَادِي عِنْدَ صَحْبِي بِالْحَرَبْ
لِمَ قَتَلْتَ الْيَوْمَ سَادَاتِ الْعَرَبْ فَالْيَوْمَ لَا تَلْقَى فِكَاكًا مِنْ طَلَبْ

فلما سمع الشاب كلامه أجابه بقوله:

كَذَبْتَ بِئْسَ أَنْتَ مِنْ شَيْطَانِ قَدْ جِئْتَ بِالزُّورِ وَبِالْبُهْتَانِ
الْيَوْمَ تَلْقَى فَاتِكَ السِّنَانِ فِي مَوْقِفِ الْحَرْبِ وَفِي الطِّعَانِ

ثم طعنه في صدره فطلع السنان من ظهره، ثم قال: هل من مبارز؟ فخرج إليه الرابع، وسأله الشاب عن اسمه، فقال له الفارس: اسمي هلال. فأنشد يقول:

أَخْطَأْتَ إِذَا أَرَدْتَ خَوْضَ بَحْرِي وَجِئْتَ بِالزُّوْرِ وَكُلِّ الْأَمْرِ
أَنَا الَّذِي تَسْمَعُ مِنِّي شِعْرِي أَخْتَلِسُ النَّفْسَ وَلَسْتَ تَدْرِي

ثم حملَا على بعضهما، واختلف بينهما ضربتان، فكانت ضربة الشاب هي السابقة إلى الفارس فقتله، وصار كلُّ مَن نزل إليه يقتله، فلمَّا نظرت أصحابي قد قُتِلوا قلتُ في نفسي: إن نزلت إليه في الحرب لم أطقه، وإن هربت أبقى معيرةً بين العرب. فلم يمهلني الشاب دون أن انقضَّ عليَّ وجذبني بيده، فأطاحني من سرجي فوقعت مغشيًّا عليَّ، ورفع سيفه وأراد أن يضرب عنقي، فتعلَّقْتُ بأذياله، فحملني بكفه فصرت معه كالعصفور، فلما رأت ذلك الجارية فرحت بفعل أخيها، وأقبلت عليه وقبَّلَتْه بين عينيه، ثم إنه سلَّمني إلى أخته وقال لها: دونك وإياه، وأحسني مثواه؛ لأنه دخل في زمامنا. فقبضت الجارية على أطواق درعي، وصارت تقودني كما تقود الكلب، وفكَّت عن أخيها لَأْمَةَ الحرب، وألبسته بدلة، ونصبت له كرسيًّا من العاج فجلس عليه، وقالت له: بيَّض الله عرضك، وجعلك عُدَّة للنائبات. فأجابها بهذه الأبيات:

تَقُولُ وَقَدْ رَأَتْ فِي الْحَرْبِ أُخْتِي ... لَوَامِعَ غُرَّتِي مِثْلَ الشُّعَاعِ
أَلَا لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ شُجَاعٍ ... تُذَلُّ لِحَرْبِهِ أُسْدُ الْبِقَاعِ
فَقُلْتُ لَهَا سَلِي الْأَبْطَالَ عَنِّي ... إِذَا مَا فَرَّ أَرْبَابُ الْقِرَاعِ
أَنَا الْمَعْرُوفُ فِي سَعْدِي وَجِدِّي ... وَعَزْمِي قَدْ عَلَا أَيَّ ارْتِفَاعِ
أَيَا حَمَّادُ قَدْ نَازَلْتَ لَيْثًا ... يُرِيكَ الْمَوْتَ يَسْعَى كَالْأَفَاعِي

فلما سمعتُ شعره حرتُ في أمري، ونظرت إلى حالتي وما صرت إليه من الأسر، وتصاغرتْ إليَّ نفسي، ثم نظرت إلى الجارية أخت الشاب وإلى حُسْنها، فقلت في نفسي: هذه سبب الفتنة. وصرتُ أتعجَّب من جمالها، وأجريتُ العَبَرات، وأنشدت هذه الأبيات:

خَلِيلِي كُفَّ عَنْ لَوْمِي وَعَذْلِي ... فَإِنِّي لِلْمَلَامَةِ غَيْرُ وَاعِ
كَلِفْتُ بِغَادَةٍ لَمْ تَبْدُ إِلَّا ... دَعَتْنِي فِي مَحَبَّتِهَا الدَّوَاعِي
أَخُوهَا فِي الْهَوَى أَمْسَى رَقِيبِي ... وَصَاحِبَ هِمَّةٍ وَطَوِيلَ بَاعِ

ثم إن الجارية أحضرت لأخيها الطعام، فدعاني إلى الأكل معه، ففرحت وأمنت على نفسي من القتل، ولما فرغ أخوها من الأكل أحضرت له آنية المُدام، ثم إن الشاب أقبل على المُدام، وشرب حتى شعشع المدام في رأسه واحمرَّ وجهه، فالتفت إليَّ وقال لي: ويلك يا حماد، أنا عبَّاد بن تميم بن ثعلبة، إن الله وهب لك نفسك وأبقى عليك عرسك. ثم حيَّاني بقدح شربته وحيَّاني بثانٍ وثالث ورابع، فشربت الجميع، ونادمني وحلَّفني أني

لا أخونه، فحلفتُ له ألفًا وخمسمائة يمين أني لا أخونه أبدًا، بل أكون له معينًا، فعند ذلك أمر أخته أن تأتيني بعشر خِلَع من الحرير، وهذه بدلة منها على جسدي، وأمرها أن تأتيني بناقة من أحسن النياق، فأتتني بناقة محمَّلة من التحف والزاد، وأمرها أيضًا أن تُحضِرَ لي الحصان الأشقر، فأحضرته لي، ثم وهب لي جميعَ ذلك، وأقمتُ عندهم ثلاثة أيام في أكل وشرب، والذي قد أعطاه لي موجود عندي إلى الآن. وبعد الثلاثة أيام قال لي: يا أخي يا حماد، أريد أن أنام قليلًا لأريح نفسي، وقد استأمنتك على نفسي، فإن رأيتَ خيلًا ثائرةً فلا تفزع منها، واعلم أنهم من بني ثعلبة يطلبون حربي. ثم توسَّدَ سيفه تحت رأسه ونام، فلما استغرق في النوم وسوس إليَّ إبليس بقتله، فقمتُ بسرعة وجذبت سيفه من تحت رأسه، وضربتُه ضربةً أطاحَتْ رأسه عن جثته، فعلمَتْ بي أخته، فوثبت من جانب الخباء ورمت نفسها على أخيها، وشقَّتْ ما عليها من الثياب، وأنشدت هذه الأبيات:

إِلَى الْأَهْلِ بَلِّغْ أَنَّ ذَا أَشْأَمُ الْخَبَرِ ... وَمَا لِامْرِئٍ مِمَّا الْحَكِيمِ قَضَى مَفَرْ
وَأَنْتَ صَرِيعٌ يَا أَخِي مُتَجَنْدِلٌ ... وَوَجْهُكَ يَحْكِي حُسْنُهُ دَوْرَةَ الْقَمَرْ
لَقَدْ كَانَ يَوْمُ الشُّؤْمِ يَوْمَ لَقِيتُهُمْ ... وَرُمْحُكَ مِنْ بَعْدِ اطِّرَادٍ قَدِ انْكَسَرْ
وَبَعْدَكَ لَا يَرْتَاحُ لِلْخَيْلِ رَاكِبٌ ... وَلَا تَلِدُ الْأُنْثَى نَظِيرَكَ مِنْ ذَكَرْ
وَأَصْبَحَ حَمَّادٌ لَكَ الْيَوْمَ قَاتِلًا ... وَقَدْ خَانَ أَيْمَانًا وَبِالْعَهْدِ قَدْ غَدَرْ
يُرِيدُ بِهَذَا أَنْ يَنَالَ مُرَادَهُ ... لَقَدْ كَذَبَ الشَّيْطَانُ فِي كُلِّ مَا أَمَرْ

فلما فرغت من شعرها قالت له: يا ملعون الجدَّين، لماذا قتلت أخي وخُنته؟ وكان مراده أن يردَّك إلى بلادك بالزاد والهدايا، وكان مراده أيضًا أن يزوِّجني لك في أول الشهر. ثم جذبتْ سيفًا كان عندها وجعلتْ قائمه في الأرض وطرفه في صدرها، وانحنت عليه حتى طلع من ظهرها، فخرَّت على الأرض ميتة، فحزنت عليها وندمت حيث لا ينفع الندم، وبكيت، ثم قمت مسرعًا إلى الخباء وأخذت ما خفَّ حمله وغلا ثمنه، وسرت إلى حال سبيلي، ومن خوفي وعجلتي لم ألتفت إلى أحد من أصحابي، ولا دفنت الصبيَّة ولا الشاب، وهذه الحكاية أعجب من حكايتي الأولى مع البنت الخدَّامة التي خطفتها من بيت المقدس. فلما سمعت نزهة الزمان من البدوي هذا الكلام، تبدل النور في عينها بالظلام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤٥

مقتل العجوز ذات الدواهي

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نزهة الزمان لما سمعت من البدوي هذا الكلام، تبدَّل الضياء في عينها بالظلام، وقامت جرَّدت السيف وضربت به البدوي حمَّادًا على عاتقه فأطلعته من علائقه، فقال لها الحاضرون: لأيِّ شيء استعجلت على قتله؟ فقالت: الحمد لله الذي فسح في أجلي حتى أخذتُ ثأري بيدي. ثم إنها أمرت العبيد أن يجروه من رجليه، ويرموه للكلاب.

وبعد ذلك أقبلوا على الاثنين الباقيَيْن من الثلاثة، وكان أحدهما عبدًا أسود، فقالوا له: ما اسمك أنت؟ فاصدقنا في حديثك. قال: أنا اسمي الغضبان. وأخبرهم بما وقع له مع الملكة إبريزة بنت الملك حردوب ملك الروم، وكيف قتلها وهرب، فلم يتم العبد كلامه حتى رمى الملك رومزان رقبته بالحسام، وقال: الحمد لله الذي أحياني وأخذت ثأر أمي بيدي. وأخبرهم أن دايته مرجانة حكت له عن هذا العبد الذي اسمه الغضبان.

وبعد ذلك أقبلوا على الثالث، وكان هو الجمَّال الذي اكتروه أهل بيت المقدس لحمل ضوء المكان وتوصيله إلى المارستان الذي في دمشق الشام، فذهب به وألقاه في المستوقد، وذهب إلى حال سبيله، ثم قالوا له: أخبرنا أنت بخبرك، واصدق في حديثك. فحكى لهم جميع ما وقع له مع السلطان ضوء المكان، وكيف حمله من بيت المقدس وهو ضعيف، على أن يوصله إلى الشام ويرميه في المارستان، وكيف جاء له أهل بيت المقدس بالدراهم، فأخذها وهرب بعد أن رماه في مستوقد الحمَّام، فلما تمَّ كلامه أخذ السلطان «كان ما كان» السيفَ وضربه فرمى عنقه، وقال: الحمد لله الذي أحياني حتى جازيت هذا الخائن بما فعل مع أبي، فإنني قد سمعت هذه الحكاية بعينها من والدي السلطان ضوء المكان.

فقال الملوك لبعضهم: ما بقي علينا إلَّا العجوز شواهي الملقَّبة بذات الدواهي، فإنها سبب هذه البلايا؛ حيث أوقعتنا في الرزايا، ومن لنا بها حتى نأخذ منها الثأر، ونكشف العار. فقال لهم الملك رومزان عم الملك كان ما كان: لا بد من إحضارها. ثم إن الملك رومزان كتب كتابًا من وقته وساعته، وأرسله إلى جدته العجوز شواهي الملقَّبة بذات الدواهي، وذكر لها فيه أنه غلب على مملكة دمشق والموصل والعراق، وكسر عسكر المسلمين وأسر ملوكهم، وقال: أريد أن تحضري عندي من كل بد، أنتِ والملكة صفيَّة بنت الملك أفريدون ملك القسطنطينية، ومَن شئتم من أكابر النصارى من غير عسكر، فإن البلاد أمان؛ لأنها صارت تحت أيدينا. فلما وصل الكتاب إليها وقرأته وعرفت خط الملك رومزان، فرحت فرحًا شديدًا، وتجهَّزت من وقتها وساعتها للسفر هي والملكة صفية أم نزهة الزمان ومَن صَحِبهم، ولم يزالوا مسافرين حتى وصلوا إلى بغداد، فتقدَّم الرسول وأخبرهم بحضورها، فقال رومزان: المصلحة تقتضي أن نلبس اللبس الإفرنجي، ونقابل العجوز حتى نأمن من خداعها وحِيَلها. فقالوا: سمعًا وطاعة. ثم إنهم لبسوا لباس الإفرنج، فلما رأت ذلك «قضى فكان» قالت: وحق الرب المعبود، لولا أني أعرفكم لَقلتُ إنكم إفرنج. ثم إن رومزان تقدَّم أمامهم، وخرجوا يقابلون العجوز في ألف فارس، فلما وقعت العين في العين، ترجَّلَ رومزان عن جواده وسعى إليها، فلما رأته وعرفته ترجَّلت إليه وعانقته، فقرط بيده على أضلاعها حتى كاد أن يقصفها، فقالت: ما هذا؟ فلم تتم كلامها حتى نزل إليهما «كان ما كان»، والوزير دندان، وزعقت الفرسان على مَن معها من الجواري والغلمان، وأخذوهم جميعهم ورجعوا إلى بغداد، وأمرهم رومزان أن يزيِّنوا بغداد، فزيَّنوها ثلاثةَ أيام، ثم أخرجوا شواهي الملقَّبة بذات الدواهي، وعلى رأسها طرطور أحمر مكلَّل بروث الحمير، وقُدَّامها منادٍ ينادي: هذا جزاء مَن يتجرَّأ على الملوك، وعلى أولاد الملوك. ثم صلبوها على باب بغداد، ولما رأى أصحابها ما جرى لها أسلموا كلهم جميعًا.

ثم إن كان ما كان، وعمه رومزان، ونزهة الزمان، والوزير دندان تعجَّبوا لهذه السيرة العجيبة، وأمروا الكُتَّاب أن يؤرخوها في الكتب حتى تُقرَأ من بعدهم، وأقاموا بقية الزمان في ألذ عيش وأهناه، إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات. وهذا آخر ما انتهى إلينا من تصاريف الزمان بالملك عمر النعمان، وولده شركان، وولده ضوء المكان، وولد ولده كان ما كان، ونزهة الزمان، وقضى فكان.

ثم إن الملك قال لشهرزاد: أشتهي أن تحكي لي شيئًا من حكاية الطيور. فقالت: حبًّا وكرامة. فقالت لها أختها: لم أرَ الملك في طول هذه المدة انشرح صدره غير هذه الليلة، وأرجو أن تكون عاقبتك محمودة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤٦

حكايةٌ طريفةٌ تتعلَّق بالطيور والحيوان

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، طاوس يأوي إلى جانب البحر مع زوجته، وكان ذلك الموضع كثيرَ السباع، وفيه من سائر الوحوش، غير أنه كثير الأشجار والأنهار. وذلك الطاوس هو وزوجته يأويان إلى شجرة من تلك الأشجار ليلًا من خوفهما من الوحوش، ويغدوان في طلب الرزق نهارًا، ولم يزالا كذلك حتى كَثُر خوفهما، فسارا يبغيان موضعًا غير موضعهما يأويان إليه، فبينما هما يفتشان على موضع؛ إذ ظهرت لهم جزيرة كثيرة الأشجار والأنهار، فنزلا في تلك الجزيرة، وأكلا من أثمارها، وشربا من أنهارها. فبينما هما كذلك، وإذا ببطة أقبلت عليهما وهي في شدة الفزع، ولم تزل تسعى حتى أتت إلى الشجرة التي عليها الطاوس هو وزوجته فاطمأنت، فلم يشُكَّ الطاوس في أن تلك البطة لها حكاية عجيبة، فسألها عن حالها وعن سبب خوفها، فقالت: إنني مريضة من الحزن، وخوفي من ابن آدم، فالحذر ثم الحذر من بني آدم. فقال لها الطاوس: لا تخافي حيث وصلتِ إلينا. فقالت البطة: الحمد لله الذي فرَّج عني همي وغمي بقربكما، وقد أتيت راغبة في مودتكما. فلما فرغت من كلامها نزلت إليها زوجة الطاوس، وقالت لها: أهلًا وسهلًا ومرحبًا، لا بأس عليك، ومن أين يصل إلينا ابن آدم ونحن في تلك الجزيرة التي في وسط البحر؟ فمن البر لا يقدر أن يصل إلينا، ومن البحر لا يمكن أن يطلع علينا، فأَبْشِري وحدِّثينا بالذي نزل بكِ واعتراكِ من ابن آدم. فقالت البطة: اعلمي أيتها الطاوسة أنني في هذه الجزيرة طول عمري آمنة لا أرى مكروهًا، فنمت ليلة من الليالي فرأيت في منامي صورة ابن آدم وهو يخاطبني وأخاطبه، وسمعت قائلًا يقول

لي: أيتها البطة، احذري من ابن آدم، ولا تغتري بكلامه ولا بما يُدخِله عليك؛ فإنه كثير الحِيَل والخداع، فالحذر كل الحذر من مُكْره؛ فإنه مخادع ماكر كما قال فيه الشاعر:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ



فبينما هما يُفتِّشان على مَوضعٍ، إذ ظهرَت لهما جزيرةٌ كثيرةُ الأشجار.

واعلمي أن ابن آدم يحتال على الحيتان فيُخرِجها من البحار، ويرمي الطير ببندقة من طين، ويُوقِع الفيلَ بمكره، وابن آدم لا يسلم أحدٌ من شرِّه، ولا ينجو منه طير ولا وحش، وقد بلغتك ما سمعته عن ابن آدم. فاستيقظتُ من منامي خائفة مرعوبة، وأنا إلى الآن لا ينشرح صدري خوفًا على نفسي من ابن آدم؛ لئلا يدهمني بحيلته، ويصيدني بحبائله، ولم يأتِ عليَّ آخِر النهار إلا وقد ضعفت قوتي، وبطلت همَّتي، ثم إني اشتقت إلى الأكل والشرب، فخرجت أتمشى وخاطري مكدر وقلبي مقبوض، فلما وصلت إلى ذلك الجبل، وجدتُ على بابِ مغارةٍ شبلًا أصفر اللون، فلما رآني ذلك الشبل فرح بي فرحًا شديدًا، وأعجبه لوني، وكوني لطيفة الذات، فصاح عليَّ وقال لي: اقربي مني. فلما قربت منه قال لي: ما اسمك؟ وما جنسك؟ فقلت له: اسمي بطة، وأنا من جنس الطيور. ثم قلت له: ما سبب قعودك إلى هذا الوقت في هذا المكان؟ فقال الشبل: سبب ذلك أن والدي الأسد له أيام وهو يحذِّرني من ابن آدم، فاتفق أنني رأيت في هذه الليلة في منامي صورةَ ابن آدم. ثم إن الشبل حكى لي نظير ما حكيتُه لك، فلما سمعتُ كلامَه قلتُ له: يا أسد، إني قد لجأتُ إليك في أن تقتل ابن آدم، وتحزم رأيك في قتله؛ فإني أخاف على نفسي منه خوفًا شديدًا، وازددت خوفًا على خوفي من خوفك من ابن آدم مع أنك سلطان الوحوش.

وما زلت يا أختي أحذِّر الشبل من ابن آدم وأُوصيه بقتله، حتى قام من وقته وساعته من المكان الذي كان فيه، وتمشى وتمشيت وراءه، ففرقع بذَنَبه على ظهره، ولم يزل يتمشى وأنا أمشي وراءه إلى أن مرق الطريق، فوجدنا غبرة طارت، وبعد ذلك انكشفت الغبرة فبان من تحتها حمار شارد عريان، وهو تارةً يقمص ويجري، وتارةً يتمرغ، فلما رآه الأسد صاح عليه، فأتى إليه خاضعًا، فقال له: أيها الحيوان الخريف العقل، ما جنسك؟ وما سبب قدومك إلى هذا المكان؟ فقال له: يا ابن السلطان، أنا جنسي حمار، وسبب قدومي إلى هذا المكان هروبي من ابن آدم. فقال له الشبل: وهل أنت خائف من ابن آدم أن يقتلك؟ فقال له الحمار: لا يا ابن السلطان، وإنما خوفي أن يعمل حيلة عليَّ ويركبني؛ لأن عنده شيئًا يسمِّيه البرذعة فيجعلها على ظهري، وشيئًا يسميه الحزام فيشده على بطني، وشيئًا يسميه الطفر فيجعله تحت ذَنَبي، وشيئًا يسميه اللجام فيجعله في فمي، ويعمل لي منخاسًا ينخسني به، ويكلِّفني ما لا أطيق من الجري، وإذا عثرت لعنني، وإن نهقت شتمني، وبعد ذلك إذا كبرت ولم أقدر على الجري يجعل لي رجلًا من الخشب، ويسلِّمني إلى السقَّايين فيجعلون الماء على ظهري من البحر في القرب ونحوها كالجرار، ولا أزال في ذل وهوان وتعب حتى أموت، فيرمونني فوق التلال للكلاب، فأي شيء أكبر من هذا الهم؟ وأي مصيبة أكبر من هذه المصائب؟

فلما سمعتُ أيتها الطاوسة كلام الحمار اقشعرَّ جسدي من ابن آدم، وقلت للشبل: يا سيدي، إن الحمار معذور، وقد زادني كلامه رعبًا على رعبي. فقال الشبل للحمار: إلى أين أنت سائر؟ فقال له الحمار: إني نظرت ابن آدم قبل إشراق الشمس من بعيد ففررتُ هربًا منه، وها أنا أريد أن أنطلق، ولم أزل أجري من شدة خوفي منه، فعسى أجد لي موضعًا يأويني من ابن آدم الغدار. فبينما ذلك الحمار يتحدَّث مع الشبل في ذلك الكلام، وهو يريد أن يودِّعنا ويروح؛ إذ ظهرت لنا غبرة، فنهق الحمار وصاح، ونظر بعينه إلى ناحية الغبرة، وضرط ضراطًا عاليًا، وبعد ساعة انكشفت الغبرة عن فرس أدهم بغُرَّة كالدرهم، وذلك الفرس ظريف الغرة، مليح التحجيل، حسن القوائم والصهيل، ولم يزل يجري حتى وقف بين يدي الشبل ابن الأسد، فلما رآه الشبل استعظمه، وقال له: ما جنسك أيها الوحش الجليل؟ وما سبب شرودك في هذا البر العريض الطويل؟ فقال له: يا سيد الوحوش، أنا فرس من جنس الخيل، وسبب شرودي هروبي من ابن آدم. فتعجَّبَ الشبل من كلام الفرس، وقال: لا تقل هذا الكلام، فإنه عيب عليك وأنت طويل غليظ، وكيف تخاف من ابن آدم مع عظم جثتك، وسرعة جريك؟ وأنا مع صغر جسمي قد عزمت على أن ألتقي مع ابن آدم فأبطش به، وآكل لحمه، وأسكِّن روع هذه البطة المسكينة، وأقرها في وطنها، وها أنت لما أتيتَ في هذه الساعة قطعت قلبي بكلامك، وأرجعتني عما أردت أن أفعله، فإذا كنت أنت مع عِظَمك قد قهرك ابن آدم، ولم يخف من طولك وعرضك، مع أنك لو رفصته برجلك لقتلته، ولم يقدر عليك، بل تسقيه كأس الردى.

فضحك الفرس لما سمع كلام الشبل، وقال: هيهات هيهات أن أغلبه يا ابن الملك، فلا يغرك طولي ولا عرضي ولا ضخامتي مع ابن آدم؛ لأنه من شدة حِيَله ومكره يصنع لي شيئًا يقال له الشكال، ويضع في أربعة قوائمي شكالين من حبال الليف الملفوفة باللباد، ويصلبني من رأسي في وتد عالٍ، وأبقى واقفًا وأنا مصلوب لا أقدر أن أقعد ولا أنام، وإذا أراد أن يركبني يعمل لي شيئًا في رجليه من الحديد اسمه الركاب، ويضع على ظهري شيئًا يسميه السرج، ويشده بحزامين من تحت إبطي، ويضع في فمي شيئًا من الحديد يسميه اللجام، ويضع فيه شيئًا من الجلد يسميه الصُّرع، فإذا ركب فوق ظهري على السرج يمسك الصُّرع بيده ويقودني به، ويهمزني بالركاب في خواصري حتى يدميها، ولا تسأل يا ابن السلطان عمَّا أقاسيه من ابن آدم؛ فإذا كبرت وانتحل ظهري ولم أقدر على سرعة الجري، يبيعني للطحان ليدورني في الطاحون، فلا أزال دائرًا فيها ليلًا ونهارًا إلى أن أهرم، فيبيعني للجزار فيذبحني، ويسلخ جلدي، وينتف ذَنَبي، ويبيعها للغرابلي

والمناخلي، ويسلي شحمي. فلما سمع الشبل كلام الفرس ازداد غيظًا وغمًّا، وقال له: متى فارقت ابن آدم؟ قال: فارقته نصف النهار، وهو في إثري.

فبينما الشبل يتحدَّث مع الفرس في هذا الكلام، وإذا بغبرة ثارت، وبعد ذلك انكشفت الغبرة وبان من تحتها جمل هائج، وهو يبعبع ويخبط برجليه في الأرض، ولم يزل يفعل كذلك حتى وصل إلينا، فلما رآه الشبل كبيرًا غليظًا، ظنَّ أنه ابن آدم فأراد الوثوب عليه، فقلت له: يا ابن السلطان، إن هذا ما هو ابن آدم، وإنما هذا جمل، وكأنه هارب من ابن آدم. فبينما أنا يا أختي مع الشبل في هذا الكلام، وإذا بالجمل تقدَّمَ بين أيادي الشبل وسلَّمَ عليه، فردَّ عليه السلام، وقال له: ما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟ قال: جئت هاربًا من ابن آدم. فقال له الشبل: وأنت مع عظم خلقتك وطولك وعرضك كيف تخاف من ابن آدم، ولو رفصته برجلك رفصة لقتلته؟ فقال له الجمل: يا ابن السلطان، اعلم أن ابن آدم له دواهٍ لا تُطاق، وما يغلبه إلا الموت؛ لأنه يضع في أنفي خيطًا ويسمِّيه خزامًا، ويجعل في رأسي مقودًا ويسلِّمني إلى أصغر أولاده، فيجرني الولد الصغير بالخيط مع كبري وعظمي، ويحمِّلونني أثقل الأحمال، ويسافرون بي الأسفار الطوال، ويستعملونني في الأشغال الشاقة أثناء الليل النهار، وإذا كبرت وشِخْت أو انكسرت لم يحفظ صحبتي، بل يبيعني للجزار فيذبحني، ويبيع جلدي للدبَّاغين، ولحمي للطباخين، ولا تسأل عمَّا أقاسي من ابن آدم. فقال له الشبل: أي وقت فارقت ابن آدم؟ فقال: فارقته وقت الغروب، وأظنه يأتي عند انصرافي فلن يجدني فيسعى في طلبي، فدعني يا ابن السلطان حتى أهجَّ في البراري والقفار. فقال الشبل: تمهَّلْ قليلًا يا جمل حتى تنظر كيف أفترسه، وأطعمك من لحمه، وأهشِّم عظمه، وأشرب من دمه. فقال له الجمل: يا ابن السلطان، أنا خائف عليك من ابن آدم فإنه مخادع ماكر. ثم أنشد قول الشاعر:

إِذَا حَلَّ الثَّقِيلُ بِأَرْضِ قَوْمٍ فَمَا لِلسَّاكِنِينَ سِوَى الرَّحِيلِ

فبينما الجمل يتحدَّث مع الشبل في هذا الكلام، وإذا بغبرة طلعت، وبعد ساعة انكشفت عن شيخ قصير رقيق البشرة، على كتفه مقطف فيه عدة نجار، وعلى رأسه شعبة وثمانية ألواح، وبيده أطفال صغار، وهو يهرول في مشيه، وما زال يمشي حتى قرب من الشبل؛ فلما رأيته يا أختي، وقعتُ من شدة الخوف، وأما الشبل فإنه قام وتمشى إليه ولاقاه، فلما وصل إليه ضحك النجار في وجهه، وقال له بلسان فصيح: أيها الملك الجليل، صاحب الباع الطويل، أسعد الله مساك ومسعاك، وزاد في شجاعتك وقواك، أجرني مما

دهاني، وبشرِّه رماني؛ لأني ما وجدتُ لي نصيرًا غيرك. ثم إن النجار وقف بين يدي الأسد وبكى، وأنَّ واشتكى، فلما سمع الشبل بكاءه وشكواه، قال له: أجرتك مما تخشاه، فمَن الذي قد ظلمك؟ وما أنت تكون أيها الوحش الذي ما رأيت عمري مثلك، ولا أحسن صورةً ولا أفصح لسانًا منك؟ فما شأنك؟ فقال له النجار: يا سيد الوحوش، أما أنا فنَجَّار، وأما الذي ظلمني فإنه ابن آدم، وفي صباح هذه الليلة يكون عندك في هذا المكان.

فلما سمع الشبل من النجار هذا الكلام، تبدَّلَ الضياء في وجهه بالظلام، وشخر ونخر، وارتمت عيناه بالشرر، وصاح وقال: والله لأسهرن في هذه الليلة إلى الصباح، ولا أرجع إلى والدي حتى أبلغ مقصدي. ثم إن الشبل التفت إلى النجار وقال له: إني أرى خطواتك قصيرة، ولا أقدر أن أكسر بخاطرك؛ لأني ذو مروءة، وأظن أنك لا تقدر أن تماشي الوحوش، فأخبرني إلى أين تذهب؟ فقال له النجار: اعلم أنني رائح إلى وزير والدك الفهد؛ لأنه لما بلغه أن ابن آدم داس هذه الأرض، خاف على نفسه خوفًا عظيمًا، وأرسل إليَّ رسولًا من الوحوش؛ لأصنع له بيتًا يسكن فيه ويأوي إليه، ويمنع عنه عدوه حتى لا يصل إليه أحدٌ من بني آدم، فلما جاءني الرسول أخذت هذه الألواح وتوجَّهْتُ إليه. فلما سمع الشبل كلام النجار، أخذه الحسد للفهد فقال له: بحياتي لا بد أن تصنع لي هذه الألواح بيتًا قبل أن تصنع للفهد بيته، وإذا فرغت من شغلي، فامضِ إلى الفهد واصنع له ما يريد. فلما سمع النجار من الشبل هذا الكلام، قال له: يا سيد الوحوش، ما أقدر أن أصنع لك شيئًا إلا إذا صنعتُ للفهد ما يريد، ثم أجيء إلى خدمتك، وأصنع لك بيتًا يحصنك من عدوك. فقال له الشبل: والله ما أخليك تروح من هذا المكان حتى تصنع لي هذه الألواح بيتًا.

ثم إن الشبل همَّ على النجار ووثب عليه، وأراد أن يمزح معه، فلطشه بيده فرمى المقطف من على كتفه، ووقع النجار مغشيًّا عليه، فضحك الشبل عليه وقال: ويلك يا نجار، إنك ضعيف، وما لك قوة، فأنت معذور إذا خفتَ من ابن آدم. فلما وقع النجار على ظهره اغتاظ غيظًا شديدًا، ولكنه كتم ذلك عن الشبل من خوفه منه، ثم قعد النجار وضحك في وجه الشبل، وقال له: ها أنا أصنع لك البيت. ثم إن النجار تناول الألواح التي كانت معه وسمَّر البيت، وجعله مثل القالب على قياس الشبل، وخلَّى بابه مفتوحًا؛ لأنه جعله على صورة صندوق، وفتح له طاقة كبيرة، وجعل لها غطاءً، وثقب فيها ثقوبًا كثيرة، وأخرج منها مسامير مطرفة، وقال للشبل: ادخل في هذا البيت من هذه الطاقة لَّما أقبيه عليك. ففرح الشبل بذلك، وأتى تلك الطاقة فرآها ضيقة، فقال له النجار: ادخل وابرك على يديك ورجليك. ففعل الشبل ذلك، ودخل الصندوق، وبقي ذَنَبُه خارجًا، ثم أراد الشبل أن

يتأخر إلى ورائه ويخرج، فقال له النجار: امهل حتى أنظر هل يسع ذَنَبك معك. فامتثل الشبل أمره، ثم إن النجار لفَّ ذَنَب الشبل وحشاه في الصندوق، وردَّ اللوح على الطاقة سريعًا وسمَّره، فصاح الشبل قائلًا: يا نجار، ما هذا البيت الضيق الذي صنعته لي؟ دعني أخرج منه. فقال له النجار: هيهات هيهات، لا ينفع الندم على ما فات، إنك لا تخرج من هذا المكان. ثم ضحك النجار، وقال للشبل: إنك وقعت في القفص، وكنت أخبث الوحوش. فقال: يا أخي، ما هذا الخطاب الذي تخاطبني به؟ فقال له النجار: اعلم يا كلب البر أنك وقعت فيما كنتَ تخاف منه، وقد رماك القدر، ولم ينفعك الحذر.

فلما سمع الشبل كلامه يا أختي، علم أنه ابن آدم الذي حذَّره منه أبوه في اليقظة، والهاتف في المنام، وتحقَّقتُ أنه هو بلا شك ولا ريب، فخفتُ منه على نفسي خوفًا عظيمًا، وبعدت عنه قليلًا، وصرت أنتظر ماذا يفعل بالشبل؟ فرأيت يا أختي ابن آدم حفر حفرة في ذلك المكان بالقرب من الصندوق الذي فيه الشبل، ورماه في تلك الحفرة، وألقى عليه الحطب، وأحرقه بالنار؛ فكبر يا أختي خوفي، ولي يومان هاربة من ابن آدم، وخائفة منه. فلما سمعت الطاوسة من البطة هذا الكلام ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الطاوسة لما سمعت من البطة هذا الكلام، تعجَّبت منه غاية العجب، وقالت: يا أختي، إنك أمنت من ابن آدم؛ لأننا في جزيرة من جزائر البحر، ليس لابن آدم فيها مسلك، فاختاري المقام عندنا إلى أن يسهِّل الله أمرك وأمرنا. قالت: أخاف أن يطرقني طارق، والقضاء لا ينفك عنه آبق. فقالت: اقعدي عندنا، وأنت مثلنا. وما زالت بها حتى قعدت، وقالت: يا أختي، أنت تعلمين قلة صبري، ولولا أني رأيتك هنا ما كنت قعدت. فقالت الطاوسة: إن كان على جبيننا شيء نستوفاه، وإن كان أجلنا دنا فمن يخلِّصنا، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها. فبينما هما في هذا الكلام؛ إذ طلعت عليهما غبرة، فعند ذلك صاحت البطة ونزلت البحر، وقالت: الحذر الحذر، وإن لم يكن مفر من القدر. وكانت الغبرة عظيمة، فلما انكشفت الغبرة ظهر من تحتها ظبي، فاطمأنت البطة والطاوسة، ثم قالت البطة: يا أختي، إن الذي تفزعين منه ظبي، وها هو قد أقبل نحونا فليس علينا منه بأس؛ لأن الظبي إنما يأكل الحشائش من نبات الأرض، وكما أنت من جنس الطير هو الآخر من جنس الوحوش، فاطمئني ولا تهتمي، فإن الهم ينحل البدن. فلم تتم الطاوسة كلامها حتى وصل الظبي إليهما يستظل تحت الشجرة، فلما رأى الطاوسة والبطة سلَّم عليهما، وقال لهما: إني دخلت هذه الجزيرة اليومَ فلم أرَ أكثر منها خصبًا، ولا أحسن منها مسكنًا. ثم دعاهما لمرافقته ومصافاته، فلما رأت البطة والطاوسة تودُّدَه إليهما أقبلتا عليه، ورغبتا في عشرته، وتحالفوا على ذلك، وصار مبيتُهم واحدًا، ومأكلهم سواء، ولم يزالوا آمنين آكلين شاربين حتى مرت بهم سفينة كانت تائهة في البحر، فأرست قريبًا منهم، فطلع الناس وتفرقوا في الجزيرة، فرأوا الظبي والطاوسة والبطة مجتمعين، فأقبلوا عليهم؛ فشرد الظبي في البرية، وطارت الطاوسة في الجو، فبقيت البطة مخبلة، ولم يزالوا بها حتى صادوها، وصاحت قائلة: لم ينفعني

الحذر من القضاء والقدر. وانصرفوا بها إلى سفينتهم، فلما رأت الطاوسة ما جرى للبطة، ارتحلت عن الجزيرة وقالت: لا أرى الآفات إلا مراصدة لكل أحد، ولولا هذه السفينة ما حصل بيني وبين هذه البطة افتراق، ولقد كانت من خيار الأصدقاء. ثم طارت الطاوسة واجتمعت بالظبي، فسلَّمَ عليها وهنَّأها بالسلامة، وسألها عن البطة فقالت له: قد أخذها العدو، وكرهتُ المقام في تلك الجزيرة بعدها. ثم بكت على فراق البطة، وأنشدت تقول:

إِنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ قَطْعٌ لِقَلْبِي   قَطَّعَ اللهُ قَلْبَ يَوْمِ الْفِرَاقِ

وأنشدت أيضًا:

تمنَّيْتُ الْوِصَالَ يَعُودُ يَوْمًا   لِأُخْبِرَهُ بِمَا صَنَعَ الْفِرَاقُ

فاغتمَّ الظبي غمًّا شديدًا، ثم ردَّ عزم الطاوسة عن الرحيل، فأقام معها في تلك الجزيرة آمنَيْن آكلَيْن شاربَيْن، غير أنهما لم يزالا حزينين على فراق البطة، فقال الظبي للطاوسة: يا أختي، قد علمت أن الناس الذين طلعوا لنا من المركب كانوا سببًا لفراقنا ولهلاك البطة، فاحذريهم واحترسي منهم ومن مكر ابن آدم وخداعه. قالت: قد علمت يقينًا أن ما قتلها غير تركها التسبيح، ولقد قلت لها: إني أخاف عليك من تركك التسبيح؛ لأن كل ما خلقه الله يسبحه، فإن غفل عن التسبيح عُوقِب بهلاكه. فلما سمع الظبي كلام الطاوسة قال: أحسن الله صورتك. وأقبل على التسبيح لا يفتر عنه ساعة، وقد قيل إن الظبي يقول في تسبيحه: سبحان الديان ذي الجبروت والسلطان.

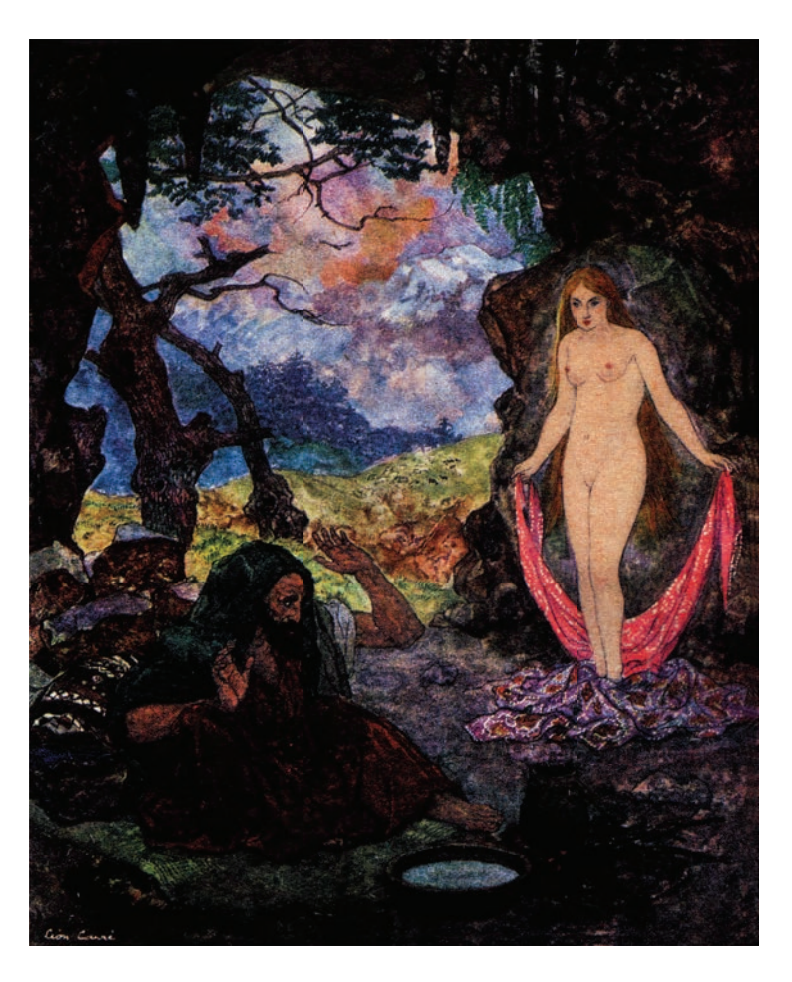
وورد أن بعض العُبَّاد كان يتعبد في الجبال، وكان يأوي إلى ذلك الجبل زوج من الحمام، وكان ذلك العابد قسَّمَ قُوتَه نصفين. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤٨

حكاية الصبية والراعي

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العابد قد قسم قُوته نصفين، وجعل نصفه لنفسه، ونصفه لذلك الزوج الحمام، ودعا العابد لهما بكثرة النسل فكثُر نسلهما، ولم يكن الحمام يأوي إلى غير الجبل الذي فيه العابد، وكان السبب في اجتماع الحمام بالعابد كثرة تسبيح الحمام، وقيل إن الحمام يقول في تسبيحه: سبحان خالق الخلق، وقاسم الرزق، وباني السموات، وباسط الأرضين. ولم يزل ذلك الزوج الحمام في أرغد عيش هو ونسله حتى مات العابد؛ فتشتَّتَ شمل الحمام، وتفرَّق في المدن والقرى والجبال. وقيل إنه كان في بعض الجبال رجل من الرعاة صاحب دين وعقل وعفة، وكان له غنم يرعاها، وينتفع بألبانها وأصوافها، وكان ذلك الجبل الذي يأوي إليه الراعي كثيرَ الأشجار والمرعى والسباع، ولم يكن لتلك الوحوش قدرة على الراعي ولا على غنمه، ولم يزل مقيمًا في الجبل مطمئنًّا لا يهمه شيء من أمر الدنيا لسعادته وإقباله على عبادته، فاتفق له أنه مرض مرضًا شديدًا فدخل كهفًا في الجبل، وصارت الغنم تخرج بالنهار إلى مرعاها، وتأوي بالليل إلى الكهف، فأراد الله أن يمتحن ذلك الراعي، ويختبره في طاعته وصبره، فبعث إليه مَلَكًا، فدخل عليه الملك في صورة امرأة حسناء، وجلس بين يديه، فلما رأى الراعي تلك المرأة جالسة عنده اقشعرَّ بدنه منها، فقال لها: أيتها المرأة ما الذي دعاكِ إلى المجيء هنا وليس لك حاجة معي، ولا بيني وبينك ما يوجب دخولك عندي؟ فقالت له: أيها الإنسان، أَمَا ترى حسني وجمالي وطيب رائحتي؟ أَمَا تعلم حاجة الرجال إلى النساء؟ فما الذي يمنعك مني؟ وقد اخترت قربك وأحببت وصالك، وقد جئتك طائعة وعليك غير ممتنعة، وليس عندنا أحد نخشاه، وأريد أن أقيم معك طول مقامك في هذه الجبال وأكون أنيسة

لك، وقد عرضت نفسي عليك لأنك تحتاج لخدمة النساء، وأنت إن باشرتني زال عنك مرضك وعادت إليك صحتك، وندمت على ما فاتك من قرب النساء في سالف عمرك، وقد نصحتك فاقبل نصيحتي وادنُ مني.



فدخل عليه المَلَك في صورةِ امرأةٍ حسناءَ وجلس بين يدَيْه.

فقال الراعي: اخرجي عني أيتها المرأة الخدَّاعة الغدارة، فلا أركن إليكِ ولا أدنو منك ولا حاجة لي بقربك ولا بوصالك؛ لأن مَن رغب فيكِ زهد في الآخرة، ومَن رغب في الآخرة

زهد فيكِ؛ لأنكِ فتنتِ الأولين والآخرين، والله تعالى لعباده بالمرصاد، والويل لِمَن ابتُلِي بصحبتك. فقالت له: أيها التائه عن السداد، والضال عن طريق الرشاد، أقبل بوجهك إليَّ، وانظر إلى محاسني، واغتنم قربي كما فعل مَن كان قبلك من الحكماء، فقد كانوا أكثر منك تجربةً وأصوب منك رأيًا، ومع ذلك لم يرفضوا ما رفضتَ من التمتُّع بالنساء، بل رغبوا فيما زهدتَ فيه من مباشَرةِ النساء وقُربهن، فما أساءهم ذلك في دينهم ولا دنياهم، فارجع عن رأيك تحمد عاقبة أمرك. فقال الراعي: إن الذي تقولينه كرهته، وجميع ما تبدينه زهدته؛ لأنك خدَّاعة غدَّارة لا عهد لكِ ولا وفاء، فكم من قبيح تحت حُسنك أخفيتِه! وكم من صالح فتنتِه، وكانت عاقبته إلى الندامة والحزن! فارجعي عني أيتها المُصلِحة نفسها لفساد غيرها. ثم ألقى عباءته على وجهه حتى لا يرى وجهها، واشتغل بذكر ربه.

فلما رأى المَلَك حُسْنَ طاعته خرج، وعرج إلى السماء، وكان قريبًا من الراعي قرية فيها رجل من الصالحين لم يعلم بمكانه، فرأى في منامه كأن قائلًا يقول له: بالقرب منك في مكان كذا رجل صالح فاذهب إليه، وكن تحت طاعة أمره. فلما أصبح الصباح توجَّه نحوه سائرًا، فلما اشتد عليه الحر انتهى إلى شجرة عندها عين جارية، فجلس في ظل الشجرة ليستريح، فبينما هو جالس وإذا بوحوش وطيور أتوا إلى تلك العين ليشربوا منها، فلما رأوا العابد جالسًا نفروا ورجعوا شاردين، فقال العابد في نفسه: أنا ما استرحت هنا إلا لتعب هذه الوحوش والطيور. ثم قام وقال معاتبًا لنفسه: لقد أضرَّ بهذه الحيوانات في هذا اليوم جلوسي في هذا المكان، فما عذري عند خالقي وخالق هذه الطيور والوحوش؟ فإنني كنت سببًا لشرودهم عن مائهم ومرعاهم، فوا خجلتي من ربي يوم يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء! ثم أفاض من جفنه العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

أَمَا وَاللهِ لَوْ عَلِمَ الْأَنَامُ … لِمَا خُلِقُوا لَمَا غَفَلُوا وَنَامُوا
فَمَوْتٌ ثُمَّ بَعْثٌ ثُمَّ حَشْرٌ … وَتَوْبِيخٌ وَأَهْوَالٌ عِظَامُ
وَنَحْنُ إِذَا انْتَهَيْنَا أَوْ أُمِرْنَا … كَأَهْلِ الْكَهْفِ أَكْثَرُنَا نِيَامُ

ثم بكى على جلوسه تحت الشجرة عند العين، ومنْعِه الطيور والوحوش من شربها، وولَّى هائمًا على وجهه حتى أتى إلى الراعي فدخل عنده وسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام وعانقه وبكى، ثم قال له الراعي: ما الذي أقدمك إلى هذا المكان الذي لم يدخله أحدٌ من الناس عليَّ؟ فقال العابد: إني رأيتُ في منامي مَن يصف لي مكانك، ويأمرني بالمسير إليك والسلام عليك، وقد أتيتك ممتثلًا لما أُمِرت به. فقبله الراعي وطابت نفسه بصحبته،

وجلس معه في الجبل يعبدان الله تعالى في ذلك الغار، وحسُنت عبادتهما، ولم يزالا في ذلك المكان يعبدان ربهما، ويتقوَّتان من لحوم الغنم وألبانها، متجرِّدَيْن عن المال والبنين، إلى أن أتاهما اليقين، وهذا آخِر حديثهما.

قال الملك: لقد زهَّدتِنِي يا شهرزاد في ملكي، وندَّمتِنِي على ما فرط مني في قتل النساء والبنات، فهل عندك شيء من حديث الطيور؟ قالت: نعم.

حكاية السلحفاة وطائر الماء

زعموا أيها الملك أن طائرًا طار وعلا إلى الجو، ثم انقضَّ على صخرة في وسط الماء، وكان الماء جاريًا، فبينما الطائر واقف على الصخرة، وإذا برمة إنسان جرَّها الماء حتى أسندها إلى الصخرة، ووقفَتْ تلك الجيفة في جانب الصخرة، وارتفعت لانتفاخها؛ فدَنَا منها طير الماء وتأمَّلَها فرآها رمة ابن آدم، وظهر له فيها ضرب السيف وطعن الرماح، فقال في نفسه: إن هذا المقتول كان شريرًا، فاجتمع عليه جماعة وقتلوه، واستراحوا منه ومن شرِّه. ولم يزل طير الماء يكثر التعجُّب من تلك الرمة حتى رأى نسورًا وعقبانًا أحاطوا بتلك الجيفة من جميع جوانبها، فلما رأى ذلك طير الماء جزع جزعًا شديدًا وقال: لا صبر لي على الإقامة في هذا المكان. ثم طار منه يفتش على موضع يأويه إلى حين نفاد تلك الجيفة، وزوال سباع الطير عنها، ولم يزل طائرًا حتى وجد نهرًا في وسطه شجرة، فنزل عليها كئيبًا حزينًا على بُعده عن وطنه، وقال في نفسه: لم تزل الأحزان تتبعني، وكنت قد استرحت لما رأيت تلك الجيفة، وفرحتُ بها فرحًا شديدًا، وقلت: هذا رزق ساقه الله إليَّ. فصار فرحي غمًّا، وسروري حزنًا وهمًّا، وافترستها سباع الطير مني، وحالوا بينها وبيني، فكيف أرجو أن أكون سالمًا في هذه الدنيا وأطمئن إليها؟ وقد قيل في المثل: الدنيا دارُ مَن لا دارَ له يغترُّ بها مَن لا عقلَ له، ويطمئن إليها بماله وولده، وقومه وعشيرته، ولم يزل المغتر بها راكنًا إليها يختال فوق الأرض حتى يصير تحتها، ويحثو عليه الترابَ أعزُّ الناس عليه، وأقربهم إليه، وما للفتى خير من الصبر على مكارهها، وقد فارقت مكاني ووطني وكنت كارهًا لفرقة إخواني وأصحابي. فبينما هو في فكرته، وإذا بذكر من السلاحف أقبل منحدرًا في الماء، ودنا من طير الماء وسلَّم عليه، وقال: يا سيدي، ما الذي أبعدك عن موضعك؟ قال: حلول الأعداء فيه، ولا صبر للعاقل على مجاورة عدوه، وما أحسن قول بعض الشعراء:

إِذَا حَلَّ الثَّقِيلُ بِأَرْضِ قَوْمٍ فَمَا لِلسَّاكِنِينَ سِوَى الرَّحِيلِ

فقال له السلحف: إذا كان الأمر كما وصفته، والحال مثل ما ذكرتها، فأنا لا أزال بين يديك، ولا أفارقك لأقضي حاجتك، وأَفِي بخدمتك، فإنه يقال: لا وحشة أشد من وحشة الغريب المنقطع عن أهله ووطنه، وقد قيل: إن فرقة الصالحين لا يعدلها شيء من المصائب، ومما يسلِّي به العاقل نفسه الاستئناس في الغربة، والصبر على الرزية والكربة، وأرجو أن تحمد صحبتي لك، وأكون لك خادمًا ومُعينًا. فلما سمع طير الماء مقالة السلحف قال له: لقد صدقتَ في قولك، ولعمري إني وجدت للفراق ألمًا وغمًّا مدة بعدي عن مكاني، وفراقي لإخواني وخلَّاني؛ لأن في الفراق عبرةً لمَن اعتبر، وفكرة لمَن تفكَّر، وإذا لم يجد الفتى مَن يسلِّيه من الأصحاب، ينقطع عنه الخير أبدًا، ويثبت له الشر سرمدًا، وليس للعاقل إلا التسلِّي بالإخوان عن الهموم في جميع الأحوال، وملازمة الصبر والتجلُّد، فإنهما خصلتان محمودتان يعينان على نوائب الدهر، ويدفعان الفزع والجزع في كل أمر. قال له السلحف: إياك والجزع، فإنه يفسد عليك عيشك، ويُذهِب مروءتك. وما زالا يتحدثان مع بعضهما إلى أن قال طير الماء للسلحف: أنا لم أزل أخشى نوائب الزمان، وطوارق الحدثان. فلما سمع السلحف مقالة طير الماء، أقبل عليه وقبَّله بين عينيه، وقال له: لم تزل جماعة الطير تعرف في مشورتك الخير، فكيف تحمل الهم والضَّير؟ ولم يزل يُسكِّن روع طير الماء حتى اطمأن، ثم إن طير الماء طار إلى مكان الجيفة، فلما وصل إليه لم يرَ من سباع الطير شيئًا، ولا من تلك الجيفة إلا عظامًا، فرجع يخبر السلحف بزوال العدو من مكانه، فلما وصل إلى السلحف أخبره بما رأى، وقال له: إني أحِبُّ الرجوع إلى مكاني، وأتملى بخلَّاني؛ لأنه لا صبرَ للعاقل عن وطنه. فذهب معه إلى ذلك المكان فلم يجد أشياء مما يخافان منه، فصار طير الماء قرير العين، وأنشد هذين البيتين:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يِضِيقُ لَهَا الْفَتَى ذَرْعًا وَعِنْدَ اللهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَمْكَنَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

ثم سكنا في تلك الجزيرة، فبينما طير الماء في أمن وسرور، وفرح وحبور؛ إذ ساق القضاء إليه بازًا جائعًا، فضربه بمخلبه ضربة فقتله، ولم يُغنِ عنه الحذر عند فراغ الأجل، وسبب قتله غفلته عن التسبيح، قيل إنه كان يقول في تسبيحه: سبحان ربنا فيما قدَّر ودبَّر، سبحان ربنا فيما أغنى وأفقر.

هذا ما كان من حديث الطير. فقال الملك: يا شهرزاد، لقد زدتِني بحكايتك مواعظَ واعتبارًا، فهل عندك شيء من حكايات الوحوش؟

حكاية الثعلب والذئب

فقالت: اعلم أيها الملك أن ثعلبًا وذئبًا أَلِفَا وكرًا، فكانا يأويان إليه مع بعضهما، فلبثا على ذلك مدة من الزمان، وكان الذئب للثعلب قاهرًا، فاتفق أن الثعلب أشار على الذئب بالرفق وترك الفساد، وقال له: إنْ دمتَ على عتوِّك ربما سلَّطَ الله عليك ابن آدم، فإنه ذو حِيَل ومكر وخداع؛ يصيد الطير من الجو، والحوت من البحر، ويقطع الجبال وينقلها، وكل ذلك من حِيَله؛ فعليك بالإنصاف، وترك الشر والاعتساف؛ فإنه أهنأ لطعامك. فلم يقبل الذئب قوله، وأغلظ له الرد، وقال له: لا علاقةَ لك بالكلام في عظيم الأمور وجسيمها. ثم لطم الثعلبَ لطمةً فخرَّ منها مغشيًّا عليه، فلما أفاق تبسَّم في وجه الذئب واعتذر إليه من الكلام المشين، وأنشد هذين البيتين:

إِنْ كُنْتُ قَدْ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا سَالِفًا فِي حُبِّكُمْ وَأَتَيْتُ شَيْئًا مُنْكَرَا
أَنَا تَائِبٌ عَمَّا جَنَيْتُ وَعَفْوُكُمْ يَسَعُ الْمُسِيءَ إِذَا أَتَى مُسْتَغْفِرَا

فقَبِل الذئب اعتذاره، وكفَّ عنه أشراره، وقال له: لا تتكلم فيما لا يعنيك، تسمع ما لا يرضيك. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٤٩

حكاية الثعلب والذئب

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الذئب قال للثعلب: لا تتكلم فيما لا يعنيك، تسمع ما لا يرضيك. فقال له الثعلب: سمعًا وطاعة، فأنا بمعزل عمَّا لا يرضيك، فقد قال الحكيم: لا تخبر عمَّا لا تُسأل عنه، ولا تُجِب ما لا تُدعَى إليه، وذَرِ الذي لا يعنيك إلى ما يعنيك، ولا تبذل النصيحة للأشرار فإنهم يجزونك عليها شرًّا. فلما سمع الذئب كلام الثعلب تبسَّم في وجهه، ولكنه أضمر له مكرًا، وقال: لا بد أن أسعى في هلاك هذا الثعلب. وأما الثعلب فإنه صبر على أذى الذئب، وقال في نفسه: إن البطر والافتراء يجلبان الهلاك، ويوقعان في الارتباك، فقد قيل: من بطر خسر، ومن جهل ندم، ومن خاف سلم، والإنصاف من شيم الأشراف، والآداب أشرف الاكتساب، ومن الرأي مُداراة هذا الباغي، ولا بد له من مصرع. ثم إن الثعلب قال للذئب: إن الربَّ يعفو ويتوب على عبده إن اقترف الذنوب، وأنا عبد ضعيف، وقد ارتكبت في نصحك التعسيف، ولو علمتَ بما حصل لي من ألم لطمتك، لَعلمتَ أن الفيل لا يقوم به ولا يقدر عليه، ولكني لا أشتكي من ألم هذه اللطمة بسبب ما حصل لي بها من السرور، فإنها وإن كانت قد بلغت مني مبلغًا عظيمًا عاقبتها سرور، وقد قال الحكيم: ضرب المؤدِّب أوله صعب شديد، وآخره أحلى من العسل المصفَّى. فقال الذئب: غفرت ذنبك، وأقلت عثرتك، فكن من قوَّتي على حذر، واعترف لي بالعبودية، فقد علمت قهري لمن عاداني. فسجد له الثعلب، وقال له: أطال الله عمرك، ولا زلت قاهرًا لمن عاداك.

ولم يزل الثعلب خائفًا من الذئب مصانعًا له، ثم إن الثعلب ذهب إلى كَرْم يومًا ما، فرأى في حائطه ثلمة فأنكرها، وقال في نفسه: إن هذه الثلمة لا بد لها من سبب، وقد قيل: مَن رأى خرقًا في الأرض فلم يجتنبه ويتوقَّ عن الإقدام عليه، كان بنفسه مُغَرًّا، وللهلاك

متعرِّضًا. وقد اشتهر أن بعض الناس يعمل صورة الثعلب في الكَرْم حتى يقدم إليه العنب في الأطباق؛ لأجل أن يرى ذلك الثعلب فيقدم إليه فيقع في الهلاك، وإني أرى هذه الثلمة مكيدة، وقد قيل: إن الحذر نصف الشطارة. ومن الحذر أن أبحث عن هذه الثلمة وأنظر، لعلي أجدها أمرًا يؤدي إلى التلف، ولا يحملني الطمع على أن ألقي نفسي في الهلكة. ثم دنا منها وطاف بها وهو محاذر، فرآها، فإذا هي حفرة عظيمة قد حفرها صاحب الكَرْم ليصيد فيها الوحش الذي يفسد الكَرْم، ورأى عليها غطاءً رقيقًا، فتأخَّرَ عنها وقال: الحمد لله حيث حذرتها، وأرجو أن يقع فيها عدوي الذئب الذي نغَّص عيشي، فأستقل بالكرم وحدي، وأعيش فيه آمنًا. ثم هزَّ رأسه وضحك ضحكًا عاليًا، وأطرب بالنغمات، وأنشد هذه الأبيات:

لَيْتَنِي أَبْصَرْتُ هَذَا الْـ ـوَقْتَ فِي ذِي الْبِئْرِ ذِئْبَا
طَالَمَا قَدْ سَاءَ قَلْبِي وَسَقَانِي الْمُرَّ غَصْبَا
لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ ذَا أَبْـ ـقَى وَيَقْضِي الذِّئْبُ نَحْبَا
ثُمَّ يَخْلُو الكَرْمُ مِنْهُ وَأَرَى لِي فِيهِ نَهْبَا

فلما فرغ من شعره انطلق مسرعًا حتى وصل إلى الذئب، وقال: إن الله سهَّل لك الأمور إلى الكَرْم بلا تعب، وهذا من سعادتك، فهنيئًا لك بما فتح الله عليك، وسهَّل لك من تلك الغنيمة والرزق الواسع بلا مشقة. فقال الذئب للثعلب: وما الدليل على ما وضعت؟ قال: إني انتهيت إلى الكَرْم فوجدت صاحبه قد مات، ودخلت البستان فرأيت الأثمار زاهية على الأشجار. فلم يشكَّ الذئب في قول الثعلب، وأدركه الشره، فقام حتى انتهى إلى الثلمة وقد غرَّه الطمع، ووقف الثعلب متهافتًا كالميت، وتمثَّلَ بهذا البيت:

أَتَطْمَعُ مِنْ لَيْلَى بِوَصْلٍ وَإِنَّمَا تَضُرُّ بِأَعْنَاقِ الرِّجَالِ الْمَطَامِعُ

فلما انتهى الذئب إلى الثلمة، قال له الثعلب: ادخل إلى الكرم فقد كُفيت مئونة هدم حائط البستان، وعلى الله تمام الإحسان. فأقبل الذئب ماشيًا يريد الدخول إلى الكرم، فلما توسَّط غطاء الثلمة وقع فيها، فاضطرب الثعلب اضطرابًا شديدًا من السرور والفرح، وزال عنه الهم والترح، وأطرب بالنغمات وأنشد هذه الأبيات:

رَقَّ الزَّمَانُ لِحَالَتِي وَرَثَى لِطُولِ تَحَرُّقِي
وَأَنَالَنِي مَا أَشْتَهِي وَأَزَالَ مِمَّا أَتَّقِي

فَلَأَصْفَحَنْ عَمَّا جَنَا　　هُ مِنَ الذُّنُوبِ السُّبَّقِ
حَتَّى جِنَايَتُهُ بِمَا　　فَعَلَ الْمَشِيبُ بِمَفْرَقِي
فَالذِّئْبُ لَيْسَ لَهُ خَلَا　　صٌ مِنْ هَلَاكٍ مُوبِقِ
وَالْكَرْمُ لِي وَحْدِي وَمَا　　لِي مِنْ شَرِيكٍ أَحْمَقِ

ثم إنه تطلَّع في الحفرة، فرأى الذئب يبكي ندمًا وحزنًا على نفسه، فبكى الثعلب معه، فرفع الذئب رأسه إلى الثعلب وقال له: أمن رحمتك لي بكيت يا أبا الحصين؟ قال: لا، والذي قذفك في هذه الحفرة، إنما بكيت لطول عمرك الماضي، وآسفًا على كونك لم تقع في هذه الثلمة قبل اليوم، ولو وقعت فيها قبل اجتماعي بك لَكنت أرحت واسترحت، ولكن أُبقِيت إلى أجلك المحتوم، ووقتك المعلوم. فقال له الذئب: رُح أيها المسيء في فعله لوالدتي، وأخبرها بما حصل لي، لعلَّها تحتال على خلاصي. فقال له الثعلب: لقد أوقعك في الهلاك شدة طمعك، وكثرة حرصك، حيث سقطت في حفرة لستَ منها بسالم، ألم تعلم أيها الذئب الجاهل أن صاحب المثل يقول: مَن لم يفكِّر في العواقب لم يأمن المعاطب؟ فقال الذئب للثعلب: يا أبا الحصين، إنما كنت تُظهِر محبتي، وترغب في مودتي، وتخاف من شدة قوتي، فلا تحقد عليَّ بما فعلتُ معك، فمَن قدر وعفا كان أجره على الله، وقد قال الشاعر:

ازْرَعْ جَمِيلًا وَلَوْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ　　مَا ضَاعَ قَطُّ جَمِيلٌ أَيْنَمَا زُرِعَ
إِنَّ الْجَمِيلَ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ　　فَلَيْسَ يَحْصُدُهُ إِلَّا الَّذِي زَرَعَ

فقال له الثعلب: يا أجهل السباع وأحمق الوحوش في البقاع، هل نسيتَ تجبُّرَك وعتوَّك وتكبُّرك؟ وأنت لم ترعَ حقَّ المعاشرة، ولم تنتصح بقول الشاعر:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا　　إِنَّ الظَّلُومَ عَلَى حَدٍّ مِنَ النِّقَمِ
تَنَامُ عَيْنُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ　　يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

فقال له الذئب: يا أبا الحصين، لا تؤاخذني بسابق الذنوب، فالعفو من الكرام مطلوب، وصنع المعروف من أحسن الذخائر، وما أحسن قول الشاعر:

بَادِرْ بِخَيْرٍ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا　　فَلَيْسَ فِي كُلِّ حِينٍ أَنْتَ مُقْتَدِرَا

وما زال الذئب يتذلل للثعلب ويقول له: لعلك تقدر على شيء تخلِّصني به من الهلاك. فقال له الثعلب: أيها الذئب الماكر المخادع الغادر، لا تطمع في الخلاص، فإن هذا جزاء لقبيح فعلك وقصاص. ثم ضحك بالشدقين وأنشد هذين البيتين:

لَا تُكْثِرَنَّ خِدَاعِي فَلَنْ تَنَالَ مَنَالَا
مَا رُمْتَ مِنِّي مُحَالٌ زَرَعْتَ فَاحْصُدْ وَبَالَا

فقال الذئب للثعلب: يا حليم السباع، أنت عندي أوثق من أن تتركني في هذه الحفرة. ثم أفاض دمع العين، وأنشد هذين البيتين:

يَا مَنْ أَيَادِيهِ عِنْدِي غَيْرُ وَاحِدَةٍ وَمَنْ مَوَاهِبُهُ تَنْمُو عَنِ الْعَدَدِ
مَا نَابَنِي مِنْ زَمَانِي قَطُّ نَائِبَةٌ إِلَّا وَجَدْتُكَ فِيهَا آخِذًا بِيَدِي

فقال الثعلب: أيها العدو الأحمق، كيف صرت إلى التضرُّع والخشوع، والذلة والخضوع، بعد الأنفة والتكبُّر، والظلم والتجبُّر؟ لقد صحبتك خائفًا من عدوانك، وتملقت لك لا رغبة في إحسانك، والآن نزلت بك الرجفة وحلَّت بك النقمة. وأنشد هذين البيتين:

يَا أَيُّهَا الْمُلْتَمِسُ الْخَدِيعَةْ وَقَعْتَ فِي نِيَّتِكَ الشَّنِيعَةْ
فَذُقْ وَبَالَ الْمِحْنَةِ الْفَظِيعَةْ وَكُنْ مَعَ الذِّئَابِ فِي قَطِيعَةْ

فقال له الذئب: أيها الحليم، لا تكن بلسان العداوة ناطقًا وبعينها محدِّقًا، وكن وافيًا بعهد ائتلافي قبل أن يفوت وقت التلاقي، وقم وتسبَّب لي في حبلٍ تشدُّ طرْفَه في شجرة، وتدلِّي طرفه الآخر إليَّ حتى أتعلَّق به، لعلي أنجو مما أنا فيه، وأدفع لك جميع ما حوته يدي من الذخائر. فقال له الثعلب: لقد أكثرتَ من المحاورة فيما ليس فيه خلاصك، فلا ترجُ مني نجاةَ نفسك، واذكر ما سلف من سوء فعلك، وما تُضمِره لي من الغدر والمكر، وأين أنت من الرجم بالحجارة؟ واعلم بأن ذاتك للدنيا مفارقة، ومنها زائلة، وعنها راحلة، ثم تصير إلى الدمار وسوء الدار. فقال له الذئب: يا أبا الحصين، كن قريب الرجوع إلى الوداد، ولا تصرَّ على ضغائن الأحقاد، واعلم أن مَن خلَّص نفسًا من الهلاك فقد أحياها، ومَن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا، ولا تتبع الفساد؛ فإن الحكماء تكرهه، ولا فساد أظهر من كوني في تلك الحفرة أتجرع غصص الموت، وأنظر إلى الهلاك وأنت قادر على

خلاصي من الارتباك. فقال له الثعلب: أيها الفظ الغليظ، إني أشبِّهك في حسن علانيتك وقبح نيتك بالباز مع الحَجَل. قال له الذئب: وما حديث الباز والحجل؟ قال الثعلب: دخلتُ يومًا كَرْمًا لآكل من عنبه، فبينما أنا فيه إذ رأيت بازًا انقضَّ على حجل، فلما اقتنصه انفلت منه الحجل ودخل وَكْره واختفى فيه، فتبعه الباز وناداه: أيها الجاهل إني رأيتك في البرية جائعًا فرحمتك، والتقطت لك حبًّا وأمسكتك لتأكل فهربت مني، ولم أعرف لهروبك وجهًا إلا الحرمان، فاظهر وخذ ما آتيتك من الحب فكُلْه هنيًّا مريئًا. فلما سمع الحجل قول الباز صدَّقه وخرج إليه، فأنشب مخالبه فيه ومكَّنها منه. فقال له الحَجَل: أهذا الذي ذكرتَ أنك أتيتني به من البرية وقلت لي كله هنيًّا مريئًا، فكذبتَ عليَّ؟ جعل الله ما تأكله من لحمي في جوفك سمًّا قاتلًا. فلما أكله وقع ريشه، وسقطت قوته، ومات لوقته.

ثم قال له الثعلب: اعلم أيها الذئب أن مَن حفر لأخيه قليبًا وقع فيه قريبًا، وأنت غدرتَ بي أولًا. فقال الذئب للثعلب: دعني من هذا المقال وضرب الأمثال، ولا تذكر لي ما سلف مني من قبيح الفعال، يكفيني ما أنا فيه من سوء الحال؛ حيث وقعت في ورطة يرثي لي منها العدو فضلًا عن الصديق، وانظر لي حيلة أتخلَّص بها، وكن فيها غياثي، وإن كان عليك في ذلك مشقة، فقد يحتمل الصديق لصديقه أشد النصب، ويقاسي فيما فيه نجاته العطب، وقد قيل: إن الصديق الشفيق خير من الأخ الشقيق، وإن تسببتَ في نجاتي لَأجمعن لك من الآلة ما يكون لك عدة، ثم لَأعلمنك من الحِيَل الغريبة ما تفتح به الكروم الخصبة، وتجني الأشجار المثمرة، فطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا. فقال له الثعلب وهو يضحك: ما أحسن ما قالته العلماء في كثير الجهل مثلك! قال الذئب: وما قالت العلماء؟ قال الثعلب: ذكر العلماء أن الغليظ الجثة، الغليظ الطبع، يكون بعيدًا من العقل قريبًا من الجهل؛ لأن قولك أيها الماكر الأحمق «قد يتحمَّل الصديقُ المشقةَ في تخليص صديقه»؛ صحيحٌ كما ذكرتَ، ولكن عرِّفني بجهلك وقلة عقلك كيف أصادقك مع خيانتك؟ أحسبتني لك صديقًا وأنا لك عدو شامت؟ وهذا الكلام أشد من رشق السهام إن كنت تعقل. وأما قولك إنك تعطيني من الآلات ما يكون عدة لي، وتعلمني من الحِيَل ما أصل به إلى الكروم المخصبة، وأجتني به الأشجار المثمرة، فما لك أيها المخادع الغادر لا تعرف لك حيلة تتخلص بها من الهلاك؟ فما أبعدك من المنفعة لنفسك، وما أبعدني من القبول لنصيحتك! فإن كان عندك حِيَلٌ فتحيَّلْ لنفسك في الخلاص من هذا الأمر، الذي أسأل الله أن يبعد خلاصك منه، فانظر أيها الجاهل إن كان عندك حيلة، فخلص نفسك بها من القتل قبل أن تبذل التعليم لغيرك، ولكنك مثل إنسان حصل له مرض فأتاه رجل مريض بمثل مرضه ليداويه، فقال

له: هل لك أن أداويك من مرضك؟ فقال له الرجل: هلَّا بدأتَ بنفسك في المداواة! فتركه وانصرف. وأنت أيها الذئب كذلك، فالزم مكانك، واصبر على ما أصابك.

فلما سمع الذئب كلام الثعلب علم أنه لا خير له عنده، فبكى على نفسه وقال: قد كنت في غفلة من أمري، فإن خلَّصني الله من هذا الكرب لأتوبنَّ من تجبُّري على مَن هو أضعف مني، ولَألبسنَّ الصوف، ولأصعدنَّ الجبلَ ذاكرًا الله تعالى، خائفًا من عقابه، وأعتزل سائرَ الوحوش، ولأُطعِمنَّ المجاهدين والفقراء. ثم بكى وانتحب، فرَقَّ له قلب الثعلب، وكأنه لما سمع تضرُّعه، والكلام الذي يدل على توبته من العتو والتكبُّر، أخذته الشفقة عليه، فوثب من فرحته، ووقف على شفير الحفرة، ثم جلس على رجليه وأدلى ذَنَبه في الحفرة، فعند ذلك قام الذئب ومدَّ يده إلى ذَنَب الثعلب وجذبه إليه، فصار في الحفرة معه، ثم قال له الذئب: أيها الثعلب القليل الرحمة، كيف تشمت بي وقد كنتَ صاحبي وتحت قهري؟ وقد وقعت معي في الحفرة، وتعجلت لك العقوبة، وقد قالت الحكماء: لو عايَرَ أحدكم أخاه برضاع كلبة لارتضعها. وما أحسن قول الشاعر:

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أُنَاسٍ كَلَاكِلَهُ أَنَاخَ بِآخَرِينَا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا: أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

ثم قال الذئب للثعلب: فلا بد أن أعجِّل قتلك قبل أن ترى قتلي. فقال الثعلب في نفسه: إني وقعت مع هذا الجبار، وهذا الحال يحتاج إلى المكر والخداع، وقد قيل: إن المرأة تصوغ حليها ليوم الزينة. وفي المثل: ما ادَّخرتُكِ يا دمعتي إلا لشدَّتي. وإن لم أتحيَّل في أمر هذا الوحش الظالم هلكتُ لا محالةَ، وما أحسن قول الشاعر:

عِشْ بِالْخِدَاعِ فَأَنْتَ فِي زَمَنٍ بَنُوهُ كَأُسْدِ بِيشَهْ
وَأَدِرْ قَنَاةَ الْمُكْرِ حَتَّى تَسْتَدِيرَ رَحَى الْمَعِيشَهْ
وَاجْنِ الثِّمَارَ فَإِنْ تَفُتْكَ فَرَضِّ نَفْسَكَ بِالْحَشِيشَهْ

ثم إن الثعلب قال للذئب: لا تعجل عليَّ بالقتل فتندم أيها الوحش الصنديد، صاحب القوة والبأس الشديد، وإن تمهلت وأمعنت النظر فيما أحكيه لك عرفتَ قصدي الذي قصدته، وإن عجَّلتَ بقتلي فلا فائدةَ لك فيه، ونموت جميعًا ها هنا. فقال له الذئب: أيها الخادع الماكر، وما الذي ترجوه من سلامتي وسلامتك حتى تسألني التمهُّلَ عليك؟ فأخبرني بقصدك الذي قصدته. فقال له الثعلب: أما قصدي الذي قصدته فما ينبغي أن

تحسن عليه مجازاتي؛ لأني سمعت ما وعدت من نفسك، واعترافك بما سلف منك، وتلهُّفك على ما فاتك من التوبة وفعل الخير، وسمعت ما نذرته على نفسك من كفِّ الأذى عن الأصحاب وغيرهم، وتركك أكل العنب وسائر الفواكه، ولزومك الخشوع، وتقليم أظفارك، وتكسير أنيابك، وأن تلبس الصوف، وتقرب القربان لله تعالى إنْ نجَّاك مما أنت فيه؛ أخذتني الشفقة عليك، مع أنني كنت على هلاكك حريصًا، فلما سمعت منك توبتك وما نذرته على نفسك إن نجاك الله لزمني خلاصك مما أنت فيه، فأدليت إليك ذَنَبي لكيما تتعلق به وتنجو، فلم تترك الحالة التي أنت عليها من العنف والشدة، ولم تلتمس النجاة والسلامة لنفسك بالرفق، بل جذبتني جذبةً ظننتُ منها أن روحي قد خرجت، فصرت أنا وأنت في منزلة الهلاك والموت، وما ينجِّيني أنا وأنت إلا شيء إنْ قبلته مني خلصت أنا وأنت، وبعد ذلك يجب عليك أن تفي بما نذرته، وأكون رفيقك. فقال له الذئب: وما الذي أقبله منك؟ قال له الثعلب: تنهض قائمًا، ثم أعلو أنا فوق رأسك حتى أكون قريبًا من ظاهر الأرض، فإني حين أصير فوقها أخرج وآتيك بما تتعلق به، وتخلص أنت بعد ذلك. فقال له الذئب: لست بقولك واثقًا؛ لأن الحكماء قالوا: مَن استعمل الثقة في موضع الحقد كان مخطئًا. وقيل: مَن وثق بغير ثقة كان مغرورًا، ومَن جرَّب المجرَّب حلَّتْ به الندامة، ومَن لم يفرِّق بين الحالات فيعطي كلَّ حالة حظها، بل حمل الأشياء كلها على حالة واحدة؛ قلَّ حظه، وكثُرت مصائبه، وما أحسن قول الشاعر:

لَا يَكُنْ ظَنُّكَ إِلَّا سَيِّئًا إِنَّ ... سُوءَ الظَّنِّ مِنْ أَقْوَى الْفِطَنْ
مَا رَمَى الْإِنْسَانَ فِي مَهْلَكَةٍ ... مِثْلُ فِعْلِ الْخَيْرِ وَالظَّنُّ الْحَسَنْ

وقول الآخَر:

أَلْزِمْ يَقِينَكَ سُوءَ الظَّنِّ تَنْجُ بِهِ ... مَنْ عَاشَ مُسْتَيْقِظًا قَلَّتْ مَصَائِبُهُ
وَالْقَ الْعَدُوَّ بِوَجْهٍ بَاسِمٍ طَلْقٍ ... وَانْصُبْ لَهُ فِي الْحَشَى جَيْشًا يُحَارِبُهُ

وقول الآخر:

أَعْدَى عَدُوِّكَ أَدْنَى مَنْ وَثِقْتَ بِهِ ... فَحَاذِرِ النَّاسَ وَاصْحَبْهُمْ عَلَى دَخَلِ
وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ مُعْجِزَةٌ ... فَظُنَّ شَرًّا وَكُنْ مِنْهَا عَلَى وَجَلِ

فقال له الثعلب: إن سوء الظن ليس محمودًا في كل حال، وحسن الظن من شيم الكمال، وعاقبته النجاة من الأهوال، وينبغي لك أيها الذئب أن تتحيَّل على النجاة مما أنت فيه، ونسلم جميعًا خير من موتنا، فارجع عن سوء الظن والحقد؛ لأنك إن أحسنتَ الظن بي لا أخلو من أحد أمرين؛ إما أن آتيك بما تتعلَّق به وتنجو مما أنت فيه، وإما أن أغدر بك فأخلص وأدعك، وهذا مما لا يمكن؛ فإني لا آمن أن أُبتَلى بشيء مما ابتُلِيتَ به، فيكون ذلك عقوبةَ الغدر، وقد قيل في الأمثال: الوفاء مليح والغدر قبيح. فينبغي أن تثق بي، فإني لم أكن جاهلًا بحوادث الدهر، فلا تؤخر حيلة خلاصنا؛ فالأمر أضيق من أن نطيل فيه الكلام. فقال الذئب: إني مع قلة ثقتي بوفائك قد عرفت ما في خاطرك، من أنك أردت خلاصي لما عرفت توبتي، فقلت في نفسي: إن كان محقًّا فيما زعم فإنه استدرك ما أفسد، وإن كان مبطلًا فجزاؤه على ربه. وها أنا أقبل منك ما أشرتَ به عليَّ، فإن غدرتَ بي كان الغدر سببًا لهلاكك. ثم إن الذئب انتصَبَ قائمًا في الحفرة، وأخذ الثعلب على أكتافه حتى ساوى به ظاهر الأرض، فوثب الثعلب عن أكتاف الذئب حتى صار على وجه الأرض، ووقع مغشيًّا عليه. فقال له الذئب: يا خليلي لا تغفل عن أمري، ولا تؤخر خلاصي. فضحك الثعلب وقهقه وقال: أيها المغرور، لم يوقعني في يدك إلا المزح معك، والسخرية بك، وذلك أني لما سمعت توبتك استخفني الفرح فطربت ورقصت، فتدلى ذَنَبي في الحفرة فجذبتني فوقعت عندك، ثم أنقذني الله تعالى من يدك، فما لي لا أكون عونًا على هلاكك وأنت من حزب الشيطان؟ واعلم أنني رأيت البارحة في منامي أني أرقص في عرسك، فقصصت الرؤيا على مُعبِّرٍ فقال لي: إنك تقع في ورطة وتنجو منها. فعلمت أن وقوعي في يدك ونجاتي هو تأويل رؤياي، وأنت تعلم أيها المغرور الجاهل أني عدوك، فكيف تطمع بقلة عقلك وجهلك في إنقاذي إياك مع ما سمعت من غلظ كلامي؟ وكيف أسعى في نجاتك وقد قالت العلماء: إن في موت الفاجر راحة للناس، وتطهيرًا للأرض؟ ولولا مخافة أن أحتمل من الألم في الوفاء لك ما هو أعظم من ألم الغدر؛ لتدبَّرت في خلاصك. فلما سمع الذئب كلام الثعلب، عضَّ على كفِّه ندمًا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٥٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الذئب لما سمع كلام الثعلب عض على كفِّه ندمًا، ثم لَيَّن له الكلام، ولم يجد بدًّا من ذلك، وقال له بلسان خافت: إنكم معاشر الثعالب من أحلى القوم لسانًا، وألطفها مزاحًا، وهذا منك مزاح، ولكن ما كل وقت يحسُن اللعب والمزاح. فقال الثعلب: أيها الجاهل، إن للمزاح حدًّا لا يجاوزه صاحبه، فلا تحسب أن الله يمكِّنك مني بعد أن أنقذني من يديك. فقال له الذئب: إنك لجدير أن ترغب في خلاصي لما بيننا من سابق المؤاخاة والصحبة، وإن خلَّصتني فلا بد أن أحسن مكافأتك. فقال الثعلب: قد قالت الحكماء: لا تؤاخِ الجاهل الفاجر فإنه يشينك ولا يزينك، ولا تؤاخِ الكذاب فإنه إن بدا منك خير أخفاه، وإن بدا منك شر أفشاه. وقالت الحكماء: لكل شيء حيلة إلا الموت، وقد يُصلَح كل شيء إلا فساد الجوهر، وقد يُدفَع كل شيء إلا القدر. وأما من جهة المكافأة التي زعمت أني أستحقها منك، فإني شبهتك في مكافأتك بالحية الهاربة من الحاوي؛ إذ رآها رجل وهي مرعوبة فقال لها: ما شأنك أيتها الحية؟ قالت: هربت من الحاوي فإنه يطلبني، ولئن أنجيتني منه وأخفيتني عندك لَأحسنن مكافأتك، وأصنع معك كل جميل. فأخذها اغتنامًا للأجر، وطمعًا في المكافأة، وأدخلها في جيبه. فلما فات الحاوي ومضى إلى حال سبيله وزال عنها ما كانت تخافه، قال لها الرجل: أين المكافأة؟ فقد أنجيتك مما تخافين وتحذرين. فقالت له الحية: أخبرني في أي عضو أنهشك؟ وقد علمت أننا لا نتجاوز هذه المكافأة. ثم نهشته نهشة مات منها، وأنت أيها الأحمق شبهتك بتلك الحية مع ذلك الرجل، أما سمعت قول الشاعر:

لَا تَأْمَنَنَّ فَتًى أَسْكَنْتَ مُهْجَتَهُ ... غَيْظًا وَتَحْسَبُ أَنَّ الْغَيْظَ قَدْ زَالَا
إِنَّ الْأَفَاعِيَ وَإِنْ لَانَتْ مَلَامِسُهَا ... تُبْدِي الْعِطَافَ وَتُخْفِي السُّمَّ قَتَّالَا

فقال له الذئب: أيها الفصيح صاحب الوجه المليح، لا تجهل حالي وخوف الناس مني، وقد علمت أني أهجم على الحصون، وأقلع الكروم، فافعل ما أمرتك به، وقم بي قيام العبد بسيده. فقال له الثعلب: أيها الأحمق الجاهل المحاول بالباطل، إني تعجبت من حماقتك وصلابة وجهك فيما تأمرني به من خدمتك، والقيام بين يديك حتى كأنني عبدك، ولكن سوف ترى ما يحل بك من شرخ رأسك بالحجارة، وكسر أنيابك الغدَّارة. ثم وقف الثعلب على تلٍّ يشرف على الكرم، ولم يزل يصيح لأهل الكرم حتى بصروا به، وأقبلوا عليه مسرعين، فثبت لهم الثعلب حتى قربوا منه ومن الحفرة التي فيها الذئب، ثم ولى الثعلب هاربًا، فنظر أصحاب الكرم في الحفرة، فلما رأوا فيها الذئب وقعوا عليه بالحجارة الثقال، ولم يزالوا يضربونه بالحجارة والخشب، ويطعنونه بأسنَّة الرماح حتى قتلوه وانصرفوا، فرجع الثعلب إلى تلك الحفرة ووقف على مقتل الذئب فرآه ميتًا، فحرَّك رأسه من شدة الفرحات، وأنشد هذه الأبيات:

أَوْدَى الزَّمَانُ بِنَفْسِ الذِّئْبِ فَاخْتُطِفَتْ ... بُعْدًا وَسُحْقًا لَهَا مِنْ مُهْجَةٍ تَلِفَتْ
فَكَمْ سَعَيْتَ أَبَا سَرْحَانَ فِي تَلَفِي ... فَالْيَوْمَ حَلَّتْ بِكَ الْآفَاتُ وَالْتَهَبَتْ
وَقَعْتَ فِي حُفْرَةٍ مَا حَلَّهَا أَحَدٌ ... إِلَّا وَفِيهَا رِياحُ الْمَوْتِ قَدْ عَصَفَتْ

ثم إن الثعلب أقام بالكرم وحده مطمئنًّا لا يخاف ضررًا. وهذا ما كان من حديث الذئب والثعلب.

حكاية الفأرة وبنت عرس

ومما يُحكَى أن فأرة وبنت عرس كانتا تنزلان منزلًا لبعض الناس، وكان ذلك الرجل فقيرًا، وقد مرض بعض أصدقائه فوصف له الطبيب السمسم المقشور، فأعطى قدرًا من السمسم لذلك الرجل الفقير ليقشِّره له، فأعطاه ذلك الرجل لزوجته وأمرها بإصلاحه، فقشرته تلك المرأة له وأصلحته، فلما عاينت بنت عرس السمسم أتت إليه، ولم تزل تنقل من ذلك السمسم إلى جحرها طول يومها حتى نقلت أكثره، وجاءت المرأة فرأت نقصان السمسم واضحًا، فجلست ترصد مَن يأتي إليه حتى تعلم سبب نقصانه، فنزلت بنت عرس لتنقل منه على عادتها، فرأت المرأة جالسة فعلمت أنها ترصدها، فقالت في نفسها: إن لهذا الفعل عواقب ذميمة، وإني أخشى من تلك المرأة أن تكون لي بالمرصاد، ومَن لم ينظر في العواقب

ما الدهر له بصاحب، ولا بد لي أن أعمل عملًا حسنًا أظهر به براءتي من جميع ما عملته من القبيح. فجعلت تنقل من ذلك السمسم الذي في جحرها، فرأتها المرأة وهي تفعل ذلك، فقالت في نفسها: ما هذه سبب نقصه؛ لأنها تأتي به من جحر الذي اختلسه وتضعه على بعضه، وقد أحسنت إلينا في رد السمسم، وما جزاء من أحسن إلا أن يُحسَن إليه، وليست هذه آفة في السمسم، ولكن لا أزال أرصده حتى يقع وأعلم مَن هو. فعلمت بنت عرس ما خطر ببال تلك المرأة، فانطلقت إلى الفأرة فقالت لها: يا أختي، إنه لا خير فيمَن لا يرعى المجاورة، ولا يثبت على المودة. فقالت الفأرة: نعم يا خليلتي، وأنعِم بك وبجوارك! فما سبب هذا الكلام؟ قالت بنت عرس: إن رب البيت أتى بسمسم فأكل منه هو وعياله وشبعوا، واستغنوا عنه وتركوه، وقد أخذ منه كلُّ ذي روح، فلو أخذتِ أنتِ الأخرى كنت أحق به ممَّن يأخذ منه. فأعجب الفأرة ذلك، ورقصت ولعبت ذَنَبها، وغرَّها الطمع في السمسم، فقامت من وقتها وخرجت من بيتها، فرأت السمسم مقشورًا يلمع من البياض، والمرأة جالسة ترصده، فلم تفكر الفأرة في عاقبة الأمر، وكانت المرأة قد استعدت بهراوة، فلم تتمالك الفأرة نفسها حتى دخلت في السمسم، وعاشت فيه وصارت تأكل منه، فضربتها المرأة بتلك الهراوة فشجَّت رأسها، وكان الطمع سبب هلاكها وغفلتها عن عواقب الأمور.

فقال الملك: يا شهرزاد، والله إن هذه حكاية مليحة، فهل عندك حديث في حسن الصداقة والمحافظة عليها عند الشدة في التخلُّص من الهلكة؟ قالت: نعم.

حكاية الغراب والسنَّور

بلغني أن غرابًا وسنَّورًا كانا متآخيَيْن، فبينما هما تحت الشجرة على تلك الحالة؛ إذ رأيا نمرًا مقبلًا على تلك الشجرة التي كانا تحتها، ولم يعلما به حتى صار قريبًا من الشجرة، فطار الغراب إلى أعلى الشجرة، وبقي السنَّور متحيرًا، فقال للغراب: يا خليلي، هل عندك حيلة في خلاصي كما هو الرجاء فيك؟ فقال له الغراب: إنما يُلتمَس الإخوة عند الحاجة إليهم في الحيلة عند نزول المكروه بهم، وما أحسن قول الشاعر:

إِنَّ صَدِيقَ الْحَقِّ مَنْ كَانَ مَعَكْ   وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَكْ   شَتَّتَ فِيكَ نَفْسَهُ لِيَجْمَعَكْ

وكان قريبًا من الشجرة رعاة معهم كلاب، فذهب الغراب حتى ضرب بجناحه وجه الأرض، ونعق وصاح، ثم تقدَّمَ إليهم وضرب بجناحه وجه بعض الكلاب وارتفع قليلًا،

وتبعته الكلاب وسارت في إثره، ورفع الراعي رأسه فرأى طائرًا يطير قريبًا من الأرض ويقع فتبعه، وصار الغراب لا يطير إلا بقدر التخلص من الكلاب، ويطمعها في أن تفترسه، ثم ارتفع قليلًا، وتبعته الكلاب حتى انتهى إلى الشجرة التي تحتها النمر، فلما رأت الكلاب النمر وثبت عليه فولَّى هاربًا، وكان يظن أنه يأكل السنَّور، فنجا منه ذلك السنور بحيلة الغراب صاحبه، وقد أخبرتك بهذا أيها الملك لتعلم أن مودة إخوان الصفاء تنجِّي من الهلكات.

حكاية الثعلب والغراب

وحُكِي أن ثعلبًا سكن في بيت في الجبل، وكان كلما ولد ولدًا واشتدَّ ولده أكله من الجوع، وإن لم يأكل ولده أضرَّ به الجوع، وكان يأوي إلى ذروة ذلك الجبل غراب، فقال الثعلب في نفسه: أريد أن أعقد بيني وبين هذا الغراب مودة، وأجعله لي مؤنسًا على الوحدة معاونًا على طلب الرزق؛ لأنه يقدر من ذلك على ما لا أقدر عليه. فدنا الثعلب من الغراب حتى صار قريبًا منه بحيث يسمع كلامه، فسلَّم عليه ثم قال له: يا جاري، إن للجار المسلم على الجار المسلم حقَّين؛ حق الجيرة، وحق الإسلام، واعلم بأنك جاري ولك عليَّ حقٌّ يجب قضاؤه، خصوصًا مع طول المجاورة، على أن في صدري وديعة من محبتك دعتني إلى ملاطفتك، وبعثتني على التماس أخوَّتك، فما عندك من الجواب؟ فقال الغراب للثعلب: اعلم أن خير القول أصدقه، وربما تتحدث بلسانك ما ليس في قلبك، وأخشى أن تكون أخوَّتك باللسان ظاهرًا، وعداوتك في القلب؛ لأنك آكل وأنا مأكول، فوجب لنا التباين في المحبة، ولا يمكن مواصلتنا، فما الذي دعاك إلى طلب ما لا ندرك، وإرادة ما لا يكون، وأنت من جنس الوحوش وأنا من جنس الطير، وهذه الأخوة لا تصح. فقال له الثعلب: إن من علم موضع الأخلاء فأحسن الاختيار فيما يختاره منها ربما يصل إلى منافع الإخوان، وقد أحببت قربك، واخترت الأنس بك؛ ليكون بعضنا عونًا لبعض على أغراضنا، وتُعقَب مودتنا نجاحًا، وعندي حكايات في حسن الصداقة إن أردت أن أحكيها حكيتها لك. فقال الغراب: أذنت لك في أن تبثها، فحدثني بها حتى أعرف المراد منها.

فقال له الثعلب: اسمع يا خليلي، يُحكَى عن برغوث وفأرة ما يُستدَل به على ما ذكرته لك. فقال الغراب: وكيف كان ذلك؟ فقال الثعلب: زعموا أن فارة كانت في بيت رجل من التجار كثير المال، فأوى البرغوث ليلةً إلى فراش ذلك التاجر، فرأى بدنًا ناعمًا، وكان البرغوث عطشانًا فشرب من دمه، ووجد التاجر من البرغوث ألَمًا، فاستيقظ من

النوم واستوى قاعدًا، ونادى بعض أتباعه فأسرعوا إليه، وشمَّروا عن أيديهم يطوفون على البرغوث؛ فلما أحس البرغوث بالطلب ولَّى هاربًا، فصادف جحر الفأرة فدخله، فلما رأته الفأرة قالت له: ما الذي أدخلك عليَّ ولستَ من جوهري ولا من جنسي، ولست بآمن من الغلظة عليك ولا مضارتك؟ فقال لها البرغوث: إني هربت إلى منزلك وفزت بنفسي من القتل، وأتيتك مستجيرًا بك، ولا طمع لي في بيتك، ولا يلحقك مني شر يدعوك إلى الخروج من منزلك، وإني أرجو أن أكافئك على إحسانك إليَّ بكل جميل، وسوف تحمدين عاقبة ما أقول لك. فلما سمعت الفأرة كلام البرغوث … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٥١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الفأرة لما سمعت كلام البرغوث، قالت: إذا كان الكلام على ما أخبرت، فاطمئن هنا وما عليك بأس، ولا تجد إلا ما يسرُّك، ولا يصيبك إلا ما يصيبني، وقد بذلت لك مودتي، ولا تندم على ما فاتك من دم التاجر، ولا تأسف على قُوتِكَ منه، وارضَ بما تيسَّرَ لك من العيش؛ فإن ذلك أسلم لك، وقد سمعت أيها البرغوث بعض الوعاظ ينشد هذه الأبيات:

سَلَكْتُ الْقَنَاعَةَ وَالْإِنْفِرَادَ وَقَضَّيْتُ دَهْرِي بِمَاذَا اتَّفَقْ
بِكِسْرَةِ خُبْزٍ وَشَرْبَةِ مَاءٍ وَمِلْحٍ جَرِيشٍ وَثَوْبٍ خَلَقْ
فَإِنْ يَاسَرَ اللهُ فِي عِيشَتِي وَإِلَّا قَنَعْتُ بِمَا قَدْ رَزَقْ

فلما سمع البرغوث كلام الفأرة قال: يا أختي، قد سمعت وصيتك، وانقدتُ إلى طاعتك، ولا قوةَ لي على مخالفتك إلى أن ينقضي العمر بتلك النية الحسنة. فقالت له الفأرة: كفى بصدق المودة في صلاح النية. ثم انعقد الود بينهما، وكان البرغوث بعد ذلك يأوي إلى فراش التاجر ولا يتجاوز بلغته، ويأوي بالنهار مع الفأرة في مسكنها، فاتفق أن التاجر جاء ليلةً إلى منزله بدنانير كثيرة، فجعل يقلِّبها، فلما سمعت الفأرة صوت الدنانير أطلعت رأسها من جحرها، وجعلت تنظر إليها حتى وضعها التاجر تحت وسادة ونام، فقالت الفأرة للبرغوث: أَمَا ترى الفرصة والحظ العظيم، فهل عندك حيلة توصلنا إلى بلوغ الغرض من تلك الدنانير؟ قال البرغوث: إنه لا حسن لمن طلب الغرض إلا أن يكون قادرًا عليه، فإن كان ضعيفًا عنه وقع فيما يحذره ولم يدرك مراده مع الضعف، وإن استحكمت قوة المحتال كالعصفور الذي يلتقط الحب فيقع في الشبكة فيقتنصه صائده،

وليس لك قوة على أخذ الدنانير ولا على إخراجها من البيت، وأنا لا طاقة لي على ذلك، بل ولا على حمل دينار واحد منها، فشأنك والدنانير. فقالت الفأرة: إني أعددت في جحري هذا سبعين منفذًا أخرج منها متى أردت الخروج، وأعددت للذخائر موضعًا حريزًا، وإن تحيَّلت أنت على إخراجه من البيت فلست أشك في الظفر إن ساعدني القدر. فقال لها البرغوث: قد التزمت لك بإخراجه من البيت.

ثم انطلق البرغوث إلى فراش التاجر ولدغه لدغة قوية لم يكن للتاجر جرى مثلها، ثم تنحى البرغوث إلى موضع يأمن فيه على نفسه من التاجر، وانتبه التاجر يفتش على البرغوث فلم يجد شيئًا، فرقد على جنبه الآخر، فلدغه البرغوث لدغة أشد من الأولى، فقلق التاجر وفارق مضجعه، وخرج إلى مصطبة على باب داره فنام هناك، ولم ينتبه إلى الصباح، ثم إن الفأرة أقبلت على نقل الدنانير حتى لم تترك منها شيئًا، فلما أصبح الصباح صار التاجر يتهم الناس ويظن الظنون. ثم قال الثعلب للغراب: واعلم أني لم أقل لك هذا الكلام أيها الغراب البصير العاقل الخبير، إلا ليصل إليك جزاء إحسانك إليَّ كما وصل للفأرة جزاء إحسانها إلى البرغوث، فانظر كيف جازاها أحسن المجازاة، وكافأها أحسن المكافأة. فقال الغراب: إن شاء المحسن يحسن أو لا يحسن، وليس الإحسان واجبًا لَمن التمس صلةً بقطيعة، وإن أحسنتُ إليك مع كونك عدوي، أكون قد تسبَّبْتُ في قطيعة نفسي، وأنت أيها الثعلب ذو مكر وخداع، ومَن شيمته المكر والخديعة لا يُؤمن على عهد، ومَن لا يؤمن على عهد لا أمان له، وقد بلغني من قريب أنك غدرت بصاحبك الذئب، ومكرت به حتى أهلكته بغدرك وحيلتك، وفعلت به هذه الأمور مع أنه من جنسك، وقد صحبته مدة مديدة فما أبقيت عليه، فكيف أثق منك بنصيحة؟ وإذا كان هذا فعلك مع صاحبك الذي من جنسك، فكيف يكون فعلك مع عدوك الذي من غير جنسك؟ وما مثالك معي إلا مثال الصقر مع ضواري الطير. فقال الثعلب: وما حكاية الصقر مع ضواري الطير؟ فقال الغراب: زعموا أن صقرًا كان جبَّارًا عنيدًا … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٥٢

حكاية الصقر مع ضراري الطير

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الغراب قال: زعموا أن صقرًا كان جبارًا عنيدًا أيام شبيبته، وكانت سباع البر وسباع الطير تفزع منه، ولا يسلم من شره أحد، وله حكايات كثيرة في ظلمه وتجبُّره، وكان دأب هذا الصقر الأذى لسائر الطيور، فلما مرت عليه السنون ضعف وجاع، واشتد جَهده بعد فقد قوته، فأجمع رأيه على أن يأتي مجمع الطير فيأكل ما يفضل منها، فعند ذلك صار قُوتُه بالحيلة بعد القوة والشدة، وأنت كذلك أيها الثعلب، إن عدمت قوتك ما عدمت خداعك، ولست أشك في أن ما تطلبه من صحبتي حيلةٌ على قُوتِك، فلا كنت ممَّن يضع يده في يدك؛ لأن الله أعطاني قوة في جناحي، وحذرًا في نفسي، وبصرًا في عيني، واعلم أن مَن تشبَّهَ بأقوى منه تعب، وربما هلك، وأنا أخاف عليك إنْ تشبهت بمَن هو أقوى منك أن يجري لك ما جرى للعصفور. قال الثعلب: وما جرى للعصفور؟ فبالله عليك أن تخبرني به.

فقال الغراب: بلغني أن عصفورًا كان طائرًا بمراح غنم، فنظر إلى المراح وإذا بعُقاب كبير انقضَّ على رميس من صغار أولاد الغنم فاختطفه بمخالبه وطار، فلما رآه العصفور نشر جناحه وقال: أنا أفعل مثل ما فعل هذا. وأعجبته نفسه وتشبَّه بمَن هو أكبر منه، فطار لوقته وانقضَّ على كبش سمين له صوف كثير، وقد تلبَّدَ صوفه من رقاده على بوله وروثه، فصار صوفه مثل البزَّاق؛ فلما انقضَّ على ظهره صفق بجناحَيْه، فاشتبكت رجلاه في الصوف، فأراد أن يطير فلم يستطع الطيران، وقد حصل كل هذا والراعي ينظر ما جرى لهما، فرجع إليه الصقر غضبانًا، فقبضه ونتف أجنحته وربط في رجليه خيطًا وأتى به إلى أولاده ورماه لهم. فقال بعض الأولاد: ما هذا؟ فقال: هذا تشبَّهَ بمَن هو أعلى

منه فهلك. وأنت كذلك أيها الثعلب، أحذرك أن تتشبه بمَن هو أقوى منك فتهلك، هذا ما عندي من الكلام، واذهب عني بسلام.

فلما يئس الثعلب من مصادقة الغراب، رجع عن حزنه يئن، وقرع للندامة سنًّا على سن، فلما سمع الغراب بكاءه وأنَّه، ورأى كآبته وحزنه، قال: أيها الثعلب، ما نابك حتى قرعتَ نابك؟ قال له الثعلب: إنما قرعت سني لأني رأيتك أخدع مني. ثم إنه ولَّى هاربًا، ورجع إلى جحره طالبًا.

وهذا ما كان من حديثهما أيها الملك. فقال الملك: يا شهرزاد، ما أحسن هذه الحكايات! هل عندك شيء مثلها من الخرافات؟

حكاية القنفذ والورشان

قالت: ويُحكَى أن قنفذًا اتخذ مسكنًا بجانب نخلة، وكان الورشان هو وزوجته قد اتخذَا عشًّا في تلك النخلة، وعاشَا فوقها عيشًا رغدًا، فقال القنفذ في نفسه: إن الورشان يأكل من ثمر النخلة، وأنا لا أجد إلى ذلك سبيلًا، ولكن لا بد من استعمال الحيلة. ثم حفر في أسفل النخلة بيتًا واتخذه مسكنًا له ولزوجته، واتخذ جانبه مسجدًا، وانفرد فيه وأظهَرَ النسكَ والعبادةَ وترْكَ الدنيا، وكان الورشان يراه متعبدًا مصليًا، فرَقَّ له من شدة زهده، وقال له: كم سنة وأنت هكذا؟ قال: مدة ثلاثين سنة. قال: ما طعامك؟ قال: ما يسقط من النخلة. قال: ما لباسك؟ قال: شوك أنتفع بخشونته. فقال: وكيف اخترت مكانك هذا على غيره؟ قال: اخترته على غير طريق لأجل أن أرشد الضال وأُعلِم الجاهل. فقال له الورشان: كنت أظن أنك على غير هذه الحالة، ولكني الآن رغبت فيما عندك. فقال القنفذ: إني أخشى أن يكون قولك ضد فعلك، فتكون كالزرَّاع الذي لما جاء وقت الزرع قصر في بذره وقال: إني أخشى أن يكون أوان الزرع قد فات؛ فأكون قد أضعتُ المال بسرعة البذر. فلما جاء وقت الحصاد ورأى الناس وهم يحصدون، ندم على ما فاته من تقصيره ومن تخلُّفه، ومات أسفًا وحزنًا.

فقال الورشان للقنفذ: وماذا أصنع حتى أتخلص من علائق الدنيا، وأنقطع إلى عبادة ربي؟ قال له القنفذ: خذ في الاستعداد للمعاد، والقناعة بالكفاف من الزاد. فقال الورشان: كيف لي بذلك وأنا طائر لا أستطيع أن أتجاوز النخلة التي فيها قوتي، ولو استطعت ذلك ما عرفت موضعًا أستقر فيه؟ فقال القنفذ: يمكنك أن تنثر من ثمر النخلة ما يكفيك مئونة عام أنت وزوجتك، وتسكن في وكر تحت النخلة لالتماس حسن إرشادك، ثم مِلْ

إلى ما نثرته من الثمر فانقله جميعه وادَّخره قوتًا للعدم، وإذا فرغتِ الثمار وطال عليك المطال، صر إلى كفاف من العيش. فقال الورشان: جزاك الله خيرًا حيث ذكَّرتني بالمعاد، وهديتني إلى الرشاد. ثم تعب الورشان هو وزوجته في طرح الثمر حتى لم يَبْقَ في النخلة شيء، فوجد القنفذ ما يأكل، وفرح به وملأ مسكنه من الثمر وادَّخره لقوته، وقال في نفسه: إن الورشان هو وزوجته إذا احتاجَا إلى مئونتهما طلباها مني، وطمعَا فيما عندي، وركنا إلى تزهُّدي وورعي، فإذا سمعَا نصيحتي ووعظي دنَيَا مني فأقتنصهما وآكلهما ويخلو لي هذا المكان، وكل ما تساقط من ثمر النخلة يكفيني.

ثم إن الورشان نزل هو وزوجته من فوق النخلة بعد أن نثرَا ما عليها من الثمر، فوجدَا القنفذ قد نقل جميع ذلك إلى جحره، فقال له الورشان: أيها القنفذ الصالح والواعظ الناصح، إنَّا لم نجد للثمر أثرًا، ولا نعرف لقوتنا غيره ثمرًا. فقال: لعله طارت به الرياح، والإعراض عن الرزق إلى الرازق عين الفلاح؛ فالذي شقَّ الأشداق لا يتركها بلا أرزاق. وما زال يعظهما بتلك المواعظ ويُظهِر لهما الورعَ بزخرف الملافظ حتى ركنَا إليه وأقبلَا عليه، ودخلَا باب وكره وأمنَا من مكره، فوثب إلى الباب وقرع الأنياب، فلما رأى الورشان منه الخديعة لائحة، قال له: أين الليلة من البارحة؟ أَمَا تعلم أن للمظلومين ناصرًا؟ فإياك والمكر والخديعة؛ لئلا يصيبك ما أصاب الخداعين الذين مكروا بالتاجر. فقال القنفذ: وكيف ذلك؟ قال: بلغني أن تاجرًا من مدينة يقال لها «سنده»، كان ذا مال واسع، فشدَّ أحمالًا، وجهز متاعًا، وخرج به إلى بعض المدن ليبيعه فيها، فتبعه رجلان من المَكَرة، وحملَا شيئًا من مال ومتاع، وأظهرَا للتاجر أنهما من التجار وسارَا معه، فلما نزلَا أول منزل اتفقَا على المكر به، وأخذ ما معه، ثم إن كل واحد منهما أضمر المكر لصاحبه، وقال في نفسه: لو مكرت بصاحبي بعد مكرنا بالتاجر لصفا لي الوقت وأخذت جميع المال. ثم أضمرَا لبعضهما على نيَّة فاسدة، وأخذ كلٌّ منهما طعامًا وجعل فيه سمًّا وقرَّبه لصاحبه، فقتلَا بعضهما، وكانا يجلسان مع التاجر ويحدثانه، فلما أبطآ عليه فتَّشَ عليهما ليعرف خبرهما، فوجدهما ميِّتين، فعلم أنهما كانا محتالين، وأرادَا المكر به، فعاد عليهما مكرهما، وسَلِم التاجر وأخذ ما كان معهما.

فقال الملك: نبَّهتِني يا شهرزاد على شيء كنت غافلًا عنه، أفلا تزيديني من هذه الأمثال؟

قالت: بلغني أيها الملك أن رجلًا كان عنده قرد، وكان ذلك الرجل سارقًا لا يدخل سوقًا من أسواق المدينة التي هو فيها إلا ويرجع بكسب عظيم، فاتفق أن رجلًا حمل

أثوابًا مقطوعة لبيعها، فذهب بها إلى السوق وصار ينادي عليها فلا يسومه أحد، وكان لا يعرضها على أحد إلا امتنع من شرائها؛ فاتفق أن السارق الذي معه القرد رأى الشخص الذي معه الثياب المقطَّعة، وكان قد وضعها في بقجة وجلس يستريح من التعب، فلعب القرد قدَّامه حتى أشغله بالفرجة عليه، واختلس منه تلك البقجة، ثم أخذ القرد وذهب إلى مكان خالٍ، وفتح البقجة فرأى تلك الثياب المقطعة، فوضعها في بقجة نفيسة، وذهب بها إلى سوق آخَر، وعرض البقجة للبيع بما فيها، واشترط ألَّا تُفتَح، ورغب الناس فيها لقلَّة الثمن، فرآها رجل وأعجبه نفاستها، فاشتراها بهذا الشرط وذهب بها إلى زوجته، فلما رأت ذلك امرأته قالت: ما هذا؟ قال: متاع نفيس اشتريتُه بدون القيمة لأبيعه وآخذ فائدته. فقالت: أيها المغبون، أيباع هذا المتاع بأقل من قيمته إلا إذا كان مسروقًا؟ أَمَا تعلم أن مَن اشترى شيئًا ولم يعاينه كان مخطئًا، وكان مثله مثل الحايك؟ فقال لها: وكيف كان ذلك؟

فقالت: بلغني أن حايكًا كان في بعض القرى، وكان يعمل فلا ينال القوت إلا بجهد، فاتفق أن رجلًا من الأغنياء كان ساكنًا قريبًا منه قد أولم وليمة ودعا الناس إليها، فحضر الحايك فرأى الناس الذين عليهم الثياب الناعمة يُقدَّم لهم الأطعمة الفاخرة، وصاحب المنزل يعظِّمهم لما يرى من حسن زيِّهم، فقال في نفسه: لو بدلت تلك الصنعة بصنعة أخف مئونةً منها وأكثر أجرةً، لَجمعت مالًا كثيرًا، واشتريت ثيابًا فاخرة، ولَارتفَعَ شأني وعظمتُ في أعين الناس. ثم نظر إلى بعض أهل الملاعب الحاضرين في الوليمة وقد صعد سورًا شاهقًا، ثم رمى بنفسه إلى الأرض، ونهض قائمًا، فقال في نفسه: لا بد أن أعمل مثل ما عمل هذا ولا أعجز عنه. ثم صعد إلى السور ورمى نفسه، فلما وصل إلى الأرض اندقَّت رقبته فمات، وإنما أخبرتك بذلك لئلا يتمكَّن منك الشر فترغب فيما ليس من شأنك. فقال لها زوجها: ما كل عالم يسلم بعلمه، ولا كل جاهل يعطب بجهله، وقد رأيت الحاوي الخبير بالأفاعي العالم بها ربما نهشته الحية فقتلته، وقد يظفر بها الذي لا معرفةَ له بها، ولا علم عنده بأحوالها. ثم خالَفَ زوجته واشترى المتاع وأخذ في تلك العادة، فصار يشتري من السارقين بدون القيمة إلى أن وقع في تهمة فهلك فيها. وكان في زمنه عصفور يأتي كل يوم إلى ملك من ملوك الطيور، ولم يزل غاديًا ورائحًا عنده بحيث كان أول داخل عليه وآخر خارج من عنده، فاتفق أن جماعة من الطير اجتمعوا في جبل عالٍ من الجبال، فقال بعضهم لبعض: إنا قد كثرنا وكثر الاختلاف بيننا، ولا بد لنا من ملك ينظر في أمورنا، فتجتمع كلمتنا ويزول الاختلاف عنَّا. فمرَّ بهم ذلك العصفور، فأشار عليهم

بتمليك الطاوس، وهو الملك الذي يتردد إليه، فاختاروا الطاوس وجعلوه عليهم ملكًا، فأحسن إليهم وجعل ذلك العصفور كاتبه ووزيره، فكان تارة يترك الملازمة وينظر في الأمور.

ثم إن العصفور غاب يومًا عن الطاوس فقلق قلقًا عظيمًا، فبينما هو كذلك إذ دخل عليه العصفور فقال له: ما الذي أخَّرك وأنت أقرب أتباعي إليَّ؟ فقال العصفور: رأيت أمرًا واشتبه عليَّ فتخوفت منه. فقال له الطاوس: ما الذي رأيت؟ قال العصفور: رأيت رجلًا معه شبكة قد نصبها عند وكري، وثبَّتَ أوتادها، وبذر في وسطها حبًّا، وقعد بعيدًا عنها، فجلست أنظر ما يفعل، فبينما أنا كذلك وإذا بكركي هو وزوجته قد ساقهما القضاء والقدر حتى سقطَا في وسط الشبكة، فصارَا يصرخان، فقام الصياد وأخذهما، فأزعجني ذلك، وهذا سبب غيابي عنك يا ملك الزمان، وما بقيت أسكن هذا الوكر حذرًا من الشبكة. فقال له الطاوس: لا ترحل من مكانك؛ لأنه لا ينفع الحذر من القدر. فامتثَلَ أمره، وقال: سأصبر ولا أرحل طاعةً للملك. ولم يزل العصفور حذرًا على نفسه، وأخذ الطعام إلى الطاوس فأكل حتى اكتفى، وتناول على الطعام ماء، ثم ذهب العصفور. فبينما هو في بعض الأيام شاخص، وإذا بعصفورين يقتتلان في الأرض، فقال في نفسه: كيف أكون وزير الملك وأرى العصافير تقتتل في جواري؟ والله لأصلحن بينهما. ثم ذهب إليهما ليصلح بينهما، فقلب الصياد الشبكة على الجميع فوقع ذلك العصفور في وسطها، فقام إليه الصياد وأخذه ودفعه إلى صاحبه، وقال له: استوثق به فإنه سمين لم أرَ أحسن منه. فقال العصفور في نفسه: قد وقعت فيما كنتُ أخافه، وما كان آمنًا إلا الطاوس، ولم ينفعني الحذر من نزول القدر، فلا مفرَّ من القضاء لمحاذر، وما أحسن قول الشاعر:

مَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ … أَبَدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ فَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ … وَأَخُو الْجَهَالَةِ دَائِمًا مَغْبُونُ

فقال الملك: يا شهرزاد، زيديني من هذا الحديث. فقالت: الليلة القابلة إن أبقاني الملك أعزَّه الله. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

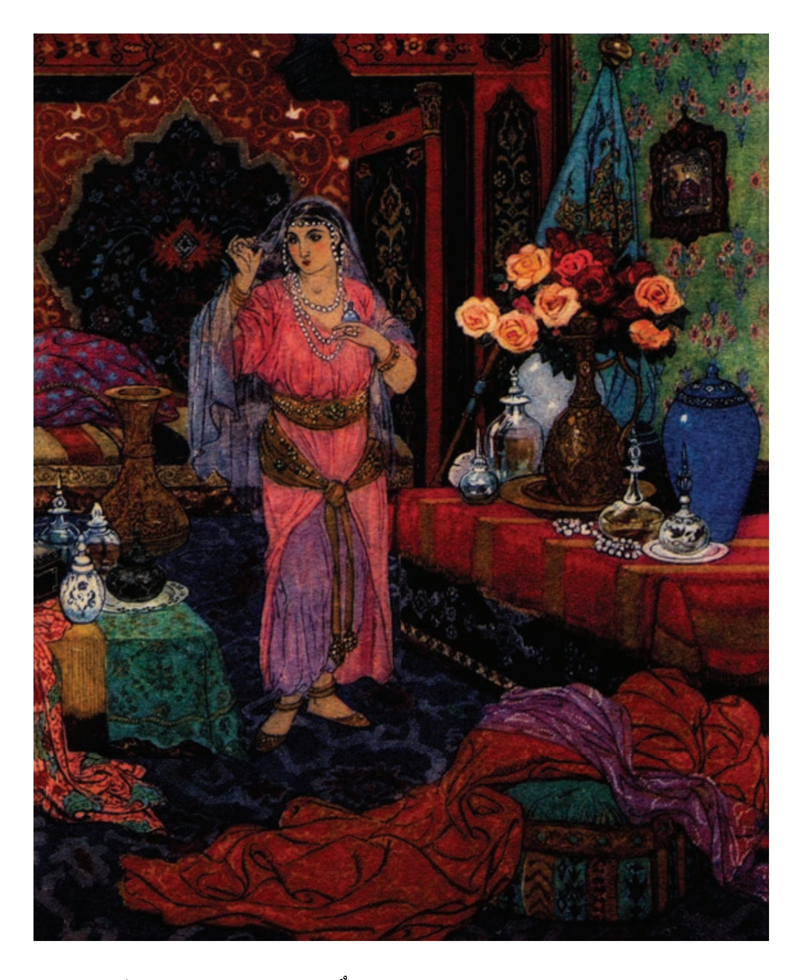
فلما كانت الليلة ١٥٣

حكاية علي بن بكار وشمس النهار

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان في خلافة هارون الرشيد، رجل تاجر له ولد يُسمَّى أبا الحسن علي بن طاهر، وكان كثير المال والنوال، حسن الصورة، محبوبًا عند كل مَن يراه، وكان يدخل دار الخلافة من غير إذن، ويحبه جميع سراري الخليفة وجواريه، وكان ينادم الملك وينشد عنده الأشعار، ويحدِّثه بنوادر الأخبار، إلا أنه كان يبيع ويشتري في سوق التجار، وكان يجلس على دكانه شاب من أولاد ملوك العجم يقال له علي بن بكار، وكان ذلك الشاب مليح القامة، ظريف الشكل، كامل الصورة، مورد الخدَّين، مقرون الحاجبين، عذب الكلام، ضاحك السن، يحب البسط والانشراح، فاتفق أنهما كانا جالسين يتحدثان ويضحكان، وإذا بعشر جوارٍ كأنهن الأقمار، وكلٌّ منهن ذات حسن وجمال، وقدٍّ واعتدال، وبينهن صبية راكبة بغلة بسرج مزركش له ركاب من الذهب، وعليها إزار رفيع، وفي وسطها زنَّار من الحرير مطرز بالذهب، كما قال فيها الشاعر:

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ   رَخِيمُ الْحَوَاشِي لَا هُرَاءٌ وَلَا نَذْرُ
وَعَيْنَانِ قَالَ اللهُ كُونَا فَكَانَتَا   فَعُولَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ
فَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوًى كُلَّ لَيْلَةٍ   وَيَا سَلْوَةَ الْأَحْبَابِ مَوْعِدُكَ الْحَشْرُ

ولما وصلوا إلى دكان أبي الحسن نزلت عن البغلة وجلست على دكانه، فسلمت عليه وسلم عليها، فلما رآها علي بن بكار سلبت عقله وأراد القيام، فقالت له: اجلس مكانك،



ثم خرج من الباب عشرون جارية، وبينهن جاريةٌ اسمُها شمس النهار، كأنها القمر.

كيف تذهب إذا حضرنا؟ هذا ما هو إنصاف. فقال: والله يا سيدتي إني هارب ممَّا رأيتُ، وما أحسن قول الشاعر:

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَا   فَـعَـزِّ الْـفُـؤَادَ عَـزَاءً جَـمِـيـلَا
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ   وَلَـنْ تَـسْـتَـطِـيـعَ إِلَـيْكَ الـنُّـزُولَا

فلما سمعت ذلك الكلام تبسَّمت، وقالت لأبي الحسن: ما اسم هذا الفتى؟ ومن أين هو؟ فقال لها: هذا غريب اسمه علي بن بكار ابن ملك العجم، والغريب يجب إكرامه. فقالت له: إذا جاءتك جاريتي تأتي به عندي. فقال أبو الحسن: على الرأس. ثم قامت وتوجهت إلى حال سبيلها.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر علي بن بكار، فإنه صار لا يعرف ما يقول، وبعد ساعة جاءت الجارية إلى أبي الحسن، وقالت له: إن سيدتي تطلبك أنت ورفيقك. فنهض أبو الحسن وأخذ معه علي بن بكار، وتوجَّها إلى دار هارون الرشيد، فأدخلتهما في مقصورة وأجلستهما، وإذا بالموائد وُضِعت قدَّامهما، فأكلَا وغسلَا أيديهما، ثم أحضرت لهما الشراب فسكرَا، ثم أمرتهما بالقيام فقامَا معها وأدخلتهما مقصورةً أخرى مركبة على أربعة أعمدة، وهي مفروشة بأنواع الفرش، مزيَّنة بأحسن الزينة كأنها من قصور الجنان، فاندهشا مما عاينا من التحف. فبينما هما يتفرَّجان على هذه الغرائب، وإذا بعشر جوارٍ أقبلن يتمايلن عجبًا كأنهن الأقمار يدهشن الأبصار ويحيرن الأفكار، واصطففن كأنهن من حور الجنان، وجاء بعدهن عشر جوارٍ أخرى وبأيديهن العيدان وآلات اللهو والطرب، فسلمن عليهما وجعلن يضربن العيدان وينشدن الأشعار، وكل واحدة منهن فتنة للعباد. وأقبل بعدهن عشر جوارٍ مثلهن كواعب أتراب، بعيون سود، وخدود حمر، مقرونات الحواجب، ناعسات الأطراف، فتنة للعابدين ونزهة للناظرين، وعليهن من أنواع الحرير الملون ما يحير العقول، ثم وقفن بالباب وجاء من بعدهن عشر جوارٍ أحسن منهن وعليهن الملبوس الفاخر، فوقفن بالباب أيضًا؛ ثم خرج من الباب عشرون جارية، وبينهن جارية اسمها شمس النهار كأنها القمر بين النجوم، وهي متوشحة بفاضل شعرها، وعليها لباس أزرق وإزار من الحرير بطرازات من الذهب، وفي وسطها حياصة مرصَّعة بأنواع الجواهر، ولم تزل تتبختر حتى جلست على السرير، فلما رآها علي بن بكار أنشد هذه الأشعار:

إِنَّ هَذِي هِيَ ابْتِدَاءُ سَقَامِي وَتَمَادِي وَجْدِي وَطُولُ غَرَامِي
عِنْدَهَا قَدْ رَأَيْتُ نَفْسِيَ ذَابَتْ مِنْ وُلُوعِي بِهَا وَبَرْيِ عِظَامِي

فلما فرغ من شعره قال لأبي الحسن: لو عملت معي خيرًا كنتَ أخبرتني بهذه الأمور قبل الدخول هنا؛ لأجل أن أوطن نفسي وأصبِّرها على ما أصابها. ثم بكى واشتكى، فقال له أبو الحسن: يا أخي، أنا ما أردت لك إلا الخير، ولكن خشيت أن أُعلِمك بذلك، فيلحقك من الوجد ما يصدك عن لقائها، ويحيل بينك وبين وصالها، فطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، فهي

بسعدك مقبلة، وللقائك متوصلة. فقال علي بن بكار: ما اسم هذه الصبية؟ فقال له أبو الحسن: تُسمَّى شمس النهار، وهي من محاظي أمير المؤمنين هارون الرشيد، وهذا المكان قصر الخلافة. ثم إن شمس النهار جلست وتأمَّلَتْ محاسن علي بن بكار، وتأمَّلَ هو حسنها، واشتغلَا بحب بعضهما، وقد أمرت الجواري أن تجلس كل واحدة منهن في مكانها على سرير، فجلست كل واحدة قبال طاقة، وأمرتهن بالغناء، فتسلمت واحدة منهن العود، وأنشدت تقول:

أَعِدِ الرِّسَالَةَ ثَانِيَةْ وَخُذِ الْجَوَابَ عَلَانِيَهْ
وَإِلَيْكَ يَا مَلِكَ الْمِلَا حِ وَقَفْتُ أَشْكُو حَالِيَهْ
مَوْلَايَ يَا قَلْبِي الْعَزِيـ ـزَ وَيَا حَيَاتِي الْغَالِيَهْ
أَنْعِمْ عَلَيَّ بِقُبْلَةٍ هِبَةً وَإِلَّا عَارِيَهْ
وَأَرُدُّهَا لَكَ لَا عُدِمْـ ـتَ بِعَيْنِهَا وَكَمَا هِيَهْ
وَإِذَا أَرَدْتَ زِيَادَةً خُذْهَا وَنَفْسُكَ رَاضِيَهْ
يَا مُلْبِسِي ثَوْبَ الضَّنَى يُهْنِيكَ ثَوْبُ الْعَافِيَهْ

فطرب علي بن بكار وقال لها: زيديني من مثل هذا الشعر. فحركت الأوتار، وأنشدت هذه الأشعار:

مِنْ كَثْرَةِ الْبُعْدِ يَا حَبِيبَتِي عَلَّمْتُ طُولَ الْبُكَا جُفُونِي
يَا حَظَّ عَيْنِي وَيَا مُنَاهَا وَمُنْتَهَى غَايَتِي وَدِينِي
إِرْثِي لِمَنْ طَرْفُهُ غَرِيقٌ فِي عَبْرَةِ الْوَالِهِ الْحَزِينِ

فلما فرغت من شعرها قالت شمس النهار لجارية غيرها: أنشدي. فأطربت بالنغمات، وأنشدت هذه الأبيات:

سَكِرْتُ مِنْ لَحْظِهِ لَا مِنْ مُدَامَتِهِ وَمَالَ بِالنَّوْمِ عَنْ عَيْنِي تَمَايُلُهُ
فَمَا السُّلَافُ سَلَتْنِي بَلْ سَوَالِفُهُ وَمَا الشَّمُولُ شَلَتْنِي بَلْ شَمَائِلُهُ
لَوَى بِعَزْمِيَ أَصْدَاغٌ لُوِينَ لَهُ وَغَالَ عَقْلِي بِمَا تَحْوِي غَلَائِلُهُ

فلما سمعت شمس النهار إنشاد الجارية، تنهدت وأعجبها الشعر، ثم أمرت جارية أخرى أن تغني، فأنشدت هذه الأبيات:

وَجْهٌ لِمِصْبَاحِ السَّمَاءِ مُبَاهِ ... يَبْدُو الشَّبَابُ عَلَيْهِ رَشْحُ مِيَاهِ
رَقَمَ الْعِذَارُ غَلَالَتَيْهِ بِأَحْرُفٍ ... مَعْنَى الْهَوَى فِي طَيِّهَا مُتَنَاهِ
نَادَى عَلَيْهِ الْحُسْنُ حِينَ لَقِيتَهُ ... هَذَا الْمُنَمْنَمُ فِي طُرَازِ اللهِ

فلما فرغت من شعرها، قال علي بن بكار لجارية قريبة منه: أنشدي أنت أيتها الجارية. فأخذت العود، وأنشدت هذه الأبيات:

زَمَنُ الْوِصَالِ يَضِيقُ عَنْ ... هَـذَا الـتَّـمَـادِي وَالـدَّلَالْ
كَمْ مِنْ صُدُودٍ مُتْلِفٍ ... مَا هَـكَذَا أَهْلُ الْـجَـمَالْ
فَاسْتَغْنِمُوا وَقْتَ السُّعُو ... دِ بِطِيبِ سَاعَاتِ الْوِصَالْ

فلما فرغت من شعرها تنهَّد علي بن بكار، وأرسل دموعه الغزار، فلما رأته شمس النهار قد بكى وأنَّ وأشتكى، أحرقها الوَجْد والغرام، وأتلفها الوله والهيام، فقامت من فوق السرير، وجاءت إلى باب القبة، فقام علي بن بكار وتلقَّاها وتعانَقَا ووقعا مغشيًّا عليهما في باب القبة، فقام الجواري إليهما، وحملنهما وأدخلنهما القبة، ورششن عليهما ماء الورد، فلما أفاقا لم يجدَا أبا الحسن، وكان قد اختفى في جانب سرير، فقالت الصبية: أين أبو الحسن؟ فظهر لها من جانب السرير، فسلمت عليه وقالت: أسأل الله أن يقدرني على مكافأتك يا صاحب المعروف. ثم أقبلت على علي بن بكار وقالت له: يا سيدي، ما بلغ بك الهوى إلى غاية إلا وعندي أمثالها، وليس لنا إلا الصبر على ما أصابنا. فقال علي بن بكار: والله يا سيدتي، جمعُ شملي بك يطيب، ولا ينطفئ إليك ما عندي من اللهيب، ولا يذهب ما تمكن من حبك في قلبي إلا بذهاب روحي. ثم بكى فنزلت دموعه على خده كأنها المطر، فلما رأته شمس النهار يبكي بكت لبكائه، فقال أبو الحسن: والله إني عجبتُ من أمركما، واحترتُ في شأنكما، فإن حالكما عجيب، وأمركما غريب، هذا البكاء وأنتما مجتمعان، فكيف تكون الحال بعد انفصالكما؟ ثم قال: هذا ليس وقت حزن وبكاء، بل هذا وقت سرور وانشراح. فأشارت شمس النهار إلى جارية، فقامت وعادت ومعها وصائف حاملات مائدة صحافها من الفضة، وفيها أنواع الطعام، ثم وضعت المائدة قدَّامهم، وصارت شمس النهار تأكل وتلقِّم علي بن بكار حتى اكتفوا، ثم رُفِعت

المائدة وغسلوا أيديهم، وجاءتهم المباخر بأنواع العود، وجاءت القماقم بماء الورد، فتبخروا وتطيَّبوا، وقُدِّمت لهم أطباق من الذهب المنقوش فيها من أنواع الشراب والفواكه والنقل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم جاءت لهم بطشت من العقيق ملآن من المدام، فاختارت شمس النهار عشر وصائف أوقفتهن عندها، وعشر جوار من المغنيات، وصرفت باقي الجواري إلى أماكنهن، وأمرت بعض الحاضرات من الجواري أن يضربن بالعود، ففعلن ما أمرت به، وأنشدت واحدة منهن:

بِنَفْسِيَ مَنْ رَدَّ التَّحِيةَ ضَاحِكًا فَجَدَّدَ بَعْدَ الْيَأْسِ فِي الْوَصْلِ مَطْمَعِي
لَقَدْ أَبْرَزَتْ أَيْدِي الْغَرَامِ سَرَائِرِي وَأَظْهَرْنَ لِلْعُذَّالِ مَا بَيْنَ أَضْلُعِي
وَحَالَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ كَأَنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ تَعْشَقُهُ مَعِي

فلما فرغت من شعرها قامت شمس النهار وملأت الكأس وشربته، ثم ملأته وأعطته لعلي بن بكار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٥٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شمس النهار ملأت الكأس وأعطته لعلي بن بكار، ثم أمرت جارية أن تغني، فأنشدت هذين البيتين:

تَشَابَهَ دَمْعِي إِذْ جَرَى وَمُدَامَتِي فَمِنْ مِثْلِ مَا فِي الْكَأْسِ عَيْنِي تَسْكُبُ
فَوَاللهِ لَا أَدْرِي أَبِالْخَمْرِ أَسْبَلَتْ جُفُونِي أَمْ مِنْ أَدْمُعِي كُنْتُ أَشْرَبُ

فلما فرغت من شعرها، شرب علي بن بكار كأسه، ورده إلى شمس النهار فملأته وناولته لأبي الحسن فشربه، ثم أخذت العود وقالت: لا يغني على قدحي غيري. ثم شدَّت الأوتار، وأنشدت هذه الأشعار:

غَرَائِبُ الدَّمْعِ فِي خَدَّيْهِ تَقْتُلُهُ وَجْدًا وَنَارُ الْهَوَى فِي صَدْرِهِ تَقِدُ
يَبْكِي مِنَ الْقُرْبِ خَوْفًا مِنْ تَبَاعُدِهِمْ فَالدَّمْعُ إِنْ قَرُبُوا جَارٍ وَإِنْ بَعُدُوا

وقول الشاعر:

نَتَفَدَّاكَ سَاقِيًا قَدْ كَسَاكَ الْـ ـحُسْنِ مِنْ فَرْقِكَ الْمُضِيءِ لِسَاقِكْ
تُشْرِقُ الشَّمْسُ مِنْ يَدَيْكَ وَمِنْ فِيـ ـكَ الثُّرَيَّا وَالْبَدْرُ مِنْ أَطْوَاقِكْ
إِنَّ أَقْدَاحَكَ الَّتِي تَرَكَتْنِي غَيْرَ صَاحٍ تُدَارُ مِنْ أَحْدَاقِكْ
أَوَلَيْسَ الْعَجِيبُ كَوْنَكَ بَدْرًا كَامِلًا وَالْمَحَاقُ فِي عُشَّاقِكْ
أَإِلَهٌ أَنْتَ إِذْ تُمِيتُ وَتُحْيِي بِتَلَاقِيكَ مَنْ تَشَا وَفِرَاقِكْ

خَلَقَ اللهُ مِنْ خَلِيقَتِكَ الْحُسْـ ـنَ وَطِيبَ النَّسِيمِ مِنْ أَخْلَاقِكْ
لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الْبَرِيَّة بَلْ أَنْـ ـتَ مَلِيكٌ مُتَوَّجٌ مِنْ خَلَاقِكْ

فلما سمع علي بن بكار وأبو الحسن والحاضرون شِعر شمس النهار، كادوا أن يطيروا من الطرب، ولعبوا وضحكوا؛ فبينما هم على هذا الحال، وإذا بجارية أقبلت وهي ترتعد من الخوف، وقالت: يا سيدتي قد وصل أمير المؤمنين، وها هو بالباب، ومعه عفيف ومسرور وغيرهما. فلما سمعوا كلام الجارية كادوا أن يهلكوا من الخوف، فضحكت شمس النهار وقالت: لا تخافوا. ثم قالت للجارية: ردي عليهم الجواب بقدر ما نتحوَّل من هذا المكان. ثم إنها أمرت بغلق باب القبة، وإرخاء الستور على أبوابها وهم فيها، وأغلقت باب القاعة، ثم خرجت إلى البستان، وجلست على سريرها، وأمرت جاريةً أن تكبس رجليها، وأمرت بقية الجواري أن يمضين إلى أماكنهن، وأمرت الجارية أن تدع الباب مفتوحًا ليدخل الخليفة، فدخل مسرور ومَن معه، وكانوا عشرين وبأيديهم السيوف، فسلَّموا على شمس النهار، فقالت لهم: لأي شيء جئتم؟ فقالوا: إن أمير المؤمنين يسلِّم عليك، وقد استوحش لرؤيتك، ويخبرك أنه كان عنده اليوم سرور وحظ زائد، وأحب أن يكون ختام السرور بوجودك في هذه الساعة، فهل تأتين عنده أو يأتي عندك؟ فقامت وقبَّلت الأرض، وقالت: سمعًا وطاعة لأمر أمير المؤمنين. ثم أمرت بإحضار القهرمانات والجواري فحضرن، وأظهرت لهن أنها مقبلة على ما أمر به الخليفة، وكان المكان كاملًا في جميع أموره، ثم قالت للخدام: امضوا إلى أمير المؤمنين، وأخبروه أنني في انتظاره بعد قليلٍ إلى أن أهيِّئ له مكانًا بالفرش والأمتعة. فمضى الخدام مسرعين إلى أمير المؤمنين، ثم إن شمس النهار قلعت ودخلت إلى معشوقها علي بن بكار، وضمَّته إلى صدرها وودعته، فبكى بكاءً شديدًا، وقال: يا سيدتي، هذا الوداع متِّعيني به لعله يكون على تلف نفسي وهلاك روحي في هواك، ولكن أسأل الله أن يرزقني الصبر على ما بلاني به من محبتي. فقالت له شمس النهار: والله ما يصير في التلف إلا أنا؛ فإنك قد تخرج إلى السوق وتجتمع بمن يسلِّيك فتكون مصونًا، وغرامك مكنونًا، وأما أنا فسوف أقع في البلاء، خصوصًا وقد وعدت الخليفة بميعاد، فربما يلحقني من ذلك عظيم الخطر بسبب شوقي إليك، وحبي لك، وتعشُّقي فيك، وتأسُّفي على مفارقتك، فبأي لسان أغني؟ وبأي قلب أحضر عند الخليفة؟ وبأي كلام أنادم أمير المؤمنين؟ وبأي نظر أنظر إلى مكانٍ ما أنت فيه؟ وكيف أكون في حضرةٍ لم تكن بها؟ وبأي ذوق أشرب مدامًا ما أنت حاضره؟ فقال لها أبو الحسن: لا تتحيري واصبري، ولا تغفلي عن منادمة أمير المؤمنين هذه الليلة، ولا تريه تهاونًا.

فبينما هم في الكلام، وإذا بجارية قدمت وقالت: يا سيدتي، جاء غلمان أمير المؤمنين. فنهضت قائمة، وقالت للجارية: خذي أبا الحسن ورفيقه، واقصدي بهما أعلى الروشن المطل على البستان، ودعيهما هناك إلى الظلام، ثم تحيَّلي في خروجهما. فأخذتهما الجارية وأطلعتهما في الروشن، وأغلقت الباب عليهما، ومضت إلى حال سبيلها، وصارَا ينظران إلى البستان، وإذا بالخليفة قدم وقدَّامه نحو المائة خادم بأيديهم السيوف، وحواليه عشرون جارية كأنهن الأقمار، وعليهن أفخر ما يكون من الملبوس، وعلى رأس كل واحدة تاج مكلل بالجواهر واليواقيت، وفي يد كل واحدة شمعة موقودة، والخليفة يمشي بينهن، وهن محيطات به من كل ناحية، ومسرور وعفيف ووصيف قدَّامه، وهو يتمايل بينهم. فقامت له شمس النهار وجميع مَن عندها من الجواري، ولاقينه من باب البستان، وقبَّلن الأرض بين يديه، ولم يزلن سائرات أمامه إلى أن جلس على السرير، والذين في البستان من الجواري والخدم وقفوا حوله والشموع موقودة، والآلات تضرب إلى أن أمرهم بالانصراف والجلوس على الأسرَّة، فجلست شمس النهار على سرير بجانب سرير الخليفة، وصارت تحدثه؛ كل ذلك وأبو الحسن وعلي بن بكار ينظران ويسمعان، والخليفة لم يرهما.

ثم إن الخليفة صار يلعب مع شمس النهار، وأمر بفتح القبة ففُتِحت، وشرعوا طيقانها، وأوقدوا الشموع حتى صار المكان وقت الظلام كالنهار، ثم إن الخدم صاروا ينقلون آلات المشروب، فقال أبو الحسن: إن هذه الآلات والمشروب والتحف ما رأيت مثلها، وهذا شيء من أصناف الجواهر ما سمعت بمثله، وقد خُيِّلَ لي أنني في المنام، وقد اندهش عقلي، وخفق قلبي. وأما علي بن بكار فإنه لما فارقته شمس النهار لم يزل مطروحًا على الأرض من شدة العشق، فلما أفاق صار ينظر إلى هذه الفعال التي لا يوجد مثلها، فقال لأبي الحسن: أخي، أخشى أن ينظرنا الخليفة أو يعلم حالنا، وأكثر خوفي عليك، وأما أنا فإني أعلم أن نفسي من الهالكين، وما سبب موتي إلا العشق والغرام، وفرط الوَجْد والهيام، ونرجو من الله الخلاص مما بُلِينا به. ولم يزل علي بن بكار وأبو الحسن ينظران من الروشن إلى الخليفة وما هو فيه، حتى تكاملت الحضرة بين يدي الخليفة، ثم إن الخليفة التفت إلى جاريةٍ من الجواري وقال: هاتي ما عندك يا غرام من السماع المطرب. فأطربت بالنغمات، وأنشدت هذه الأبيات:

وَمَا وَجْدُ أَعْرَابِيَّةٍ بَانَ أَهْلُهَا ... فَحَنَّتْ إِلَى بَانِ الْحِجَازِ وَرَنْدِهِ
إِذَا آنْسَتْ رَكْبًا تَكَفَّلَ شَوْقُهَا ... بِنَارِ قِرَاهُ وَالدُّمُوعُ بِوِرْدِهِ
بِأَعْظَمَ مِنْ وَجْدِي بِحُبِّي وَإِنَّمَا ... يَرَى أَنَّنِي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا بِوُدِّهِ

فلما سمعت شمس النهار هذا الشعر وقعت مغشيًّا عليها من فوق الكرسي الذي كانت عليه، وغابت عن الوجود، فقام الجواري واحتملنها، فلما نظر إليها علي بن بكار من الروشن وقع مغشيًّا عليه، فقال أبو الحسن: إن القضاء قسم الغرام بينكما بالسوية. فبينما هما يتحدثان وإذا بالجارية التي أطلعتهما الروشن جاءتهما وقالت: يا أبا الحسن، انهض أنت ورفيقك وانزلا، فقد ضاقت علينا الدنيا، وأنا خائفة أن يظهر أمرنا، فقوما في هذه الساعة وإلا متنا. فقال أبو الحسن: فكيف ينهض هذا الغلام معي ولا قدرةَ له على النهوض؟ فصارت الجارية ترش ماء الورد على وجهه حتى أفاق، فحمله أبو الحسن هو والجارية ونزلَا به من الروشن، ومشيَا قليلًا، ثم فتحت الجارية بابًا صغيرًا من حديد، وأخرجت أبا الحسن هو وعلي بن بكار على مصطبة، ثم صفَّقت الجارية بيديها، فجاء زورق فيه إنسان يجدف، فأطلعتهما الجارية في الزورق، وقالت للذي في الزورق: أطلعهما في ذلك البر. فلما نزلا في الزورق وفارقا البستان، نظر علي بن بكار إلى القبة والبستان، وودَّعهما بهذين البيتين:

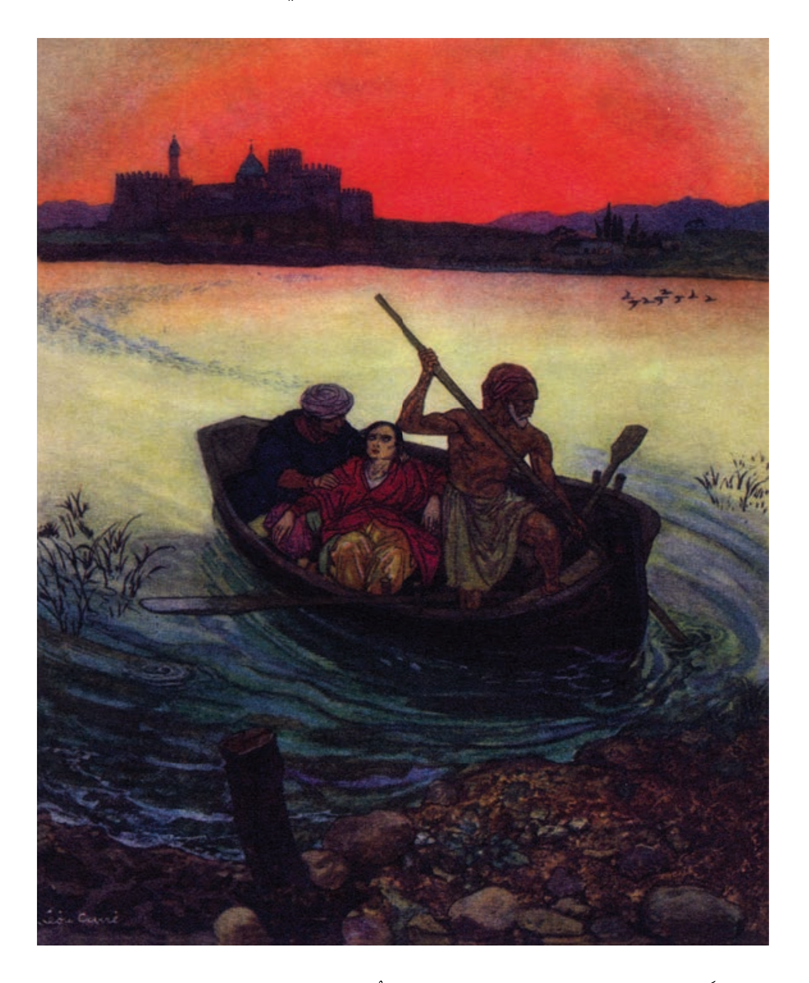
مَدَدْتُ إِلَى التَّوْدِيعِ كَفًّا ضَعِيفَةً ... وَأُخْرَى عَلَى الرَّمْضَاءِ تَحْتَ فُؤَادِي
فَلَا كَانَ هَذَا آخِرَ الْعَهْدِ بَيْنَنَا ... وَلَا كَانَ هَذَا الزَّادُ آخِرَ زَادِي

ثم إن الجارية قالت للملاح: أسرع بهما. فصار يجدف لأجل السرعة والجارية معهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٥٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملاح صار يجدف لأجل السرعة والجارية معهم، إلى أن قطعوا ذلك الجانب، وعدُّوا إلى البر الثاني، ثم انصرفت الجارية وودعتهما، وطلعا إلى البر، وقالت لهما: كان قصدي ألَّا أفارقكما لكنني لا أقدر أن أسير إلى مكان غير هذا الموضع. ثم إن الجارية عادت، وصار علي بن بكار مطروحًا بين يدي أبي الحسن لا يستطيع النهوض، فقال له أبو الحسن: إن هذا المكان غير أمين، ونخشى على أنفسنا من التلف في هذا المكان بسبب اللصوص وأولاد الحرام. فقام علي بن بكار يتمشى قليلًا وهو لا يستطيع المشي، وكان أبو الحسن له في ذلك الجانب أصدقاء، فقصد مَن يثق به ويركن إليه منهم، فدقَّ بابه فخرج إليه مسرعًا، فلما رآهما رحَّبَ بهما، ودخل بهما إلى منزله، وأجلسهما وتحدث معهما، وسألهما أين كانا. فقال أبو الحسن: قد خرجنا في هذا الوقت، وأحوجنا إلى هذا الأمر إنسان عاملته في دراهم، وبلغني أنه يريد السفر بمالي، فخرجت في هذه الليلة وقصدته واستأنست برفيقي هذا علي بن بكار، وجئنا لعلنا ننظره فتوارى منَّا ولم نره، وعدنا بلا شيء، وشقَّ علينا العود في هذا الليل، ولم نرَ لنا محلًّا غير محلك، فجئنا إليك على عوائدك الجميلة. فرحَّب بهما، واجتهد في إكرامهما، وأقاما عنده بقية ليلتهما.

فلما أصبح الصباح خرجَا من عنده، ولم يزالا يمشيان حتى وصلا إلى المدينة ودخلاها وجازا على بيت أبي الحسن، فحلف على صاحبه علي بن بكار، وأدخله بيته فاضطجعا على الفراش قليلًا، ثم أفاقا، فأمر أبو الحسن غلمانه أن يفرشوا البيت فرشًا فاخرًا ففعلوا، ثم إن أبا الحسن قال في نفسه: لا بد أن أؤانس هذا الغلام وأسليه عمَّا هو فيه، فإني أدرى بأمره. ثم إن علي بن بكار لما أفاق استدعى بماء، فحضروا له بالماء، فقام وتوضأ وصلى ما فاته من الفروض في يومه وليلته، وصار يسلي نفسه بالكلام، فلما



الملَّاحُ صار يُجدِّف لأجل السرعةِ والجاريةُ معهم، إلى أن قطعوا ذلك الجانب.

رأى منه ذلك أبو الحسن تقدم إليه وقال: يا سيدي علي، الأليق بما أنت فيه أن تقيم عندي هذه الليلة لينشرح صدرك، وينفرج ما بك من كرب الشوق، وتتلاهى معنا. فقال علي بن بكار: افعل يا أخي ما بدا لك، فإني على كل حال غير ناجٍ مما أصابني، فاصنع ما أنت صانع. فقام أبو الحسن واستدعى غلمانه، وأحضر أصحابه، وأرسل إلى أرباب المغاني والآلات، فحضروا وأقاموا على أكل وشرب وانشراح باقيَ اليوم إلى المساء، ثم أوقدوا

الشموع، ودارت بينهم كئوس المنادمة، وطاب لهم الوقت، فأخذت المغنية العود وجعلت تقول:

رُمِيتُ مِنَ الزَّمَانِ بِسَهْمِ لَحْظٍ   فَأَصْمَانِي وَفَارَقْتُ الْحَبَايِبْ
وَعَانَدَنِي الزَّمَانُ وَقَلَّ صَبْرِي   وَإِنِّي قَبْلَ هَذَا كُنْتُ حَاسِبْ

فلما سمع علي بن بكار كلامَ المغنية خرَّ مغشيًّا عليه، ولم يزل في غشيته إلى أن طلع الفجر ويئس منه أبو الحسن، ولما طلع النهار أفاق وطلب الذهاب إلى بيته، فلم يمنعه أبو الحسن خوفًا من عاقبة أمره، فأتاه غلمانه ببغلة وأركبوه، وسار معه أبو الحسن إلى أن أدخله منزله. فلما اطمأن في بيته حمد الله أبو الحسن على خلاصه من هذه الورطة، وصار يسليه، وهو لا يتمالك نفسه من شدة الغرام، ثم إن أبا الحسن ودَّعه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٥٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن أبا الحسن ودَّعه، فقال له علي بن بكار: يا أخي، لا تقطع عني الأخبار. فقال: سمعًا وطاعة. ثم إن أبا الحسن قام من عنده، وأتى دكانه وفتحها، وصار يرتقب خبرًا من الصبية فلم يأته أحدٌ بخبر، فبات تلك الليلة في داره، فلما أصبح الصباح، قام إلى أن أتى دار علي بن بكار ودخل عليه، فوجده ملقًى على فراشه، وأصحابه حوله، والحكماء عنده، وكل واحد يصف له شيئًا ويجسُّون يده، فلما دخل أبو الحسن ورآه، تبسَّمَ، ثم إن أبا الحسن سلَّم عليه وسأله عن حاله وجلس عنده حتى خرج الناس، فقال له: ما هذه الحال؟ فقال علي بن بكار: قد شاع خبري أني مريض وتسامع بذلك أصحابي، وليس لي قوة أستعين بها على القيام والمشي حتى أكذِّب مَن جعلني ضعيفًا، ولم أزل ملقًى مكاني كما تراني، وقد أتى أصحابي إلى زيارتي. يا أخي، هل رأيت الجارية أو سمعت بخبر من عندها؟ فقال: ما جاءتني من يوم فارقتنا على شاطئ الدجلة. ثم قال أبو الحسن: يا أخي، احذر الفضيحة وتجنَّبْ هذا البكاء. فقال علي بن بكار: يا أخي، لا أملك نفسي. ثم صعَّد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

نَالَتْ عَلَى يَدِهَا مَا لَمْ تَنَلْهُ يَدِي ... نَقْشٌ عَلَى مِعْصَمٍ أَوْهَتْ بِهِ جَلَدِي
خَافَتْ عَلَى يَدِهَا مِنْ نَبْلِ مُقْلَتِهَا ... فَأَلْبَسَتْ يَدَهَا دِرْعًا مِنَ الزَّرَدِ
جَسَّ الطَّبِيبُ يَدِي جَهْلًا فَقُلْتُ لَهُ ... إِنَّ التَّأَلُّمَ فِي قَلْبِي فَخَلِّ يَدِي
قَالَتْ لِطَيْفِ خَيَالٍ زَارَنِي وَمَضَى ... بِاللهِ صِفْهُ وَلَا تَنْقِصْ وَلَا تَزِدِ
فَقَالَ خَلَّفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ ... وَقُلْتُ قِفْ عَنْ وُرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
فَاسْتَمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ ... وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالْبَرَدِ

فلما فرغ من شعره قال: قد بُلِيت بمصيبة كنتُ في أمن منها، وليس لي أعظم راحة من الموت. فقال له أبو الحسن: اصبر لعل الله يشفيك. ثم نزل أبو الحسن من عنده وتوجَّه إلى دكانه وفتحها، فما جلس غير قليل حتى أقبلت إليه الجارية وسلَّمت، فردَّ عليها السلام، ونظر إليها فوجدها خافقة القلب يظهر عليها أثر الكآبة، فقال لها: أهلًا وسهلًا، كيف حال شمس النهار؟ فقالت: سوف أخبرك بحالها، كيف حال علي بن بكار؟ فأخبرها أبو الحسن بجميع ما كان من أمره، فتأسَّفَتْ وتأوَّهَتْ وتعجَّبَتْ من ذلك الأمر، ثم قالت: إن حال سيدتي أعجب من ذلك، فإنكما لما توجَّهْتُما، رجعت وقلبي يخفق عليكما، وما صدقت بنجاتكما، فلما رجعتُ وجدتُ سيدتي مطروحة في القبة لا تتكلم ولا تردُّ على أحد، وأمير المؤمنين جالس عند رأسها لا يجد مَن يخبره بخبرها، ولم يعلم ما بها، ولم تزل في غشيتها إلى نصف الليل، ثم أفاقت، فقال لها أمير المؤمنين: ما الذي أصابك يا شمس النهار؟ وما الذي اعتراكِ في هذه الليلة؟ فلما سمعت شمس النهار كلام الخليفة قبَّلت أقدامه، وقالت له: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، إنه خامرني خلط فأضرم النار في جسدي فوقعت مغشيًّا عليَّ من شدة ما بي، ولا أعلم كيف كانت حالي. فقال لها الخليفة: ما الذي استعملته في نهارك؟ قالت: أفطرت على شيء لم آكله قطُّ. ثم أظهرَتِ القوة، واستدعت بشيء من الشراب فشربته، وسألت أمير المؤمنين أن يعود إلى انشراحه، فعاد إلى الجلوس في القبة، فلما جئت إليها سألتني عن أحوالكما، فأخبرتها بما فعلت معكما، وأخبرتها بما أنشده علي بن بكار فسكتت، ثم إن أمير المؤمنين جلس وأمر الجارية بالغناء، فأنشدت هذين البيتين:

وَلَمْ يَصْفُ لِي شَيْءٌ مِنَ الْعَيْشِ بَعْدَكُمُ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالُكُمُ بَعْدِي
يَحِقُّ لِدَمْعِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الدِّمَا إِذَا كُنْتُمُ تَبْكُونَ دَمْعًا عَلَى بُعْدِي

فلما سمعَتْ هذا الشعر وقعت مغشيًّا عليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٥٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت لأبي الحسن: إن سيدتي لما سمعت هذا الشعر وقعت مغشيًّا عليها، فأمسكت يدها ورششت ماء الورد على وجهها، فأفاقت، فقلت لها: يا سيدتي، لا تهتكي نفسك، ومَن يحويه قصرك بحياة محبوبك أن تصبري، فقالت: هل في الأمر أكثر من الموت؟ فأنا أطلبه لأن فيه راحتي. فبينما نحن في هذا القول إذ غنَّتْ جارية بقول الشاعر:

وَقَالُوا لَعَلَّ الصَّبْرَ يَعْقِبُ رَاحَةً فَقُلْتُ وَأَيْنَ الصَّبْرُ بَعْدَ فِرَاقِهِ
وَقَدْ أَكَّدَ الْمِيثَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بِقَطْعِ حِبَالِ الصَّبْرِ عِنْدَ عِنَاقِهِ

فلما فرغَتْ من الشعر وقعَتْ مغشيًّا عليها، فنظرها الخليفة فأتى مسرعًا إليها، وأمر برفع الشراب، وأن تعود كل جارية إلى مقصورتها، وأقام عندها باقي ليلته إلى أن أصبح الصباح، فاستدعى الأطباء وأمرهم بمعالجتها، ولم يعلم بما هي فيه من العشق والغرام، وأقمت عندها حتى ظننت أنه قد صلحت حالها، وهذا الذي عاقني عن المجيء إليكما، وقد خلفت عندها جماعة من خواصها لما أمرتني بالمسير إليكما لآخذ خبر علي بن بكار وأعود إليها. فلما سمع أبو الحسن كلامها تعجَّبَ وقال لها: والله إني أخبرتك بجميع ما كان من أمره، فعودي إلى سيدتك، وسلمي عليها، وحثِّيها على الصبر، وقولي لها: اكتمي السر، وأخبريها أني عرفت أمرها، وهو أمر صعب يحتاج إلى التدبير. فشكرَتْه الجارية، ثم ودَّعته، وانصرفت إلى سيدتها.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر أبي الحسن، فإنه لم يزل في دكانه إلى آخر النهار، فلما مضى النهار قام وقفل دكانه، وأتى إلى دار علي بن بكار، فدقَّ الباب فخرج له بعض غلمانه وأدخله، فلما دخل عليه، تبسَّمَ واستبشر بقدومه، وقال له: يا أبا الحسن، أوحشتني لتخلُّفك عني في هذا اليوم، وروحي متعلقة بك باقي عمري. فقال له أبو الحسن: دَعْ هذا الكلام، فلو أمكن فداك كنت أفديك بروحي، وفي هذا اليوم جاءت جارية شمس النهار، وأخبرتني أنه ما عاقها عن المجيء إلا جلوس الخليفة عند سيدتها، وأخبرتني بما كان من أمر سيدتها. وحكى له جميع ما سمعه من الجارية؛ فتأسَّفَ علي بن بكار غاية التأسُّف وبكى، ثم التفت إلى أبي الحسن وقال له: بالله أن تساعدني على ما بُليت به، وأخبرني ماذا تكون الحيلة؟ وأسألك من فضلك المبيتَ عندي هذه الليلة لأستأنس بك. فامتثل أبو الحسن أمره، وأجابه إلى المبيت عنده، وباتا يتحدثان في تلك الليلة، ثم إن علي بن بكار بكى وأرسل العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

خَفَرَتْ بِسَيْفِ اللَّحْظِ ذِمَّةَ مُقْتَرِ ... وَفَرَتْ بِرُمْحِ الْقَدِّ دِرْعَ تَصَبُّرِي
وَجَلَتْ لَنَا مِنْ تَحْتِ مِسْكَةِ خَالِهَا ... كَافُورَ فَجْرٍ شَقَّ لَيْلَ الْعَنْبَرِ
فَزَعَتْ فَضَرَّسَتِ الْعَقِيقُ بِلُؤْلُؤٍ ... سَكَنَتْ فَرَائِدُهُ غَدِيرَ السُّكَّرِ
وَتَنَهَّدَتْ جَزَعًا فَأَثَّرَ كَفُّهَا ... فِي صَدْرِهَا فَنَظَرْتُ مَا لَمْ أَنْظُرِ
أَقْلَامَ مُرْجَانٍ كَتَبْنَ بِعَنْبَرٍ ... بِصَحِيفَةِ الْبِلَّوْرِ خَمْسَةَ أَسْطُرِ
يَا حَامِلَ السَّيْفِ الصَّفِيحِ إِذَا رَنَتْ ... إِيَّاكَ ضَرْبَةَ جَفْنِهَا الْمُتَكَسِّرِ
وَتَوَقَّ يَا رَبُّ الْقَنَاةِ الطَّعْنَ إِنْ ... حَمَلَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْقَوَامِ بِأَسْمَرِ

فلما فرغ علي بن بكار من شعره صرخ صرخة عظيمة، ووقع مغشيًّا عليه، فظن أبو الحسن أن روحه خرجت من جسده، ولم يزل في غشيته حتى طلع النهار، فأفاق وتحدث مع أبي الحسن، ولم يزل أبو الحسن جالسًا عند علي بن بكار إلى ضحوة النهار، ثم انصرف من عنده، وجاء إلى دكانه وفتحها، وإذا بالجارية جاءته، ووقفت عنده، فلما نظر إليها أومأت إليه بالسلام، فردَّ عليها السلام، وبلَّغته سلامَ سيدتها، وقالت له: كيف حال علي بن بكار؟ فقال لها: يا جارية لا تسألي عن حاله وما هو فيه من شدة الغرام؛ فإنه لا ينام الليل، ولا يستريح بالنهار، وقد أنحله السهر، وغلب عليه الضجر، وصار في حال لا يسرُّ حبيبًا. فقالت له: إن سيدتي تسلِّم عليك وعليه، وقد كتبت له ورقة، وهي في حال أعظم من حاله، وقد سلَّمَتْني الورقةَ وقالت: لا تأتيني إلا بجوابها، وافعلي ما

أمرتُكِ به. وها هي الورقة معي، فهل لك أن تسير معي إلى علي بن بكار، ونأخذ منه الجواب؟ فقال لها أبو الحسن: سمعًا وطاعةً. ثم قفل الدكان، وأخذ معه الجارية، وذهب بها من مكان غير الذي جاء منه، ولم يزالا سائرين حتى وصلَا إلى دار علي بن بكار، ثم أوقف الجارية على الباب ودخل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٥٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا الحسن ذهب بالجارية إلى دار علي بن بكار، وأوقفها على الباب ودخل البيت، فلما رآه علي بن بكار فرح به، فقال له أبو الحسن: سبب مجيئي أن فلانًا أرسل إليك جاريته برقعة تتضمن سلامه عليك، وذكر فيها أن سبب تأخُّره عنك عذرٌ حصل له، والجارية واقفة بالباب، فهل تأذن لها بالدخول؟ فقال علي: أدخلوها. وأشار له أبو الحسن أنها جارية شمس النهار، ففهم الإشارة، فلما رآها تحرَّكَ وفرح، وقال لها بالإشارة: كيف حال السيد شفاه الله وعافاه؟ فقالت: بخير. ثم أخرجت الورقة ودفعتها له، فأخذها وقبَّلها وقرأها، وناولها لأبي الحسن، فوجد مكتوبًا فيها هذه الأبيات:

يُنْبِيكَ هَذَا الرَّسُولُ عَنْ خَبَرِي فَاسْتَغْنِ فِي ذِكْرِهِ عَنِ النَّظَرِ
خَلَّفْتَ صَبًّا بِحُبِّكُمْ دَنِفًا وَطَرْفُهُ لَا يَزَالُ بِالسَّهَرِ
أُكَابِدُ الصَّبْرَ فِي الْبَلَاءِ فَمَا يَدْفَعُ خَلْقٌ مَوَاقِعَ الْقَدَرِ
وَقَرَّ عَيْنًا وَلَيْسَ تَغْفَلُ عَنْ قَلْبِي وَلَا يَوْمَ غِبْتَ عَنْ بَصَرِي
وَانْظُرْ إِلَى جِسْمِكَ النَّحِيلِ وَمَا قَدْ حَلَّهُ وَاسْتَدَلَّ بِالْأَثَرِ

وبعدُ؛ فقد كتبت لك كتابًا بغير بنان، ونطقت لك بغير لسان، وجملة شرح حالي إن لي عينًا لا يفارقها السهر، وقلبًا لا تبرح عنه الفِكَر، فكأنني قطُّ ما عرفت صحة ولا فرحة، ولا رأيت منظرًا بهيًّا، ولا قطعت عيشًا هنيًّا، وكأنني خُلِقت من الصبابة، ومن ألم الوَجْد والكآبة، فعليَّ السقام مترادف، والغرام متضاعف، والشوق متكاثر، وصرتُ كما قال الشاعر:

الْقَلْبُ مُنْقَبِضٌ وَالْفِكْرُ مُنْبَسِطٌ وَالْعَيْنُ سَاهِرَةٌ وَالْجِسْمُ مَتْعُوبُ
وَالصَّبْرُ مُنْفَصِلٌ وَالْهَجْرُ مُتَّصِلٌ وَالْعَقْلُ مُخْتَبَلٌ وَالْقَلْبُ مَسْلُوبُ

واعلم أن الشكوى لا تطفئ نار البلوى، لكنها تعلل من أعلَّه الاشتياق، وأتلفه الفراق، وأتسلى بذكر لفظ الوصال، وما أحسن قول مَن قال:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُبِّ سُخْطٌ وَلَا رِضًا   فَأَيْنَ حَلَاوَاتُ الرَّسَائِلِ وَالْكُتُبِ

قال أبو الحسن: فلما قرأتُها هيَّجت ألفاظها بلابلي، وأصابت معانيها مقاتلي، ثم دفعتها إلى الجارية، فلما أخذتها قال لها علي بن بكار: أبلغي سيدتك سلامي، وعرِّفيها بوَجْدي وغرامي، وامتزاج المحبة بلحمي وعظامي، وأخبريها أنني محتاج إلى مَن ينقذني من بحر الهلاك، وينجيني من هذا الارتباك. ثم بكى فبكت الجارية لبكائه، وودعته وخرجت من عنده، وخرج أبو الحسن معها، ثم ودَّعها ومضى إلى دكانه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٥٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا الحسن ودَّع الجارية ورجع إلى دكانه، فلما جلس فيه وجد قلبه انقبض، وضاق صدره، وتحيَّرَ في أمره، ولم يزل في فكرٍ بقيةَ يومه، وفي اليوم الثاني ذهب إلى علي بن بكار، وجلس عنده حتى ذهبت الناس، وسأله عن حاله فأخذ في شكوى الغرام، وما به من الوَجْد والهيام، وأنشد قول الشاعر:

شَكَا أَلَمَ الْغَرَامِ النَّاسُ قَبْلِي ... وَرُوِّعَ بِالنَّوَى حَيٌّ وَمَيْتُ
وَأَمَّا مِثْلُ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي ... فَإِنِّي لَا سَمِعْتُ وَلَا رَأَيْتُ

وقول الشاعر:

وَلَقِيتَ مِنْ حُبَّيْكَ مَا لَمْ يَلْقَهُ ... فِي حُبِّ لُبْنَى قَيْسُهَا الْمَجْنُونُ
لَكِنَّنِي لَمْ أَتَّبِعْ وَحْشَ الْفَلَا ... كَفِعَالِ قَيْسٍ وَالْجُنُونُ فُنُونُ

فقال له أبو الحسن: أنا ما رأيت ولا سمعت بمثلك في محبتك، كيف يكون هذا الوَجْد وضعف الحركة، وقد تعلَّقت بحبيب موافق؟ فكيف إذا تعلَّقت بحبيب مخالف مخادع، فكان أمرك ينكشف؟ قال أبو الحسن: فركن علي بن بكار إلى كلامي، وشكرني على ذلك، وكان لي صاحب يطلع على أمري وأمر علي بن بكار، ويعلم أننا متوافقان، ولم يعلم أحدٌ ما بيننا غيره، وكان يأتيني فيسألني عن حال علي بن بكار، وبعد قليل سألني عن الجارية، فقلت له: قد دعته إليها، وكان بينه وبينها ما لا مزيد عليه، وهذا آخِر ما انتهى من أمرهما، ولكني دبرت لنفسي أمرًا أريد إعراضه عليك. فقال له صاحبه: ما هو؟ قال

أبو الحسن: اعلم أني رجل معروف بكثرة المعاملات بين الرجال والنساء، وأخشى أن ينكشف أمرهما فيكون سببًا لهلاكي وأخذ مالي وهتك عيالي، وقد اقتضى رأيي أن أجمع مالي، وأجهز حالي، وأتوجه إلى مدينة البصرة، وأقيم بها حتى أنظر ما يكون من أحوالهما بحيث لا يشعر بي أحد، فإنَّ المحبة قد تمكنت منهما، ودارت المراسلة بينهما؛ والحال أن الماشي بينهما جارية، وهي كاتمة لأسرارهما، وأخشى أن يغلب عليها الضجر فتبوح بسرِّهما لأحد فيشيع خبرهما، ويؤدي ذلك إلى الهلاك، ويكون سببًا لتلفي، وليس لي عذر عند الناس. فقال له صاحبه: قد أخبرتني بخبر خطير يخاف من مثله العاقل الخبير، كفاك الله شر ما تخافه وتخشاه، ونجَّاك مما تخاف عقباه، وهذا الرأي هو الصواب.

فانصرف أبو الحسن إلى منزله، وصار يقضي مصالحه، ويتجهز للسفر إلى مدينة البصرة، فما مضى ثلاثة أيام حتى قضى مصالحه، وسافر إلى البصرة، فجاء صاحبه بعد ثلاثة أيام ليزوره فلم يجده، فسأل عنه جيرانه فقالوا له: إنه توجه من مدة ثلاثة أيام إلى البصرة؛ لأن له معاملة عند تجارها، فذهب ليطالب أرباب الديون، وعن قريب يأتي. فاحتار الرجل في أمره، وصار لا يدري أين يذهب، وقال: يا ليتني لم أفارق أبا الحسن. ثم دبَّر حيلةً يتوصَّل بها إلى علي بن بكار، فقصد داره وقال لبعض غلمانه: استأذِنْ لي سيدك لأدخل أسلم عليه. فدخل الغلام وأخبر سيده به، ثم عاد إليه وأذن له في الدخول، فدخل عليه فوجده ملقًى على الوسادة، فسلَّمَ عليه فردَّ عليه السلام ورحَّب به، ثم إن ذلك الرجل اعتذر إليه في تخلفه عنه تلك المدة، ثم قال له: يا سيدي، إن بيني وبين أبي الحسن صداقة، وإني كنت أودعه أسراري، ولا أنقطع عنه ساعة، فغبت في بعض المصالح مع جماعة من أصحابي مدة ثلاثة أيام، ثم جئت إليه فوجدتُ دكانه مقفولة، فسألت عنه الجيران فقالوا إنه توجه إلى البصرة، ولم أعلم له صديقًا أوفى منك، فبالله أن تخبرني بخبره. فلما سمع علي بن بكار كلامه تغيَّر لونه واضطرب، وقال: لم أسمع قبل هذا اليوم خبرَ سفَرِه، وإنْ كان الأمر كما ذكرتَ فقد حصل لي التعب. ثم أفاض دمع العين، وأنشد هذين البيتين:

قَدْ كُنْتُ أَبْكِي عَلَى مَا فَاتَ مِنْ فَرَحٍ ... وَأَهْلُ وُدِّي جَمِيعًا غَيْرُ أَشْتَاتِ
وَالْيَوْمَ فَرَّقَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمُ ... دَهْرِي فَأَبْكِي عَلَى أَهْلِ الْمَوَدَّاتِ

ثم إن علي بن بكار أطرق رأسه إلى الأرض يتفكر، وبعد ساعة رفع رأسه إلى خادم له، وقال له: امضِ إلى دار أبي الحسن، واسأل عنه هل هو مقيم أو مسافر؟ فإن قالوا

سافر فاسأل إلى أي ناحية توجَّه. فمضى الغلام، وغاب ساعة، ثم أقبل إلى سيده وقال: إني لما سألت عن أبي الحسن أخبرني أتباعه أنه سافر إلى البصرة، ولكن وجدت جارية واقفة على الباب، فلما رأتني عرفتني ولم أعرفها، وقالت لي: هل أنت غلام علي بن بكار؟ فقلت لها: نعم. فقالت: إني معي رسالة إليه من عند أعز الناس عليه. فجاءت معي، وهي واقفة على الباب. فقال علي بن بكار: أدخلها. فطلع الغلام إليها وأدخلها، فنظر الرجل الذي عند ابن بكار إلى الجارية، فوجدها ظريفة، ثم إن الجارية تقدَّمَتْ إلى علي بن بكار وسلَّمَتْ عليه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٦٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما دخلت على علي بن بكار، تقدَّمَتْ إليه وسلَّمت عليه، وتحدثت معه سرًّا، وصار يقسم في أثناء الكلام ويحلف أنه لم يتكلم بذلك، ثم ودَّعته وانصرفت، وكان الرجل صاحب أبي الحسن جوهريًّا، فلما انصرفت الجارية وجد للكلام محلًّا، فقال لعلي بن بكار: لا شك ولا ريب أن لدار الخلافة عليك مطالبةً، أو بينك وبينها معاملة. فقال: ومَن أعلمك بذلك؟ فقال: معرفتي بهذه الجارية؛ لأنها جارية شمس النهار، وكانت جاءتني من مدة برقعة مكتوب فيها أنها تشتهي عقد جوهر، فأرسلت إليها عقدًا ثمينًا. فلما سمع علي بن بكار كلامه اضطرب حتى خشي عليه التلف، ثم راجع نفسه وقال: يا أخي، سألتك بالله من أين تعرفها؟ فقال له الجوهري: دَعِ الإلحاحَ في السؤال. فقال له علي بن بكار: لا أرجع عنك إلا إذا أخبرتني بالصحيح. فقال له الجوهري: أنا أخبرك بحيث لا يدخلك مني وهم، ولا يعتريك من كلامي انقباض، ولا أخفي عنك سرًّا، وأبين لك حقيقة الأمر، ولكن بشرط أن تخبرني بحقيقة حالك، وسبب مرضك. فأخبره بخبره، ثم قال: والله يا أخي ما حملني على كتمان أمري عن غيرك إلا مخافة أن الناس تكشف أستار بعضها. فقال الجوهري لعلي بن بكار: وأنا ما أردت اجتماعي بك إلا لشدة محبتي وغيرتي عليك، وشفقتي على قلبك من ألم الفراق، عسى أكون لك مؤنسًا نيابةً عن صديقي أبي الحسن مدةَ غيبته، فطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا. فشكره علي بن بكار على ذلك، وأنشد هذين البيتين:

وَلَوْ قُلْتُ إِنِّي صَابِرٌ بَعْدَ بُعْدِهِ   لَكَذَّبَنِي دَمْعِي وَفَرْطُ نَحِيبِي
وَكَيْفَ أُدَارِي مَدْمَعًا جَرَيَانُهُ   عَلَى صَحْنِ خَدِّي مِنْ فِرَاقِ حَبِيبِي

ثم إن علي بن بكار سكت ساعة من الزمان، وبعد ذلك قال للجوهري: أتدري ما سرتني به الجارية؟ فقال: لا والله يا سيدي. فقال: إنها زعمت أني أشرت على أبي الحسن بالمسير إلى مدينة البصرة، وأنني دبَّرْتُ بذلك حيلةً لأجل عدم المراسلة والمواصلة، فحلفت لها أن ذلك لم يكن، فلم تصدقني، ومضت إلى سيدتها وهي على ما هي عليه من سوء الظن؛ لأنها كانت تصغي إلى أبي الحسن. فقال الجوهري: يا أخي، إني فهمت من حال هذه الجارية هذا الأمر، ولكن إن شاء الله تعالى أكون عونًا لك على مرادك. فقال له علي بن بكار: وكيف تعمل معها وهي تنفر كوحش الفلاة؟ فقال له: لا بد أن أبذل جهدي في مساعدتك، واحتيالي في التوصُّل إليها من غير كشف ستر ولا مَضَرَّة. ثم استأذن في الانصراف، فقال له علي بن بكار: يا أخي، عليك بكتمان السر. ثم نظر إليه وبكى، فودَّعه وانصرف. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٦١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري ودَّعه وانصرف وهو لا يدري كيف يعمل في إسعاف علي بن بكار، وما زال ماشيًا وهو متفكر في أمره إذ رأى ورقة مطروحة في الطريق، فأخذها ونظر عنوانها وقرأه، فإذا هو: «من المحب الأصغر إلى الحبيب الأكبر»، ففتح الورقة فرأى مكتوبًا فيها هذان البيتان:

جَاءَ الرَّسُولُ بِوَصْلٍ مِنْكَ يُطْمِعُنِي　　وَكَانَ أَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ وَهِمَا
فَمَا فَرِحْتُ وَلَكِنْ زَادَنِي حَزَنًا　　عِلْمِي بِأَنَّ رَسُولِي لَمْ يَكُنْ فَهِمَا

وبعدُ؛ فاعلم يا سيدي أنني لم أدرِ سببَ قطع المراسلة بيني وبينك، فإن يكن صدَرَ منك الجفاء فأنا أقابله بالوفاء، وإن يكن ذهب منك الوداد فأنا أحفظ الودَّ على البعاد، فأنا معك كما قال الشاعر:

تِهْ أَحْتَمِلْ وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ وَعِزَّ أَهُنْ　　وَوَلِّ أَقْبِلْ وَقُلْ أَسْمَعْ وَمُرْ أُطِعِ

فلما قرأها، وإذا بالجارية أقبلت وهي تتلفت يمينًا وشمالًا، فرأت الورقة في يده، فقالت له: يا سيدي، إن هذه الورقة وقعت مني. فلم يردَّ عليها جوابًا ومشى، ومشت الجارية خلفه إلى أن أقبل على داره ودخل والجارية خلفه، فقالت له: يا سيدي، ردَّ لي هذه الورقة فإنها سقطت مني. فالتفت إليها وقال: يا جارية لا تخافي ولا تحزني، ولكن أخبريني بالخبر على وجه الصدق فإني كتوم للأسرار، وأحلِّفك يمينًا أنك لا تخفي عني شيئًا من أمر سيدتك، فعسى الله أن يعينني على قضاء أغراضها، ويسهل الأمور والصعاب على يدي. فلما سمعت الجارية كلامه قالت: يا سيدي، ما ضاع سرٌّ أنت حافِظُه، ولا خابَ

أمرٌ أنت تسعى في قضائه، اعلم أن قلبي مال إليك، فأنا أخبرك بحقيقة الأمر وأعطني الورقة. ثم أخبرته بالخبر كله، وقالت: الله على ما أقول شهيد. فقال لها: صدقتِ؛ فإن عندي علمًا بأصل الخبر. ثم حدَّثَها بحديث علي بن بكار، وكيف أخذ ضميره، وأخبرها بالخبر من أوله إلى آخره. فلما سمعت ذلك فرحت، واتفقَا على أنها تأخذ الورقة وتعطيها لعلي بن بكار، وبجميع ما يحصل ترجع إليه وتخبره، فأعطاها الورقةَ فأخذتها وختمتها كما كانت، وقالت: إن سيدتي شمس النهار أعطتها لي مختومةً، فإذا قرأها وردَّ لي جوابها آتيك به. ثم إن الجارية ودَّعَتْه وتوجَّهَتْ إلى علي بن بكار فوجدته في الانتظار، فأعطته الورقة وقرأها، ثم كتب لها ورقة رد الجواب وأعطاها لها، فأخذتها ورجعت بها إلى الجوهري حكم الاتفاق، ففضَّ ختمها وقرأها، فرأى مكتوبًا فيها:

إِنَّ الرَّسُولَ الَّذِي كَانَتْ رَسَائِلُنَا مَكْتُومَةً عِنْدَهُ ضَاعَتْ وَقَدْ غَضِبَا
فَاسْتَخْلِصُوا لِي رَسُولًا مِنْكُمُ ثِقَةً يَسْتَحْسِنُ الصِّدْقَ لَا يَسْتَحْسِنُ الْكَذِبَا

وبعدُ؛ فإنني لم يصدر مني جفاء، ولا تركت وفاء، ولا نقضت عهدًا، ولا قطعت ودًّا، ولا فارقت أسفًا، ولا لقيت بعد الفراق إلا تلفًا، ولا علمت أصلًا بما ذكرتم، ولا أحب غير ما أحببتم، وحقِّ عالم السر والنجوى ما قصدي غير الاجتماع بمَن أهوى، وشأني كتمان الغرام، وإنْ أمرضني السقام، وهذا شرح حالي، والسلام.

فلما قرأ الجوهري هذه الورقة وعرف ما فيها، بكى بكاءً شديدًا، ثم إن الجارية قالت له: لا تخرج من هذا المكان حتى أعود إليك؛ لأنه قد اتهمني بأمر من الأمور، وهو معذور، وأنا أريد أن أجمع بينك وبين سيدتي شمس النهار بأي حيلة، فإني تركتها مطروحة، وهي تنتظر مني رد الجواب. ثم إن الجارية مضت إلى سيدتها، وبات الجوهري مشوش الخاطر، فلما أصبح الصباح، صلى الصبح وقعد ينتظر قدومها، وإذا بها أقبلت وهي فرحانة إلى أن دخلت عليه، فقال لها: ما الخبر يا جارية؟ فقالت: مضيت من عندك إلى سيدتي ودفعت لها الورقة التي كتبها علي بن بكار، فلما قرأتها وفهمت معناها، تحيَّر فكرها، فقلت لها: يا سيدتي، لا تخشي من فساد الأمر بينكما بسبب غياب أبي الحسن؛ فإني وجدتُ مَن يقوم مقامه، وهو أحسن منه وأعلى مقدارًا وأهلًا لكتمان الأسرار. وقد حدَّثْتُها بما بينك وبين أبي الحسن، وكيف توصَّلْتَ إليه وإلى علي بن بكار، وكيف سقطت تلك الرقعة مني ووقعتَ أنت عليها، وأخبرتها بما استقر عليه الأمر بيني وبينك. فتعجَّب الجوهري غاية العجب، ثم قالت له: إنها تشتهي أن تسمع كلامك لأجل أن تؤكد عليه فيما بينك وبينه من العهود، فاعزم في هذا الوقت على المسير معي إليها.

فلما سمع الجوهري كلام الجارية، رأى أن الدخول عليها أمر عظيم وخطر جسيم، لا يمكن الدخول فيه ولا التهجُّم عليه، فقال الجوهري للجارية: يا أختي، إني من أولاد العوام ولم أكن كأبي الحسن؛ لأن أبا الحسن كان رفيع المقدار، معروفًا بالاشتهار، مترددًا على دار الخلافة لاحتياجهم إلى بضاعته، وأما أنا فإن أبا الحسن كان يحدِّثني وأنا أرتعد بين يديه، وإذا كانت سيدتك رغبت في حديثي لها، فينبغي أن يكون ذلك في غير دار الخلافة، بعيدًا عن محل أمير المؤمنين؛ لأن جَناني لا يطاوعني على ما تقولين. ثم امتنع عن المسير معها، وصارت تتضمن له السلامة وتقول له: لا تخشَ ولا تَخَفْ. فبينما هما في هذا الكلام إذ لعبت رجلاه وارتعشت يداه، فقالت له الجارية: إن كان يصعب عليك الرواح إلى دار الخلافة، ولا يمكنك المسير معي، فأنا أجعلها تسير إليك، فلا تبرح من مكانك حتى أرجع إليك بها.

ثم إن الجارية مضت ولم تغب إلا قليلًا، وعادت إلى الجوهري وقالت له: احذر أن يكون عندك جارية أو غلام. فقال: ما عندي غير جارية سوداء كبيرة السن تخدمني. فقامت الجارية وأغلقت الأبواب بين جارية الجوهري وبينه، وصرفت غلمانه إلى خارج الدار، ثم خرجت الجارية وعادت ومعها جارية خلفها، ودخلت دار الجوهري فأعبقت الدار من الطيب، فلما رآها الجوهري نهض قائمًا ووضع لها مخدة، وجلس بين يديها، فمكثت ساعة لا تتكلم حتى استراحت، ثم كشفت وجهها فخُيِّل للجوهري أن الشمس أشرقت في منزله، ثم قالت لجاريتها: أهذا الرجل الذي قلتِ لي عليه؟ فقالت الجارية: نعم. فالتفتت إلى الجوهري وقالت له: كيف حالك؟ قال: بخير. ودعا لها، فقالت: إنك حمَّلتنا المسير إليك، وأن نطلعك على ما يكون من سر نائم. ثم سألته عن أهله وعياله، فأخبرها بجميع أحواله، وقال لها: إن لي دارًا غير هذه الدار جعلتها للاجتماع بالأصحاب والإخوان، وليس لي فيها إلا ما ذكرته لجاريتك. ثم سألته عن كيفية اطِّلاعه على أصل القصة، فأخبرها بما سألَتْه عنه من أول الأمر إلى آخره، فتأوَّهت على فراق أبي الحسن وقالت: يا فلان، اعلم أن أرواح الناس متلائمة في الشهوات، والناس بالناس، لا يتم عمل إلا بقول، ولا يتم غرض إلا بسعي، ولا تحصل راحة إلا بعد تعب … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٦٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شمس النهار قالت للجوهري: لا تحصل راحة إلا بعد تعب، ولا يظهر نجاح إلا من ذوي مروءة، وقد أَطْلَعتك الآن على أمرنا، وصار بيدك هتكنا وسترنا، ولا زيادة لما أنت عليه من المروءة، فأنت قد علمت أن جاريتي هذه كاتمة لسري، وبسبب ذلك لها رتبة عظيمة عندي، وقد اختصصتُها لمهمات أموري، فلا يكن عندك أعز منها، وأطلِعْها على أمرك، وطِبْ نفسًا فأنت آمِن ممَّا تخافه من جهتنا، وما يسدُّ عليك موضع إلا وتفتحه لك، وهي تأتيك من عندي بأخبار علي بن بكار، وتكون أنت الواسطة في التبليغ بيني وبينه. ثم إن شمس النهار قامت وهي لا تستطيع القيام، ومشت فتمشى بين يديها الجوهري حتى وصلت إلى باب الدار، ثم رجع وقعد في موضعه بعد أن نظر من حسنها ما بهره، وسمع من كلامها ما حيَّر عقله، وشاهد من ظُرفها وأدبها ما أدهشه، ثم استمر يتفكر في شمائلها حتى سكنت نفسه، وطلب الطعام فأكل ما يمسك رمقه، ثم غيَّرَ ثيابه وخرج من داره، وتوجَّه إلى علي بن بكار، فلاقاه غلمانه، ومشوا بين يديه إلى أن أوصلوه إلى سيدهم، فوجده ملقًى على فراشه، فلما رأى الجوهري قال له: أبطأت عليَّ فزدتني همًّا على همي. ثم صرف غلمانه وأمر بغلق أبوابه وقال له: والله ما غمضت عيني من يوم فارقتني، فإن الجارية جاءتني بالأمس ومعها رقعة مختومة من عند سيدتها شمس النهار. وحكى له ابن بكار على جميع ما وقع له معها، ثم قال: لقد تحيَّرت في أمري، وقلَّ صبري، وكان لي أبو الحسن أنيسًا؛ لأنه يعرف الجارية. فلما سمع الجوهري كلام ابن بكار ضحك، فقال له ابن بكار: كيف تضحك من كلامي، وقد استبشرت بك واتَّخذتك عدةً للنائبات؟ ثم بكى، وأنشد هذه الأبيات:

وَضَاحِكٍ مِنْ بُكَائِي حِينَ أَبْصَرَنِي　　　لَوْ كَانَ قَاسَى الَّذِي قَاسَيْتُ أَبْكَاهُ

لَمْ يَرْثِ لِلْمُبْتَلَى مِمَّا يُكَابِدُهُ إِلَّا شَجٍ مِثْلُهُ قَدْ طَالَ بَلْوَاهُ
وَجْدِي حَنِينِي أَنِينِي فِكْرَتِي وَلَهِي إِلَى حَبِيبٍ زَوَايَا الْقَلْبِ مَأْوَاهُ
حَلَّ الْفُؤَادَ مُقِيمًا لَا يُفَارِقُهُ وَقْتًا وَلَكِنَّهُ قَدْ عَزَّ لُقْيَاهُ
مَا لِي سِوَاهُ خَلِيلٌ أَرْتَضِي بَدَلًا وَمَا اصْطَفَيْتُ حَبِيبًا قَطُّ إِلَّاهُ

فلما سمع الجوهري منه هذا الكلام، وفهم الشعر والنظام، بكى لبكائه، وأخبره بما جرى له مع الجارية من حين فارقه، فصار ابن بكار يصغي إلى كلامه، وكلما سمع منه كلمة يتغيَّر لون وجهه من صفرة إلى احمرار، ويقوى جسمه مرةً ويضعف أخرى، فلما انتهى إلى آخِر الكلام بكى ابن بكار، وقال له: يا أخي، أنا على كل حال هالك، فليت أجلي قريب! وأسألك من فضلك أن تكون ملاطفي في جميع أموري إلى أن يريد الله بما يريد، وأنا لا أخالف لك قولًا. فقال له الجوهري: لا يطفئ عنك هذه النار إلا الاجتماع بمَن شغفتَ بها، ولكن في غير هذا المكان الخطير، وإنما يكون ذلك عندي في بيت جنب بيتي، جاءتني إليه الجارية هي وسيدتها، وهو الموضع الذي اختارته لنفسها، والمقصود اجتماعكما ببعضكما، وفيه تشكوان لبعضكما ما قاسيتما. فقال علي بن بكار: افعل ما تريد، والذي تراه هو الصواب. قال الجوهري: فأقمتُ عنده تلك الليلة أسامره إلى أن أصبح الصباح.

فلما كانت الليلة ١٦٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجوهري قال: فأقمت تلك الليلة عند علي بن بكار أسامره إلى أن أصبح الصباح، ثم صليت الصبح، وخرجت من عنده وذهبت إلى منزلي، فما استقررت إلا قليلًا حتى جاءت الجارية وسلَّمت عليَّ، فرددتُ عليها السلام، وحدَّثْتُها بما كان بيني وبين علي بن بكار، فقالت الجارية: اعلم أن الخليفة توجه من عندنا، وأن مجلسنا لا أحدَ فيه، وهو أستر لنا وأحسن. فقلتُ لها: كلامك صحيح، ولكنه ليس كمنزلي هذا، فإنه أستر لنا وأليق بنا. فقالت الجارية: إن الرأي ما تراه أنت، وأنا ذاهبة إلى سيدتي لأخبرها بما ذكرتَ، وأعرض عليها ما قلتَ.

ثم إن الجارية توجَّهَتْ إلى سيدتها، وعرضت عليها الكلام، وعادت إلى منزلي وقالت لي: إن سيدتي رضيت بما قلته. ثم إن الجارية أخرجت من جيبها كيسًا فيه دنانير، وقالت لي: إن سيدتي تسلم عليك، وتقول لك: خذ هذا، واقضِ لنا به ما نحتاج إليه. فأقسمت أني لا أصرف شيئًا منه، فأخذَتْه الجارية وعادت إلى سيدتها، وقالت لها: إنه ما قَبِل الدراهم بل دفعها إليَّ. وبعد رواح الجارية ذهبتُ إلى داري الثانية، وحوَّلتُ إليها من الآلات والفرش ما تحتاج إليه الحال، ونقلتُ إليها أواني الفضة والصيني، وهيأت جميع ما نحتاج إليه من المأكل والمشرب. فلما حضرت الجارية ونظرت ما فعلتُه أعجبها، وأمرتني بإحضار علي بن بكار، فقلت: ما يحضر به إلا أنتِ. فذهبَتْ إليه وأحضرَتْه على أتم حال، وقد راقت محاسنه، فلما جاء قابلتُه ورحَّبتُ به، وأجلستُه على مرتبة تصلح له، ووضعت بين يديه شيئًا من المشموم في بعض الأواني الصيني والبلَّور، وصرت أتحدث معه نحو ساعة من الزمان، ثم إن الجارية مضت، وغابت إلى بعد صلاة المغرب، ثم عادت ومعها شمس النهار ووصيفتان لا غير، فلما رأت علي بن بكار ورآها سقطَا على الأرض مغشيًّا عليهما، واستمرَّا لساعة زمانية، ولما أفاقا أقبلَا على بعضهما، ثم جلسا يتحدثان بكلام رقيق، وبعد

ذلك استعملَا شيئًا من الطيب، ثم إنهما صارا يشكران صنعي معهما، فقلت لهما: هل لكما في شيء من الطعام؟ فقالا: نعم. فأحضرت شيئًا من الطعام، فأكلا حتى اكتفيا، ثم غسلا أيديهما، ثم نقلتهما إلى مجلس آخَر، وأحضرت لهما الشراب، فشربَا وسكرَا ومالَا على بعضهما، ثم إن شمس النهار قالت لي: يا سيدي، كمل جميلك، وأحضر لنا عودًا وشيئًا من آلات الملاهي حتى إننا نكمل حظنا في هذه الساعة. فقلت: على رأسي وعيني. ثم إني قمتُ وأحضرتُ عودًا، فأخذته وأصلحته، ثم إنها وضعته في حجرها، وضربت عليه ضربًا جميلًا، ثم أنشدت هذين البيتين:

أَرِقْتُ حَتَّى كَأَنِّي أَعْشَقُ الْأَرَقَا ... وَذُبْتُ حَتَّى تَرَاءَى السَّقْمُ لِي خُلُقَا
وَفَاضَ دَمْعِي عَلَى خَدِّي فَأَحْرَقَهُ ... يَا لَيْتَ شِعْرِيَ هَلْ بَعْدَ الْفِرَاقِ لِقَا

ثم إنها أخذت في غناء الأشعار حتى حيَّرت الأفكار، بأصوات مختلفات، وإشارات رائقات، وكاد المجلس أن يطير من شدة الطرب، بما أتت فيه من مغانيها بالعجب، ثم قال الجوهري: ولما استقرَّ بنا الجلوس، ودارت بيننا الكئوس، أطربت الجارية بالنغمات، وأنشدت هذه الأبيات:

وَعَدَ الْحَبِيبُ بِوَصْلِهِ وَوَفَى لِي ... فِي لَيْلَةٍ سَأَعُدُّهَا بِلَيَالِي
يَا لَيْلَةً سَمَحَ الزَّمَانُ لَنَا بِهَا ... فِي غَفْلَةِ الْوَاشِينَ وَالْعُذَّالِ
بَاتَ الْحَبِيبُ يَضُمُّنِي بِيَمِينِهِ ... مِنْ فَرْحَتِي فَضَمَمْتُهُ بِشِمَالِ
عَانَقْتُهُ وَرَشَفْتُ خَمْرَةَ رِيقِهِ ... وَحَظِيتُ بِالْمَعْسُولِ وَالْعَسَّالِ

ثم إن الجوهري تركهما في تلك الدار وانصرف إلى دار سكناه، وبات فيها إلى الصباح، ولما أصبح الصبح صلى فرضه، وشرب القهوة، وجلس يفكر في المسير إليهما في داره الثانية؛ فبينما هو جالس إذ دخل عليه جاره وهو مرعوب، وقال: يا أخي، ما هان عليَّ الذي جرى لك الليلة في دارك الثانية. فقلت له: يا أخي، وأي شيء جرى؟ فأخبرني بما حصل في داري. فقال له: إن اللصوص الذين جاءوا إلى جيراننا بالأمس وقتلوا فلانًا وأخذوا ماله، قد رأوك بالأمس وأنت تنقل حوائجك إلى دارك الثانية، فجاءوا إليها ليلًا، وأخذوا ما عندك، وقتلوا ضيوفك. قال الجوهري: فقمتُ أنا وجاري، وتوجَّهْنا إلى تلك الدار فوجدناها خاليةً، ولم يَبْقَ فيها شيء، فتحيَّرْتُ في أمري، وقلت: أمَّا الأمتعة فلا أبالي بضياعها، وإنْ

كنتُ استعرتُ بعضَ أمتعة من أصحابي وضاعت فلا بأس بذلك؛ لأنهم عرفوا عذري بذهاب مالي، ونهب داري، وأما علي بن بكار ومحظية أمير المؤمنين، فأخشى أن يشتهر الأمر بينهما، فيكون ذلك سبب رواح روحي. ثم إن الجوهري التفت إلى جاره، وقال له: أنت أخي وجاري، وتستر عورتي، فما الذي تشير به عليَّ من الأمور؟ فقال الرجل للجوهري: الذي أشير به عليك أن تتربص، فإن الذين دخلوا دارك وأخذوا متاعك قد قتلوا أحسن جماعة من دار الخليفة، وقتلوا جماعة من دار صاحب الشرطة، وأعوان الدولة يدوِّرون عليهم في جميع الطرق، فلعلهم يجدونهم فيحصل مرادك بغير سعي منك. فلما سمع الجوهري هذا الكلام رجع إلى داره التي هو ساكن بها … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٦٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري لما سمع هذا الكلام رجع إلى داره التي هو ساكن بها، وقال في نفسه: إن الذي حصل لي هو الذي خاف منه أبو الحسن وذهب إلى البصرة، وقد وقعت فيه. ثم إنَّ نهْبَ داره اشتهر عند الناس، فأقبلوا إليه من كل جانب ومكان، فمنهم مَن هو شامت ومنهم مَن هو حامل همَّه، فصار يشكو لهم، ولم يأكل طعامًا ولم يشرب شرابًا؛ فبينما هو جالس متندم، وإذا بغلام من غلمانه دخل عليه وقال له: إن شخصًا بالباب يدعوك لم أعرفه. فخرج إليه الجوهري وسلَّم عليه ووجده إنسانًا لم يعرفه، فقال له الرجل: إن لي حديثًا بيني وبينك. فأدخله الدار وقال له: ما عندك من الحديث؟ فقال الرجل: امضِ معي إلى دارك الثانية. فقال الجوهري: وهل تعرف داري الثانية؟ فقال: إن جميع خبرك عندي، وعندي أيضًا ما يفرج الله به همك. فقلت في نفسي: أنا أمضي معه حيث أراد. ثم توجهت إلى أن أتينا الدار، فلما رأى الرجل الدار قال: إنها بغير بواب، ولا يمكن القعود فيها، فامضِ معي إلى غيرها.

فلم يزل الرجل يدور بي من مكان إلى مكان وأنا معه حتى دخل علينا الليل، ولم أسأله عن أمر من الأمور، ثم إنه لم يزل يمشي وأنا أمشي معه حتى خرجنا إلى الفضاء وهو يقول: اتبعني. وصار يهرول في مشيه، وأنا أهرول وراءه حتى وصلنا إلى البحر، فطلع بنا في زورق وقذف بنا الملاح حتى عدَّانا إلى البر الثاني، فنزل من ذلك الزورق ونزلت خلفه، ثم إنه أخذ بيدي ونزل بي في درب لم أدخله طول عمري، ولم أعلم هو في أي ناحية، ثم إن الرجل وقف على باب دار وفتحها ودخل وأدخلني معه، وأغلق بابها بقفل من حديد، ثم مشى بي في دهليزها حتى دخلنا على عشرة رجال كأنهم رجل واحد، وهم إخوة، فلما دخلنا عليهم سلَّم عليهم ذلك الرجل، فردوا عليه السلام، ثم أمروني بالجلوس فجلست، وكنت ضعفت من شدة التعب، فجاءوا إليَّ بماء ورد ورشُّوه على وجهي، وسقوني شرابًا،

وقدموا إليَّ طعامًا، فقلت: لو كان في الطعام شيء مضرٌّ ما أكلوا معي. فلما غسلنا أيدينا عاد كلٌّ منا إلى مكانه، وقالوا: هل تعرفنا؟ فقلت: لا، ولا عمري عرفت موضعكم، بل ولا أعرف مَن جاء بي إليكم. فقالوا: أطلِعْنا على خبرك ولا تكذب في شيء. فقلت لهم: اعلموا أن حالي عجيب، وأمري غريب، فهل عندكم شيء من خبري؟ قالوا: نعم، نحن الذين أخذنا أمتعتك في الليلة الماضية، وأخذنا صديقك والتي كانت تغني. فقلت لهم: أسبل الله عليكم ستره، أين صديقي هو والتي كانت تغني؟ فأشاروا لي بأيديهم إلى ناحية، وقالوا: ها هنا، ولكن والله يا أخي ما ظهر على سرِّهما أحدٌ منَّا، ومن حيث أتينا بهما لم نجتمع بهما، ولم نسألهما عن حالهما؛ لما رأينا عليهما من الهيبة والوقار، وهذا هو الذي منعنا عن قتلهما، فأخبرنا عن حقيقة أمرهما، وأنت في أمان على نفسك وعليهما. قال الجوهري: فلما سمعت هذا الكلام كدت أن أهلك من الخوف والفزع، وقلت لهم: اعلموا أن المروءة إذا ضاعت لا توجد إلا عندكم، وإذا كان عندي سرٌّ أخاف إفشاءه فلا يخفيه إلا صدوركم. وصرت أبالغ في هذا المعنى، ثم إن وجدت المبادرة لهم بالحديث أنفع من كتمانه، فحدَّثتهم بجميع ما وقع لي حتى انتهيت إلى آخر الحديث.

فلما سمعوا حكايتي قالوا: وهل هذا الفتى علي بن بكار، وهذه شمس النهار؟ فقلت لهم: نعم. فذهبوا إليهما، واعتذروا لهما، ثم قالوا لي: إن الذي أخذناه من دارك ذهب بعضه، وهذا ما بقي منه. ثم ردوا إليَّ أكثر الأمتعة، والتزموا أنهم يعيدونها إلى محلها في داري، ويردُّون لي الباقي، ولكنهم انقسموا نصفين: فصار قسم منهم معي، وقسم منهم عليَّ، ثم خرجنا من تلك الدار.

هذا ما كان من أمري، وأما ما كان من أمر علي بن بكار وشمس النهار؛ فإنهما قد أشرفا على الهلاك من الخوف، ثم تقدَّمت إلى علي بن بكار وشمس النهار، وسلمت عليهما، وقلت لهما: يا ترى ما جرى للجارية والوصيفتين؟ وأين ذهبن؟ فقالا: لا علم لنا بهن. ولم نزل سائرين إلى أن انتهينا إلى المكان الذي فيه الزورق، فأطلعونا فيه، وإذا هو الزورق الذي عدَّينا فيه بالأمس، فقذف بنا الملاح حتى أوصلنا إلى البر الثاني فأنزلونا، فما استقر بنا الجلوس على جانب البر حتى جاءت خيالة، وأحاطوا بنا من كل جانب، فوثب الذين معنا عاجلًا كالعقاب، فرجع لهم الزورق فنزلوا فيه وسار بهم في البحر، وبقيت أنا وعلي بن بكار وشمس النهار على شاطئ البحر لا نستطيع حركة ولا سكونًا، فقال لنا الخيالة: من أين أنتم؟ فتحيرنا في الجواب، قال الجوهري: فقلت لهم: إن الذين رأيتموهم معنا لا نعرفهم، وإنما رأيناهم هنا، وأما نحن فمغنيون، وأرادوا أخذنا لنغني

لهم، فما تخلَّصنا منهم إلا بالحيلة ولين الكلام، فأفرجوا عنا في هذه الساعة، وقد كان منهم ما رأيتم من أمرهم.

فنظر الخيالة إلى شمس النهار وإلى علي بن بكار، ثم قالوا لي: لستَ صادقًا في كلامك، فإن كنتَ صادقًا فأخبرنا مَن أنتم؟ ومَن أين أنتم؟ وما موضعكم؟ وفي أي الحارات أنتم ساكنون؟ قال الجوهري: فلم أدرِ ما أقول. فوثبَتْ شمس النهار، وتقدمت إلى مقدِّم الخيالة، وتحدثت معه سرًّا، فنزل من فوق جواده وأركبها عليه، وأخذ بزمامها وصار يقودها، وكذلك فعل بعلي بن بكار، وفعل بي أيضًا، ثم إن مقدم الخيالة لم يزل سائرًا بنا إلى موضع على جانب البحر، وصاح بالرطانة، فأقبل له جماعة من البرية فطلَّعنا المقدم في زورق، وطلَّع أصحابه في زورق آخر، وقذفوا بنا إلى أن انتهينا إلى دار الخلافة، ونحن نكابد الموت من شدة الخوف، ولم نزل سائرين إلى أن انتهينا إلى المحل الذي نتوصَّل منه إلى موضعنا. فنزلنا إلى البر ومشينا، ومعنا جماعة من خيالة يؤانسوننا إلى أن دخلنا الدار، وحين دخلناها ودَّعَنا مَن كان معنا من الخيالة، ومضوا إلى حال سبيلهم، وأما نحن فقد دخلنا مكاننا ونحن لا نقدر أن نتحرك من مكاننا، ولا ندري الصباح من المساء، ولم نزل على هذه الحالة إلى أن أصبح الصباح، فلما جاء آخر النهار سقط علي بن بكار مغشيًّا عليه، وبكى عليه النساء والرجال، وهو مطروح لم يتحرك، فجاءني بعض أهله وقالوا: حدِّثنا بما جرى لولدنا، وأخبرنا بسبب الحال الذي هو فيه. فقلت لهم: يا قوم اسمعوا كلامي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٦٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري قال لهم: يا قوم اسمعوا كلامي ولا تفعلوا بي مكروهًا، واصبروا وهو يفيق ويخبركم بقصته بنفسه. ثم شددت عليهم وخوَّفتهم من الفضيحة بيني وبينهم، فبينما نحن كذلك وإذا بعلي بن بكار تحرَّك في فراشه، ففرح أهله وانصرف الناس عنه، ومنعني أهله من الخروج من عنده، ثم رشوا ماء الورد على وجهه، فلما أفاق وشمَّ الهواء، صاروا يسألونه عن حاله، فصار يخبرهم ولسانه لا يرد جوابًا بسرعة، ثم أشار إليهم أن يطلقوني لأذهب إلى منزلي، فأطلقوني فخرجت وأنا لا أصدق بالخلاص، وأتيت إلى داري وأنا بين رجلين حتى وصلت إلى أهلي، فلما رأوني على تلك الحالة لطموا على وجوههم، فأومأتُ إليهم بيدي أن اسكتوا، فسكتوا، وانصرف الرجلان إلى حال سبيلهم، وانقلبت على فراشي بقية ليلتي ولم أفق إلى وقت الضحى، فوجدت أهلي مجتمعين حولي يقولون: ما الذي دهاك وبشرِّه رماك؟ فقلت: ائتوني بشيء من الشراب. فجاءوا لي بشراب شربت منه حتى استكفيت، ثم قلت لهم: كان ما كان فانصرفوا إلى حال سبيلهم. ثم اعتذرت إلى أصحابي وسألتهم عن الذي ذهب من داري، هل عاد شيء منه؟ فقالوا: عاد البعض، وسببه أنه جاء إنسان ورماه في باب الدار ولم ننظره.

فسليت نفسي وأقمت في مكاني يومين وأنا لا أقدر على القيام من محلي، ثم قويت نفسي ومشيت حتى دخلت الحمام وأنا قلبي مشغول من جهة ابن بكار وشمس النهار، ولم أسمع لهما خبرًا في تلك المدة، ولم أستطع الوصول إلى دار علي بن بكار، ولم يستقر لي قرار في مكاني خوفًا على نفسي، ثم تبت إلى الله تعالى عما صدر مني وحمدته على سلامتي. وبعد مدة حدثتني نفسي أن أقصد تلك الناحية وأرجع في ساعة، فلما أردت المسير رأيت امرأة واقفة، فتأملتها وإذا هي جارية شمس النهار، فلما عرفتها سرت وهرولت في سيري، فتبعتني فداخلني منها الفزع، وصرت كلما أنظرها يأخذني الرعب

منها وهي تقول لي: قف حتى أحدِّثك بشيء. لم ألتفت إليها، ولم أزل سائرًا إلى مسجد في موضع خالٍ من الناس، فقالت لي: ادخل هذا المسجد لأقول لك كلمة، ولا تخف من شيء. وحلَّفتني، فدخلت المسجد ودخلت خلفي، فصليت ركعتين، ثم تقدَّمْتُ إليها وأنا أتأوَّه، وقلت لها: ما بالك؟ فسألتني عن حالي، فحدَّثتها بما وقع لي، وأخبرتها بما جرى لعلي بن بكار، وقلت لها: ما خبرك؟ فقالت: اعلم أني لما رأيت الرجال كسروا باب دارك ودخلوا، خفت منهم وخشيت أن يكونوا من عند الخليفة فيأخذوني أنا وسيدتي فنهلك من وقتنا، فهربت من السطوح أنا والوصيفتان، ورمينا أنفسنا من مكان عالٍ، ودخلنا على قوم فهربنا عندهم حتى وصلنا إلى قصر الخلافة، ونحن على أقبح صفة، ثم أخفينا أمرنا، وصرنا نتقلب على الجمر إلى أن جنَّ الليل، ففتحت باب البحر، واستدعيت الملاح الذي أخرجنا تلك الليلة، وقلت له: إن سيدتي لم نعلم لها خبرًا، فاحملني في الزورق حتى أفتش عليها في البحر؛ لعلي أقع على خبرها. فحملني في الزورق وسار بي، ولم أزل سائرة في البحر حتى انتصف الليل، فرأيت زورقًا أقبل إلى جهة الباب وفيه رجل يجدف، ومعه رجل آخر، وامرأة مطروحة بينهما، وما زال يجدف حتى وصل إلى البر، فلما نزلت المرأة تأملتها فإذا هي شمس النهار، فنزلت إليها وقد اندهشت من الفرحة لما رأيتها بعدما قطعتُ الرجاء منها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٦٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت للجوهري: فنزلت إليها وقد اندهشت من الفرح بعد أن قطعتُ الرجاء منها، فلما تقدمت بين يديها أمرتني أن أدفع إلى الرجل الذي جاء بها ألف دينار، ثم حملتها أنا والوصيفتان إلى أن ألقيناها على فراشها، فأقامت تلك الليلة على حالة مكدرة، فلما أصبح الصباح منعت الجواري والخدم من الدخول عليها والوصول إليها ذلك اليوم، وفي ثاني يوم أفاقت مما كان بها، فوجدتها كأنها قد خرجت من مقبرة، فرششت على وجهها ماء الورد، وغيرت ثيابها، وغسلت يديها ورجليها، ولم أزل ألاطفها حتى أطعمتها شيئًا من الطعام، وأسقيتها شيئًا من الأشربة، وهي ليس لها قابلية في شيء من ذلك، فلما شمت الهواء وتوجهت إليها العافية، قلت لها: يا سيدتي، ارفقي بنفسك فقد حصل لك من المشقة ما فيه الكفاية؛ فإنك قد أشرفت على الهلاك. فقالت: والله يا جارية الخير، إن الموت عندي أهون مما جرى لي، فإني كنت مقتولة لا محالة؛ لأن اللصوص لما خرجوا بنا من دار الجوهري سألوني وقالوا: من أنتِ؟ وما شأنك؟ فقلت: أنا جارية من المغنيات. فصدقوني، ثم سألوا علي بن بكار عن نفسه، وقالوا: مَن أنتَ؟ وما شأنك؟ فقال: أنا من عوام الناس. فأخذونا وسرنا معهم إلى أن انتهوا بنا إلى موضعهم، ونحن نسرع في السير معهم من شدة الخوف، فلما استقروا بنا في أماكنهم، تأملوني ونظروا ما عليَّ من الملبوس والعقود والجواهر، فأنكروا أمري وقالوا: إن هذه العقود لا تكن لواحدة من المغنيات. ثم قالوا لي: اصدقينا وقولي لنا الحق، ما قضيتك؟ فلم أرد عليهم جوابًا بشيء، وقلت في نفسي: الآن يقتلونني لأجل ما عليَّ من الحلي والحلل. فلم أنطق بكلمة.

ثم التفتوا إلى علي بن بكار وقالوا له: من أين أنتَ، فإن رؤيتك غير رؤية العوام؟ فسكت، وصرنا نكتم أمرنا ونبكي، فحنن الله علينا قلوب اللصوص، فقالوا لنا: مَن صاحب

الدار التي كنتما فيها؟ فقلنا لهم: صاحبها فلان الجوهري. فقال واحد منهم: أنا أعرفه حق المعرفة، وأعرف أنه ساكن في داره الثانية، وعليَّ أن آتيكم به في هذه الساعة. واتفقوا على أن يجعلوني في موضع وحدي، وعلي بن بكار في موضع وحده، وقالوا لنا: استريحَا ولا تخافَا أن ينكشف خبركما، وأنتما في أمان. ثم إن صاحبهما مضى إلى الجوهري، وأتى به، وكشف أمرنا لهم، واجتمعنا عليه. ثم إن رجلًا منهم أحضر لنا زورقًا وأطلعونا فيه، وعدَّوا بنا إلى الجانب الثاني، ورمونا إلى البر وذهبوا؛ فأتت خيالة من أصحاب العسس وقالوا: مَن تكونون؟ فتكلمت مع مقدم العسس، وقلت له: أنا شمس النهار محظية الخليفة، فإني سكرت وخرجت لبعض معارفي من نساء الوزراء، فجاءني اللصوص وأخذوني وأوصلوني إلى هذا المكان، فلما رأوكم فرُّوا هاربين، وأنا قادرة على مكافأتك. فلما سمع كلامي مقدم الخيالة عرفني، ونزل عن مركوبه وأركبني، وفعل كذلك مع علي بن بكار والجوهري، وفي كبدي الآن من أجلهما لهيب النار، لا سيما الجوهري رفيق ابن بكار، فامضي إليه وسلمي عليه، واستخبريه عن علي بن بكار، فلمتها على ما وقع وحذَّرتها وقلت لها: يا سيدتي، خافي على نفسك. فصاحت عليَّ وغضبت من كلامي، ثم قمت من عندها وجئت إليك فلم أجدك، وخشيت من الرواح إلى ابن بكار، فصرت واقفة أرتقبك حتى أسألك عنه، وأعلم ما هو فيه، فأسألك من فضلك أن تأخذ مني شيئًا من المال، فإنك ربما استعرت أمتعة من أصحابك، وضاعت عليك، فتحتاج أن تعوض على الناس ما ذهب لهم من الأمتعة عندك. قال الجوهري: فقلت سمعًا وطاعة، ثم مشيت معها إلى أن أتينا إلى قرب محلي، فقالت لي: قف هنا حتى أعود إليك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٦٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت للجوهري: قف هنا حتى أعود إليك. ومضت ثم عادت وهي حاملة المال، فأعطته للجوهري وقالت له: يا سيدي، نجتمع بك في أي محل؟ قال الجوهري: فقلت لها أتوجه إلى داري في هذه الساعة، ونتحمَّل الصعوبة لأجل خاطرك، وأتدبر فيما يوصلك إليه، فإنه يتعذر الوصول إليه في هذا الوقت. ثم ودعتني ومضت، فحملت المال وأتيت به إلى منزلي، وعددت المال فوجدته خمسة آلاف دينار، فأعطيت أهلي منه شيئًا، ومَن كان له عندي شيء أعطيته عوضًا عنه، ثم إني أخذت غلماني وذهبت إلى الدار التي ضاعت منها الأمتعة، وجئت بالنجارين والبنائين فأعادوها إلى ما كانت عليه، وجعلت جاريتي فيها، ونسيت ما جرى لي، ثم تمشيت وأتيت إلى دار علي بن بكار، فلما وصلت إليها أقبل غلمانه عليَّ، وقال لي واحد منهم: إن غلمان سيدي في طلبك ليلًا ونهارًا، ووعدهم أن كلَّ مَن أتاه بك يعتقه، فهم يفتشون عليك، ولم يعرفوا لك موضعًا، وقد رجعَتْ إلى سيدي عافيته، وهو تارةً يفيق وتارةً يستغرق، فلما يفيق يذكرك، ويقول: لا بد أن تحضروه لي لحظة ويعود إلى حال سبيله. قال الجوهري: فمضيت مع الغلام إلى سيده، فوجدته لا يستطيع الكلام، فلما رأيته جلست عند رأسه ففتح عينيه، فلما رآني بكى وقال لي: أهلًا ومرحبًا. ثم سندته وأجلسته وضممته إلى صدري، فقال لي: اعلم يا أخي أني من حين رقدت ما جلست إلا في هذه الساعة، فالحمد لله على مشاهدتك. قال الجوهري: فلم أزل أسنده حتى أوقفته على رجلَيْه، ومشَّيته خطوات، وغيَّرت أثوابه وشرب شرابًا، فلما رأيت عليه علامة العافية، حدَّثته بما كان من الجارية ولم يسمعني أحد. ثم قلت له: شد حيلك فأنا أعرف ما بك. فتبسم، فقلت له: إنك لا تجد إلا ما يسرك ويداويك.

ثم إن علي بن بكار أمر بإحضار الطعام فأحضروه، وأشار إلى غلمانه فتفرقوا، ثم قال لي: يا أخي، هل رأيت ما أصابنا؟ واعتذر لي وسألني عن حالي في هذه المدة، فأخبرته بجميع ما جرى لي من الأول إلى الآخر، فتعجب ثم قال للخدم: ائتوني بكذا. فأتوه بفرش نفيس، وغير ذلك من تعاليق الذهب والفضة أكثر من الذي ضاع لي، وأعطاني جميع ذلك، فأرسلته إلى منزلي وأقمت عنده ليلتي. فلما أسفر الصبح قال لي: اعلم أن لكل شيء نهاية، ونهاية الهوى الموت والوصال، وأنا إلى الموت أقرب، فيا ليتني مت قبل الذي جرى، ولولا أن الله لطف بنا لافتضحنا، ولا أدري ما الذي يوصلني إلى الخلاص مما أنا فيه، ولولا خوفي من الله لعجلت على نفسي بالهلاك، واعلم يا أخي أنني كالطير في القفص، وأن نفسي هالكة من الغصص، ولكن لها وقت معلوم، وأجل محتوم. ثم أفاض دمع العين، وأنشد هذين البيتين:

شَكَا أَلَمَ الْفِرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي وَرُوِّعَ بِالنَّوَى حَيٌّ وَمَيْتُ
وَأَمَّا مِثْلُ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي فَإِنِّي مَا سَمِعْتُ وَلَا رَأَيْتُ

فلما فرغ من شعره قال له الجوهري: يا سيدي، اعلم أني عزمت على الذهاب إلى داري، فلعل الجارية ترجع إليَّ بخبر. فقال علي بن بكار: لا بأس بذلك، ولكن أسرع بالعود لعندنا لأجل أن تخبرني. قال الجوهري: فودعته وانصرفت إلى داري، فلم يستقر بي الجلوس حتى رأيت الجارية أقبلت، وهي في بكاء ونحيب، فقلت لها: ما سبب ذلك؟ فقالت: يا سيدي، اعلم أنه حل بنا ما حل من أمرٍ نخافه، فإني لما مضيت من عندك بالأمس وجدت سيدتي مغتاظة على وصيفة من الوصيفتين اللتين كانتا معنا تلك الليلة، وأمرت بضربها، فخافت من سيدتها وهربت، فلاقاها بعض الموكلين بالباب، فأخذها وأراد ردَّها إلى سيدتها، فلوحت له بالكلام، فلاطفها واستنطقها عن حالها، فأخبرته بما كنا فيه، فبلغ الخبر إلى الخليفة فأمر بنقل سيدتي شمس النهار وجميع ما لها إلى دار الخلافة، ووكَّل بها عشرين خادمًا، ولم أجتمع بها إلى الآن، ولم أُعلِمها بالسبب، وتوهمت أنه بسبب ذلك، فخشيت على نفسي واحترت، ولم أدرِ كيف أحتال في أمري وأمرها، ولم يكن عندها أحفظ لكتمان السر مني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٦٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت للجوهري: إن سيدتي لم يكن عندها أحفظ لكتمان السر مني، فتوجه يا سيدي إلى علي بن بكار سريعًا، وأخبره بذلك؛ لأجل أن يكون على أهبة، فإذا انكشف الأمر نتدبر في شيء نفعله لنجاة أنفسنا. قال الجوهري: فأخذني من ذلك همٌّ عظيم، وصار الكون في وجهي ظلامًا من كلام الجارية، وهمَّت الجارية بالانصراف، فقلت لها: وما الرأي؟ فقالت لي: الرأي أن تبادر إلى علي بن بكار إنْ كان صديقك وتريد له النجاة، وأنت عليك تبليغ هذا الخبر له بسرعة، وأنا عليَّ أن أتقيد باستنشاق الأخبار. ثم ودعتني وخرجت. فلما خرجت الجارية قمت وخرجت في إثرها، وتوجَّهت إلى علي بن بكار فوجدته يحدِّث نفسه بالوصال، ويعلِّلها بالمحال، فلما رآني رجعت إليه عاجلًا قال لي: إني أراك رجعت إليَّ في الحال. فقلت له: أقصر من التعلق المطال، ودَعْ ما أنت فيه من الاشتغال، فقد حدث حادث يفضي إلى تلف نفسك ومالك. فلما سمع هذا الكلام تغيَّر حاله، وانزعج وقال للجوهري: يا أخي، أخبرني بما وقع. فقال له الجوهري: يا سيدي، اعلم أنه قد جرى ما هو كذا وكذا، وأنك إن أقمت في دارك هذه إلى آخر النهار فأنت تالف ولا محالة. فبُهت علي بن بكار، وكادت روحه أن تفارق جسده، ثم استرجع بعد ذلك، وقال له: ماذا أفعل يا أخي، وما عندك من الرأي؟ قال الجوهري: فقلت له: الرأي أن تأخذ معك من مالك ما تقدر عليه، ومن غلمانك مَن تثق به، وأن تمضي بنا إلى ديار غير هذه قبل أن ينقضي هذا النهار. فقال لي: سمعًا وطاعة.

ثم وثب وهو متحيِّر في أمره، فتارةً يمشي وتارةً يقع، وأخذ ما قدر عليه واعتذر إلى أهله وأوصاهم بمقصوده، وأخذ معه ثلاثة جمال محملة وركب دابته، وقد فعلت أنا كما فعل، ثم خرجنا خفية وسرنا، ولم نزل سائرين باقي يومنا وليلتنا، فلما كان آخر الليل حططنا حمولنا، وعَقَلنا جمالنا ونمنا، فحلَّ علينا التعب، وغفلنا عن أنفسنا، وإذا باللصوص أحاطوا

بنا، وأخذوا جميع ما كان معنا، وقتلوا الغلمان لما أرادوا أن يمنعوا عنَّا، ثم تركونا مكاننا، ونحن في أقبح حال بعد أن أخذوا المال وساروا، فلما قمنا مشينا إلى أن أصبح الصباح، فوصلنا إلى بلد فدخلناه وقصدنا مسجده ونحن عرايا، وجلسنا في جنب المسجد باقي يومنا، فلما جاء الليل بتنا في المسجد تلك الليلة، ونحن من غير أكل ولا شرب، فلما أصبح الصباح صلينا الصبح وجلسنا، وإذا برجل داخل فسلم علينا، وصلى ركعتين ثم التفت إلينا وقال: يا جماعة، هل أنتم غرباء؟ قلنا: نعم، وقطع اللصوص علينا الطريق وعرَّونا، ودخلنا هذا البلد ولا نعرف فيه أحدًا نأوي عنده. فقال لنا الرجل: هل لكم أن تقوموا معي إلى داري؟ قال الجوهري: فقلت لعلي بن بكار: قم بنا معه فننجو من أمرين؛ الأول: أننا نخشى أن يدخل علينا أحد يعرفنا في هذا المسجد فنفتضح، والثاني: أننا ناس غرباء، وليس لنا مكان نأوي إليه. فقال علي بن بكار: افعل ما تريد. ثم إن الرجل قال لنا ثاني مرة: يا فقراء أطيعوني وسيروا معي إلى مكاني. قال الجوهري: فقلت له: سمعًا وطاعة.

ثم إن الرجل خلع لنا شيئًا من ثيابه وألبسنا ولاطفنا، فقمنا معه إلى داره فطرق الباب فخرج إلينا خادم صغير وفتح الباب، فدخل الرجل صاحب المنزل ودخلنا خلفه، ثم إن الرجل أمر بإحضار بقجة فيها أثواب وشاشات، فألبسنا حلَّتين وأعطانا شاشين، فتعمَّمنا وجلسنا، وإذا بجارية أقبلت إلينا بمائدة، ووضعتها بين أيدينا فأكلنا شيئًا يسيرًا، ورفعت المائدة، ثم أقمنا عنده إلى أن دخل الليل فتأوَّه علي بن بكار، وقال للجوهري: يا أخي، اعلم أنني هالك لا محالة، وأريد أن أوصيك وصية، وهي أنك إذا رأيتني مت تذهب إلى والدتي، وتخبرها أن تأتي إلى هذا المكان؛ لأجل أن تأخذ عزائي، وتحضر غسلي، وأوصها أن تكون صابرة على فراقي. ثم وقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق سمع جارية تغني من بعيد وتنشد الأشعار، فصار يصغي إليها ويسمع صوتها، وهو تارةً يسكر، وتارةً يصحو، وتارةً يبكي شجنًا وحزنًا مما أصابه، فسمع الجارية تطرب بالنغمات، وتنشد هذه الأبيات:

عَجَّلَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا بِالْفِرَاقِ بَعْدَ إِلْفٍ وَجِيرَةٍ وَاتِّفَاقِ
فَرَّقَتْ بَيْنَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي لَيْتَ شِعْرِي مَتَى يَكُونُ التَّلَاقِي
مَا أَمَرَّ الْفِرَاقَ بَعْدَ اجْتِمَاعٍ لَيْتَهُ مَا أَضَرَّ بِالْعُشَّاقِ
غَصَّةُ الْمَوْتِ سَاعَةً ثُمَّ تَقْضِي وَفِرَاقُ الْحَبِيبِ فِي الْقَلْبِ بَاقِ
لَوْ وَجَدْنَا إِلَى الْفِرَاقِ سَبِيلًا لَأَذَقْنَا الْفِرَاقَ طَعْمَ الْفِرَاقِ

فلما سمع ابن بكار الجارية شهق شهقة ففارقت روحه جسده، قال الجوهري: فلما رأيته مات أوصيت عليه صاحب الدار، وقلت له: اعلم أنني متوجه إلى بغداد لأخبر والدته وأقاربه حتى يأتوا ليجهِّزوه. ثم إني توجهت إلى بغداد ودخلت داري وغيَّرت ثيابي، وبعد ذلك ذهبت إلى دار علي بن بكار، فلما رآني غلمانه أتوا إليَّ وسألوني عنه، وسألتهم أن يستأذنوا والدته في الدخول عليها، فأذنت لي بالدخول، فدخلت وسلمت عليها، وقلت: إن الله إذا قضى أمرًا لا مفر من قضائه، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلًا. فتوهَّمَتْ أمُّ علي بن بكار من هذا الكلام أن ابنها قد مات، فبكت بكاءً شديدًا، ثم قالت: بالله عليك أن تخبرني، هل توفي ولدي؟ فلم أقدر أن أرد عليها جوابًا من كثرة الجزع، فلما رأتني على تلك الحالة انخنقت بالبكاء، ثم وقعت على الأرض مغشيًّا عليها، فلما أفاقت من غشيتها قالت: ما كان من أمر ولدي؟ فقلت لها: أعظم الله أجرك فيه. ثم إني حدثتها بما كان من أمره من المبتدأ إلى المنتهى، قالت: هل أوصاك بشيء؟ فقلت لها: نعم. وأخبرتها بما أوصاني به، وقلت لها: أسرعي في تجهيزه. فلما سمعت أم علي بن بكار كلامي سقطت مغشيًّا عليها، فلما أفاقت عزمت على ما أوصيتها به. ثم إني رجعت إلى داري، وصرت في الطريق أتفكر في حسن شبابه؛ فبينما أنا كذلك، وإذا بامرأة قد قبضت على يدي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٦٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري قال: وإذا بامرأة قد قبضت على يدي، فتأملتها فرأيتها الجارية التي كانت تأتي من عند شمس النهار، وقد علاها الانكسار، فلما تعارفنا بكينا جميعًا حتى أتينا إلى تلك الدار، فقلت لها: هل علمت بخبر علي بن بكار؟ فقالت: لا والله. فأخبرتها بخبره وما كان من أمره، ثم إني قلت لها: فكيف حال سيدتك؟ فقالت: لم يقبل فيها أمير المؤمنين قول أحد لشدة محبته لها، وقد حمل جميع أمورها على المحامل الحسنة، وقال لها: يا شمس النهار، أنت عندي عزيزة، وأنا أتحمَّلك على رغم أعدائك. ثم أمر لها بفرش مقصورة مذهبة وحجرة مليحة، وصارت عنده من ذلك في قبول عظيم، فاتفق أنه جلس يومًا من الأيام على جري عادته للشراب، وحضرت المحاظي بين يديه فأجلسهن في مراتبهن، وأجلسها بجانبه، وقد عدمت صبرها وزاد أمرها، فعند ذلك أَمَرَ جاريةً من الجواري أن تغني، فأخذت العود وضربت به وجعلت تقول:

وَدَاعٍ دَعَـانِـي لِـلْـهَـوَى فَـأَجَـبْـتُـهُ   وَدَمْعِي يَخُطُّ الْوَجْدَ خَطًّا عَلَى خَدِّي
كَأَنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ تُخْبِرُ حَالَنَا   فَتُبْدِي الَّذِي أُخْفِي وَتُخْفِي الَّذِي أُبْدِي
فَكَيْفَ أَرُومُ السِّرَّ أَوْ أَكْتُمُ الْهَوَى   وَفَرْطُ غَرَامِي فِيكَ يُظْهِرُ مَا عِنْدِي
وَقَدْ طَابَ مَوْتِي عِنْدَ فَقْدِ أَحِبَّتِي   فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يَطِيبُ لَهُمْ بُعْدِي

فلما سمعت شمس النهار إنشاد تلك الجارية لم تستطع الجلوس، ثم سقطت مغشيًّا عليها، فرمى الخليفة القدح، وجذبها عنده وصاح، وضجت الجواري، وقلبها أمير المؤمنين فوجدها ميتة، فحزن أمير المؤمنين لموتها، وأمر أن يُكسَر ما كان في الحضرة من الآلات والقوانين، وحملها في حجرة بعد موتها، ومكث عندها باقي ليلته، فلما طلع النهار جهَّزها

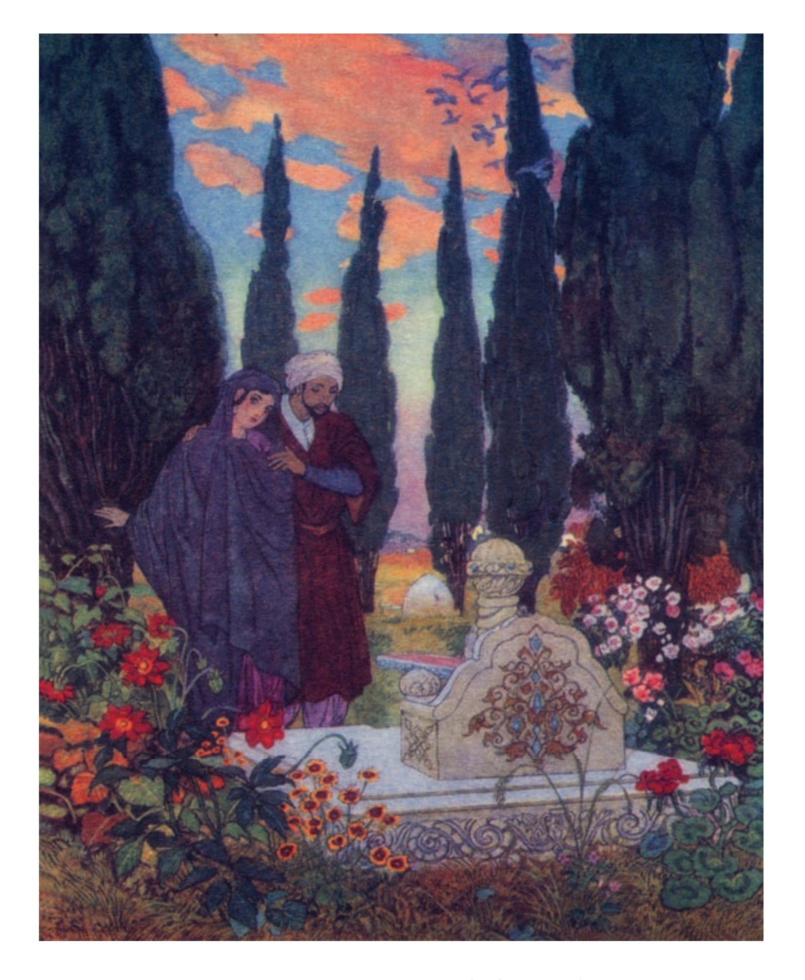
وأمر بغسلها وتكفينها ودفنها، وحزن عليها حزنًا كثيرًا، ولم يسأل عن حالها، ولا عن الأمر الذي كانت فيه. ثم قالت الجارية للجوهري: سألتك بالله أن تعلمني بوقت خروج جنازة علي بن بكار، وأن تحضرني دفنه. فقال لها: أما أنا ففي أي محل شئت تجديني، وأما أنت فمَن يستطيع الوصول إليك في المحل الذي أنت فيه؟ فقالت له: إن أمير المؤمنين لما ماتت شمس النهار، أعتق جواريها من يوم موتها، وأنا من جملتهن، ونحن مقيمات على تربتها في المحل الفلاني. فقمت معها وأتيت إلى المقبرة، وزُرت شمس النهار، ثم مضيت إلى حالي، ولم أزل أنتظر جنازة علي بن بكار إلى أن جاءت، فخرجت له أهل بغداد، وخرجت معهم، فوجدت الجارية بين النساء، وهي أشدهن حزنًا، ولم أرَ جنازة ببغداد أعظم من هذه الجنازة، وما زلنا في ازدحام عظيم إلى أن انتهينا إلى قبره ودفناه، وصرت لا أنقطع عن زيارته، ولا عن زيارة شمس النهار. هذا ما كان من حديثهما، وليس هذا بأعجب من حديث الملك شهرمان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧٠

حكاية قمر الزمان مع الملكة بدور

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان ملك يُسمَّى شهرمان، صاحب عسكر وخدم وأعوان، إلا أنه كَبُرت سنُّه، ورقَّ عظمه، ولم يُرزَق بولد، فتفكَّر في نفسه وحزن وقلق، وشكا ذلك لبعض وزرائه، وقال: إني أخاف إذا مت ضاع الملك؛ لأنه ليس لي ولد يتولاه بعدي. فقال له ذلك الوزير: لعل الله يُحدِث بعد ذلك أمرًا، فتوكل على الله أيها الملك وتوضأ وصلِّ ركعتين، ثم جامِعْ زوجتك لعلك تبلغ مطلوبك. فجامَعَ زوجته فحملت في تلك الساعة، ولما كملت أشهرها وضعت ولدًا ذكرًا كأنه البدر السافر في الليل العاكر، فسماه قمر الزمان، وفرح به غاية الفرح، وزيَّنوا المدينة سبعة أيام، ودقت الطبول، وأقبلت البشائر، وحملته المراضع والدايات، وتربَّى في العز والدلال حتى صار له من العمر خمس عشرة سنة، وكان فائقًا في الحسن والجمال، والقد والاعتدال، وكان أبوه يحبه، ولا يقدر أن يفارقه ليلًا ولا نهارًا، فشكا الملك شهرمان لأحد وزرائه فرط محبته لولده، وقال: أيها الوزير، إني خائف على ولدي قمر الزمان من طوارق الدهر والحدثان، وأريد أن أزوِّجه في حياتي. فقال له الوزير: اعلم أيها الملك أن الزواج من مكارم الأخلاق، ولا بأس أن تزوِّج ولدك في حياتك. فعند ذلك قال الملك شهرمان: إليَّ بولدي قمر الزمان. فحضر وأطرق رأسه إلى الأرض حياءً من أبيه، فقال له أبوه: يا قمر الزمان، اعلم أني أريد أن أزوِّجك وأفرح بك في حياتي. فقال له: اعلم يا أبي أنني ما لي في الزواج أرب، وليست نفسي تميل إلى النساء؛ لأني وجدت في مكرهن كتبًا بالروايات، وبكيدهن وردت الآيات، وقال الشاعر:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... خَبِيرٌ بِأَحْوَالِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وُدِّهِنَّ نَصِيبُ



فقمتُ معها وأتيتُ إلى المقبرة، وزرت شمس النهار.

وقال الآخر:

اعْصِ النِّسَاءَ فَتِلْكَ الطَّاعَةُ الْحَسَنَهْ

يُعِقْنَهُ عَنْ كَمَالٍ فِي فَضَائِلِهِ وَلَوْ سَعَى طَالِبًا لِلْعِلْمِ أَلْفَ سَنَهْ

ولما فرغ من شعره قال: يا أبي، إن الزواج شيء لا أفعله أبدًا ولو سُقِيت كأس الردى. فلما سمع السلطان شهرمان من ولده هذا الكلام، صار الضياء في وجهه ظلامًا، واغتم غمًّا شديدًا على عدم مطاوعة ولده قمر الزمان له. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان لما سمع من ولده هذا الكلام، صار الضياء في وجهه ظلامًا، واغتمَّ على عدم مطاوعة ولده قمر الزمان له، ومن محبته له لم يكرِّر عليه الكلام في ذلك ولم يغضبه، بل أقبل عليه وأكرمه ولاطفه بكل ما يجلب المحبة إلى القلب، كل ذلك وقمر الزمان يزداد كل يوم حسنًا وجمالًا، وظرفًا ودلالًا، فصبر الملك شهرمان على ولده سنة كاملة حتى صار كامل الفصاحة والملاحة، وتهتَّكت في حسنه الورى، ويروي لطفه كلَّ نسيم سرى، وصار فتنةً للعشاق، وروضةً للمشتاق، عذب الكلام يُخجِل وجهه بدر التمام، صاحب قدٍّ واعتدال، وظُرف ودلال، كأنه غصن بان، أو قضيب خيزران، ينوب خده عن شقائق النعمان، وقدُّه عن غصن البان، ظريف الشمائل كما قال فيه القائل:

بَدَا فَقَالُوا تَبَارَكَ اللهُ جَلَّ الَّذِي صَاغَهُ وَسَوَّاهُ
مَلِيكُ كُلِّ الْمِلَاحِ قَاطِبَةً فَكُلُّهُمْ أَصْبَحُوا رَعَايَاهُ
فِي رِيقِهِ شَهْدَةٌ مُذَوَّبَةٌ وَانْعَقَدَ الدُّرُّ فِي ثَنَايَاهُ
مُكَمَّلًا بِالْجَمَالِ مُنْفَرِدًا كُلُّ الْوَرَى فِي جَمَالِهِ تَاهُوا
قَدْ كَتَبَ الْحُسْنَ فَوْقَ وَجْنَتِهِ أَشْهَدُ أَنْ لَا مَلِيحَ إِلَّا هُوْ

فلما تكاملت سنة أخرى لقمر الزمان ابن الملك شهرمان، دعاه والده إليه وقال له: يا ولدي، أَمَا تسمع مني؟ فوقع قمر الزمان على الأرض بين يدي أبيه هيبةً واستحى منه، وقال له: يا أبي، كيف لا أسمع منك، وقد أمرني الله بطاعتك وعدم مخالفتك؟ فقال له الملك شهرمان: اعلم يا ولدي أني أريد أن أزوِّجك وأفرح بك في حياتي، وأسلطنك في

مملكتي قبل مماتي. فلما سمع قمر الزمان من أبيه هذا الكلام أطرق رأسه ساعة، وبعد ذلك رفع رأسه وقال: يا أبي، هذا شيء لا أفعله أبدًا ولو سُقيت كأس الردى، وأنا أعلم أن الله فرض عليَّ طاعتك، فبحق الله عليك لا تكلِّفني أمرَ الزواج، ولا تظن أني أتزوَّج طول عمري؛ لأنني قرأت في كتب المتقدمين والمتأخرين، وعرفت جميع ما جرى لهم من المصائب والآفات بسبب فتن النساء ومكرهن غير المتناهي، وما يحدث عنهن من الدواهي، وما أحسن قول الشاعر:

مَنْ كَادَهُ الْعَاهِرَاتُ فَلَا يَرَى مِنْ خَلَاصِ
وَلَوْ بَنَى أَلْفَ حِصْنٍ مُشَيَّدَةً بِالرَّصَاصِ
فَلَيْسَ يُجْدِي بِنَاهَا وَلَا تُفِيدُ الصَّيَاصِي
إِنَّ النِّسَا خَائِنَاتٌ لِكُلِّ دَانٍ وَقَاصِ
مُخَضَّبَاتُ بَنَانٍ مُضَفَّرَاتٌ عِقَاصِ
مُكَحَّلَاتُ جُفُونٍ مُجَرِّعَاتُ غُصَاصِ

وما أحسن قول الآخر:

إِنَّ النِّسَاءَ وَإِنْ دُعِينَ لِعَفَّةٍ رِمَمٌ تُقَلِّبُهَا النُّسُورُ الْحُوَّمُ
فِي اللَّيْلِ عِنْدَكَ سِرُّهَا وَحَدِيثُهَا وَغَدًا لِغَيْرِكَ سَاقُهَا وَالْمِعْصَمُ
كَالْخَانِ تَسْكُنُهُ وَتُصْبِحُ رَاحِلًا فَيَحُلُّ بَعْدَكَ فِيهِ مَنْ لَا تَعْلَمُ

فلما سمع الملك شهرمان من ولده قمر الزمان هذا الكلام، وفهم الشعر والنظام، لم يردَّ عليه جوابًا من فرط محبته له، وزادَه من إنعامه وإكرامه، وانفضَّ ذلك المجلس من تلك الساعة، وبعد انفضاض ذلك المجلس طلب الملك شهرمان وزيره واختلى به، وقال له: أيها الوزير ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان طلب وزيره واختلى به، وقال له: أيها الوزير، قل لي ما الذي أفعله في قضية ولدي قمر الزمان، فإني استشرتك في زواجه قبل أن أسلطنه فأشرت عليَّ بذلك، وأشرت عليَّ أيضًا أن أذكر له أمر الزواج فذكرته له فخالفني، فَشِرْ عليَّ الآن بما تراه حسنًا. فقال له الوزير: الذي أشور به عليك الآن أيها الملك أن تصبر عليه سنة أخرى، فإذا أردتَ أن تكلِّمه بعدها في أمر الزواج فلا تكلمه سرًّا، ولكن حدِّثه في يوم حكومة، ويكون جميع الأمراء والوزراء حاضرين، وجميع العساكر واقفين، فإذا اجتمع هؤلاء فأرسل إلى ولدك قمر الزمان في تلك الساعة وأحضره، فإذا حضر فخاطبه في أمر الزواج بحضرة جميع الأمراء والوزراء، والحُجَّاب والنواب، وأرباب الدولة، والعساكر، وأصحاب الصولة، فإنه يستحي منهم، وما يقدر أن يخالفك بحضرتهم. فلما سمع الملك شهرمان من وزيره هذا الكلام، فرح فرحًا شديدًا واستصوب رأي الوزير في ذلك، وخلع عليه خلعة سنيَّة. وصبر الملك شهرمان على ولده قمر الزمان سنة، وكلما مضى عليه يوم من الأيام يزداد حسنًا وجمالًا، وبهجةً وكمالًا، حتى بلغ من العمر قريبًا من عشرين عامًا، وألبسه الله حلل الجمال، وتوَّجه بتاج الكمال، وصار طرفه أسحر من هاروت، وغنج ألحاظه أضل من الطاغوت، وأشرقت خدوده بالاحمرار، وازدرت جفونه بالصارم البتار، وبياض غرته حكى القمر الزاهر، وسواد شعره كأنه الليل العاكر، وخصره أرق من خيط هميان، وردفه أثقل من الكثبان، تهيج البلابل على أعطافه، ويشتكي خصره من ثقل أردافه، ومحاسنه حيَّرت الورى، كما قال فيه بعض الشعراء:

قَسَمًا بِوَجْنَتِهِ وَبَاسِمِ ثَغْرِهِ وَبِأَسْهُمٍ قَدْ رَاشَهَا مِنْ سِحْرِهِ
وَبِلِينِ عِطْفَيْهِ وَمُرْهَفِ لَحْظِهِ وَبَيَاضِ غُرَّتِهِ وَأَسْوَدِ شَعْرِهِ

وَبِحَاجِبٍ حَجَبَ الْكَرَى عَنْ صَبِّهِ وَسَطَا عَلَيْهِ بِنَهْيِهِ وَبِأَمْرِهِ
وَعَقَارِبَ قَدْ أُرْسِلَتْ مِنْ صُدْغِهِ وَسَعَتْ لِقَتْلِ الْعَاشِقِينَ بِهَجْرِهِ
وَبِوَرْدِ خَدَّيْهِ وَآسِ عِذَارِهِ وَعَقِيقِ مَبْسَمِهِ وَلُؤْلُؤِ ثَغْرِهِ
وَبِطِيبِ نَكْهَتِهِ وَسَلْسَالٍ جَرَى فِي فِيهِ يُزْرِي بِالرَّحِيقِ وَعَصْرِهِ
وَبِرَدْفِهِ الْمُرْتَجِّ فِي حَرَكَاتِهِ وَسُكُونِهِ وَبِرَقَّةٍ فِي خَصْرِهِ
وَبِجُودِ رَاحَتِهِ وَصِدْقِ لِسَانِهِ وَبِطِيبِ عُنْصُرِهِ وَعَالِي قَدْرِهِ
مَا الْمِسْكُ إِلَّا مِنْ فُضَالَةِ خَالِهِ وَالطِّيبُ يَرْوِي رِيحَهُ عَنْ نَشْرِهِ
وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ دُونَهُ وَأَرَى الْهِلَالَ قُلَامَةً مِنْ ظُفْرِهِ

ثم إن الملك شهرمان سمع كلام الوزير، وصبر سنة أخرى حتى حصل يوم موسم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان سمع كلام الوزير وصبر سنة أخرى حتى حصل يوم موسم، تكامل فيه مجلس الملك بالأمراء والوزراء والحجَّاب وأرباب الدولة والعساكر وأصحاب الصولة، ثم إن الملك أرسل خلف ولده قمر الزمان، فلما حضر قبَّل الأرض بين يديه ثلاث مرات، ووقف مكتِّفًا يديه وراء ظهره قدام أبيه، فقال له أبوه: اعلم يا ولدي أني ما أحضرتك هذه المرة قدام هذا المجلس، وجميع العساكر حاضرون بين أيدينا، إلا لأجل أن آمرك بأمر فلا تخالفني فيه، وذلك أن تتزوج؛ لأني أشتهي أن أزوِّجك بنت ملك من الملوك، وأفرح بك قبل موتي. فلما سمع قمر الزمان من أبيه هذا الكلام، أطرق برأسه إلى الأرض ساعة، ثم رفع رأسه إلى أبيه، ولحقه في تلك الساعة جنون الصبا وجهل الشبيبة، وقال له: أما أنا فلا أتزوَّج أبدًا، ولو سُقِيت كئوسَ الردى، وأما أنت فرجل كبير السن صغير العقل، أليس أنك سألتني قبل هذا اليوم مرتين غير هذه المرة في شأن الزواج، وأنا لا أجيبك إلى ذلك! ثم إن قمر الزمان فكَّ كتاف يديه، وشمَّر عن ذراعيه قدَّام أبيه وهو في غيظه، فخجل أبوه واستحى حيث حصل ذلك قدَّام أرباب دولته والعساكر الحاضرين في الموسم، ثم إن الملك شهرمان لحقته شهامة المُلك، فصرخ على ولده فأرعبه، وصرخ على المماليك وأمرهم بمسكه فمسكوه، وأمرهم أن يكتِّفوه فكتَّفوه، وقدَّموه بين يدي الملك وهو مطرق رأسه من الخوف والوجل، وتكلَّل وجهه وجبينه بالعرق، واشتدَّ به الحياء والخجل، فعند ذلك شتمه أبوه وسبَّه، وقال له: ويلك يا ولد الزنا، وتربية الخنا! كيف يكون هذا جوابك لي بين عساكري وجيوشي؟ ولكن أنت إلى الآن ما أدَّبك أحد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان قال لولده قمر الزمان: ولكن أنت إلى الآن ما أدَّبك أحد، أَمَا تعلم أن هذا الأمر الذي صدر منك، لو صدر من عامِّي من العوام لكان ذلك قبيحًا منه. ثم إن الملك أمر المماليك أن يحلُّوا كتافه ويحبسوه في برج من أبراج القلعة، فعند ذلك دخل الفرَّاشون القاعة التي في البرج فكنسوها ومسحوا بلاطها، ونصبوا فيها سريرًا لقمر الزمان، وفرشوا له على السرير طرَّاحة ونطعًا، ووضعوا له مخدة وفانوسًا كبيرًا وشمعة؛ لأن ذلك المكان كان مظلمًا في النهار، ثم إن المماليك أدخلوا قمر الزمان في تلك القاعة، وجعلوا على باب القاعة خادمًا، فعند ذلك طلع قمر الزمان فوق ذلك السرير وهو منكسر الخاطر حزين الفؤاد، قد عاتب نفسه وندم على ما جرى منه في حق أبيه حيث لا ينفعه الندم، وقال: خيَّب الله الزواج والبنات والنساء الخائنات، فيا ليتني سمعت من والدي وتزوَّجت، فلو فعلت ذلك كان أحسن لي من هذا السجن.

هذا ما كان من أمر قمر الزمان، وأما ما كان من أمر أبيه، فإنه أقام على كرسي مملكته بقية اليوم إلى وقت الغروب، ثم خلا بالوزير، وقال له: اعلم أيها الوزير أنك كنت السبب في هذا الذي جرى بيني وبين ولدي كله؛ حيث أشرتَ عليَّ بما أشرتَ، فما الذي تشور به عليَّ الآن؟ فقال له الوزير: أيها الملك، دَعْ ولدك في السجن مدة خمسة عشر يومًا، ثم أحضره بين يديك وَأْمُره بالزواج فإنه لا يخالفك أبدًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير قال للملك شهرمان: دَعْ ولدك في السجن مدة خمسة عشر يومًا، ثم أحضره بين يديك وَأْمُره بالزواج فإنه لا يخالفك أبدًا. فقَبِل الملك رأي الوزير في ذلك، ونام تلك الليلة وهو مشتغل القلب على ولده؛ لأنه كان يحبه محبة عظيمة، حيث لم يكن له ولد سواه، وكان الملك شهرمان كل ليلة لا يجيئه نوم حتى يجعل ذراعه تحت رقبة قمر الزمان وينام، فبات الملك تلك الليلة وهو متشوش الخاطر من أجله، وصار يتقلب من جنب إلى جنب كأنه نائم على جمر اللظى، ولحقه الوسواس ولم يأخذه نوم في تلك الليلة بطولها، وذرفت عيناه بالدموع، وأنشد قول الشاعر:

لَقَدْ طَالَ لَيْلِي وَالْوُشَاةُ هُجُوعُ   وَنَاهِيكَ قَلْبًا بِالْفِرَاقِ مَرُوعُ
أَقُولُ وَلَيْلِي زَادَ بِالْهَمِّ طُولُهُ   أَمَا لَكَ يَا ضَوْءَ الصَّبَاحِ رُجُوعُ

وقول الآخَر:

لَمَّا رَأَيْتُ النَّجْمَ سَاهِيَ طَرْفُهُ   وَالْقُطْبُ قَدْ أَلْقَى عَلَيْهِ سُبَاتَا
وَبَنَاتُ نَعْشٍ فِي الْحِدَادِ سَوَافِرَ   أَيْقَنْتُ أَنَّ صَبَاحَهُمْ قَدْ مَاتَا

هذا ما كان من أمر الملك شهرمان، وأما ما كان من أمر قمر الزمان؛ فإنه لما قدم عليه الليل قدَّم له الخادم الفانوس، وأوقد له شمعة وجعلها في شمعدان، وقدَّم له شيئًا من المأكل فأكل قليلًا، وصار يعاتب نفسه حيث أساء الأدب في حق أبيه الملك شهرمان، وقال لنفسه: أَلَمْ تعلم أن ابن آدم رهين لسانه، وأن لسان الآدمي هو الذي يُوقِعه في المهالك؟!

ولم يزل يعاتب نفسه ويلومها حتى غلبت عليه الدموع، واحترق قلبه المصدوع، وندم على ما خرج من لسانه في حق الملك غاية الندم، وأنشد هذين البيتين:

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ مِنْ لِسَانِهِ وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ
فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَقْضِي بِحَتْفِهِ وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَى عَلَى مَهْلِ

ثم إن قمر الزمان لما فرغ من الأكل طلب أن يغسل يديه، فغسل يديه من الطعام وتوضأ وصلَّى المغرب والعشاء وجلس … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان ابن الملك شهرمان صلَّى المغرب والعشاء، وجلس على السرير يقرأ القرآن، فقرأ البقرة، وآل عمران، ويس، والرحمن، وتبارك الملك، والمعوذتين، وختم بالدعاء، واستعاذ بالله، ونام على السرير فوق طرَّاحة من الأطلس المعدني لها وجهان، وهي محشوة بريش النعام، وحين أراد النومَ تجرَّدَ من ثيابه، وخلع لباسه، ونام في قميص مشمع رفيع، وكان على رأسه مقنع مروزي أزرق، فصار قمر الزمان في تلك الليلة كأنه البدر في الليلة الرابعة عشرة، ثم تغطى بملاءة من حرير ونام، والفانوس موقود تحت رجليه، والشمعة موقودة فوق رأسه، ولم يزل نائمًا إلى ثلث الليل الأول، ولم يعلم ما خُبِّئ له في الغيب، وما قدره عليه علام الغيوب. واتفق أن القاعة والبرج كانَا عتيقين مهجورين مدة سنين كثيرة، وكان في تلك القاعة بئر روماني معمور بجنِّيَّة ساكنة فيه، وهي من ذرية إبليس اللعين، واسم تلك الجنية ميمونة بنة الدمرياط أحد ملوك الجان المشهورين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن اسم تلك الجنية ميمونة بنة الدمرياط أحد ملوك الجان المشهورين، فلما استمر قمر الزمان نائمًا إلى ثلث الليل الأول، طلعت تلك العفريتة من البئر الروماني، وقصدت السماء لاستراق السمع، فلما صارت في أعلى البئر رأت نورًا مضيئًا في البرج على خلاف العادة، وكانت العفريتة مقيمة في ذلك المكان مدة مديدة من السنين، فقالت في نفسها: أنا ما عهدت هنا شيئًا من ذلك، وتعجبت من هذا الأمر غاية العجب، وخطر ببالها أنه لا بد لذلك من سبب، ثم قصدت ناحية ذلك النور فوجدته خارجًا من القاعة، فدخلتها ووجدت الخادم نائمًا على بابها، ولما دخلت القاعة، وجدت سريرًا منصوبًا، وعليه هيئة إنسان نائم، وشمعة مضيئة عند رأسه، وفانوس مضيء عند رجليه؛ فتعجبت العفريتة ميمونة من ذلك النور، وتقدمت إليه قليلًا قليلًا، وأرخت أجنحتها، ووقفت على السرير، وكشفت الملاءة عن وجهه ونظرت إليه، واستمرت باهتة في حسنه وجماله ساعة زمانية، وقد وجدت ضوء وجهه غالبًا على نور الشمعة، وصار وجهه يتلألأ نورًا، وقد غازلت عيناه، واسودَّت مقلتاه، واحمرَّ خدَّاه، وفتر جفناه، وتقوَّس حاجباه، وفاح مسكه العاطر، كما قال فيه الشاعر:

قَبَّلْتُهُ فَاسْوَدَّتِ الْمُقَلُ الَّتِي هِيَ فِتْنَتِي وَاحْمَرَّتِ الْوَجَنَاتُ
يَا قَلْبُ إِنْ زَعَمَ الْعَوَاذِلُ أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ يُوجَدُ مِثْلُهُ قُلْ هَاتُوا

فلما رأته العفريتة ميمونة بنت الدمرياط، سبَّحت الله وقالت: تبارك الله أحسن الخالقين. وكانت تلك العفريتة من الجن المؤمنين؛ فاستمرت ساعة وهي تنظر إلى وجه قمر الزمان وتوحد الله، وتغبطه على حسنه وجماله، وقالت في نفسها: والله إني لا أضره،

ولا أترك أحدًا يؤذيه، ومن كل سوء أفديه، فإن هذا الوجه المليح لا يستحق إلا النظر إليه والتسبيح، ولكن كيف هان على أهله حتى نسوه في هذا المكان الخرب؟ فلو طلع له أحد من مَرَدتنا في هذه الساعة لعطبه. ثم إن تلك العفريتة مالت عليه وقبَّلته بين عينيه، وبعد ذلك أرخت الملاءة على وجهه وغطَّته بها، وفتحت أجنحتها وطارت ناحية السماء، وطلعت من دور تلك القاعة وصعدت، ولم تزل صاعدة في الجو إلى أن قربت من سماء الدنيا، وإذا بها سمعت خفق أجنحة طائرة في الهواء، فقصدت ناحية تلك الأجنحة، فلما قربت من صاحبها وجدته عفريتًا يقال له دهنش، فانقضَّت عليه انقضاض الباشق، فلما أحسَّ بها دهنش وعرف أنها ميمونة بنت ملك الجن، خاف منها وارتعدت فرائصه، واستجار بها وقال لها: أقسم عليك بالاسم الأعظم، والطِّلَّسم الأكرم، المنقوش على خاتم سليمان، أن ترفقي بي ولا تؤذيني. فلما سمعت ميمونة من دهنش هذا الكلام، حنَّ قلبها عليه وقالت له: إنك أقسمت عليَّ بقسم عظيم، ولكن لا أعتقك حتى تخبرني من أين مجيئك في هذه الساعة؟ فقال لها: أيتها السيدة، اعلمي أن مجيئي من آخر بلاد الصين، ومن داخل الجزائر، وأخبرك بأعجوبة رأيتها في هذه الليلة، فإن وجدتِ كلامي صحيحًا فاتركيني أروح إلى حال سبيلي، واكتبي لي بخطك في هذه الساعة أني عتيقك؛ حتى لا يعارضني أحد من أرهاط الجن الطيَّارة العلوية والسفلية والغواصة. قالت له ميمونة: فما الذي رأيته في هذه الليلة يا دهنش؟ فأخبرني ولا تكذب عليَّ، وتريد بكذبك أن تنفلت من يدي، وأنا أقسم بحق النقش المكتوب على فص خاتم سليمان بن داود — عليهما السلام — إن لم يكن كلامك صحيحًا نتفت ريشك بيدي، ومزَّقت جلدك، وكسرت عظمك. فقال لها العفريت دهنش بن شمهورش الطيار: إن لم يكن كلامي صحيحًا فافعلي بي ما شئتِ يا سيدتي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن دهنشًا قال: إني خرجت في هذه الليلة من الجزائر الداخلة في بلاد الصين، وهي بلاد الملك الغيور، صاحب الجزائر والبحور والسبعة قصور، فرأيت لذلك الملك بنتًا لم يخلق الله في زمانها أحسن منها، ولا أعرف كيف أَصِفها لك، ويعجز لساني عن وصفها كما ينبغي، ولكن أذكر لك شيئًا من صفاتها على سبيل التقريب؛ أمَّا شعرها فكليالي الهجر والانفصال، وأما وجهها فكأيام الوصال، وقد أحسن في وصفها مَن قال:

نَشَرَتْ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا فِي لَيْلَةٍ فَأَرَتْ لَيَالِي أَرْبَعَا
وَاسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا فَأَرَتْنِيَ الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعَا

ولها أنف كحد السيف المصقول، ولها وجنتان كرحيق الأرجوان، ولها خد كشقائق النعمان، وشفتاها كالمرجان والعقيق، وريقها أشهى من الرحيق، يطفئ مذاقه عذاب الحريق، ولسانها يحركه عقل وافر، وجواب حاضر، ولها صدر فتنةٌ لِمَن يراه، فسبحان مَن خلقه وسوَّاه! ومتصل بذلك الصدر عضدان مدملجان، كما قال فيهما الشاعر الولهان:

وَزَنْدَانِ لَوْلَا أَمْسَكَا بِأَسَاوِرَ لَسَالَا مِنَ الْأَكْمَامِ سَيْلَ الْجَدَاوِلِ

ولها نهدان كأنهما من العاج، حقَّان يستمد من إشراقهما القمران، ولها بطن بأعكان مطوية كطي القباطي المصرية، وينتهي ذلك إلى خصر مختصر من وهم الخيال، فوق ردف ككثيب من رمال، يُقعِدها إذا قامت، ويوقظها إذا نامت، كما قال فيه بعض واصفيه:

لَهَا كَفَلٌ تَعَلَّقَ فِي ضَعِيفٍ وَذَاكَ الرِّدْفُ لِي وَلَهَا ظَلُومُ
فَيُوقِفُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ وَيُقْعِدُهَا إِذَا هَمَّتْ تَقُومُ

يحمل ذلك الكفل فخذان كأنهما من الدر عمودان، وعلى حمله ما أقدرهما إلا بركة الشيخ الذي بينهما، وأما غير ذلك من الأوصاف فلا يحصيه ناعت ولا وصَّاف، ويحمل ذلك كله قدمان لطيفتان صنعة المهيمن الديان، فعجبت منهما كيف يحملان ما فوقهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٧٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العفريت دهنش بن شمهورش قال للعفريتة ميمونة: وأما ما وراء ذلك فإني تركته؛ لأنه تقصُر عنه العبارة، ولا تفي به إشارة، وأبو تلك الصبية ملك جبار فارس كرَّار، يخوض بحار الأقطار في الليل والنهار، لا يهاب الموت، ولا يخاف الفوت؛ لأنه جائر ظلوم، وقاهر غشوم، وهو صاحب جيوش وعساكر، وأقاليم وجزائر، ومدن ودُور، واسمه الملك الغيور، صاحب الجزائر والبحور والسبعة قصور، وكان يحب ابنته هذه التي وصفتها لك حبًّا شديدًا، ومن محبته لها جلب أموال سائر الملوك، وبنى لها بذلك سبعة قصور، كل قصر من جنس مخصوص؛ القصر الأول من البلَّور، والقصر الثاني من الرخام، والقصر الثالث من الحديد الصيني، والقصر الرابع من الجزع والفصوص، والقصر الخامس من الفضة، والقصر السادس من الذهب، والقصر السابع من الجواهر، وملأ السبعة قصور من أنواع الفرش الفاخر، وأواني الذهب والفضة، وجميع الآلات من كل ما تحتاج إليه الملوك، وأمر ابنته أن تسكن في كل قصر مدة من السنة، ثم تنتقل منه إلى قصرٍ غيره، واسمها الملكة بدور.

فلما اشتهر حسنها، وشاع في البلاد ذكرها، أرسل سائر الملوك إلى أبيها يخطبونها منه، فراودها في أمر الزواج فكرهت ذلك، وقالت لأبيها: يا والدي، ليس لي غرض في الزواج أبدًا، فإني سيدة وملكة، أحكم على الناس ولا أريد رجلًا يحكم عليَّ. وكلما امتنعت من الزواج زادت رغبة الخُطَّاب فيها، ثم إن جميع ملوك جزائر الصين الجوانية أرسلوا إلى أبيها الهدايا والتحف، وكاتبوه في أمر زواجها، فكرَّر عليها أبوها المشاورة في أمر الزواج مرارًا عديدة، فخالفته وغضبت منه، وقالت له: يا أبي، إن ذكرت لي الزواج مرة أخرى، أخذت السيف ووضعتُ قائمَه في الأرض وذبابته في بطني، واتكأت عليه حتى يطلع من ظهري وأقتل نفسي. فلما سمع أبوها منها هذا الكلام، صار الضياء في وجهه

ظلامًا، واحترق قلبه عليها غاية الاحتراق، وخشي أن تقتل نفسها، وتحيَّر في أمرها وفي أمر الملوك الذين خطبوها منه، فقال لها: إن كان لا بد من عدم زواجك، فامتنعي من الدخول والخروج. ثم إن أباها أدخلها البيت وحجبها فيه، واستحفظ عليها عشر عجائز قهرمانات، ومنعها من أن تظهر إلى السبعة قصور، وأظهر أنه غضبان عليها، وأرسل كاتَبَ الملوك جميعهم وأعلمهم أنها أُصِيبت بجنون في عقلها، ولها الآن سنة وهي محجوبة.

ثم قال العفريت دهنش للعفريتة: وأنا يا سيدتي أتوجه إليها في كل ليلة فأنظرها وأتملى بوجهها، وأقبِّلها وهي نائمة بين عينيها، ومن محبتي فيها لا أضرها ولا أركبها؛ لأن جمالها بارع، وكل مَن رآها يغار عليها من نفسه، وأقسمتُ عليكِ يا سيدتي أن ترجعي معي وتنظري حسنها وجمالها، وقدَّها واعتدالها، وبعد هذا إنْ شئتِ أن تعاقبيني أو تأسريني فافعلي، فإن الأمر أمرك والنهي نهيك. ثم إن العفريت دهنشًا أطرق رأسه إلى الأرض، وخفض أجنحته إلى الأرض. فقالت له العفريتة ميمونة بعد أن ضحكت من كلامه، وبصقت في وجهه: أي شيء هذه البنت التي تقول عنها؟ فما هي إلا قوارة بول، فكيف لو رأيتَ معشوقي؟ والله إني حسبتُ أن معك أمرًا عجيبًا أو خبرًا غريبًا يا ملعون، إني رأيت إنسانًا في هذه الليلة، لو رأيته ولو في المنام لانفلجت عليه وسالت ريالتك. فقال لها دهنش: وما حكاية هذا الغلام؟ فقالت له: اعلم يا دهنش أن هذا الغلام قد جرى له مثل ما جرى لمعشوقتك التي ذكرتها، وأمره أبوه بالزواج مرارًا عديدة فأبى، فلما خالَفَ أباه غضب عليه وسجنه في البرج الذي أنا ساكنة فيه، فطلعت في هذه الليلة فرأيته. فقال لها دهنش: يا سيدتي، أريني هذا الغلام لأنظر هل هو أحسن من معشوقتي الملكة بدور أم لا؛ لأني ما أظن أن يوجد في الزمان مثل معشوقتي. فقالت له العفريتة: تكذب يا ملعون، يا أنحس المَرَدة وأحقر الشياطين، فأنا أتحقق أنه لا يوجد لمعشوقي مثيل في هذه الديار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٨٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العفريتة ميمونة قالت للعفريت دهنش: أنا أتحقق أنه لا يوجد لمعشوقي مثيل في هذه الديار، فهل أنت مجنون حتى تقيس معشوقتك بمعشوقي؟ فقال لها: بالله عليك يا سيدتي أن تذهبي معي وتنظري معشوقتي، وأرجع معك وأنظر معشوقك. فقالت له ميمونة: لا بد من ذلك يا ملعون؛ لأنك شيطان مكار، ولكن لا أجيء معك ولا تجيء معي إلا برهن؛ فإن طلعت معشوقتك التي أنت تحبها وتتغالى فيها، أحسن من معشوقي الذي أنا أحبه وأتغالى فيه، فإن ذلك الرهن يكون لك عليَّ، وإن طلع معشوقي أحسن فإن ذلك الرهن يكون لي عليك. فقال لها العفريت دهنش: يا سيدتي، قبلت منك هذا الشرط ورضيت به، تعالي معي إلى الجزائر. فقالت له ميمونة: فإن موضع معشوقي أقرب من موضع معشوقتك، وها هو تحتنا، فانزل معي لننظر معشوقي ونروح بعد ذلك إلى معشوقتك. فقال لها دهنش: سمعًا وطاعة. ثم انحدرَا إلى أسفل ونزلَا في دور القاعة التي في البرج، وأوقفت ميمونة دهنشًا بجنب السرير، ومدت يدها ورفعت الملاءة عن وجه قمر الزمان ابن الملك شهرمان؛ فسطع وجهه وأشرق ولمع وزها، فنظرته ميمونة والتفتت من وقتها إلى دهنش وقالت له: انظر يا ملعون ولا تكن أقبح مجنون، فنحن بنات وبه مفتونات. فعند ذلك التفت إليه دهنش واستمرَّ يتأمل فيه ساعة، ثم حرك رأسه وقال لميمونة: والله يا سيدتي إنك معذورة، ولكن بقي شيء آخَر، وهو أن حال الأنثى غير حال الذكر، وحق الله إن معشوقك هذا أشبه الناس بمعشوقتي في الحسن والجمال، والبهجة والكمال، وهما الاثنان كأنهما قد أُفرِغَا في قالب الحسن سواء.

فلما سمعت ميمونة من دهنش هذا الكلام، صار الضياء في وجهها ظلامًا، ولطمته بجناحها على رأسه لطمة قوية كادت أن تقضي عليه من شدتها، وقالت له: قسمًا بنور وجه جلاله أن تروح يا ملعون في هذه الساعة وتحمل معشوقتك التي تحبها وتجيء بها سريعًا إلى هذا المكان، حتى نجمع بين الاثنين، وننظرهما وهما نائمان بالقرب من بعضهما، فيظهر لنا أيهما أملح، وإن لم تفعل ما أمرتُكَ به في هذه الساعة يا ملعون، أحرقتك بناري، ورميتك بشرر أشراري، ومزَّقتك قطعًا في البراري، وجعلتك عبرة للمقيم والساري. فقال لها دهنش: يا سيدتي لكِ عليَّ ذلك، وأنا أعرف أن محبوبتي أحسن وأحلى. ثم إن العفريت دهنشًا طار من وقته وساعته، وطارت ميمونة معه من أجل المحافظة عليه، فغابَا ساعة زمانية، ثم أقبل الاثنان بعد ذلك وهما حاملان تلك الصبية، وعليها قميص بندقي رفيع بطرازين من الذهب، وهو مزركش ببدائع التطريزات، ومكتوب على رأسه كمية هذه الأبيات:

ثَـلَاثَـةٌ مَـنَـعَـتْـهَـا عَـنْ زِيَـارَتِـنَـا　　خَوْفُ الرَّقِيبِ وَخَوْفُ الْحَاسِدِ الْحَنِقِ
ضَوْءُ الْجَبِينِ وَوَسْوَاسِ الْحُلِيِّ وَمَا　　حَوَتْ مَعَاطِفُهَا مِنْ عَنْبَرٍ عَبِقِ
هَبِ الْجَبِينَ بِفَضْلِ الْكُمِّ تَسْتُرُهُ　　وَالْحَلْيَ تَنْزَعُهُ مَا حِيلَةُ الْعَرِقِ

ثم إنهما نزلا بتلك الصبية ومدَّدَاها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

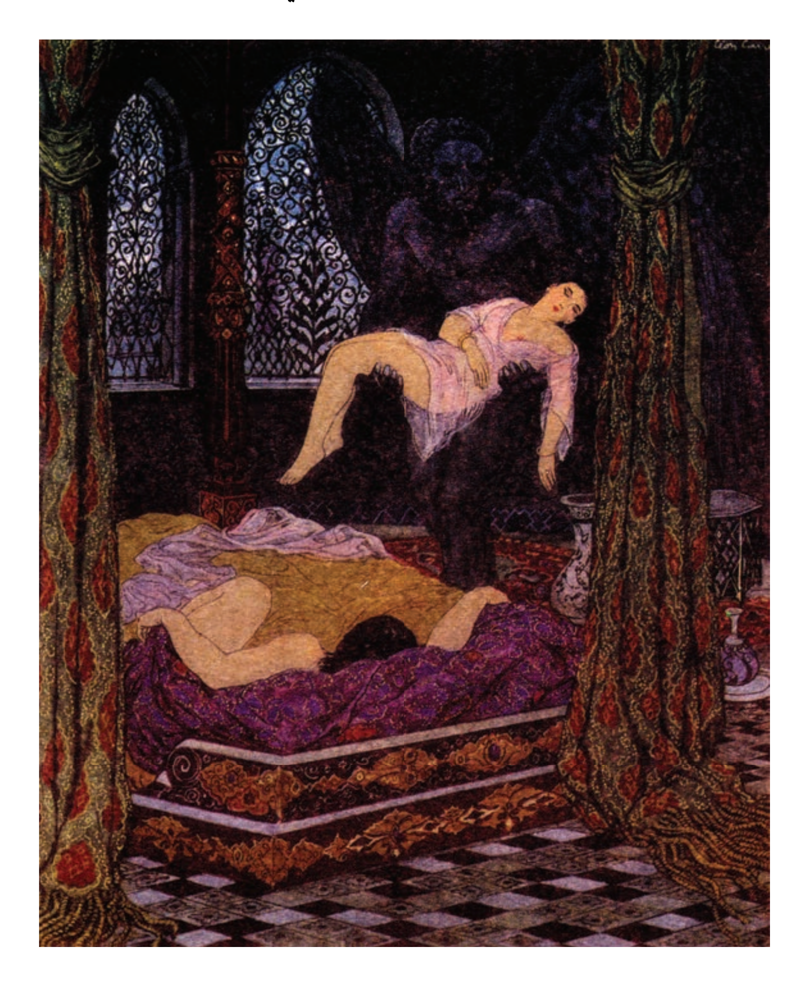
فلما كانت الليلة ١٨١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العفريت والعفريتة نزلَا بتلك الصبية ومدَّدَاها بجانب الغلام وكشفَا عن وجْهَي الاثنين، فكانَا أشبه الناس ببعضهما، فكأنهما توءمان أو أخوان منفردان، وهما فتنة للمتقين، كما قال فيهما الشاعر المبين:

يَا قَلْبُ لَا تَعْشَقْ مَلِيحًا وَاحِدًا تَحْتَارُ فِيهِ تَدَلُّلًا وَتَذَلُّلَا
وَاهْوَ الْمِلَاحَ جَمِيعَهُمْ تَلْقَاهُمُ إِنْ صَدَّ هَذَا كَانَ هَذَا مُقْبِلَا

وصار دهنش وميمونة ينظران إليهما، فقال دهنش: إن معشوقتي أحسن. قالت له ميمونة: بل معشوقي أحسن، ويلك يا دهنش! هل أنت أعمى؟ أَمَا تنظر إلى حسنه وجماله، وقدِّه واعتداله؟ فاسمع ما أقوله في محبوبي، وإن كنتَ محبًّا صادقًا لمَن تعشقها، فقُلْ فيها مثل ما أقول في محبوبي. ثم إن ميمونة قبَّلَتْ قمر الزمان قُبُلًا عديدة، وأنشدت هذه القصيدة:

مَا لِي وَلِلَّاحِي عَلَيْكَ يَعْنُفُ كَيْفَ السُّلُوُّ وَأَنْتَ غُصْنٌ أَهْيَفُ
لَكَ مُقْلَةٌ كَحْلَاءُ تَنْفُثُ سِحْرَهَا مَا لِلْهَوَى الْعُذْرِيِّ عَنْهَا مَصْرِفُ
تُرْكِيَّةُ الْأَلْحَاظِ تَفْعَلُ بِالْحَشَا مَا لَيْسَ يَفْعَلُهُ الصَّقِيلُ الْمُرْهَفُ
حَمَّلَتْنِي ثِقْلَ الْغَرَامِ وَإِنَّنِي بِالْعَجْزِ عَنْ حَمْلِ الْقَمِيصِ لَأَضْعَفُ
وَجْدِي عَلَيْكَ كَمَا عَلِمْتَ وَلَوْعَتِي طَبْعٌ وَعِشْقِي فِي سِوَاكَ تَكَلُّفُ
لَوْ أَنَّ قَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَمْ أَبِتْ وَالْجِسْمُ مِنِّي مِثْلُ خَصْرِكَ مُنْحَفُ



نزلا بتلك الصبية ومدَّداها بجانب الغلام، وكشفا عن وجهَي الاثنين.

وَيْلَاهُ مِنْ قَمَرٍ بِكُلِّ مَلَاحَةٍ   بَيْنَ الْأَنَامِ وَكُلِّ حُسْنٍ يُوصَفُ
قَالَ الْعَوَاذِلُ فِي الْهَوَى مَنْ ذَا الَّذِي   أَنْتَ الْكَئِيبُ بِهِ فَقُلْتُ لَهُمْ صِفُوا
يَا قَلْبَهُ الْقَاسِي تَعَلَّمْ عَطْفَةً   مِنْ قَدِّهِ فَعَسَى يَرِقُّ وَيَعْطِفُ
لَكَ يَا أَمِيرِي فِي الْمَلَاحَةِ نَاظِرٌ   يَسْطُو عَلَيَّ وَحَاجِبٌ لَا يُنْصِفُ

كَذَبَ الَّذِي ظَنَّ الْمَلَاحَةَ كُلَّهَا فِي يُوسُفٍ كَمْ فِي جَمَالِكَ يُوسُفُ
الْجِنُّ تَخْشَانِي إِذَا قَابَلْتُهَا وَأَنَا إِذَا أَلْقَاكَ قَلْبِي يَرْجُفُ
أَتَكَلَّفُ الْإِعْرَاضَ عَنْكَ مَهَابَةً وَإِلَيْكَ أَصْبُو جَهْدَ مَا أَتَكَلَّفُ
وَالشَّعْرُ أَسْوَدُ وَالْجَبِينُ مُشَعْشِعٌ وَالطَّرْفُ أَحْوَرُ وَالْقَوَامُ مُهَفْهَفُ

فلما سمع دهنش شعر ميمونة في معشوقها، طرب غاية الطرب وتعجَّب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٨٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن دهنشًا لما سمع شعر ميمونة في معشوقها أطرب غاية الطرب وقال: إنك أنشدتِني فيمَن تعشقينه هذا الشعر الرقيق، مع أن بالك مشغول به، ولكن أنا أبذل الجهد في إنشاد الشعر على قدر فكرتي. ثم إن دهنشًا قام إلى معشوقته بدور، وقبَّلها بين عينيها، ونظر إلى العفريتة ميمونة وإلى معشوقته بدور، وجعل ينشد هذه القصيدة وهو بلا شعور:

أَقْوَتْ مَعَاهِدُهُمْ بِشَطِّ الْوَادِي ... فَبَقِيتُ مَقْتُولًا وَشَطَّ الْوَادِي
وَسَكِرْتُ مِنْ خَمْرِ الْغَرَامِ وَرُقِّصَتْ ... عَيْنُ الدُّمُوعِ عَلَى غِنَاءِ الْحَادِي
أَسْعَى لِأَسْعَدَ بِالْوِصَالِ وَحَقَّ لِي ... إِنَّ السَّعَادَةَ فِي بُدُورِ سُعَادِ
لَمْ أَدْرِ مِنْ أَيِّ الثَّلَاثَةِ أَشْتَكِي ... وَلَقَدْ عَدَدْتُ فَأَصْغِ لِلْأَعْدَادِ
مِنْ لَحْظِهَا السَّيَّافِ أَمْ مِنْ قَدِّهَا ... الرَّمَّاحِ أَمْ مِنْ صُدْغِهَا الزَّرَّادِ
قَالَتْ وَقَدْ فَتَّشْتُ عَنْهَا كُلَّ مَنْ ... لَاقَيْتُهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِ
أَنَا فِي فُؤَادِكَ فَارْمِ طَرْفَكَ نَحْوَهُ ... تَرَنِي، فَقُلْتُ لَهَا: وَأَيْنَ فُؤَادِي؟

فلما فرغ من شعره قالت العفريتة: أحسنت يا دهنش، ولكن أي هذين الاثنين أحسن؟ فقال لها: محبوبتي بدور أحسن من محبوبك. فقالت له: كذبت يا ملعون، بل معشوقي أحسن من معشوقتك. ثم إنهما لم يزالَا يعارضان بعضهما في الكلام حتى صرخت ميمونة على دهنش، وأرادت أن تبطش به فذلَّ لها ورقق كلامه، وقال لها: لا يصعب عليك الحق فأبطلي قولك وقولي، فإن كلًّا منا يشهد لمعشوقه أنه أحسن، فنُعرض عن كلام كل واحد منا، ونطلب مَن يفصل الحكم بيننا بالإنصاف، ونعتمد على قوله.

فقالت له ميمونة: وهو كذلك. ثم ضربت الأرض برجلها فطلع لها من الأرض عفريت أعور أجرب، وعيناه مشقوقتان في وجهه بالطول، وفي رأسه سبعة قرون، وله أربع ذوائب من الشعر مسترسلة إلى الأرض، ويداه مثل يدي القطرب، وله أظفار كأظفار الأسد، ورجلان كرجلَي الفيل، وحوافر كحوافر الحمار؛ فلما طلع ذلك العفريت ورأى ميمونة، قبَّل الأرض بين يديها، وتكتف وقال لها: ما حاجتك يا سيدتي يا بنت الملك؟ فقالت له: يا قشقش، إني أريد أن تحكم بيني وبين هذا الملعون دهنش. ثم إنها أخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعندها نظر العفريت قشقش إلى وجه ذلك الصبي ووجه تلك الصبية، فرآهما متعانقين وهما نائمان، ومعصم كلٍّ منهما تحت عنق الآخر، وهما في الحسن والجمال متشابهان، وفي الملاحة متساويان، فنظر وتعجب المارد قشقش من حسنهما وجمالهما، والتفت إلى ميمونة ودهنش بعد أن أطال إلى الصبي والصبية الالتفات، وأنشد هذه الأبيات:

زُرْ مَنْ تُحِبُّ وَدَعْ مَقَالَةَ حَاسِدِ   لَيْسَ الْحَسُودُ عَلَى الْهَوَى بِمُسَاعِدِ
لَمْ يَخْلِقِ الرَّحْمَنُ أَحْسَنَ مَنْظَرًا   مِنْ عَاشِقَيْنِ عَلَى فِرَاشٍ وَاحِدِ
مُتَعَانِقَيْنِ عَلَيْهِمَا حُلَلُ الرِّضَى   مُتَوَسِّدَيْنِ بِمِعْصَمٍ وَبِسَاعِدِ
وَإِذَا صَفَا لَكَ مِنْ زَمَانِكَ وَاحِدٌ   فَهْوَ الْمُرَادُ وَعِشْ بِذَاكَ الْوَاحِدِ
وَإِذَا تَأَلَّفَتِ الْقُلُوبُ عَلَى الْهَوَى   فَالنَّاسُ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدِ
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى الْهَوَى أَهْلَ الْهَوَى   هَلْ يُسْتَطَاعُ صَلَاحُ قَلْبٍ فَاسِدِ
يَا رَبُّ يَا رَحْمَنُ تُحْسِنُ خَتْمَنَا   قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَوْ بِيَوْمٍ وَاحِدِ

ثم إن العفريت قشقش التفت إلى ميمونة وإلى دهنش وقال لهما: والله ما فيهما أحد أحسن من الآخر، ولا دون الآخر؛ بل هما أشبه الناس ببعضهما في الحسن والجمال، والبهجة والكمال، ولا يُفرَّق بينهما إلا بالتذكير والتأنيث، وعندي حكم آخر؛ وهو أن ننبِّه كلَّ واحد منهما من غير علم الآخر، وكلُّ مَن التَهَبَ على رفيقه فهو دونه في الحسن والجمال. فقالت ميمونة: نِعْمَ هذا الرأي الذي قلتَه، فأنا رضيتُه. وقال دهنش: وأنا أيضًا رضيتُه. فعند ذلك انقلب دهنش في صورة برغوثة ولدغ قمر الزمان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٨٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن دهنشًا انقلب في صورة برغوثة ولدغ قمر الزمان في رقبته في موضع ناعم؛ فمد قمر الزمان يده على رقبته وهرش موضع القرصة من شدة ما أحرقته؛ فتحرَّك بجنبه، فوجد شيئًا نائمًا بجنبه، ونفسه أزكى من المسك، وجسمه ألين من الزبد؛ فتعجب قمر الزمان من ذلك غاية العجب، ثم قام من وقته قاعدًا، ونظر إلى ذلك الشخص الراقد بجانبه، فوجدها صبية كالدرَّة السنيَّة، أو القبَّة المبنية بقامة ألفيَّة، خماسية القدِّ، بارزة النهد، موردة الخد، كما قال فيها بعض واصفيها:

بَدَتْ قَمَرًا وَمَالَتْ غُصْنَ بَانٍ وَفَاحَتْ عَنْبَرًا وَرَنَتْ غَزَالَا
كَأَنَّ الْحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبِي فَسَاعَةَ هَجْرِهَا يَجِدُ الْوِصَالَا

فلما رأى قمر الزمان السيدة بدور بنت الملك الغيور، وشاهد حسنها وجمالها وهي نائمة في طوله، وجد فوق بدنها قميصًا بندقيًّا وهي بلا سروال، وعليها كوفية من ذهب مرصعة بالجواهر، وفي عنقها قلادة من الفصوص المثمَّنة لا يقدر عليها أحد من الملوك؛ فصار مدهوش العقل من ذلك، ثم إنه حين شاهَدَ حُسْنَهَا تحرَّكت فيه الحرارة الغريزية، وألقى الله عليه شهوة الجماع، وقال في نفسه: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ثم قلَّبها بيده ثاني مرة، وفتح طوق قميصها فبان له بطنها، ونظر إليه وإلى نهودها فازداد فيها محبة ورغبة، فصار ينبِّهها وهي لا تنتبه؛ لأن دهنشًا ثقَّل نومها، فصار قمر الزمان يهزُّها ويحرِّكها ويقول: يا حبيبتي استيقظي وانظري مَن أنا، فأنا قمر الزمان.

فلم تستيقظ، ولم تحرِّك رأسها، فعند ذلك تفكَّرَ في أمرها ساعة زمانية، وقال في نفسه: إن صدق حَزْري فهذه الصبية هي التي يريد والدي زواجي بها، ومضى لي ثلاث سنين وأنا أمتنع من ذلك، فإن شاء الله إذا جاء الصبح أقول لأبي: زوِّجني بها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٨٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان قال في نفسه: إن شاء الله إذا جاء الصبح أقول لأبي: زوِّجني بها. ولا أترك نصف النهار يفوت حتى أفوز بوصلها، وأتملَّى بحسنها وجمالها. ثم إن قمر الزمان مال إلى بدور ليقبِّلها، فارتعدت ميمونة الجنية وخجلت، وأما العفريت دهنش فإنه طار من الفرح. ثم إن قمر الزمان لما أراد أن يقبِّلها في فمها استحى من الله، ولفت وجهه وقال في نفسه: أنا أصبر لئلا يكون والدي لما غضب عليَّ وحبسني في هذا الموضع، جاء لي بهذه العروسة وأمرها بالنيام جنبي ليمتحنني بها، وأوصاها أني إذا نبَّهتها لا تستيقظ، وقال لها: أي شيء فعل بك قمر الزمان فأعلميني به. وربما يكون والدي واقفًا مستخفيًا في مكان بحيث يطلع عليَّ وأنا لا أنظره، فينظر جميع ما أفعله بهذه الصبية، وإذا أصبح يوبِّخني ويقول لي: كيف تقول ما لي أرب في الزواج، وأنت قبَّلت تلك الصبية وعانقتها؟ فأنا أكفُّ نفسي عنها لئلا ينكشف أمري مع والدي، فأنا لا ألمس هذه الصبية من تلك الساعة ولا ألتفت لها، غير أني آخذ لي منها شيئًا يكون أمارة عندي وتذكرة لها، حتى يبقى بيني وبينها إشارة. ثم إن قمر الزمان رفع كف الصبية، وأخذ خاتمها من خنصرها، وهو يساوي جملةً من المال؛ لأن فصَّه من نفيس الجواهر، ومنقوش في دائرته هذه الأبيات:

لَا تَحْسَبُوا أَنِّي نَسِيتُ عُهُودَكُمْ مَهْمَا أَطَلْتُمْ فِي الزَّمَانِ صُدُودَكُمْ
يَا سَادَتِي جُودُوا عَلَيَّ وَأَعْطِفُوا فَعَسَى أُقَبِّلُ ثَغْرَكُمْ وَخُدُودَكُمْ
وَاللهِ إِنِّي لَسْتُ أَبْرَحُ عَنْكُمُ مَهْمَا عَدَيْتُمْ فِي الْغَرَامِ حُدُودَكُمْ

ثم إن قمر الزمان نزع ذلك الخاتم من خنصر الملكة بدور، ولبسه في خنصره، وأدار ظهره إليها ونام. ففرحت ميمونة الجنية لما رأت ذلك، وقالت لدهنش وقشقش: هل رأيتما محبوبي قمر الزمان، وما فعله من العفة عن هذه الصبية؟ فهذا من كمال محاسنه، فانظرَا كيف رأى هذه الصبية وحسنها وجمالها ولم يعانقها، ولم يملِّس بيده عليها، بل أدار ظهره إليها ونام. فقالَا لها: قد رأينا ما صنع من الكمال. فعند ذلك انقلبت ميمونة وجعلت نفسها برغوثًا، ودخلت ثياب بدور محبوبة دهنش، ومشت على ساقها، وطلعت على فخذها، ومشت تحت سُرَّتها مقدار أربعة قراريط ولدغتها، ففتحت عينيها، واستوت قاعدة، فرأت شابًّا نائمًا بجانبها وهو يغطُّ في نومه، وله خدود كشقائق النعمان، ولواحظ تُخجِل الحورَ الحسان، وفم كأنه خاتم سليمان، وريقه حلو المذاق، وأنفع من الترياق، كما قال فيه بعض واصفيه:

سَلِي خَاطِرِي عَنْ زَيْنَبٍ وَنَوَارِي ... بِـوَرْدَةِ خَـدٍّ فَـوْقَ آسِ عِـذَارِ
وَأَصْبَحْتُ بِالظَّبْيِ الْمُقَرْطَقِ مُغْرَمًا ... وَلَا رَأْيَ لِي فِي عِشْقِ ذَاتِ سِوَارِ
أَنِيسِيَ فِي النَّادِيَ وَفِي خَلْوَتِي مَعًا ... خِـلَافُ أَنِـيـسِـي فِـي قَرَارَةِ دَارِي
فَيَا لَائِمِي فِي هَجْرِ هِنْدٍ وَزَيْنَبٍ ... وَقَدْ لَاحَ عُذْرِي كَالصَّبَاحِ لِسَارِ
أَتَرْضَى بِأَنْ أُمْسِي أَسِيرَ أَسِيرَةٍ ... مُـحَـصَّـنَـةٍ أَوْ مِـنْ وَرَاءِ جِـدَارِ

ثم إن الملكة بدور لما رأت قمر الزمان، أخذها الهيام، والوجد والغرام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٨٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة بدور لما رأت قمر الزمان أخذها الهيام، والوجد والغرام، وقالت في نفسها: وا فضيحتاه! إن هذا شاب غريب لا أعرفه، ما باله راقدًا بجانبي في فراش واحد؟ ثم نظرت إليه بعيونها، وحقَّقت النظر فيه وفي ظُرفه ودلاله، وحسنه وجماله، ثم قالت: وحق الله إنه شاب مليح مثل القمر، إلا أن كبدي تكاد أن تتمزق وجدًا عليه، وشغفًا بحسنه وجماله، فيا فضيحتي منه، والله لو علمت أن هذا الشاب هو الذي خطبني من أبي ما رددتُه، بل كنت أتزوَّجه وأتملَّى بجماله.

ثم إن الملكة بدور تطلعت من وقتها وساعتها في وجه قمر الزمان، وقالت له: يا سيدي، وحبيب قلبي، ونور عيني، انتبه من منامك، وتمتع بحسني وجمالي. ثم حرَّكته بيدها، فأرخت عليه ميمونة الجنية النوم، وثقَّلت على رأسه بجناحها، فلم يستيقظ قمر الزمان، فهزَّته الملكة بدور بيديها، وقالت له: بحياتي عليك أن تطيعني، فانتبه من منامك، وانظر النرجس والخضرة، وتمتَّعْ ببطني والسرَّة، وهارِشْني وناغِشْني من هذا الوقت إلى بكرة، قم يا سيدي، واتَّكئ على المخدة ولا تنم. فلم يجبها قمر الزمان بجواب، ولم يرد عليها خطابًا، بل غط في النوم، فقالت الملكة بدور: ما لك تائهًا بحسنك وجمالك، وظرفك ودلالك؟ فكما أنت مليح أنا الأخرى مليحة، فما هذا الذي تفعله؟ هل هم علَّموك الصدَّ عني، أو أبي الشيخ النحس منعك من أن تكلمني في هذه الليلة؟ ففتح قمر الزمان عينيه فازدادت فيه محبة، وألقى الله محبته في قلبها، ونظرته نظرة أعقبتها ألف حسرة، فخفق فؤادها، وتقلقلت أحشاؤها، واضطربت جوارحها، وقالت لقمر الزمان: يا سيدي كلِّمني، يا حبيبي حدِّثني، يا معشوقي ردَّ عليَّ الجواب، وقل لي ما اسمك؛ فإنك سلبت عقلي.

كل ذلك وقمر الزمان مستغرق في النوم، ولم يرد عليها بكلمة، فتأوَّهت الملكة بدور، وقالت: ما لك معجبًا بنفسك؟ ثم هزَّته وقبَّلت يده، فرأت خاتمها في إصبعه الخنصر، فشهقت شهقة واتبعتها بغنجة، وقالت: أوَّه أوَّه! والله أنت حبيبي وتحبني، ولكن كأنك تُعرِض عني دلالًا مع أنك جئتني وأنا نائمة، وما أعرف كيف عملت أنت معي، ولكن ما أنا قالعة خاتمي من خنصرك. ثم فتحت جيب قميصه ومالت عليه، وقبَّلت رقبته، وفتَّشت على شيء تأخذه منه فلم تجد معه شيئًا، ورأته بغير سروال، فمدت يدها من تحت ذيل قميصه، وجست سيقانه فزلقت يدها من نعومة جسمه، وسقطت على أيره، فانصدع قلبها وارتجف فؤادها؛ لأن شهوة النساء أقوى من شهوة الرجال، وخجلت، ثم نزعت خاتمه من إصبعه، ووضعته في إصبعها عوضًا عن خاتمها، وقبَّلته في ثغره، وقبَّلت كفَّيه، ولم تترك فيه موضعًا إلا قبَّلته، وبعد ذلك أخذته في حضنها وعانقته، ووضعت إحدى يديها تحت رقبته، والأخرى من تحت إبطه، ونامت بجانبه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٨٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة بدور نامت بجانب قمر الزمان، وجرى منها ما جرى. فلما رأت ذلك ميمونة فرحت غاية الفرح، وقالت لدهنش: هل رأيت يا ملعون كيف فعلت معشوقتك من الوله بمعشوقي؟ وكيف فعل معشوقي من التيه والدلال؟ فلا شك أن معشوقي أحسن من معشوقتك، ولكن عفوت عنك. ثم كتبت له ورقةً بالعتق، والتفتت إلى قشقش وقالت له: ادخل معه، واحمل معشوقته، وساعده على وصولها إلى مكانها؛ لأن الليل مضى، وفاتني مطلوبي. فتقدَّمَ دهنش وقشقش إلى الملكة بدور، ودخلَا تحتها وحملاها، وطارَا بها وأوصلاها إلى مكانها، وأعاداها إلى فراشها، واختلت ميمونة بالنظر إلى قمر الزمان وهو نائم، حتى لم يبقَ من الليل إلا القليل، ثم توجَّهت إلى حال سبيلها.

فلما انشقَّ الفجر انتبه قمر الزمان من منامه، والتفت يمينًا وشمالًا فلم يجد الصبية عنده، فقال في نفسه: ما هذا الأمر؟ كأن أبي يرغِّبني في الزواج بالصبية التي كانت عندي، ثم أخذها سرًّا لأجل أن تزداد رغبتي في الزواج. ثم صرخ على الخادم الذي هو نائم على الباب، وقال له: ويلك يا ملعون قم! فقام الخادم وهو طائش العقل من النوم، ثم قدم له الطشت والإبريق، فقام قمر الزمان ودخل المستراح، وقضى حاجته وخرج، فتوضأ وصلى الصبح، وجلس يسبح الله، ثم نظر إلى الخادم فوجده واقفًا في خدمته بين يديه، فقال له: ويلك يا صواب! من جاء هنا وأخذ الصبية من جنبي وأنا نائم؟ فقال له الخادم: يا سيدي، أي شيء الصبية؟ فقال قمر الزمان: الصبية التي كانت نائمة عندي في هذه الليلة. فانزعج الخادم من كلام قمر الزمان، وقال له: لم يكن عندك صبية ولا غيرها، ومن أين دخلت الصبية وأنا نائم وراء الباب وهو مقفول؟ والله يا سيدي ما دخل عليك ذكر ولا أنثى. فقال له قمر الزمان: تكذب يا عبد النحس، وهل وصل من قدرك أنت الآخر أنك تخادعني ولا تخبرني أين راحت هذه الصبية التي كانت نائمة عندي في هذه الليلة،

ولم تخبرني بالذي أخذها من عندي؟ فقال الطواشي وقد انزعج منه: والله يا سيدي ما رأيت صبية ولا صبيًّا. فغضب قمر الزمان من كلام الخادم وقال له: إنهم علَّموك الخداع يا ملعون، فتعال عندي. فتقدَّمَ الخادم إلى قمر الزمان فأخذ بأطواقه، وضرب به الأرض فضرط، ثم برك عليه قمر الزمان ورفصه برجله، وخنقه حتى غشي عليه، ثم بعد ذلك ربطه في سلبة البئر وأدلاه فيه إلى أن وصل إلى الماء وأرخاه، وكانت تلك الأيام أيام برد وشتاء قاطع، فغطس الخادم في الماء، ثم نشله قمر الزمان وأرخاه، وما زال يغطِّس ذلك الخادم في الماء وينشله منه، والخادم يستغيث ويصرخ ويصيح، وقمر الزمان يقول له: والله يا ملعون، ما أطلعك من هذه البئر حتى تخبرني بخبر هذه الصبية وقضيتها، ومَن الذي أخذها وأنا نائم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٨٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخادم قال لقمر الزمان: أنقذني من البئر يا سيدي، وأنا أخبرك بالصحيح. فجذبه من البئر وأطلعه وهو غائب عن الوجود من شدة ما قاساه من الغرق والغطاس، والبرد والضرب والعذاب، وصار يرتعد مثل القصبة في الريح العاصف، واشتبكت أسنانه في بعضها، وابتلَّتْ ثيابه بالماء، فلما رأى الخادم نفسه على وجه الأرض قال له: دعني يا سيدي أروح وأقلع ثيابي وأعصرها وأنشرها في الشمس وألبس غيرها، ثم أحضر إليك سريعًا وأخبرك بأمر تلك الصبية، وأحكي لك حكايتها. فقال له قمر الزمان: والله يا عبد النحس، لولا أنك عاينت الموت ما أقررت بالحق، فاخرج لقضاء أغراضك وعُد إليَّ بسرعة، واحكِ لي حكاية الصبية وقصَّتها.

فعند ذلك خرج الخادم وهو لا يصدق بالنجاة، ولم يزل يجري إلى أن دخل على الملك شهرمان أبي قمر الزمان، فوجد الوزير بجانبه، وهما يتحدثان في أمر قمر الزمان، فسمع الملك يقول للوزير: إني ما نمت في هذه الليلة من اشتغال قلبي بولدي قمر الزمان، وأخشى أن يجري له شيء من هذا البرج العتيق، وما كان في سجنه شيء من المصلحة. فقال له الوزير: لا تَخَفْ عليه، والله لا يصيبه شيء، ودعه مسجونًا شهر زمان حتى تلين عريكته. فبينما هما في الكلام، وإذا بالخادم دخل عليهما وهو في تلك الحالة، وقال له: يا مولانا السلطان، إن ولدك حصل له جنون، وقد فعل بي هذه الفعال، وقال لي: إن صبية باتت عندي في هذه الليلة، وذهبت بخفية فأخبِرْني بخبرها. وأنا لا أعرف ما شأن هذه الصبية. فلما سمع السلطان شهرمان هذا الكلام عن ولده قمر الزمان، صرخ قائلًا: وا ولداه! وغضب على الوزير الذي كان سببًا في هذه الأمور غضبًا شديدًا، وقال له: قم اكشف لي خبر ولدي قمر الزمان. فخرج الوزير وهو يتعثر في أذياله من خوفه من الملك، وراح مع الخادم إلى البرج، وكانت الشمس قد طلعت، فدخل الوزير على قمر

الزمان فوجده جالسًا على السرير يقرأ القرآن، فسلَّم عليه الوزير وجلس إلى جانبه، وقال له: يا سيدي، إن هذا العبد النحس أخبرنا بخبر شوَّش علينا وأزعجنا، فاغتاظ الملك من ذلك. فقال له قمر الزمان: أيها الوزير، وما الذي قاله لكم عني حتى شوَّش على أبي، وفي الحقيقة هو ما شوش إلا عليَّ؟ فقال له الوزير: إنه جاءنا بحالة منكرة، وقال لنا قولًا حاشاك منه، وكذب علينا بما لا ينبغي أن يُذكَر في شأنك، فسلامة شبابك، وعقلك الرجيح، ولسانك الفصيح، وحاشا أن يصدر منك شيء قبيح. فقال له قمر الزمان: فأيُّ شيء قال هذا العبد النحس؟ فقال له الوزير: إنه أخبرنا أنك جُنِنت وقلتَ له: كان عندي صبية في الليلة الماضية. فهل قلت للخادم هذا الكلام؟ فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام اغتاظ غيظًا شديدًا، وقال للوزير: تبيَّنَ لي أنكم علَّمتم الخادمَ الفعل الذي صدر منه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٨٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان بن الملك شهرمان قال للوزير: تبيَّنَ لي أنكم علَّمتم الخادم الفعل الذي صدر منه، ومنعتموه من أن يخبرني بأمر الصبية التي كانت نائمة عندي في هذه الليلة، وأنت أيها الوزير أعقل من الخادم، فأخبرني في هذه الساعة أين ذهبت الصبية المليحة التي كانت نائمة في حضني تلك الليلة؟ فأنتم الذين أرسلتموها عندي، وأمرتموها أن تبيت في حضني، ونمت معها إلى الصباح، فلما انتبهت ما وجدتها، فأين هي الآن؟ فقال الوزير: يا سيدي قمر الزمان، اسم الله حواليك، والله ما أرسلنا لك في هذه الليلة أحدًا، وقد نمت وحدك، والباب مقفول عليك، والخادم نائم من خلف الباب، وما أتى إليك صبية ولا غيرها، فارجع إلى عقلك يا سيدي، ولا تشغل خاطرك. فقال له قمر الزمان وقد اغتاظ من كلامه: أيها الوزير، إن تلك الصبية معشوقتي، وهي المليحة صاحبة العيون السود والخدود الحمر التي عانقتها في هذه الليلة.

فتعجَّبَ الوزير من كلام قمر الزمان، وقال له: هل رأيتَ تلك الصبية في هذه الليلة بعينك في اليقظة أم في المنام؟ فقال له قمر الزمان: يا أيها الشيخ النحس، أتظن أني رأيتها بأُذُني؟! إنما رأيتها بعيوني في اليقظة، وقلَّبتها بيدي، وسهرت معها نصف ليلة كاملة، وأنا أتفرج على حسنها وجمالها، وظرفها ودلالها، وإنما أنتم أوصيتموها أنها لا تكلِّمني، فجعلت نفسها نائمة، فنمت بجانبها إلى الصباح، ثم استيقظت من منامي فلم أجدها. فقال له الوزير: يا سيدي قمر الزمان، ربما تكون رأيت هذا الأمر في المنام، فيكون أضغاث أحلام أو تخيُّلات من أكل مختلف الطعام، أو وسوسة من الشياطين اللئام. فقال له قمر الزمان: يا أيها الشيخ النحس، كيف تهزأ بي أنت الآخر وتقول لي لعلَّ هذا أضغاث أحلام، مع أن الخادم قد أقرَّ لي بتلك الصبية، وقال لي: في هذه الساعة أعود إليك وأخبرك بقصتها؟

ثم إن قمر الزمان قام من وقته، وتقدَّم إلى الوزير، وقبض لحيته في يده، وكانت لحيته طويلة، فأخذها قمر الزمان ولفَّها على يده وجذبه منها، فرماه من فوق السرير وألقاه على الأرض؛ فحسَّ الوزير أن روحه طلعت من شدة نتف لحيته، وما زال قمر الزمان يرفص الوزير برجليه ويصفعه على قفاه بيديه حتى كاد أن يُهلِكه، فقال الوزير في نفسه: إذا كان العبد الخادم خلَّص نفسه من هذا الصبي المجنون بكذبة، فأنا أولى بذلك منه، وأخلص نفسي أنا الآخر بكذبة، وإلا يهلكني، فها أنا أكذب وأخلِّص روحي منه، فإنه مجنون لا شك في جنونه. ثم إن الوزير التفت إلى قمر الزمان وقال له: يا سيدي لا تؤاخذني، فإن والدك أوصاني أن أكتم عنك خبر هذه الصبية، وأنا الآن عجزت وكلَّيت من الضرب؛ لأني بقيت رجلًا كبيرًا، وليس لي قوة على تحمُّل الضرب، فتمهَّل عليَّ قليلًا حتى أحدثك بقصة الصبية. فعند ذلك منع عنه الضرب وقال له: لأي شيء لم تخبرني بخبر تلك الصبية إلا بعد الضرب والإهانة؟ فقُمْ يا أيها الشيخ النحس، واحكِ لي خبرها. فقال له الوزير: هل أنت تسأل عن تلك الصبية صاحبة الوجه المليح والقد الرجيح؟ فقال له قمر الزمان: نعم، أخبرني أيها الوزير مَن الذي جاء بها إليَّ وأنامها عندي؟ وأين هي في هذه الساعة حتى أروح أنا إليها بنفسي؟ فإن كان أبي الملك شهرمان فعل معي هذه الفعال، وامتحنني بتلك الصبية المليحة من أجل زواجها، فأنا رضيت أن أتزوَّج بها، فإنه ما فعل معي هذا الأمر كله وولع خاطري بتلك الصبية وبعد ذلك حجبها عني، إلا من أجل امتناعي من الزواج، فها أنا رضيت بالزواج، ثم رضيت بالزواج، فأَعْلِمْ والدي بذلك أيها الوزير، وأشر إليه أن يزوِّجني بتلك الصبية، فإني لا أريد سواها، وقلبي لم يعشق إلا إياها، فقُمْ وأسرِعْ إلى أبي، وأشِرْ إليه بتعجيل زواجي، ثم عُدْ إليَّ قريبًا في هذه ساعة. فما صدق الوزير بالخلاص من قمر الزمان حتى خرج من البرج وهو يجري إلى أن دخل على الملك شهرمان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٨٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير خرج يجري من البرج إلى أن دخل على الملك شهرمان، فلما دخل عليه قال له الملك: أيها الوزير، ما لي أراك في ارتباك؟ ومَن الذي بشرِّه رماك حتى جئتَ مرعوبًا؟ فقال للملك: إني قد جئتك ببشارة. قال له الملك: وما تلك البشارة؟ قال له: اعلم أن ولدك قمر الزمان قد حصل له جنون. فلما سمع الملك كلام الوزير، صار الضياء في وجهه ظلامًا، وقال له: أيها الوزير، أوضح لي صفة جنون ولدي. قال له الوزير: سمعًا وطاعة. ثم أخبره بما صدر من ولده، فقال له الملك: أبشِرْ أيها الوزير، إني أعطيتك في نظير بشارتك إياي بجنون ولدي ضربَ رقبتك، وزوال النِّعَم عنك، يا أنحس الوزراء وأخبث الأمراء؛ لأني أعلم أنك سبب جنون ولدي بمشورتك ورأيك التعيس الذي أشرتَ به عليَّ في الأول والآخر، والله إن كان يأتي على ولدي شيء من الضرر أو الجنون؛ لَأسمِّرنك على القبة، وأُذِيقك النكبة. ثم إن الملك نهض قائمًا على قدمَيْه، وأخذ الوزير معه ودخل به البرج الذي فيه قمر الزمان، فلما وصلَا إليه قام قمر الزمان على قدمَيْه لوالده، ونزل سريعًا من فوق السرير الذي هو جالس عليه، وقبَّلَ يدَيْه، ثم تأخَّر وراءه وأطرق رأسه إلى الأرض وهو مكتَّف اليدين قدَّام أبيه، ولم يزل كذلك ساعة زمانية، وبعد ذلك رفع رأسه إلى والده، وفرَّت الدموع من عينَيْه، وسالت على خدِّه، وأنشد قول الشاعر:

إِنْ كُنْتُ قَدْ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا سَالِفًا   فِي حَقِّكُمْ وَأَتَيْتُ شَيْئًا مُنْكَرَا
أَنَا تَائِبٌ عَمَّا جَنَيْتُ وَعَفْوُكُمْ   يَسَعُ الْمُسِيءَ إِذَا أَتَى مُسْتَغْفِرَا

فعند ذلك قام الملك وعانَقَ ولده قمر الزمان، وقبَّله بين عينيه، وأجلسه إلى جانبه فوق السرير، ثم التفت إلى الوزير بعين الغضب وقال له: يا كلب الوزراء، كيف تقول على

ولدي قمر الزمان ما هو كذا وكذا وترعب قلبي عليه؟ ثم التفت إلى ولده وقال له: يا ولدي، ما اسم هذا اليوم؟ فقال له: يا والدي هذا يوم السبت، وغدًا يوم الأحد، وبعده يوم الإثنين، وبعده الثلاثاء، وبعده الأربعاء، وبعده الخميس، وبعده الجمعة. فقال له الملك: يا ولدي قمر الزمان، الحمد لله على سلامتك، ما اسم هذا الشهر الذي علينا بالعربي؟ فقال: اسمه ذو القعدة، ويليه ذو الحجة، وبعده المحرم، وبعده صفر، وبعده ربيع الأول، وبعده ربيع الثاني، وبعده جمادى الأولى، وبعده جمادى الثانية، وبعده رجب، وبعده شعبان، وبعده رمضان، وبعده شوَّال. ففرح بذلك الملك فرحًا شديدًا، وبصق في وجه الوزير وقال له: يا شيخ السوء، كيف تزعم أن ولدي قمر الزمان قد جُنَّ، والحال أنه ما جُنَّ إلا أنت؟ فعند ذلك حرَّك الوزير رأسه، وأراد أن يتكلم، ثم خطر بباله أن يتمهل قليلًا لينظر ماذا يكون.

ثم إن الملك قال لولده: يا ولدي، أي شيء هذا الكلام الذي تكلَّمتَ به للخادم والوزير حيث قلتَ لهما: إني كنت نائمًا أنا وصبية مليحة في هذه الليلة. فما شأن هذه الصبية التي ذكرتَها؟ فضحك قمر الزمان من كلام أبيه، وقال له: يا والدي، اعلم أنه ما بقي لي قوة تتحمَّل السخرية، فلا تزيدوا عليَّ شيئًا ولا بكلمة واحدة، فقد ضاق خلقي مما تفعلونه معي، واعلم يا والدي أني رضيت بالزواج، ولكن بشرط أن تزوِّجني تلك الصبية التي كانت نائمة عندي في هذه الليلة؛ فإني أتحقَّق أنك أنت الذي أرسلتها إليَّ، وشوَّقتني إليها، وبعد ذلك أرسلتَ إليها قبل الصبح، وأخذتها من عندي. فقال الملك: اسم الله حواليك يا ولدي، سلامة عقلك من الجنون. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان قال لولده قمر الزمان: اسم الله حواليك يا ولدي، سلامة عقلك من الجنون، فأي شيء هذه الصبية التي تزعم أني أرسلتها إليك في هذه الليلة، ثم أرسلت آخذها من عندك قبل الصباح؟ فوالله يا ولدي ليس لي علم بهذا الأمر، فبالله عليك أن تخبرني هل ذلك أضغاث أحلام أم تخيُّلات طعام؟ فإنك بتَّ في هذه الليلة وأنت مشغول الخاطر بالزواج، وموسوس بذكره، قبَّحَ الله الزواج وساعته، وقبَّحَ مَن أشار به، ولا شك أنك متكدِّر المزاج من جهة الزواج، فرأيتَ في المنام أن صبية مليحة تُعانِقك، وأنت تعتقد في بالك أنك رأيتها في اليقظة، وهذا كله يا ولدي أضغاث أحلام. فقال قمر الزمان: دَعْ عنك هذا الكلام، واحلف لي بالله الخالق العلام قاصم الجبابرة، ومبيد الأكاسرة، أنه لم يكن عندك خبر بالصبية ومحلها. فقال الملك: وحق الله العظيم إله موسى وإبراهيم، إنه لم يكن لي علم بذلك، ولعله أضغاث أحلام رأيتَه في المنام. فقال قمر الزمان لوالده: أنا أضرب لك مثلًا يبيِّن لك أن هذا كان في اليقظة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان قال لوالده: أنا أضرب لك مثلًا يبيِّن لك أن هذا كان في اليقظة؛ وهو أني أسألك: هل اتفق لأحد أنه رأى نفسه في المنام يقاتل، وقد قاتَلَ قتالًا شديدًا، وبعد ذلك استيقظ من منامه فوجد في يده سيفًا ملوَّثًا بالدم؟ فقال له والده: لا والله يا ولدي، لم يتفق هذا. فقال له قمر الزمان: أخبرك بما حصل لي؛ وهو أني رأيت في هذه الليلة كأني استيقظت من منامي نصف الليل، فوجدتُ بنتًا نائمة بجانبي، وقدُّها كقدِّي، وشكلها كشكلي، فعانقتها ومسكتها بيدي، وأخذت خاتمها ووضعته في إصبعي، وقلعت خاتمي ووضعته في إصبعها، وامتنعت عنها حياءً منك، وظننتُ أنك أرسلتها واستخفيت في موضعٍ لتنظر ما أفعل، واستحييتُ من أجل ذلك أن أقبِّلها في فمها حياءً منك، وخطر ببالي أنك تمتحنني بها حتى ترغِّبني في الزواج، وبعد ذلك انتبهتُ من منامي في وجه الصبح، فلم أجد للصبية أثرًا، ولا وقفت لها على خبر، وجرى لي مع الخادم والوزير ما جرى، فكيف يكون هذا الأمر كذبًا وأمرُ الخاتم صحيحٌ؟ ولولا الخاتم كنتُ أظنُّ أنه منام، وهذا خاتمها الذي في خنصري في هذه الساعة، فانظر أيها الملكُ الخاتمَ، ثم كم يساوي؟ ثم إن قمر الزمان ناوَلَ الخاتمَ لأبيه، فأخذه وقلَّبَه ثم التفت إلى ولده وقال له: إن لهذا الخاتم نبأً عظيمًا وخبرًا جسيمًا، وإن الذي اتفق لك في هذه الليلة مع تلك الصبية أمر مُشكل، ولا أعلم من أين دخل علينا هذا الدخيل، وما تسبَّب في هذا كله إلا الوزير، فبالله عليك يا ولدي أن تصبر، لعل الله يفرِّج عنك هذه الكربة، ويأتيك بالفرج العظيم، كما قال الشاعر:

عَسَى وَلَعَلَّ الدَّهْرَ يَلْوِي عِنَانَهُ   وَيَأْتِي بِخُبْرٍ فَالزَّمَانُ غَيُورُ
وَتَسْعَدُ آمَالِي وَتُقْضَى حَوَائِجِي   وَتَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ الْأُمُورِ أُمُورُ

فيا ولدي قد تحقَّقْتُ في هذه الساعة أنه ليس بك جنون، ولكن قضيتك ما يُجلِيها عنك إلا الله. فقال قمر الزمان لوالده: بالله يا والدي، إنك تفحص لي عن هذه الصبية، وتعجِّل بقدومها، وإلا مت كمدًا. ثم إن قمر الزمان أظهَرَ الوَجْد، والتفت إلى أبيه، وأنشد هذين البيتين:

إِنْ كَانَ وَعْدُكُمُ بِالْوَصْلِ تَزْوِيرُ فَفِي الْكَرَى وَاصِلُوا الْمُشْتَاقَ أَوْ زُورُوا
قَالُوا: وَكَيْفَ يَزُورُ الطَّيْفُ جَفْنَ فَتًى مَنَامُهُ عَنْهُ مَمْنُوعٌ وَمَحْجُورُ؟

ثم إن قمر الزمان بعد إنشاد هذه الأشعار، التفت إلى أبيه بخضوع وإنكار، وأفاض العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن قمر الزمان أفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات:

خُذُوا حِذْرَكُمْ مِنْ طَرْفِهَا فَهْوَ سَاحِرُ وَلَيْسَ بِنَاجٍ مَنْ رَمَتْهُ الْمَحَاجِرُ
وَلَا تُخْدَعُوا مِنْ رِقَّةٍ فِي كَلَامِهَا فَإِنَّ الْحُمَيَّا لِلْعُقُولِ تُخَامِرُ
مُنَعَّمَةٌ لَوْ لَامَسَ الْوَرْدُ خَدَّهَا بَكَتْ وَبَدَتْ مِنْ مُقْلَتَيْهَا الْبَوَاتِرُ
فَلَوْ فِي الْكَرَى مَرَّ النَّسِيمُ بِأَرْضِهَا سَرَى أَبَدًا مِنْ أَرْضِهَا وَهْوَ عَاطِرُ
قَلَائِدُهَا تَشْكُو رَنِينَ وِشَاحِهَا وَقَدْ خَرِسَتْ مِنْ مِعْصَمَيْهَا الْأَسَاوِرُ
إِذَا مَا اشْتَهَى الْخَلْخَالَ تَقْبِيلَ قُرْطِهَا بَدَتْ لِعُيُونِ الْوَصْلِ مِنْهَا الضَّمَائِرُ
وَلِي عَاذِلٌ فِي حُبِّهَا غَيْرُ عَاذِرٍ وَمَا تَنْفَعُ الْأَبْصَارُ لَوْلَا الْبَصَائِرُ
عُذُولِي لَحَاكَ اللهُ مَا أَنْتَ مُنْصِفٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْحُسْنِ تُثْنَى النَّوَاظِرُ

فلما فرغ من شعره، قال الوزير للملك: يا ملك الزمان، إلى متى وأنت محجوب عن العسكر عند ولدك قمر الزمان؟ فربما ينفسد عليك نظامُ المملكة بسبب بُعْدك عن أرباب دولتك، والعاقل إذا أَلَمَّتْ بجسمه أمراض مختلفة يجب عليه أن يبدأ بمداواة أعظمها، والرأي عندي أن تنقل ولدك من هذا المكان إلى القصر الذي في السراية المطل على البحر، وتنقطع عند ولدك فيه، وتجعل للموكب والديوان في كل جمعة يومين؛ الخميس والإثنين، فيدخل عليك فيهما الأمراء والوزراء، والحجَّاب والنوَّاب، وأرباب الدولة، وخواص المملكة، وأصحاب الصولة، وبقية العساكر والرعية، ويعرضون عليك أحوالهم، فاقضِ حوائجهم واحكم بينهم، وخذ وأعطِ معهم، وَأْمُر وَانْهَ بينهم، وبقية الجمعة تكون عند ولدك قمر

الزمان، ولا تزال على تلك الحالة حتى يفرِّج الله عنك وعنه، ولا تأمن أيها الملك من نوائب الزمان، وطوارق الحدثان؛ فإن العاقل دائمًا محاذر، وما أحسن قول الشاعر:

حَسَّنْتَ ظَنَّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ
يَا مَعْشَرَ النَّاسِ مَنْ كَانَ الزَّمَانُ لَهُ مُسَاعِدًا فَلْيَكُنْ مِنْ رَأْيِهِ الْحَذَرُ

فلما سمع السلطان من الوزير هذا الكلام، رآه صوابًا ونصيحةً في مصلحته، فأثَّر عنده وخاف أن ينفسد عليه نظام الملك، فنهض من وقته وساعته، وأمر بتحويل ولده من ذلك المكان إلى القصر الذي في السراية المطل على البحر، ويمشون إليه على ممشاة في وسط البحر عرضها عشرون ذراعًا، وبدائر القصر شبابيك مطلة على البحر، وأرض ذلك القصر مفروشة بالرخام الملون، وسقفه مدهون بأفخر الدهان من سائر الألوان، ومنقوش بالذهب واللَّازورد؛ ففرشوا لقمر الزمان فيه البُسُط الحرير، وألبسوا حيطانه الديباج، وأَرْخَوْا عليه الستارات المكلَّلة بالجواهر، ودخل فيه قمر الزمان، وصار من شدة العشق كثير السهر، فاشتغل خاطره، واصفرَّ لونه، وانتحل جسمه، وجلس والده الملك شهرمان عند رأسه وحزن عليه، وصار الملك في كل يوم إثنين ويوم خميس يأذن في أن يدخل عليه مَن شاء الدخول من الأمراء والوزراء، والحجَّاب والنواب، وأرباب الدولة، وسائر العساكر والرعية في ذلك القصر؛ فيدخلون عليه ويؤدُّون وظائفَ الخدمة، ويقيمون عنده إلى آخر النهار، ثم ينصرفون بعد ذلك إلى حال سبيلهم، وبعد ذلك يدخل الملك عند ولده قمر الزمان في ذلك المكان، ولا يفارقه ليلًا ولا نهارًا، ولم يزل على تلك الحالة مدة أيام وليالٍ من الزمان.

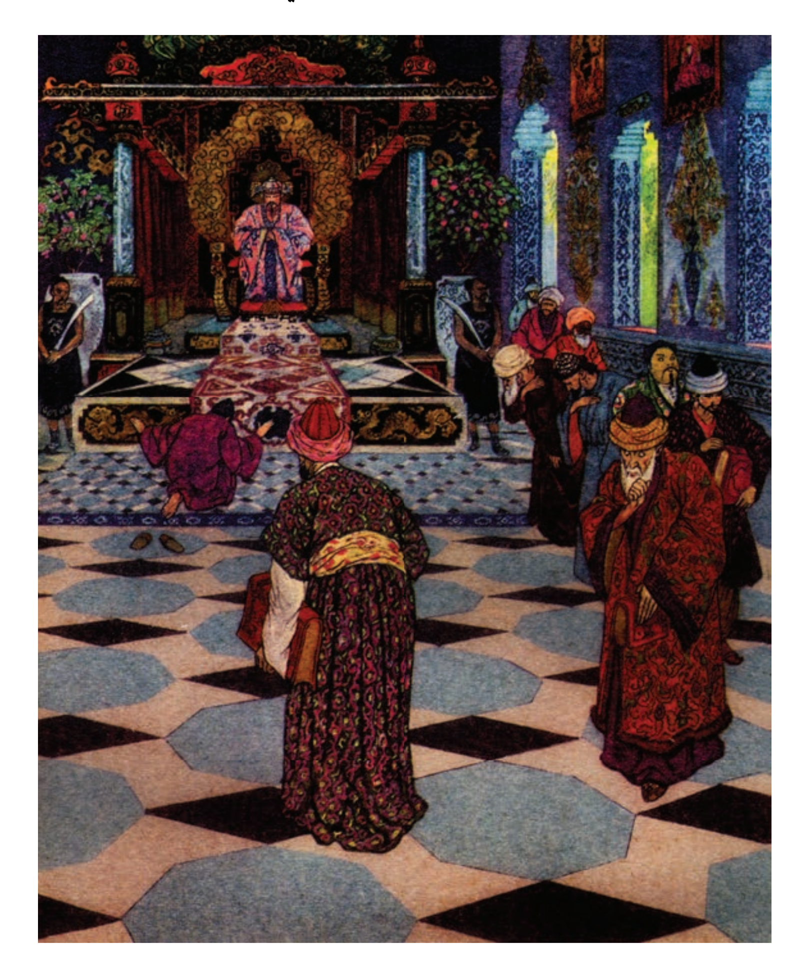
هذا ما كان من أمر قمر الزمان ابن الملك شهرمان، وأما ما كان من أمر الملكة بدور بنت الملك الغيور صاحب الجزائر والسبعة قصور، فإن الجن لما حملوها ونيَّموها في فراشها، لم يَبْقَ من الليل إلا ثلاث ساعات، ثم طلع الفجر فاستيقظت من منامها، وجلست والتفتت يمينًا وشمالًا فلم تَرَ معشوقها الذي كان في حضنها؛ فارتجف فؤادها، وزلَّ عقلها، وصرخت صرخةً عظيمة، فاستيقظ جميع جواريها والدَّايات والقهرمانات ودخلن عليها، فتقدَّمَتْ إليها كبيرتهن وقالت لها: يا سيدتي، ما الذي أصابك؟ فقالت لها: أيتها العجوز النحس، أين معشوقي الشاب المليح الذي كان نائمًا هذه الليلة في حضني؟ فأخبريني أين راح. فلما سمعت منها القهرمانة هذا الكلام، صار الضياء في وجهها ظلامًا،

وخافت من بأسها خوفًا عظيمًا، وقالت: يا سيدتي بدور، أي شيء هذا الكلام القبيح؟ فقالت السيدة بدور: ويلك يا عجوز النحس! أين معشوقي الشاب المليح، صاحب الوجه الصبيح، والعيون السود، والحواجب المقرونة، الذي كان بائتًا عندي من العشاء إلى قرب طلوع الفجر؟ فقالت: والله ما رأيت شابًّا ولا غيره، فبالله يا سيدتي لا تمزحي هذا المزاح الخارج عن الحد، فتروح أرواحنا، وربما بلغ أباك هذا المزاح، فمَن يخلِّصنا من يده؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن القهرمانة قالت للسيدة بدور: بالله عليك لا تمزحي هذا المزاح الخارج عن الحد، فإنه ربما بلغ أباك هذا المزاح، فمَن يخلِّصنا من يده؟ فقالت لها الملكة بدور: إنه كان غلام بائتًا عندي في هذه الليلة، وهو من أحسن الناس وجهًا. فقالت لها القهرمانة: سلامة عقلك، ما كان أحد بائتًا عندك في هذه الليلة. فعند ذلك نظرت بدور إلى يدها فوجدَتْ خاتمَ قمر الزمان في إصبعها، ولم تجد خاتمها، فقالت للقهرمانة: ويلك يا خائنة! أتكذبين عليَّ وتقولين ما كان أحد بائتًا عندي، وتحلفين لي بالله باطلًا؟ فقالت القهرمانة: والله ما كذبت عليك، ولا حلفت باطلًا. فاغتاظت منها السيدة بدور، وسحبت سيفًا كان عندها، وضربت القهرمانة فقتلتها، فعند ذلك صاح الخدم والجواري والسراري عليها، وراحوا إلى أبيها وأعلموه بحالها؛ فأتى الملك إلى ابنته السيدة بدور من وقته وساعته، وقال لها: يا بنتي ما خبرك؟ فقالت: يا أبي، أين الشاب الذي كان نائمًا بجانبي في هذه الليلة؟ وطار عقلها من رأسها، وصارت تلتفت بعينيها يمينًا وشمالًا، ثم شقَّت ثوبها إلى ذيلها، فلما رأى أبوها تلك الفعال، أمر الجواري والخدم أن يمسكوها، فقبضوا عليها وقيَّدوها، وجعلوا في رقبتها سلسلة من حديد، وربطوها في الشباك الذي في القصر.

هذا ما كان من أمر الملكة بدور، وأما ما كان من أمر أبيها الملك الغيور، فإنه لما رأى ما جرى من ابنته السيدة بدور، وضاقت عليه الدنيا؛ لأنه كان يحبها، فلم يهُنْ عليه أمرها، فعند ذلك أحضر المنجمين والحكماء وأصحاب الأقلام، وقال لهم: مَن أبرأ بنتي مما هي فيه زوَّجتُه بها، وأعطيتُه نصفَ مملكتي، ومَنْ لم يُبرِئها ضربت عنقَه، وعلَّقْتُ رأسه على باب قصرها، وصار كلُّ مَن دخل عليها ولم يبرئها يضرب عنقه ويعلق رأسه على باب القصر، ولم يزل يفعل ذلك إلى أن قطع من أجلها أربعين رأسًا؛ فطلب سائر الحكماء فتوقَّفَ جميع الناس عنها، وعجزت جميع الحكماء عن دوائها، وأشكلت قضيتها



فعند ذلك أحضَرَ المنجِّمين والحكماءَ وأصحابَ الأقلام لإبراء الملِكة.

على أهل العلوم وأرباب الأقلام، ثم إن السيدة بدور لما زاد بها الوَجْد والغرام، وأضرَّ بها العشق والهيام، أجرت العَبَرات، وأنشدت هذه الأبيات:

غَرَامِي فِيكَ يَا قَمَرِي غَرِيمِي وَذِكْرُكَ فِي دُجَى لَيْلِي نَدِيمِي
أَبِيتُ وَأَضْلُعِي فِيهَا لَهِيبٌ يُحَاكِي حَرُّهُ نَارَ الْجَحِيمِ
بُلِيتُ بِفَرْطِ وَجْدٍ وَاحْتِرَاقٍ عَذَابِي مِنْهُمَا أَضْحَى أَلِيمِي

ثم أنشدَتْ أيضًا:

سَلَامِي عَلَى الْأَحْبَابِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ ... فَإِنِّي إِلَى نَحْوِ الْحَبِيبِ أُرِيدُ
سَلَامِي عَلَيْكُمْ لَا سَلَامَ مُوَدِّعٍ ... سَلَامٌ كَثِيرٌ لَا يَزَالُ يَزِيدُ
وَإِنِّي لَأَهْوَاكُمْ وَأَهْوَى دِيَارَكُمْ ... وَلَكِنَّنِي عَمَّا أُرِيدُ بَعِيدُ

فلما فرغَتِ السيدة بدور من إنشاد هذه الأشعار، بكت حتى مرضت جفونها، وتذبَّلت وجناتها، ثم إنها استمرت على هذا الحال ثلاث سنين، وكان لها أخ من الرَّضَاع يُسمَّى مرزوان، وكان سافَرَ إلى أقصى البلاد، وغاب عنها تلك المدة بطولها، وكان يحبها محبةً زيادة على محبة الأخوَّة، فلما حضر دخل على والدته، وسألها عن أخته السيدة بدور، فقالت له: يا ولدي، إن أختك حصل لها جنون، ومضى لها ثلاث سنين، وفي رقبتها سلسلة من حديد، وعجزت الأطباء عن دوائها. فلما سمع مرزوان هذا الكلام قال: لا بد من دخولي عليها لعلي أعرف ما بها، وأقدر على دوائها. فلما سمعت كلامه قالت: لا بد من دخولك عليها، ولكن اصبر إلى غدٍ حتى أتحيَّلَ في أمرك.

ثم إن أمه ترجَّلت إلى قصر السيدة بدور، واجتمعت بالخادم الموكل بالباب، وأهدت له هدية وقالت له: إن لي بنتًا، وقد تربَّتْ مع السيدة بدور، وقد زوَّجتها، ولما جرى لسيدتك ما جرى صار قلبها متعلقًا بها، وأقصد فضلك في أن بنتي تأتي عندها ساعة لتنظرها، ثم ترجع من حيث جاءت، ولا يعلم بها أحد. فقال الخادم: لا يمكن ذلك إلا في الليل، فبعد أن يأتي السلطان ينظر ابنته ويخرج، ادخلي أنت وابنتك. فقبَّلَتِ العجوز يد الخادم وخرجت إلى بيتها، فلما جاء وقت العشاء في الليلة القابلة قامت من وقتها وساعتها، وأخذت ولدها مرزوان، وألبسته بدلة من ثياب النساء، وجعلت يده في يدها وأدخلته القصر، ولا زالت تمشي به حتى أوصلته إلى الخادم بعد انصراف السلطان من عند بنته، فلما رآها الخادم قام واقفًا، وقال لها: ادخلي ولا تطيلي القعود. فلما دخلت العجوز بولدها مرزوان، رأى السيدة بدور في تلك الحالة، فسلَّمَ عليها بعد أن كشفت عنه أمُّه ثيابَ النساء، فأخرج مرزوان الكتب التي معه وأوقد شمعةً، فنظرت إليه السيدة بدور فعرفته، وقالت له: يا أخي، أنت كنتَ سافرت وانقطعَتْ أخبارك عنَّا. فقال لها: صحيح، ولكن ردَّني الله بالسلامة، وأردت السفر ثانيًا، فما ردَّني عنه إلا هذا الخبر الذي سمعته

عنك؛ فاحترق فؤادي عليك، وجئت إليك لعلي أعرف داءك، وأقدر على دوائك. فقالت له: يا أخي، هل تحسب أن الذي اعتراني جنون. ثم أشارَتْ إليه وأنشدَتْ هذين البيتين:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ
نَعَمْ جُنِنْتُ فَهَاتُوا مَنْ جُنِنْتُ بِهِ إِنْ كَانَ يَشْفِي جُنُونِي لَا تَلُومُونِي

فعلم مرزوان أنها عاشقة، فقال لها: أخبريني بقصتك وما اتفق لك، لعلَّ الله أن يُطلِعني على ما فيه خلاصك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مرزوان قال للسيدة بدور: لعلَّ الله أن يُطلِعني على ما فيه خلاصك. فقالت له السيدة بدور: يا أخي اسمع قصتي، وذلك أني استيقظت من منامي ليلةً في الثلث الأخير من الليل وجلست، فنظرتُ إلى جانبي شابًّا أحسن ما يكون من الشباب، يكلُّ عن وصفه اللسان كأنه غصن بان أو قضيب خيزران، فظننتُ أن أبي هو الذي أمره بهذا الأمر ليمتحنني به؛ لأنه راوَدَني عن الزواج لما خطبني منه الملوك فأبيتُ، فهذا الظن هو الذي منعني من أن أنبِّهه، وخشيتُ أني إذا عانقتُه ربما يُخبِر أبي بذلك، فلما أصبحتُ رأيتُ بيدي خاتمَه عوضًا عن خاتمي؛ فهذه حكايتي، وأنا يا أخي قد تعلَّقَ قلبي به من حين رؤيته، ومن كثرة عشقي والغرام لم أذُقْ طعمَ المنام، وما لي شغل غير بكائي بالدموع الغزار، وإنشاد الأشعار بالليل والنهار. ثم أفاضت العَبَرات، وأنشدت هذه الأبيات:

أَبَعْدَ الْحُبِّ لَذَّاتِي تَطِيبُ — وَذَاكَ الظَّبْيُ مَرْتَعُهُ الْقُلُوبُ
دَمُ الْعُشَّاقِ أَهْوَنُ مَا عَلَيْهِ — وَفِيهِ مُهْجَةُ الْمُضْنَى تَذُوبُ
أَغَارُ عَلَيْهِ مِنْ نَظَرِي وَفِكْرِي — فَمِنْ بَعْضِي عَلَى بَعْضِي رَقِيبُ
وَأَجْفَانٌ لَهُ تَرْمِي سِهَامًا — فَوَاتِكَ فِي الْقُلُوبِ لَنَا تَصِيبُ
فَهَلْ لِي أَنْ أَرَاهُ قَبْلَ مَوْتِي — إِذَا مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا نَصِيبُ
وَأَكْتُمُ سِرَّهُ فَيَنِمُّ دَمْعِي — بِمَا عِنْدِي وَيَعْلَمُهُ الرَّقِيبُ
قَرِيبٌ وَصْلُهُ مِنِّي بَعِيدٌ — بَعِيدٌ ذِكْرُهُ مِنِّي قَرِيبُ

ثم إن السيدة بدور قالت لمرزوان: انظر يا أخي ما الذي تعمل معي في الذي اعتراني. فأطرق مرزوان رأسه إلى الأرض ساعةً وهو يتعجَّب، وما يدري ما يفعل، ثم رفع رأسه وقال لها: جميع ما جرى لك صحيح، وإن حكاية هذا الشاب أعيت فكري، ولكن أدور في جميع البلاد، وأفتِّش على دوائك؛ لعلَّ الله يجعله على يدي، فاصبري ولا تقلقي. ثم إن مرزوان ودَّعَها ودعا لها بالثبات، وخرج من عندها وهي تنشد هذه الأبيات:

وَيَخْطُو لِي خَيَالُكَ فِي ضَمِيرِي عَلَى بُعْدِ الْمَكَانِ خُطَى مَزُورِ
وَتُدْنِيكَ الْأَمَانِي مِنْ فُؤَادِي وَأَيْنَ الْبَرْقُ مِنْ لَمْحِ الْبَصِيرِ
فَلَا تَبْعُدْ لِأَنَّكَ نُورُ عَيْنِي إِذَا مَا غِبْتَ لَمْ تُكْحَلْ بِنُورِ

ثم إن مرزوان تمشَّى إلى بيت والدته فنام تلك الليلة، ولما أصبح الصباح تجهَّز للسفر فسافر، ولم يزل مسافرًا من مدينة إلى مدينة، ومن جزيرة إلى جزيرة مدة شهر كامل، ثم دخل مدينةً يقال لها الطيرب، واستنشق الأخبار من الناس لعله يجد دواء الملكة بدور، وكان كلما يدخل من مدينة أو يمر بها، يسمع أن الملكة بدور بنت الملك الغيور قد حصل لها جنون، ولم يزل يستنشق الأخبار حتى وصل إلى مدينة الطيرب، فسمع أن قمر الزمان ابن الملك شهرمان مريض، وأنه اعتراه وسواس وجنون، فلما سمع مرزوان بخبره سأل بعض أهل تلك المدينة عن بلاده ومحل تخته، فقالوا له: جزائر خالدان، وبيننا وبينها مسيرة شهر كامل في البحر، وأما في البر فستة أشهر. فنزل مرزوان في مركب إلى جزائر خالدان، وكانت المركب مجهَّزةً للسفر، وطاب لها الريح مدة شهر فبانت لهم المدينة، ولما أشرفوا عليها، ولم يَبْقَ لهم إلا الوصول إلى الساحل، خرج عليهم ريح عاصف فرمى القرية، ووقعت القلوع في البحر، وانقلبت المركب بجميع ما فيها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن المركب انقلبت بجميع ما فيها، واشتغل كل واحد بنفسه، وأما مرزوان فإنه جذبته قوة التيار جذبةً حتى أوصلته تحت قصر الملك الذي فيه قمر الزمان، وكان بالأمر المقدور قد اجتمع الأمراء والوزراء عنده للخدمة، والملك شهرمان جالس ورأس ولده قمر الزمان في حجره، وخادم ينش عليه. وكان قمر الزمان مضى له يومان وهو لم يأكل ولم يشرب ولم يتكلم، وصار الوزير واقفًا عند رجلَيْه قُريب الشباك المطل على البحر، فرفع الوزير بصره فرأى مرزوان قد أشرف على الهلاك من التيار، وبقي على آخِر نفس، فرَقَّ قلبُ الوزير إليه فتقرَّبَ إلى السلطان، ومدَّ رأسه إليه، وقال له: أستأذنك في أن أنزل إلى ساحة القصر وأفتح بابها لأنقذ إنسانًا قد أشرف على الغرق في البحر، وأطلعه من الضيق إلى الفرج، لعل الله بسبب ذلك يخلص ولدك مما هو فيه. فقال السلطان: كل ما جرى على ولدي بسببك، وربما أنك إذا أطلعت هذا الغريق، يطَّلِع على أحوالنا وينظر إلى ولدي وهو في هذه الحالة فيشمت بي، ولكن أقسم بالله إن طلع هذا الغريق ونظر إلى ولدي وخرج يتحدَّث مع أحد بأسرارنا، لَأضربن رقبتك قبله؛ لأنك أيها الوزير سبب ما جرى لنا أولًا وآخرًا، فافعل ما بَدَا لك. فنهض الوزير، وفتح باب الساحة، ونزل في المشاة عشرين خطوة، ثم خرج إلى البحر فرأى مرزوان مشرفًا على الموت، فمدَّ الوزير يده إليه ومسكه من شعر رأسه وجذبه منه، فخرج من البحر وهو في حال العدم، وقد امتلأ بطنه ماءً وبرزت عيناه، فصبر الوزير عليه حتى رُدَّتْ روحه إليه، ثم نزع عنه ثيابه وألبسه ثيابًا غيرها، وعمَّمه بعمامة من عمائم غلمانه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما فعل مع مرزوان ما فعل قال له: اعلم أني كنت سببًا لنجاتك من الغرق، فلا تكن سببًا لموتي وموتك. فقال مرزوان: وكيف ذلك؟ قال الوزير: لأنك في هذه الساعة تطلع وتشق بين أمراء ووزراء، والكل ساكتون لا يتكلمون من أجل قمر الزمان ابن السلطان. فلما سمع مرزوان ذِكْر قمر الزمان عرفه؛ لأنه كان يسمع بحديثه في البلاد، فقال مرزوان: ومَن قمر الزمان؟ فقال الوزير: هو ابن السلطان شهرمان، وهو ضعيف ملقًى على الفراش لا يقرُّ له قرار، ولا يعرف ليلًا من نهار، وكاد أن يفارق الحياة من نحول جسمه ويصير من الأموات؛ فنهاره في لهيب، وليله في تعذيب، وقد يئسنا من حياته، وأيقنَّا بوفاته، وإياك أن تُطِيل النظرَ إليه أو تنظر إلى غير الموضع الذي تحط فيه رجلك، وإلا تروح روحك وروحي. فقال له: بالله تخبرني عن الشاب الذي وصفته لي، ما سبب هذا الأمر الذي هو فيه؟ فقال له الوزير: لا أعلم سببًا، إلا أن والده من منذ ثلاث سنين كان يراوده عن أمر الزواج وهو يأبى، فأصبح يزعم أنه كان نائمًا فرأى بجنبه صبية بارعة الجمال، وجمالها يحيِّر العقول، ويعجز عنه الوصف، وذكر لنا أنه نزع خاتمًا من إصبعها ولبسه، وألبسها خاتمه، ونحن لا نعرف باطن هذه القضية؛ فبالله يا ولدي اطلع معي القصر، ولا تنظر إلى ابن الملك، بعد ذلك رُح إلى حال سبيلك؛ فإن السلطان قلبه ملآن عليَّ غيظًا. فقال مرزوان في نفسه: والله إن هذا هو المطلوب. ثم طلع مرزوان خلف الوزير إلى أن وصل إلى القصر، ثم جلس الوزير تحت رجلَيْ قمر الزمان، وأما مرزوان فإنه لم يكن له دأب إلا أنه مشى حتى وقف قدَّام قمر الزمان ونظر إليه، فمات الوزير في جلده، وصار ينظر إلى مرزوان ويغمزه ليروح إلى حال سبيله، ومرزوان يتغافل وينظر إلى قمر الزمان، وعلم أنه هو المطلوب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مرزوان لما نظر إلى قمر الزمان وعلم أنه هو المطلوب قال: سبحان الله الذي جعل قدَّه مثل قدِّها، وخدَّه مثل خدِّها، ولونه مثل لونها. ففتح قمر الزمان عينَيْه، وصغى بأذنَيْه، فلما رآه مرزوان صاغيًا إلى ما يُلقِيه من الكلمات، أنشد هذه الأبيات:

أَرَاكَ طَـرُوبًـا ذَا شَـجًـى وَتَـرَنُّـمِ ... تَمِيلُ إِلَى ذِكْرِ الْمَحَاسِنِ بِالْفَمِ
أَصَـابَكَ عِـشْـقٌ أَمْ رُمِيتَ بِأَسْـهُـمٍ ... فَـمَـا هَـذِهِ إِلَّا سَـجِـيَّـةُ مَـنْ رُمِـي
أَلَا فَاسْقِنِي كَاسَاتِ خَمْرٍ وَغَنِّ لِي ... بِـذِكْـرِ سُـلَـيْـمَـى وَالـرَّبَـابِ وَتَـنْـعَـمِ
أَغَارُ عَلَى أَعْطَافِهَا مِنْ ثِيَابِهَا ... إِذَا لَـبِـسَـتْـهَـا فَـوْقَ جِـسْـمٍ مُـنَـعَّـمِ
وَأَحْـسِـدُ كَـاسَـاتٍ تُـقَـبِّـلُ ثَـغْـرَهَـا ... إِذَا وَضَعَتْهَا مَوْضِعَ اللَّثْمِ فِي الْفَمِ
فَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي قُتِلْتُ بِصَارِمٍ ... وَلَـكِنْ لِـحَـاظٌ قَدْ رَمَتْنِي بِأَسْـهُـمِ
وَلَـمَّـا تَـلَاقَـيْـنَـا وَجَـدْتُ بَـنَـانَـهَـا ... مُـخَـضَّـبَـةً تَـحْـكِـي عُـصَـارَةَ عَـنْـدَمِ
فَقَالَتْ وَأَلْقَتْ فِي الْحَشَا لَاعِجَ الْجَوَى ... مَـقَـالَـةَ مَـنْ لِـلْـحُـبِّ لَـمْ يَـتَـكَـتَّـمِ
رُوَيْدَكَ مَا هَذَا خِضَابٌ خَضِبْتُهُ ... فَلَا تَكُ بِالْبُهْتَانِ وَالزُّورِ مُتْهِمِي
وَلَـكِـنَّـنِـي لَـمَّـا رَأَيْـتُـكَ نَـائِـمًـا ... وَقَدْ كُشِّفَتْ كَفِّي وَزَنْدِي وَمِعْصَمِي
بَكَيْتُ دَمًا يَوْمَ النَّوَى فَمَسَحْتُهُ ... بِـكَـفِّـيَ فَـابْـتَـلَّـتْ بَـنَـانِـيَ مِـنْ دَمِـي
فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... لَكُنْتُ شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَنِي الْبُكَا ... بُـكَـاهَـا فَـقُـلْـتُ: الْـفَـضْـلُ لِـلْـمُـتَـقَـدِّمِ
فَـلَا تَـعْـذُلُـونِـي فِـي هَـوَاهَـا لِأَنَّـنِـي ... وَحَـقِّ الْـهَـوَى فِـيـهَـا كَـثِـيـرُ الـتَّـأَلُّـمِ

بَكَيْتُ عَلَى مَنْ زَيَّنَ الْحُسْنَ وَجْهُهَا وَلَـيْسَ لَـهَا مِـثْلٌ بِـعُـرْبٍ وَأَعْـجَـمِ
لَـهَا عِـلْـمُ لُقْمَانَ وَصُورَةُ يُوسُفَ وَنَــغْــمَــةُ دَاوُدَ وَعِــفَّــةُ مَــرْيَــمِ
وَلِـي حِزْنُ يَعْقُوبَ وَحَسْرَةُ يُونُسَ وَبَــلْــوَةُ أَيُّــوبَ وَقِــصَّــةُ آدَمِ
فَلَا تَقْتُلُوهَا إِنْ قُتِلْتُ بِهَا جَوًى بَلَى فَاسْأَلُوهَا كَيْفَ حُلَّ لَهَا دَمِي

فلما أنشد مرزوان هذا الشعر، نزل على قلب قمر الزمان بردًا وسلامًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مرزوان لما أنشد هذا الشعر، نزل على قلب قمر الزمان بردًا وسلامًا، ودار لسانه في فمه، وأشار إلى السلطان بيده: دَعْ هذا الشاب يجلس في جانبي. فلما سمع السلطان من ولده قمر الزمان هذا الكلام، فرح فرحًا شديدًا بعد أن غضب على الشاب، وأضمر في نفسه أنه يرمي رقبته، ثم قام الملك وأجلس مرزوان إلى جانب ولده، وأقبَلَ عليه وقال له: من أي البلاد أنت؟ قال من الجزائر الجوَّانية، من بلاد الملك الغيور صاحب الجزائر والبحور والسبعة قصور. فقال له الملك شهرمان: عسى أن يكون الفرج على يدك لولدي قمر الزمان. ثم إن مرزوان أقبل على قمر الزمان، وقال له في أذنه: ثبِّتْ قلبك، وطِبْ نفسًا، وقرَّ عينًا؛ فإن التي صرتَ من أجلها هكذا لا تسأل عمَّا هي فيه من أجلك، ولكنك كتمت أمرك فضعفت، وأما هي فإنها أظهرَتْ ما بها فجُنَّت، وهي الآن مسجونة بأسوأ حال، وفي رقبتها غلٌّ من حديد، وإن شاء الله تعالى يكون دواؤكما على يدي. فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام، رُدَّتْ روحه إليه واستفاق، وأشار إلى الملك والده أن يُجلِسه، ففرح فرحًا زائدًا وأجلس ولده، ثم أخرج جميع الوزراء والأمراء، واتَّكأ قمر الزمان بين مخدتين، وأمر الملك أن يطيِّبوا القصر بالزعفران، ثم أمر بزينة المدينة، وقال لمرزوان: والله يا ولدي إن هذه طلعة مباركة. ثم أكرمه غاية الإكرام، وطلب لمرزوان الطعام فقدَّموا له، فأكل وأكل معه قمر الزمان، وبات عنده تلك الليلة، وبات الملك عندهما من فرحته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٩٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السلطان شهرمان بات تلك الليلة عندهما من شدة فرحته بشفاء ولده، فلما أصبح الصباح، صار مرزوان يحدِّث قمر الزمان بالقصة، وقال له: اعلم أنني أعرف التي اجتمعتَ بها، واسمها السيدة بدور بنت الملك الغيور. ثم حدَّثه بما جرى للسيدة بدور من الأول إلى الآخِر، وأخبره بفرط محبتها له، وقال له: جميع ما جرى لك مع والدك، جرى لها مع والدها، وأنت من غير شكٍّ حبيبُها وهي حبيبتُك؛ فثبِّتْ قلبك، وقوِّ عزيمتك، فها أنا أوصلك إليها، وأجمع بينك وبينها، وأعمل معكما كما قال بعض الشعراء:

إِذَا حَبِيبٌ صَدَّ عَنْ صَبِّهِ وَلَمْ يَزَلْ فِي فَرْطِ إِعْرَاضِ
أَلَّفْتُ وَصْلًا بَيْنَ شَخْصَيْهِمَا كَأَنَّنِي مِسْمَارُ مِقْرَاضِ

ولم يزل مرزوان يشجِّع قمر الزمان حتى أكل الطعام وشرب الشراب، ورُدَّت روحه إليه، ونَصَل مما كان فيه، ولم يزل مرزوان يحدِّثه وينادمه ويسلِّيه وينشد له الأشعار حتى دخل الحمام، وأمر والده بزينة المدينة فرحًا بذلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان لما دخل ولده قمر الزمان الحمَّام، أمر بزينة المدينة فرحًا بذلك، وخلع الخِلَع وتصدَّقَ، وأطلق مَن في الحبوس، ثم إن مرزوان قال لقمر الزمان: اعلم أنني ما جئتُ من عند السيدة بدور إلا لهذا الأمر، وهو سبب سفري؛ لأجل أن أخلِّصها مما هي فيه، وما بقي لنا إلا الحيلة في رواحنا إليها؛ لأن والدك لا يقدر على فراقك، ولكن في غدٍ استأذِنْ والدك في أنك تخرج إلى الصيد في البرية، وخذ معك خرجًا ملآنًا من المال، واركب جوادًا من الخيل، وخذ معك جنيبًا، وأنا الآخَر مثلك، وقُلْ لوالدك: إني أريد أن أتفرج في البرية وأتصيَّد، وأنظر الفضاء، وأبيت هناك ليلة واحدة، فلا تشغل قلبك عليَّ بشيء. ففرح قمر الزمان بما قاله مرزوان، ودخل على والده واستأذنه في الخروج إلى الصيد، وقال له الكلام الذي أوصاه به مرزوان، فأذن له والده في الخروج إلى الصيد، وقال له: لا تبت غير ليلة واحدة، وفي غد تحضر؛ فإنك تعلم أنه ما يطيب لي عيش إلا بك، وإنني ما صدقت أنك خلصت مما كنتَ فيه. ثم إن الملك شهرمان أنشد لولده هذين البيتين:

وَلَوْ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ وَكَانَتْ لِي الدُّنْيَا وَمُلْكُ الْأَكَاسِرَهْ
لَمَا وَازَنَتْ عِنْدِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ عَيْنِي لِشَخْصِكَ نَاظِرَهْ

ثم إن الملك جهَّز ولده قمر الزمان هو ومرزوان، وأمر أن يُهيَّأ لهما ستة من الخيل، وهجين برسم المال، وجمل يحمل الماء والزاد، ومنع قمر الزمان أن يخرج معه أحد في

خدمته، فودَّعه أبوه وضمه إلى صدره وقال له: سألتك بالله لا تَغِبْ عني إلا ليلة واحدة، وحرام عليَّ المنام فيها. وأنشد يقول:

وِصَالُكَ عِنْدِي أَلَذُّ نَعِيمْ وَصَبْرِي عَنْكَ أَضَرُّ أَلِيمْ
فَدَيْتُكَ إِنْ كَانَ ذَنْبِي الْهَوَى إِلَيْكَ فَذَنْبِي أَجَلُّ عَظِيمْ
أَعِنْدَكَ مِثْلِي نَارُ الْجَوَى فَأُصْلَى بِذَاكَ عَذَابُ الْجَحِيمْ

ثم خرج قمر الزمان ومرزوان وركبَا فرسين، ومعهما الهجين عليه المال، والجمل عليه الماء والزاد، واستقبلا البر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان ومرزوان لما استقبلَا البر سارَا أول يوم إلى المساء، ثم نزلَا وأكلَا وشربَا، وأطعمَا دوابهما، واستراحَا ساعة، ثم ركبَا وسارَا، وما زالَا سائرين مدة ثلاثة أيام، وفي رابع يوم بان لهما مكان متَّسع فيه غاب فنزلا فيه، ثم أخذ مرزوان جملًا وفرسًا وذبحهما، وقطع لحمهما قطعًا، ونجر عظمهما، وأخذ من قمر الزمان قميصه ولباسه، وقطَّعهما قطعًا، ولوَّثهما بدم الفرس، وأخذ ملوطة قمر الزمان ومزَّقها ولوَّثها بالدم، ورماها في مفرق الطريق، ثم أكلَا وشربَا وسافرَا، فسأله قمر الزمان عما فعله، فقال له مرزوان: اعلم أن والدك الملك شهرمان إذا غبتَ عنه ليلةً ولم تحضر له ثاني ليلة، يركب ويسافر في إثرنا إلى أن يصل إلى هذا الدم الذي فعلته، ويرى قماشك مقطعًا وعليه الدم، فيظن في نفسه أنه جرى لك شيء من قطاع الطريق أو وحش البر، فينقطع رجاؤه منك ويرجع إلى المدينة، ونبلغ بهذه الحيلة ما نريد. فقال قمر الزمان: نِعْمَ ما فعلتَ. ثم سارَا أيامًا ولياليَ، كل ذلك وقمر الزمان باكي العين إلى أن استبشر بقُرْب الديار، فأنشد هذه الأشعار:

أَتَجْفُو مُحِبًّا مَا سَلَا عَنْكَ سَاعَةً ... وَتَزْهَدُ فِيهِ بَعْدَمَا كُنْتَ رَاغِبَا
حُرِمْتُ الرِّضَا إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ فِي الْهَوَى ... وَعُوقِبْتُ بِالْهِجْرَانِ إِنْ كُنْتُ كَاذِبَا
وَمَا كَانَ لِي ذَنْبٌ فَأَسْتَوْجِبُ الْجَفَا ... وَإِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَقَدْ جِئْتُ تَائِبَا
وَمِنْ عَجَبِ الْأَيَّامِ أَنَّكَ هَاجِرِي ... وَمَا زَالَتِ الْأَيَّامُ تُبْدِي الْعَجَائِبَا

فلما فرغ قمر الزمان من شعره، بانت له جزائر الملك الغيور، ففرح قمر الزمان فرحًا شديدًا، وشكر مرزوان على فعله. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما بانت له جزائر الملك الغيور، فرح فرحًا شديدًا، وشكر مرزوان على فعله، ثم دخلا المدينة، وأنزله مرزوان في خان، واستراحا ثلاثة أيام من السفر، وبعد ذلك دخل بقمر الزمان الحمَّام وألبسه لبس التجار، وعمل له تخت رمل من ذهب، وعمل له عدة، وعمل له أصطرلابًا من الذهب، ثم قال له مرزوان: قُمْ يا مولاي، وقِفْ تحت قصر الملك ونادِ: أنا الحاسب الكاتب المنجِّم، فأين الطالب؟ فإن الملك إذا سمعك يرسل خلفك، ويدخل بك على ابنته محبوبتك، وهي لَمَّا تراك يزول ما بها من الجنون، ويفرح أبوها بسلامتها ويزوِّجها لك، ويقاسمك في ملكه؛ لأنه شرط على نفسه هذا الشرط. فقَبِل قمر الزمان ما أشار به مرزوان، وخرج من الخان وهو لابس البدلة، وأخذ معه العدَّة التي ذكرناها، ومشى إلى أن وقف تحت قصر الملك الغيور ونادى: أنا الكاتب الحاسب المنجِّم، أكتب الكتاب، وأُحكِم الحجاب، وأحسب الحساب، وأخطُّ بأقلام المطالب فأين الطالب؟ فلما سمع أهل المدينة هذا الكلام، وكان لهم مدة من الزمان ما رأوا حاسبًا ولا منجِّمًا، وقفوا حوله وتأمَّلوه؛ فتعجَّبوا من حسن صورته ورونق شبابه، وقالوا له: بالله عليك يا مولانا لا تفعل بنفسك هذه الفعال طمعًا في زواج بنت الملك الغيور، وانظر بعينك إلى هذه الرءوس المعلَّقة، فإن أصحابها كلهم قُتِلوا من أجل هذا الحال، فآلَ بهم الطمع إلى الوبال. فلم يلتفت قمر الزمان إلى كلامهم، بل رفع صوته ونادى: أنا كاتب حاسب، أُقرِّب المطالب للطالب. فتداخَلَ عليه الناس. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان نهته الناس فلم يسمع كلامهم، بل رفع صوته ونادى: أنا الكاتب الحاسب، أُقرِّب المطالب للطالب. فاغتاظوا منه جميعًا وقالوا له: ما أنت إلا شاب مكابر أحمق، ارحم شبابك وصغر سنك وحسنك وجمالك. فصاح قمر الزمان وقال: أنا المنجم والحاسب، فهل من طالب؟ فبينما الناس تنهى قمر الزمان عن هذه الحالة، إذ سمع الملك الغيور الصياح وضجَّة الناس، فقال للوزير: انزل ائتنا بهذا المنجِّم. فنزل الوزير وأخذ قمر الزمان، فلما دخل قمر الزمان على الملك قبَّلَ الأرض بين يديه، وأنشد هذين البيتين:

ثَمَانِيَةٌ فِي الْمَجْدِ حُزْتَ جَمِيعَهَا فَلَا زَالَ خَدَّامًا بِهِنَّ لَكَ الدَّهْرُ
يَقِينُكَ وَالتَّقْوَى وَمَجْدُكَ وَالنَّدَى وَلَفْظُكَ وَالْمَعْنَى وَعِزُّكَ وَالنَّصْرُ

فلما نظر الملك الغيور إليه أجلسه إلى جانبه وأقبل عليه، وقال له: يا ولدي، بالله لا تجعل نفسك منجِّمًا، ولا تدخل على شرطي؛ فإني ألزمت نفسي أن كل مَن دخل على بنتي ولم يُبرئها مما أصابها ضربتُ عنقه، ومَن أبرَأَها زوَّجته بها، فلا يغرَّنك حسنك وجمالك، وقدُّك واعتدالك، والله والله إن لم تُبرِئها لأضربن عنقك. فقال قمر الزمان: قبلت منك هذا الشرط. فأشهد عليه الملكُ الغيور القضاةَ، وسلَّمه إلى الخادم وقال له: أوصل هذا إلى السيدة بدور. فأخذه الخادم من يده ومشى به في الدهليز، فصار قمر الزمان سابقه، وصار الخادم يقول له: ويلك! لا تستعجل على هلاك نفسك، فوالله ما رأيت منجِّمًا يستعجل على هلاك نفسه إلا أنت، ولكنك لم تعرف أي شيء قدَّامك من الدواهي. فأعرَضَ قمر الزمان بوجهه عن الخادم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان أعرض بوجهه عن الخادم وأنشد هذه الأبيات:

أَنَا عَارِفٌ بِصِفَاتِ حُسْنِكَ جَاهِلٌ مُتَحَيِّرٌ لَمْ أَدْرِ مَا أَنَا قَائِلُ
إِنْ قُلْتُ شَمْسًا كَانَ حُسْنُكَ لَمْ يَغِبْ عَنِّي وَعَهْدِي بِالشُّمُوسِ أَوَافِلُ
كَمُلَتْ مَحَاسِنُكَ الَّتِي فِي وَصْفِهَا عَجَزَ الْبَلِيغُ وَحَارَ فِيهَا الْقَائِلُ

ثم إن الخادم أوقف قمر الزمان خلف الستارة التي على الباب، فقال له قمر الزمان: أيُّ الحالتين أحبُّ إليك؛ كوني أداوي سيدتك وأبرئها من هنا، أم أدخل إليها فأبرئها من داخل الستارة؟ فتعجَّب الخادم من كلامه وقال له: إن أبرأتها من هنا كان ذلك زيادة في فضلك. فعند ذلك جلس قمر الزمان خلف الستارة، وأطلع الدواة والقلم، وكتب في ورقةٍ هذه الكلمات: «مَن برح به الجفا، فدواؤه الوفا، والبلاء لَمَن يئس من حياته، وأيقن بحلول وفاته، وما لقلبه الحزين، من مسعف ولا معين، وما لطرفه الساهر، على الهم ناصر، فنهاره في لهيب، وليله في تعذيب، وقد انبرى جسمه من كثرة النحول، ولم يأته من حبيبه رسول كتب.» ثم كتب هذه الأبيات:

كَتَبْتُ وَلِي قَلْبٌ بِذِكْرِكِ مُولَعُ وَجَفْنٌ قَرِيحٌ مِنْ دِمَائِي يَدْمَعُ
وَجِسْمٌ كَسَاهُ لَاعِجُ الشَّوْقِ وَالْأَسَى قَمِيصُ نُحُولٍ فَهْوَ فِيهِ مُضَعْضَعُ
شَكَوْتُ الْهَوَى لَمَّا أَضَرَّ بِيَ الْهَوَى وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي لِلتَّصَبُّرِ مَوْضِعُ
إِلَيْكِ فَجُودِي وَارْحَمِي وَتَعَطَّفِي فَإِنَّ فُؤَادِي بِالْهَوَى يَتَقَطَّعُ

ثم كتب تحت الشعر هذه السجعات: «شفاء القلوب لقاء المحبوب، مَن جفاه حبيبه فالله طبيبه، مَن خان منكم ومنًّا لا نال ما يتمنَّى، ولا أظرف من المحب الوافي إلى الحبيب الجافي.» ثم كتب في الإمضاء: «من الهائم الولهان، العاشق الحيران، مَن أقلقه الشوق والغرام، أسير الوَجْد والهيام، قمر الزمان بن شهرمان، إلى فريدة الزمان، ونخبة الحور الحسان، السيدة بدور بنت الملك الغيور، اعلمي أنني في ليلي سهران، وفي نهاري حيران، زائد النحول والأسقام، والعشق والغرام، كثير الزفرات غزير العَبَرات، أسير الهوى قتيل الجوى، غريم الغرام نديم السقام، فأنا السهران الذي لا تهجع مقلته، والمتيم الذي لا ترفأ عبرته، فنارُ قلبي لا تُطفَى، ولهيب شوقي لا يخفَى.» ثم كتب في حاشية الكتاب هذا البيت المستطاب:

سَلَامٌ مِنْ خَزَائِنِ لُطْفِ رَبِّي ... عَلَى مَنْ عِنْدَهَا رُوحِي وَقَلْبِي

وكتب أيضًا:

هَبُوا لِي حَدِيثًا مِنْ حَدِيثِكُمُ عَسَى ... بِهِ تَرْحَمُونِي أَوْ يَقَرُّ جَنَانِي
وَمِنْ شَغَفِي فِيكُمْ وَوَجْدِيَ أَنَّنِي ... أُهَوِّنُ مَا أَلْقَاهُ وَهْوَ هَوَانِي
رَعَى اللهُ قَوْمًا شَطَّ عَنِّي مَزَارُهُمْ ... وَصُنْتُ لَهُمْ سِرًّا بِأَيِّ مَكَانِ
وَهَا أَنَا قَدْ جَدَّ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ ... وَفِي تُرْبِ أَعْتَابِ الْحَبِيبِ رَمَانِي
رَأَيْتُ بُدُورًا فِي الْفِرَاشِ بِجَانِبِي ... زَهَا قَمَرِي مِنْ شَمْسِهَا بِزَمَانِي

ثم إن قمر الزمان بعد أن ختم الكتاب، كتب في عنوانه هذه الأبيات:

سَلِي كِتَابِيَ عَمَّا خَطَّهُ قَلَمِي ... فَالرَّسْمُ يُخْبِرُ عَنْ وَجْدِي وَعَنْ أَلَمِي
يَدِي تَخُطُّ وَدَمْعُ الْعَيْنِ مُنْهَمِلُ ... قَدْ يَشْتَكِي الشَّوْقُ لِلْقِرْطَاسِ مِنْ سَقَمِي
مَا زَالَ دَمْعِي عَلَى الْقِرْطَاسِ مُنْسَكِبًا ... إِنِ انْقَضَتْ أَدْمُعِي أَتْبَعْتُهَا بِدَمِي

ثم كتب أيضًا:

أَرْسَلْتُ خَاتِمَكَ الَّذِي اسْتَبْدَلْتُهُ ... يَوْمَ التَّوَاصُلِ فَارْسِلِي لِي خَاتَمِي

وكان قد وضع خاتم السيدة بدور في طي الكتاب، ثم ناوَلَ الكتاب للخادم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما وضع الخاتم في الورقة ناولها للخادم، فأخذها ودخل بها إلى السيدة بدور، فأخذتها من يد الخادم وفتحتها، فوجدت خاتمها بعينه، ثم قرأت الورقة، فلما عرفت المقصود علمت أن معشوقها قمر الزمان، وأنه هو الواقف خلف الستار؛ فطار عقلها من الفرح، واتَّسع صدرها وانشرح، ومن فرط المسرات أنشدت هذه الأبيات:

وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى تَفَرُّقِ شَمْلِنَا … دَهْرًا وَفَاضَ الدَّمْعُ مِنْ أَجْفَانِي
وَنَذَرْتُ إِنْ عَادَ الزَّمَانُ يَلُمُّنَا … لَا عُدْتُ أَذْكُرُ فُرْقَةً بِلِسَانِي
هَجَمَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ … مِنْ فَرْطِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي
يَا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ مِنْكِ سَجِيَّةً … تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانِ

فلما فرغت السيدة بدور من شعرها قامت من وقتها، وصلبت رجليها في الحائط، واتَّكأت بقوتها على الغل الحديد فقطعته من رقبتها، وقطعت السلاسل، وخرجت من خلف الستارة، ورمت روحها على قمر الزمان، وقبَّلَتْه في فمه مثل زق الحمام، وعانقته من شدة ما بها من الغرام، وقالت له: يا سيدي، هل هذا يقظة أو منام؟ وهل قد مَنَّ الله علينا بجمع شملنا. ثم حمدت الله وشكرته على جمع شملها بعد اليأس، فلما رآها الخادم على تلك الحالة، ذهب يجري حتى وصل إلى الملك الغيور، فقبَّل الأرض بين يديه، وقال له: يا مولاي، اعلم أن هذا المنجم أعلم المنجِّمين كلهم، فإنه داوى ابنتك وهو واقف خلف الستارة، ولم يدخل عليها. فقال الملك للخادم: أصحيح هذا الخبر؟ فقال الخادم: يا سيدي، قُمْ وانظر إليها كيف قطعَتِ السلاسلَ الحديد، وخرجت للمنجم تقبِّله وتعانِقه.

فعند ذلك قام الملك الغيور ودخل على ابنته، فلما رأته نهضَتْ قائمة، وغطَّت رأسها، وأنشدت هذين البيتين:

لَا أُحِبُّ السِّوَاكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي إِنْ ذَكَرْتُ السِّوَاكَ قُلْتُ: سِوَاكَا
وَأُحِبُّ الْأَرَاكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي إِنْ ذَكَرْتُ الْأَرَاكَ قُلْتُ: أَرَاكَا

ففرح أبوها بسلامتها، وقبَّلها بين عينيها؛ لأنه كان يحبها محبة عظيمة، وأقبل الملك الغيور على قمر الزمان وسأله عن حاله، وقال له: من أي البلاد أنت؟ فأخبره قمر الزمان بشأنه، وأعلمه أن والده الملك شهرمان، ثم إن قمر الزمان قصَّ عليه القصة من أولها إلى آخرها، وأخبره بجميع ما اتفق له مع السيدة، وكيف أخذ الخاتم من إصبعها وألبسها خاتمه، فتعجَّبَ الملك الغيور من ذلك وقال: إن حكايتكما لا بد أن تُؤرَّخ في الكتب وتُقرَأ بعدكما جيلًا بعد جيل. ثم إن الملك الغيور أحضر القضاة والشهود من وقته، وكتب كتاب السيدة بدور على قمر الزمان، وأمر بتزيين المدينة سبعة أيام، ثم مدُّوا السماط والأطعمة، وتزينت المدينة وجميع العساكر، وأقبلت البشائر، ودخل قمر الزمان على السيدة بدور، وفرح بعافيتها وزواجها، وحمدت الله الذي رماها في حب شاب مليح من أبناء الملوك، ثم جلوها عليه، وكانا يشبهان بعضهما في الحسن والجمال، والظرف والدلال، ونام قمر الزمان عندها تلك الليلة، وبلغ أربه منها، وتمتعت هي بحسنه وجماله، وتعانقا إلى الصباح. وفي اليوم الثاني عمل الملك وليمة، وجمع جميع أهل الجزائر الجوَّانية والجزائر البرَّانية، وقدَّم لهم الأسمطة، وامتدت الموائد مدة شهر كامل؛ وبعد ذلك تذكَّرَ قمر الزمان أباه، ورآه في المنام يقول له: يا ولدي، أهكذا تفعل معي هذه الفعال؟ وأنشده في المنام هذين البيتين:

لَقَدْ رَاعَنِي بَدْرُ الدُّجَى بِصُدُودِهِ وَوَكَّلَ أَجْفَانِي بِرَعْيِ كَوَاكِبِهْ
فَيَا كَبِدِي مَهْلًا عَسَاهُ يَعُودُ لِي وَيَا مُهْجَتِي صَبْرًا عَلَى مَا كَوَاكِ بِهْ

ثم إن قمر الزمان لما رأى والده في المنام يعاتبه، أصبح حزينًا وأعلم زوجته بذلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما رأى والده في المنام يعاتبه، أصبح حزينًا وأخبر زوجته السيدة بدور بذلك، فدخلت هي وإياه على والدها وأعلماه، واستأذناه في السفر، فأذن له في السفر، فقالت السيدة بدور: يا والدي، لا أصبر على فراقه. فقال لها والدها: سافري معه. وأذن لها بالإقامة معه سنة كاملة، وبعد السنة تجيء لتزور والدها في كل عام مرة، فقبَّلت يد أبيها، وكذلك قمر الزمان، ثم شرع الملك الغيور في تجهيز ابنته هي وزوجها، وهيَّأ لهما أدوات السفر، وأخرج لهما الخيول والهجن، وأخرَجَ لابنته محفَّة، وحمَّلَ لهما البغال والهجن، وأخرج لهما ما يحتاجان إليه في السفر. وفي يوم المسير، ودَّع الملك الغيور قمر الزمان، وخلع عليه خلعة سنيَّة من الذهب مرصَّعة بالجواهر، وقدَّم له خزنة مال، وأوصاه على بنته بدور، ثم خرج معهما إلى طرف الجزائر؛ وبعد ذلك ودَّعَ قمر الزمان، ثم دخل على ابنته وهي في المحفة، وصار يعانقها ويبكي، وأنشد هذين البيتين:

يَا طَالِبًا لِلْفِرَاقِ صَبْرًا فَمُتْعَةُ الْعَاشِقِ الْعِنَاقُ
مَهْلًا فَطَبْعُ الزَّمَانِ غَدْرٌ وَآخِرُ الْعِشْرَةِ الْفِرَاقُ

ثم خرج من عند ابنته، وأتى إلى زوجها قمر الزمان، فصار يودِّعه ويقبِّله، ثم فارقهما وعاد إلى جزائره بعسكره بعد أن أمرهما بالرحيل؛ فسار قمر الزمان هو وزوجته السيدة بدور ومَن معهم من الأتباع أول يوم، والثاني، والثالث، والرابع، ولم يزالوا مسافرين مدة شهر، ثم نزلوا في مرج واسع كثير الكلأ، وضربوا خيامهم فيه، وأكلوا وشربوا واستراحوا، ونامت السيدة بدور، فدخل عليها قمر الزمان فوجدها نائمة وفوق بدنها قميص مشمشي من الحرير، يَبِين منه كل شيء، وفوق رأسها كوفيَّة من الذهب مرصَّعة بالجواهر، وقد

رفع الهواء قميصها فطلع فوق سرَّتها عند نهودها، فبان له بطن أبيض من الثلج، وكل عكنة من عكن طيَّاته تَسَع أوقية من دهن البان؛ فزاد محبةً وهيامًا، وأنشد هذين البيتين:

لَوْ قِيلَ لِي وَزَفِيرُ الْحَرِّ مُتَّقِدُ وَالنَّارُ فِي الْقَلْبِ وَالْأَحْشَاءِ تَضْطَرِمُ
أَهُمْ تُرِيدُ وَتَهْوَى أَنْ تُشَاهِدَهُمْ أَوْ شَرْبَةً مِنْ زُلَالِ الْمَاءِ؟ قُلْتُ: هُمُ

فحطَّ قمر الزمان يده في دكَّة لباسها فجذبها، وحلَّها لما اشتهاها خاطره، فرأى فصًّا أحمر مثل العندم مربوطًا على الدكَّة، وعليه أسماء منقوشة سطرين بكتابة لا تُقرأ، فتعجَّب قمر الزمان من تلك القصة، وقال في نفسه: لولا أن هذا الفص أمر عظيم عندها ما ربطته هذه الربطة على دكة لباسها، وما خبَّأته في أعز مكان عندها حتى لا تفارقه، فماذا تصنع بهذا؟ وما السر الذي هو فيه؟ ثم أخذه وخرج من الخيمة ليُبصِره في النور. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه لما أخذ الفصَّ ليُبصِره في النور، صار يتأمَّل فيه، وإذا بطائر انقضَّ عليه، وخطفه من يده وطار به، وحطَّ به على الأرض؛ فخاف قمر الزمان على الفصِّ وجرى خلف الطائر، وصار الطائر يجري على قدر جري قمر الزمان، وصار قمر الزمان خلفه من وادٍ إلى وادٍ، ومن تلٍّ إلى تلٍّ، إلى أن دخل الليل وتغلس الظلام، فنام الطائر على شجرة عالية، فوقف قمر الزمان تحتها، وصار باهتًا، وقد ضعف من الجوع والتعب، وظن أنه هلك، وأراد أن يرجع فما عرف الموضع الذي جاء منه، وهجم عليه الظلام فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم نام تحت الشجرة التي فوقها الطائر إلى الصباح، ثم انتبه من نومه فوجد الطائر قد انتبه وطار من فوق الشجرة؛ فمشى قمر الزمان خلفه، وصار ذلك الطائر يطير قليلًا بقدر مشي قمر الزمان؛ فتبسَّمَ قمر الزمان، وقال: يا لله العجب! إن هذا الطائر كان بالأمس يطير بقدر جريتي، وفي هذا اليوم علم أني أصبحت تعبانًا لا أقدر على الجري، فصار يطير على قدر مشيي، إن هذا عجيب! ولكن لا بد أن أتبع هذا الطائر، فإما أن يقودني إلى حياتي أو إلى مماتي، فأنا أتبعه أينما يتوجه؛ لأنه على كل حال لا يقيم إلا في البلاد العمار. ثم إن قمر الزمان جعل يمشي تحت الطائر، والطائر يبيت في كل ليلة على شجرة، ولم يزل تابعه مدة عشرة أيام، وقمر الزمان يتقوَّت من نبات الأرض ويشرب من الأنهار، وبعد العشرة أيام أشرف على مدينة عامرة، فمرق الطائر في تلك المدينة مثل لمح البصر، وغاب عن قمر الزمان، ولم يعرف أين راح، فتعجب قمر الزمان وقال: الحمد لله الذي سلَّمني حتى وصلت إلى هذه

المدينة. ثم جلس عند الماء، وغسل يديه ورجليه ووجهه واستراح ساعة، وتذكر ما كان فيه من الراحة، ونظر إلى ما هو فيه من الغربة والجوع والتعب، فأنشد يقول:

أَخْفَيْتُ مَا أَلْقَاهُ مِنْهُ وَقَدْ ظَهَرْ وَالنَّوْمُ مِنْ عَيْنِي تَبَدَّلَ بِالسَّهَرْ
نَادَيْتُ لَمَّا أَوْهَنَتْ قَلْبِي الْفِكَرْ يَا دَهْرُ لَا تُبْقِي عَلَيَّ وَلَا تَذَرْ
هَا مُهْجَتِي بَيْنَ الْمَشَقَّةِ وَالْخَطَرْ
لَوْ كَانَ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ مُنْصِفِي مَا كَانَ نَوْمِي مِنْ عُيُونِي قَدْ نُفِي
يَا سَادَتِي رِفْقًا بِصَبٍّ مُدْنَفِ وَتَعَطَّفُوا لِعَزِيزِ قَوْمٍ ذَلَّ فِي
شَرْعِ الْهَوَى وَغَنِيِّ قَوْمٍ افْتَقَرْ
لَحَّ الْعَوَاذِلُ فِيكَ مَا طَاوَعْتُهُمْ وَسَدَدْتُ كُلَّ مَسَامِعِي وَصَمَمْتُهُمْ
قَالُوا عَشِقْتَ مُهَفْهَفًا فَأَجَبْتُهُمْ اخْتَرْتُهُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَتَرَكْتُهُمْ
كُفُّوا إِذَا وَقَعَ الْقَضَا عَمِيَ الْبَصَرْ

ثم إن قمر الزمان لما فرغ من شعره واستراح، دخل باب المدينة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما فرغ من شعره واستراح، دخل باب المدينة وهو لا يعلم أين يتوجه، فمشى في المدينة جميعها، وقد كان دخل من باب البر، ولم يزل يمشي إلى أن خرج من باب البحر فلم يقابله أحد من أهلها، وكانت مدينة على جانب البحر، ثم إنه بعد أن خرج من باب البحر مشى، ولم يزل ماشيًا حتى وصل إلى بساتين المدينة، وشقَّ بين الأشجار فأتى إلى بستان ووقف على بابه، فخرج إليه الخولي ورحَّب به، وقال له: الحمد لله أنك أتيتَ سالمًا من أهل هذه المدينة، فادخل هذا البستان سريعًا قبل أن يراك أحد من أهلها. فعند ذلك دخل قمر الزمان ذلك البستان وهو ذاهل العقل، وقال للخولي: ما حكاية أهل هذه المدينة؟ وما خبرهم؟ فقال له: اعلم أن أهل هذه المدينة كلهم مجوس، فبالله عليك أخبرني كيف وصلت إلى هذا المكان؟ وما سبب دخولك في بلادنا؟ فعند ذلك أخبره قمر الزمان بجميع ما جرى له، فتعجب الخولي من ذلك غاية العجب، وقال له: اعلم يا ولدي أن بلاد الإسلام بعيدة من هنا، فبيننا وبينها أربعة أشهر في البحر، وأما في البر فسنة كاملة، وأن عندنا مركبًا تقلع وتسافر كل سنة ببضائع إلى أول بلاد الإسلام، وتسير من هنا إلى بحر جزائر الأبنوس، ومنه إلى جزائر خالدان، وملكها يقال له السلطان شهرمان. فعند ذلك تفكَّرَ قمر الزمان في نفسه ساعةً زمانية، وعلم أنه لا أوفق له من قعوده في البستان عند الخولي، ويعمل عنده مرابعًا، فقال للخولي: هل تقبلني عندك مرابعًا في هذا البستان؟ فقال له الخولي: سمعًا وطاعة. ثم علَّمه تحويل الماء بين الأشجار، فصار قمر الزمان يحول الماء ويقطع الحشيش بالفأس، وألبسه الخولي

بشتًّا قصيرًا أزرق يصل إلى ركبته، وصار يسقي الأشجار، ويبكي بالدموع الغزار، وينشد الأشعار بالليل والنهار في معشوقته بدور؛ فمن جملة ذلك هذه الأبيات:

لَنَا عِنْدَكُمْ وَعْدٌ فَهَلَّا وَفَيْتُمُ وَقُلْتُمْ لَنَا قَوْلًا فَهَلَّا فَعَلْتُمُ
سَهِرْنَا عَلَى حُكْمِ الْغَرَامِ وَنِمْتُمُ وَلَيْسَ سَوَاءً سَاهِرُونَ وَنُوَّمُ
وَكُنَّا عَهِدْنَا أَنَّنَا نَكْتُمُ الْهَوَى فَأَغْرَاكُمُ الْوَاشِي وَقَالَ وَقُلْتُمُ
فَيَا أَيُّهَا الْأَحْبَابُ فِي السُّخْطِ وَالرِّضَا عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنْتُمُ الْقَصْدُ أَنْتُمُ
وَلِي عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ قَلْبٌ مُعَذَّبٌ فَيَا لَيْتَهُ يَرْثِي لِحَالِي وَيَرْحَمُ
وَمَا كُلُّ عَيْنٍ مِثْلِ عَيْنِي قَرِيحَةٌ وَلَا كُلُّ قَلْبٍ مِثْلِ قَلْبِي مُتَيَّمُ
ظَلَمْتُمْ وَقُلْتُمْ إِنَّمَا الْحُبُّ ظَالِمٌ صَدَقْتُمْ كَذَا كَانَ الْحَدِيثُ صَدَقْتُمُ
سَلُوا مُغْرَمًا لَا يَنْقُضُ الدَّهْرَ عَهْدَهُ وَلَوْ كَانَ فِي أَحْشَائِهِ النَّارُ تَضْرمُ
إِذَا كَانَ خَصْمِي فِي الصَّبَابَةِ حَاكِمِي لِمَنْ أَشْتَكِي خَصْمِي لِمَنْ أَتَظَلَّمُ
وَلَوْلَا افْتِقَارِي فِي الْهَوَى وَصَبَابَتِي لَمَا كَانَ لِي فِي الْعِشْقِ قَلْبٌ مُتَيَّمُ

هذا ما كان من قمر الزمان ابن الملك شهرمان، وأما ما كان من أمر زوجته السيدة بدور بنت الملك الغيور؛ فإنها لما استيقظت من نومها طلبت زوجها قمر الزمان فلم تجده، ورأت سروالها محلولًا، فافتقدت العقدة فوجدتها محلولة، والفص معدومًا، فقالت في نفسها: يا لله العجب! أين معشوقي؟ كأنه أخذ الفص وراح وهو لا يعلم السر الذي هو فيه، فيا تُرَى أين راح؟ ولكن لا بد له من أمر عجيب اقتضى رواحه؛ فإنه لا يقدر أن يفارقني ساعة، فلعن الله الفص ولعن ساعته. ثم إن السيدة بدور تفكَّرت، وقالت في نفسها: إن خرجت إلى الحاشية وأعلمتهم بفقد زوجي يطمعوا فيَّ، ولكن لا بد من الحيلة. ثم إنها لبست ثياب قمر الزمان، ولبست عمامة كعمامته، وضربت لها لثامًا، وحطَّت في محفتها جارية، وخرجت من خيمتها وصرخت على الغلمان؛ فقدَّموا لها الجواد فركبت، وأمرت بشد الأحمال، فشدوا الأحمال وسافروا، وأخفت أمرها؛ لأنها كانت تشبه قمر الزمان، فما شك أحد أنها قمر الزمان بعينه. وما زالت مسافرة هي وأتباعها أيامًا ولياليَ حتى أشرفت على مدينة مطلَّة على البحر المالح فنزلت بظاهرها، وضربت خيامها في ذلك المكان لأجل الاستراحة، ثم سألت عن هذه المدينة فقيل لها: هذه مدينة الأبنوس، وملكها الملك أرمانوس، وله بنت اسمها حياة النفوس. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٠٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة بدور لما نزلت بظاهر مدينة الأبنوس لأجل الاستراحة، أرسل الملك أرمانوس رسولًا من عنده يكشف له خبر هذا الملك النازل بظاهر المدينة، فلما وصل إليهم الرسول سألهم، فأخبروه أن هذا ابن ملك تائه عن الطريق، وهو قاصد جزائر خالدان والملك شهرمان. فعاد الرسول إلى الملك أرمانوس وأخبره بالخبر، فلما سمع الملك أرمانوس هذا الكلام، نزل هو وأرباب دولته إلى مقابلته، فلما قدم على الخيام ترجَّلت السيدة بدور وترجَّل الملك أرمانوس وسلَّما على بعضهما، وأخذها ودخل بها إلى مدينته، وطلع بها إلى قصره، وأمر بمد السماط وموائد الأطعمة، وأمر بنقل السيدة بدور إلى دار الضيافة، فأقامت هناك ثلاثة أيام، وبعد ذلك أقبل الملك أرمانوس على السيدة بدور، وكانت دخلت في ذلك اليوم الحمام، وأسفرت عن وجهٍ كأنه البدر عند التمام؛ فافتتن بها العالم، وتهتَّكت بها الخلق عند رؤيتها، فعند ذلك أقبل الملك أرمانوس عليها وهي لابسة حلةً من الحرير مطرَّزة بالذهب المرصع بالجواهر، وقال لها: يا ولدي، إني بقيت شيخًا هرمًا، وعمري ما رُزِقت ولدًا غير بنت، وهي على شكلك وقدِّك في الحسن والجمال، وعجزت عن الملك؛ فهل لك يا ولدي أن تقيم بأرضي، وتسكن بلادي، وأزوِّجك ابنتي، وأعطيك مملكة؟ فأطرقت السيدة بدور رأسها، وعرق جبينها من الحياء، وقالت في نفسها: كيف يكون العمل وأنا امرأة؟ فإن خالفت أمره وسرت ربما يرسل خلفي جيشًا يقتلني، وإن أطعته ربما أفتضح، وقد فقدت محبوبي قمر الزمان، ولم أعرف له خبرًا، وما لي خلاص إلا أن أجيبه إلى قصده، وأقيم عنده حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

ثم إن السيدة بدور رفعت رأسها، وأذعنت للملك بالسمع والطاعة؛ ففرح الملك بذلك، وأمر المنادي أن ينادي في جزائر الأبنوس بالفرح والزينة، وجمع الحجَّاب والنواب والأمراء والوزراء وأرباب دولته وقضاة مدينته، وعزل نفسه من المُلك، وسلطن السيدة بدور، وألبسها بدلة الملك، ودخلت الأمراء جميعًا على السيدة بدور وهم لا يشكُّون في أنها شاب، وصار كلُّ مَن نظر إليها منهم جميعًا يبل سراويله لفرط حسنها وجمالها، فلما تسلطنت الملكة بدور ودقت لها البشائر بالسرور، شرع الملك أرمانوس في تجهيز ابنته حياة النفوس، وبعد أيام قلائل أدخلوا السيدة بدور على حياة النفوس، فكانتا كأنهما بدران اجتمعا أو شمسان في وقت طلعا، فردوا عليهما الأبواب، وأرخَوا الستائر بعد أن أوقدوا لهما الشموع، وفرشوا لهما الفرش، فعند ذلك جلست السيدة بدور مع السيدة حياة النفوس، فتذكَّرت محبوبها قمر الزمان، واشتدت بها الأحزان؛ فسكبت العَبَرات، وأنشدت هذه الأبيات:

يَا رَاحِلِينَ وَقَلْبِي زَائِدُ الْقَلَقِ لَمْ يُبْقِ بَيْنُكُمُ فِي الْجِسْمِ مِنْ رَمَقِ
قَدْ كَانَ لِي مُقْلَةٌ تَشْكُو السُّهَادَ وَقَدْ أَذَابَهَا الدَّمْعُ يَا لَيْتَ السُّهَادَ بَقِي
لَمَّا رَحَلْتُمْ أَقَامَ الصَّبُّ بَعْدَكُمُ لَكِنْ سَلُوا عَنْهُ مَاذَا فِي الْبِعَادِ لَقِي
لَوْلَا جُفُونِي وَقَدْ فَاضَتْ مَدَامِعُهَا تَوَقَّدَتْ عَرَصَاتُ الْأَرْضِ مِنْ حُرَقِي
أَشْكُو إِلَى اللهِ أَحْبَابًا عَدِمْتُهُمُ لَمْ يَرْحَمُوا صَبْوَتِي فِيهِمْ وَلَا قَلَقِي
لَا ذَنْبَ لِي عِنْدَهُمْ إِلَّا الْغَرَامَ بِهِمْ وَالنَّاسُ بَيْنَ سَعِيدٍ فِي الْهَوَى وَشَقِي

ثم إن السيدة بدور لما فرغت من إنشادها جلست إلى جانب السيدة حياة النفوس، وقبَّلتها في فمها، ونهضت من وقتها وساعتها توضأت، ولم تزل تصلي حتى نامت السيدة حياة النفوس، ثم دخلت السيدة بدور معها في الفرش، وأدارت ظهرها لها إلى الصباح؛ فلما طلع النهار دخل الملك هو وزوجته إلى ابنتهما، وسألاها عن حالها؛ فأخبرتهما بما جرى وما سمعته من الشعر.

هذا ما كان من أمر حياة النفوس وأبويها، وأما ما كان من أمر الملكة بدور، فإنها خرجت وجلست على كرسي المملكة، وطلع إليها الأمراء وأرباب الدولة وجميع الرؤساء والجيوش وهنَّوها بالملك، وقبَّلوا الأرض بين يديها ودعوا لها، فأقبلت عليهم وتبسمت، وخلعت عليهم وزادت في إقطاع الأمراء، فحبَّها العسكر والرعية، ودعوا لها بدوام الملك، وهم يعتقدون أنها ذكر. ثم إنها أمرت ونهت، وحكمت وعدلت، وأطلقت مَن في الحبوس،

وأبطلت المكوس، ولم تزل قاعدة في مجلس الحكومة إلى أن دخل الليل، ثم دخلت المكان المعدَّ لها، فوجدت السيدة حياة النفوس جالسة، فجلست بجانبها، وطقطقت على ظهرها، ولاطفتها، وقبَّلتها بين عينيها، وأنشدت هذه الأبيات:

قَدْ صَارَ سِرِّي بِالدُّمُوعِ عَلَانِيَهْ وَنُحُولُ جِسْمِي فِي الْغَرَامِ عَلَانِيَهْ
أُخْفِي الْهَوَى وَيُذِيعُهُ أَلَمُ النَّوَى حَالِي عَلَى الْوَاشِينَ لَيْسَتْ خَافِيَهْ
يَا رَاحِلِينَ عَنِ الْحِمَى خَلَّفْتُمُ جِسْمِي بِكُمْ مُضْنًى وَنَفْسِي بَالِيَهْ
وَسَكَنْتُمُ غَوْرَ الْحَشَا فَنَوَاظِرِي تَجْرِي مَدَامِعُهَا وَعَيْنِي دَامِيَهْ
وَأَنَا فِدَاءُ الْغَائِبِينَ بِمُهْجَتِي أَبَدًا وَأَشْوَاقِي إِلَيْهِمْ بَادِيَهْ
لِي مُقْلَةٌ مَقْرُوحَةٌ فِي حُبِّهِمْ جَفَتِ الْكَرَى وَدُمُوعُهَا مُتَوَالِيَهْ
ظَنَّ الْعِدَا مِنِّي عَلَيْهِ تَجَلُّدًا هَيْهَاتَ مَا أُذْنِي إِلَيْهِمْ وَاعِيَهْ
خَابَتْ ظُنُونُهُمُ لَدَيَّ وَإِنَّمَا قَمَرُ الزَّمَانِ بِهِ أَنَالُ أَمَانِيَهْ
جَمَعَ الْفَضَائِلَ مَا حَوَاهَا قَبْلَهُ أَحَدٌ سِوَاهُ فِي الْعُصُورِ الْخَالِيَهْ
أَنْسَى الْأَنَامَ بِجُودِهِ وَبِعَفْوِهِ كَرَمَ ابْنِ زَائِدَةٍ وَحِلْمَ مُعَاوِيَهْ
لَوْلَا الْإِطَالَةُ وَالْقَرِيضُ مُقَصِّرٌ عَنْ حَصْرِ حُسْنِكَ لَمْ أَدَعْ مِنْ قَافِيَهْ

ثم إن الملكة بدور نهضت قائمة على قدميها ومسحت دموعها، وتوضأت وصلت، ولم تزل تصلي إلى أن غلب النوم على السيدة حياة النفوس فنامت، فجاءت الملكة بدور، ورقدت بجانبها إلى الصباح، ثم قامت وصلت الصبح وجلست على كرسي المملكة، وأمرت ونهت، وحكمت وعدلت.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر الملك أرمانوس، فإنه دخل على ابنته وسألها عن حالها، فخبَّرته بجميع ما جرى لها، وأنشدته الشعر الذي قالته الملكة بدور، وقالت: يا أبي، ما رأيت أحدًا أكثر عقلًا وحياءً من زوجي، غير أنه يبكي ويتنهد. فقال لها أبوها: يا ابنتي اصبري عليه، فما بقي غير هذه الليلة الثالثة، فإن لم يدخل بك ويزل بكارتك، يكن لنا معه رأي وتدبير، وأخلعه من الملك وأنفيه من بلادنا. فاتفق مع ابنته على هذا الكلام، وأضمر هذا الرأي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢١٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك أرمانوس اتفق مع ابنته على هذا الكلام، وأضمر هذا الرأي، ولما أقبل الليل قامت الملكة بدور من دست المملكة إلى القصر، ودخلت المكان الذي هو مُعَدٌّ لها، فرأت الشمع موقدًا والسيدة حياة النفوس جالسة، فتذكرت زوجها وما جرى بينهما في تلك المدة اليسيرة؛ فبكت ووالت الزفرات، وأنشدت هذه الأبيات:

قَسَمًا لَقَدْ مَلَأَتْ أَحَادِيثِي الْفَضَا   كَالشَّمْسِ مُشْرِقَةٌ عَلَى ذَاتِ الْغَضَا
نَطَقَتْ إِشَارَتُهُ فَأُشْكِلَ فَهْمُهَا   فَلِذَاكَ شَوْقِي فِي الْمَزِيدِ وَمَا انْقَضَى
أَبْغَضْتُ حُسْنَ الصَّبْرِ مُذْ أَحْبَبْتُهُ   أَرَأَيْتَ صَبًّا فِي الصَّبَابَةِ مُبْغَضَا
وَمُمَرَّضُ اللَّحَظَاتِ صَالَ بِفَتْكِهَا   وَاللَّحْظُ أَقْتَلُ مَا يَكُونُ مُمَرَّضَا
أَلْقَى ذَوَائِبَهُ وَحَطَّ لِثَامَهُ   فَرَأَيْتُ مِنْهُ الْحُسْنَ أَسْوَدَ أَبْيَضَا
سَقَمِي وَبُرْئِي فِي يَدَيْهِ وَإِنَّمَا   يَشْفِي سَقَامَ الْحُبِّ مَنْ قَدْ أَمْرَضَا
هَامَ الْوِشَاحُ بِرِقَّةٍ فِي خَصْرِهِ   وَالرِّدْفُ مِنْ حَسَدٍ أَبَى أَنْ يَنْهَضَا
وَكَأَنَّ طُرَّتَهُ وَضَوْءَ جَبِينِهِ   لَيْلٌ دَجَى فَاعْتَاقَهُ صُبْحٌ أَضَا

فلما فرغت من إنشادها أرادت أن تقوم إلى الصلاة، وإذا بحياة النفوس تعلَّقت بذيلها، وقالت لها: يا سيدي، أما تستحي من والدي، وما فعل معك من الجميل، وأنت تتركني إلى هذا الوقت؟ فلما سمعت منها ذلك جلست في مكانها، وقالت لها: يا حبيبتي، ما الذي تقولينه؟ قالت: الذي أقوله أني ما رأيت أحدًا معجبًا بنفسه مثلك، فهل كل مَن كان مليحًا يعجب بحُسْنه هكذا؟ ولكن أنا ما قلت هذا الكلام لأجل أن أرغِّبك فيَّ، وإنما قلته خيفةً عليك من الملك أرمانوس، فإنه أضمر إن لم تدخل بي في هذه الليلة وتُزِلْ

بكارتي، أنه ينزعك من المملكة في غد، ويسفِّرك من بلاده، وربما يزداد به الغيظ فيقتلك، وأنا يا سيدي رحمتك ونصحتك، والرأي رأيك. فلما سمعت الملكة بدور منها ذلك الكلام أطرقت برأسها إلى الأرض، وتحيَّرت في أمرها، ثم قالت في نفسها: إن خالفته هلكت، وإن أطعته افتضحت، ولكن أنا في هذه الساعة ملكة على جزائر الأبنوس كلها، وهي تحت حكمي، وما أجتمع أنا وقمر الزمان إلا في هذا المكان؛ لأنه ليس له طريق إلى بلاده إلا من جزائر الأبنوس، وقد فوضت أمري إلى الله، فهو نِعْمَ المدبِّر. ثم إن الملكة بدور قالت لحياة النفوس: يا حبيبتي، إن تركك وامتناعي عنك بالرغم عني. وحكت لها ما جرى من المبتدأ إلى المنتهى، وأرتها نفسها، وقالت لها: سألتك بالله أن تُخفِي أمري وتكتمي سري حتى يجمعني الله بمحبوبي قمر الزمان، وبعد ذلك يكون ما يكون. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢١١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة بدور لما أعلمت حياة النفوس بقصتها، وأمرتها بالكتمان، تعجبت من ذلك غاية العجب، ورقت لها، ودعت لها بجمع شملها على محبوبها قمر الزمان، وقالت لها: يا أختي، لا تخافي ولا تفزعي، واصبري إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا. ثم إن حياة النفوس أنشدت هذين البيتين:

السِّرُّ عِنْدِيَ فِي بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ قَدْ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ وَالْبَيْتُ مَخْتُومُ
مَا يَكْتُمُ السِّرَّ إِلَّا كُلُّ ذِي ثِقَةٍ وَالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومُ

فلما فرغت من شعرها قالت: يا أختي، إن صدور الأحرار قبور الأسرار، وأنا لا أفشي لك سرًّا. ثم لعبتا وتعانقتا وناما إلى قُرَيْب الأذان، ثم قامت حياة النفوس وأخذت دجاجة وذبحتها، وتلطخت بدمها، وقلعت سروالها وصرخت، فدخل عليها أهلها، وزغردت الجواري، ودخلت عليها أمها وسألتها عن حالها، وأقامت عندها إلى المساء. وأما الملكة بدور فإنها لما أصبحت قامت وذهبت إلى الحمام واغتسلت وصلت الصبح، ثم توجهت إلى مجلس الحكومة وجلست على كرسي المملكة وحكمت بين الناس. فلما سمع الملك أرمانوس الزغاريد سأل عن الخبر فأخبروه بافتضاض بكارة ابنته؛ ففرح بذلك واتسع صدره وانشرح، وأولم الولائم، ولم يزالوا على تلك الحالة مدة من الزمان.

هذا ما كان من أمرهما، وأما ما كان من أمر الملك شهرمان؛ فإنه بعد خروج ولده إلى الصيد والقنص هو ومرزوان كما تقدَّم، صبر حتى أقبل عليه الليل فلم يجئ ولده، فتحيَّر عقله ولم ينم تلك الليلة، وقلق غاية القلق، وزاد وَجْدُه واحترق، وما صدق أن الفجر انشقَّ حتى أصبح ينتظر ولده إلى نصف النهار فلم يجئ، فأحس قلبه

بالفراق، والتهب على ولده من الإشفاق، ثم بكى حتى بل ثيابه بالدموع، وأنشد من قلب مصدوع:

مَا زِلْتُ مُعْتَرِضًا عَلَى أَهْلِ الْهَوَى ... حَتَّى بُلِيتُ بِحُلْوِهِ وَبِمُرِّهِ
وَشَرِبْتُ كَأْسَ مَرَارِهِ مُتَجَرِّعًا ... وَذَلَلْتُ فِيهِ لِعَبْدِهِ وَلِحُرِّهِ
نَذَرَ الزَّمَانُ بِأَنْ يُفَرِّقَ شَمْلَنَا ... وَالْآنَ قَدْ أَوْفَى الزَّمَانُ بِنَذْرِهِ

فلما فرغ من شعره مسح دموعه، ونادى في عسكره بالرحيل والحث على السفر الطويل، فركب الجيش جميعه، وخرج السلطان وهو محترق القلب على ولده قمر الزمان، وقلبه بالحزن ملآن، ثم فرَّق جيشه يمينًا وشمالًا، وأمامًا وخلفًا؛ ست فرق، وقال لهم: الاجتماع غدًا عند مفرق الطريق. فتفرقت الجيوش والعسكر كما ذكرنا، وسافرت الخيول، ولم يزالوا مسافرين بقية النهار إلى أن جن الليل، فساروا جميع الليل إلى نصف النهار حتى وصلوا إلى مفرق أربع طرق، فلم يعرفوا أي طريق سلكها، ثم رأوا أثر أقمشة مقطعة، ورأوا اللحم مقطعًا، ونظروا أثر الدم باقيًا، وشاهدوا كل قطعة من الثياب واللحم في ناحية؛ فلما رأى الملك شهرمان ذلك صرخ صرخة عظيمة من صميم قلبه، وقال: وا ولداه! ولطم على وجهه، ونتف لحيته، ومزَّق ثوبه، وأيقن بموت ولده، وزاد في البكاء والنحيب، وبكت لبكائه العساكر، وكلهم أيقنوا بهلاك قمر الزمان، وحثوا على رءوسهم التراب، ودخل عليهم الليل وهم في بكاء ونحيب حتى أشرفوا على الهلاك، واحترق قلب الملك بلهيب الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

لَا تَعْذِلُوا الْمَحْزُونَ فِي أَحْزَانِهِ ... فَلَقَدْ كَفَاهُ الْوَجْدُ مِنْ أَشْجَانِهِ
يَبْكِي لِفَرْطِ تَأَسُّفٍ وَتَوَجُّعٍ ... وَغَرَامُهُ يُنْبِيكَ عَنْ نِيرَانِهِ
يَا سَعْدُ مَنْ لِمُتَيَّمٍ حَلَفَ الضَّنَى ... أَلَّا يُزِيلَ الدَّمْعَ مِنْ أَجْفَانِهِ
يُبْدِي الْغَرَامَ لِفَقْدِ بَدْرٍ زَاهِرٍ ... بِضِيَائِهِ يَزْهُو عَلَى أَقْرَانِهِ
وَلَقَدْ سَقَاهُ الْمَوْتُ كَأْسًا مُتْرَعًا ... يَوْمَ الرَّحِيلِ فَشَطَّ عَنْ أَوْطَانِهِ
تَرَكَ الدِّيَارَ وَسَارَ عَنَّا لِلْبِلَا ... لَمْ يَحْظَ بِالتَّوْدِيعِ مِنْ إِخْوَانِهِ
وَلَقَدْ رَمَانِي بِالْبِعَادِ وَبِالْجَفَا ... وَالصَّدِّ وَالتَّبْرِيحِ مِنْ هِجْرَانِهِ
وَلَقَدْ مَضَى عَنَّا وَفَارَقَنَا ضُحًى ... لَمَّا حَبَاهُ رَبُّهُ بِجِنَانِهِ

فلما فرغ من إنشاده رجع بجيوشه إلى مدينته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢١٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان لما فرغ من إنشاده، رجع بجيوشه إلى مدينته، وأيقن بهلاك ولده، وعلم أنه عدا عليه وافترسه إما وحش وإما قاطع طريق، ثم نادى في جزائر خالدان أن يلبسوا السواد من الأحزان على ولده قمر الزمان، وعمل له بيتًا وسمَّاه بيت الأحزان، وصار كل يوم خميس وإثنين يحكم في مملكته بين عسكره ورعيَّته، وبقية الجمعة يدخل بيت الأحزان، وينعى ولده ويرثيه بالأشعار، فمن ذلك قوله:

فَيَوْمُ الْأَمَانِي يَوْمُ قُرْبِكُمُ مِنِّي وَيَوْمُ الْمَنَايَا يَوْمُ إِعْرَاضِكُمْ عَنِّي
إِذَا بِتَّ مَرْعُوبًا أُهَدَّدُ بِالرَّدَى فَوَصْلُكُمُ عِنْدِي أَلَذُّ مِنَ الْأَمْنِ

ومن ذلك قوله:

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِظَاعِنِينَ رَحِيلُهُمْ أَنْكَى وَأَفْسَدَ فِي الْقُلُوبِ وَعَاثَا
فَلْيَقْضِ عِدَّتَهُ السُّرُورُ فَإِنَّنِي طَلَّقْتُ بَعْدَهُمُ النَّعِيمَ ثَلَاثَا

هذا ما كان من أمر الملك شهرمان، وأما ما كان من أمر الملكة بدور بنت الملك الغيور؛ فإنها صارت ملكة في بلاد الأبنوس، وصار الناس يشيرون إليها بالبنان ويقولون: هذا صهر الملك أرمانوس. وكل ليلة تنام مع السيدة حياة النفوس، وتشتكي وحشة زوجها قمر الزمان، وتصف لها حسنه وجماله، وتتمنى ولو في المنام وصاله.

هذا ما كان من أمر الملكة بدور، وأما ما كان من أمر قمر الزمان، فإنه لم يزل مقيمًا عند الخولي في البستان مدة من الزمان، وهو يبكي بالليل والنهار، ويتحسر وينشد الأشعار على أوقات الهناء والسرور، والخولي يقول له: في آخر السنة تسير المراكب إلى بلاد

المسلمين. ولم يزل قمر الزمان على تلك الحالة إلى أن رأى الناس مجتمعين على بعضهم، فتعجَّب من ذلك، فدخل عليه الخولي وقال له: يا ولدي، بطِّل الشغل في هذا اليوم، ولا تحوِّل الماء إلى الأشجار؛ لأن هذا اليوم عيد، والناس فيه يزور بعضهم بعضًا، فاسترِحْ واجعل بالك إلى الغيط، فإني أريد أن أبصر لك مركبًا، فما بقي إلا القليل وأرسلك إلى بلاد المسلمين. ثم إن الخولي خرج من البستان، وبقي قمر الزمان وحده؛ فانكسر خاطره، وجرت دموعه، ولم يزل يبكي حتى غشي عليه، فلما أفاق قام يتمشى في البستان، وهو متفكر فيما فعل به الزمان، وطول البُعْدِ والهجرانِ، وعقلُه ولهان، فعثر ووقع على وجهه، فجاءت جبهته على جذر شجرة فجرى دمه واختلط بدموعه؛ فمسح دمه، ونشَّف دموعه، وشد جبهته بخرقة، وقام يتمشى في ذلك البستان وهو ذاهل العقل؛ فنظر بعينه إلى شجرة فوقها طائران يتخاصمان، فغلب أحدهما على الآخر ونقره في عنقه فخلَّص رقبته من جثته، ثم أخذ رأسه وطار به، ووقع المقتول على الأرض قدَّام قمر الزمان؛ فبينما هو كذلك، وإذا بطائرين كبيرين قد انقضَّا عليه، ووقف واحد منهما عند رأسه، والآخر عند ذَنَبه، ورخَّيا أجنحتهما عليه، ومدَّا أعناقهما إليه وبكيا، فبكى قمر الزمان على فراق زوجته حين رأى الطائرين يبكيان على صاحبهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

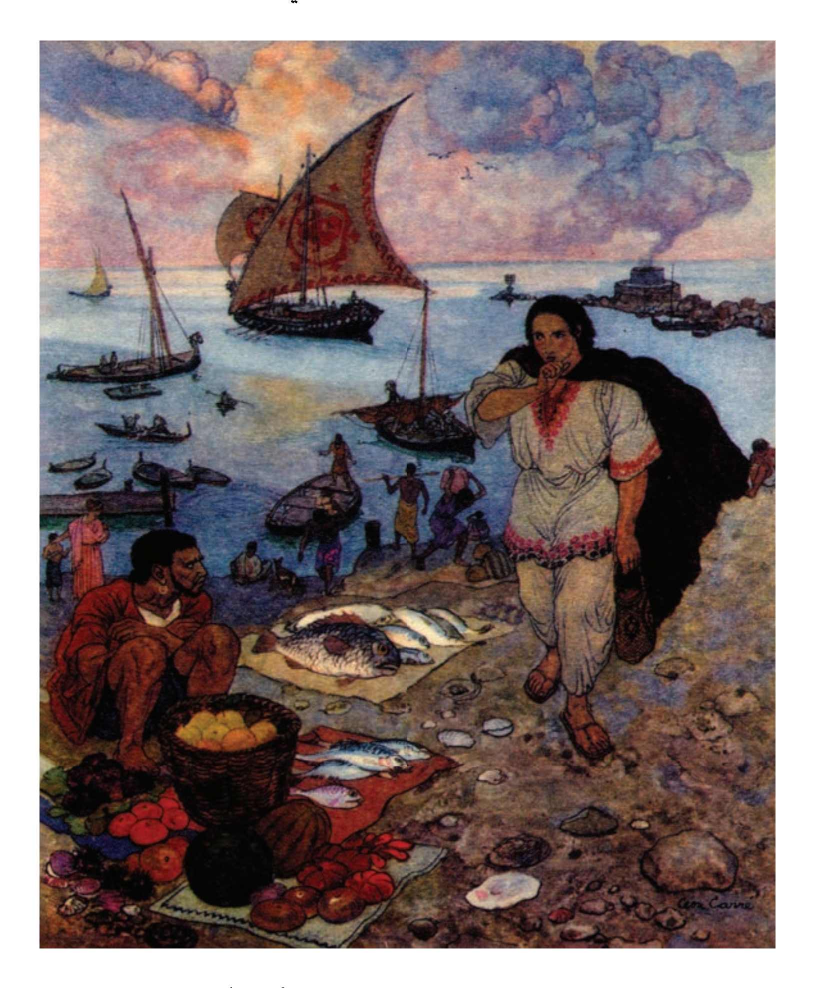
فلما كانت الليلة ٢١٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك قمر الزمان بكى على فراق زوجته لما رأى الطائرين يبكيان على صاحبهما، ثم إن قمر الزمان رأى الطائرين حفرَا حفرة ودفنا الطائر المقتول فيها وطارَا إلى الجو وغابا ساعة، ثم عادا ومعهما الطائر القاتل، فنزلا به على قبر المقتول، وبركا على القاتل حتى قتلاه، وشقَّا جوفه وأخرجا أمعاءه، وأراقا دمه على قبر الطائر المقتول، ثم نثرا لحمه ومزَّقا جلده، وأخرجا ما في جوفه وفرَّقاه إلى أماكن متفرقة. هذا كله جرى وقمر الزمان ينظر ويتعجَّب، فحانت منه التفاتة إلى الموضع الذي قتلَا فيه الطائر، فوجد شيئًا يلمع، فدنا منه فوجده حوصلة الطائر، فأخذها وفتحها؛ فوجد فيها الفص الذي كان سبب فراقه من زوجته، فلما رآه وعرفه وقع على الأرض مغشيًّا عليه من فرحته، فلما أفاق قال في نفسه: هذا علامة الخير، وبشارة الاجتماع بمحبوبتي. ثم تأمله ومر به على عينه، وربطه على ذراعه، واستبشر بالخير، وقام يتمشى لينظر الخولي، ولم يزل يفتش عليه إلى الليل فلم يأتِ، فبات قمر الزمان في موضعه إلى الصباح، ثم قام إلى شغله، وشدَّ وسطه بحبل من الليف، وأخذ الفأس والقفَّة، وشق في البستان، فأتى إلى شجرة خروب وضرب الفأس في جذرها فطنَّت الضربة، فكشف التراب عن موضعها، فوجد طابقًا ففتحه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢١٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما فتح ذلك الطابق وجد بابًا فنزل فيه، فلقي قاعة قديمة من عهد ثمود وعاد، وتلك القاعة واسعة، وهي مملوءة ذهبًا أحمر، فقال في نفسه: لقد ذهب التعب، وجاء الفرح والسرور. ثم إن قمر الزمان طلع من المكان إلى ظاهر البستان، وردَّ الطابق كما كان، ورجع إلى البستان وتحويل الماء على الأشجار، ولم يزل كذلك إلى آخر النهار، فجاء الخولي وقال: يا ولدي، أَبْشِر برجوعك إلى الأوطان؛ فإن التجار تجهَّزوا للسفر، والمركب بعد ثلاثة أيام مسافرة إلى مدينة الأبنوس، وهي أول مدينة من مدائن المسلمين، فإذا وصلتَ إليها تسافر في البر ستة أشهر حتى تصل إلى جزائر خالدان والملك شهرمان. ففرح قمر الزمان بذلك، ثم قبَّل يد الخولي وقال له: يا والدي، كما بشَّرتني فأنا أبشِّرك بشارة. وأخبره بأمر القاعة؛ ففرح الخولي وقال: يا ولدي، أنا لي في هذا البستان ثمانون عامًا ما وقفت على شيء، وأنت لك عندي دون السنة وقد رأيت هذا الأمر؛ فهو رزقك وسبب زوال عكسك، ومعين لك على وصولك إلى أهلك، واجتماع شملك بمن تحب. فقال قمر الزمان: لا بد من القسمة بيني وبينك.

ثم أخذ الخولي، ودخل به إلى تلك القاعة وأراه الذهب، وكان في عشرين خابية؛ فأخذ عشرة والخولي عشرة، فقال له الخولي: يا ولدي، عبِّ لك أمطارًا من الزيتون العصافيري الذي في هذا البستان، فإنه معدوم في غير بلادنا، وتحمله التجار إلى جميع البلاد، واجعل الذهب في الأمطار والزيتون فوق الذهب، ثم سدَّها وخذها في المركب. فقام قمر الزمان من وقته وساعته، وعبَّى خمسين مطرًا، ووضع الذهب فيها، وسد عليه بعد أن جعل الزيتون فوق الذهب، وحطَّ الفص معه في مطر، وجلس هو والخولي يتحدَّثان، وأيقن بجمع شمله وقربه من أهله، وقال في نفسه: إذا وصلت إلى جزيرة الأبنوس أسافر منها إلى بلاد أبي، وأسأل عن محبوبتي بدور، فيا ترى هل رجعت إلى بلادها،



رجع قمر الزمان إلى البستان وهو مهمومٌ بعدَ أن سافَرَت المركب.

أم سافرت إلى بلاد أبي، أم حدث لها حادث في الطريق؟ ثم جلس قمر الزمان ينتظر انقضاء الأيام، وحكى للخولي حكاية الطيور وما وقع بينها، فتعجب الخولي من ذلك، ثم ناما إلى الصباح، فأصبح الخولي ضعيفًا، واستمر على ضعفه يومين، وفي ثالث يوم اشتد به الضعف حتى يئسوا من حياته؛ فحزن قمر الزمان على الخولي. فبينما هو كذلك، وإذا بالريس والبحرية قد أقبلوا وسألوا عن الخولي، فأخبرهم بضعفه فقالوا: أين الشاب الذي

يريد السفر معنا إلى جزيرة الأبنوس؟ فقال لهم قمر الزمان: هو المملوك الذي بين أيديكم. ثم أمرهم بتحويل الأمطار إلى المركب، فنقلوها إلى المركب، وقالوا لقمر الزمان: أسرع فإن الريح قد طاب. فقال لهم: سمعًا وطاعة. ثم نقل زوادته إلى المركب، ورجع إلى الخولي يودعه فوجده في النزع؛ فجلس عند رأسه حتى مات، وغمَّضه وجهَّزه وواراه في التراب، ثم توجَّه إلى المركب فوجدها أرخت القلوع وسارت، ولم تزل تشق البحر حتى غابت عن عينه، فصار قمر الزمان مدهوشًا حيران، ثم رجع إلى البستان وهو مهموم مغموم، وحثا التراب على رأسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢١٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان رجع إلى البستان وهو مهموم مغموم بعد أن سافرت المركب، واستأجر البستان من صاحبه، وأقام تحت يده رجلًا يعاونه على سقي الشجر، وتوجه إلى الطابق، ونزل إلى القاعة، وعبَّى الذهب الباقي في خمسين مطرًا، ووضع فوقه الزيتون، وسأل عن المركب فقالوا: إنها لا تسافر إلا في كل سنة مرة واحدة. فزاد به الوسواس، وتحسَّر على ما جرى له، لا سيما فَقْد الفص الذي للسيدة بدور، فصار يبكي بالليل والنهار وينشد الأشعار.

هذا ما كان من أمر قمر الزمان، وأما ما كان من أمر المركب فإنه طاب لها الريح، ووصلت إلى جزيرة الأبنوس، واتفق بالأمر المقدور أن الملكة بدور كانت جالسة في الشباك، فنظرت إلى المركب وقد رست في الساحل، فخفق فؤادها وركبت هي والأمراء والحجَّاب وتوجهت إلى الساحل، ووقفت على المركب وقد دار النقل في البضائع إلى المخازن؛ فأحضرت الريس وسألته عما معه، فقال: أيها الملك، إن معي في هذه المركب من العقاقير، والسفوفات، والأكحال، والمراهم، والأدهان، والأموال، والأقمشة الفاخرة، والبضائع النفيسة، ما يعجز عن حمله الجمال والبغال، وفيها من أصناف العطر والبهار ومن العود القافلي، والتمر الهندي، والزيتون العصافيري، ما يندر وجوده في هذه البلاد. فاشتهت نفسها الزيتون، وقالت لصاحب المركب: ما مقدار الذي معك من الزيتون؟ قال: معي خمسون مطرًا ملآنة، ولكن صاحبها ما حضر معنا، والملك يأخذ ما اشتهاه منها. فقالت: أطلعوها إلى البر لأنظر إليها. فصاح الريس على البحرية، فطلعوا بالخمسين مطرًا، ففتحت واحدًا ونظرت وقالت: أنا آخذ هذه الخمسين مطرًا، وأعطيكم حقَّها مهما كان. فقال الريس: هذا ما له في بلادنا قيمة، ولكن صاحبها تأخَّرَ عنا وهو رجل فقير. فقالت: وما مقدار ثمنها؟ قال: ألف درهم. قالت: أنا آخذها بألف درهم. ثم أمرت بنقلها إلى القصر.

فلما جاء الليل أمرت بإحضار مطر، فكشفته وما في البيت غيرها هي وحياة النفوس، ثم حطَّت بين يديها طبقًا، ووضعت فيه شيئًا من المطر، فنزل في الطبق كوم من الذهب الأحمر، فقالت للسيدة حياة النفوس: ما هذا إلا ذهب! ثم اختبرت الجميع فوجدتها كلها ذهبًا، والزيتون كله يملأ مطرًا واحدًا، وفتَّشت في الذهب فوجدت الفصَّ فيه، فأخذته وتأمَّلته فوجدته الفص الذي كان في دكَّة لباسها وأخذه قمر الزمان؛ فلما تحقَّقته صاحت من فرحتها، وخرَّت مغشيًّا عليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢١٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة بدور لما رأت الفص صاحت من فرحتها، وخرَّت مغشيًّا عليها. فلما أفاقت قالت في نفسها: إن هذا الفص كان سببًا في فراق محبوبي قمر الزمان، ولكنه بشير الخير. ثم أعلمت السيدة حياة النفوس بأن وجوده بشارة الاجتماع. فلما أصبح الصباح جلست على كرسي المملكة، وأحضرت ريس المركب، فلما حضر قبَّل الأرض بين يديها، فقالت: أين خلَّيتم صاحب هذا الزيتون؟ قال: يا ملك الزمان، تركناه في بلاد المجوس، وهو خولي بستان. فقالت له: إن لم تأتِ به فلا تعلم ما يجري عليك، وعلى مركبك من الضرر. ثم أمرت بالختم على مخازن التجار، وقالت لهم: إن صاحب هذا الزيتون غريمي، ولي عليه دين، وإن لم يأتِ لأقتلنَّكم جميعًا وأنهب تجارتكم. فأقبلوا على الريس ووعدوه بأجرة مركبه ويرجع ثاني مرة، وقالوا له: خلِّصنا من هذا الغاشم. فنزل الريس إلى المركب وحلَّ قلوعها، وكتب الله له السلامة حتى دخل الجزيرة في الليل، وطلع إلى البستان، وكان قمر الزمان قد طال عليه الليل، وتذكَّر محبوبته، فقعد يبكي على ما جرى له وهو في البستان، ثم إن الريس دق الباب على قمر الزمان، ففتح الباب وخرج إليه، فحمله البحرية ونزلوا به إلى المركب، وحلوا القلوع وساروا، ولم يزالوا سائرين أيامًا وليالي وقمر الزمان لا يعلم ما يوجب ذلك، فسألهم عن السبب، فقالوا له: أنت غريم الملك صاحب جزائر الأبنوس صهر الملك أرمانوس، وقد سرقتَ ماله يا منحوس. فقال: والله عمري ما دخلت هذه البلاد ولا أعرفها.

ثم إنهم ساروا به حتى أشرفوا على جزائر الأبنوس، وطلعوا به على السيدة بدور؛ فلما رأته عرفته وقالت: دعوه عند الخدام ليدخلوا به الحمام. وأفرجت عن التجار، وخلعت على الريس خلعة تساوي عشرة آلاف دينار، ودخلت على حياة النفوس وأعلمتها بذلك،

وقالت لها: اكتمي الخبر حتى أبلغ مرادي، وأعمل عملًا يُؤرَّخ ويُقرَأ بعدنا على الملوك والرعايا. وحين أمرت أن يدخلوا بقمر الزمان الحمام، دخلوا به الحمام وألبسوه لبس الملوك، ولما طلع قمر الزمان من الحمام صار كأنه غصن بان أو كوكب يخجل بطلعته القمران، وردَّت روحه إليه، ثم توجه إليها ودخل القصر، فلما نظرته صبَّرت قلبها حتى يتم مرادها، وأنعمت عليه بمماليك وخدم وجمال وبغال، وأعطته خزانة مال، ولم تزل ترقِّي قمر الزمان من درجة إلى درجة حتى جعلته خازندار، وسلَّمت إليه الأموال، وأقبلت عليه وقرَّبته منها وأعلمت الأمراء بمنزلته، فأحبوه جميعهم، وصارت الملكة بدور كل يوم تزيد له في المرتبات، وقمر الزمان لا يعرف ما سبب تعظيمها له، ومن كثرة الأموال صار يهب ويتكرَّم، ويخدم الملك أرمانوس حتى أحبَّه، وكذلك أَحَبَّه الأمراء والخواص والعوام، وصاروا يحلفون بحياته. كل ذلك وقمر الزمان يتعجب من تعظيم الملكة بدور له، ويقول في نفسه: والله إن هذه المحبة لا بد لها من سبب، وربما يكون هذا الملك إنما يكرمني هذا الإكرام الزائد لأجل غرض فاسد، فلا بد أن أستأذنه وأسافر عن بلاده.

ثم إنه توجه إلى الملكة بدور وقال لها: أيها الملك، إنك أكرمتني إكرامًا زائدًا، ومن تمام الإكرام أن تأذن لي في السفر، وتأخذ مني جميع ما أنعمت به عليَّ. فتبسمت الملكة بدور وقالت له: ما حملك على طلب الأسفار، واقتحام الأخطار، وأنت في غاية الإكرام وتزايد الإنعام؟ فقال لها قمر الزمان: أيها الملك، إن هذا الإكرام إذا لم يكن له سبب فإنه من أعجب العجب، خصوصًا وقد أوليتني من المراتب ما حقه أن يكون للأخيار، مع أنني من الأطفال الصغار. فقالت له الملكة بدور: وسبب ذلك أني أحبك لفرط جمالك الفائق، وبديع حسنك الرائق، وإن مكَّنْتَني مما أريده منك أزِدْك إكرامًا وعطاءً وإنعامًا، وأجعلك وزيرًا على صغر سنك كما جعلني الناس سلطانًا عليهم وأنا في هذا السن، ولا عجب اليومَ في رئاسة الأطفال، ولله در مَن قال:

كَأَنَّ زَمَانَنَا مِنْ قَوْمِ لُوطٍ لَهُ شَغَفٌ بِتَقْدِيمِ الصِّغَارِ

فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام خجل واحمرَّت خدوده حتى صارت كالضرام، وقال: لا حاجة لي بهذا الإكرام المؤدي إلى ارتكاب الحرام، بل أعيش فقيرًا من المال غنيًّا بالمروءة والكمال. فقالت له الملكة بدور: أنا لا أغتر بورعك الناشئ عن التيه والدلال، ولله در مَن قال:

ذَاكَرْتُهُ عَهْدَ الْوِصَالِ فَقَالَ لِي كَمْ ذَا تُطِيلُ مِنَ الْكَلَامِ الْمُؤْلِمِ؟
فَأَرَيْتُهُ الدِّينَارَ أَنْشَدَ قَائِلًا أَيْنَ الْمَفَرُّ مِنَ الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ؟

فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام، وفهم الشعر والنظام، قال: أيها الملك، إنه لا عادة لي بهذه الفعال، ولا طاقة لي على حمل هذه الأثقال، التي يعجز عن حملها أكبر مني، فكيف بي على صغر سني؟ فلما سمعت كلامه الملكة بدور تبسَّمت، وقالت: إن هذا لشيء عجاب، كيف يظهر الخطأ من خلال الصواب إذا كنت صغيرًا؟ فكيف تخشى الحرام وارتكاب الآثام وأنت لم تبلغ حدَّ التكليف، ولا مؤاخذةَ في ذنب الصغير ولا تعنيف؟ فقد ألزمت نفسك الحجَّة بالجدال، وحقت عليك كلمة الوصال، فلا تُظهِر بعد ذلك امتناعًا ولا نفورًا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، فأنا أحقُّ منك بخشية الوقوع في الضلال، وقد أجاد مَن قال:

أَيْرِي كَبِيرٌ وَالصَّغِيرُ يَقُولُ لِي اطْعَنْ بِهِ الْأَحْشَا وَكُنْ صِنْدِيدَا
فَأَجَبْتُهُ ذَا لَا يَجُوزُ فَقَالَ لِي عِنْدِي يَجُوزُ فَنِكْتُهُ تَقْلِيدَا

فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام، تبدَّل الضياء في وجهه بالظلام، وقال: أيها الملك، إنه يوجد عندك من النساء والجواري الحسان ما لا يوجد له نظير في هذا الزمان، فهلَّا استغنيتَ بذلك عني؟ فمِلْ إلى ما شئتَ منهنَّ ودعني. فقالت: إن كلامك صحيح، ولكن لا يشتفي بهن من عشقك ألم ولا تبريح، وإذا فسدت الأمزجة والطبيعة فهي لغير النصح سميعة مطيعة، فاترك الجدال واسمع قول مَن قال:

أَمَا تَرَى السُّوقَ قَدْ صُفَّتْ فَوَاكِهُهُ لِلتِّينِ قَوْمٌ وَلِلْجُمَّيْزِ أَقْوَامُ

وقول الآخر:

وَصَامِتَةِ الْخَلْخَالِ رَنَّ وِشَاحُهَا فَهَذَا قَدِ اسْتَغْنَى وَذَا يَشْتَكِي الْفَقْرَا
تُرِيدُ سُلُوِّي عَنْكَ جَهْلًا بِحُسْنِهَا وَمَا كُنْتُ أَرْضَى بَعْدَ إِيمَانِيَ الْكُفْرَا
وَحَقِّ عِذَارٍ يَزْدَرِي بِعِقَاصِهَا فَلَسْتُ بِعَاطٍ لِلَّتِي تُلْهِنِي الْعُذْرَا

وقول الآخر:

يَا فَرِيدَ الْجَمَالِ حُبُّكَ دِينِي وَاخْتِيَارِي عَلَى جَمِيعِ الْمَذَاهِبْ
قَدْ تَرَكْتُ النِّسَا لِأَجْلِكَ حَتَّى زَعَمَ النَّاسُ أَنَّنِي الْيَوْمَ رَاهِبْ

وقول الآخر:

سَلَا خَاطِرِي عَنْ زَيْنَبٍ وَنَوَارِي بِـوَرْدَةِ خَـدٍّ فَـوْقَ آسِ عِـذَارِ
وَأَصْبَحْتُ بِالظَّبْيِ الْمُقَرْطَقِ مُغْرَمًا وَلَا رَأْيَ لِي فِي عِشْقِ ذَاتِ سِوَارِ
أَنِيسِيَ فِي النَّادِي وَفِي خَلْوَتِي مَعًا خِلَافَ أَنِيسِـي فِـي قَرَارَةِ دَارِي
فَيَا لَائِمِي فِي هَجْرِ هِنْدٍ وَزَيْنَبٍ وَقَدْ لَاحَ عُذْرِي كَالصَّبَاحِ السَّارِي
أَتَرْضَى بِأَنْ أُمْسِي أَسِيرَ أَسِيرَةٍ مُـحَـصَّـنَـةٍ أَوْ مِـنْ وَرَاءِ جِـدَارِ

وقول الآخر:

لَا تَقِسْ أَمْرَدًا بِأُنْثَى وَلَا تُصْـ ـغِ لِوَاشٍ يَقُولُ ذَلِكَ فِسْقُ
بَيْنَ أُنْثَى يُقَبِّلُ الْوَجْهُ رِجْلًا وَغَـزَالٍ يُـقَـبِّـلُ الْأَرْضَ فَـرْقُ

وقول الآخر:

فَدَيْتُكَ إِنَّمَا اخْتَرْنَاكَ عَمْدًا لِأَنَّكَ لَا تَحِيضُ وَلَا تَبِيضُ
وَلَوْ مِلْنَا إِلَى وَصْلِ الْغَوَانِي لَضَاقَ بِنَسْلِنَا الْبَلَدُ الْعَرِيضُ

وقول الآخر:

تَقُولُ لِي وَهْيَ غَضْبَى مِنْ تَدَلُّلِهَا وَقَدْ دَعَتْنِي إِلَى شَيْءٍ فَمَا كَانَا
إِنْ لَمْ تَنِكْنِيَ نَيْكَ الْمَرْءِ زَوْجَتَهُ فَلَا تَلُمْنِي إِذَا أَصْبَحْتَ قَرْنَانَا
كَأَنَّ أَيْرَكَ مِنْ شَمْعٍ رَخَاوَتُهُ فَـكُـلَّـمَـا عَـرَكَـتْـهُ رَاحَـتِـي لَانَـا

وقول الآخر:

قَالَتْ وَقَدْ أَعْرَضْتُ عَنْ غَشَيَانِهَا يَا أَحْمَقًا فِي جَهْلِهِ يَتَنَاهَى
لَمْ تَرْضَ مِنْ قَبْلِي لِوَجْهِكَ قُبْلَةً لَـنُـوَلِّـيَـنَّـكَ قِـبْـلَـةً تَـرْضَـاهَـا

وقول الآخر:

جَـادَتْ بِـكُسٍّ نَـاعِـمٍ فَـقُـلْـتُ إِنِّـي لَـمْ أَنِـكْ
فَـانْـصَـرَفَـتْ قَـائِـلَـةً يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكْ
النَّيْكُ مِنْ قُدَّامِ فِي هَذَا الزَّمَانِ قَدْ تُرِكْ

وَدَوَّرَتْ لِـي فَـتْـحَـةً مِثْلَ اللُّجَيْنِ الْمُنْسَبِكْ
أَحْسَنْتِ يَا سِيِّدَتِي أَحْسَنْتِ لَا فُجِّعْتُ بِكْ
أَحْسَنْتِ يَا أَوْسَعَ مِنْ فُتُوحِ مَوْلَانَا الْمَلِكْ

وقول الآخر:

يَسْتَغْفِرُ النَّاسُ بِأَيْدِيهِمِ وَهُنَّ يَسْتَغفِرْنَ بِالْأَرْجُلِ
فَيَا لَهُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يَرْفَعُهُ اللهُ إِلَى أَسْفَلِ

فلما سمع قمر الزمان منها هذه الأشعار، وتحقَّق أنه ليس له مما أرادته فرار، قال: يا ملك الزمان، إن كان ولا بد فعاهِدْني على أنك لا تفعل بي هذا الأمر غير مرة واحدة، وإن كان ذلك لا يجدي في إصلاح الطبيعة الفاسدة، وبعد ذلك لا تسألني فيه على الأبد، لعلَّ الله يصلح مني ما فسد. فقالت: عاهدتك على ذلك، راجيًا أن الله علينا يتوب، ويمحو بفضله عنا عظيم الذنوب، فإن نطاق أفلاك المغفرة لا يضيق عن أن يحيط بنا، ويكفِّر عنا ما عَظُم من سيئاتنا، ويخرجنا إلى نور الهدى من ظلام الضلال، وقد أجاد وأحسن مَن قال:

تَوَهَّمَ فِينَا النَّاسُ شَيْئًا وَصَمَّمَتْ عَلَيْهِ نُفُوسٌ مِنْهُمُ وَقُلُوبُ
تَعَالَ نُحَقِّقْ ظَنَّهُمْ لِنُرِيحَهُمْ مِنَ الْإِثْمِ فِينَا مَرَّةً وَنَتُوبُ

ثم أعطته المواثيق والعهود، وحلفت له بواجب الوجود، أنه لا يقع بينها وبينه هذا الفعل إلا مرة في الزمان، وإن ألجأها غرامه إلى الموت والخسران، فقام معها على هذا الشرط إلى محل خلوتها لتطفئ نيران لوعتها، وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ذلك تقدير العزيز العليم. ثم حلَّ سراويله وهو في غاية الخجل، وعيونه تسيل من شدة الوجل؛ فتبسمت وأطلعته معها على السرير، وقالت له: لا ترى بعد هذه الليلة من نكير. ومالت عليه بالتقبيل والعناق، والْتِفاف ساقٍ على ساق، ثم قالت له: مدَّ يدك بين فخذيَّ إلى المعهود؛ لعله ينتصب إلى القيام من السجود. فبكى وقال: أنا لا أُحسِنُ شيئًا من ذلك. فقالت: بحياتي تفعل ما أمرتُكَ به مما هنالك. فمدَّ يده وفؤاده في زفير؛ فوجد فخذها ألين من الزبد وأنعم من الحرير؛ فاستلذَّ بلمسها، وجال بيده في جميع الجهات، حتى وصلت إلى قبَّة كثيرة البركات والحركات، فقال في نفسه: لعل هذا الملك خنثى، وليس بذكر ولا أنثى. ثم قال: أيها الملك، إني لم أجد لك آلةً مثل آلات الرجال، فما حملك على هذه الفعال؟ فضحكت الملكة بدور حتى استلقت على قفاها، وقالت له: يا حبيبي، ما أسرع

ما نسيت ليالي بِتْناها. وعرَّفته بنفسها، فعرف أنها زوجته الملكة بدور بنت الملك الغيور صاحب الجزائر والبحور؛ فاحتضنها واحتضنته، وقبَّلتها وقبَّلته، ثم اضطجعا على فراش الوصال، وتناشدا قول مَن قال:

لَمَّا دَعَتْهُ إِلَى وِصَالِي عَطْفَةٌ ... مِنْ مَعْطَفٍ بِتَعَطُّفٍ مُتَوَاصِ
وَسَقَتْ قَسَاوَةَ قَلْبِهِ مِنْ لِينَهَا ... فَأَجَابَ بَعْدَ تَمَنُّعٍ وَتَعَاصِ
خَشِيَ الْعَوَاذِلَ أَنْ تَرَاهُ إِذَا بَدَا ... فَأَتَى بِعُدَّةِ آمِنَ الْإِرْهَاصِ
شَكَتِ الْخُصُورُ رَوَادِفًا قَدْ حَمَّلَتْ ... أَقْدَامَهُ فِي الْمَشْيِ حِمْلَ قِلَاصِ
مُتَقَلِّدُ الصَّمْصَامِ مِنْ أَلْحَاظِهِ ... وَمِنَ الدُّجَى مُتَدَرِّعًا بِدِلَاصِ
وَشَذَاهُ بَشَّرَنِي بِسَعْدِ قُدُومِهِ ... فَفَرَرْتُ مِثْلَ الطَّيْرِ مِنْ أَقْفَاصِ
وَفَرَشْتُ خَدِّي فِي الطَّرِيقِ لِنَعْلِهِ ... فَشَفَى بِإِثْمِدِ تُرْبِهَا أَرْمَاصِي
وَعَقَدْتُ أَلْوِيَةَ الْوِصَالِ مُعَانِقًا ... وَفَكَكْتُ عُقْدَةَ حَظِّيَ الْمُتَعَاصِي
وَأَقَمْتُ أَفْرَاحًا أَجَابَ نِدَاءَهَا ... طَرَبٌ صَفَا عَنْ شَائِبِ الْإِنْغَاصِ
وَالْبَدْرُ نَقَّطَ بِالنُّجُومِ الثَّغْرَ مِنْ ... حَبَبٍ عَلَى وَجْهِ الطِّلَا رَقَّاصِ
وَعَكَفْتُ فِي مِحْرَابِ لَذَّتِهَا عَلَى ... مَا مِنْ تَعَاطِيهِ يَتُوبُ الْعَاصِي
قَسَمًا بِآيَاتِ الضُّحَى مِنْ وَجْهِهِ ... لَمْ أَنْسَ فِيهِ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ

ثم إن الملكة بدور أخبرت قمر الزمان بجميع ما جرى لها من الأول إلى الآخر، وكذلك هو أخبرها بجميع ما جرى له، وبعد ذلك انتقل معها إلى العتاب، وقال لها: ما حملك على ما فعلتِه بي في هذه الليلة؟ فقالت: لا تؤاخذني فإن قصدي بذلك المزاح، ومزيد البسط والانشراح. فلما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، أرسلت الملكة بدور إلى الملك أرمانوس والد الملكة حياة النفوس، وأخبرته بحقيقة أمرها، وأنها زوجة قمر الزمان، وأخبرته بقصتهما وبسبب افتراقهما من بعضهما، وأعلمته أن ابنته حياة النفوس بكر على حالها؛ فلما سمع الملك أرمانوس صاحب جزائر الأبنوس قصة الملكة بدور بنت الملك الغيور، تعجَّب منها غاية العجب، وأمر أن يكتبوها بماء الذهب، ثم التفت إلى قمر الزمان وقال له: يا ابن الملك، هل لك أن تصاهرني وتتزوج بنتي حياة النفوس؟ فقال له: حتى أشاور الملكة بدور، فإن لها عليَّ فضلًا غير محصور. فلما شاورها قالت له: نِعْمَ هذا الرأي! فتزوَّجْها وأكون أنا لها جارية؛ لأن لها عليَّ معروفًا وإحسانًا، وخيرًا وامتنانًا،

وخصوصًا ونحن في محلها، وقد غمرنا إحسانُ أبيها. فلما رأى قمر الزمان أن الملكة بدور مائلة إلى ذلك، ولم يكن عندها غيرة من حياة النفوس، اتفق معها على هذا الأمر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢١٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان اتفق مع زوجته الملكة بدور على هذا الأمر، وأخبر الملك أرمانوس بما قالته الملكة بدور من أنها تحب ذلك وتكون جارية لحياة النفوس. فلما سمع الملك أرمانوس هذا الكلام من قمر الزمان، فرح فرحًا شديدًا، ثم خرج وجلس على كرسي مملكته، وأحضر جميع الوزراء والأمراء والحجَّاب وأرباب الدولة، وأخبرهم بقصة قمر الزمان وزوجته الملكة بدور من الأول إلى الآخر، وأنه يريد أن يزوِّج ابنته حياة النفوس لقمر الزمان، ويجعله سلطانًا عليهم عوضًا عن زوجته الملكة بدور؛ فقالوا جميعًا: حيث كان قمر الزمان هو زوج الملكة بدور، التي كانت سلطانًا علينا قبله ونحن نظن أنها صهر ملكنا أرمانوس، فكلنا نرضاه سلطانًا علينا ونكون له خدمًا، ولا نخرج عن طاعته. ففرح الملك أرمانوس بذلك فرحًا شديدًا، ثم أحضر القضاة والشهود ورؤساء الدولة، وعقد عقد قمر الزمان على ابنته الملكة حياة النفوس، ثم إنه أقام الأفراح وأولم الولائم الفاخرة، وخلع الخلع السنية على جميع الأمراء ورؤساء العساكر، وتصدَّق على الفقراء والمساكين، وأطلق جميع المحابيس، واستبشر العالَم بسلطنة الملك قمر الزمان، وصاروا يدعون له بدوام العز والإقبال والسعادة والإجلال.

ثم إن قمر الزمان لما صار سلطانًا عليهم أزال المكوس، وأطلق مَن بقي في الحبوس، وسار فيهم سيرة حميدة، وأقام مع زوجتَيْه على هناء وسرور، ووفاء وحبور؛ يبيت عند كل واحدة منهما ليلة، ولم يزل على ذلك مدة من الزمان، وقد انجلت عنه الهموم والأحزان، ونسي أباه الملك شهرمان، وما كان له عنده من عز وسلطان، حتى رزقه الله تعالى من زوجتيه بولدين ذكرين مثل القمرين النَّيِّرين؛ أكبرهما من الملكة بدور، وكان اسمه الملك الأمجد، وأصغرهما من الملكة حياة النفوس، واسمه الملك الأسعد. وكان الأسعد أجمل من أخيه الأمجد، ثم إنهما تربَّيا في العز والدلال، والأدب والكمال، وتعلَّما الخط والسياسة

والفروسية حتى صارا في غاية الكمال، ونهاية الحسن والجمال، وافتتن بهما النساء، وصار لهما من العمر نحو سبعة عشر عامًا وهما متلازمان، فيأكلان سواء ويشربان سواء، ولا يفترقان عن بعضهما ساعة من الساعات، ولا وقتًا من الأوقات، وجميع الناس يحسدهما على ذلك، ولما بلغَا مبلغ الرجال، واتَّصفا بالكمال، صار أبوهما إذا سافر يجلسهما على التعاقب في مجلس الحكم؛ فيحكم كل واحد منهما يومًا بين الناس. واتفق بالقدر المبرم والقضاء المحتم، أن محبة الأسعد الذي هو ابن حياة النفوس وقعت في قلب الملكة بدور زوجة أبيه، وأن محبة الأمجد الذي هو ابن الملكة بدور وقعت في قلب حياة النفوس زوجة أبيه؛ فصارت كل واحدة من المرأتين تلاعب ابن ضرَّتها وتقبِّله وتضمه إلى صدرها، وإذا رأت ذلك أمه تظن أنه من الشفقة ومحبة الأمهات لأولادها. وتمكَّن العشق من قلوب المرأتين وافتتنتا بالولدين، فصارت كل واحدة منهما إذا دخل عليها ابن ضرتها تضمه إلى صدرها، وتود أنه لا يفارقها، ولما طال عليهما المطال، ولم يجدَا سبيلًا إلى الوصال، امتنعتا من الشراب والطعام، وهجرتا لذيذ المنام. ثم إن الملك توجه إلى الصيد والقنص، وأمر ولديه أن يجلسا في موضعه للحكم؛ كل واحد منهما يومًا على عادتهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢١٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك توجَّه إلى الصيد والقنص، وأمر ولديه أن يجلسا في موضعه للحكم؛ كل واحد يومًا على عادتهما؛ فجلس للحكم في اليوم الأول الأمجد ابن الملكة بدور فأمر ونهى، وولَّى وعزل، وأعطى ومنع. فكتبت له الملكة حياة النفوس أم الأسعد مكتوبًا تستعطفه فيه، وتوضِّح له أنها متعلِّقة به، ومتعشِّقة فيه، وتكشف له الغطاء، وتعلمه أنها تريد وصاله، فأخذت ورقةً وكتبت فيها هذه السجعات: «من المسكينة العاشقة، الحزينة المفارقة، التي ضاع بحبك شبابها، وطال فيك عذابها، ولو وصفت لك طول الأسف، وما أقاسيه من اللهف، وما بقلبي من الشغف، وما أنا فيه من البكاء والأنين، وتقطع القلب الحزين، وتوالي الغموم، وتتابع الهموم، وما أجده من الفراق، والكآبة والاحتراق، لطال شرحه في الكتاب، وعجزت عن حصره الحساب، وقد ضاقت عليَّ الأرض والسماء، ولا لي في غيرك أمل ولا رجاء، فقد أشرفت على الموت، وكابدت أهوال الفوت، وزاد بي الاحتراق، وألم الهجر والفراق، ولو وصفت ما عندي من الأشواق، لضاقت عنه الأوراق.» ثم بعد ذلك كتبت هذين البيتين:

لَوْ كُنْتُ أَشْرَحُ مَا أَلْقَاهُ مِنْ حُرَقِ وَمِنْ سَقَامٍ وَمِنْ وَجْدٍ وَمِنْ قَلَقِ
لَمْ يَبْقَ فِي الْأَرْضِ قِرْطَاسٌ وَلَا قَلَمٌ وَلَا مِدَادٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْوَرَقِ

ثم إن الملكة حياة النفوس لفَّت تلك الورقة في رقعة من غالي الحرير، مضمَّخة بالمسك والعبير، ووضعت معها جدائل شعرها التي تستغرق الأموال بسعرها، ثم لفَّتها بمنديل، وأعطتها للخادم، وأمرته أن يوصلها إلى الملك الأمجد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢١٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنها أعطت ورقة المراسلة للخادم، وأمرته بوصلها إلى الملك الأمجد، فسار ذلك الخادم وهو لا يعلم ما خفي له في الغيب، وعلَّام الغيوب يدبر الأمور كيف يشاء؛ فلما دخل الخادم على الملك الأمجد قبَّلَ الأرض بين يديه، وناوله المنديل وبلَّغه الرسالة؛ فتناوَلَ الملك الأمجد المنديل من الخادم وفتحه، فرأى الورقة ففتحها وقرأها، فلما فهم معناها علم أن امرأة أبيه في عينها الخيانة، وقد خانت أباه الملك قمر الزمان في نفسها؛ فغضب غضبًا شديدًا، وذم النساء على فعلهن، وقال: لعن الله النساء الخائنات الناقصات عقلًا ودينًا. ثم إنه جرَّد سيفه، وقال للخادم: ويلك يا عبد السوء! أتحمل المراسلة المشتملة على الخيانة من زوجة سيدك؟ والله إنه لا خيرَ فيك يا أسود اللون والصحيفة، يا قبيح المنظر والطبيعة السخيفة. ثم ضربه بالسيف على عنقه فعزل رأسه عن جثته، وطوى المنديل على ما فيه ووضعه في جيبه، ثم دخل على أمه وأعلمها بما جرى، وسبَّها وشتمها، وقال: كلكن أنجس من بعضكن، والله العظيم لولا أني أخاف إساءة الأدب في حق والدي قمر الزمان وأخي الملك الأسعد، لأدخلن عليها وأضربن عنقها كما ضربتُ عنق خادمها.

ثم إنه خرج من عند أمه الملكة بدور وهو في غاية الغيظ، فلما بلغ الملكة حياة النفوس زوجة أبيه ما فعل بخادمها، سبَّتْه ودعت عليه، وأضمرت له المكر؛ فبات الملك الأمجد في تلك الليلة ضعيفًا من الغيظ والقهر والفكر، ولم يلذ له أكل ولا شرب ولا منام. فلما أصبح الصباح خرج أخوه الملك الأسعد، وجلس في مجلس أبيه الملك قمر الزمان ليحكم بين الناس، وقد أصبحت أمه حياة النفوس ضعيفة بسبب ما سمعته عن الملك الأمجد من قتله للخادم. ثم إن الملك الأسعد لما جلس للحكم في ذلك اليوم، حكم وعدل، وولَّى وعزل، وأمر ونهى، وأعطى ووهب، ولم يزل جالسًا في مجلس الحكم إلى قرب العصر. ثم إن الملكة بدور أم الملك الأمجد أرسلت إلى عجوز من العجائز الماكرات،

وأظهرتها على ما في قلبها، وأخذت ورقةً لتكتب فيها مراسلةً للملك الأسعد ابن زوجها، وتشكو إليه كثرة محبتها ووجدها به؛ فكتبت له هذه السجعات: «ممَّن تلفت وَجْدًا وشوقًا، إلى أحسن الناس خُلُقًا وخَلْقًا، المعجب بجماله، التائه بدلاله، المُعرِض عن طلب وصاله، الزاهد في القرب ممَّن خضع وذلَّ، إلى مَن جفا وملَّ، الملك الأسعد صاحب الحسن الفائق، والجمال الرائق، والوجه الأقمر، والجبين الأزهر، والضياء الأبهر، هذا كتابي إلى من حبُّه أذاب جسمي، ومزَّق جلدي وعظمي، اعلم أنه قد عيل صبري، وتحيَّرتُ في أمري، وأقلقني الشوق والسهاد، وجفاني الصبر والرقاد، ولازمني الحزن والسهاد، وبرح بي الوَجْد والغرام، وحلول الضنى والسِّقام، فالروح تفديك، وإن كان قتلُ الصبِّ يرضيك، والله يبقيك، ومن كل سوء يقيك.» ثم بعد تلك السجعات كتبت هذه الأبيات:

حَكَمَ الزَّمَانُ بِأَنَّنِي لَكَ عَاشِقٌ — يَا مَنْ مَحَاسِنُهُ كَبَدْرٍ يُشْرِقُ
حُزْتَ الْمَلَاحَةَ وَالْفَصَاحَةَ كُلَّهَا — وَعَلَيْكَ مِنْ دُونِ الْبَرِيَّةِ رَوْنَقُ
وَلَقَدْ رَضِيتَ بِأَنْ تَكُونَ مُعَذِّبِي — فَعَسَى عَلَيَّ بِنَظْرَةٍ تَتَصَدَّقُ
مَنْ مَاتَ فِيكَ صَبَابَةً فَلَهُ الْهَنَا — لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُحِبُّ وَيَعْشَقُ

ثم كتبت أيضًا هذه الأبيات:

إِلَيْكَ أَسْعَدُ أَشْكُو مِنْ لَهِيبِ جَوًى — فَارْحَمْ مُتَيَّمَةً بِالشَّوْقِ تَلْتَهِبُ
إِلَى مَتَى وَأَيَادِي الْوَجْدِ تَلْعَبُ بِي — وَالْعِشْقُ وَالْفِكْرُ وَالتَّسْهِيدُ وَالنَّصَبُ
طَوْرًا بِبَحْرٍ وَطَوْرًا أَشْتَكِي لَهَبًا — فِي مُهْجَتِي إِنَّ ذَا يَا مُنْيَتِي عَجَبُ
يَا لَائِمِي خَلِّ لَوْمِي وَالْتَمِسْ هَرَبًا — مِنَ الْهَوَى فَدُمُوعُ الْعَيْنِ تَنْسَكِبُ
كَمْ صِحْتُ وَجْدًا مِنَ الْهِجْرَانِ وَا حَرَبَا! — فَلَمْ يُفِدْنِي بِذَاكَ الْوَيْلُ وَالْحَرَبُ
أَمْرَضْتَنِي بِصُدُودٍ لَسْتُ أَحْمِلُهُ — أَنْتَ الطَّبِيبُ فَأَسْعِفْنِي بِمَا يَجِبُ
يَا عَاذِلِي كُفَّ عَنْ عَذْلِي مُحَاذَرَةً — كَيْ لَا يُصِيبَكَ مِنْ دَاءِ الْهَوَى عَطَبُ

ثم إن الملكة بدور ضمَّخت ورقة الرسالة بالمسك الأذفر، ولفَّتها في جدائل شعرها، وهي من الحرير العراقي، وشراريبها من قضبان الزمرد الأخضر مرصَّعة بالدر والجوهر، ثم سلَّمتها إلى العجوز، وأمرتها أن تعطيها للملك الأسعد ابن زوجها الملك قمر الزمان؛ فراحت العجوز من أجل خاطرها، ودخلت على الملك الأسعد من وقتها وساعتها، وكان في

خلوة عند دخولها، فناولَتْه الورقةَ بما فيها، وقد وقفت ساعة زمانية تنتظر ردَّ الجواب؛ فعند ذلك قرأ الملك الأسعد الورقة وفهم ما فيها، ثم بعد ذلك لفَّ الورقة في الجدائل، ووضعها في جيبه، وغضب غضبًا شديدًا ما عليه من مزيد، ولعن النساء الخائنات.

ثم إنه نهض، وسحب السيف من غمده، وضرب رقبة العجوز فعزل رأسها عن جثتها، وبعد ذلك قام وتمشى حتى دخل على أمه حياة النفوس، فوجدها راقدة في الفرش ضعيفة بسبب ما جرى لها من الملك الأمجد؛ فشتمها الملك الأسعد ولعنها، ثم خرج من عندها؛ فاجتمع بأخيه الملك الأمجد، وحكى له جميع ما جرى له مع الملكة بدور، وأخبره بأنه قتل العجوز التي جاءت له بالرسالة، ثم قال له: والله يا أخي، لولا حيائي منك لَكنتُ دخلت في هذه الساعة إليها وقطعت رأسها من بين كتفيها. فقال له أخوه الملك الأمجد: والله يا أخي، إنه قد جرى لي بالأمس لما جلست على كرسي المملكة مثل ما جرى لك في هذا اليوم، فإن أمك أرسلَتْ إليَّ رسالةً بمثل مضمون هذا الكلام. ثم أخبره بجميع ما جرى له مع أمه الملكة حياة النفوس، وقال له: والله يا أخي، لولا حيائي منك لَدخلتُ إليها، وفعلت بها ما فعلتُ بالخادم.

ثم إنهما باتا يتحدَّثان بقية تلك الليلة، ويلعنان النساء الخائنات، ثم تواصَيَا بكتمان هذا الأمر لئلا يسمع به أبوهما الملك قمر الزمان فيقتل المرأتين، ولم يزالا في غمٍّ تلك الليلةَ إلى الصباح. فلما أصبح الصباح أقبل الملك بجيشه من الصيد، وطلع إلى قصره، ثم صرف الأمراء إلى حال سبيلهم، وقام ودخل القصر فوجد زوجتيه راقدتين على الفراش، وهما في غاية الضعف، وقد عملتا لولديهما مكيدة، واتفقتا على تضييع أرواحهما؛ لأنهما قد فضحتا أنفسهما معهما، وقد خشيتا أن تصيرا تحت ذِلتهما، فلما رآهما الملك على تلك الحالة قال لهما: ما لكما؟ فقامتا إليه وقبَّلتا يديه، وعكستا عليه المسألة، وقالتا له: اعلم أيها الملك أن ولديك اللذين قد تربيَّا في نعمتك قد خاناك في زوجتَيْك وأركباك العار. فلما سمع قمر الزمان من نسائه هذا الكلام، صار الضياء في وجهه ظلامًا، واغتاظ غيظًا شديدًا حتى طار عقله من شدة الغيظ، وقال لنسائه: أوضحَا لي هذه القضية. فقالت له الملكة بدور: اعلم يا ملك الزمان أن ولدك الأسعد ابن حياة النفوس له مدة من الأيام وهو يراسلني ويكاتبني ويراودني على الزنا، وأنا أنهاه عن ذلك ولم ينتهِ، فلما سافرتَ أنت هجم عليَّ وهو سكران والسيف في يده، فخفت أن يقتلني إذا مانعته كما قتل خادمي، فقضى أربه مني غصبًا، وإن لم تخلِّص حقي منه أيها الملك قتلتُ نفسي بيدي، وليس لي حاجة بالحياة في الدنيا بعد هذا الفعل القبيح. وأخبرَتْه حياة النفوس أيضًا بمثل ما أخبرته به ضرتها بدور. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة حياة النفوس أخبرت زوجها الملك قمر الزمان بمثل ما أخبرته به الملكة بدور، وقالت له: أنا الأخرى جرى لي مع ولدك الأمجد كذلك. ثم إنها أخذت في البكاء والنحيب، وقالت له: إن لم تخلِّص لي حقي منه أعلمت أبي الملك أرمانوس بذلك. ثم إن المرأتين بكتَا قدَّام زوجهما الملك قمر الزمان بكاءً شديدًا، فلما رأى الملك بكاء زوجتيه الاثنتين وسمع كلامهما، اعتقد أنه حق، فغضب غضبًا شديدًا ما عليه من مزيد، فقام وأراد أن يهجم على ولدَيْه الاثنين ليقتلهما، فلقيه صهره الملك أرمانوس، وقد كان داخلًا في تلك الساعة ليسلِّم عليه لما علم أنه قد أتى من الصيد، فرآه والسيف مشهور في يده، والدم يقطر من مناخيره من شدة غيظه، فسأله عما به، فأخبره بجميع ما جرى من ولديه الأمجد والأسعد، ثم قال له: وها أنا داخل إليهما لأقتلهما أقبح قتلة، وأمثِّل بهما أقبح مثلة. فقال له صهره الملك أرمانوس، وقد اغتاظ منهما أيضًا: ونِعم ما تفعل يا ولدي، فلا بارَكَ الله فيهما، ولا في أولاد تفعل هذه الفعال في حق أبيهما، ولكن يا ولدي صاحب المثل يقول: «من لم ينظر في العواقب، ما الدهر له بصاحب.» وهما ولداك على كل حال، وينبغي ألَّا تقتلهما بيدك فتشرب غُصَّتهما، وتندم بعد ذلك على قتلهما حيث لا ينفعك الندم، ولكن أرسلهما مع أحد من المماليك ليقتلهما في البرية وهما غائبان عن عينك.

فلما سمع الملك قمر الزمان من صهره الملك أرمانوس هذا الكلام رآه صوابًا، فأغمد سيفه ورجع وجلس على سرير مملكته ودعا خازنداره، وكان شيخًا كبيرًا عارفًا بالأمور وتقلُّبات الدهور، وقال له: أدخل إلى ولديَّ الأمجد والأسعد، وكتِّفهما كتافًا جيدًا، واجعلهما في صندوقين، واحملهما على بغل، واركب أنت واخرج بهما إلى وسط البرية واذبحهما، واملأ لي قنِّينتين من دمهما، وائتني بهما عاجلًا. فقال له الخازندار: سمعًا وطاعة. ثم

نهض من وقته وساعته، وتوجَّه إلى الأمجد والأسعد فصادفهما في الطريق وهما خارجان في دهليز القصر، وقد لبسا قماشهما وأفخر ثيابهما، وأرادا التوجُّه إلى والدهما الملك قمر الزمان ليسلِّما عليه، ويهنِّئاه بالسلامة عند قدومه من السفر إلى الصيد؛ فلما رآهما الخازندار قبض عليهما، وقال لهما: يا ولديَّ، اعلما أنني عبدٌ مأمور، وأن أباكما أمرني بأمر، فهل أنتما طائعان لأمره؟ قالا: نعم. فعند ذلك تقدَّمَ إليهما الخازندار وكتَّفهما، ووضعهما في صندوقين، وحملهما على ظهر بغل، وخرج بهما من المدينة، ولم يزل سائرًا بهما في البرية إلى قريب الظُّهْر، فأنزلهما في مكان قفر موحش، ونزل عن فرسه وحطَّ الصندوقين عن ظهر البغل وفتحهما، وأخرج الأمجد والأسعد منهما. فلما نظر إليهما بكى بكاءً شديدًا على حسنهما وجمالهما، وبعد ذلك جرَّد سيفه وقال لهما: والله يا سيديَّ إنه يعزُّ عليَّ أن أفعل بكما فعلًا قبيحًا، ولكن أنا معذور في هذه الأمور؛ لأنني عبد مأمور، وقد أمرني والدكما الملك قمر الزمان بضرب رقابكما. فقالا له: أيها الأمير، افعل ما أمرك به الملك، فنحن صابرون على ما قدَّره الله — عز وجل — علينا، وأنت في حِلٍّ من دمائنا. ثم إنهما تعانقَا وودَّعَا بعضهما، وقال الأسعد للخازندار: بالله عليك يا عم إنك لا تجرِّعني غصة أخي، ولا تسقني حسرته، بل اقتلني أنا قبله ليكون ذلك أهون عليَّ. وقال الأمجد للخازندار مثل ما قال الأسعد، واستعطف الخازندار بقتله قبل أخيه، وقال له: إن أخي أصغر مني فلا تُذِقني لوعته. ثم بكى كلٌّ منهما بكاءً شديدًا ما عليه من مزيد، وبكى الخازندار لبكائهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخازندار بكى لبكائهما، ثم إن الأخوين تعانقَا وودَّعا بعضهما، وقال أحدهما للآخر: إن هذا كله من كيد الخائنتين أمي وأمك، وهذا جزاء ما جرى مني في حق أمك، وجزاء ما جرى منك في حقِّ أمي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. ثم إن الأسعد اعتنق أخاه، وصعَّد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْزَعُ — أَنْتَ الْمُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ — وَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ
يَا مَنْ خَزَائِنُ فَضْلِهِ فِي قَوْلِ كُنْ — امْنُنْ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ

فلما سمع الأمجد بكاء أخيه بكى، وضمَّه إلى صدره، وأنشد هذين البيتين:

يَا مَنْ أَيَادِيهِ عِنْدِي غَيْرُ وَاحِدَةٍ — وَمَنْ مَوَاهِبُهُ تَنْمُو عَنِ الْعَدَدِ
مَا نَابَنِي مِنْ زَمَانِي قَطُّ نَائِبَةٌ — إِلَّا وَجَدْتُكَ فِيهَا آخِذًا بِيَدِي

ثم قال الأمجد للخازندار: سألتك بالواحد القهار الملك الستار أن تقتلني قبل أخي الأسعد، لعل نار قلبي تخمد، ولا تدعها تتوقد. فبكى الأسعد وقال: ما يُقتَل قبلُ إلا أنا. فقال الأمجد: الرأي أن تعتنقني وأعتنقك حتى ينزل السيف علينا فيقتلنا دفعة واحدة. فلما اعتنق الاثنان وجهًا لوجه والتزمَا ببعضهما، شدَّهما الخازندار وربطهما بالحبال وهو يبكي، ثم جرَّد سيفه وقال: والله يا سيديَّ إنه يعزُّ عليَّ قتلكما، فهل لكما من حاجة فأقضيها، أو وصيَّة فأنفِّذها، أو رسالة فأبلِّغها؟ فقال الأمجد: ما لنا حاجة، وأما من

جهة الوصية فإني أوصيك أن تجعل أخي الأسعد من تحت وأنا من فوق؛ لأجل أن تقع عليَّ الضربة أولًا، فإذا فرغتَ من قتلنا ووصلتَ إلى الملك وقال لك: ما سمعت منهما قبل موتهما؟ فقل له: إن ولدَيْك يُقْرِآنك السلام ويقولان لك: إنك لا تعلم هل هما بريئان أم مذنبان؟ وقد قتلتهما وما تحقَّقْتَ ذنبهما، وما نظرت في حالهما. ثم أنشده هذين البيتين:

إِنَّ النِّسَاءَ شَيَاطِينٌ خُلِقْنَ لَنَا　　　أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ كَيْدِ الشَّيَاطِينِ
فَهُنَّ أَصْلُ الْبَلِيَّاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ　　　بَيْنَ الْبَرِيَّةِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ

ثم قال الأمجد: ما نريد منك إلا أن تبلغه هذين البيتين اللذين سمعتهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد قال للخازندار: ما نريد منك إلا أن تبلغه هذين البيتين اللذين سمعتهما، وأسألك بالله أن تطوِّل بالك علينا حتى أنشد لأخي هذين البيتين الآخَرين. ثم بكى بكاءً شديدًا، وجعل يقول:

فِـي الـذَّاهِـبِـيـنَ الْأَوَّلِـيــ ـنَ مِنَ الْمُلُوكِ لَنَا بَصَائِرْ
كَمْ قَدْ مَضَى فِي ذَا الطَّرِيـ ـقِ مِنَ الْأَكَابِرِ وَالْأَصَاغِرْ

فلما سمع الخازندار من الأمجد هذا الكلام بكى بكاءً شديدًا حتى بلَّ لحيته، وأما الأسعد فإنه قد ترغرغت عيناه بالعَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ
مَا لِلَيَالِي أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَنَا مِنَ اللَّيَالِي وَخَانَتْهَا يَدُ الْغِيَرِ
فَقَدْ أَضْرَمَتْ كَيْدَهَا لِابْنِ الزُّبَيْرِ وَمَا رَعَتْ لِيَاذَتَهُ بِالْبَيْتِ وَالْحَجَرِ
وَلَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ

ثم خضب خذه بدمعه المدرار، وأنشد هذه الأشعار:

إِنَّ اللَّيَالِيَ وَالْأَيَّامَ قَدْ طُبِعَتْ عَلَى الْخِدَاعِ وَفِيهَا الْمُكْرُ وَالْحِيَلُ
سَرَابُ كُلِّ يَبَابٍ عِنْدَهَا شَنَبٌ وَهَوْلُ كُلِّ ظَلَامٍ عِنْدَهَا كَحَلُ
ذَنْبِي إِلَى الدَّهْرِ فَلْيَكْرَهْ سَجِيَّتَهُ ذَنْبَ الْحِمَامِ إِذَا مَا أَحْجَمَ الْبَطَلُ

ثم صعَّد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

يَا طَالِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إِنَّهَا   شَرَكُ الرَّدَى وَقَرَارَةُ الْأَكْدَارِ
دَارٌ مَتَّى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا   أَبْكَتْ غَدًا تَبًّا لَهَا مِنْ دَارِ
غَارَاتُهَا لَا تَنْقَضِي وَأَسِيرُهَا   لَا يُفْتَدَى بِجَلَائِلِ الْأَخْطَارِ
كَمْ مُزْدَهٍ بِغُرُورِهَا حَتَّى بَدَا   مُتَمَرِّدًا مُتَجَاوِزَ الْمِقْدَارِ
قَلَبَتْ لَهُ ظَهْرَ الْمِجَنِّ وَأَوْغَلَتْ   فِيهِ الْمُدَى وَتَرَتْ لِأَخْذِ الثَّارِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ خُطُوبَهَا تَفْجِي وَلَوْ   طَالَ الْمَدَى وَوَنَتْ سُرَى الْأَقْدَارِ
فَارْبَأْ بِعُمْرِكَ أَنْ يَمُرَّ مُضَيَّعًا   فِيهَا سُدًى مِنْ غَيْرِ مَا اسْتِظْهَارِ
وَاقْطَعْ عَلَائِقَ حُبِّهَا وَطِلَابِهَا   تَلْقَ الْهُدَى وَرَفَاهَةَ الْأَسْرَارِ

فلما فرغ الأسعد من شعره اعتنق أخاه الأمجد حتى صارا كأنهما شخص واحد، وسلَّ الخازندار سيفه وأراد أن يضربهما، وإذا بفرسه جفل في البر، وكان يساوي ألف دينار، وعليه سرج عظيم يساوي جملة من المال؛ فألقى السيف من يده وذهب وراء فرسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخازندار ذهب وراء فرسه، وقد التهب فؤاده، وما زال يجري خلفه ليمسكه حتى دخل في غابة، فدخل وراءه في تلك الغابة، فشقَّ الجواد في وسط الغابة ودقَّ الأرض برجلَيْه فعَلَا الغبار وارتفع وثار، وأما الفرس فإنه شخر ونخر، وصهل وازمهر. وكان في تلك الغابة أسد عظيم الخطر قبيح المنظر، عيونه ترمي بالشرر، له وجه عبوس، وشكل يهول النفوس؛ فالتفت الخازندار فرأى ذلك الأسد قاصدًا إليه، فلم يجد له مهربًا من يديه، ولم يكن معه سيف، فقال في نفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما حصل لي هذا الضيق إلا بذنب الأمجد والأسعد، وإن هذه السفرة مشئومة من أولها. ثم إن الأمجد والأسعد قد حمي عليهما الحرُّ، فعطشا عطشًا شديدًا حتى نزلت ألسنتهما، واستغاثا من العطش فلم يغثهما أحد، فقالا: يا ليتنا كنَّا قُتِلنا واسترحنا من هذا، ولكن ما ندري أين جفل الحصان حتى ذهب الخازندار وراءه وخلَّانا مكتَّفين، فلو جاءنا وقتلنا كان أريح لنا من مقاساة هذا العذاب. فقال الأسعد: يا أخي اصبر فسوف يأتينا فرجُ الله سبحانه وتعالى، فإن الحصان ما جفل إلا لأجل لطف الله بنا، وما ضرَّنا غير هذا العطش.

ثم هزَّ نفسه وتحرَّكَ يمينًا وشمالًا فانحلَّ كتافه، فقام وحلَّ كتاف أخيه، ثم أخذ سيف الأمير وقال لأخيه: والله لا نروح من ها هنا حتى نكشف خبره، ونعرف ما جرى له. وشرعا يقتصَّان الأثر فدلَّهما على الغابة، فقالا لبعضهما: إن الحصان والخازندار ما تجاوزَا هذه الغابة. فقال الأسعد لأخيه: قف هنا حتى أدخل الغابة وأنظرها. فقال له الأمجد: ما أخليك تدخل فيها وحدك، وما ندخل إلا جميعًا، فإن سلمنا سلمنا سواء، وإن عطبنا عطبنا سواء. فدخل الاثنان فوجدا الأسد قد هجم على الخازندار، وهو تحته كأنه عصفور، ولكنه صار يبتهل إلى الله ويشير إلى نحو السماء، فلما رآه الأمجد أخذ السيف

وهجم على الأسد، وضربه بالسيف بين عينيه فقتله، ووقع الأسد مطروحًا على الأرض، فنهض الخازندار وهو متعجِّب من هذا الأمر، فرأى الأمجد والأسعد ولدَيْ سيده واقفَيْن، فترامى على أقدامهما وقال لهما: والله يا سيديَّ ما يصلح أن أفرِّط فيكما بقتلكما، فلا كان مَن يقتلكما، فبروحي أفديكما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخازندار قال للأمجد والأسعد: بروحي أفديكما. ثم نهض من وقته وساعته واعتنقهما، وسألهما عن سبب فك وثاقهما وقدومهما، فأخبراه أنهما عطشا وانحلَّ الوثاق من أحدهما ففكَّ الآخَر بسبب خلوص نيَّتهما، ثم إنهما اقتصَّا الأثر حتى وصلا إليه، فلما سمع كلامهما شكرهما على فعلهما، وخرج معهما إلى ظاهر الغابة، فلما صاروا في ظاهر الغابة قالا له: يا عم افعل ما أمرك به أبونا. فقال: حاشا لله أن أقربكما بضرر، ولكن اعلما أني أريد أن أنزع ثيابكما وألبسكما ثيابي، وأملأ قنِّينتين من دم الأسد، ثم أروح إلى الملك، وأقول له: إني قتلتهما. وأما أنتما فسيحا في البلاد، وأرض الله واسعة، واعلما يا سيديَّ أن فراقكما يعزُّ عليَّ. ثم بكى كلٌّ من الخازندار والغلامين، وقد قلعا ثيابهما، وألبسهما ثيابه، وراح إلى الملك، وقد أخذ ذلك وربط قماش كل واحد منهما في بقجة معه، وملأ القنينتين من دم الأسد، وجعل البقجتين قدَّامه على ظهر الجواد، ثم ودَّعهما وسار متوجِّهًا إلى المدينة، ولم يزل سائرًا حتى دخل على الملك وقبَّل الأرض بين يديه؛ فرآه الملك متغير الوجه، وذلك مما جرى له من الأسد، فظن أن ذلك من قتل أولاده، ففرح وقال له: هل قضيت الشغل؟ قال: نعم يا مولانا. ثم ناوله البقجتين اللتين فيهما الثياب، والقنينتين الممتلئتين بالدم، فقال له الملك: ماذا رأيت منهما، وهل أوصياك بشيء؟ قال: وجدتهما صابرين محتسبين لما نزل بهما، وقد قالَا لي: إن أبانا معذور فأقرئه منَّا السلام. وقالا لي: أنت في حِلٍّ من قتلنا ومن دمائنا، ولكن نوصيك أن تبلغه هذين البيتين، وهما:

إِنَّ النِّسَاءَ شَيَاطِينٌ خُلِقْنَ لَنَا ... أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ كَيْدِ الشَّيَاطِينِ
فَهُنَّ أَصْلُ الْبَلِيَّاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ ... بَيْنَ الْبَرِيَّةِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ

فلما سمع الملك من الخازندار هذا الكلام، أطرق برأسه إلى الأرض مليًّا، وعلم أن كلام ولديه هذا يدل على أنهما قد قُتِلَا ظلمًا، ثم تفكَّرَ في مكر النساء ودواهيهن، وأخذ البقجتين وفتحهما، وصار يقلِّب ثياب أولاده ويبكي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك قمر الزمان لما فتح البقجتين صار يقلِّب ثياب أولاده ويبكي، فلما فتح ثياب ولده الأسعد وجد في جيبه ورقة مكتوبة بخط زوجته بدور، ومعها جدائل شعرها، ففتح الورقة وقرأها وفهم معناها، فعلم أن ولده الأسعد مظلوم. ولما قلَّبَ في ثياب الأمجد وجد في جيبه ورقةً مكتوبة بخط زوجته حياة النفوس، وفيها جدائل شعرها، ففتح الورقة وقرأها فعلم أنه مظلوم. فدقَّ يدًا على يد، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قد قتلت ولديَّ ظلمًا. ثم صار يلطم على وجهه ويقول: وا ولداه! وا طول حزناه! وأمر ببناء قبرين في بيت وسمَّاه بيتَ الأحزان، وقد كتب على القبرين اسمَيْ ولديه، وترامى على قبر الأمجد وبكى، وأنَّ واشتكى، وأنشد هذه الأبيات:

يَا قَمَرًا قَدْ غَابَ تَحْتَ الثَّرَى … بَكَتْ عَلَيْهِ الْأَنْجُمُ الزَّاهِرَةْ
وَيَا قَضِيبًا لَمْ يَمِسْ بَعْدَهُ … مَعَاطِفٌ لِلْأَعْيُنِ النَّاظِرَةْ
مَنَعْتُ عَيْنِي عَنْكَ مِنْ غِيرَتِي … عَلَيْكَ لَا أَرَاكَ لِلْآخِرَةْ
وَأُغْرِقَتْ بِالسُّهْدِ فِي دَمْعِهَا … فَمَنْ لِعَيْنٍ أَصْبَحَتْ سَاهِرَةْ

ثم ترامى على قبر الأسعد وبكى، وأنَّ واشتكى، وأفاض العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

قَدْ كُنْتُ أَهْوَى أَنْ أُشَاطِرَكَ الرَّدَى … لَكِنْ أَرَادَ اللهُ غَيْرَ مُرَادِي
سَوَّدْتَ مَا بَيْنَ الْفَضَاءِ وَنَاظِرِي … وَمَحَوْتَ مِنْ عَيْنَيَّ كُلَّ سَوَادِ
لَا يَنْفَدُ الدَّمْعُ الَّذِي أَبْكِي بِهِ … إِنَّ الْفُؤَادَ لَهُ مِنَ الْأَمْدَادِ
أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَاكَ بِمَوْضِعٍ … مُتَشَابِهِ الْأَوْغَادِ وَالْأَمْجَادِ

ولما فرغ الملك من شعره، هجر الأحباب والخلَّان، وانقطع في البيت الذي سمَّاه بيت الأحزان، وصار يبكي على أولاده، وقد هجر نساءه وأصحابه وأصدقاءه.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر الأمجد والأسعد، فإنهما لم يزالا سائرين في البرية، وهما يأكلان من نبات الأرض، ويشربان من متحصِّلات الأمطار مدة شهر كامل حتى انتهى بهما المسير إلى جبل من الصوَّان الأسود لا يُعلَم أين منتهاه، والطريق افترقت عند ذلك الجبل طريقين؛ طريق تشقُّه من وسطه، وطريق صاعدة إلى أعلاه، فسلكًا الطريق التي في أعلى الجبل، واستمرَّا سائرَيْن فيها خمسة أيام فلم يريَا له منتهًى، وقد حصل لهما الإعياء من التعب، وليسا معتادين على المشي في جبلٍ ولا في غيره، ولما يئسَا من الوصول إلى منتهاه رجعَا وسلكًا الطريق التي في وسط الجبل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد والأسعد وَلَدَيِ الملك قمر الزمان لما عادَا من الطريق الصاعدة في الجبل إلى الطريق المسلوكة في وسطه، مشيَا فيها طول ذلك النهار إلى الليل، وقد تعب الأسعد من كثرة السير، فقال لأخيه: يا أخي، أنا ما بقيت أقدر على المشي، فإني ضعفت جدًّا. فقال له الأمجد: يا أخي، شدَّ حيلك لعل الله يفرِّج عنَّا. ثم إنهما مشيا ساعة من الليل، وقد تعب الأسعد تعبًا شديدًا ما عليه من مزيد، وقال: يا أخي، إني تعبت وكَلَلْتُ من المشي. ثم وقع في الأرض وبكى، فحمله أخوه الأمجد ومشى به، وصار ساعة يمشي، وساعة يقعد ويستريح، إلى أن لاح الفجر حتى استراح أخوه؛ فطلع هو وإياه فوق الجبل فوجدَا عينًا نابعة يجري منها الماء، وعندها شجرة رمان ومحراب، فما صدَّقا أنهما يريان ذلك، ثم جلسا عند تلك العين وشربا من مائها، وأكلا من رمان تلك الشجرة، وناما في ذلك الموضع حتى طلعت الشمس، ثم جلسا واغتسلا من العين، وأكلا من ذلك الرمان الذي في الشجرة وناما إلى العصر، وأرادا أن يسيرا فما قدر الأسعد على السير، وقد ورمت رجلاه، فأقاما هناك ثلاثة أيام حتى استراحا، ثم صارا في الجبل مدة أيام وهما سائران فوق الجبل، وقد تعبا من العطش، إلى أن لاحت لهما مدينة من بعيد، ففرحا وسارا حتى وصلا إليها، فلما قربا منها شكرا الله تعالى، وقال الأمجد للأسعد: يا أخي، اجلس هنا وأنا أسير إلى هذه المدينة، وأنظر ما شأنها وأسأل عن أحوالها؛ لأجل أن نعرف أين نحن من أرض الله الواسعة، ونعرف الذي قطعناه من البلاد في عرض هذا الجبل، ولولا أننا مشينا في وسطه ما كنا نصل إلى هذه المدينة في سنة كاملة، فالحمد لله على السلامة. فقال له الأسعد: والله يا أخي ما يذهب إلى المدينة غيري وأنا فداك، فإنك إن تركتني ونزلت وغبت عني تستغرقني الأفكار من أجلك، وليس لي قدرة على بُعدك عني. فقال له الأمجد: توجَّهْ ولا تُبطِئ.

فنزل الأسعد من الجبل، وأخذ معه دنانير، وخلَّى أخاه ينتظره وسار، ولم يزل ماشيًا في أسفل الجبل حتى دخل المدينة، وشق في أزقَّتها، فلقيه في طريقه رجل، وهو شيخ كبير طاعن في السن، وقد نزلت لحيته على صدره، وافترقت فرقتين، وبيده عكاز، وعليه ثياب فاخرة، وعلى رأسه عمامة كبيرة حمراء، فلما رآه الأسعد تعجَّبَ من لبسه وهيئته، وتقدَّم إليه وسلم عليه، وقال له: أين طريق السوق يا سيدي؟ فلما سمع الشيخ كلامه تبسَّمَ في وجهه وقال له: يا ولدي، كأنك غريب! فقال له الأسعد: نعم، أنا غريب يا عم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ الذي لقي الأسعد تبسَّم في وجهه، وقال له: يا ولدي، كأنك غريب! فقال له الأسعد: نعم أنا غريب. فقال له الشيخ: قد آنست ديارنا يا ولدي، وأوحشت ديار أهلك، فما الذي تريده من السوق؟ فقال الأسعد: يا عم، إن لي أخًا تركته في الجبل، ونحن مسافران من بلاد بعيدة، ولنا في السفر مدة ثلاثة شهور، وقد أشرفنا على هذه المدينة، فجئت إلى ها هنا لأشتري طعامًا وأعود به إلى أخي من أجل أن نقتات به. فقال له الشيخ: يا ولدي، أَبْشِر بكل خير، واعلم أنني عملت وليمة، وعندي ضيوف كثيرة، وجمعت فيها من أطيب الطعام وأحسن ما تشتهيه النفوس، فهل لك أن تسير معي إلى مكاني فأعطيك ما تريد ولا آخذ منك ثمنًا، وأخبرك بأحوال هذه المدينة؟ والحمد لله يا ولدي حيث وقعت بك ولم يقع بك أحد غيري. فقال الأسعد: افعل ما أنت أهله، وعجِّلْ فإن أخي ينتظرني وخاطره عندي. فأخذ الشيخ بيد الأسعد، ورجع به إلى زقاق ضيق، وصار يتبسَّم في وجهه ويقول له: سبحان مَن نجَّاك من أهل هذه المدينة. ولم يزل ماشيًا به حتى دخل دارًا واسعة وفيها قاعة، وجالس في تلك القاعة أربعون شيخًا طاعنون في السن، وهم مصطفُّون حلقة، وفي وسطهم نار موقدة، والمشايخ جالسون حولها يعبدونها ويسجدون لها، فلما رأى ذلك الأسعد اقشعرَّ بدنه، ولم يعلم ما خبرهم.

ثم إن الشيخ قال لهؤلاء الجماعة: يا مشايخ النار، ما أبركه من نهار! ثم نادى قائلًا: يا غضبان. فخرج له عبد أسود بوجه أعبس، وأنف أفطس، وقامة مائلة، وصورة هائلة، ثم أشار إلى العبد فشدَّ وثاق الأسعد، وبعد ذلك قال الشيخ: انزل به إلى القاعة التي تحت الأرض واتركه هناك، وقل للجارية الفلانية تتولَّى عذابه بالليل والنهار. فأخذه العبد وأنزله تلك القاعة وسلَّمه إلى الجارية، فصارت تتولَّى عذابه وتعطيه رغيفًا واحدًا في

أول النهار، ورغيفًا واحدًا في أول الليل، وكوز ماء مالح في الغداة، ومثله في العشيِّ. ثم إن المشايخ قالوا لبعضهم: لَمَّا يأتي أوان عيد النار نذبحه على الجبل، ونتقرَّب به إلى النار. ثم إن الجارية نزلت إليه وضربته ضربًا وجيعًا حتى سالت الدماء من أعضائه وغُشِي عليه، ثم حطَّت عند رأسه رغيفًا وكوز ماء مالح وراحت وخلَّته، فاستفاق الأسعد في نصف الليل فوجد نفسه مقيَّدًا وقد آلمه الضرب؛ فبكى بكاء شديدًا، وتذكَّرَ ما كان فيه من العز والسعادة، والمُلك والسيادة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الأسعد لما رأى نفسه مقيَّدًا وقد آلمه الضرب، تذكَّر ما كان فيه من العز والسعادة، والمُلك والسيادة، فبكى وصعَّد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

قِفُوا بِرُسُومِ الدَّارِ وَاسْتَخْبِرُوا عَنَّا وَلَا تَحْسِبُونَا فِي الدِّيَارِ كَمَا كُنَّا
لَقَدْ فَرَّقَ الدَّهْرُ الْمُشَتِّتُ شَمْلَنَا وَمَا تَشْتَفِي أَكْبَادُ حُسَّادِنَا مِنَّا
تَوَلَّتْ عَذَابِي بِالسِّيَاطِ لَئِيمَةٌ وَقَدْ مَلَأَتْ مِنِّي جَوَانِحَهَا ضِغْنَا
عَسَى وَلَعَلَّ اللهَ يَجْمَعُ شَمْلَنَا وَيَدْفَعُ بِالتَّنْكِيلِ أَعْدَاءَنَا عَنَّا

فلما فرغ الأسعد من شعره مدَّ يده عند رأسه فوجد رغيفًا وكوز ماء مالح، فأكل قليلًا ليسد رمقه، وشرب قليلًا من الماء، ولم يزل ساهرًا إلى الصباح من كثرة البق والقمل. فلما أصبح الصباح نزلت إليه الجارية ونزعت عنه ثيابه، وكانت قد غُمِرت بالدم والتصقت بجلده، فطلع جلده مع القميص، فصرَخَ وتأوَّه وقال: يا مولاي، إن كان في هذا رضاك فزدني منه، يا رب إنك لستَ غافلًا عمَّن ظلمني، فخذ حقي منه. ثم صعَّد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

كُنْ عَنْ أُمُورِكَ مُعْرِضَا وَكِلِ الْأُمُورَ إِلَى الْقَضَا
فَلَرُبَّ أَمْرٍ مُسْخِطٍ لَكَ فِي عَوَاقِبِهِ رِضَا
وَلَرُبَّمَا اتَّسَعَ الْمَضِيقُ وَرُبَّمَا ضَاقَ الْفَضَا
اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَا ءُ فَلَا تَكُنْ مُتَعَرِّضَا
وَابْشِرْ بِخَيْرٍ عَاجِلٍ تَنْسَى بِهِ مَا قَدْ مَضَى

فلما فرغ من شعره نزلت عليه الجارية بالضرب حتى غُشِي عليه، ورمت له رغيفًا وكوز ماء مالح، وطلعت من عنده وخلَّته وحيدًا فريدًا حزينًا والدماء تسيل من أعضائه، وهو مقيَّد في الحديد بعيد عن الأحباب، فتذكَّرَ أخاه والعزَّ الذي كان فيه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٢٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأسعد تذكَّرَ أخاه والعزَّ الذي كان فيه، فحنَّ وبكى، وأنَّ واشتكى، وسكب العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

يَا دَهْرُ مَهْلًا كَمْ تَجُورُ وَتَعْتَدِي وَلَكَمْ بِأَحْبَابِي تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
مَا آنَ أَنْ تَرْثِي لِطُولِ تَشَتُّتِي وَتَرِقَّ يَا مَنْ قَلْبُهُ كَالْجَلْمَدِ
وَأَسَأْتَ أَحْبَابِي بِمَا أَشْمَتَّ بِي كُلَّ الْعِدَاةِ بِمَا صَنَعْتَ مِنَ الرَّدِي
وَقَدِ اشْتَفَى قَلْبُ الْعَدُوِّ بِمَا رَأَى مِنْ غُرْبَتِي وَصَبَابَتِي وَتَوَحُّدِي
لَمْ يَكْفِهِ مَا حَلَّ بِي مِنْ كُرْبَةٍ وَفِرَاقِ أَحْبَابٍ وَطَرْفٍ أَرْمَدِ
حَتَّى بُلِيتُ بِضِيقِ سِجْنٍ لَيْسَ لِي فِيهِ أَنِيسٌ غَيْرُ عَضِّ بِالْيَدِ
وَمَدَامِعٍ تَهْمِي كَفَيْضِ سَحَائِبٍ وَغَلِيلِ شَوْقٍ نَارُهُ لَمْ تَخْمُدِ
وَكَآبَةٍ وَصَبَابَةٍ وَتَذَكُّرٍ وَتَحَسُّرٍ وَتَنَفُّسٍ وَتَنَهُّدِ
شَوْقٌ أُكَابِدُهُ وَحُزْنٌ مُتْلِفٌ وَوَقَعْتُ فِي وَجْدٍ مُقِيمٍ مُقْعِدِ
لَمْ أَلْقَ لِي مِنْ عَاطِفٍ ذِي رَحْمَةٍ يَحْنُو عَلَيَّ بِزَوْرَةِ الْمُتَرَدِّدِ
هَلْ مِنْ صَدِيقٍ ذِي وِدَادٍ صَادِقٍ يَرْثِي لِأَسْقَامِي وَطُولِ تَسَهُّدِي
أَشْكُو إِلَيْهِ مَا أُكَابِدُهُ أَسًى وَالطَّرْفُ مِنِّي سَاهِرٌ لَمْ يَرْقُدِ
وَيَطُولُ لَيْلِي فِي الْعَذَابِ لِأَنَّنِي أُصْلَى بِنَارِ الْهَمِّ ذَاتِ تَوَقُّدِ
وَالْبَقُّ وَالْبَرْغُوثُ قَدْ شَرِبَا دَمِي شُرْبَ الطِّلَا مِنْ كَفِّ أَلْمَى أَغْيَدِ
وَالْجِسْمُ بَيْنَ الْقَمْلِ مِنِّي قَدْ حَكَى مَالَ الْيَتِيمِ بِكَفِّ قَاضٍ مُلْحِدِ
وَسَكَنْتُ فِي سِجْنٍ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ وَغَدَوْتُ بَيْنَ مُقَيَّدٍ وَمُصَفَّدِ
فَمُدَامَتِي دَمْعِي وَقَيْدِي مُطْرِبِي وَالْفِكْرُ نَقْلِي وَالْهُمُومُ تَنَهُّدِي

فلما فرغ من نظمه ونثره، حنَّ وبكى، وأنَّ واشتكى، وتذكَّر ما كان فيه، وما حصل له من فراق أخيه.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر أخيه الأمجد، فإنه مكث ينتظر أخاه الأسعد إلى نصف النهار، فلم يَعُدْ إليه، فخفق فؤاده واشتد به ألم الفراق، وأفاض دمعه المهراق. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد لما مكث ينتظر أخاه الأسعد إلى نصف النهار فلم يَعُدْ إليه، فخفق فؤاده واشتدَّ به ألم الفراق، وأفاض دمعه المهراق، وصاح: وا حسرتاه! ما كان أخوفني من الفراق! ثم نزل من فوق الجبل ودمعه سائل على خدَّيه ودخل المدينة، ولم يزل ماشيًا فيها حتى وصل إلى السوق، وسأل الناس عن اسم المدينة وعن أهلها، فقالوا له: هذه تُسمَّى مدينة المجوس، وأهلها يعبدون النار دون الملك الجبار. ثم سأل عن مدينة الأبنوس فقالوا له: إن المسافة التي بيننا وبينها من البر سنة، ومن البحر ستة أشهر، وملكها يقال له أرمانوس، وقد صاهَرَ اليومَ ملكًا وجعله مكانه، وذلك الملك يقال له قمر الزمان، وهو صاحب عدل وإحسان، وجُودٍ وأمان. فلما سمع الأمجد ذِكْرَ أبيه حنَّ وبكى، وأنَّ واشتكى، وصار لا يعلم أين يتوجه، وقد اشترى معه شيئًا للأكل، وذهب إلى موضع يتوارى فيه، ثم قعد وأراد أن يأكل فتذكر أخاه، فبكى ولم يأكل إلا قدرَ سدِّ الرمق، ثم قام ومشى في المدينة ليعلم خبر أخيه، فوجد رجلًا مسلمًا خيَّاطًا في دكانٍ، فجلس عنده، وقد حكى للخياط قصته، فقال له الخياط: إنْ كان وقع في يد أحدٍ من المجوس، فما بقيت تراه إلا بعسر، ولعل الله يجمع بينك وبينه. ثم قال له: هل لك يا أخي أن تنزل عندي؟ قال: نعم. ففرح الخياط بذلك، وأقام عنده أيامًا وهو يسلِّيه ويصبِّره ويعلِّمه الخياطة حتى صار ماهرًا، ثم خرج يومًا إلى شاطئ البحر وغسل أثوابه، ودخل الحمام ولبس ثيابًا نظيفة، ثم خرج من الحمام يتفرج في المدينة، فصادَفَ في طريقه امرأة ذات حسن وجمال، وقدٍّ واعتدال، ليس لها في الحسن مثال، فلما رأته رفعت القناع عن وجهها، وغمزته بحواجبها وعيونها، وغازلته باللحظات، وأنشدت هذه الأبيات:

رَأَيْتُكَ مُقْبِلًا فَغَضَضْتُ طَرْفِي   كَأَنَّكَ يَا مُهَفْهَفُ عَيْنُ شَمْسِ

فَـإِنَّكَ أَنْتَ أَحْسَنُ مَنْ تَبَدَّى وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَحْسَنُ مِنْكَ أَمْسِ
وَلَوْ قُسِمَ الْجَمَالُ لَكَانَ خَمْسٌ لِيُوسُفَ وَاحِدٌ أَوْ بَعْضُ خُمْسِ
وَبَـاقِـيهِ لِذَاتِكَ بِـاخْـتِـصَـاصٍ فَكَانَ فِدًى لِنَفْسِكَ كُلُّ نَفْسِ

فلما سمع الأمجد كلامها، ارتاح خاطره لديها، وحنَّت جوارحه إليها، وقد لعبت به أيدي الصبابات، فأشار لها وأنشد هذه الأبيات:

وَرْدُ الْخُدُودِ وَدُونَهُ شَوْكُ الْقَنَا فَمَنِ الْمُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنْ يُجْتَنَى
لَا تَـمْـدُدِ الْأَيْـدِي إِلَـيْـهِ فَـطَـالَـمَـا شَنُّوا الْحُرُوبَ لِأَنْ مَدَدْنَا الْأَعْيُنَا
قُلْ لِلَّتِي ظَلَمَتْ وَكَانَتْ فِتْنَةً وَلَـوَ انَّـهَـا عَـدَلَـتْ لَـكَـانَـتْ أَفْـتَـنَـا
لَـيُـزَادُ وَجْـهُـكِ بِـالـتَّـبَـرْقُـعِ ضِـلَّـةً وَأَرَى السُّفُورَ لِمِثْلِ حُسْنِكِ أَصْوَنَا
كَالشَّمْسِ يَمْتَنِعُ اجْتِلَاؤُكِ وَجْهَهَا وَإِنِ اكْتَسَتْ بِرَقِيقِ غَيْمٍ أَمْكَنَا
غَدَتِ النَّحِيلَةُ فِي حِمًى مِنْ نَحْلِهَا فَسَلُوا حُمَاةَ الْحَيِّ عَمَّا صَدُّنَا
إِنْ كَانَ قَتْلِي قَصْدَهُمْ فَلْيَرْفَعُوا تِـلْـكَ الـضَّـغَـائِـنَ وَلْـيُـخَـلُّـوا بَـيْـنَـنَـا
مَا هُمْ بِـأَعْظَمِ فَتْكَةٍ لَوْ بَـارَزُوا مِنْ طَرْفِ ذَاتِ الْخَالِ إِذْ بَرَزَتْ لَنَا

فلما سمعت من الأمجد هذا الشعر تنهَّدت بصاعد الزفرات، وأشارت إليه وأنشدت هذه الأبيات:

أَنْتَ الَّذِي سَلَكَ الْإِعْرَاضَ لَسْتُ أَنَا جُدْ بِـالْـوِصَـالِ إِذَا كَـانَ الْـوَفَـاءُ أَنَـا
يَـا فَـالِقَ الـصُّـبْـحِ مِـنْ لَأْلَاءِ غُـرَّتِـهِ وَجَاعِلَ اللَّيْلِ مِنْ أَصْدَاغِهِ سَكَنَا
بِصُورَةِ الْوَثَنِ اسْتَعْبَدْتَنِي وَبِهَا فَتَنْتَنِي وَقَدِيمًا هِجْتَ لِي فِتَنَا
لَا غَرْوَ إِنْ أَحْرَقَتْ نَارُ الْهَوَى كَبِدِي فَالنَّارُ حَقٌّ عَلَى مَنْ يَعْبُدُ الْوَثَنَا
تَـبِـيـعَ مِـثْـلِـيَ مَـجَّـانًـا بِـلَا ثَـمَـنٍ إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ بَيْعٍ فَخُذْ ثَمَنَا

فلما سمع الأمجد منها هذا الكلام قال لها: أتجيئين عندي أو أجيء عندك؟ فأطرقت برأسها حياءً إلى الأرض، وتلت قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ ففهم الأمجد إشارتها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد فهم إشارة المرأة، وعرف أنها تريد الذهاب معه حيث يذهب، فالتزم لها بالمكان، وقد استحى أن يروح بها عند الخياط الذي هو عنده، فمشى قدَّامها ومشت خلفه، ولم يزل ماشيًا بها من زقاق إلى زقاق، ومن موضع إلى موضع حتى تعبت الصبية، فقالت له: يا سيدي، أين دارك؟ فقال لها: قدَّام، وما بقي عليها إلا شيء يسير. ثم انعطف بها في زقاق مليح، ولم يزل ماشيًا فيه وهي خلفه حتى وصل إلى آخره، فوجده غير نافذ، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم التفت بعينه فرأى في صدر الزقاق بابًا كبيرًا بمصطبتين، ولكنه مغلوق، فجلس الأمجد على مصطبة، وجلست المرأة على مصطبة، ثم قالت له: يا سيدي، ما الذي تنتظره؟ فأطرق برأسه إلى الأرض مليًّا، ثم رفع رأسه وقال لها: أنتظر مملوكي، فإن المفتاح معه، وكنت قد قلتُ له: هيِّء لنا المأكول والمشروب وصحبة المدام حتى أخرج من الحمام. ثم قال في نفسه: ربما يطول عليها المطال فتروح إلى حال سبيلها، وتخلِّيني في هذا المكان. فلما طال عليها الوقت قالت له: يا سيدي، إن المملوك قد أبطأ علينا، ونحن قاعدون في الزقاق. ثم قامت الصبية إلى الضبَّة بحجر، فقال لها الأمجد: لا تعجلي، واصبري حتى يجيء المملوك. فلم تسمع كلامه، بل ضربت الضبَّة بالحجر فقسمتها نصفين فانفتح الباب، فقال لها: وأي شيء خطر لك حتى تفعلي هكذا؟ فقالت له: يا سيدي، أي شيء جرى؟ أَمَا هو بيتك؟ فقال: نعم، ولكن لا يحتاج إلى كسر الضبَّة.

ثم إن الصبية دخلت البيت، فصار الأمجد متحيِّرًا في نفسه خوفًا من أصحاب المنزل، ولم يدرِ ماذا يصنع، فقالت له الصبية: لِمَ لَمْ تدخل يا سيدي يا نور عيني وحشاشة قلبي؟ قال لها: سمعًا وطاعة، ولكن قد أبطأ عليَّ المملوك، وما أدري هل فعل شيئًا مما أمرته به أم لا؟ ثم إنه دخل معها وهو في غاية ما يكون من الهم خوفًا من أصحاب

المنزل، ولما دخل البيت وجد فيه قاعة مليحة بأربعة لواوين متقابلة، وفيها خزائن وسدلات مفروشات بالفرش الحرير والديباج، وفي وسط القاعة فسقية مثمَّنة مرصوص عليها أطباق مرصَّعة بفصوص الجواهر، وهي مملوءة فاكهةً ومشمومًا، وفي جانبها أواني الشراب، وهناك شمعدان فيه شمعة مركبة، والمكان ملآن بنفيس القماش، وفيه صناديق وكراسيٌّ منصوبة، وعلى كل كرسي بقجة وفوقها كيس ملآن دنانير، والدار تشهد لصاحبها بالسعادة؛ لأنَّ أرضها مفروشة بالرخام. فلما رأى الأمجد ذلك تحيَّر في أمره، وقال في نفسه: قد راحت روحي، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. وأما الصبية فإنها لما رأت ذلك المكان، فرحت فرحًا شديدًا ما عليه من مزيد، وقالت: والله يا سيدي ما قصَّر مملوكك، فإنه مسح المكان وطبخ الطعام وهيَّأ الفاكهة، وقد جئتُ أنا في أحسن الأوقات. فلم يلتفت إليها الأمجد لاشتغال قلبه بالخوف من أصحاب المكان، فقالت: يا سيدي، ما لك واقفًا هكذا؟ ثم شهقت شهقة، وأعطت الأمجد قُبلة مثل كسر الجوز، وقالت له: يا سيدي، إنْ كنتَ مواعِدًا غيري فأنا أشد ظهري وأخدمها. فضحك الأمجد عن قلب مملوء بالغيظ، ثم طلع وجلس وهو ينفخ، وقال في نفسه: يا قتلة الشؤم إذا جاء صاحب المنزل، وقد جلست الصبية في جانبه وصارت تلعب وتضحك، والأمجد مهموم معبس يحسب في نفسه ألف حساب ويقول: لا بد أن يجيء صاحب هذه القاعة، فأي شيء أقول له؟ ولا بد أنه يقتلني بلا شك.

ثم إن الصبية قامت وتشمَّرت وأخذت خوانًا وقد حطَّت عليه السفرة وأكلت، وقالت للأمجد: كُلْ يا سيدي. فتقدَّم الأمجد ليأكل فلم يَطِبْ له الأكل، بل صار ينظر إلى ناحية الباب حتى أكلت الصبية وشبعت، وقد رفعت الخوان وقدَّمت طبق الفاكهة وشرعت تتنقَّل، ثم قدَّمت المشروب وفتحت الجرَّة وملأت قدحًا وناولته للأمجد، فأخذه منها وقال في نفسه: آه آه من صاحب هذه الدار إذا جاء ورآني. وقد صارت عينه صوب الدهليز والقدح في يده. فبينما هو كذلك وإذا بصاحب الدار قد جاء، وكان مملوكًا من أكابر المدينة؛ لأنه كان أمير ياخور عند الملك، وقد جعل تلك القاعة مُعَدَّة لحظِّه لينشرح فيها صدره، ويختلي فيها بمَن يريده، وكان في ذلك اليوم قد أرسل إلى معشوق يجيء له وقد جهَّزَ له ذلك المكان، وكان اسم ذلك المملوك بهادر، وكان سخي اليد صاحب جُودٍ وإحسان، وصدقات وامتنان، فلما وصل إلى قريب القاعة … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بهادر صاحب القاعة لما وصل إلى قُرَيْب القاعة، وجد الباب مفتوحًا، فدخل قليلًا قليلًا وطلَّ برأسه فنظر الأمجد والصبية، وقدَّامهما طبق الفاكهة وآلة المدام، وفي ذلك الوقت كان الأمجد ماسك القدح وعينه إلى الباب، فلما صارت عينه في عين صاحب الدار اصفرَّ لونه وارتعدت فرائصه؛ فلما رآه بهادر قد اصفرَّ لونه وتغيَّر حاله، غمزه بإصبعه على فمه، يعني: اسكت، وتعال عندي. فحطَّ الأمجد الكأس من يده وقام إليه، فقالت الصبية: إلى أين؟ فحرَّكَ رأسه، وأشار لها أنه يريق الماء، ثم خرج إلى الدهليز حافيًا، فلما رأى بهادر علم أنه صاحب الدار، فأسرع إليه وقبَّل يديه، ثم قال له: بالله عليك يا سيدي قبل أن تؤذيني أن تسمع مني مقالي. ثم حدَّثه بحديثه من أوله إلى آخره، وأخبره بسبب خروجه من أرضه ومملكته، وأنه ما دخل القاعة باختياره، ولكن الصبية هي التي كسرت الضبة وفتحت الباب وفعلت هذه الفعائل؛ فلما سمع بهادر كلام الأمجد وعرف أنه ابن ملك حنَّ عليه ورحمه، ثم قال: اسمع يا أمجد كلامي، وأَطِعْني وأنا أتكفَّل لك بالأمان مما تخاف، وإن خالفتني قتلتك. فقال الأمجد: اؤمرني بما شئتَ، فأنا لا أخالفك أبدًا؛ لأنني عتيق مروءتك.

فقال له بهادر: ادخل هذه القاعة، واجلس في المكان الذي كنتَ فيه واطمئنَّ، وها أنا داخل إليك واسمي بهادر، فإذا دخلت إليك فاشتمني وانهرني، وقل لي: ما سبب تأخُّرك إلى هذا الوقت؟ ولا تقبل لي عذرًا، بل قم اضربني، وإن شفقتَ عليَّ أعدمتُك حياتك، فادخل وانبسط، ومهما طلبته مني تجده حاضرًا بين يديك في الوقت، وبت كما تحب في هذه الليلة، وفي غدٍ توجَّه إلى حال سبيلك إكرامًا لغربتك، فإني أحب الغريب وواجبٌ عليَّ إكرامه. فقبَّلَ الأمجد يده ودخل، وقد اكتسى وجهه حمرةً وبياضًا، فأول ما دخل قال للصبية: يا سيدتي، آنستِ موضعك وهذه ليلة مباركة. فقالت له الصبية: إن هذا عجيب

منك حيث بسطت لي الأنس. فقال الأمجد: والله يا سيدتي إني كنت أعتقد أن مملوكي بهادر أخذ لي عقود جواهر، كل عقد يساوي عشرة آلاف دينار، ثم إنني خرجت الآن وأنا متفكِّر في ذلك ففتشت عليها فوجدتها في موضعها، ولم أدرِ ما سبب تأخُّر المملوك إلى هذا الوقت، ولا بد لي من عقوبته.

فاستراحت الصبية بكلام الأمجد، ولعبا وشربا وانشرحا، ولم يزالا في حظٍّ إلى قُرَيْب المغرب، ثم دخل عليهما بهادر وقد غيَّرَ لبسه وشدَّ وسطه، وجعل في رجليه زربونًا على عادة المماليك، ثم سلَّم وقبَّل الأرض، وكتَّف يديه وأطرق برأسه إلى الأرض كالمعترف بذنبه، فنظر إليه الأمجد بعين الغضب وقال له: ما سبب تأخُّرك يا أنحس المماليك؟ فقال له: يا سيدي إني اشتغلت بغسل أثوابي، وما علمت أنك ها هنا، فإن ميعادي وميعادك العشاء لا بالنهار. فصرخ عليه الأمجد وقال له: تكذب يا أنحس المماليك، والله لا بد من ضربك. ثم قام الأمجد وسطَّح بهادر على الأرض وأخذ عصا وضربه برفق، فقامت الصبية وخلصت العصا من يده، ونزلت بها على بهادر بضرب وجيع حتى جرت دموعه واستغاث، وصار يكزُّ على أسنانه، والأمجد يصيح على الصبية: لا تفعلي هكذا. وهي تقول: دعني أشفي غيظي منه. ثم إن الأمجد خطف العصا من يدها ودفعها، فقام بهادر ومسح دموعه عن وجهه، ووقف في خدمتهما ساعة، ثم مسح القاعة وأوقد القناديل، وصارت الصبية كلما دخل بهادر أو خرج تشتمه وتلعنه، والأمجد يغضب منها ويقول لها: بحق الله تعالى أن تتركي مملوكي، فإنه غير معود بهذا.

وما زالا يأكلان ويشربان، وبهادر في خدمتهما إلى نصف الليل حتى تعب من الخدمة والضرب، فنام في وسط القاعة وشخر، فسكرت الصبية وقالت للأمجد: قم خذ هذا السيف المعلَّق واضرب رقبة هذا المملوك، وإنْ لم تفعل ذلك عملت على هلاك روحك. فقال الأمجد: وأي شيء خطر لك في قتل مملوكي؟ قالت: لا يكمل الحظ إلا بقتله، وإن لم تقم قمتُ أنا وقتلته. فقال الأمجد: بحق الله عليك لا تفعلي. فقالت: لا بد من هذا. وأخذت السيف وجرَّدته وهمَّت بقتله، فقال الأمجد في نفسه: هذا رجل عمل معنا خيرًا، وسترنا وأحسن إلينا، وجعل نفسه مملوكي، كيف نجازيه بالقتل؟ لا كان ذلك أبدًا. ثم قال للصبية: إنْ لم يكن من قتل مملوكي بدٌّ، فأنا أحقُّ بقتله منك. ثم أخذ السيف من يدها ورفع يده وضرب الصبية في عنقها، فأطاح رأسها عن جثتها، فوقع رأسها على صاحب الدار فاستيقظ، وجلس وفتح عينيه فوجد الأمجد واقفًا والسيف في يده مخضَّبًا بالدم، ثم نظر إلى الصبية فوجدها مقتولة، فاستخبره عن أمرها فأعاد عليه حديثها، وقال له: إنها أَبَتْ إلا أن تقتلك،

وهذا جزاؤها. فقام بهادر وقبَّل رأس الأمجد وقال له: يا سيدي، ليتك عفوتَ عنها، وما بقي في الأمر إلا إخراجها في هذا الوقت قبل الصباح.

ثم إن بهادر شد وسطه وأخذ الصبية ولفها في عباءة، ووضعها في فرد وحملها وقال للأمجد: أنت غريب، ولا تعرف أحدًا، فاجلس في مكانك وانتظرني عند طلوع الشمس، فإن عدتُ إليك لا بد أن أفعل معك خيرًا كثيرًا، وأجتهد في كشف خبر أخيك، وإنْ طلعت الشمس ولم أَعُدْ إليك، فاعلم أنه قد قُضِي عليَّ، والسلام عليك، وهذه الدار لك بما فيها من الأموال والقماش. ثم إنه حمل الفرد وخرج من القاعة، وشقَّ بها الأسواق وقصد بها طريق البحر المالح ليرميها فيه، فلما صار قريبًا من البحر التفت فرأى الوالي والمقدِّمين قد أحاطوا به، ولما عرفوه تعجَّبوا وفتحوا الفرد فوجدوا فيه قتيلة، فقبضوا عليه وبيَّتوه في الحديد إلى الصباح، ثم طلعوا به هو والفرد إلى الملك وأعلموه بالخبر، فلما رأى الملك ذلك، غضب غضبًا شديدًا وقال له: ويلك! إنك تفعل هكذا دائمًا، فتقتل القتلى وترميهم في البحر، وتأخذ جميع ما لهم، وكم فعلتَ قبل ذلك من قتل؟ فأطرق بهادر رأسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بهادر أطرق برأسه إلى الأرض قدَّام الملك، فصرخ الملك عليه وقال له: ويلك! مَن قتل هذه الصبية؟ فقال له: يا سيدي، أنا قتلتها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فغضب الملك وأمر بشنقه، فنزل به السياف حين أمره الملك، ونزل الوالي بالمنادي ينادي في أزقة المدينة بالفرجة على بهادر أمير ياخور الملك، ودار به في الأزقة والأسواق.

هذا ما كان من أمر بهادر، وأما ما كان من أمر الأمجد، فإنه لما طلع عليه النهار، وارتفعت الشمس، ولم يَعُدْ إليه بهادر قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أي شيء جرى له؟ فبينما هو يتفكَّر وإذا بالمنادي ينادي بالفرجة على بهادر، فإنهم يشنقونه في وسط النهار، فلما سمع الأمجد ذلك بكى، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قد أراد هلاك نفسه من أجلي، وأنا الذي قتلتها، والله لا كان هذا أبدًا. ثم خرج من القاعة وقفلها وشقَّ في وسط المدينة حتى أتى إلى بهادر، ووقف قدَّام الوالي، وقال له: يا سيدي، لا تقتل بهادر فإنه بريء، والله ما قتلها إلا أنا. فلما سمع الوالي كلامه أخذه هو وبهادر، وطلع بهما إلى الملك وأعلمه بما سمعه من الأمجد، فنظر الملك إلى الأمجد وقال له: أأنت قتلتَ الصبية؟ قال: نعم. فقال له الملك: احكِ لي ما سبب قتلك إياها واصدقني. قال له: أيها الملك، إنه جرى لي حديث عجيب، وأمر غريب، لو كُتِب بالإبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر. ثم حكى للملك حديثه، وأخبره بما جرى له ولأخيه من المبتدأ إلى المنتهى، فتعجَّب الملك من ذلك غاية العجب، وقال له: إني قد علمت أنك معذور، ولكن يا فتى هل لك أن تكون عندي وزيرًا؟ فقال له: سمعًا وطاعة. فخلع عليه الملك وعلى بهادر خلعًا سنية، وأعطاه دارًا حسنة وخدمًا وحشمًا، وأنعم عليه بجميع ما يحتاج إليه، ورتَّب له الرواتب والجرايات، وأمره أن يبحث عن أخيه الأسعد. فجلس الأمجد في مرتبة الوزير، وحكم وعدل، وولَّى

وعزل، وأخذ وأعطى، وأرسل المنادي في أزقة المدينة ينادي على أخيه الأسعد، فمكث مدة أيام ينادي في الشوارع والأسواق، فلم يسمع له بخبر، ولم يقع له على أثر.

هذا ما كان من أمر الأمجد، وأما ما كان من أمر الأسعد؛ فإن المجوس لا زالوا يعاقبونه بالليل والنهار، وفي العشي والإبكار مدة سنة كاملة، حتى قرب عيد المجوس، فتجهَّزَ بهرام المجوسي إلى السفر، وهيَّأ له مركبًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بهرام المجوسي جهَّزَ مركبًا للسفر، ثم حطَّ الأسعد في صندوقٍ وقفله عليه، ونقله إلى المركب، وفي تلك الساعة التي حول فيها بهرام الصندوق الذي فيه الأسعد، كان الأمجد بالقضاء والقدر واقفًا يتفرج على البحر، فنظر إلى الحوائج وهم ينقلونها إلى المركب، فخفق فؤاده وأمر غلمانه أن يقدِّموا له فرسه، ثم ركب في جملة من جماعته وتوجَّه إلى البحر، ووقف على مركب المجوسي، وأمر مَن معه أن ينزلوا المركب ويفتِّشوها، فنزلت الرجال وفتَّشوا المركب جميعها فلم يجدوا فيها شيئًا، فطلعوا وأعلموا الأمجد بذلك، فركب وتوجَّهَ إلى بيته، فلما وصل إلى منزله ودخل القصر انقبَضَ صدره، فنظر بعينه في الدار فرأى سطرين مكتوبين على حائط، وهما هذان البيتان:

أَحْبَابَنَا إِنْ غِبْتُمُ عَنْ نَاظِرِي فَعَنِ الْفُؤَادِ وَخَاطِرِي مَا غِبْتُمُ
لَكِنَّكُمْ خَلَّفْتُمُونِي مُدْنَفًا وَمَنَعْتُمُ جَفْنِي الرُّقَادَ وَنِمْتُمُ

فلما قرأهما الأمجد تذكَّرَ أخاه وبكى.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر بهرام المجوسي، فإنه نزل المركب وصاح على البحرية وأمرهم أن يعجلوا بحلِّ القلوع، فحلوا القلوع وسافروا، ولم يزالوا مسافرين أيامًا وليالي، وكل يومين يُخرِج الأسعد ويُطعِمه قليلًا من الزاد ويسقيه قليلًا من الماء، إلى أن قربوا من جبل النار؛ فخرج عليهم ريح وهاج بهم البحر حتى تاهت المركب عن الطريق، وسلكوا طريقًا غير طريقهم، ووصلوا إلى مدينة مبنية على شاطئ البحر، ولها قلعة بشبابيك تطل على البحر، والحاكمة على تلك المدينة امرأة يقال لها الملكة مرجانة، فقال الريس لبهرام: يا سيدي، إننا تهنا عن الطريق، ولا بد لنا من دخول هذه المدينة

لأجل الراحة، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء. فقال له بهرام: نِعْمَ ما رأيتَ! والذي تراه افعله. فقال له الريس: إذا أرسلت لنا الملكة تسألنا، فماذا يكون جوابنا لها؟ فقال له بهرام: أنا عندي هذا المسلم الذي معنا، فنلبسه لبس المماليك ونخرجه معنا، وإذا رأته الملكة تظن أنه مملوك، فأقول لها: إني جلاب مماليك أبيع وأشتري فيهم، وقد كان عندي مماليك كثيرة فبعتهم، ولم يبقَ غير هذا المملوك. فقال له الريس: هذا كلام مليح.

ثم إنهم وصلوا إلى المدينة وأرخوا القلوع ودقوا المراسي ووقفت المركب، وإذا بالملكة مرجانة نزلت إليهم ومعها عسكرها، ووقفت على المركب ونادت على الريس، فطلع عندها وقبَّل الأرض بين يديها، فقالت له: أي شيء في مركبك هذه؟ ومَن معك؟ فقال لها: يا ملكة الزمان، معي رجل تاجر يبيع المماليك. فقالت: عليَّ به. وإذا ببهرام طلع ومعه الأسعد ماشٍ وراءه في صفة مملوك، فلما وصل إليها بهرام قبَّل الأرض بين يديها، فقالت له: ما شأنك؟ فقال لها: أنا تاجر رقيق. فنظرت إلى الأسعد وقد ظنَّت أنه مملوك، فقالت له: ما اسمك؟ فخنقه البكاء، وقال لها: اسمي الأسعد. فحنَّ قلبها عليه وقالت: أتعرف الكتابة؟ قال: نعم. فناولَتْه دواة وقلمًا وقرطاسًا وقالت له: اكتب شيئًا حتى أراه. فكتب هذين البيتين:

مَا حِيلَةُ الْعَبْدِ وَالْأَقْدَارُ جَارِيَةٌ … عَلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ أَيُّهَا الرَّائِي
أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ … إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

فلما رأت الورقة رحمته، ثم قالت لبهرام: بعني هذا المملوك. فقال لها: يا سيدتي، لا يمكنني بيعه؛ لأني بعت جميع مماليكي، ولم يَبْقَ عندي غير هذا. فقالت الملكة مرجانة: لا بد من أخذه منك، إما ببيع وأما بهبة. فقال لها: لا أبيعه ولا أهبه. فقبضت على الأسعد وأخذته، وطلعت به القلعة، وأرسلت تقول له: إن لم تقلع في هذه الليلة عن بلدنا، أخذتُ جميعَ مالك وكسرت مركبك. فلما وصلت إليه الرسالة اغتمَّ غمًّا شديدًا وقال: إن هذه سفرة غير محمودة. ثم قام وتجهَّزَ وأخذ جميع ما يريده، وانتظر الليل ليسافر فيه، وقال للبحرية: خذوا أهبتكم، واملئوا قِرَبكم من الماء، وأقلعوا بنا في آخر الليل. فصار البحرية يقضون أشغالهم.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر الملكة مرجانة، فإنها أخذت الأسعد ودخلت به القلعة وفتحت الشبابيك المطلة على البحر، وأمرت الجواري أن يقدِّمن الطعام، فقدَّمن لهما الطعام فأكلا، ثم أمرتهن أن يقدِّمن المدام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة مرجانة أمرت الجواري أن يقدِّمن المُدام فقدَّمنه، فشربت مع الأسعد، وألقى الله — سبحانه وتعالى — محبة الأسعد في قلبها، وصارت تملأ القدح وتسقيه حتى غاب عقله، فقام يريد قضاء حاجة ونزل من القاعة، فرأى بابًا مفتوحًا فدخل فيه وتمشى، فانتهى به السير إلى بستان عظيم فيه جميع الفواكه والأزهار، فجلس تحت شجرة وقضى حاجته، وقام إلى الفسقية التي في البستان فاستلقى على قفاه ولباسه محلول، فضربه الهواء فنام ودخل عليه الليل.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر بهرام، فإنه لما دخل عليه الليل صاح على بحرية المركب، وقال لهم: حلوا قلوعكم وسافروا بنا. فقالوا له: سمعًا وطاعة، ولكن اصبر علينا حتى نملأ قربنا ونحل. ثم طلع البحرية بالقِرَب وداروا حول القلعة، فلم يجدوا غير حيطان البستان، فتعلقوا بها ونزلوا البستان، وتتبعوا أثر الأقدام الموصلة إلى الفسقية، فلما وصلوا إليها وجدوا الأسعد مستلقيًا على قفاه، فعرفوه وفرحوا به وحملوه بعد أن ملئوا قِرَبهم ونطوا من الحائط، وأتوا به مُسرِعين إلى بهرام المجوسي، وقالوا له: أَبْشِر بحصول المراد وشفاء الأكباد؛ فقد طبل طبلك وزمر زمرك، فإن أسيرك الذي أخذته الملكة مرجانة منك غصبًا قد وجدناه وأتينا به معنا. ثم رموه قدَّامه، فلما نظره بهرام طار قلبه من الفرح، واتسع صدره وانشرح، ثم خلع عليهم وأمرهم أن يحلوا القلوع بسرعة، فحلوا قلوعهم وسافروا قاصدين جبل النار، ولم يزالوا مسافرين إلى الصباح.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر الملكة مرجانة، فإنها بعد نزول الأسعد من عندها مكثت تنتظره ساعة فلم يَعُدْ إليها، فقامت وفتَّشت عليه فما وجدته، فأوقدت الشموع وأمرت الجواري أن يفتشن عليه، ثم نزلت هي بنفسها فرأت البستان مفتوحًا فعلمت أنه دخله، فدخلت البستان فوجدت نعله بجانب الفسقية، فصارت تفتش عليه في

جميع البستان، فلم تَرَ له خبرًا، ولم تزل تفتش عليه في جوانب البستان إلى الصباح، ثم سألت عن المركب، فقالوا لها: قد سافرت في ثلث الليل. فعلمت أنهم أخذوه معهم، فصعب عليها واغتاظت غيظًا شديدًا، ثم أمرت بتجهيز عشر مراكب كبار في الوقت، وتجهزت للحرب، ونزلت في مركب من العشر مراكب، ونزل معها عسكرها مُهيَّئين بالعدة الفاخرة وآلات الحرب، وحلوا القلوع، وقالت للرؤساء: متى لحقتم مركب المجوسي فلكم عندي الخِلَع والأموال، وإن لم تلحقوها قتلتكم عن آخركم. فحصل للبحرية خوف ورجاء عظيم، ثم سافروا بالمراكب ذلك النهار وتلك الليلة، وثاني يوم، وثالث يوم، وفي اليوم الرابع لاحت لهم مركب بهرام المجوسي، ولم ينقضِ النهار حتى أحاطت المراكب بمركب المجوسي، وكان بهرام في ذلك الوقت قد أخرج الأسعد وضربه وصار يعاقبه، والأسعد يستغيث ويستجير فلم يجد مغيثًا ولا مجيرًا من الخلق، وقد آلمه الضرب الشديد. فبينما هو يعاقبه؛ إذ لاحت منه نظرة، فوجد المراكب قد أحاطت بمركبه ودارت حولها كما يدور بياض العين بسوادها، فتيقن أنه هالك لا محالة، فتحسَّرَ بهرام وقال: ويلك يا أسعد! هذا كله من تحت رأسك. ثم أخذه من يده وأمر البحرية أن يرموه في البحر، وقال: والله لأقتلك قبل موتي. فاحتملته البحرية من يديه ورجليه ورموه في وسط البحر، فأذن الله — سبحانه وتعالى — لما يريد من سلامته وبقية أجله، أنه غطس ثم طلع وخبط بيديه ورجليه إلى أن سهَّل الله عليه وأتاه الفرج، وضربه الموج وقذفه بعيدًا عن مركب المجوسي، ووصل إلى البر، فطلع وهو لم يصدق بالنجاة، ولما صار في البر قلع أثوابه وعصرها ونشرها، وقعد عريانًا يبكي على ما جرى له من المصائب والأسر، ثم أنشد هذين البيتين:

إِلَهِي قَلَّ صَبْرِي وَاحْتِيَالِي وَضَاقَ الصَّدْرُ وَانْصَرَمَتْ حِبَالِي
إِلَى مَنْ يَشْتَكِي الْمِسْكِينُ إِلَّا إِلَى مَوْلَاهُ يَا مَوْلَى الْمَوَالِي

فلما فرغ من شعره قام ولبس ثيابه، ولم يعلم أين يروح ولا أين يجيء، فصار يأكل من نبات الأرض وفواكه الأشجار، ويشرب من ماء الأنهار، وسافَرَ بالليل والنهار حتى أشرف على مدينة، ففرح وأسرع في مشيه نحو المدينة، فلما وصل إليها أدركه المساء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأسعد لما وصل إلى المدينة أدركه المساء، وقد قُفِل بابها، وكانت المدينة هي التي كان أسيرًا فيها وأخوه الأمجد وزير ملكها، فلما رآها الأسعد مقفلةً رجع إلى جهة المقابر، فلما وصل إلى المقابر وجد تربة بلا باب فدخلها ونام فيها، وحطَّ وجهه في عبِّه. وكان بهرام المجوسي لما وصلت إليه الملكة مرجانة بالمراكب كسرها بمكره وسحره، ورجع سالمًا نحو مدينته، وسار من وقته وساعته وهو فرحان، فلما جاز على المقابر طلع من المركب بالقضاء والقدر، ومشى بين المقابر فرأى التربة التي فيها الأسعد مفتوحة؛ فتعجَّبَ وقال: لا بد أن أنظر في هذه التربة. فلما نظر فيها رأى الأسعد وهو نائم ورأسه في عبِّه، فطلَّ في وجهه فعرفه، فقال له: هل أنت تعيش إلى الآن؟ ثم أخذه وذهب به إلى بيته، وكان له في بيته طابق تحت الأرض مُعَدٌّ لعذاب المسلمين، وكان له بنت تُسمَّى بستان، فوضع في رجلَي الأسعد قيدًا ثقيلًا، وأنزله في ذلك الطابق، ووكَّلَ بنته بتعذيبه ليلًا ونهارًا إلى أن يموت، ثم إنه ضربه الضرب الوجيع، وقفل عليه الطابق، وأعطى المفاتيح لبنته.

ثم إن بنته بستان نزلت لتضربه فوجدته شابًّا ظريف الشمائل، حلو المنظر، مقوَّس الحاجبين، كحيل المقلتين، فوقعت محبته في قلبها، فقالت له: ما اسمك؟ قال لها: اسمي الأسعد. فقالت له: سعدت وسعدت أيامك، أنت ما تستاهل العذاب، وقد علمت أنك مظلوم. وصارت تؤانسه بالكلام، وفكَّتْ قيوده، ثم إنها سألته عن دين الإسلام، فأخبرها أنه هو الدين الحق القويم، وأن سيدنا محمدًا صاحب المعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وأن النار تضر ولا تنفع، وعرَّفَها قواعد الإسلام فأذعنت إليه، ودخل حب الإيمان في قلبها، ومزج الله تعالى محبة الأسعد بفؤادها؛ فنطقت بالشهادتين، وصارت من أهل السعادة، وصارت تطعمه وتسقيه، وتتحدث معه، وتصلي هي وإياه، وتصنع له المساليق بالدجاج

حتى اشتدَّ وزال ما به من الأمراض، ورجع إلى ما كان عليه من الصحة. ثم إن بنت بهرام خرجت من عند الأسعد، ووقفت على الباب، وإذ بالمنادي ينادي ويقول: كل مَن كان عنده شاب مليح صفته كذا وكذا وأظهره، فله جميع ما طلب من الأموال، ومَن كان عنده وأنكره فإنه يُشنَق على باب داره، ويُنهَب ماله ويُهدَر دمه. وكان الأسعد قد أخبر بستان بنت بهرام بجميع ما جرى له، فلما سمعت ذلك عرفت أنه هو المطلوب، فدخلت عليه وأخبرته بالخبر، فخرج وتوجَّه إلى دار الوزير، فلما رأى الوزير قال: والله إن هذا الوزير هو أخي الأمجد. ثم طلع وطلعت الصبية وراءه إلى القصر، فرأى أخاه الأمجد فألقى نفسه عليه، ثم إن الأمجد عرفه فألقى نفسه عليه وتعانقا، واحتاطت بهما المماليك، وغُشِي على الأسعد والأمجد ساعة، فلما أفاقا من غشيتهما أخذه الأمجد وطلع به إلى السلطان وأخبره بقصته؛ فأمر السلطان بنهب بيت بهرام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السلطان أمر الأمجد بنهب دار بهرام، فأرسل الوزير جماعة لذلك فتوجَّهوا إلى بيت بهرام ونهبوه، وطلعوا بابنته إلى الوزير فأكرمها، وحدَّث الأسعد أخاه بكل ما جرى له من العذاب، وما عملت معه بنت بهرام من الإحسان، فزاد الأمجد في إكرامها، ثم حكى الأمجد للأسعد جميع ما جرى له مع الصبيَّة، وكيف سلم من الشنق وقد صار وزيرًا، وصار يشكو أحدهما للآخر ما وجد من فرقة أخيه. ثم إن السلطان أحضر المجوسي وأمر بضرب عنقه، فقال بهرام: أيها الملك الأعظم، هل صمَّمت على قتلي؟ قال: نعم. فقال بهرام: اصبر عليَّ أيها الملك قليلًا. ثم إنه أطرق برأسه إلى الأرض، وبعد ذلك رفع رأسه وتشهَّدَ وأسلَمَ على يد السلطان ففرحوا بإسلامه، ثم حكى له الأمجد والأسعد جميع ما جرى لهما، فقال لهما: يا سيديَّ تجهَّزَا للسفر، وأنا أسافر بكما. ففرحَا بذلك وبإسلامه، وبكيَا بكاءً شديدًا، فقال لهما بهرام: يا سيديَّ لا تبكيَا، فمصيركما تجتمعان كما اجتمع نعمة ونِعَم. فقالا له: وما جرى لنعمة ونِعَم؟

حكاية نعمة ونِعَم

قال بهرام: ذكروا — والله أعلم — أنه كان بمدينة الكوفة رجل من وجوه أهلها، يقال له: الربيع بن حاتم، وكان كثير المال مُرفَّه الحال، وكان قد رُزِق ولدًا فسمَّاه نعمة الله، فبينما هو ذات يوم بدكة النخاسين إذ نظر جارية تُعرض للبيع، وعلى يدها وصيفة صغيرة بديعة في الحسن والجمال، فأشار الربيع إلى النخاس وقال له: بكم هذه الجارية وابنتها؟ فقال: بخمسين دينارًا. فقال الربيع: اكتب العهد وخذ المال سلِّمه لمولاها. ثم دفع للنخاس ثمن الجارية وأعطاه دلالته، وتسلَّم الجارية وابنتها ومضى بهما إلى بيته، فلما نظرت

ابنة عمه إلى الجارية قالت له: يا ابن العم، ما هذه الجارية؟ قال: اشتريتها رغبةً في هذه الصغيرة التي على يديها، واعلمي أنها إذا كبرت ما يكون في بلاد العرب والعجم مثلها ولا أجمل منها. فقالت لها ابنة عمه: ما اسمك يا جارية؟ فقالت: يا سيدتي، اسمي توفيق. قالت: وما اسم ابنتك؟ قالت: سعد. قالت: صدقت، لقد سعدتِ وسعد مَن اشتراكِ. ثم قالت: يا ابن عمي، ما تسميها؟ قال: ما تختارينه أنت. قالت: نسميها نِعَم. قال الربيع: لا بأس بذلك.

ثم إن الصغيرة نِعَم تربَّت مع نعمة بن الربيع في مهد واحد إلى حين بلغا من العمر عشر سنين، وكان كل شخص منهما أحسن من صاحبه، وصار الغلام يقول لها يا أختي، وهي تقول له يا أخي، ثم أقبل الربيع على ولده نعمة حين بلغا هذا السن، وقال له: يا ولدي، ليست نِعَم أختك بل هي جاريتك، وقد اشتريتها على اسمك وأنت في المهد، فلا تَدْعُها بأختك من هذا اليوم. قال نعمة لأبيه: فإذا كان كذلك فأنا أتزوجها. ثم إنه دخل على والدته، وأعلمها بذلك، فقالت: يا ولدي، هي جاريتك. فدخل نعمة بن الربيع بتلك الجارية وأحَبَّها، ومضى عليهما تسع سنين وهما على تلك الحالة، ولم يكن بالكوفة جارية أحسن من نِعَم، ولا أحلى ولا أظرف منها، وقد كبرت وقرأت القرآن والعلوم، وعرفت أنواع اللعب والآلات، وبرعت في المغنى وآلات الملاهي، حتى إنها فاقت جميع أهل عصرها. فبينما هي جالسة ذات يوم من الأيام مع زوجها نعمة بن الربيع في مجلس الشراب، أخذت العود وشدت أوتاره وأنشدت هذين البيتين:

إِذَا كُنْتَ لِي مَوْلًى أَعِيشُ بِفَضْلِهِ ... وَسَيْفًا بِهِ أَفْنِي رِقَابَ النَّوَائِبِ
فَمَا لِي إِلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو شَفَاعَةٌ ... سِوَاكَ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي

فطرب نعمة طربًا عظيمًا ثم قال لها: بحياتي يا نِعَم أن تغنِّي لنا على الدف وآلات الطرب. فأطربت بالنغمات وغنَّت بهذه الأبيات:

وَحَيَاةِ مَنْ مَلَكَتْ يَدَاهُ قِيَادِي ... لَأُخَالِفَنَّ عَلَى الْهَوَى حُسَّادِي
وَلَأُغْضِبَنَّ عَوَاذِلِي وَأُطِيعُكُمْ ... وَلَأَهْجُرَنَّ تَلَذُّذِي وَرُقَادِي
وَلَأَجْعَلَنَّ لَكَمْ بِأَكْتَافِ الْحَشَى ... قَبْرًا وَلَمْ يَشْعُرْ بِذَاكَ فُؤَادِي

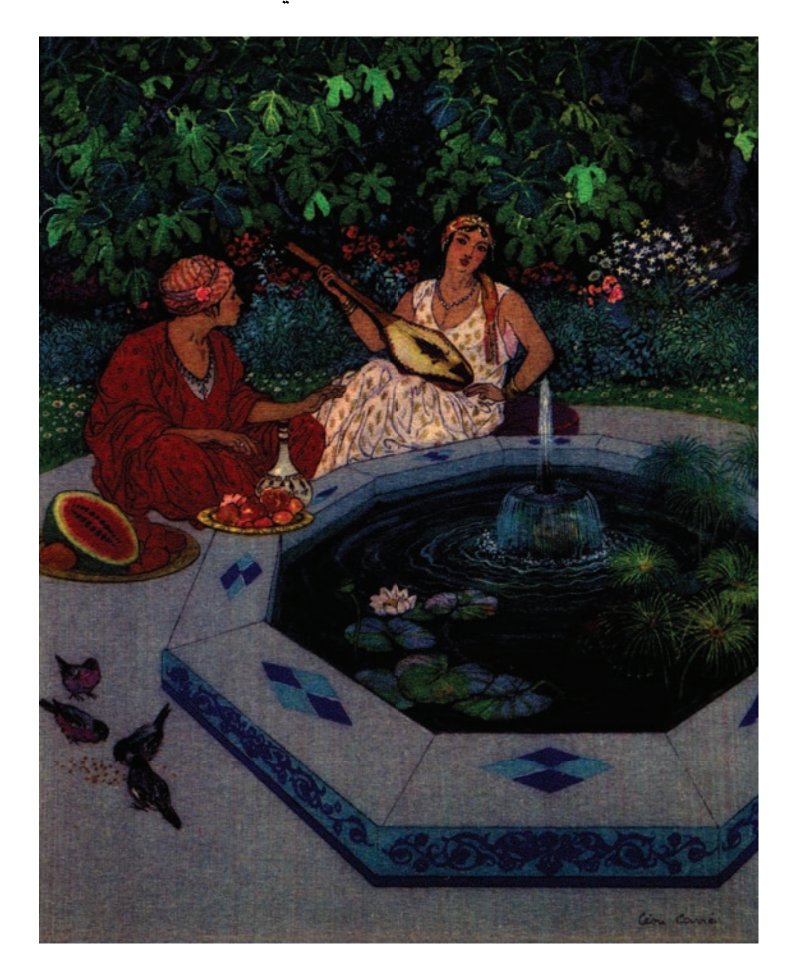
فقال الغلام: لله درُّكِ يا نِعم. فبينما هما في أطيب عيش وإذا بالحجاج في دار نيابته يقول: لا بد لي أن أحتال على أخذ هذه الجارية التي اسمها نِعَم، وأرسلها إلى أمير المؤمنين

عبد الملك بن مروان؛ لأنه لا يوجد في قصره مثلها ولا أطيب من غناها. ثم إنه استدعى بعجوز قهرمانة وقال لها: امضي إلى دار الربيع واجتمعي بالجارية نِعم وتسبَّبي في أخذها؛ لأنه لم يوجد على وجه الأرض مثلها. فقبِلت العجوز من الحجاج ما قاله، ولما أصبحت لبست أثوابها الصوف، وحطَّت في رقبتها سبحة حبَّاتها ألوف. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز قبلت ما قاله الحجاج، ولما أصبحت لبست أثوابها الصوف، ووضعت في رقبتها سبحة عدد حبَّاتها ألوف، وأخذت بيدها عكازًا وركوة يمانية وسارت وهي تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولم تزل في تسبيح وابتهال وقلبها ملآن بالمكر والمحال حتى وصلت إلى دار نعمة بن الربيع عند صلاة الظهر، فقرعت الباب ففتح لها البواب وقال: ما تريدين؟ قالت: أنا فقيرة من العابدات، وأدركتني صلاة الظهر، وأريد أن أصلي في هذا المكان المبارك. فقال لها البواب: يا عجوز، إن هذه دار نعمة بن الربيع، وليست بجامع ولا مسجد. فقالت: أنا أعرف أنه لا جامعَ ولا مسجدَ مثل دار نعمة بن الربيع، وأنا قهرمانة من قصر أمير المؤمنين خرجت طالبة العبادة والسياحة. فقال لها البواب: لا أمكِّنك من أن تدخلي. وكثُر بينهما الكلام فتعلَّقت به العجوز وقالت له: هل يُمنَع مثلي من دخول دار نعمة بن الربيع وأنا أعبر إلى ديار الأمراء والأكابر؟ فخرج نعمة وسمع كلامها فضحك، وأمرها أن تدخل خلفه، فدخل نعمة وسارت العجوز خلفه حتى دخل بها على نِعَم، فسلَّمت عليها العجوز بأحسن سلام، ولما نظرت إلى نِعم تعجَّبت من فرط جمالها، ثم قالت لها: يا سيدتي، أعيذك بالله الذي أَلَّفَ بينك وبين مولاك في الحسن والجمال.

ثم انتصبت العجوز في المحراب، وأقبلت على الركوع والسجود والدعاء إلى أن مضى النهار وأقبل الليل بالاعتكار، فقالت الجارية: يا أمي، أريحي قدمَيْك ساعةً. فقالت العجوز: يا سيدتي، مَن طلب الآخرة أتعب نفسه في الدنيا، ومَن لم يُتعِب نفسه في الدنيا لم ينل منازل الأبرار في الآخرة. ثم إن نِعم قدَّمت الطعام للعجوز، وقالت لها: كلي من طعامي، وادعي لي بالتوبة والرحمة. فقالت العجوز: يا سيدتي إني صائمة، وأما أنت فصبية يصلح



فبينما هي جالسةٌ ذاتَ يومٍ مع زوجها في مجلس الشراب …

لك الأكل والشرب والطرب، والله يتوب عليك، وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾. ولم تزل الجارية جالسة مع العجوز ساعة تحدثها، ثم قالت لسيدها: يا سيدي، احلف على هذه العجوز أن تقيم عندنا مدةً، فإن على وجهها أثر العبادة. فقال: أخلي لها مجلسًا للعبادة، ولا تخلِّي أحدًا يدخل عليها، فلعل الله — سبحانه وتعالى — ينفعنا ببركتها، ولا يفرق بيننا.

ثم باتت العجوز ليلتها تصلي وتقرأ إلى الصباح، فلما أصبح الصباح جاءت إلى نعمة ونِعم وصبَّحت عليهما، وقالت لهما: استودعتكما الله. فقالت لها نِعم: إلى أين تمضين يا أمي وقد أمرني سيدي أن أخلي لك مجلسًا تعتكفين فيه للعبادة؟ فقالت العجوز: الله يبقيه، ويديم نعمته عليكما، ولكن أريد منكما أن توصوا البواب أنه لا يمنعني من الدخول إليكما، وإن شاء الله تعالى أدور في الأماكن الطاهرة، وأدعو لكما عقب الصلاة والعبادة في كل يوم وليلة. ثم خرجت من الدار والجارية نِعم تبكي على فراقها، وما تعلم السبب الذي أتت إليها من أجله، ثم إن العجوز توجَّهت إلى الحجاج، فقال لها: ما وراءك؟ فقالت له: إني نظرت إلى الجارية فرأيتها لم تلد النساءُ أحسنَ منها في زمانها. فقال لها الحجاج: إنْ فعلت ما أمرتك به يصل إليك مني خير جزيل. فقالت له: أريد منك المهلة شهرًا كاملًا. فقال لها: أمهلتُك شهرًا. ثم إن العجوز جعلت تتردد إلى دار نعمة وجاريته نِعم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٣٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز صارت تتردد إلى دار نعمة ونِعم، وهما يزيدان في إكرامها، وما زالت العجوز تمسي وتصبح عندهما، ويرحب بها كلُّ مَن في الدار، حتى إن العجوز اختَلَتْ بالجارية يومًا من الأيام، وقالت: يا سيدتي، والله إني حضرت الأماكن الطاهرة ودعوت لك، وأتمنى أن تكوني معي حتى تَرَي المشايخ الواصلين، ويدعون لك بما تختارين. فقالت لها الجارية نِعم: بالله يا أمي أن تأخذيني معك. فقالت لها: استأذني حماتك وأنا آخذك معي. فقالت الجارية لحماتها أم نعمة: يا سيدتي، اسألي سيدي أن يخلِّيني أخرج أنا وأنت يومًا من الأيام مع أمي العجوز إلى الصلاة والدعاء مع الفقراء في الأماكن الشريفة. فلما أتى نعمة وجلس، تقدَّمت إليه العجوز وقبَّلت يديه، فمنعها من ذلك، ودعت له وخرجت من الدار.

فلما كان ثاني يوم جاءت العجوز ولم يكن نعمة في الدار، فأقبلت على الجارية نعم وقالت لها: قد دعونا لكم البارحة، ولكن قُومي في هذه الساعة تفرَّجي، وعودي قبل أن يجيء سيدك. فقالت الجارية لحماتها: سألتك بالله أن تأذني لي في الخروج مع هذه المرأة الصالحة لأتفرج على أولياء الله في الأماكن الشريفة، وأعود بسرعة قبل مجيء سيدي. فقالت أم نعمة: أخشى أن يعلم سيدك. فقالت العجوز: والله لا أدعها تجلس على الأرض، بل تنظر وهي واقفة على أقدامها ولا تبطئ. ثم أخذت الجارية بالحيلة وتوجهت بها إلى قصر الحجاج، وعرَّفته بمجيئها بعد أن حطَّتها في مقصورة، فأتى الحجاج ونظر إليها، فرآها أجمل أهل زمانها، ولم يرَ مثلها، فلما رأته نِعَم سترت وجهها، فلم يفارقها حتى استدعى بحاجبه، وأركب معه خمسين فارسًا، وأمره أن يأخذ الجارية على نجيب سابق، ويتوجه بها إلى دمشق، ويسلِّمها إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وكتب له كتابًا، وقال له: أعطِه هذا الكتاب وخذ منه الجواب، وأسرع إليَّ بالرجوع. فتوجه الحاجب وأخذ

الجارية على هجين وسافر بها وهي باكية العين من أجل فراق سيدها، حتى وصلوا إلى دمشق، واستأذن على أمير المؤمنين فأذن له، فدخل الحاجب عليه وأخبره بخبر الجارية، فأخلى لها مقصورة، ثم دخل الخليفة على حريمه فرأى زوجته، فقال لها: إن الحجاج قد اشترى لي جارية من بنات ملوك الكوفة بعشرة آلاف دينار، وأرسل إليَّ هذا الكتاب، وهي صحبة الكتاب. فقالت له زوجته: … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة لما أخبر زوجته بقصة الجارية، قالت له زوجته: زادك الله من فضله. ثم دخلت أخت الخليفة على الجارية، فلما رأتها قالت: والله ما خاب مَن أنت في منزله، ولو كان ثمنك مائة ألف دينار. فقالت لها الجارية نِعَم: يا صبيحة الوجه، هذا قصر مَن مِن الملوك؟ وأي مدينة هذه المدينة؟ قالت لها: هذه مدينة دمشق، وهذا قصر أخي أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان. ثم قالت للجارية: كأنك ما علمت هذا. قالت: والله يا سيدتي لا علمَ لي بهذا. قالت: والذي باعك وقبض ثمنك ما أعلمك بأن الخليفة قد اشتراك؟ فلما سمعت الجارية ذلك الكلام سكبت دموعها وبكت، وقالت في نفسها: لقد تمَّتِ الحيلة عليَّ. ثم قالت في نفسها: إن تكلَّمْتُ فما يصدقني أحد، ولكن أسكت وأصبر لعلمي أن فرج الله قريب. ثم إنها أطرقت رأسها حياءً، وقد احمرَّت خدودها من أثر السفر والشمس، فتركتها أخت الخليفة في ذلك اليوم، وجاءتها في اليوم الثاني بقماش وقلائد من الجواهر وألبستها، فدخل عليها أمير المؤمنين، وجلس إلى جانبها، فقالت له أخته: انظر إلى هذه الجارية التي قد كمَّل الله فيها الحسن والجمال. فقال الخليفة لنِعَم: أزيحي القناع عن وجهك. فلم تُزِح القناع عن وجهها، فلم يرَ وجهها وإنما رأى معاصمها، فوقعت محبتها في قلبه، وقال لأخته: لا أدخل عليها إلا بعد ثلاثة أيام حتى تستأنس بك. ثم قام وخرج من عندها، فصارت الجارية متفكِّرة في أمرها، ومتحسِّرة على افتراقها من سيدها نعمة. فلما أتى الليل ضعفت الجارية بالحمى، ولم تأكل ولم تشرب، وتغيَّرَ وجهها ومحاسنها، فعرَّفوا الخليفة بذلك فشقَّ عليه أمرها، ودخل عليها بالأطباء وأهل البصائر؛ فلم يقف لها أحدٌ على طبٍّ.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر سيدها نعمة، فإنه أتى إلى داره وجلس على فراشه، ونادى: يا نِعَم. فلم تجبه، فقام مسرعًا ونادى، فلم يدخل عليه أحد، وكل

جارية في البيت اختفت خوفًا منه، فخرج نعمة إلى والدته فوجدها جالسة ويدها على خدها، فقال لها: يا أمي، أين نِعَم؟ فقالت له: يا ولدي، مع مَن هي أوثق مني عليها، وهي العجوز الصالحة، فإنها خرجت معها لتزور الفقراء وتعود. فقال: ومتى كان لها عادة بذلك؟ وفي أي وقت خرجت؟ قالت: خرجت بكرة النهار. قال: وكيف أَذِنْتِ لها بذلك؟ فقالت: يا ولدي، هي التي أشارت عليَّ بذلك. فقال نعمة: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم خرج من بيته وهو غائب عن الوجود، ثم توجه إلى صاحب الشرطة فقال له: أتحتال عليَّ وتأخذ جاريتي من داري؟ فلا بد لي أن أسافر وأشتكيك إلى أمير المؤمنين. فقال صاحب الشرطة: ومَن أخذها؟ فقال: عجوز صفتها كذا وكذا، وعليها ملبوس من الصوف، وبيدها سبحة عدد حبَّاتها ألوف. فقال له صاحب الشرطة: أوقفني على العجوز وأنا أخلِّص لك جاريتك. فقال: ومَن يعرف العجوز؟ فقال له صاحب الشرطة: ومَن يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى؟! وقد علم صاحب الشرطة أنها محتالة الحجاج، فقال له نعمة: ما أعرف جاريتي إلا منك، وبيني وبينك الحجاج. فقال له: امضِ إلى مَن شئتَ. فتوجَّه نعمة إلى قصر الحجاج، وكان والده من أكابر أهل الكوفة، فلما وصل إلى بيت الحجاج دخل حاجب الحجاج عليه، وأعلمه بالقضية، فقال له: عليَّ به. فلما وقف بين يديه قال له الحجاج: ما بالك؟ فقال له نعمة: كان من أمري ما هو كذا وكذا. فقال: هاتوا صاحب الشرطة ونأمره أن يفتش على العجوز. فلما حضر صاحب الشرطة قال له: أريد منك أن تفتش على جارية نعمة بن الربيع. فقال له صاحب الشرطة: لا يعلم الغيب إلا الله تعالى. فقال له الحجاج: لا بد أن تركب الخيل وتبصر الجارية في الطرقات وتنظر في البلدان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحجاج قال لصاحب الشرطة: لا بد أن تركب الخيل، وتنظر في البلدان والطرقات، وتفتش على الجارية. ثم التفت إلى نعمة وقال له: إن لم ترجع جاريتك دفعتُ لك عشرَ جوارٍ من داري، وعشرَ جوارٍ من دار صاحب الشرطة. ثم قال لصاحب الشرطة: اخرج في طلب الجارية. فخرج صاحب الشرطة، ونعمة مغموم، وقد يئس من الحياة، وكان قد بلغ من العمر أربع عشرة سنة، ولا نبات بعارضيه، فجعل يبكي وينتحب، وانعزل عن داره، ولم يزل يبكي إلى الصباح، فأقبل والده عليه، وقال له: يا ولدي، إن الحجاج قد احتال على الجارية وأخذها، ومن ساعة إلى ساعة يأتي الله بالفرج من عنده. فتزايدت الهموم على نعمة، وصار لا يعلم ما يقول، ولا يعرف مَن يدخل عليه، وأقام ضعيفًا ثلاثة أشهر حتى تغيَّرت أحواله ويئس منه أبوه، ودخلت عليه الأطباء فقالوا: ما له دواء إلا الجارية.

فبينما والده جالس يومًا من الأيام إذ سمع بطبيب ماهر أعجمي، وقد وصفه الناس بإتقان الطب والتنجيم وضرب الرمل؛ فدعا به الربيع، فلما حضر أجلسه الربيع إلى جانبه وأكرمه، وقال له: انظر حال ولدي. فقال لنعمة: هات يدك. فأعطاه يده فجسَّ مفاصله، ونظر في وجهه وضحك، والتفت إلى أبيه وقال: ليس بولدك غير مرض في قلبه. فقال: صدقتَ يا حكيم، فانظر في شأن ولدي بمعرفتك، وأخبرني بجميع أحواله، ولا تكتم عني شيئًا من أمره. فقال الأعجمي: إنه متعلق بجارية، وهذه الجارية في البصرة أو في دمشق، وما دواء ولدك غير اجتماعه بها. فقال الربيع: إن جمعتَ بينهما فلك عندي ما يسرك، وتعيش عمرك كله في المال والنعمة. فقال له العجمي: إن هذا الأمر قريب وسهل. ثم التفت إلى نعمة وقال له: لا بأس عليك، فطب نفسًا وقر عينًا. ثم قال للربيع: أَخْرِج من مالك أربعة آلاف دينار. فأخرجها وسلَّمها للأعجمي، فقال له الأعجمي: أريد أن ولدك يسافر

معي إلى دمشق، وإن شاء الله تعالى لا أرجع إلا بالجارية. ثم التفت العجمي إلى الشاب وقال له: ما اسمك؟ قال: نعمة. قال: نعمة اجلس وكن في أمان الله تعالى، لقد جمع الله بينك وبين جاريتك. فاستوى جالسًا، فقال له: ثبِّت قلبك فنحن نسافر مثل هذا اليوم، فكُلْ واشرب وانبسط لتقوى على السفر. ثم إن العجمي أخذ في قضاء حوائجه من جميع ما يحتاج إليه، واستكمل من والد نعمة عشرة آلاف دينار، وأخذ منه الخيل والجمال وغير ذلك مما يُحتاج لحمل الأثقال في الطريق.

ثم إن نعمة ودَّع والده وسافر مع الحكيم إلى حلب، فلم يقع على خبر الجارية، ثم إنهما وصلا إلى دمشق وأقاما فيها ثلاثة أيام، وبعد ذلك أخذ الأعجمي دكانًا وملأ رفوفها بالصيني النفيس والأغطية، وزركش الرفوف بالذهب والقطع المثمنة، وحطَّ قدَّامه أواني من القناني فيها سائر الأدهان، وسائر الأشربة، ووضع حول القناني أقداحًا من البلور، وحطَّ الأصطرلاب قدَّامه، ولبس أثواب الحكمة والطب، وأوقف بين يديه نعمة وألبسه قميصًا وملوطة من الحرير، وفوَّطه في وسطه بفوطة من الحرير مزركشة بالذهب، ثم قال العجمي لنعمة: يا نعمة، أنت من اليوم ولدي فلا تدعُني إلا بأبيك، وأنا لا أدعوك إلا بالولد. فقال نعمة: سمعًا وطاعة.

ثم إن أهل دمشق اجتمعوا على دكان العجمي ينظرون إلى حسن نعمة، وإلى حسن الدكان والبضائع التي فيها، والعجمي يكلِّم نعمة بالفارسية ونعمة يكلِّمه كذلك بتلك اللغة؛ لأنه كان يعرفها على عادة أولاد الأكابر، واشتهر ذلك الأعجمي عند أهل دمشق، وجعلوا يصفون له الأوجاع وهو يعطيهم الأدوية، ويأتونه بالقوارير المملوءة ببول المرضى فيبصرها ويقول: إن مرض صاحب البول الذي في هذه القارورة كذا وكذا. فيقول صاحب المرض: إن هذا الطبيب صادق. ثم صار يقضي حاجة الناس، واجتمعت عليه أهل دمشق وشاع خبره في المدينة وفي بيوت الأكابر. فبينما هو ذات يوم جالس إذ أقبلت عليه عجوز راكبة على حمار، برذعته من الديباج المرصَّع بالجواهر، فوقفت على دكان العجمي وشدَّت لجام الحمار، وأشارت للعجمي وقالت له: أمسك يدي. فأخذ يدها فنزلت من فوق الحمار وقالت: أأنت الطبيب العجمي الذي جئت من العراق؟ قال: نعم. قالت: اعلم أن لي بنتًا وبها مرض. وأخرجت له قارورة، فلما نظر العجمي إلى ما في القارورة قال لها: يا سيدتي، ما اسم هذه الجارية حتى أحسب نجمها، وأعرف أي ساعة يوافقها فيها شرب الدواء؟ فقالت: يا أخا الفرس، اسمها نِعَم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجمي لما سمع اسم نِعَم، جعل يحسب ويكتب على يده، وقال لها: يا سيدتي، ما أصف لها دواء حتى أعرف من أي أرض هي لأجل اختلاف الهواء، فعرِّفيني في أي أرض تربَّت، وكم سنة سنُّها؟ فقالت العجوز: سنُّها أربع عشرة سنة، ومرباها بأرض الكوفة من العراق. فقال: وكم شهرًا لها في هذه الديار؟ فقالت له: أقامت في هذه الديار شهورًا قليلة. فلما سمع نعمة كلام العجوز وعرف اسم جاريته خفق قلبه، فقال لها الأعجمي: يوافقها من الأدوية كذا وكذا. فقالت له العجوز: أعطني ما وصفت على بركة الله تعالى. ورمت له عشرة دنانير على الدكان، فنظر الحكيم إلى نعمة، وأمره أن يهيئ لها عقاقير الدواء، وصارت العجوز تنظر إلى نعمة وتقول: أعيذك بالله يا ولدي، إن شكلها مثل شكلك. ثم قالت العجوز للعجمي: يا أخا الفرس، هل هذا مملوكك أم ولدك؟ فقال لها العجمي: إنه ولدي. ثم إن نعمة وضع لها الحوائج في علبة، وأخذ ورقة وكتب فيها هذين البيتين:

إِذَا أَنْـعَـمَـتْ نُـعْـمٌ عَـلَـيَّ بِـنَـظْـرَةٍ ... فَلَا أَسْعَدَتْ سَعْدَى وَلَا أَجْمَلَتْ جُمْلُ
وَقَالُوا اسْلُ عَنْهَا تُعْطَ عِشْرِينَ مِثْلَهَا ... وَلَيْسَ لَهَا مِثْلٌ وَلَسْتُ لَهَا أَسْلُو

ثم دسَّ الورقة في داخل العلبة وختمها، وكتب على غطاء العلبة بالخط الكوفي: أنا نعمة بن الربيع الكوفي. ثم وضع العلبة قدَّام العجوز، فأخذتها وودَّعتهما وانصرفت متوجِّهة إلى قصر الخليفة، فلما طلعت العجوز بالحوائج إلى الجارية، وضعت الدواء قدامها، ثم قالت لها: يا سيدتي، اعلمي أنه قد أتى إلى مدينتنا طبيب عجمي ما رأيت أحدًا أعرف بأمور الأمراض منه، فذكرتُ له اسمك بعد أن رأى القارورة فعرف مرضك

ووصف دواءك، ثم أمر ولده فشد لك هذا الدواء، وليس في دمشق أجمل ولا أظرف من ولده، ولا أحسن ثيابًا منه، ولا يوجد لأحد دكان مثل دكانه. فأخذَتِ العلبةَ فرأت مكتوبًا على غطائها اسم سيدها واسم أبيه، فلما رأت ذلك تغيَّرَ لونها وقالت: لا شك أن صاحب الدكان أتى في شأني. ثم قالت للعجوز: صفي لي هذا الصبي. فقالت: اسمه نعمة، وعلى حاجبه الأيمن أثر، وعليه ملابس فاخرة، وله حسن كامل. فقالت الجارية: ناوليني الدواء على بركة الله تعالى وعونه. فأخذت الدواء وشربته وهي تضحك، وقالت لها: إنه دواء مبارك. ثم فتَّشت في العلبة فرأت الورقة ففتحتها وقرأتها، فلما فهمت معناها تحقَّقت أنه سيدها، فطابت نفسها وفرحت.

فلما رأتها العجوز قد ضحكت، قالت لها: إن هذا اليوم يوم مبارك. فقالت نِعَم: يا قهرمانة أريد الطعام والشراب. فقالت العجوز للجواري: قدِّمن الموائد والأطعمة الفاخرة لسيدتكن. فقدَّمن إليها الأطعمة، وجلست للأكل، وإذا بعبد الملك بن مروان قد دخل عليهن، ونظر الجارية جالسة وهي تأكل الطعام ففرح، ثم قالت القهرمانة: يا أمير المؤمنين، يهنيك عافية جاريتك نعم، وذلك أنه وصل إلى هذه المدينة رجل طبيب ما رأيت أعرف منه بالأمراض ودوائها، فأتيت لها منه بدواء فتعاطت منه مرة واحدة فحصلت لها العافية يا أمير المؤمنين. فقال أمير المؤمنين: خذي ألف دينار وقومي بإبرائها. ثم خرج وهو فرحان بعافية الجارية، وراحت العجوز إلى دكان العجمي بالألف دينار وأعطته إياها، وأعلمته أنها جارية الخليفة، وناولته ورقة كانت نِعَم قد كتبتها، فأخذها العجمي وناولها لنعمة، فلما رآها عرف خطها فوقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق فتح الورقة فوجد مكتوبًا فيها: من الجارية المسلوبة من نعمتها، المخدوعة في عقلها، المفارقة لحبيب قلبها، أما بعدُ؛ فإنه قد ورد كتابكم عليَّ فشرح الصدر وسرَّ الخاطر، وكان كقول الشاعر:

وَرَدَ الْكِتَابُ فَلَا عُدِمْتَ أَنَامِلًا كَتَبَتْ بِهِ حَتَّى تَضَمَّخَ طِيبَا
فَكَأَنَّ مُوسَى قَدْ أُعِيدَ لِأُمِّهِ أَوْ ثَوْبَ يُوسُفَ قَدْ أَتَى يَعْقُوبَا

فلما قرأ نعمة هذا الشعر هملت عيناه بالدموع، فقالت له القهرمانة: ما الذي يبكيك يا ولدي، لا أبكى الله لك عينًا؟ فقال العجمي: يا سيدتي، كيف لا يبكي ولدي وهذه جاريته وهو سيدها نعمة بن الربيع الكوفي؟ وعافية هذه الجارية مرهونة برؤيته، وليس بها علة إلا هواه … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجمي قال للعجوز: كيف لا يبكي ولدي وهذه جاريته وهو سيدها نعمة بن الربيع الكوفي؟ وعافية هذه الجارية مرهونة برؤيته، وليس لها علة إلا هواه، فخذي أنت يا سيدتي هذه الألف دينار لك، ولك عندي أكثر من ذلك، وانظري لنا بعين الرحمة، ولا نعرف إصلاحَ هذا الأمر إلا منك. فقالت العجوز لنعمة: هل أنت مولاها؟ فقال: نعم. قالت: صدقت، فإنها لا تفتر عن ذكرك. فأخبرها نعمة بما قد جرى له من الأول إلى الآخر، فقالت العجوز: يا غلام، لا تعرف اجتماعك بها إلا مني. ثم ركبت وعادت من وقتها ودخلت على الجارية، فنظرت في وجهها وضحكت وقالت لها: يحق لك يا بنتي أن تبكي وتمرضي من أجل فراق سيدك نعمة بن الربيع الكوفي. فقالت نِعَم: قد انكشف لك الغطاء وظهر لك الحق. فقالت لها العجوز: طيبي نفسًا وانشرحي صدرًا، فوالله لأجمعن بينكما ولو كان في ذلك ذهاب روحي. ثم إنها رجعت إلى نعمة وقالت له: إني رجعت لجاريتك واجتمعت بها، فوجدت عندها من الشوق إليك أكثر مما عندك لها، وذلك أن أمير المؤمنين يريد أن يجتمع بها وهي تمتنع منه، فإن كان لك جنان ثابت وقوة قلب، فأنا أجمع بينكما وأخاطر بنفسي معكما، وأدبِّر حيلة وأعمل مكيدة في دخولك قصر أمير المؤمنين حتى تجتمع بالجارية، فإنها ما تقدر أن تخرج. فقال لها نعمة: جزاكِ الله خيرًا.

ثم ودَّعته وذهبت إلى الجارية، وقالت لها: إن سيدك قد ذهبت روحه في هواك، وهو يريد الاجتماع بك، فما تقولين في ذلك؟ فقالت نِعَم: وأنا كذلك قد ذهبت روحي، وأريد الاجتماع به. فعند ذلك أخذت العجوز بقجة فيها حلي ومصاغ وبدلة من ثياب النساء، وتوجَّهت إلى نعمة، وقالت له: ادخل بنا مكانًا وحدنا. فدخل معها قاعة خلف الدكان، ونقشته وزيَّنت معاصمه، وزوَّقت شعره، وألبسته لباس جارية، وزيَّنته بأحسن ما تتزين

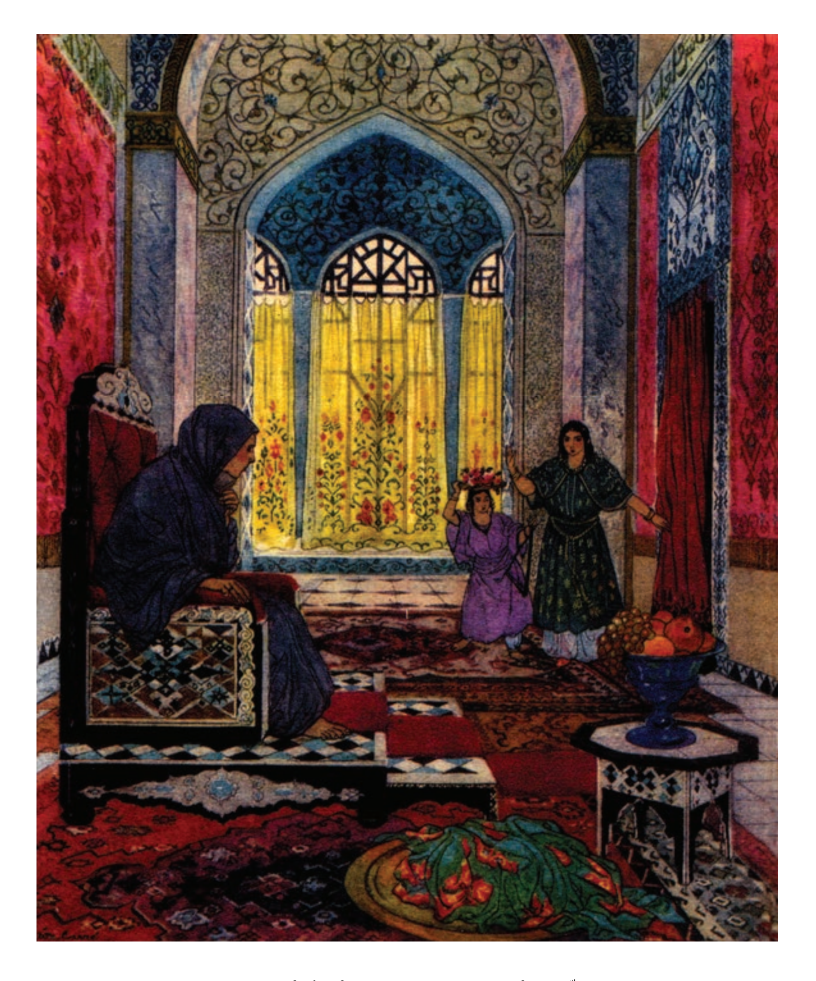
به الجواري؛ فصار كأنه من حور الجنان، فلما رأته القهرمانة في تلك الصفة قالت: تبارك الله أحسن الخالقين، والله إنك لأحسن من الجارية. ثم قالت له: امشِ وقدِّم الشمال وأخِّر اليمين، وهزَّ أردافك. فمشى قدَّامها كما أمرته، فلما رأته قد عرف مشي النساء، قالت له: امكث حتى آتيك ليلة غد إن شاء الله تعالى فآخذك وأدخل بك القصر، وإذا نظرت الحجَّاب والخدامين فقوِّ عزمك، وطأطئ رأسك، ولا تتكلم مع أحد، وأنا أكفيك كلامهم، وبالله التوفيق.

فلما أصبح الصباح أتته القهرمانة في ثاني يوم، وأخذته وطلعت به القصر ودخلت قدامه، ودخل هو وراءها في إثرها، فأراد الحاجب أن يمنعه من الدخول فقالت له: يا أنحس العبيد، إنها جارية نِعَم محظية أمير المؤمنين، فكيف تمنعها من الدخول؟ ثم قالت: ادخلي يا جارية. فدخل مع العجوز، ولم يزالا داخلين إلى الباب الذي يُتوصَّل منه إلى صحن القصر، فقالت له العجوز: يا نعمة، قوِّ نفسك وثبِّت قلبك، وادخل القصر، وخذ على شمالك، وعد خمسة أبواب، وادخل الباب السادس، فإنه باب المكان المعد لك، ولا تَخَفْ، وإذا كلَّمك أحد فلا تتكلم معه. ثم سارت به حتى وصلت إلى الأبواب، فقابَلَها الحاجبُ المعدُّ لتلك الأبواب، وقال لها: ما هذه الجارية؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحاجب قابل العجوز وقال لها: ما هذه الجارية؟ فقالت له العجوز: إن سيدتنا تريد اشتراءها. فقال الخادم: ما يدخل أحد إلا بإذن أمير المؤمنين، فارجعي فإني لا أخلِّيها تدخل؛ لأنني أُمِرت بهذا. فقالت له القهرمانة: أيها الحاجب الكبير، أين عقلك؟ إن نِعَم جارية الخليفة الذي قلبه متعلِّق بها قد توجَّهت إليها العافية، وما صدق أمير المؤمنين بعافيتها، وتريد اشتراء هذه الجارية فلا تمنعها من الدخول لئلا يبلغها أنك منعتها فتغضب عليك، وإنْ غضبَتْ عليك تسبَّبت في قطع رأسك. ثم قالت: ادخلي يا جارية، ولا تسمعي كلامه، ولا تخبري سيدتك أن الحاجب منعك من الدخول. فطأطأ نعمة رأسه ودخل القصر، وأراد أن يمشي إلى جهة يساره فغلط ومشى إلى جهة يمينه، وأراد أن يعد خمسة أبواب ويدخل السادس، فعدَّ ستة ودخل السابع. فلما دخل في ذلك الباب رأى موضعًا مفروشًا بالديباج، وحيطانه عليها ستائر الحرير المرقومة بالذهب، وفيه مباخر العود والعنبر والمسك الأذفر، ورأى سريرًا في الصدر مفروشًا بالديباج، فجلس عليه نعمة ولم يعلم بما كُتِب له في الغيب.

فبينما هو جالس متفكر في أمره، إذ دخلت عليه أخت أمير المؤمنين ومعها جاريتها، فلما رأت الغلام جالسًا ظنَّتْه جارية، فتقدَّمت إليه وقالت له: مَن تكونين يا جارية؟ وما خبرك؟ وما سبب دخولك هذا المكان؟ فلم يتكلم نعمة، ولم يردَّ عليها جوابًا، فقالت: يا جارية، إنْ كنتِ من محاظي أخي وقد غضب عليك، فأنا أستعطفه عليك. فلم يرد نعمة عليها جوابًا؛ فعند ذلك قالت لجاريتها: قفي على باب المجلس ولا تدعي أحدًا يدخل. ثم تقدَّمت إليه ونظرت إلى جماله، وقالت: يا صبية، عرِّفيني مَن تكونين؟ وما اسمك؟ وما سبب دخولك هنا؟ فإني لم أنظرك في قصرنا. فلم يرد نعمة عليها جوابًا، فعند ذلك غضبت أخت الملك ووضعت يدها على صدر نعمة فلم تجد له نهودًا، فأرادت أن تكشف



وبينما هو جالسٌ مُتفكِّرٌ في أمره، إذ دخلت عليه أختُ أمير المؤمنين ومعها جاريتها.

ثيابه لتعلم خبره، فقال لها نعمة: يا سيدتي، أنا مملوك فاشتريني، وأنا مستجير بك فأجيريني. فقالت له: لا بأس عليك، فمَن أنت؟ ومَن أدخلك مجلسي هذا؟ فقال لها نعمة: أنا أيتها الملكة أُعرَف بنعمة بن الربيع الكوفي، وقد خاطرت بروحي لأجل جاريتي نِعَم التي احتال عليها الحجاج وأخذها وأرسلها إلى هنا. فقالت له: لا بأس عليك. ثم صاحت على جاريتها، وقالت لها: امضي إلى مقصورة نِعَم. وقد كانت القهرمانة أتت إلى مقصورة

نِعَم، وقالت لها: هل وصل إليك سيدك؟ فقالت: لا والله. فقالت القهرمانة: لعله غلط فدخل مقصورة غير مقصورتك، وتاه عن مكانك. فقالت نِعَم: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قد فرغ أجلنا وهلكنا. وجلستا متفكرتين.

فبينما هما كذلك إذ دخلت عليهما جارية أخت الخليفة، فسلمت على نِعَم وقالت لها: إن مولاتي تدعوك إلى ضيافتها. فقالت: سمعًا وطاعة. فقالت القهرمانة: لعل سيدك عند أخت الخليفة، وقد انكشف الغطاء. فنهضت نِعَم من وقتها وساعتها حتى دخلت على أخت الخليفة، فقالت لها: هذا مولاك جالس عندي، وكأنه غلط في المكان، وليس عليك ولا عليه خوف إن شاء الله تعالى. فلما سمعت نِعَم هذا الكلام من أخت الخليفة اطمأنت نفسها، وتقدَّمت إلى مولاها نعمة، فلما نظرها قام إليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نعمة لما نظر إلى جاريته نعم قام إليها، وضمَّ كلٌّ واحد منهما صاحبه إلى صدره، ثم وقعا على الأرض مغشيًّا عليهما. فلما أفاقا قالت لهما أخت الخليفة: اجلسا حتى نتدبر في الخلاص من الأمر الذي وقعنا فيه. فقالا لها: سمعًا وطاعة، والأمر لك. فقالت: والله ما ينالكما منا سوء أبدًا. ثم قالت لجاريتها: أحضري الطعام والشراب. فأحضرت ذلك فأكلوا بحسب الكفاية، ثم جلسوا يشربون، فدارت عليهم الأقداح، وزالت عنهم الأتراح، فقال نعمة: ليت شعري بعد ذلك ما يكون. فقالت له أخت الخليفة: نعمة، هل تحب نِعم جاريتك؟ فقال لها: يا سيدتي، إن هواها هو الذي حملني على ما أنا فيه من المخاطرة بروحي. ثم قالت لنِعم: يا نِعم هل تحبين سيدك نعمة؟ قالت: يا سيدتي، إن هواه هو الذي أذاب جسمي وغيَّر حالي. فقالت: والله إنكما متحابان، فلا كان مَن يفرِّق بينكما، فقرَّا عينًا وطيبَا نفسًا. ففرحا بذلك، وطلبت نِعم عودًا فأحضروه لها، فأخذته وأصلحته، وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

وَلَمَّا أَبَى الْوَاشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارِ
وَشَنُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلَّ غَارَةٍ وَقَلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
غَزَوْتُهُمُ مِنْ مُقْلَتَيْكَ وَأَدْمُعِي وَمِنْ نَفَسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ

ثم إن نِعمًا أعطت العود لسيدها نعمة وقالت له: غنِّ لنا شعرًا. فأخذه وأصلحه، وأطرب بالنغمات، ثم أنشد هذه الأبيات:

الْبَدْرُ يَحْكِيكِ لَوْلَا أَنَّهُ كَلَفٌ وَالشَّمْسُ مِثْلُكِ لَوْلَا الشَّمْسُ تَنْكَسِفُ
إِنِّي عَجِبْتُ وَكَمْ فِي الْحُبِّ مِنْ عَجَبٍ فِيهِ الْهُمُومُ وَفِيهِ الْوَجْدُ وَالْكَلَفُ
أَرَى الطَّرِيقَ قَرِيبًا حِينَ أَسْلُكُهُ إِلَى الْحَبِيبِ بَعِيدًا حِينَ أَنْصَرِفُ

فلما فرغ من شعره ملأت له قدحًا وناولته إياه، فأخذه وشربه، ثم ملأت قدحًا آخر وناولته لأخت الخليفة فشربته، وأخذت العود وأصلحته وشدت أوتاره، وأنشدت هذين البيتين:

غَمٌّ وَحُزْنٌ فِي الْفُؤَادِ مُقِيمُ وَجَوًى تَرَدَّدَ فِي حَشَايَ عَظِيمُ
وَنُحُولُ جِسْمٍ قَدْ تَبَدَّى ظَاهِرًا فَالْجِسْمُ مِنِّي بِالْغَرَامِ سَقِيمُ

ثم ناولت العود لنعمة بن الربيع، فأخذه وأصلح أوتاره، وأنشد هذين البيتين:

يَا مَنْ وَهَبْتُ لَهُ رُوحِي فَعَذَّبَهَا وَرُمْتُ تَخْلِيصَهَا مِنْهُ فَلَمْ أُطِقِ
دَارِكْ مُحِبًّا بِمَا يُنْجِيهِ مِنْ تَلَفٍ قَبْلَ الْمَمَاتِ فَهَذَا آخِرُ الرَّمَقِ

ولم يزالوا ينشدون الأشعار ويشربون على نغمات الأوتار، وهم في لذة وحبور وفرح وسرور. فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أمير المؤمنين، فلما نظروه قاموا إليه وقبَّلوا الأرض بين يديه، فنظر إلى نِعم والعود معها، فقال: يا نِعم، الحمد لله الذي أذهب عنك البأس والوجع. ثم التفت إلى نعمة وهو على تلك الحالة، وقال: يا أختي، مَن هذه الجارية التي في جانب نِعم؟ فقالت له أخته: يا أمير المؤمنين، إن هذه جارية من المحاظي أنيسة، لا تأكل نِعم ولا تشرب إلا وهي معها. ثم أنشدت قول الشاعر:

ضِدَّانِ وَاجْتَمَعَا افْتِرَاقًا فِي الْبَهَا وَالضِّدُّ يَظْهَرُ حُسْنُهُ بِالضِّدِّ

فقال الخليفة: والله العظيم إنها مليحة مثلها، وفي غد أخلي لها مجلسًا بجانب مجلسها، وأُخرِج لها الفرش والقماش، وأنقل إليها جميع ما يصلح لها إكرامًا لنِعم. واستدعت أخت الخليفة بالطعام فقدَّمته لأخيها، فأكل وجلس معهم في تلك الحضرة، ثم ملأ قدحًا وأومأ إلى نِعم أن تنشد له شيئًا من الشعر، فأخذت العود بعد أن شربت قدحين، وأنشدت هذين البيتين:

إِذَا مَا نَدِيمِي عَلَّنِي ثُمَّ عَلَّنِي ثَلَاثَةَ أَقْدَاحٍ لَهُنَّ هَدِيرُ
أَبِيتُ أَجُرُّ الذَّيْلَ تِيهًا كَأَنَّنِي عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ

فطرب أمير المؤمنين، وملأ قدحًا آخر وناوله إلى نِعم، وأمرها أن تغني، فبعد أن شربت القدح جست الأوتار، وأنشدت هذه الأبيات:

يَا أَشْرَفَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَمَا ... لَـهُ مَـثِـيـلٌ بِـهَـذَا الْأَمْـرِ يَـفْـتَـخِـرُ
يَا وَاحِدًا فِي الْعُلَا وَالْجُودِ مَنْصِبُهُ ... يَا سَيِّدًا مَلِكًا فِي الْكُلِّ مُشْتَهَرُ
يَا مَالِكًا لِمُلُوكِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً ... تُعْطِي الْجَزِيلَ وَلَا مَنٌّ وَلَا ضَجَرُ
أَبْقَاكَ رَبِّي عَلَى رَغْمِ الْعِدَا كَمَدًا ... وَزَانَ طَـالِـعَـكَ الْإِقْـبَـالُ وَالـظَّـفْـرُ

فلما سمع الخليفة من نِعم هذه الأبيات قال لها: لله درك يا نِعم! ما أفصح لسانك وأوضح بيانك! ولم يزالوا في فرح وسرور إلى نصف الليل، ثم قالت أخت الخليفة: اسمع يا أمير المؤمنين، إني رأيت حكاية في الكتب عن بعض أرباب المراتب. قال الخليفة: وما تلك الحكاية؟ فقالت له أخته: اعلم يا أمير المؤمنين أنه كان بمدينة الكوفة صبي يُسمَّى نعمة بن الربيع، وكان له جارية يحبها وتحبه، وكانت قد تربت معه في فراش واحد، فلما بلغا وتمكَّن حبهما من بعضهما رماهما الدهر بنكباته، وجار عليهما الزمان بآفاته، وحكم عليهما بالفراق، وتحيَّلت عليهما الوشاة حتى خرجت من داره، وأخذوها سرقةً من مكانه، ثم إن سارِقَها باعَهَا لبعض الملوك بعشرة آلاف دينار، وكان عند الجارية لمولاها من المحبة مثل ما عنده لها؛ ففارق أهله وداره وسافر في طلبها، وتسبَّب في اجتماعه بها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نعمة لم يزل مفارقًا لأهله ووطنه، وخاطر بنفسه، وبذل مهجته حتى توصَّل إلى اجتماعه بجاريته، وكان يقال لها نِعم، فلما اجتمع بها لم يستقر بهما الجلوس حتى دخل عليهما الملك الذي كان اشتراها من الذي سرقها؛ فعجل عليهما وأمر بقتلهما، ولم ينصف من نفسه، ولم يمهل عليهما في حكمه؛ فما تقول يا أمير المؤمنين في قلة إنصاف هذا الملك؟ فقال أمير المؤمنين: إن هذا الشيء عجاب، فكان ينبغي لذلك الملك العفو عند المقدرة؛ لأنه يجب عليه أن يحفظ لهما ثلاثة أشياء؛ الأول: أنهما متحابان، والثاني: أنهما في منزله وتحت قبضته، والثالث: أن الملك ينبغي له التأني في الحكم بين الناس، فكيف بالأمر الذي يتعلق به؟ فهذا الملك قد فعل فعلًا لا يشبه فعل الملوك. فقالت له أخته: يا أخي، بحق ملك السموات والأرض أن تأمر نِعمًا بالغناء وتسمع ما تغني به. فقال: يا نِعم، غنِّ لي. فأطربت بالنغمات، وأنشدت هذه الأبيات:

غَدَرَ الزَّمَانُ وَلَمْ يَزَلْ غَدَّارَا يُصْحِي الْقُلُوبَ وَيُورِثُ الْأَفْكَارَا
وَيُفَرِّقُ الْأَحْبَابَ بَعْدَ تَجَمُّعٍ فَتَرَى الدُّمُوعَ عَلَى الْخُدُودِ غِزَارَا
كَانُوا وَكُنْتُ وَكَانَ عَيْشِي نَاعِمًا وَالدَّهْرُ يَجْمَعُ شَمْلَنَا مِدْرَارَا
فَلَأَبْكِيَنَّ دَمًا وَدَمْعًا سَاجِمًا أَسَفًا عَلَيْكَ لَيَالِيًا وَنَهَارَا

فلما سمع أمير المؤمنين هذا الشعر طرب طربًا عظيمًا، فقالت له أخته: يا أخي، مَن حكم على نفسه بشيء لزمه القيام به، والعمل بقوله، وأنت قد حكمت على نفسك بهذا الحكم. ثم قالت: يا نعمة، قف على قدميك، وكذا قفي أنت يا نِعم. فوقفَا، فقالت أخت

الخليفة: يا أمير المؤمنين، إن هذه الواقفة هي نِعم المسروقة، سرقها الحجاج بن يوسف الثقفي وأوصلها لك، وكذب فيما ادَّعاه من كتابه من أنه اشتراها بعشرة آلاف دينار، وهذا الواقف هو نعمة بن الربيع سيدها، وأنا أسألك بحرمة آبائك الطاهرين أن تعفو عنهما، وتهبهما لبعضهما؛ لتغنم أجرهما، فإنهما في قبضتك، وقد أكلا من طعامك وشربَا من شرابك، وأنا الشفيعة فيهما المستوهبة دمهما. فعند ذلك قال الخليفة: صدقتِ، أنا حكمت بذلك، وما أحكم بشيء وأرجع فيه. ثم قال: يا نِعم، هل هذا مولاكِ؟ قالت له: نَعَم يا أمير المؤمنين. فقال: لا بأس عليكما، فقد وهبتكما لبعضكما. ثم قال: يا نعمة، وكيف عرفتَ بمكانها؟ ومَن وصف لك هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين، اسمع خبري وأنصت إلى حديثي، فوحق آبائك وأجدادك الطاهرين لا أكتم عنك شيئًا. ثم حدثه بجميع ما كان من أمره، وما فعله معه الحكيم العجمي، وما فعلته القهرمانة، وكيف دخلت به القصر وغلط في الأبواب؛ فتعجب الخليفة من ذلك غاية العجب، ثم قال: عليَّ بالعجمي. فأحضروه بين يديه فجعله من جملة خواصه، وخلع عليه خلعة، وأمر له بجائزة مليحة، وقال: مَن يكون هذا تدبيره يجب أن نجعله من خواصنا.

ثم إن الخليفة أحسن إلى نعمة ونِعم وأنعم عليهما، وأنعم على القهرمانة، وقعدا عنده سبعة أيام في سرور وحظ وأرغد عيش، ثم طلب نعمة منه الإذن بالسفر هو وجاريته، فأذن لهما بالسفر إلى الكوفة. فسافرَا واجتمع بوالده ووالدته، وأقاموا في أطيب عيش إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات. فلما سمع الأمجد والأسعد هذا الحديث من بهرام، تعجَّبَا منه غاية العجب، وقالا: إن هذا لشيء عجيب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد والأسعد لما سمعا من بهرام المجوسي الذي أسلم هذه الحكاية، تعجَّبَا منها غاية العجب، وباتا تلك الليلة، ولما أصبح الصباح ركب الأمجد والأسعد، وأرادا أن يدخلا على الملك فاستأذنا في الدخول فأذن لهما، فلما دخلا أكرمهما، وجلسوا يتحدثون. فبينما هم كذلك، وإذا بأهل المدينة يصيحون ويتصارخون ويستغيثون، فدخل الحاجب على الملك وقال له: إن ملكًا من الملوك نزل بعساكره على المدينة وهم شاهرون السلاح، وما ندري ما مرادهم. فأخبر الملك وزيره الأمجد وأخاه الأسعد بما سمعه من الحاجب، فقال الأمجد: أنا أخرج إليه وأكشف خبره. فخرج الأمجد إلى ظاهر المدينة فوجد الملك ومعه عسكر كثير ومماليك راكبة، فلما نظروا إلى الأمجد عرفوا أنه رسول من عند ملك المدينة، فأخذوه وأحضروه قدَّام السلطان، فلما صار قدامه قبَّل الأرض بين يديه، وإذا بالملك امرأة ضاربة لها لثامًا، فقالت: اعلم أنه ما لي عندكم غرض في هذه المدينة إلا مملوك أمرد، فإن وجدتُه عندكم فلا بأس عليكم، وإن لم أجده وقع بيني وبينكم القتال الشديد؛ لأنني ما جئت إلا في طلبه. فقال الأمجد: أيتها الملكة، ما صفة هذا المملوك؟ وما خبره؟ وما اسمه؟ فقالت: اسمه الأسعد، وأنا اسمي مرجانة، وهذا المملوك جاءني صحبة بهرام المجوسي، وما رضي أن يبيعه، فأخذته منه غصبًا فعدا عليه وأخذه من عندي بالليل سرقةً، وأما أوصافه فإنها كذا وكذا.

فلما سمع الأمجد ذلك علم أنه أخوه الأسعد، فقال لها: يا ملكة الزمان، الحمد لله الذي جاءنا بالفرج، إن هذا المملوك هو أخي. ثم حكى لها حكايته وما جرى لهما في بلاد الغربة، وأخبرها بسبب خروجهما من جزائر الأبنوس، فتعجَّبت الملكة مرجانة من ذلك، وفرحت بلقاء الأسعد، وخلعت على أخيه الأمجد. ثم بعد ذلك عاد الأمجد إلى الملك وأعلمه

بما جرى؛ ففرحوا بذلك، ونزل الملك هو والأمجد والأسعد قاصدين الملكة، فلما دخلوا عليها جلسوا يتحدثون.

فبينما هم كذلك، وإذا بغبار طار حتى سدَّ الأقطار، وبعد ساعة انكشف ذلك الغبار عن عسكر جرَّار، مثل البحر الزخَّار، وهم مُهيَّئون بالعُدد والسلاح، فقصدوا المدينة، ثم داروا بها كما يدور الخاتم بالخنصر، وشهروا سيوفهم، فقال الأمجد والأسعد: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما هذا الجيش الكبير؟ إن هذه أعداء لا محالة، وإن لم نتفق مع هذه الملكة مرجانة على قتالهم أخذوا منا المدينة وقتلونا، وليس لنا حيلة إلا أننا نخرج إليهم ونكشف خبرهم. ثم قام الأمجد وخرج من باب المدينة، وتجاوز جيش الملكة مرجانة، فلما وصل إلى العسكر وجده عسكر جدِّه الملك الغيور أبي أمه الملكة بدور. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد لما وصل إلى العسكر وجده عسكر جدِّه الملك الغيور، صاحب الجزائر والبحور والسبعة قصور، فلما صار قدَّامه قبَّل الأرض بين يديه وبلَّغه الرسالة. قال الملك: أنا اسمي الملك الغيور، وقد جئت عابر سبيل؛ لأن الزمان قد فجعني في ابنتي بدور، فإنها فارقتني وما رجعت إليَّ، وما سمعت لها ولا لزوجها قمر الزمان خبرًا، فهل عندكم خبر بهما؟ فلما سمع الأمجد ذلك أطرق إلى الأرض ساعة يتفكر حتى تحقق أنه جده أبو أمه، ثم رفع رأسه، وقبَّل الأرض بين يديه، وأخبره أنه ابن بنته بدور؛ فلما سمع الملك أنه ابن بنته بدور، رمى نفسه عليه وصارا يبكيان، ثم قال الملك الغيور: الحمد لله يا ولدي على السلامة حيث اجتمعتُ بك. ثم حكى له الأمجد أن ابنته بدور في عافية، وكذلك أبوه قمر الزمان، وأخبره أنهما في مدينة يقال لها جزيرة الأبنوس، وحكى له أن قمر الزمان والده غضب عليه وعلى أخيه وأمر بقتلهما، وأن الخازندار رقَّ لهما وتركهما بلا قتل، فقال الملك الغيور: أنا أرجع بك وبأخيك إلى والدك وأصلح بينكم وأقيم عندكم. فقبَّل الأرض بين يديه، ثم خلع الملك الغيور على الأمجد ابن بنته، ورجع مبتسمًا إلى الملك وأعلمه بقصة الملك الغيور، فتعجب منها غاية العجب، ثم أرسل له آلات الضيافة من الخيل والجمال والغنم والعليق وغير ذلك، وأخرج للملكة مرجانة كذلك، وأعلموها بما جرى، فقالت: أنا اذهب معكم بعسكري وأكون ساعية في الصلح.

فبينما هم كذلك، وإذا بغبار قد ثار حتى سدَّ الأقطار، واسودَّ منه النهار، وسمعوا من تحته صياحًا وصراخًا وصهيل الخيل، ورأوا سيوفًا تلمع ورماحًا تشرع، فلما قربوا من المدينة ورأوا العسكرين دقوا الطبول، فلما رأى الملك ذلك قال: ما هذا النهار إلا نهار مبارك، الحمد لله الذي أصلحنا مع هذين العسكرين، وإن شاء الله تعالى يصلحنا مع هذا العسكر أيضًا. ثم قال: يا أمجد، اخرج أنت وأخوك الأسعد، واكشفا لنا خبر هذه

العساكر، فإنه جيش ثقيل ما رأيت أثقل منه. فخرج الاثنان الأمجد وأخوه الأسعد بعد أن أغلق الملك باب المدينة خوفًا من العسكر المحيط بها، ففتحا الأبواب وسارا حتى وصلا إلى العسكر الذي وصل؛ فوجداه عسكر ملك جزائر الأبنوس، وفيه والدهما قمر الزمان، فلما نظراه قبَّلا الأرض بين يديه وبكيا، فلما رآهما قمر الزمان رمى روحه عليهما، وبكى بكاءً شديدًا، واعتذر لهما وضمَّهما إلى صدره، ثم أخبرهما بما قاساه بعدهما من الوحشة الشديدة لفراقهما. ثم إن الأمجد والأسعد ذكرَا له عن الملك الغيور أنه وصل إليهم، فركب قمر الزمان في خواصه، وأخذ ولديه الأمجد والأسعد معه، وساروا حتى وصلوا إلى قرب عسكر الملك الغيور، فسبق واحد منهم إلى الملك الغيور وأخبره أن قمر الزمان وصل، فطلع إلى ملاقاته، فاجتمعوا ببعضهم وتعجَّبوا من هذه الأمور، وكيف اجتمعوا في هذا المكان، وصنع أهل المدينة الولائم وأنواع الأطعمة والحلويات، وقدَّموا الخيول والجمال، والضيافات والعليق، وما تحتاج إليه العساكر.

فبينما هم كذلك، وإذا بغبار قد ثار حتى سدَّ الأقطار، وارتجَّت الأرض من الخيول، وصارت الطبول كعواصف الرياح، والجيش جميعه بالعدد والأزراد، وكلهم لابسون السواد، وفي وسطهم شيخ كبير، وذقنه واصلة إلى صدره، وعليه ملابس سود، فلما نظر أهل المدينة هذه العساكر العظيمة، قال صاحب المدينة للملوك: الحمد لله الذي اجتمعتم بإذنه تعالى في يوم واحد، وطلعتم كلكم معارف، فما هذا العسكر الجرار الذي قد سدَّ الأقطار؟ فقال له الملوك: لا تخف منه، فنحن ثلاثة ملوك، وكل ملك له عساكر كثيرة، فإن كانوا أعداء نقاتلهم معك، ولو زادوا ثلاثة أمثالهم.

فبينما هم كذلك وإذا برسول من تلك العساكر قد أقبل متوجهًا إلى هذه المدينة، فقدَّموه بين يدي قمر الزمان والملك الغيور والملكة مرجانة والملك صاحب المدينة؛ فقبل الأرض وقال: إن هذا الملك من بلاد العجم، وقد فقد ولده من مدة سنين، وهو دائر يفتش عليه في الأقطار، فإن وجده عندكم فلا بأس عليكم، وإن لم يجده وقع الحرب بينه وبينكم، وأخرب مدينتكم. فقال له قمر الزمان: ما يصل إلى هذا، ولكن ما يقال له في بلاد العجم؟ فقال الرسول: يقال له الملك شهرمان صاحب جزائر خالدان، وقد جمع هذه العساكر من الأقطار التي مر بها وهو دائر يفتش على ولده.

فلما سمع قمر الزمان كلام الرسول صرخ صرخة عظيمة، وخرَّ مغشيًّا عليه، واستمر في غشيته ساعة، ثم أفاق وبكى بكاءً شديدًا، وقال للأمجد والأسعد وخواصهما: امشوا يا أولادي مع الرسول، وسلِّموا على جدِّكم والدي الملك شهرمان، وبشِّروه بي؛ فإنه حزين

على فَقْدي، وهو إلى الآن لابس الملابس السود من أجلي. ثم حكى للملوك الحاضرين جميع ما جرى له في أيام صباه؛ فتعجب جميع الملوك من ذلك، ثم نزلوا هم وقمر الزمان وتوجَّهوا إلى والده، فسلم قمر الزمان على والده وعانقا بعضهما ووقعا مغشيًّا عليهما من شدة الفرح، فلما أفاقا حكى لابنه جميع ما جرى له، ثم سلَّم عليه بقية الملوك، وردُّوا مرجانة إلى بلادها بعد أن زوَّجوها للأسعد، ووصوها أنها لا تقطع عنهم مراسلتها، ثم زوَّجوا الأمجد بستان بنت بهرام، وسافروا كلهم إلى مدينة الأبنوس، وخلا قمر الزمان بصهره، وأعلمه بجميع ما جرى له، وكيف اجتمع بأولاده، ففرح وهنَّأه بالسلامة. ثم دخل الملك الغيور أبو الملكة بدور على بنته وسلَّم عليها، وبلَّ شوقه منها، وقعدوا في مدينة الأبنوس شهرًا كاملًا، ثم سافر الملك الغيور بابنته إلى بلده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٤٩

حكاية علاء الدين أبي الشامات

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك الغيور سافر بابنته وجماعته إلى بلده، وأخذ الأمجد معهم، فلما استقر في مملكته أجلس الأمجد يحكم مكان جده، وأما قمر الزمان فإنه أجلس ابنه الأسعد يحكم مكانه في مدينة جده أرمانوس، ورضي به جدُّه، ثم تجهز قمر الزمان وسافر مع أبيه الملك شهرمان إلى أن وصل إلى جزائر خالدان، فزُيِّنت له المدينة واستمرت البشائر تدق شهرًا كاملًا، وجلس قمر الزمان يحكم مكان أبيه إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات، والله أعلم.

فقال الملك: يا شهرزاد، إن هذه الحكاية عجيبة جدًّا. قالت: أيها الملك، ليست هذه الحكاية بأعجب من حكاية علاء الدين أبي الشامات. قال: وما حكاية علاء الدين أبي الشامات؟

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان رجل تاجر بمصر يقال له شمس الدين، وكان من أحسن التجار، وأصدقهم مقالًا، وهو صاحب خدم وحشم، وعبيد وجوارٍ ومماليك ومال كثير، وكان شاه بندر التجار بمصر، وكان معه زوجة يحبها وتحبه، إلا أنه عاش معها أربعين عامًا ولم يُرزَق منها ببنت ولا ولد، فقعد يومًا من الأيام في دكانه فرأى التجار وكل واحد منهم له ولد أو ولدان أو أكثر، وهم قاعدون في دكاكين مثل آبائهم، وكان ذلك اليوم يوم جمعة، فدخل ذلك التاجر الحمام واغتسل غسل الجمعة، ولما طلع أخذ مرآة المزين فرأى وجهه فيها، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. ثم نظر إلى لحيته فرأى البياض غطَّى السواد، وتذكر أن الشيب نذير الموت، وكانت زوجته تعرف ميعاد مجيئه، فتغتسل وتصلح شأنها له،

فدخل عليها، فقالت له: مساء الخير. فقال لها: أنا ما رأيت الخير. وكانت قالت للجارية: هاتي سفرة العشاء. فأحضرت الطعام وقالت له: تعشَّ يا سيدي. فقال لها: ما آكل شيئًا. وأعرض عن السفرة بوجهه، فقالت له: ما سبب ذلك؟ وأي شيء أحزنك؟ فقال لها: أنتِ سبب حزني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شمس الدين قال لزوجته: أنتِ سبب حزني. فقالت له: لأي شيء؟ فقال لها: إني لما فتحت دكاني في هذا اليوم، رأيت كل واحد من التجار له ولد أو ولدان أو أكثر، وهم قاعدون في الدكاكين مثل آبائهم، فقلت لنفسي: إن الذي أخذ أباك ما يخليك، وليلةَ دخلتُ بكِ حلَّفتِني أنني ما أتزوج عليك، ولا أتسرى بجارية حبشية ولا رومية ولا غير ذلك من الجواري، ولا أبيت ليلة بعيدًا عنك، والحال أنك عاقر، والنكاح فيك كالنحت في الحجر. فقالت: اسم الله عليَّ، إن العاقة منك ما هي مني؛ لأن بيضك رائق. فقال لها: وما شأن الذي بيضه رائق؟ فقالت: هو الذي لا يحبل النساء، ولا يجيء بأولاد. فقال لها: وأين معكِّر البيض وأنا أشتريه لعله يعكِّر بيضي؟ فقالت له: فتِّش عليه عند العطارين.

فبات التاجر وأصبح متندمًا حيث عاير زوجته، وندمت هي حيث عايرته. ثم توجَّهَ إلى السوق فوجد رجلًا عطارًا، فقال له: السلام عليكم. فردَّ عليه السلام، فقال له: هل يوجد عندك معكِّر البيض؟ فقال له: كان عندي وجبر، ولكن اسأل جاري. فدار يسأل حتى سأل جميع العطارين، وهم يضحكون عليه، وبعد ذلك رجع إلى دكانه وقعد، فكان في السوق نقيب الدلالين، وكان رجلًا حشاشًا يتعاطى الأفيون والبرش، ويستعمل الحشيش الأخضر، وكان ذلك النقيب يُسمَّى الشيخ محمد سمسم، وكان فقير الحال، وكان من عادته أن يصبِّح على التاجر في كل يوم، فجاءه على عادته وقال له: السلام عليكم. فردَّ عليه السلام وهو مغتاظ، فقال له: يا سيدي ما لك مغتاظًا؟ فحكى له جميع ما جرى بينه وبين زوجته، وقال له: إن لي أربعين سنة وأنا متزوج بها، ولم تحبل مني بولد ولا ببنت، وقالوا لي: سبب عدم حبلها منك أن بيضك رائق، ففتشت على شيء أعكِّر به بيضي فلم أجده. فقال له: يا سيدي، أنا عندي معكِّر البيض، فما تقول فيمَن يجعل زوجتك

تحبل منك بعد هذه الأربعين سنة التي مضت؟ قال له التاجر: إن فعلتَ ذلك فأنا أُحْسِنُ إليك وأُنعِم عليك. فقال له: هاتِ لي دينارًا. فقال له: خذ هذين الدينارين. فأخذهما وقال له: هاتِ هذه السلطانية الصيني. فأعطاه السلطانية فأخذها وتوجَّه إلى بيَّاع الحشيش، وأخذ منه من المكركر الرومي قدر أوقيتين، وأخذ جانبًا من الكبابة الصيني، والقرفة، والقرنفل، والحبهان، والزنجبيل، والفلفل الأبيض، والسقنقور الجبلي، ودق الجميع وغلاها في الزيت الطيب، وأخذ ثلاث أواقي حصى لبان ذكر، وأخذ مقدار قدح من الحبة السوداء ونقعه، وعمل جميع ذلك معجونًا بالعسل النحلي، وحطَّه في السلطانية ورجع بها إلى التاجر وأعطاها له، وقال له: هذا معكِّر البيض، فينبغي أن تأخذ منه على رأس الملوق بعد أن تأكل اللحم الضاني، والحمام البيتي، وتكثر له الحرارات والبهارات، وتتعشى وتشرب السكر المكرر.

فأحضر التاجر جميع ذلك، وأرسله إلى زوجته، وقال لها: اطبخي ذلك طبخًا جيدًا، وخذي معكر البيض، واحفظيه عندك حتى أطلبه. ففعلت ما أمرها به، ووضعت له الطعام فتعشى، ثم إنه طلب السلطانية فأكل منها فأعجبته، فأكل بقيتها وواقَعَ زوجته؛ فعلقت منه تلك الليلة، ففات عليها أول شهر والثاني والثالث ولم ينزل عليها الدم؛ فعلمت أنها حملت، ثم وفت أيام حملها ولحقها الطلق، وقامت الأفراح، فقامت الداية المشقة في الخلاص، ورقته باسمي محمد وعلي، وكبَّرت وأذَّنت في أذنه، ولفته وأعطته لأمه، فأعطته ثديها وأرضعته فشرب وشبع ونام، وأقامت الداية عندهم ثلاثة أيام حتى عملوا الحلاوة ليفرِّقوها في اليوم السابع، ثم رشُّوا ملحه، ودخل التاجر وهنَّأ زوجته بالسلامة، وقال لها: أين وديعة الله؟ فقدَّمت له مولودًا بديع الجمال صُنع المدبر الموجود، وهو ابن سبعة أيام، ولكن الذي ينظره يقول عليه إنه ابن عام، فنظر التاجر في وجهه فرآه بدرًا مشرقًا، وله شامات على الخدين، فقال لها: ما سمَّيتِه؟ فقالت له: لو كان بنتًا كنتُ سمَّيتها، وهذا ولد فلا يسميه إلا أنت.

وكان أهل ذلك الزمن يسمون أولادهم بالفأل، فبينما هم يتشاورون في الاسم، وإذا بواحد يقول: يا سيدي علاء الدين. فقال لها: نسميه بعلاء الدين أبي الشامات. ووكَّل به المراضع والدايات، فشرب اللبن عامين وفطموه، فكبر وانتشى، وعلى الأرض مشى، فلما بلغ من العمر سبع سنين أدخلوه تحت طابق خوفًا عليه من العين، وقال: هذا لا يخرج من الطابق حتى تطلع لحيته. ووكَّل به جارية وعبدًا، فصارت الجارية تهيِّئ له السفرة والعبد يحملها إليه، ثم إنه طهَّره، وعمل له وليمة عظيمة، ثم بعد ذلك أحضر له فقيهًا

يعلمه؛ فعلَّمه الخط والقرآن والعلم إلى أن صار ماهرًا وصاحب معرفة. فاتفق أن العبد أوصل إليه السفرة في بعض الأيام ونسي الطابق مفتوحًا، فطلع علاء الدين من الطابق، ودخل على أمه، وكان عندها محضر من أكابر النساء. فبينما النساء يتحدثن مع أمه، وإذا هو داخل عليهن كالمملوك السكران من فرط جماله، فحين رآه النسوة غطَّين وجوههن وقُلن لأمه: الله يجازيكِ يا فلانة، كيف تُدخِلين علينا هذا المملوك الأجنبي؟ أَمَا تعلمين أن الحياء من الإيمان؟ فقالت لهن: سمِّين الله، إن هذا ولدي وثمرة فؤادي، وابن شاه بندر التجار شمس الدين ابن الدادة والقلادة والقشفة واللبابة. فقلن لها: عمرنا ما رأينا لك ولدًا. فقالت: إن أباه خاف عليه من العين، فجعل مرباه في طابق تحت الأرض. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أم علاء الدين قالت للنسوان: إن أباه خاف عليه من العين، فجعل مرباه في طابق تحت الأرض، فلعل الخادم نسي الطابق مفتوحًا فطلع منه، ولم يكن مرادنا أن يطلع منه حتى تطلع لحيته. فهنَّأها النسوة بذلك، وطلع الغلام من عند النسوة إلى حوش البيت، ثم طلع المقعد وجلس فيه. فبينما هو جالس، وإذا بالعبيد قد دخلوا ومعهم بغلة أبيه، فقال لهم علاء الدين: أين كانت هذه البغلة؟ فقالوا له: نحن وصَّلنا أباك إلى الدكان وهو راكب عليها وجئنا بها. فقال لهم: أي شيء صنعة أبي؟ فقالوا له: إن أباك شاه بندر التجار بأرض مصر، وهو سلطان أولاد العرب. فدخل علاء الدين على أمه، وقال لها: يا أمي ما صناعة أبي؟ فقالت له: يا ولدي، إن أباك تاجر، وهو شاه بندر التجار بأرض مصر، وسلطان أولاد العرب، وعبيده لا تشاوره في البيع إلا على البيعة التي يكون أقل ثمنها ألف دينار، وأما البيعة التي تكون بتسعمائة دينار فأقل فإنهم لا يشاورونه عليها، بل يبيعونها بأنفسهم، ولا يأتي متجر من بلاد الناس قليلًا أو كثيرًا إلا ويدخل تحت يده، ويتصرف فيه كيف يشاء، ولا ينحزم متجر ويروح بلاد الناس إلا ويكون من تحت يد أبيك، والله تعالى أعطى أباك يا ولدي مالًا كثيرًا لا يُحصَى. فقال لها: يا أمي، الحمد لله أنا ابن سلطان أولاد العرب، ووالدي شاه بندر التجار، ولأي شيء يا أمي تحطونني في الطابق، وتتركونني محبوسًا فيه؟ فقالت له: يا ولدي، نحن ما حطَطْناك في الطابق إلا خوفًا عليك من أعين الناس، فإن العين حق، وأكثر أهل القبور من العين. فقال لها: يا أمي، وأين المفر من القضاء؟ والحذر لا يمنع القدر، والمكتوب ما منه مهروب، وإن الذي أخذ جدي لا يترك أبي، فإنه إن عاش اليوم ما يعيش غدًا، وإذا مات أبي وطلعت أنا وقلت: أنا علاء الدين ابن التاجر شمس الدين، لا يصدقني أحد من الناس، والاختيارية

يقولون: عمرنا ما رأينا لشمس الدين ولدًا ولا بنتًا. فينزل بيت المال، ويأخذ مال أبي، ورحم الله مَن قال: يموت الفتى ويذهب ماله، ويأخذ أندل الرجال نساءه. فأنت يا أمي تكلمين أبي حتى يأخذني معه إلى السوق، ويفتح لي دكانًا، وأقعد فيه ببضائع، ويعلمني البيع والشراء، والأخذ والعطاء. فقالت له: يا ولدي، لما يحضر أبوك أخبره بذلك.

فلما رجع التاجر إلى بيته، وجد ابنه علاء الدين أبا الشامات قاعدًا عند أمه، فقال لها: لأي شيء أخرجتِه من الطابق؟ فقالت له: يا ابن عمي، أنا ما أخرجته، ولكن الخدم نسوا الطابق مفتوحًا. فبينما أنا قاعدة وعندي محضر من أكابر النساء، وإذا به دخل علينا … وأخبَرَتْه بما قاله ولده، فقال له: يا ولدي، في غد إن شاء الله تعالى آخذك معي إلى السوق، ولكن يا ولدي قعود الأسواق والدكاكين يحتاج إلى الأدب والكمال في كل حال. فبات علاء الدين وهو فرحان من كلام أبيه، فلما أصبح الصباح أدخله الحمام، وألبسه بدلة تساوي جملةً من المال، ولما أفطروا وشربوا الشربات ركب بغلته وأركب ولده بغلة، وأخذه وراءه، وتوجه به إلى السوق؛ فنظر أهل السوق شاه بندر التجار مقبلًا ووراءه غلام كأنَّ وجهه القمر في ليلة أربعة عشر، فقال واحد منهم لرفيقه: انظر هذا الغلام الذي وراء شاه بندر التجار، قد كنا نظن به الخير وهو مثل الكرات شائب وقلبه أخضر. فقال الشيخ محمد سمسم النقيب المتقدم ذكره للتجار: نحن ما بقينا نرضى به أن يكون شيخًا علينا أبدًا.

وكان من عادة شاه بندر التجار أنه لما يأتي من بيته في الصباح ويقعد في دكانه، يتقدم نقيب السوق ويقرأ الفاتحة للتجار، فيقومون معه ويأتون إلى شاه بندر التجار، ويقرءون له الفاتحة ويصبِّحون عليه، ثم ينصرف كل واحد منهم إلى دكانه. فلما قعد شاه بندر التجار في دكانه ذلك اليوم على عادته، لم تأتِ إليه التجار حسب عادتهم، فنادى النقيب وقال له: لأي شيء لم تجتمع التجار على جري عادتهم؟ فقال له: أنا ما أعرف نقل الفتن، إن التجار اتفقوا على عزلك من المشيخة، ولا يقرءون لك فاتحة. فقال له: ما سبب ذلك؟ فقال له: ما شأن هذا الولد الجالس بجانبك، وأنت اختيار ورئيس التجار؟ فهل هذا الولد مملوكك أو يقرب لزوجتك؟ وأظن أنك تعشقه وتميل إلى الغلام. فصرخ عليه وقال له: اسكت قبَّح الله ذاتك وصفاتك، هذا ولدي. فقال له: عمرنا ما رأينا لك ولدًا. فقال له: لما جئتني بمعكِّر البيض حملَتْ زوجتي وولدته، ولكن من خوفي عليه من العين ربيته في طابق تحت الأرض، وكان مرادي أنه لا يطلع من الطابق حتى يمسك لحيته بيده، فما رضيت أمه، وطلب مني أن أفتح دكانًا وأحط عنده بضائع وأعلِّمه البيع والشراء. فذهب

النقيب إلى التجار، وأخبرهم بحقيقة الأمر، فقاموا كلهم بصحبته وتوجهوا إلى شاه بندر التجار، ووقفوا بين يديه، وقرءوا الفاتحة، وهنَّوه بذلك الغلام، وقالوا له: ربنا يبقي الأصل والفرع، ولكن الفقير منا لما يأتيه ولد أو بنت لا بد أن يصنع لإخوانه دست عصيدة، ويعزم معارفه وأقاربه، وأنت لم تعمل ذلك. فقال لهم: لكم عليَّ ذلك، ويكون اجتماعنا في البستان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شاه بندر التجار وعد التجار بالسماط، وقال لهم: يكون اجتماعنا في البستان. فلما أصبح الصباح أرسل الفرَّاش للقاعة والقصر اللذين في البستان، وأمره بفرشهما، وأرسل آلة الطبخ من خرفان وسمن وغير ذلك مما يحتاج إليه الحال، وعمل سماطين؛ سماطًا في القصر، وسماطًا في القاعة. وتحزم التاجر شمس الدين، وتحزم ولده علاء الدين، وقال له: يا ولدي، إذا دخل الرجل الشائب فأنا أتلقاه وأُجلِسه على السماط الذي في القصر، وأنت يا ولدي إذا دخل الولد الأمرد فخذه، وادخل به القاعة، وقعِّده على السماط. فقال له: لأي شيء يا أبي؟ ما سبب أنك تعمل سماطين؛ واحدًا للرجال، وواحدًا للأولاد؟ فقال: يا ولدي، إن الأمرد يستحي أن يأكل عند الرجال. فاستحسن ذلك ولده، فلما جاء التجار، صار شمس الدين يقابل الرجال ويُجلِسهم في القصر، وولده علاء الدين يقابل الأولاد ويجلسهم في القاعة، ثم وضعوا الطعام فأكلوا وشربوا، وتلذَّذوا وطربوا، وشربوا الشربات، وأطلقوا البخور، ثم قعد الاختيارية في مذاكرة العلم والحديث، وكان بينهم رجل تاجر يُسمَّى محمود البلخي، وكان مسلمًا في الظاهر ومجوسيًّا في الباطن، وكان يبغي الفساد ويهوى الأولاد، فنظر إلى علاء الدين نظرة أعقبته ألف حسرة، وعلق له الشيطان جوهرة في وجهه، فأخذه به الغرام والوَجْد والهيام. وكان ذلك التاجر الذي اسمه محمود البلخي يأخذ القماش والبضائع من والد علاء الدين، ثم إن محمود البلخي قام يتمشى وانعطف نحو الأولاد، فقاموا لملتقاه، وكان علاء الدين انحصر فقام يزيل الضرورة، فالتفت التاجر محمود إلى الأولاد وقال لهم: إن طيَّبتم خاطر علاء الدين على السفر معي، أعطيتُ كل واحد منكم بدلة تساوي جملة من المال. ثم توجه من عندهم إلى مجلس الرجال.

فبينما الأولاد جالسون، وإذا بعلاء الدين أقبل عليهم فقاموا لملتقاه، وأجلسوه بينهم في صدر المقام؛ فقام ولد منهم وقال لرفيقه: يا سيدي حسن، أخبرني برأس المال الذي عندك تبيع فيه وتشتري، من أين جاء؟ فقال له: أنا لما كبرت وانتشأت وبلغت مبلغ الرجال قلت لأبي: يا والدي أحضر لي متجرًا. فقال: يا ولدي، ما عندي شيء، ولكن رح خذ لك مالًا من واحد تاجر واتَّجر به، وتعلم البيع والشراء، والأخذ والعطاء. فتوجَّهت إلى واحد من التجار، واقترضت منه ألف دينار، فاشتريت بها قماشًا وسافرت به إلى الشام، فربحت المثل مثلين، ثم أخذت متجرًا من الشام، وسافرت به إلى بغداد وبعته، ثم ربحت المثل مثلين، ولم أزل أتَّجر حتى صار رأس مالي نحو عشرة آلاف دينار. وصار كل واحد من الأولاد يقول لرفيقه مثل ذلك إلى أن دار الدور، وجاء الكلام إلى علاء الدين أبي الشامات، فقالوا له: وأنت يا سيدي علاء الدين؟ فقال لهم: أنا تربيت في طابق تحت الأرض، وطلعت منه في هذه الجمعة، وأنا أروح الدكان وأرجع منه إلى البيت. فقالوا له: أنت متعود على قعود البيت، ولا تعرف لذة السفر، والسفر ما يكون إلا للرجال. فقال لهم: أنا ما لي حاجة بالسفر، وليس للراحة قيمة. فقال واحد منهم لرفيقه: هذا مثل السمك إذا فارق الماء مات. ثم قالوا له: يا علاء الدين، ما فخر أولاد التجار إلا بالسفر لأجل المكسب. فحصل لعلاء الدين غيظ بسبب ذلك، وطلع من عند الأولاد وهو باكي العين حزين الفؤاد، وركب بغلته وتوجه إلى البيت، فرأته أمه في غيظ زائد، باكي العين، فقالت له: ما يبكيك يا ولدي؟ فقال لها: إن أولاد التجار جميعًا عايروني، وقالوا لي: ما فخر أولاد التجار إلا بالسفر لأجل أن يكسبوا الدراهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علاء الدين قال لوالدته: إن أولاد التجار عايروني، وقالوا لي: ما فخر أولاد التجار إلا بالسفر لأجل أن يكسبوا الدراهم والدنانير. فقالت له أمه: يا ولدي، هل مرادك السفر؟ قال: نعم. فقالت له: تسافر إلى أي البلاد؟ فقال لها: إلى مدينة بغداد، فإن الإنسان يكتسب فيها المثل مثلين. فقالت له: يا ولدي، إن أباك عنده مال كثير، وإن لم يجهِّز لك متجرًا من ماله فأنا أجهز لك متجرًا من عندي. فقال لها: خير البر عاجله، وإن كان معروفًا فهذا وقته. فأحضرت العبيد وأرسلتهم إلى الذين يحزمون القماش، وفتحت حاصلًا وأخرجت له منه قماشًا، وحزموا له عشرة أحمال.

هذا ما كان من أمر أمه، وأما ما كان من أمر أبيه، فإنه التفت فلم يجد ابنه علاء الدين في البستان، فسأل عنه فقالوا له: إنه ركب بغلته وراح إلى البيت. فركب وتوجَّه خلفه، فلما دخل منزله رأى أحمالًا محزومة فسأل عنها، فأخبرته زوجته بما وقع من أولاد التجار لولده علاء الدين، فقال له: يا ولدي، خيَّبَ الله الغربة! فقد قال رسول الله ﷺ: «من سعادة المرء أن يُرزَق في بلده.» وقال الأقدمون: دع السفر ولو كان ميلًا. ثم قال لولده: هل صممت على السفر، ولا ترجع عنه؟ فقال له ولده: لا بد لي من السفر إلى بغداد بمتجر، وإلا قلعت ثيابي ولبست ثياب الدراويش، وطلعت سائحًا في البلاد. فقال له: ما أنا محتاج ولا معدم، بل عندي مال كثير. وأراه جميع ما عنده من المال والمتاجر والقماش، وقال له: أنا عندي لكل بلد ما يناسبه من القماش والمتاجر. وأراه من جملة ذلك أربعين حملًا محزومة، مكتوبًا بأعلى كل حمل ثمنه ألف دينار، ثم قال له: يا ولدي، خذ الأربعين حملًا، والعشرة أحمال التي من عند أمك، وسافر مع سلامة الله تعالى، ولكن يا ولدي أخاف عليك من غابة في طريقك تُسمَّى غابة الأسد، ووادٍ هناك يقال له وادي الكلاب؛ فإنهما تروح فيهما الأرواح بغير سماح. فقال له: لماذا يا والدي؟ فقال: من بدوي

قاطع الطريق يقال له عجلان. فقال له: الرزق رزق الله، وإن كان لي فيه نصيب لم يصبني ضرر. ثم ركب علاء الدين مع والده، وسار إلى سوق الدواب، وإذا بعكام نزل من فوق بغلته، وقبَّل يد شاه بندر التجار، وقال له: والله زمان يا سيدي ما استقضيتنا في تجارات. فقال له: لكل زمان دولة ورجال، ورحم الله مَن قال:

وَشَيْخٍ فِي جِهَاتِ الْأَرْضِ يَمْشِي وَلِحْيَتُهُ تُقَابِلُ رُكْبَتَيْهِ
فَقُلْتُ لَهُ لِمَاذَا أَنْتَ مُحْنًى فَقَالَ وَقَدْ لَوَى نَحْوِي يَدَيْهِ
شَبَابِي فِي الثَّرَى قَدْ ضَاعَ مِنِّي وَهَا أَنَا مُنْحَنٍ بَحْثًا عَلَيْهِ

فلما فرغ من شعره قال: يا مقدِّم، ما مراده السفر إلا ولدي هذا. فقال له العكام: الله يحفظه عليك. ثم إن شاه بندر التجار عاهَدَ بين ولده وبين العكام، وجعله ولده وأوصاه عليه، وقال له: خذ هذه المائة دينار لغلمانك. ثم إن شاه بندر التجار اشترى ستين بغلًا وسترًا لسيدي عبد القادر الجيلاني، وقال له: يا ولدي، أنا غائب وهذا أبوك عوضًا عني، وجميع ما يقوله طاوعه فيه. ثم توجَّه بالبغال والغلمان، وعملوا في تلك الليلة ختمة ومولدًا للشيخ عبد القادر الجيلاني، ولما أصبح الصباح أعطى شاه بندر التجار لولده عشرة آلاف دينار، وقال له: إذا دخلت بغداد، ولقيت القماش رائجًا معه فبعه، وإن لقيت حاله واقفًا فاصرف من هذه الدنانير. ثم حمَّلوا البغال، وودعوا بعضهم، وساروا متوجِّهين حتى خرجوا من المدينة، وكان محمود البلخي تجهَّز للسفر إلى جهة بغداد، وأخرج حموله ونصب صواوينه خارج المدينة، وقال في نفسه: ما تحظى بهذا الولد إلا في الخلاء؛ لأنه لا واشي ولا رقيب يعكِّر عليك. وكان لأبي الولد ألف دينار عند محمود البلخي بقية معاملة، فذهب إليه وودَّعه وقال له: أعطِ الألف دينار لولدي علاء الدين. وأوصاه عليه وقال له: إنه مثل ولدك. فاجتمع علاء الدين بمحمود البلخي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علاء الدين اجتمع بمحمود البلخي، فقام محمود البلخي وأوصى طباخ علاء الدين أنه لا يطبخ شيئًا، وصار محمود يقدِّم لعلاء الدين المأكل والمشرب هو وجماعته، ثم توجهوا للسفر. وكان للتاجر محمود البلخي أربعة بيوت: واحد في مصر، وواحد في الشام، وواحد في حلب، وواحد في بغداد، ولم يزالوا مسافرين في البراري والقفار حتى أشرفوا على الشام، فأرسل محمود عبدَه إلى علاء الدين فرآه قاعدًا يقرأ، فتقدم وقبَّل أياديه، فقال: ما تطلب؟ فقال له: سيدي يسلم عليك، ويطلبك لعزومته في منزله. فقال له: لمَّا أشاور أبي المقدم كمال الدين العكام. فشاوره على الرواح فقال له: لا تَرُح. ثم سافروا من الشام إلى أن دخلوا حلب، فعمل محمود البلخي عزومة وأرسل يطلب علاء الدين، فشاور المقدم فمنعه، وسافروا من حلب إلى أن بقي بينهم وبين بغداد مرحلة، فعمل محمود البلخي عزومة وأرسل يطلب علاء الدين، فشاور المقدم فمنعه، فقال علاء الدين: لا بد لي من الرواح. ثم قام وتقلَّدَ بسيف تحت ثيابه، وسار إلى أن دخل على محمود البلخي، فقام لملتقَّاه وسلَّم عليه، وأحضر له سفرة عظيمة، فأكلوا وشربوا وغسلوا أيديهم، ومال محمود البلخي على علاء الدين ليأخذ منه قُبلة فلاقاها في كفه، وقال له: ما مرادك أن تعمل؟ فقال: إني أحضرتك، ومرادي أعمل معك حظًّا في هذا المجال، وتفسر قول مَن قال:

أَيُمْكِنُ أَنْ تَجِيءَ لَنَا لُحَيْظَةْ كَحَلْبِ شُوَيْهَةٍ أَوْ شَيٍّ بَيْضَةْ
وَتَأْكُلُ مَا تَيَسَّرَ مِنْ خُبَيْزٍ وَتَقْبِضُ مَا تُحَصِّلُ مِنْ فُضَيْضَةْ
وَتَحْمِلُ مَا تَشَاءُ بِغَيْرِ عُسْرٍ شُبَيْرًا أَوْ فُتَيْرًا أَوْ قُبَيْضَةْ

ثم إن محمود البلخي همَّ بعلاء الدين وأراد أن يفترسه، فقام علاء الدين وجرَّد سيفه، وقال له: وا شيبتاه! أَمَا تخشى الله، وهو شديد المحال؟ ولم تسمع قول مَن قال:

احْفَظْ مَشِيبَكَ مِنْ عَيْبٍ يُدَنِّسُهُ إِنَّ الْبَيَاضَ سَرِيعُ الْحَمْلِ لِلدَّنَسِ

فلما فرغ علاء الدين من شعره قال لمحمود: إن هذه البضاعة أمانة الله لا تباع، ولو بعتها لغيرك بالذهب لبعتها لك بالفضة، ولكن والله يا خبيث ما بقيت أرافقك أبدًا. ثم رجع علاء الدين إلى المقدم كمال الدين وقال له: إن هذا رجل فاسق، فأنا ما بقيتُ أرافقه أبدًا، ولا أمشي معه في طريق. فقال له: يا ولدي، أَمَا قلتُ لك لا تَرُح عنده؟ ولكن يا ولدي إن افترقنا معه نخشى على أنفسنا التلف، فخلِّنا قفلًا واحدًا. فقال له: لا يمكن أن أرافقه في الطريق أبدًا. ثم حمل علاء الدين حموله وسار هو ومَن معه إلى أن نزلوا في وادٍ، وأرادوا أن يحطوا فيه، فقال العكام: لا تحطوا هنا، واستمروا رائحين، وأسرعوا في المسير لعلَّنا نحصِّل بغداد قبل أن تقفل أبوابها؛ فإنهم لا يفتحونها ولا يقفلونها إلا بشمسٍ؛ خوفًا على المدينة أن يملكها الروافض، ويرموا كتب العلم في الدجلة. فقال له: يا والدي، أنا ما توجهت بهذا المتجر إلى هذه البلد لأجل السبب، بل لأجل الفرجة على بلاد الناس. فقال له: يا ولدي، نخشى عليك وعلى مالك من العرب. فقال له: يا رجل، هل أنت خادم أم مخدوم؟ أنا ما أدخل بغداد إلا مع الصباح؛ لأجل أن تنظر أولاد بغداد إلى متجري ويعرفوني. فقال له العكام: افعل ما تريد، فأنا نصحتك وأنت تعرف خلاصك.

فأمرهم علاء الدين بتنزيل الأحمال عن البغال، فأنزلوا الأحمال ونصبوا الصيوان، واستمروا مقيمين إلى نصف الليل، ثم طلع علاء الدين يزيل ضرورة، فرأى شيئًا يلمع على بُعْدٍ، فقال للعكام: يا مقدم، ما هذا الشيء الذي يلمع؟ فتأمل العكام وحقَّق النظر، فرأى الذي يلمع أَسِنَّة رماح وحديد وسلاح، وسيوفًا بدوية، وإذا بهم عرب، ورئيسهم يُسمَّى شيخ العرب عجلان أبو نائب، ولما قرب العرب منهم، ورأوا حمولهم قالوا لبعضهم: يا ليلة الغنيمة! فلما سمعوهم يقولون ذلك، قال المقدم كمال الدين العكام: حاس يا أقل العرب. فلطشه أبو نائب بحربته في صدره، فخرجت تلمع من ظهره، فوقع على باب الخيمة قتيلًا، فقال السقاء: حاس يا أخسَّ العرب. فضربوه بسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه، ووقع قتيلًا. كل هذا جرى وعلاء الدين واقف ينظر، ثم إن العرب جالوا وصالوا على القافلة فقتلوهم، ولم يبقوا أحدًا من طائفة علاء الدين، ثم حملوا الأحمال على ظهور البغال وراحوا، فقال علاء الدين لنفسه: ما يقتلك إلا بغلتك وبدلتك هذه. فقام

وقطع البدلة ورماها على ظهر البغلة، وصار القميص واللباس فقط، والتفت قدامه إلى باب الخيمة فوجد بركة دم سائلة من القتلى، فصار يتمرغ فيها بالقميص واللباس حتى صار كالقتيل الغريق في دمه.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر شيخ العرب عجلان، فإنه قال لجماعته: يا عرب، هذه القافلة داخلة من مصر أم خارجة من بغداد؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن البدوي لما قال لجماعته: هذه القافلة داخلة من مصر أم خارجة من بغداد؟ قالوا له: داخلة من مصر إلى بغداد. فقال لهم: ردُّوا على القتلى؛ لأني أظن أن صاحب هذه القافلة لم يَمُتْ. فردَّ العرب على القتلى، وصاروا يردون القتلى بالطعن والضرب إلى أن وصلوا إلى علاء الدين، وكان قد ألقى بنفسه بين القتلى، فلما وصلوا إليه قالوا: أنت جعلت نفسك ميتًا فنحن نكمل قتلك. وسحب البدوي الحربة وأراد أن يغرزها في صدر علاء الدين، فقال علاء الدين: يا بركتك يا سيدي عبد القادر يا جيلاني. فنظر علاء الدين إلى يد حوَّلت الحربة عن صدره إلى صدر المقدِّم كمال الدين العكام، فطعنه البدوي بها وامتنع عن علاء الدين. ثم حمَّلوا الأحمال على ظهور البغال ومشوا بها، فنظر علاء الدين فرأى الطير قد طارت بأرزاقها، فقام يجري وإذا بالبدوي أبي نائب قال لرفقاته: أنا رأيت زوالًا يا عرب. فطلع واحد منهم فرأى علاء الدين يجري، فقال له: لا ينفعك الهروب ونحن وراءك. ولكز فرسه فأسرعت وراءه، وكان علاء الدين قد رأى قدَّامه حوضًا فيه ماء وبجانبه صهريج، فطلع علاء الدين إلى شباك في الصهريج وتمدد وجعل نفسه أنه نائم وقال: يا جميل الستر سترك الذي لا ينكشف. وإذا بالبدوي وقف تحت الصهريج ومدَّ يده ليقتنص علاء الدين، فقال علاء الدين: يا بركتك يا سيدتي نفيسة، هذا وقتك. وإذا بعقرب لدغ البدوي في كفِّه فصرخ، وقال: يا عرب، تعالوا فإني لُدِغت. ونزل من فوق ظهر فرسه، فأتاه رفقاؤه وأركبوه ثانيًا على فرسه، وقالوا له: أي شيء أصابك؟ فقال لهم: لدغني عقرب. ثم أخذوا القافلة وساروا.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر علاء الدين فإنه استمر نائمًا في شباك الصهريج.

وأما ما كان من أمر محمود البلخي فإنه أمر بتحميل الأحمال، وسافر إلى أن وصل إلى غابة الأسد، فوجد غلمان علاء الدين كلهم قتلى، ففرح بذلك وترجَّلَ إلى أن وصل إلى الصهريج والحوض، وكانت بغلته شديدة العطش، فمالت لتشرب من الحوض، فرأت خيال علاء الدين فجفلت منه، فرفع محمود البلخي عينه فرأى علاء الدين نائمًا وهو عريان، بالقميص واللباس فقط، فقال له: مَن فعل بك هذه الفعال، وخلَّاك في أسوأ حال؟ فقال له: العرب. فقال له: يا ولدي، فداك البغال والأموال، وتسلَّ بقول مَن قال:

إِذَا سَلِمَتْ هَامُ الرِّجَالِ مِنَ الرَّدَى فَمَا الْمَالُ إِلَّا مِثْلُ قَصِّ الْأَظَافِرِ

ولكن يا ولدي انزل، ولا تخشَ بأسًا. فنزل علاء الدين من شباك الصهريج، وأركبه بغلة، وسافروا إلى أن دخلوا مدينة بغداد في دار محمود البلخي، فأمر بدخول علاء الدين الحمام، وقال له: المال والأحمال فداؤك يا ولدي، وإن طاوعتني أُعطِك قدر مالك وأحمالك مرتين. وبعد طلوعه من الحمام أدخله قاعة مزركشة بالذهب لها أربعة لواوين، ثم أمر بإحضار سفرة فيها جميع الأطعمة، فأكلوا وشربوا، ومال محمود البلخي على علاء الدين ليأخذ من خدِّه قُبلة، فلقيها علاء الدين بكفِّه وقال له: هل أنت إلى الآن تابع لضلالك؟ أَمَا قلتُ لك أنا لو كنتُ بعت هذه البضاعة لغيرك بالذهب، لَكنت أبيعها لك بالفضة. فقال له: أنا ما أعطيك المتجر والبغلة والبدلة إلا لأجل هذه القضية، فإنني من غرامي بك في خبال، ولله در مَن قال:

حَدَّثَنَا عَنْ بَعْضِ أَشْيَاخِهِ أَبُو بِلَالٍ شَيْخُنَا عَنْ شَرِيكْ
لَا يَشْتَفِي الْعَاشِقُ مِمَّا بِهِ بِالضَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ حَتَّى يَنِيكْ

فقال له علاء الدين: إن هذا شيء لا يمكن أبدًا، فخُذْ بدلتك وبغلتك، وافتح لي الباب حتى أروح. ففتح له الباب، فطلع علاء الدين والكلاب تنبح وراءه وسار. فبينما هو سائر في الظلام إذ رأى باب مسجد، فدخل في دهليز المسجد واستكنَّ فيه، وإذا بنور مقبل عليه، فتأمَّله فرأى فانوسين في يدَيْ عبدين قدَّام اثنين من التجار: واحد منهما اختيار حسن الوجه، والثاني شاب. فسمع الشاب يقول للاختيار: بالله يا عمي أن ترد لي بنت عمي.

فقال له: أَمَا نهيتك مرارًا عديدة، وأنت جاعل الطلاق مصحفك. ثم إن الاختيار التفت على يمينه فرأى ذلك الولد كأنه فلقة قمر، فقال له: السلام عليك. فردَّ عليه السلام، فقال له: يا غلام، مَن أنت؟ فقال له: أنا علاء الدين بن شمس الدين شاه بندر التجار بمصر، وتمنيت على والدي المتجر فجهَّز لي خمسين حملًا من البضاعة … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥٦

علاء الدين مع زبيدة العودية

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علاء الدين قال: فجهَّزَ لي والدي خمسين حملًا من البضاعة، وأعطاني عشرة آلاف دينار، وسافرت حتى وصلت إلى غابة الأسد؛ فطلع عليَّ العرب وأخذوا مالي وأحمالي، فدخلت هذه المدينة، وما أدري أين أبيت، فرأيت هذا المحل فاستكننت فيه. فقال له: يا ولدي، ما تقول في أني أعطيك ألف دينار، وبدلة بألف دينار؟ فقال له علاء الدين: على أي وجه تعطيني ذلك يا عمي؟ فقال له: إن هذا الغلام الذي معي ابن أخي، ولم يكن لأبيه غيره، وأنا عندي بنت لم يكن لي غيرها تُسمَّى زبيدة العودية، وهي ذات حسن وجمال، فزوَّجتها له وهو يحبها وهي تكرهه، فحنث في يمينه بالطلاق ثلاثًا، فما صدَّقت زوجته بذلك حتى افترقت عنه، فساق عليَّ جميع الناس أني أردها له، فقلت له هذا لا يصح إلا بالمستحل، واتفقت معه على أن نجعل المحلَّل له واحدًا غريبًا لا يعايره أحد بهذا الأمر، وحيث كنت أنت غريبًا فتعال معنا لنكتب كتابك عليها، وتبيت عندها هذه الليلة، وتصبح تطلقها، ونعطيك ما ذكرته لك. فقال علاء الدين في نفسه: مبيت ليلة مع عروس في بيت على فراشٍ، أحسن من مبيت في الأزقة والدهاليز. فسار معهما إلى القاضي، فلما نظر القاضي إلى علاء الدين وقعت محبته في قلبه، وقال لأبي البنت: أي شيء مرادكم؟ فقال: مرادنا أن نعمل هذا مستحلًّا لبنتنا، ولكن نكتب عليه حجة بمقدم الصداق عشرة آلاف دينار، فإن بات عندها ومتى أصبح طلَّقها، أعطينا له بدلة بألف دينار، وبغلة بألف دينار، وأعطيناه ألف دينار، وإن لم يطلقها يحط عشرة آلاف دينار. فعقدوا العقد على هذا الشرط، وأخذ أبو البنت حجة بذلك، ثم أخذ علاء الدين معه وألبسه البدلة، وساروا به إلى أن وصلوا دار بنته، فأوقفه على باب الدار، ودخل على

بنته، وقال لها: خذي حجة صداقك، فإني كتبتُ كتابك على شاب مليح يُسمَّى علاء الدين أبا الشامات، فتوصي به غاية الوصية. ثم أعطاها الحجَّة، وتوجَّه إلى بنته.

وأما ابن عم البنت فإنه كان له قهرمانة تتردد على زبيدة العودية بنت عمه، وكان يحسن إليها، فقال لها: يا أمي، إن زبيدة بنت عمي متى رأت هذا الشاب المليح لم تقبلني بعد ذلك، فأنا أطلب منك أن تعملي حيلة، وتمنعي الصبية عنه. فقالت له: وحياة شبابك ما أخليه يقربها. ثم إنها جاءت لعلاء الدين وقالت له: يا ولدي، أنصحك لله تعالى فاقبل نصيحتي، ولا تقرب تلك الصبية، ودعها تنام وحدها، ولا تلمسها، ولا تدنُ منها. فقال: لأي شيء؟ فقالت له: إن جسدها ملآن بالجذام، وأخاف عليك منها أن تعدي شبابك المليح. فقال لها: ليس لي بها حاجة. ثم انتقلت إلى الصبية وقالت لها مثل ما قالت لعلاء الدين، فقالت لها: لا حاجة لي به، بل أدعه ينام وحده، ولما يصبح الصباح يروح إلى حال سبيله. ثم دعت جارية وقالت لها: خذي سفرة الطعام، وأعطيها له يتعشَّى. فحملت له الجارية سفرة الطعام، ووضعتها بين يديه، فأكل حتى اكتفى، ثم قعد وقرأ سورة يس بصوت حسن، فصغت له الصبية فوجدت صوته يشبه مزامير آل داود، فقالت في نفسها: الله ينكد على هذه العجوز التي قالت لي عليه إنه مبتلًى بالجذام، فمَن كانت به هذه الحالة لا يكون صوته هكذا، وإنما هذا الكلام كذب عليه. ثم إنها وضعت في يديها عودًا من صنعة الهنود، وأصلحت أوتاره، وغنت عليه بصوت يوقف الطير في كبد السماء، وأنشدت هذين البيتين:

تعشَّقْتُ ظَبْيًا نَاعِسَ الطَّرْفِ أَحْوَرَا ... تَغَارُ غُصُونُ الْبَانِ مِنْهُ إِذَا مَشَى

يُمَانِعُنِي وَالْغُيرُ يَحْظَى بِوَصْلِهِ ... وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَا

فلما سمعها أنشدت هذا الكلام بعد أن ختم السورة، غنَّى هو وأنشد هذا البيت:

سَلَامِي عَلَى مَا فِي الثِّيَابِ مِنَ الْقَدِّ ... وَمَا فِي بَسَاتِينِ الْخُدُودِ مِنَ الْوَرْدِ

فقامت الصبية وقد زادت محبتها، ورفعت الستارة؛ فلما رآها علاء الدين أنشد هذين البيتين:

بَدَتْ قَمَرًا وَمَالَتْ غُصْنَ بَانٍ ... وَفَاحَتْ عَنْبَرًا وَرَنَتْ غَزَالَا

كَأَنَّ الْحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبِي ... فَسَاعَةَ هَجْرِهَا يَجِدُ الْوِصَالَا

ثم إنها خطرت تهز أردافًا تميل بأعطاف صنعة خفيٍّ الألطاف، ونظر كل واحد منهما صاحبه نظرةً أعقبَتْه ألف حسرة، فلما تمكَّنَ في قلبه منها سهمُ اللحظين، أنشد هذين البيتين:

رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرَتْنِي لَيَالِيَ وَصْلِهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ
كِلَانَا نَاظِرٌ قَمَرًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بِعَيْنِهَا وَرَأَتْ بِعَيْنِي

فلما قربت منه ولم يَبْقَ بينه وبينها إلا خطوتان، أنشد هذين البيتين:

نَشَرَتْ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا فِي لَيْلَةٍ فَأَرَتْ لَيَالِيَ أَرْبَعَا
وَاسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا فَأَرَتْنِيَ الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعًا

فلما أقبلت عليه قال لها: ابعدي عني لئلا تعديني. فكشفت عن معصمها، فانفرق المعصم فرقتين، وبياضه كبياض اللجين، ثم قالت له: ابعد عني فإنك مبتلًى بالجذام لئلا تعديني. فقال لها: مَن أخبرك أني مجذوم؟ فقالت له: العجوز أخبرتني بذلك. فقال لها: وأنا الآخَر أخبرتني العجوز أنك مصابة بالبرص. ثم كشف لها عن ذراعيه فوجدت بدنه كالفضة النقية، فضمَّته إلى حضنها، وضمَّها إلى صدره، واعتنق الاثنان ببعضهما، ثم أخذته وراحت على ظهرها، وفكَّت لباسها، فتحرَّك الذي خلَّفه له الوالد، فقال: مددك يا شيخ زكريا يا أبا العروق. وحطَّ يديه في خاصرتها، ووضع عرق الحلاوة في باب الخرق ودفعه، فوصل إلى باب الشعرية، وكان مروره من باب الفتوح، وبعد ذلك دخل سوق الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، فوجد البساط على قدر الليوان، ودور الحق على غطاه حتى التقاه. فلما أصبح الصباح قال لها: يا فرحة ما تمت أخذها الغراب وطار. فقالت له: ما معنى هذا الكلام؟ فقال لها: يا سيدتي، ما بقي لي قعود معك غير هذه الساعة. فقالت له: مَن يقول ذلك؟ فقال لها: إن أباك كتب عليَّ حجَّة بعشرة آلاف دينار مهرك، وإن لم أُوردها في هذا اليوم حبسوني عليها في بيت القاضي، والآن يدي قصيرة عن نصف فضة واحد من العشرة آلاف دينار. فقالت له: يا سيدي، هل العصمة بيدك أم بأيديهم؟ فقال لها: العصمة بيدي، ولكن ما معي شيء. فقالت له: إن الأمر سهل، ولا تخشَ شيئًا، ولكن خذ هذه المائة دينار، ولو كان معي غيرها لأعطيتُك ما تريد، فإن أبي من محبته لابن أخيه حوَّل جميع ماله من عندي إلى بيته، حتى صيغتي أخذها كلها، وإذا أرسل إليك رسولًا من طرف الشرع في غدر … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصبية قالت لعلاء الدين: وإذا أرسلوا إليك رسولًا من طرف الشرع في غد، وقال لك القاضي وأبي: طلِّق. فقُلْ لهما: في أي مذهب يجوز أنني أتزوج في العشاء، وأطلِّق في الصباح؟ ثم إنك تقبِّل يد القاضي وتعطيه إحسانًا، وكذا كل شاهد تقبِّل يده وتعطيه عشرة دنانير؛ فكلهم يتكلمون معك، فإذا قالوا لك: لأي شيء ما تطلِّق وتأخذ ألف دينار والبغلة والبدلة على حكم الشرط الذي شرطناه عليك؟ فقل لهم: أنا عندي فيها كل شعرة بألف دينار ولا أطلِّقها أبدًا، ولا آخذ بدلة ولا غيرها. فإذا قال لك القاضي: ادفع المهر. فقل له: أنا معسر الآن. وحينئذٍ يترفَّق بك القاضي والشهود، ويمهلونك مدة.

فبينما هما في الكلام، وإذا برسول القاضي يدق الباب، فخرج إليه، فقال له الرسول: كلِّم الأفندي، فإن نسيبك طالبك. فأعطاه خمسة دنانير وقال له: يا مُحضر، في أي شرع أني أتزوج في العشاء، وأطلِّق في الصباح؟ فقال له: لا يجوز عندنا أبدًا، وإن كنتَ تجهل الشرع فأنا أعمل وكيلك. وساروا إلى المحكمة فقال له القاضي: لأي شيء لم تطلق المرأة وتأخذ ما وقع عليه الشرط؟ فتقدَّمَ إلى القاضي وقبَّل يده ووضع فيها خمسين دينارًا، وقال له: يا مولانا القاضي، في أي مذهب أني أتزوج في العشاء وأطلِّق في الصباح قهرًا عني؟ فقال القاضي: لا يجوز الطلاق بالإجبار في أي مذهب من مذاهب المسلمين. فقال أبو الصبية: إن لم تطلق فادفع لي الصداق عشرة آلاف دينار. فقال علاء الدين: أمهلني ثلاثة أيام. فقال القاضي: لا تكفي ثلاثة أيام في المهلة، بل يمهلك عشرة أيام. واتفقوا على ذلك، وشرطوا عليه بعد العشرة أيام؛ إما المهر وإما الطلاق، وطلع من عندهم على هذا الشرط، فأخذ اللحم والأرز والسمن وما يحتاج إليه الأمر من المأكل وتوجَّهَ إلى البيت،

فدخل على الصبية وحكى لها جميع ما جرى له، فقالت له: بين الليل والنهار عجائب، ولله در مَن قال:

كُنْ حَلِيمًا إِذَا بُلِيتَ بِغَيْظٍ   وَصَبُورًا إِذَا أَتَتْكَ مُصِيبَةْ
فَاللَّيَالِي مِنَ الزَّمَانِ حَبَالَى   مُثْقَلَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبَةْ

ثم قامت وهيَّأت الطعام وأحضرت السفرة، فأكلا وشربا وتلذَّذا وطربا، ثم طلب منها أن تعمل نوبة سماع، فأخذت العود وعملت نوبة يطرب منها الحجر الجلمود، ونادت الأوتار في الحضرة: يا داود. ودخلت في دارج النوبة. فبينما هما في حظ ومزاح، وبسط وانشراح، وإذا بالباب يطرق، فقالت له: قم انظر مَن بالباب. فنزل وفتح الباب فوجد أربعة دراويش واقفين، فقال لهم: أي شيء تطلبون؟ فقالوا له: يا سيدي، نحن دراويش غرباء الديار، وقوت أرواحنا السماع ورقائق الأشعار، ومرادنا أن نرتاح عندك هذه الليلة إلى وقت الصباح، ثم نتوجه إلى حال سبيلنا، وأجرك على الله تعالى؛ فإننا نعشق السماع، وما فينا واحد إلا ويحفظ القصائد والأشعار والموشحات. فقال لهم: عليَّ مشورة. ثم طلع وأعلمها، فقالت له: افتح لهم الباب. ففتح لهم الباب وأطلعهم وأجلسهم ورحَّب بهم، ثم أحضر لهم طعامًا فلم يأكلوا، وقالوا له: يا سيدي، إنَّ زادَنَا ذِكْرُ الله بقلوبنا، وسماعُ المغنى بآذاننا، ولله در مَن قال:

وَمَا الْقَصْدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ اجْتِمَاعُنَا   وَمَا الْأَكْلُ إِلَّا سِيمَةٌ لِلْبَهَائِمِ

وقد كنا نسمع سماعًا لطيفًا، فلما طلعنا بطل السماع، فيا هل ترى التي كانت تعمل النوبة جارية بيضاء أم سوداء أم بنت ناس؟ فقال لهم: هذه زوجتي. وحكى لهم جميع ما جرى له، وقال لهم: إن نسيبي عمل عليَّ عشرة آلاف دينار مهرها، وأمهلوني عشرة أيام. فقال درويش منهم: لا تحزن، ولا تأخذ في خاطرك إلا الطيب، فأنا شيخ التكية، وتحت يدي أربعون درويشًا أحكم عليهم، وسوف أجمع لك العشرة آلاف دينار منهم، وتوفي المهر الذي عليك لنسيبك، ولكن اؤمرها أن تعمل لنا نوبة لأجل أن ننحظ ويحصل لنا انتعاش، فإن السماع لقوم كالغذاء، ولقوم كالدواء، ولقوم كالمروحة. وكان هؤلاء الدراويش الأربعة: الخليفة هارون الرشيد، والوزير جعفر البرمكي، وأبو نواس الحسن بن هاني، ومسرور سيَّاف النقمة؛ وسببُ مرورهم على هذا البيت أن الخليفة

حصل له ضيق صدر، فقال للوزير: يا وزير، إن مرادنا أن ننزل، ونشق في المدينة؛ لأنه حاصل عندي ضيق صدر. فلبسوا لبس الدراويش ونزلوا إلى المدينة، فجازوا على تلك الدار فسمعوا النوبة، فأحبوا أن يعرفوا حقيقة الأمر، ثم إنهم باتوا في حظٍّ ونظام، ومناقلة كلام، إلى أن أصبح الصباح، فحط الخليفة مائة دينار تحت السجادة، ثم أخذوا خاطره وتوجهوا إلى حال سبيلهم؛ فلما رفعت الصبية السجادة رأت مائة دينار تحتها، فقالت لزوجها: خذ هذه المائة دينار التي وجدتها تحت السجادة؛ فإن الدراويش حطوها قبلما يروحوا، وليس لنا علم بذلك. فأخذها علاء الدين وذهب إلى السوق، واشترى منها اللحم والأرز والسمن، وجميع ما يحتاج إليه.

وفي ثاني ليلة قاد الشمع، وقال لها: إن الدراويش لم يأتوا بالعشرة آلاف دينار التي وعدوني بها، ولكن هؤلاء فقراء. فبينما هما في الكلام، وإذا بالدراويش قد طرقوا الباب، فقالت له: انزل افتح لهم. ففتح لهم وطلعوا، فقال لهم: هل أحضرتم العشرة آلاف دينار التي وعدتموني بها؟ فقالوا له: ما تيسَّرَ منها شيء، ولكن لا تخشَ بأسًا، إن شاء الله تعالى في غد نطبخ طبخة كيمياء، وأمُر زوجتك أن تُسمعنا نوبة عظيمة تنتعش بها قلوبنا، فإننا نحب السماع. فعملت لهم نوبة على العود تُرقِص الحجر الجلمود، فباتوا في هناء وسرور، ومسامرة وحبور، إلى أن طلع الصباح، وأضاء بنوره ولاح، فحط الخليفة مائة دينار تحت السجادة، ثم أخذوا خاطره وانصرفوا من عنده إلى حال سبيلهم، ولم يزالوا يأتون إليه على هذا الحال مدة تسع ليالٍ، وكل ليلة يحط الخليفة تحت السجادة مائة دينار إلى أن أقبلت الليلة العاشرة فلم يأتوا، وكان السبب في انقطاعهم أن الخليفة أرسل إلى رجل عظيم من التجار، وقال له: أحضر لي خمسين حملًا من الأقمشة التي تجيء من مصر … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين قال لذلك التاجر: أحضِرْ لي خمسين حملًا من القماش الذي يجيء من مصر، يكون كل حملٍ ثمنه ألف دينار، واكتب على كل حمل ثمنه، وأحضر لي عبدًا حبشيًّا. فأحضر له التاجر جميع ما أمره به، ثم إن الخليفة أعطى العبد طشتًا وإبريقًا من الذهب، وهدية، والخمسين حملًا، وكتب كتابًا على لسان شمس الدين شاه بندر التجار بمصر، والد علاء الدين، وقال له: خذ هذه الأحمال وما معها، ورُحْ بها الحارة الفلانية التي فيها بيت شاه بندر التجار، وقل: أين سيدي علاء الدين أبو الشامات؟ فإن الناس يدلونك على الحارة، وعلى البيت. فأخذ العبد الأحمال وما معها، وتوجه كما أمره الخليفة.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر ابن عم الصبية، فإنه توجه إلى أبيها وقال له: تعالَ نروح لعلاء الدين لنطلِّق بنت عمي. فنزل وسار هو وإياه، وتوجَّها إلى علاء الدين، فلما وصلا إلى البيت وجدَا خمسين بغلًا، وعليها خمسون حملًا من القماش، وعبدًا راكب بغلة، فقالا له: لِمَن هذه الأحمال؟ فقال: لسيدي علاء الدين أبي الشامات، فإن أباه كان جهَّزَ له متجرًا وسفَّره إلى مدينة بغداد، فطلع عليه العرب فأخذوا ماله وأحماله، فبلغ الخبر إلى أبيه فأرسلني إليه بأحمال عوضها، وأرسل له معي بغلًا عليه خمسون ألف دينار، وبقجة تساوي جملة من المال، وكرك سمور، وطشتًا وإبريقًا من الذهب. فقال له أبو البنت: هذا نسيبي، وأنا أدلك على بيته. فبينما علاء الدين قاعد في البيت وهو في غمٍّ شديد، وإذا بالباب يطرق، فقال علاء الدين: يا زبيدة الله، أعلم إن أباكِ أرسل إليَّ رسولًا من طرف القاضي أو من طرف الوالي. فقالت له: انزل وانظر الخبر. فنزل وفتح الباب فرأى نسيبه شاه بندر التجار أبا زبيدة، ووجد عبدًا حبشيًّا أسمر اللون حلو المنظر راكبًا

فوق بغلة، فنزل العبد وقبَّل يديه، فقال له: أي شيء تريد؟ فقال له: أنا عبد سيدي علاء الدين أبي الشامات ابن شمس الدين شاه بندر التجار بأرض مصر، وقد أرسلني إليه أبوه بهذه الأمانة. ثم أعطاه الكتاب، فأخذه علاء الدين وفتحه وقرأه، فرأى مكتوبًا فيه:

يَا كِتَابِي إِذَا رَآكَ حَبِيبِي   قَبِّلِ الْأَرْضَ وَالنِّعَالَ لَدَيْهِ
وَتَمَهَّلْ وَلَا تَكُنْ بِعَجُولٍ   إِنَّ رُوحِي وَرَاحَتِي فِي يَدَيْهِ

بعد السلام التام والتحية والإكرام، من شمس الدين إلى ولده علاء الدين أبي الشامات؛ اعلم يا ولدي أنه بلغني خبر قتل رجالك، ونهب أموالك وأحمالك، فأرسلت إليك غيرها هذه الخمسين حملًا من القماش المصري، والبدلة، والكرك السمور، والطشت والإبريق الذهب، ولا تخشَ بأسًا، والمال فداؤك يا ولدي، ولا يحصل لك حزن أبدًا، وإن أمك وأهل البيت طيبون بخير وعافية، وهم يسلِّمون عليك كثير السلام. وبلغني يا ولدي خبر أنهم عملوك مستحلًا للبنت زبيدة العودية، وعملوا عليك مهرها خمسين ألف دينار، فهي واصلة إليك صحبة الأحمال مع عبدك سليم.

فلما فرغ من قراءة الكتاب تسلَّم الأحمال، ثم التفت إلى نسيبه وقال له: يا نسيبي، خذ الخمسين ألف دينار مهر بنتك زبيدة، وخذ الأحمال تصرَّف فيها، ولك المكسب وردَّ لي رأس المال. فقال له: والله لا آخذ شيئًا، وأما مهر زوجتك فاتفق أنت وإياها من جهته. فقام علاء الدين هو ونسيبه ودخلا البيت بعد إدخال الأحمال، فقالت زبيدة لأبيها: يا أبي، لَمن هذه الأحمال؟ فقال لها: هذه الأحمال لعلاء الدين زوجك، أرسلها إليه أبوه عوضًا عن الأحمال التي أخذها العرب منه، وأرسل إليه خمسين ألف دينار، وبقجة، وكركًا، وبغلة، وطشتًا وإبريقًا ذهبًا، وأما من جهة مهرك فالرأي لك فيه. فقام علاء الدين وفتح الصندوق وأعطاها مهرها، فقال الولد ابن عم البنت: يا عمي، خل علاء الدين يطلق لي امرأتي. فقال له: هذا شيء ما بقي يصحُّ أبدًا، والعصمة بيده. فراح الولد مغمومًا مقهورًا، ورقد في بيته ضعيفًا، فكان فيها القاضية فمات.

وأما علاء الدين فإنه طلع إلى السوق بعد أن أخذ الأحمال، وأخذ ما يحتاج إليه من المأكل والمشرب والسمن، وعمل نظامًا مثل كل ليلة، وقال لزبيدة: انظري هؤلاء الدراويش الكذَّابين قد وعدونا وأخلفوا وعدهم. فقالت له: أنت ابن شاه بندر التجار وكانت يدك قصيرة عن نصف فضة، فكيف بالمساكين الدراويش؟! فقال لها: أغنانا الله تعالى عنهم، ولكن ما بقيت أفتح الباب إذا أتوا إلينا. فقالت له: لأي شيء والخير ما جاءنا إلا على

قدومهم، وكل ليلة يحطون لنا تحت السجادة مائة دينار؟ فلا بد أن تفتح لهم الباب إذا جاءوا. فلما ولَّى النهار بضيائه وأقبل الليل، أوقدوا الشمع، وقال لها: يا زبيدة، قومي اعملي لنا نوبة. وإذا بالباب يطرق، فقالت له: قم انظر مَن بالباب. فنزل وفتح الباب، فرآهم الدراويش فقال: مرحبًا بالكذابين، اطلعوا. فطلعوا معه، وأجلسهم وجاء لهم بسفرة الطعام، فأكلوا وشربوا، وتلذَّذوا وطربوا، وبعد ذلك قالوا له: يا سيدي، إن قلوبنا عليك مشغولة، أي شيء جرى لك مع نسيبك؟ فقال لهم: عوَّض الله علينا بما فوق المراد. فقالوا: والله إنَّا كنَّا خائفين عليك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٥٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الدراويش قالوا لعلاء الدين: والله إنا كنا خائفين عليك، وما منعنا عنك إلا قِصَر أيدينا عن الدراهم. فقال لهم: قد أتاني الفرج القريب من عند ربي، وقد أرسل إليَّ والدي خمسين ألف دينار، وخمسين حملًا من القماش، ثمنُ كلِّ حملٍ ألفُ دينار، وبدلةً، وكرك سمور، وبغلة، وعبدًا، وطشتًا وإبريقًا من الذهب، ووقع الصلح بيني وبين نسيبي، وطابت لي زوجتي، والحمد لله على ذلك. ثم إن الخليفة قام يزيل ضرورة، فمال الوزير جعفر على علاء الدين وقال له: الزم الأدب فإنك في حضرة أمير المؤمنين. فقال له: أي شيء وقع مني من قلة الأدب في حضرة أمير المؤمنين؟ ومَن هو أمير المؤمنين منكم؟ فقال له: إن الذي كان يكلمك وقام يزيل الضرورة هو أمير المؤمنين الخليفة هارون الرشيد، وأنا الوزير جعفر، وهذا مسرور سيَّاف نقمته، وهذا أبو النواس الحسن بن هاني، فتأمَّلْ بعقلك يا علاء الدين، وانظر مسافة كم يوم في السفر من مصر إلى بغداد. فقال له: خمسة وأربعون يومًا. فقال له: إن أحمالك نُهِبت من منذ عشرة أيام فقط، فكيف يروح الخبر لأبيك، ويحزم لك الأحمال، وتقطع مسافة خمسة وأربعين يومًا في العشرة أيام؟ فقال له: يا سيدي، ومن أين أتاني هذا؟ فقال له: من عند الخليفة أمير المؤمنين بسبب فرط محبته لك.

فبينما هم في هذا الكلام وإذا بالخليفة قد أقبل، فقام علاء الدين وقبَّل الأرض بين يديه، وقال له: الله يحفظك يا أمير المؤمنين ويديم بقاءك، ولا عدم الناس فضلك وإحسانك. فقال: يا علاء الدين خلِّ زبيدة تعمل لنا نوبة حلاوة السلامة. فعملت نوبة على العود من غرائب الموجود إلى أن طرب لها الحجر الجلمود، وصاح العود في الحضرة: يا داود. فباتوا على أسرِّ حال إلى الصباح، فلما أصبحوا قال الخليفة لعلاء الدين: في غدٍ اطلع الديوان. فقال له: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين، إن شاء الله تعالى وأنت بخير. ثم إن علاء الدين

أخذ عشرة أطباق، ووضع فيها هدية سنية، وطلع بها الديوان في ثاني يوم، فبينما الخليفة قاعد على الكرسي في الديوان، وإذا بعلاء الدين مقبل من باب الديوان وهو ينشد هذين البيتين:

تُصَحِّبُكَ السَّعَادَةُ كُلَّ يَوْمٍ بِإِجْلَالٍ وَقَدْ رُغِمَ الْحَسُودُ
وَلَا زَالَتْ لَكَ الْأَيَّامُ بِيضًا وَأَيَّامُ الَّذِي عَادَاكَ سُودُ

فقال له الخليفة: مرحبًا يا علاء الدين. فقال علاء الدين: يا أمير المؤمنين، إن النبي ﷺ قَبِل الهدية، وهذه العشرة أطباق، وما فيها هديةٌ مني إليك. فقَبِل منه ذلك أمير المؤمنين، وأمر له بخلعة، وجعله شاه بندر التجار، وأقعده في الديوان. فبينما هو جالس، وإذا بنسيبه أبي زبيدة مُقبِل، فوجد علاء الدين جالسًا في رتبته وعليه خلعة، فقال لأمير المؤمنين: يا ملك الزمان، لأي شيء هذا جالس في رتبتي وعليه هذه الخلعة؟ فقال له الخليفة: إني جعلته شاه بندر التجار، والمناصب تقليد لا تخليد، وأنت معزول. فقال له: إنه منَّا وإلينا، ونِعْمَ ما فعلتَ يا أمير المؤمنين، الله يجعل خيارنا أولياء أمورنا، وكم من صغير صار كبيرًا. ثم إن الخليفة كتب فرمانًا لعلاء الدين وأعطاه للوالي، والوالي أعطاه للمشاعلي ونادى في الديوان: ما شاه بندر التجار إلا علاء الدين أبو الشامات، وهو مسموع الكلمة محفوظ الحرمة، يجب له الإكرام والاحترام ورفع المقام. فلما انفض الديوان نزل الوالي بالمنادي بين يدي علاء الدين، وصار المنادي يقول: ما شاه بندر التجار إلا سيدي علاء الدين أبو الشامات. وداروا به في شوارع بغداد والمنادي ينادي ويقول: ما شاه بندر التجار إلا سيدي علاء الدين أبو الشامات. فلما أصبح الصباح فتح دكانًا للعبد، وأجلسه فيها يبيع ويشتري، وأما علاء الدين فإنه كان يركب ويتوجَّه إلى مرتبته في ديوان الخليفة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علاء الدين كان يركب ويتوجَّه إلى ديوان الخليفة، فاتفق أنه جلس في مرتبته يومًا على عادته، فبينما هو جالس وإذا بقائل يقول للخليفة: يا أمير المؤمنين، تعيش رأسك في فلان النديم، فإنه تُوفي إلى رحمة الله تعالى، وحياتك الباقية. فقال الخليفة: أين علاء الدين أبو الشامات؟ فحضر بين يديه، فلما رآه خلع عليه خلعة سنية وجعله نديمه، وكتب له جامكية ألف دينار في كل شهر، وأقام عنده يتنادم معه. فاتفق أنه كان جالسًا يومًا من الأيام في مرتبته على عادته في خدمة الخليفة، وإذا بأمير المؤمنين طالع إلى الديوان بسيف وترس، فقال: يا أمير المؤمنين، تعيش رأسك في رئيس الستين، فإنه مات في هذا اليوم. فأمر الخليفة بخلعة لعلاء الدين أبي الشامات وجعله رئيس الستين مكانه. وكان رئيس الستين لا ولدَ له ولا بنت ولا زوجة، فنزل علاء الدين ووضع يده على ماله. وقال الخليفة لعلاء الدين: وارِهِ في التراب، وخذ جميع ما تركه من مال وعبيد، وجوارٍ وخدم. ثم نفض الخليفة المنديل وانفض الديوان، فنزل علاء الدين وفي ركابه المقدم أحمد الدنف مقدم ميمنة الخليفة هو وأتباعه الأربعون، وفي يساره المقدم حسن شومان مقدم ميسرة الخليفة هو وأتباعه الأربعون، فالتفت علاء الدين إلى المقدم حسن شومان هو وأتباعه وقال لهم: أنتم سياق على المقدم أحمد الدنف لعله يقبلني ولده في عهد الله. فقبَّله وقال له: أنا وأتباعي الأربعون نمشي قدَّامك إلى الديوان في كل يوم.

ثم إن علاء الدين مكث في خدمة الخليفة مدة أيام، فاتفق أن علاء الدين نزل من الديوان يومًا من الأيام، وسار إلى بيته، وصرف أحمد الدنف هو ومَن معه إلى حال سبيلهم، ثم جلس مع زوجته زبيدة العودية وقد أوقدت الشموع، وبعد ذلك قامت تزيل ضرورة. فبينما هو جالس في مكانه إذ سمع صرخة عظيمة، فقام مسرعًا لينظر الذي صرخ، فرأى صاحب الصرخة زوجته زبيدة العودية وهي مطروحة، فوضع يده على صدرها فوجدها

ميتة، وكان بيت أبيها قدام بيت علاء الدين فسمع صرختها، فقال لعلاء الدين: ما الخبر يا سيدي علاء الدين؟ فقال له: تعيش رأسك يا والدي في بنتك زبيدة العودية، ولكن يا والدي إكرام الميت دفنه. فلما أصبح الصباح، واروها في التراب، وصار علاء الدين يعزي أباها، وأبوها يعزيه.

هذا ما كان من أمر زبيدة العودية، وأما ما كان من أمر علاء الدين فإنه لبس ثياب الحزن، وانقطع عن الديوان، وصار باكي العين حزين القلب، فقال الخليفة لجعفر: يا وزير، ما سبب انقطاع علاء الدين عن الديوان؟ فقال له الوزير: يا أمير المؤمنين، إنه حزين القلب على امرأته زبيدة ومشغول بعزائها. فقال الخليفة للوزير: واجب علينا أن نعزِّيه. فقال الوزير: سمعًا وطاعة. ثم نزل الخليفة هو والوزير وبعض الخدم، وركبوا وتوجهوا إلى بيت علاء الدين. فبينما هو جالس، وإذا بالخليفة والوزير ومَن معهما مقبلون عليه، فقام لملتقاهم، وقبَّل الأرض بين يدي الخليفة، فقال له الخليفة: عوَّضك الله خيرًا. فقال علاء الدين: أطال الله لنا بقاءك يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: يا علاء الدين، ما سبب انقطاعك عن الديوان؟ فقال له: حزني على زوجتي زبيدة يا أمير المؤمنين. فقال له الخليفة: ادفع الهم عن نفسك، فإنها ماتت إلى رحمة الله تعالى، والحزن لا يفيدك شيئًا أبدًا. فقال: يا أمير المؤمنين، أنا لا أترك الحزن عليها إلا إذا مت ودفنوني عندها. فقال له الخليفة: إن في الله عوضًا من كل فائت، ولا يخلص من الموت حيلة ولا مال، ولله درُّ مَن قال:

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ   يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
وَكَيْفَ يَلْهُو بِعَيْشٍ أَوْ يَلَذُّ بِهِ   مِنَ التُّرَابِ عَلَى خَدَّيْهِ مَجْعُولُ

ولما فرغ الخليفة من تعزيته أوصاه أنه لا ينقطع عن الديوان، وتوجَّه إلى محله، ثم بات علاء الدين، ولما أصبح الصباح ركب وسار إلى الديوان، فدخل على الخليفة وقبَّل الأرض بين يديه، فتحرَّك له الخليفة من على الكرسي، ورحَّب به وحيَّاه، وأنزله في منزلته، وقال له: يا علاء الدين، أنت ضيفي في هذه الليلة. ثم دخل به سرايته ودعا بجاريةٍ تُسمَّى قوت القلوب، وقال لها: إن علاء الدين كان عنده زوجة تُسمَّى زبيدة العودية، وكانت تسليه عن الهم والغم، فماتت إلى رحمة الله تعالى، ومرادي أن تُسمعيه نوبة على العود. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة قال لجاريته قوت القلوب: مرادي أن تُسمِعيه نوبة على العود من غرائب الموجود؛ لأجل أن يتسلَّى عن الهم والأحزان. فقامت الجارية وعملت نوبة من الغرائب، فقال الخليفة: ما تقول يا علاء الدين في صوت هذه الجارية؟ فقال له: إن زبيدة أحسن صوتًا منها، إلا أنها صاحبة صناعة في ضرب العود؛ لأنها تطرب الحجر الجلمود. فقال له: هل هي أعجبتك؟ فقال له: أعجبتني يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: وحياة رأسي وتربة جدودي إنها هبة مني إليك هي وجواريها. فظن علاء الدين أن الخليفة يمزح معه، فلما أصبح الخليفة دخل على جاريته قوت القلوب وقال لها: أنا وهبتك لعلاء الدين. ففرحت بذلك لأنها رأته وأَحَبَّتْه. ثم تحول الخليفة من قصر السراية إلى الديوان، ودعا بالحمَّالين، وقال لهم: انقلوا أمتعة قوت القلوب وحطُّوها في التختروان هي وجواريها إلى بيت علاء الدين. فنقلوها هي وجواريها وأمتعتها إلى بيت علاء الدين، وأدخلوها القصر، وجلس الخليفة في مجلس الحكم إلى آخر النهار، ثم انفضَّ الديوان ودخل قصره.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر قوت القلوب، فإنها لما دخلت قصر علاء الدين هي وجواريها، وكانوا أربعين جارية غير الطواشية، قالت لاثنين من الطواشية: أحدكما يقعد على كرسي في ميمنة الباب، والثاني يقعد على كرسي في ميسرته، ولما يأتي علاء الدين قبِّلا يديه، وقولا له: إن سيدتنا قوت القلوب تطلبك إلى القصر، فإن الخليفة وهبها لك هي وجواريها. فقالا لها: سمعًا وطاعة. ثم فعلا ما أمرتهما به؛ فلما أقبل علاء الدين وجد اثنين من طواشية الخليفة جالسَيْن بالباب فاستغرب الأمر، وقال في نفسه: لعل هذا ما هو بيتي، وإلا فما الخبر؟ فلما رأته الطواشية قاموا إليه وقبَّلوا يديه، وقالوا: نحن من أتباع الخليفة، ومماليك قوت القلوب، وهي تسلِّم عليك، وتقول لك: إن الخليفة

قد وهبها لك هي وجواريها، وتطلبك عندها. فقال لهم: قولوا لها مرحبًا بك، ولكن طول ما أنت عنده ما يدخل القصر الذي أنت فيه؛ لأن ما كان للمولى لا يصلح أن يكون للخدام. وقولا لها: ما مقدار مصروفك عند الخليفة في كل يوم؟ فطلعوا إليها وقالوا لها ذلك. فقالت: كل يوم مائة دينار. فقال لنفسه: أنا ليس لي حاجة بأن يهب لي الخليفة قوت القلوب حتى أصرف عليها هذا المصروف، ولكن لا حيلةَ في ذلك.

ثم إنها أقامت عنده مدة أيام، وهو مرتب لها في كل يوم مائة دينار، إلى أن انقطع علاء الدين عن الديوان يومًا من الأيام، فقال الخليفة: يا وزير جعفر، أنا ما وهبت قوت القلوب لعلاء الدين إلا لتسلِّيه عن زوجته، فما سبب انقطاعه عنا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لقد صدق مَن قال: مَن لقي أحبابه نسي أصحابه. فقال الخليفة: لعله ما قطعه عنَّا إلا عذر، ولكن نحن نزوره. وكان قبل ذلك بأيام قال علاء الدين للوزير: أنا شكوت للخليفة ما أجده من الحزن على زوجتي زبيدة العودية، فوهب لي قوت القلوب. فقال له الوزير: لولا أنه يحبك ما وهبها لك، وهل دخلتَ بها يا علاء الدين؟ فقال: لا، والله لا أعرف لها طولًا من عرض. فقال له: ما سبب ذلك؟ فقال: يا وزير، الذي يصلح للمولى لا يصلح للخدام. ثم إن الخليفة وجعفر استخفيا، وسارا لزيارة علاء الدين، ولم يزالا سائرين إلى أن دخلا على علاء الدين فعرفهما، وقام وقبَّل أيادي الخليفة، ولما رآه الخليفة وجد عليه علامة الحزن، فقال له: يا علاء الدين، ما سبب هذا الحزن الذي أنت فيه؟ أَمَا دخلتَ على قوت القلوب؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الذي يصلح للمولى لا يصلح للخدام، وإني إلى الآن ما دخلت عليها، ولا أعرف لها طولًا من عرض، فأقلني منها. فقال الخليفة: إن مرادي الاجتماع بها حتى أسألها عن حالها. فقال علاء الدين: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين. فدخل عليها الخليفة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة دخل على قوت القلوب، فلما رأته قامت وقبَّلت الأرض بين يديه. فقال لها: هل دخل بكِ علاء الدين؟ فقالت: لا يا أمير المؤمنين، وقد أرسلت أطلبه للدخول فلم يرضَ، فأمر الخليفة برجوعها إلى السراية، وقال لعلاء الدين: لا تنقطع عنا. ثم توجَّه الخليفة إلى داره، فبات علاء الدين تلك الليلة، ولما أصبح ركب وسار إلى الديوان، فجلس في رتبة رئيس الستين، فأمر الخليفة الخازندار أن يعطي للوزير جعفر عشرة آلاف دينار، فأعطاه ذلك المبلغ، ثم قال الخليفة للوزير: ألزمتك أن تنزل إلى سوق الجواري، وتشتري لعلاء الدين بالعشرة آلاف دينار جارية. فامتثل الوزير أمر الخليفة ونزل وأخذ معه علاء الدين، وسار به إلى سوق الجواري، فاتفق في هذا اليوم أن والي بغداد الذي من طرف الخليفة — وكان اسمه الأمير خالد — نزل إلى السوق من أجل اشتراء جارية لولده، وسبب ذلك أنه كان له زوجة تُسمَّى خاتون، وكان رُزِق منها بولد قبيح المنظر يُسمَّى حبظلم بظاظة، وكان بلغ من العمر عشرين سنة، ولا يعرف أن يركب الحصان، وكان أبوه شجاعًا قرمًا منَّاعًا، وكان يركب الخيل ويخوض بحار الليل، فنام حبظلم بظاظة في ليلة من الليالي فاحتلم، فأخبر والدته بذلك، ففرحت وأخبرت والده بذلك، وقالت: مرادي أن نزوِّجه فإنه صار يستحق الزواج. فقال لها: هذا قبيح المنظر كريه الرائحة، دنس وحش لا تقبله واحدة من النساء. فقالت: نشتري له جارية. فلأمرٍ قدَّره الله تعالى أن اليوم الذي نزل فيه الوزير وعلاء الدين إلى السوق، نزل فيه الأمير خالد الوالي هو وولده حبظلم بظاظة.

فبينما هم في السوق، وإذا بجارية ذات حسن وجمال، وقدٍّ واعتدال، في يد رجل دلَّال، فقال الوزير: شاور يا دلال عليها بألف دينار. فمر بها على الوالي فرآها حبظلم بظاظة نظرةً أعقبته النظرة ألف حسرة، وتولَّع بها، وتمكَّن منه حبها، فقال: يا أبتِ اشترِ لي

هذه الجارية. فنادى الدلال وسأل الجارية عن اسمها فقالت له: اسمي ياسمين. فقال له أبوه: يا ولدي، إن كانت أعجبتك فزِدْ في ثمنها. فقال: يا دلال كم معك من الثمن؟ قال: ألف دينار. قال: عليَّ بألف دينار ودينار. فجاء لعلاء الدين فعملها بألفين، فصار كلما يزيد الولد ابن الوالي دينارًا في الثمن يزيد علاء الدين ألف دينار. فاغتاظ ابن الوالي وقال: يا دلَّال، مَن يزيد عليَّ في ثمن الجارية؟ فقال له الدلال: إن الوزير جعفر يريد أن يشتريها لعلاء الدين أبي الشامات. فعملها علاء الدين بعشرة آلاف دينار، فسمح له سيدها وقبض ثمنها، وأخذها علاء الدين وقال لها: أعتقتك لوجه الله تعالى. ثم إنه كتب كتابه عليها، وتوجَّه بها إلى البيت، ورجع الدلال ومعه دلالته، فناداه ابن الوالي وقال له: أين الجارية؟ فقال له: اشتراها علاء الدين بعشرة آلاف دينار وأعتقها، وكتب كتابه عليها. فانكمد الولد وزادت به الحسرات، ورجع ضعيفًا إلى البيت من محبته لها، وارتمى في الفرش وقطع الزاد، وزاد به العشق والغرام.

فلما رأته أمه ضعيفًا قالت له: سلامتك يا ولدي، ما سبب ضعفك؟ فقال لها: اشتري لي ياسمين يا أمي. فقالت له أمه: لما يفوت صاحب الرياحين أشتري لك جنبة ياسمين. فقال لها: ليس هو الياسمين الذي ينشم، وإنما هي جارية اسمها ياسمين لم يشترها لي أبي. فقالت لزوجها: لأي شيء ما اشتريت له هذه الجارية؟ فقال لها: الذي يصلح للمولى لا يصلح للخدام، وليس لي قدرة على أخذها، فإنه ما اشتراها إلا علاء الدين رئيس الستين. فزاد الضعف بالولد حتى جفا الرقاد وقطع الزاد، وتعصبت أمه بعصائب الحزن. فبينما هي جالسة في بيتها حزينة على ولدها، وإذا بعجوز دخلت عليها اسمها أم أحمد قماقم السراق، وكان هذا السراق ينقب وسطانيًّا، ويلقف فوقانيًّا، ويسرق الكحل من العين، وكان بهذه الصفات القبيحة في أول أمره، ثم عملوه مقدِّم الدرك فسرق عملة فوقع بها، وهجم عليه الوالي فأخذه، وعرضه على الخليفة، فأمر بقتله في بقعة الدم، فاستجار بالوزير، وكان للوزير عند الخليفة شفاعة لا تُرَدُّ فشفع فيه، فقال له الخليفة: كيف تشفع في آفة تضر الناس؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، احبسه فإن الذي بنى السجن كان حكيمًا؛ لأن السجن قبر الأحياء، وشماتة الأعداء. فأمر الخليفة بوضعه في قيد، وكتب على قيده: مخلَّد إلى الممات، لا يُفَك إلا على دكة المغسِّل. فوضعوه مقيدًا في السجن، وكانت أمه تتردد على بيت الأمير خالد الوالي، وتدخل لابنها في السجن، وتقول له: أَمَا قلتُ لك تُبْ عن الحرام؟ فيقول لها: قدر الله عليَّ ذلك، ولكن يا أمي إذا دخلتِ على زوجة الوالي فخليها تشفع لي عنده.

فلما دخلت العجوز على زوجة الوالي وجدتها معصبة بعصائب الحزن، فقالت لها: ما لك حزينة؟ فقالت: على فَقْد ولدي حبظلم بظاظة. فقالت لها: سلامة ولدك، ما الذي أصابه؟ فحكت لها الحكاية. فقالت العجوز: ما تقولين فيمَن يلعب منصفًا يكون فيه سلامة ولدك؟ فقالت لها: وما الذي تفعلينه؟ فقالت: أنا لي ولد يُسمَّي أحمد قماقم السراق، وهو مقيَّد في السجن ومكتوب على قيده: مخلَّد إلى الممات. فأنت تقومين وتلبسين أفخر ما عندك، وتتزيَّنين بأحسن الزينة، وتقابلين زوجك ببشر وبشاشة، فإذا طلب منك ما يطلبه الرجال من النساء فامتنعي منه، ولا تمكِّنيه، وقولي له: يا لله العجب! إذا كان للرجل حاجة عند زوجته يلح عليها حتى يقضيها منها، وإذا كان للزوجة عند زوجها حاجة فإنه لا يقضيها لها. فيقول لك: وما حاجتك؟ فقولي له: حتى تحلف لي. فإذا حلف لك بحياة رأسه أو بالله، فقولي له: احلف لي بالطلاق مني. ولا تمكنيه إلا إن حلف لك بالطلاق، فإذا حلف لك بالطلاق فقولي له: عندك في السجن واحد مقدم اسمه أحمد قماقم، وله أم مسكينة، وقد وقعت عليَّ وساقتني عليك، وقالت لي: خليه يشفع له عند الخليفة لأجل أن يتوب، ويحصل له الثواب. فقالت لها: سمعًا وطاعة. فلما دخل الوالي على زوجته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوالي لما دخل على زوجته قالت له ذلك الكلام، وحلف لها بالطلاق، فمكَّنته وبات عندها، ولما أصبح الصباح اغتسل وصلَّى، وجاء إلى السجن وقال: يا أحمد قماقم يا سراق، هل تتوب مما أنت فيه؟ فقال: إني تبت إلى الله ورجعت، وأقول بالقلب واللسان: أستغفر الله. فأطلقه الوالي من السجن، وأخذه معه إلى الديوان وهو في القيد، ثم تقدَّمَ إلى الخليفة وقبَّل الأرض بين يديه، فقال له: يا أمير خالد، أي شيء تطلب؟ فقدَّم أحمد قماقم يخطر في القيد قدام الخليفة، فقال له: يا قماقم، هل أنت حي إلى الآن؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عمر الشقي بطيء. فقال الخليفة: يا أمير خالد، لأي شيء جئتَ به هنا؟ فقال له: إن له أمًّا مسكينة منقطعة، وليس لها أحد غيره، وقد وقعت على عبدك أن يتشفع عندك يا أمير المؤمنين في أنك تفكَّه من القيد، وهو يتوب عما كان فيه، وتجعله مقدم الدرك كما كان أولًا. فقال الخليفة لأحمد قماقم: هل تبتَ عمَّا كنتَ فيه؟ فقال له: تبتَ إلى الله يا أمير المؤمنين. فأمر بإحضار الحداد وفكَّ قيده على دكة المغتَسَل، وجعله مقدم الدرك، وأوصاه بالمشي الطيب والاستقامة؛ فقبَّلَ يدي الخليفة، ونزل بخلعة الدرك، ونادوا له بالتقديم. فمكث مدة من الزمان في منصبه، ثم دخلت أمه على زوجة الوالي فقالت لها: الحمد لله الذي خلَّص ابنك من السجن، وهو على قيد الصحة والسلامة، فلأي شيء لم تقولي له أن يدبر أمرًا في مجيئه بالجارية ياسمين إلى ولدي حبظلم بظاظة؟ فقالت: أقول له.

ثم قامت من عندها ودخلت على ولدها فوجدته سكران، فقالت له: يا ولدي، ما سبب خلاصك من السجن إلا زوجة الوالي، وتريد منك أن تدبر لها أمرًا في قتل علاء الدين أبي الشامات، وتجيء بالجارية ياسمين إلى ولدها حبظلم بظاظة. فقال لها: هذا أسهل ما يكون، ولا بد أن أدبر أمرًا في هذه الليلة. وكانت تلك الليلة أول ليلة في الشهر الجديد،

وعادة أمير المؤمنين أن يبيت فيها عند السيدة زبيدة لعتق جارية أو مملوك أو نحو ذلك، وكان من عادة الخليفة أنه يقلع بدلة الملك، ويترك السبحة والنمشة وخاتم الملك، ويضع الجميع فوق الكرسي في قاعة الجلوس، وكان عند الخليفة مصباح من ذهب، وفيه ثلاث جواهر منظومة في سلك من ذهب، وكان ذلك المصباح عزيزًا عند الخليفة، ثم إن الخليفة وكَّل الطواشية بالبدلة والمصباح وباقي الأمتعة، ودخل مقصورة السيدة زبيدة، فصبر أحمد قماقم السراق لما انتصف الليل، وأضاء سهيل، ونامت الخلائق، وتجلَّى عليهم بالستر الخالق، ثم سحب سيفه في يمينه، وأخذ ملقفه في يساره، وأقبل على قاعة الجلوس التي للخليفة، ونصب سلَّم التسليك، ورمى ملقفه على قاعة الجلوس فتعلَّق بها، وطلع على السلَّم إلى السطوح، ورفع طابق القاعة ونزل فيها، فوجد الطواشية نائمين، فبنَّجهم وأخذ بدلة الخليفة والسبحة والنمشة والمنديل والخاتم والمصباح الذي بالجواهر، ثم نزل من الموضع الذي طلع منه، وسار إلى بيت علاء الدين أبي الشامات، وكان علاء الدين في هذه الليلة مشغولًا بفرح الجارية، ودخل عليها وراحت منه حاملًا. فنزل أحمد قماقم السراق على قاعة علاء الدين، وقلع لوحًا رخامًا من در قاعة القاعة، وحفر تحته ووضع بعض المصالح، وأبقى بعضها معه، ثم جبس اللوح الرخام كما كان، ونزل من الموضع الذي طلع منه، وقال في نفسه: أنا أقعد أسكر، وأحط المصباح قدامي، وأشرب الكأس على نوره. ثم سار إلى بيته.

فلما أصبح الصباح ذهب الخليفة إلى القاعة فوجد الطواشية مُبنَّجين، فأيقظهم وحط يده فلم يجد البدلة، ولا الخاتم، ولا السبحة، ولا النمشة، ولا المنديل، ولا المصباح؛ فاغتاظ لذلك غيظًا شديدًا، ولبس بدلة الغضب، وهي بدلة حمراء، وجلس في الديوان، فتقدَّمَ الوزير وقبَّل الأرض بين يديه، وقال: يكفي الله شرَّ أمير المؤمنين. فقال له: يا وزير، إن الشر فائض. فقال له الوزير: أي شيء حصل؟ فحكى له جميع ما وقع، وإذا بالوالي طالع وفي ركابه أحمد قماقم السراق، فوجد الخليفة في غيظ عظيم. فلما نظر الخليفة إلى الوالي قال له: يا أمير خالد، كيف حال بغداد؟ فقال له: سالمة أمينة. فقال له: تكذب. فقال له: لأي شيء يا أمير المؤمنين؟ فقصَّ عليه القصة، وقال له: ألزمتُكَ أن تجيء لي بذلك كله. فقال له: يا أمير المؤمنين، دود الخل منه فيه، ولا يقدر غريب أن يصل إلى هذا المحل أبدًا. فقال: إن لم تجئ لي بهذه الأمور قتلتك. فقال له: قبل أن تقتلني اقتل أحمد قماقم السراق، فإنه لا يعرف الحرامي والخائن إلا مقدم الدرك. فقام أحمد قماقم، وقال للخليفة: شفِّعني في الوالي وأنا أضمن لك عهدة الذي سرق، وأقص الأثر وراءه حتى

أعرفه، ولكن أعطني اثنين من طرف القاضي، واثنين من طرف الوالي؛ فإن الذي فعل هذا الفعل لا يخشاك، ولا يخشى من الوالي ولا من غيره. فقال الخليفة: لك ما طلبت، ولكن أول التفتيش يكون في سرايتي، وبعدها في سراية رئيس الستين. فقال أحمد قماقم: صدقتَ يا أمير المؤمنين، ربما يكون الذي عمل هذه العملة واحد قد تربَّى في سراية أمير المؤمنين أو في سراية أحدٍ من خواصه. فقال الخليفة: وحياة رأسي، كلُّ مَن ظهرت عليه هذه العملة لا بد من قتله، ولو كان ولدي. ثم إن أحمد قماقم أخذ ما أراده، وأخذ فرمانًا بالهجوم على البيوت وتفتيشها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أحمد قماقم أخذ ما أراده، وأخذ فرمانًا بالهجوم على البيوت وتفتيشها، ونزل وبيده قضيب ثلثه من الشؤم، وثلثه من النحاس، وثلثه من الحديد والفولاذ، وفتش سراية الخليفة، وسراية الوزير جعفر، ودار على بيوت الحجَّاب والنواب إلى أن مر على بيت علاء الدين أبي الشامات؛ فلما سمع الضجة علاء الدين قدام بيته قام من عند ياسمين زوجته، ونزل وفتح الباب، فوجد الوالي في كركبة، فقال له: ما الخبر يا أمير خالد؟ فحكى له جميع القضية، فقال علاء الدين: ادخلوا بيتي وفتشوه. فقال الوالي: العفو يا سيدي، أنت أمين، وحاشا أن يكون الأمين خائنًا. فقال له: لا بد من تفتيش بيتي. فدخل الوالي والقضاة والشهود، وتقدَّمَ أحمد قماقم إلى در قاعة القاعة، وجاء إلى الرخامة التي دفن تحتها الأمتعة، وأرخى القضيب على اللوح الرخام بعزمه فانكسرت الرخامة، وإذا بشيء ينور تحتها، فقال المقدم: باسم الله ما شاء الله، على بركة قدومنا انفتح كنز، لما أنزل إلى هذا المطلب وأنظر ما فيه. فنظر القاضي والشهود إلى ذلك المحل فوجدوا الأمتعة بتمامها، فكتبوا ورقةً مضمونها أنهم وجدوا الأمتعة في بيت علاء الدين، ثم وضعوا في تلك الورقة ختومهم، وأمروا بالقبض على علاء الدين، وأخذوا عمامته من فوق رأسه، وضبطوا جميع ماله ورزقه في قائمة، وقبض أحمد قماقم السراق على الجارية ياسمين، وكانت حاملًا من علاء الدين، وأعطاها لأمه وقال لها: سلِّميها لخاتون امرأة الوالي. فأخذت ياسمين، ودخلت بها على زوجة الوالي، فلما رآها حبظلم بظاظة جاءت له العافية، وقام من وقته وساعته، وفرح فرحًا شديدًا، وتقرَّب إليها، فسحبت خنجرًا من حياصتها، وقالت له: ابعد عني وإلا أقتلك وأقتل نفسي. فقالت لها أمه خاتون: يا عاهرة، خلي ولدي يبلغ منك مراده. فقالت لها: يا كلبة، في أي مذهب يجوز للمرأة أن تتزوَّج باثنين؟ وأي شيء أوصل الكلاب أن تدخل في موطن السباع؟ فزاد بالولد الغرام،

وأضعفه الوَجْد والهيام، وقطع الزاد ولزم الوسادة، فقالت لها امرأة الوالي: يا عاهرة، كيف تحسرينني على ولدي؟ لا بد من تعذيبك، وأما علاء الدين فإنه لا بد من شنقه. فقالت لها: أنا أموت على محبته. فقامت زوجة الوالي ونزعت عنها ما كان عليها من الصيغة وثياب الحرير، وألبستها لباسًا من الخيش، وقميصًا من الشعر، وأنزلتها في المطبخ، وعملتها من جواري الخدمة، وقالت لها: جزاك أنك تكسرين الحطب، وتقشرين البصل، وتحطين النار تحت الحلل. فقالت لها: أرضى بكل عذاب وخدمة، ولا أرضى برؤية ولدك. فحنَّنَ الله عليها قلوب الجواري، وصرن يتعاطين الخدمة عنها في المطبخ.

هذا ما كان من أمر ياسمين، وأما ما كان من أمر علاء الدين أبي الشامات، فإنهم أخذوه هو وأمتعة الخليفة، وساروا به إلى أن وصلوا إلى الديوان. فبينما الخليفة جالس على الكرسي، وإذا بهم طالعون بعلاء الدين ومعه الأمتعة، فقال الخليفة: أين وجدتموها؟ فقالوا له: في وسط بيت علاء الدين أبي الشامات. فامتزج الخليفة بالغضب، وأخذ الأمتعة فلم يجد فيها المصباح، فقال: يا علاء الدين أين المصباح؟ فقال: أنا لا سرقت، ولا علمت، ولا رأيت، ولا معي خبر. فقال له: يا خائن، كيف أقرِّبك إليَّ وتبعدني عنك، وأستأمنك وتخونني؟ ثم أمر بشنقه، فنزل به الوالي والمنادي ينادي عليه: هذا جزاء، وأقل من جزاء مَن يخون الخلفاء الراشدين. فاجتمع الخلائق عند المشنقة.

هذا ما كان من أمر علاء الدين، وأما ما كان من أمر أحمد الدنف كبير علاء الدين، فإنه كان قاعدًا هو وأتباعه في بستان، فبينما هم جالسون في حظ وسرور، وإذا برجل سقاء من السقائين الذين في الديوان دخل عليهم، وقبَّل يد أحمد الدنف، وقال: يا مقدم أحمد الدنف، أنت قاعد في صفاء والماء تحت رجليك وما عندك علم بما حصل. فقال له أحمد الدنف: ما الخبر؟ فقال السقاء: إن ولدك في عهد الله علاء الدين نزلوا به إلى المشنقة. فقال أحمد الدنف: ما عندك من الحيلة يا حسن يا شومان؟ فقال له: إن علاء الدين بريء من هذا الأمر، وهذا ملعوب عليه من واحد عدو. فقال له: ما الرأي عندك؟ فقال له: خلاصه علينا إن شاء المولى. ثم إن حسن شومان ذهب إلى السجن، وقال للسجان: أعطنا واحدًا يكون مستوجبًا للقتل. فأعطاه واحدًا كان أشبه البرايا بعلاء الدين أبي الشامات، فغطَّى رأسه، وأخذه أحمد الدنف بينه وبين علي الزيبق المصري، وكانوا قدَّموا علاء الدين إلى الشنق، فتقدَّمَ الدنف وحطَّ رجله على رجل المشاعلي. فقال له المشاعلي: علي، أعطني الوسع حتى أعمل صنعتي. فقال له: يا لعين، خذ هذا الرجل واشنقه موضع علاء الدين أبي الشامات، فإنه مظلوم، ونفدي إسماعيل بالكبش. فأخذ المشاعلي ذلك الرجل وشنقه

عوضًا عن علاء الدين، ثم إن أحمد الدنف وعليًّا الزيبق المصري أخذَا علاء الدين وسارَا به إلى قاعة أحمد، فلما دخلوا عليه قال له علاء الدين: جزاك الله خيرًا يا كبيري. فقال له: يا علاء الدين، ما هذا الفعل الذي فعلته؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أحمد الدنف قال لعلاء الدين: ما هذا الفعل الذي فعلته؟ ورحم الله مَن قال: مَن ائتمنك فلا تخنه، ولو كنت خائنًا. والخليفة مكَّنك عنده وسمَّاك بالثقة الأمين، كيف تفعل معه هكذا وتأخذ أمتعته؟ فقال له علاء الدين: والاسم الأعظم يا كبيري ما هي عملتي، ولا لي فيها ذنب، ولا أعرف مَن عملها. فقال أحمد الدنف: إن هذه العملة ما عملها إلا عدو مبين، ومَن فعل شيئًا يُجازَى به، ولكن يا علاء الدين أنت ما بقي لك إقامة في بغداد، فإن الملوك لا تُعادَى يا ولدي، ومَن كانت الملوك في طلبه، فيا طول تعبه. فقال علاء الدين: أين أروح يا كبيري؟ فقال له: أنا أوصلك إلى الإسكندرية فإنها مباركة، وعتبتها خضراء، وعيشتها هنية. فقال: سمعًا وطاعة يا كبيري. فقال أحمد الدنف لحسن شومان: خلِّ بالك، وإذا سأل عني الخليفة فقل له إنه راح يطوف على البلاد. ثم أخذه وخرج من بغداد، ولم يزالا سائرين حتى وصلا إلى الكروم والبساتين، فوجدا يهوديين من عمَّال الخليفة راكبين على بغلتين. فقال أحمد الدنف لليهوديين: هاتا الغفر. فقال اليهوديان: نعطيك الغفر على أي شيء؟ فقال لهما: أنا غفير هذا الوادي. فأعطاه كل واحد منهما مائة دينار، وبعد ذلك قتلهما أحمد الدنف وأخذ البغلتين، فركب بغلة، وركب علاء الدين بغلة، وسارا إلى مدينة أياس، فأدخلا البغلتين في خان وباتا فيه، ولما أصبح الصباح باع علاء الدين بغلته، وأوصى البواب على بغلة أحمد الدنف، ونزلوا في مركب من مينة أياس حتى وصلوا إلى الإسكندرية؛ فطلع أحمد الدنف ومعه علاء الدين، ومشيا في السوق، وإذا بدلَّال يدلل على دكان، ومن داخل الدكان طبقة على تسعمائة وخمسين، فقال علاء الدين: عليَّ بألف. فسمح له البائع، وكانت لبيت المال؛ فتسلم علاء الدين المفاتيح، وفتح الدكان، وفتح الطبقة فوجدها مفروشة بالفرش والمساند، ورأى

فيها حاصلًا فيه قلاع، وصوارٍ، وحبال، وصناديق، وأجربة ملآنة خرزًا وودعًا، وركايات، وأطبارًا، ودبابيس، وسكاكين، ومقصات ... وغير ذلك؛ لأن صاحبه كان سقطيًّا.

فقعد علاء الدين أبو الشامات في الدكان، وقال له أحمد الدنف: يا ولدي، الدكان والطبقة وما فيهما صارت ملكك فاقعد فيها، وبِعْ واشترِ، ولا تنكَرِ، فإن الله تعالى بارك في التجارة. وأقام عنده ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أخذ خاطره، وقال له: استقر في هذا المكان حتى أروح وأعود إليك بخبرٍ من الخليفة بالأمان عليك، وأنظر الذي عمل معك هذا الملعوب. ثم توجَّه مسافرًا حتى وصل إلى أياس، فأخذ البغلة من الخان وسار إلى بغداد، فاجتمع بحسن شومان وأتباعه، وقال له: يا حسن، هل الخليفة سأل عني؟ فقال: لا، ولا خطرتَ على باله. فأقام في خدمة الخليفة، وصار يستنشق الأخبار، فرأى الخليفة التفت إلى الوزير جعفر يومًا من الأيام، وقال له: انظر يا وزير هذه العملة التي فعلها معي علاء الدين. فقال له: يا أمير المؤمنين، أنت جازيته بالشنق، وجزاؤه ما حل به. فقال له: يا وزير، مرادي أن أنزل وأنظره وهو مشنوق. فقال الوزير: افعل ما شئتَ يا أمير المؤمنين. فنزل الخليفة ومعه الوزير جعفر إلى جهة المشنقة، ثم رفع طرفه فرأى المشنوق غير علاء الدين أبي الشامات الثقة الأمين، فقال: يا وزير، هذا ما هو علاء الدين. فقال له: كيف عرفتَ أنه غيره؟ فقال: إن علاء الدين كان قصيرًا، وهذا طويل. فقال له الوزير: إن المشنوق يطول. فقال له: إن علاء الدين كان أبيض، وهذا وجهه أسود. فقال له: أَمَا تعلم يا أمير المؤمنين أن الموت له غبرات؟! فأمر بتنزيله من فوق المشنقة. فلما أنزلوه وجد مكتوبًا على كعبَيْه الاثنين: اسمي الشيخين. فقال له: يا وزير، إن علاء الدين كان سُنِّيًّا، وهذا رافضي. فقال له: سبحان الله علَّام الغيوب، ونحن لا نعلم هل هذا علاء الدين أم غيره؟ فأمر الخليفة بدفنه فدفنوه، وصار علاء الدين نسيًا منسيًّا.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر حبظلم بظاظة ابن الوالي، فإنه قد طال به العشق والغرام حتى مات وواروْه في التراب.

وأما ما كان من أمر الجارية ياسمين، فإنها وفت حملها، ولحقها الطلق فوضعت ولدًا ذكرًا كأنه القمر، فقال لها الجواري: ما تسميه؟ فقالت: لو كان أبوه طيبًا كان سمَّاه، ولكن أنا أسمِّيه أصلان. ثم إنها أرضعته اللبن عامين متتابعين، وفطمته وحبا ومشى. فاتفق أن أمه اشتغلت بخدمة المطبخ يومًا من الأيام، فمشى الغلام ورأى سلم المقعد فطلع عليه، وكان الأمير خالد الوالي جالسًا فأخذه، وأقعده في حجره، وسبَّح مولاه فيما خلق وصوَّر، وتأمَّلَ وجهه فرآه أشبه البرايا بعلاء الدين أبي الشامات. ثم إن أمه ياسمين

فتَّشَتْ عليه فلم تجده، فطلعت المقعد فرأت الأمير خالدًا جالسًا والولد في حجره يلعب، وقد ألقى الله محبة الولد في قلب الأمير خالد، فالتفت الولد فرأى أمه فرمى نفسه عليها، فزنقه الأمير خالد في حضنه، وقال لها: تعالي يا جارية. فلما جاءت قال لها: هذا الولد ابن مَن؟ فقالت له: هذا ولدي وثمرة فؤادي. فقال لها: ومَن أبوه؟ فقالت: أبوه علاء الدين أبو الشامات، والآن صار ولدك. فقال لها: إن علاء الدين كان خائنًا. فقالت: سلامته من الخيانة، حاشا وكلَّا أن يكون الأمين خائنًا. فقال لها: إذا كبر هذا الولد وانتشأ وقال لك: مَن أبي؟ فقولي له: أنت ابن الأمير خالد الوالي صاحب الشرطة. فقالت له: سمعًا وطاعة.

ثم إن الأمير خالد الوالي طاهر الولد، وربَّاه وأحسن تربيته، وجاء له بفقيه خطاط فعلَّمه الخط والقراءة، فقرأ وعاد وختم، وطلع يقول للأمير خالد: يا والدي. وصار الوالي يعمل في الميدان، ويجمع الخيل، وينزل يعلِّم الولد أبواب الحرب ومقام الطعن والضرب، إلى أن انتهى في الفروسية، وتعلَّم الشجاعة، وبلغ من العمر أربع عشرة سنة، ووصل إلى درجة الإمارة، فاتفق أن أصلان اجتمع مع أحمد قماقم السراق يومًا من الأيام، وصارا أصحابًا، فتبعه إلى الخمارة، وإذا بأحمد قماقم السراق أطلع المصباح الجوهر الذي أخذه من أمتعة الخليفة، وحطَّه قدامه، وتناول الكأس على نوره وسكر، فقال له أصلان: يا مقدم، أعطني هذا المصباح. فقال له: ما أقدر أن أعطيك إياه. فقال له: لأي شيء؟ فقال: لأنه راحت على شأنه الأرواح. فقال له: أي روح راحت على شأنه؟ فقال له: كان واحد جاءنا هنا، وعمل رئيس الستين يُسمَّى علاء الدين أبا الشامات، ومات بسبب ذلك. فقال له: وما حكايته؟ وما سبب موته؟ فقال له: كان لك أخ يُسمَّى حبظلم بظاظة، وبلغ من العمر ستة عشر عامًا حتى استحق الزواج، وطلب أبوه أن يشتري له جارية ... وخبَّره بالقصة من أولها إلى آخرها، وأعلمه بضعف حبظلم بظاظة، وما وقع لعلاء الدين ظلمًا. فقال أصلان في نفسه: لعل هذه الجارية ياسمين أمي، وما أبي إلا علاء الدين أبو الشامات. فطلع الولد أصلان من عنده حزينًا، فقابَلَ المقدم أحمد الدنف، فلما رآه أحمد الدنف قال: سبحان مَن لا شبيهَ له! فقال له حسن شومان: يا كبيري، من أي شيء تتعجَّب؟ فقال له: من خلقة هذا الولد أصلان؛ فإنه أشبه البرايا بعلاء الدين أبي الشامات. فنادى أحمد الدنف وقال: يا أصلان. فرَّد عليه، فقال له: ما اسم أمك؟ فقال له: تُسمَّى الجارية ياسمين. فقال له: يا أصلان، طِبْ نفسًا وقرَّ عينًا؛ فإنه ما أبوك إلا علاء الدين أبو الشامات، ولكن يا ولدي ادخل على أمك، واسألها عن أبيك. فقال: سمعًا وطاعة.

ثم دخل على أمه وسألها، فقالت له: أبوك الأمير خالد. فقال لها: ما أبي إلا علاء الدين أبو الشامات. فبكت أمه وقالت له: مَن أخبرك بهذا يا ولدي؟ فقال: المقدم أحمد الدنف

أخبرني بذلك. فحكت له جميع ما جرى، وقالت له: يا ولدي، قد ظهر الحق واختفى الباطل، واعلم أن أباك علاء الدين أبو الشامات، إلا أنه ما ربَّاك إلا الأمير خالد، وجعلك ولده، فيا ولدي إن اجتمعت بالمقدم أحمد الدنف فقل له: يا كبيري، سألتك بالله أن تأخذ لي ثأري من قاتل أبي علاء الدين أبي الشامات. فطلع من عندها وسار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أصلان طلع من عند أمه وسار إلى أن دخل على المقدم أحمد الدنف وقبَّل يده، فقال له: ما لك يا أصلان؟ فقال له: إني قد عرفت وتحقَّقت أن أبي علاء الدين أبو الشامات، ومرادي أنك تأخذ لي ثأري من قاتله. فقال له: مَن الذي قتل أباك؟ فقال له: أحمد قماقم السراق. فقال له: ومَن أعلمك بهذا الخبر. فقال: رأيت معه المصباح الجوهر الذي ضاع من جملة أمتعة الخليفة، وقلت له: أعطني هذا المصباح فما رضي، وقال لي: هذا راحت على شأنه الأرواح. وحكى لي أنه هو الذي نزل وسرق العملة ووضعها في دار أبي. فقال له أحمد الدنف: إذا رأيت الأمير خالدًا الوالي يلبس لباس الحرب فقل له: ألبسني مثلك. فإذا طلعت معه وأظهرت بابًا من أبواب الشجاعة قدَّام أمير المؤمنين، فإن الخليفة يقول لك: تمنَّ عليَّ يا أصلان. فقل له: أتمنى عليك أن تأخذ لي ثأر أبي من قاتله. فيقول لك: إن أباك حي، وهو الأمير خالد الوالي. فقل له: إن أبي علاء الدين أبو الشامات، وخالد الوالي له عليَّ حق التربية فقط. وأخبِرْه بجميع ما وقع بينك وبين أحمد قماقم السراق، وقل له: يا أمير المؤمنين، اؤمر بتفتيشه وأنا أُخرِجه من جيبه. فقال له: سمعًا وطاعة.

ثم طلع أصلان فوجد الأمير خالدًا يتجهز إلى طلوعه ديوان الخليفة، فقال له: مرادي أن تلبسني لباس الحرب مثلك، وتأخذني معك إلى ديوان الخليفة. فألبسه وأخذه معه إلى الديوان، ونزل الخليفة بالعسكر خارج البلد، ونصبوا الصواوين والخيام، واصطفت الصفوف، وطلعوا بالأكرة والصولجان، فصار الفارس منهم يضرب الأكرة بالصولجان فيردها عليه الفارس الثاني، وكان بين العسكر واحد جاسوس مُغرًى على قتل الخليفة، فأخذ الأكرة وضربها بالصولجان، وحرَّرها على وجه الخليفة، وإذا بأصلان استلقاها عن الخليفة وضرب بها راميها فوقعت بين أكتافه فوقع على الأرض. فقال الخليفة: بارَكَ

الله فيك يا أصلان. ثم نزلوا من على ظهور الخيل، وقعدوا على الكراسي، وأمر الخليفة بإحضار الذي ضرب الأكرة.

فلما حضر بين يديه قال له: مَن أغراك على هذا الأمر، وهل أنت عدو أم حبيب؟ فقال له: أنا عدو، وكنت مُضمِرًا قتلك. فقال له: ما سبب ذلك؟ أَمَا أنت مسلم؟ فقال: لا، وإنما أنا رافضي. فأمر الخليفة بقتله، وقال لأصلان: تمنَّ عليَّ. فقال له: أتمنى عليك أن تأخذ لي ثأر أبي من قاتله. فقال له: إن أباك حي، وهو واقف على رجليه. فقال له: مَن هو أبي؟ فقال له: الأمير خالد الوالي. فقال له: يا أمير المؤمنين، ما هو إلا في التربية، وما والدي إلا علاء الدين أبو الشامات. فقال له: إن أباك كان خائنًا. فقال: يا أمير المؤمنين، حاشا أن يكون الأمين خائنًا، وما الذي خانك فيه؟ فقال له: سرق بدلتي وما معها. فقال: يا أمير المؤمنين، حاشا أن يكون أبي خائنًا، ولكن يا سيدي لما عدمت بدلتك وعادت إليك، هل رأيت المصباح رجع إليك أيضًا؟ فقال: ما وجدناه. فقال: أنا رأيته مع أحمد قماقم، وطلبته منه فلم يعطه لي، وقال: هذا راحت عليه الأرواح. وحكى لي عن ضعف حبظلم بظاظة ابن الأمير خالد، وعشقه للجارية ياسمين، وخلاصه من القيد، وأنه هو الذي سرق البدلة والمصباح، وأنت يا أمير المؤمنين تأخذ لي بثأر والدي من قاتله. فقال الخليفة: اقبضوا على أحمد قماقم. فقبضوا عليه، وقال: أين المقدم أحمد الدنف؟ فحضر بين يديه، فقال له الخليفة: فتِّشْ قماقم. فحط يدَيْه في جيبه، فأطلع منه المصباح الجوهر. فقال الخليفة: تعال يا خائن، من أين لك هذا المصباح؟ فقال له: اشتريته يا أمير المؤمنين. فقال له الخليفة: من أين اشتريته؟ ومَن يقدر على مثله حتى يبيعه لك؟ وضربوه فأقرَّ أنه هو الذي سرق البدلة والمصباح. فقال له الخليفة: لأي شيء تفعل هذه الفعال يا خائن حتى ضيَّعْتَ علاء الدين أبا الشامات، وهو الثقة الأمين؟

ثم أمر الخليفة بالقبض عليه وعلى الوالي. فقال الوالي: يا أمير المؤمنين أنا مظلوم، وأنت أمرتني بشنقه، ولم يكن عندي خبر هذا الملعوب، فإن التدبير كان بين العجوز وأحمد قماقم وزوجتي، وليس عندي خبر، وأنا في جيرتك يا أصلان. فشفع فيه أصلان عند الخليفة، ثم قال أمير المؤمنين: ما فعل الله بأم هذا الولد؟ فقال له: عندي. فقال: أمرتك أن تأمر زوجتك أن تلبسها بدلتها وصيغتها، وتردَّها إلى سيادتها، وأن تفك الختم الذي على بيت علاء الدين، وتعطي ابنه رزقه وماله. فقال: سمعًا وطاعة. ثم نزل الوالي وأمر امرأته فألبستها بدلتها، وفك الختم عن بيت علاء الدين، وأعطى أصلان المفاتيح، ثم قال الخليفة: تمنَّ عليَّ يا أصلان. فقال له: تمنيت عليك أن تجمع شملي بأبي. فبكى

الخليفة وقال: الغالب أن أباك هو الذي شُنِق ومات، ولكن وحياة جدودي كل مَن بشَّرني بأنه على قيد الحياة أعطيته جميع ما يطلبه. فتقدَّمَ أحمد الدنف وقبَّل الأرض بين يديه، وقال له: أعطني الأمان يا أمير المؤمنين. فقال له: عليك الأمان. فقال: أبشِّرك أن علاء الدين أبا الشامات الثقة الأمين طيِّبٌ على قيد الحياة. فقال له: ما الذي تقول؟ فقال له: وحياة رأسك إن كلامي حق، وفديته بغيره ممَّن يستحق القتل، وأوصلته إلى الإسكندرية، وفتحت له دكان سقطي. فقال الخليفة: ألزمتك أن تجيء به. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة قال لأحمد الدنف: ألزمتك أن تجيء به. فقال له: سمعًا وطاعة. فأمر له الخليفة بعشرة آلاف دينار، وسار متوجهًا إلى الإسكندرية.

هذا ما كان من أمر أصلان، وأما ما كان من أمر والده علاء الدين أبي الشامات، فإنه باع ما كان عنده في الدكان جميعه، ولم يبقَ في الدكان إلا القليل وجراب، فنفض الجراب فنزلت منه خرزة تملأ الكف في سلسلة من الذهب، ولها خمسة وجوه، وعليها أسماء وطلاسم كدبيب النمل، فدعك الخمسة وجوه فلم يجاوبه أحد، فقال في نفسه: لعلها خرزة من جزع. ثم علَّقها في الدكان، وإذا بقنصل فائت في الطريق فرفع بصره فرأى الخرزة معلقة، فقعد على دكان علاء الدين، وقال له: يا سيدي، هل هذه الخرزة للبيع؟ فقال له: جميع ما عندي للبيع. فقال له: أتبيع لي إياها بثمانين ألف دينار؟ فقال له علاء الدين: يفتح الله. فقال له: أتبيعها بمائة ألف دينار؟ فقال: بعتها لك بمائة ألف دينار، فأنقِدْني الدنانير. فقال له القنصل: ما أقدر أن أحمل ثمنها معي، والإسكندرية فيها حرامية وشرطية، فأنت تروح معي إلى مركبي وأعطي لك الثمن، ورزمة صوف أنجوري، ورزمة أطلس، ورزمة قطيفة، ورزمة جوخ. فقام علاء الدين وقفل الدكان بعد أن أعطى له الخرزة، وأعطى المفاتيح لجاره وقال له: خذ هذه المفاتيح عندك أمانةً حتى أروح إلى المركب مع هذا القنصل وأجيء بثمن خرزتي، فإن عوَّقت عنك وورد عليك المقدم أحمد الدنف الذي كان وطَّنني في هذا المكان، فأعطه المفاتيح وأخبره بذلك. ثم توجه مع القنصل إلى المركب، فلما نزل به المركب نصب له كرسيًّا وأجلسه عليه، وقال: هاتوا المال. فدفع له الثمن، والخمس رزم التي وعده بها، وقال له: يا سيدي، اقصد جبري بلقمة أو شربة ماء. فقال: إن كان عندك ماء فاسقني. فأمر بالشربات فإذا فيها بِنْج، فلما شرب انقلب على ظهره، فرفعوا الكراسي وحطوا المداري، وحلوا القلوع، وأسعفتهم الرياح حتى

وصلوا إلى وسط البحر، فأمر القبطان بطلوع علاء الدين من العنبر فطلَّعوه، وشمموه ضد البنج، ففتح عينيه وقال: أين أنا؟ فقال له: أنت معي مربوط وديعة، ولو كنت تقول «يفتح الله»، لكنت أزيدك. فقال له علاء الدين: ما صناعتك؟ فقال له: أنا قبطان، ومرادي أن آخذك إلى حبيبة قلبي.

فبينما هما في الكلام، وإذا بمركب فيها أربعون من تجار المسلمين، فطلع القبطان بمركبه عليهم، ووضع الكلاليب في مركبهم، ونزل هو ورجاله فنهبوها وأخذوها، وساروا بها إلى مدينة جنوة؛ فأقبل القبطان الذي معه علاء الدين إلى باب قيطون قصر، وإذا بصبية نازلة وهي ضاربة لثامًا، فقالت له: هل جئتَ بالخرزة وصاحبها؟ فقال لها: جئتُ بهما. فقالت له: هات الخرزة. فأعطاها لها، وتوجه إلى المينة ورمى مدافع السلامة، فعلم ملك المدينة بوصول ذلك القبطان، فخرج إلى مقابلته وقال له: كيف كانت سفرتك؟ فقال له: كانت طيبة جدًّا، وقد كسبت فيها مركبًا فيها واحد وأربعون من تجار المسلمين. فقال له: أخرجهم إلى المينة. فأخرجهم في الحديد، ومن جملتهم علاء الدين، وركب الملك هو والقبطان، ومشَّوهم قدَّامهم إلى أن وصلوا إلى الديوان، فجلسوا وقدَّموا أول واحد، فقال له الملك: من أين يا مسلم؟ فقال: من الإسكندرية. فقال: يا سياف اقتله. فضربه السياف بالسيف فرمى رقبته، والثاني والثالث هكذا إلى تمام الأربعين.

وكان علاء الدين في آخرهم فشرب حسرتهم، وقال لنفسه: رحمة الله عليك يا علاء الدين! فرغ عمرك. فقال له الملك: وأنت من أي البلاد؟ فقال: من الإسكندرية. فقال: يا سياف ارمِ عنقه. فرفع السياف يده بالسيف، وأراد أن يرمي رقبة علاء الدين، وإذا بعجوز ذات هيبة تقدَّمت بين أيادي الملك، فقام إليها تعظيمًا لها. فقالت: يا ملك، أَمَا قلت لك لما يجيء القبطان بالأسارى تذكر الدير بأسير أو بأسيرين يخدمان في الكنيسة؟ فقال لها: يا أمي، ليتك سبقت بساعة. ولكن خذي هذا الأسير الذي فضل. فالتفتت إلى علاء الدين وقالت له: هل أنت تخدم في الكنيسة أو أخلي الملك يقتلك؟ فقال لها: أنا أخدم في الكنيسة. فأخذته وطلعت به من الديوان، وتوجهت إلى الكنيسة، فقال لها علاء الدين: ما أعمل من الخدمة؟ فقالت له: تقوم في الصبح وتأخذ خمسة بغال، وتسير بها إلى الغابة، وتقطع ناشف الحطب وتكسره، وتجيء به إلى مطبخ الدير، وبعد ذلك تلم البُسُط وتكنس، وتمسح البلاط والرخام، وترد الفرش مثلما كان، وتأخذ نصف أردب قمح وتغربله وتطحنه وتعجنه، وتعمله منينات للدير، وتأخذ ويبة عدس تغربلها وتدشها وتطبخها، ثم تملأ الأربع فساقي ماءً، وتحوِّل بالبرميل، وتملأ ثلاثمائة وستة وستين

قصعة، وتفت فيها المنينات وتسقيها من العدس، وتُدخِل لكل راهب أو بطرك قصعته. فقال لها علاء الدين: ردِّيني إلى الملك وخليه يقتلني أسهل لي من هذه الخدمة. فقالت له: إن خدمت ووفيت الخدمة التي عليك خلصت من القتل، وإن لم توفِّ خلَّيت الملك يقتلك.

فقعد علاء الدين حامل الهم، وكان في الكنيسة عشرة عميان مكسحين، فقال له واحد منهم: هات لي قصرية. فأتى له بها فتغوَّط فيها، وقال له: ارم الغائط. فرماه، فقال له: يبارك فيك المسيح يا خدام الكنيسة. وإذا بالعجوز أقبلت وقالت له: لأي شيء ما وفيت الخدمة في الكنيسة؟ فقال لها: أنا لي كم يد حتى أقدر على توفية هذه الخدمة. فقالت له: يا مجنون، أنا ما جئت بك إلَّا للخدمة. ثم قالت له: خذ يا ابني هذا القضيب — وكان من النحاس، وفي رأسه صليب — واخرج إلى الشارع، فإذا قابلك والي البلد فقل له: إني أدعوك إلى خدمة الكنيسة من أجل السيد المسيح. فإنه لا يخالفك، فخلِّهِ يأخذ القمح ويغربله ويطحنه وينخله ويعجنه، ويخبزه منينات، وكلُّ مَن يخالفك اضربه ولا تَخَفْ من أحد. فقال: سمعًا وطاعة. وعمل كما قالت، ولم يزل يسخِّر الأكابر والأصاغر مدة سبعة عشر عامًا. فبينما هو قاعد في الكنيسة، وإذا بالعجوز داخلة عليه فقالت له: اطلع إلى خارج الدير. فقال لها: أين أروح؟ فقالت له: بِت هذه الليلة في خمارة أو عند واحد من أصحابك. فقال لها: لأي شيء تطردينني من الكنيسة؟ فقالت له: إن حسن مريم بنت الملك يوحنا ملك هذه المدينة مرادها أن تدخل الكنيسة للزيارة، ولا ينبغي أن يقعد أحد في طريقها. فامتثل كلامها وقام، وأراها أنه رائح إلى خارج الكنيسة، وقال في نفسه: يا هل ترى بنت الملك مثل نسواننا أم أحسن منهن؟ فأنا لا أروح حتى أتفرج عليها، فاختفى في مخدع له طاقة تطلُّ على الكنيسة. فبينما هو ينظر في الكنيسة، وإذا ببنت الملك مُقبِلة، فنظر إليها نظرةً أعقبته ألف حسرة؛ لأنه وجدها كأنها البدر إذا بزغ من تحت الغمام، وصحبتها صبية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علاء الدين لما نظر إلى بنت الملك رأى بصحبتها صبية، وهي تقول لتلك الصبية: آنست يا زبيدة. فأمعن علاء الدين النظر في تلك الصبية فرآها زوجته زبيدة العودية التي كانت ماتت، ثم إن بنت الملك قالت لزبيدة: قومي اعملي لنا نوبة على العود. فقالت لها: أنا لا أعمل لك نوبة حتى تبلغيني مرادي، وتفي لي بما وعدتِني به. فقالت لها: ما الذي وعدتك به؟ قالت لها: وعدتِني بجمع شملي بزوجي علاء الدين أبي الشامات الثقة الأمين. فقالت لها: يا زبيدة، طيبي نفسًا وقرِّي عينًا، واعملي لنا نوبة حلاوة اجتماع شملنا بزوجك علاء الدين. فقالت لها: وأين هو؟ فقالت لها: إنه في هذا المخدع يسمع كلامنا. فعملت نوبة على العود ترقص الحجر الجلمود، فلما سمع ذلك علاء الدين هاجت بلابله، وخرج من المخدع وهجم عليهما، وأخذ زوجته زبيدة العودية بالحضن، وعرفته فاعتنق الاثنان بعضهما، ووقعا على الأرض مغشيًّا عليهما؛ فتقدمت الملكة حسن مريم ورشَّت عليهما ماء الورد وصحتهما وقالت: جمع الله شملكما. فقال لها علاء الدين: على محبتك يا سيدتي.

ثم التفت علاء الدين إلى زوجته زبيدة العودية وقال لها: أنت قد مت يا زبيدة، ودفناك في القبر، فكيف حييت وجئتِ إلى هذا المكان؟ فقالت له: يا سيدي، أنا ما مت، وإنما اختطفني عون من أعوان الجان، وطار بي إلى هذا المكان، وأما التي دفنتموها فإنها جنية وتصوَّرت في صورتي، وعملت أنها ميتة، وبعدما دفنتموها شقَّت القبر وخرجت منه، وراحت إلى خدمة سيدتها حسن مريم بنت الملك، وأما أنا فإني صُرِعت وفتحت عيني فرأيت نفسي عند حسن مريم بنت الملك، وهي هذه. فقلت لها: لأي شيء جئتِ بي إلى هنا؟ فقالت لي: أنا موعودة بزواجي بزوجك علاء الدين أبي الشامات، فهل تقبلينني يا زبيدة أن أكون ضرتك، ويكون لي ليلة ولك ليلة؟ فقالت لها: سمعًا وطاعة يا سيدتي. ولكن

أين زوجي؟ فقالت: إنه مكتوب على جبينه ما قدَّره الله عليه، فمتى استوفى ما على جبينه لا بد أن يجيء إلى هذا المكان، ولكن نتسلى على فراقه بالنغمات، والضرب على الآلات، حتى يجمعنا الله به. فمكثتُ عندها هذه المدة إلى أن جمع الله شملي بك في هذه الكنيسة.

ثم إن حسن مريم التفتت إليه، وقالت له: يا سيدي علاء الدين، هل تقبلني أن أكون لك أهلًا، وتكون لي بعلًا؟ فقال لها: يا سيدتي، أنا مسلم وأنت نصرانية، فكيف أتزوَّج بك؟ فقالت: حاشا لله أن أكون كافرة، بل أنا مسلمة ولي ثمانية عشر عامًا وأنا متمسكة بدين الإسلام، وإني بريئة من كل دين يخالف دين الإسلام. فقال لها: يا سيدتي، مرادي أن أروح بلادي. فقالت له: اعلم أني رأيت مكتوبًا على جبينك أمورًا لا بد أن تستوفيها، وتبلغ غرضك، ويهنيك يا علاء الدين أنه ظهر لك ولد اسمه أصلان، وهو الآن جالس في مرتبتك عند الخليفة، وقد بلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، واعلم أنه ظهر الحق واختفى الباطل، وربنا كشف الستر عن الذي سرق أمتعة الخليفة، وهو أحمد قماقم السراق الخائن، وهو الآن في السجن محبوس ومقيَّد، واعلم أني أنا التي أرسلتُ إليك الخرزة، ووضعتها لك في داخل الجراب الذي في الدكان، وأنا التي أرسلت القبطان وجاء بك وبالخرزة، واعلم أن هذا القبطان متعلق بي، ويطلب مني الوصال، فما رضيت أن أمكِّنه من نفسي، بل قلت له: لا أمكنك من نفسي إلا إذا جئتَ لي بالخرزة وصاحبها. وأعطيته مائة كيس، وأرسلته في صفة تاجر وهو قبطان، ولما قدموك إلى القتل بعد قتل الأربعين الأسارى الذين كنتَ معهم، أرسلتُ إليك هذه العجوز. فقال لها: جزاك الله عني كل خير.

ثم إن حسن مريم جددت إسلامها على يديه، ولما عرف صدق كلامها قال لها: أخبريني عن فضيلة هذه الخرزة ومن أين هي؟ فقالت له: هذه خرزة من كنز، مرصود فيها خمس فضائل تنفعنا عند الاحتياج إليها، وإن جدتي أم أبي كانت ساحرة تحل الرموز، وتختلس ما في الكنوز، فوقعت لها هذه الخرزة من كنز، فلما كبرت أنا وبلغتُ من العمر أربعة عشر عامًا، قرأت الإنجيل وغيره من الكتب، فرأيت اسم محمد ﷺ في الأربعة كتب؛ التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان؛ فآمنت بمحمد ﷺ وأسلمت، وتحقَّقت بعقلي أنه لا يُعبد بحقٍّ إلا الله تعالى، وأن رب الأنام لا يرضى إلا دين الإسلام، وكانت جدتي حين ضعفت وهبت لي هذه الخرزة، وعلَّمتني بما فيها من الخمس فضائل، وقبل أن تموت جدتي قال لها أبي: اضربي لي تخت رمل، وانظري عاقبة أمري وما يحصل لي. فقالت له: إن البعيد يموت قتيلًا من أسير يجيء من الإسكندرية. فحلف أبي أن يقتل كل أسير يجيء منها، وأخبر القبطان بذلك وقال له: لا بد أن تهجم على مراكب المسلمين، وكل مَن

رأيته من الإسكندرية تقتله أو تجيء به إليَّ. فامتثل أمره حتى قتل عدد شعر رأسه، ثم هلكت جدتي فطلعت أنا، وضربت لي تخت رمل، وأضمرت ما في نفسي، وقلت: يا هل ترى مَن يتزوج بي؟ فظهر لي أنه ما يتزوج بي إلا واحد يُسمَّى علاء الدين أبا الشامات الثقة الأمين؛ فتعجَّبْتُ من ذلك، وصبرت إلى أنْ آنَ الأوان، واجتمعت بك.

ثم إنه تزوَّج بها وقال لها: أنا مرادي أن أروح إلى بلادي. فقالت له: إذا كان الأمر كذلك فتعال معي. ثم أخذته وخبَّأته في مخدع قصرها، ودخلت على أبيها. فقال لها: يا بنتي، أنا عندي اليوم قبض زائد فاقعدي حتى أسكر معك. فقعدت ودعا بسفرة المدام، وصارت تملأ وتسقيه حتى غاب عن الوجود، ثم إنها وضعت له البنج في قدح، فشرب القدح وانقلب على قفاه، ثم جاءت إلى علاء الدين وأخرجته من المخدع، وقالت له: إن خصمك مطروح على قفاه فافعل به ما شئتَ، فإني أسكرته وبنَّجته. فدخل علاء الدين فرآه مبنَّجًا، فكتَّفه تكتيفًا وثيقًا وقيَّده، ثم أعطاه ضد البنج فأفاق منه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٦٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علاء الدين أعطى الملك أبا حسن مريم ضد البنج فأفاق، فوجد علاء الدين وابنته راكبَين على صدره. فقال لها: يا بنتي، أتفعلين معي هذه الفعال؟ فقالت له: إن كنتُ بنتك فأسلم لأنني أسلمت، وقد تبيَّنَ لي الحقُّ فاتبعته، والباطل فاجتنبته، وقد أسلمت وجهي لله رب العالمين، وإنني بريئة من كل دين يخالف دين الإسلام في الدنيا والآخرة، فإن أسلمتَ فحبًّا وكرامة، وإلا فقتلك أولى من حياتك. ثم نصحه علاء الدين فأبى وتمرَّد؛ فسحب علاء الدين خنجرًا ونحره من الوريد إلى الوريد، وكتب ورقة بصورة الذي جرى، ووضعها على جبهته، وأخذ ما خف حمله وغلا ثمنه، وطلعا من القصر وتوجَّها إلى الكنيسة؛ فأحضرت الخرزة وحطَّت يدها على الوجه الذي هو منقوش عليه السرير ودعكته، وإذا بسرير وضع قدَّامها، فركبت هي وعلاء الدين وزوجته زبيدة العودية على ذلك السرير، وقالت: بحق ما كُتِب على هذه الخرزة من الأسماء والطلاسم وعلوم الأقلام أن ترتفع بنا يا سرير. فارتفع بهم السرير، وسار إلى وادٍ لا نباتَ فيه. فقامت الأربعة وجوه الباقية من الخرزة إلى السماء، وقلبت الوجه المرسوم عليه السرير فنزل إلى الأرض، وقلبت الوجه المرسوم عليه هيئة صيوان ودعكته، وقالت: لينتصب صيوان في هذا الوادي. فانتصب الصيوان وجلسوا فيه، وكان ذلك الوادي أقفر لا نباتَ فيه ولا ماء، فقلبت الأربعة وجوه إلى السماء وقالت: بحق أسماء الله تنبُت هنا أشجار ويجري بجانبها بحر. فنبتت الأشجار في الحال، وجرى بجانبها بحر عجاج متلاطم بالأمواج، فتوضَّئُوا منه وصلوا وشربوا، وقلبت الثلاثة وجوه الباقية من الخرزة إلى الوجه الذي على هيئة سفرة الطعام، وقالت: بحق أسماء الله يُمَد السماط. وإذا بسماط امتد وفيه سائر الأطعمة الفاخرة، فأكلوا وشربوا، وتلذَّذوا وطربوا.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر ابن الملك، فإنه دخل ينبِّه أباه فوجده قتيلًا، ووجد الورقة التي كتبها علاء الدين، فقرأها وعرف ما فيها، ثم فتَّش على أخته فلم يجدها، فذهب إلى العجوز في الكنيسة وسألها عنها فقالت: من أمس ما رأيتها. فعاد إلى العسكر وقال لهم: الخيل يا أربابها. وأخبرهم بالذي جرى؛ فركبوا الخيل وسافروا إلى أن قربوا من الصيوان، فالتفتت حسن مريم فرأت الغبار قد سد الأقطار، وبعد أن علا وطار انكشف فظهر من تحته أخوها والعسكر وهم ينادون: إلى أين تقصدون ونحن وراءكم؟ فقالت الصبية لعلاء الدين: كيف ثباتك في الحرب والنزال؟ فقال لها: مثل الوتد في النخال، فإني لا أعرف الحرب والكفاح، ولا السيوف والرماح. فسحبت الخرزة ودعكت الوجه المرسوم عليه صورة الفرس والفارس، وإذا بفارس ظهر من البر، ولم يزل فيهم ضربًا بالسيف إلى أن كسرهم وطردهم، ثم قالت له: أتسافر إلى مصر أم إلى الإسكندرية؟ فقال: إلى الإسكندرية. فركبوا على السرير وعزَّمت عليه فسار بهم في لحظة إلى أن نزلوا في الإسكندرية، فأدخلهم علاء الدين في مغارة وذهب إلى الإسكندرية، فأتاهم بثياب وألبسهم إياها، وتوجَّه بهم إلى الدكان والطبقة، ثم طلع يجيء لهم بغداء، وإذا بالمقدم أحمد الدنف قادم من بغداد، فرآه في الطريق فقابله بالعناق، وسلَّم عليه ورحَّب به.

ثم إن المقدم أحمد الدنف بشَّره بولده أصلان، وأنه بلغ من العمر عشرين عامًا، وحكى له علاء الدين جميع ما جرى له من الأول إلى الآخر، وأخذه إلى الدكان والطبقة؛ فتعجب أحمد الدنف من ذلك غاية العجب، وباتوا تلك الليلة، ولما أصبحوا باع علاء الدين الدكان، ووضع ثمنه على ما معه، ثم إن أحمد الدنف أخبر علاء الدين بأن الخليفة يطلبه. فقال له: أنا رائح إلى مصر أسلِّم على أبي وأمي وأهل بيتي. فركبوا السرير جميعًا، وتوجَّهوا إلى مصر السعيدة، ونزلوا في الدرب الأصفر؛ لأن بيتهم كان في تلك الحارة، ودق باب بيتهم، فقالت أمه: مَن بالباب بعد فَقْد الأحباب؟ فقال لها: أنا علاء الدين. فنزلوا وأخذوه بالأحضان، ثم أدخل زوجته وما معه في البيت، وبعد ذلك دخل وأحمد الدنف صحبته، وأخذوا لهم راحة ثلاثة أيام، ثم طلب السفر إلى بغداد، فقال له أبوه: يا ولدي، اجلس عندي. فقال: ما أقدر على فراق ولدي أصلان. ثم إنه أخذ أباه وأمه معه وسافروا إلى بغداد. فدخل أحمد الدنف وبشَّر الخليفة بقدوم علاء الدين، وحكى له حكايته؛ فطلع الخليفة لملتقاه، وأخذ معه ولده أصلان، وقابلوه بالأحضان، وأمر الخليفة بإحضار أحمد قماقم السراق، فلما حضر بين يديه قال لعلاء الدين: دونك وخصمك. فسحب علاء الدين السيف وضرب أحمد قماقم فرمى عنقه، ثم إن الخليفة عمل لعلاء الدين فرحًا عظيمًا

بعد أن أحضر القضاة والشهود، وكتب كتابه على حسن مريم، ولما دخل عليها وجدها درَّة لم تُثقَب، ثم جعل ولده أصلان رئيس الستين، وخلع عليهم الخِلَع السنية، وأقاموا في أرغد عيش وأهناه إلى أن أتاهم هادم اللذَّات ومفرِّق الجماعات.

حكاية حاتم الطائي

وأما حكايات الكرام فإنها كثيرة جدًّا، منها ما رُوي عن حاتم الطائي أنه لما مات دُفِن في رأس جبل، وعملوا على قبره حوضين من حجر، وصور بنات محلَّلات الشعور من حجر، وكان تحت ذلك الجبل نهر جارٍ، فإذا نزلت الوفود يسمعون الصراخ في الليل من العشاء إلى الصباح، فإذا أصبحوا لم يجدوا أحدًا غير البنات المصورة من الحجر. فلما نزل ذو الكراع ملك حمير بذلك الوادي خارجًا عن عشيرته، بات تلك الليلة هناك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ذا الكراع لما نزل بذلك الوادي بات تلك الليلة هناك، وتقرَّب من ذلك الموضع فسمع الصراخ، فقال: ما هذا العويل الذي فوق هذا الجبل؟ فقالوا له: إن هذا قبر حاتم الطائي، وإن عليه حوضين من حجر وصور بنات من حجر محلولات الشعور، وكل ليلة يسمع النازلون في هذا المكان هذا العويل والصراخ. فقال ذو الكراع ملك حمير يهزأ بحاتم الطائي: يا حاتم، نحن الليلة ضيوفك، ونحن خماص. فغلب عليه النوم، ثم استيقظ وهو مرعوب، وقال: يا عرب الحقوني وأدركوا راحلتي. فلما جاءوه وجدوا الناقة تضطرب فنحروها، وشوَوْا لحمها وأكلوا، ثم سألوه عن سبب ذلك، فقال: إني نمت فرأيت حاتمًا الطائي في المنام قد جاءني بسيف، وقال: جئتنا ولم يكن عندنا شيء، وعقر ناقتي بالسيف، ولو لم تنحروها لماتت. فلما أصبح الصباح ركب ذو الكراع راحلة واحد من أصحابه، ثم أردفه خلفه، فلما كان وسط النهار رأوا راكبًا على راحلة، وفي يده راحلة أخرى، فقالوا له: مَن أنت؟ قال: أنا عدي بن حاتم الطائي. ثم قال: أين ذو الكراع أمير حمير؟ فقالوا له: هذا هو. فقال له: اركب هذه الناقة عوضًا عن راحلتك، فإن ناقتك قد نحرها أبي لك. قال: ومَن أخبرك؟ قال: أتاني في المنام في هذه الليلة وقال لي: يا عدي، إن ذا الكراع ملك حمير استضافني، فنحرت له ناقته فأدركه بناقة يركبها، فإني لم يكن عندي شيء. فأخذها ذو الكراع وتعجَّبَ من كرم حاتم حيًّا وميتًا.

ومن حكايات الكرام أيضًا ما يُروى عن معن بن زائدة أنه كان يومًا من الأيام في الصيد والقنص، فعطش فلم يجد مع غلمانه ماءً، فبينما هو كذلك، وإذا بثلاث جوارٍ قد أقبلن عليه حاملات ثلاث قِرَب ماء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧١

حكاية معن بن زائدة

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجواري أقبلن على معن حاملات ثلاث قِرَب ماء فاستسقاهن فأسقينه، فطلب شيئًا من غلمانه ليعطيه للجواري فلم يجد معهم مالًا؛ فدفع لكل واحدة منهن عشرة أسهم من كنانته نصولها من الذهب، فقالت إحداهن لصاحبتيها: لم تكن هذه الشمائل إلا لمعن بن زائدة، فَلْتَقُلْ كل واحدة منكن شيئًا من الشعر مدحًا فيه، فقالت الأولى:

يُرَكِّبُ فِي السِّهَامِ نُصُولَ تِبْرٍ وَيَرْمِي لِلْعِدَى كَرَمًا وَجُودَا
فَلِلْمَرْضَى عِلَاجٌ مِنْ جِرَاحٍ وَأَكْفَانٌ لِمَنْ سَكَنَ اللُّحُودَا

وقالت الثانية:

وَمُحَارِبٍ مِنْ فَرْطِ جُودِ بَنَانِهِ عَمَّتْ مَكَارِمُهُ الْأَحِبَّةَ وَالْعِدَى
صِيغَتْ نُصُولُ سِهَامِهِ مِنْ عَسْجَدٍ كَيْ لَا تُعَوِّقُهُ الْحُرُوبُ عَنِ النَّدَى

وقالت الثالثة:

وَمِنْ جُودِهِ يَرْمِي الْعِدَاةَ بِأَسْهُمٍ مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ صِيغَتْ نُصُولُهَا
لِيُنْفِقَهَا الْمَجْرُوحُ عِنْدَ دَوَائِهِ وَيَشْتَرِيَ الْأَكْفَانَ مِنْهَا قَتِيلُهَا

وقيل إن معن بن زائدة خرج في جماعته إلى الصيد، فقرب منهم قطيع ظباء فافترقوا في طلبه، وانفرد معن خلف ظبي، فلما ظفر به نزل فذبحه، فرأى شخصًا مقبلًا من

البرية على حمار، فركب فرسه واستقبله فسلَّم عليه وقال له: من أين أتيت؟ قال له: أتيت من أرض قضاعة، وإن لها مدة من السنين مجدبة، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعت فيها مقاتًا فطرحت في غير وقتها، فجمعت منها ما استحسنته من القثاء، وقصدتُ الأميرَ معن بن زائدة لكرمه المشهور، ومعروفه المأثور. فقال له: كم أملت منه؟ قال: ألف دينار. فقال له: فإن قال لك هذا القدر كثير؟ قال: خمسمائة دينار. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: ثلاثمائة دينار. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: مائتي دينار. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: مائة دينار. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: خمسين دينارًا. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: ثلاثين دينارًا. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: أدخلت قوائم حماري في حرمه ورجعت إلى أهلي صفر اليدين. فضحك معن من كلامه وساق جواده حتى لحق بعسكره، ونزل في منزله، وقال لحاجبه: إذا أتاك شخص على حمار بقثاء فأدخله عليَّ. فأتى ذلك الرجل بعد ساعة فأذن له الحاجب بالدخول، فلما دخل على الأمير معن لم يعرف أنه هو الذي قابله في البرية لهيبته وجلالته وكثرة خدمه وحشمه، وهو متصدِّر في دست مملكته، والحفدة قيام عن يمينه وعن شماله وبين يديه، فلما سلم عليه قال له الأمير: ما الذي أتي بك يا أخا العرب؟ قال: أملت الأمير، وأتيت له بقثاء في غير أوانها. فقال له: كم أملت منَّا؟ قال: ألف دينار. قال: هذا القدر كثير. قال: خمسمائة دينار. قال: كثير. قال: ثلاثمائة دينار. قال: كثير. قال: مائتي دينار. قال: كثير، قال: مائة دينار. قال: كثير. قال: خمسين دينارًا. قال: كثير. قال: ثلاثين دينارًا. قال: كثير. قال: والله لقد كان ذلك الرجل الذي قابلني في البرية مشئومًا، أفلا أقل من ثلاثين دينارًا؛ فضحك معن وسكت. فعلم الأعرابي أنه هو الرجل الذي قابله في البرية، فقال له: يا سيدي، إذا لم تجئ بالثلاثين دينارًا فها هو الحمار مربوط بالباب، وها معن جالس. فضحك معن حتى استلقى على قفاه، ثم استدعى بوكيله وقال: أعطه ألف دينار، وخمسمائة دينار، وثلاثمائة دينار، ومائتي دينار، ومائة دينار، وخمسين دينارًا، وثلاثين دينارًا، ودع الحمار مربوطًا مكانه. فبُهت الأعرابي، وتسلَّم الألفين ومائة دينار وثمانين دينارًا. فرحمة الله عليهم أجمعين.

حكاية بلدة لبطة

وبلغني أيها الملك السعيد، أن بلدةً يقال لها لبطة، وكانت دار مملكة بالروم، وكان فيها قصر مقفول دائمًا، وكلما مات ملك وتولى بعده ملك آخَر من الروم رمى عليه قفلًا محكمًا، فاجتمع على الباب أربعة وعشرون قفلًا، من كل ملك قفل. ثم تولى بعدهم رجل

ليس من أهل بيت المملكة، فأراد فتح تلك الأقفال ليرى ما داخل ذلك القصر، فمنعه من ذلك أكابر الدولة، وأنكروا عليه وزجروه، فأبى وقال: لا بد من فتح ذلك القصر. فبذلوا له جميع ما بأيديهم من نفائس الأموال والذخائر على عدم فتحه، فلم يرجع. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أهل المملكة بذلوا لذلك الملك جميع ما في أيديهم من الأموال والذخائر على عدم فتح ذلك القصر فلم يرجع عن فتحه، ثم إنه أزال الأقفال وفتح الباب، فوجد فيه صور العرب على خيلها وجمالها، وعليهم العمائم المسبلة، وهم مقلَّدون بالسيوف، وبأيديهم الرماح الطوال، ووجد كتابًا فيه، فأخذ الكتاب وقرأه فوجد مكتوبًا فيه: إذا فُتِح هذا الباب يغلب على هذه الناحية قوم من العرب، وهم على هيئة هذه الصورة، فالحذر ثم الحذر من فتحه. وكانت تلك المدينة بالأندلس، ففتحها طارق بن زياد في تلك السنة في خلافة الوليد بن عبد الملك من بني أمية، وقتل ذلك الملك أقبح قتلة، ونهب بلاده، وسبى مَن بها من النساء والغلمان، وغنم أموالها، ووجد فيها ذخائر عظيمة، فيها ما ينوف عن مائة وسبعين تاجًا من الدر والياقوت، ووجد فيها أحجارًا نفيسة، وإيوانًا ترمح فيه الخيل برماحهم، ووجد بها من أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف، ووجد بها المائدة التي كانت لنبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، وكانت على ما ذكر من زمرد أخضر، وهذه المائدة إلى الآن باقية في مدينة روما، وأوانيها من الذهب، وصحافها من الزبرجد ونفيس الجواهر، ووجد فيها الزبور مكتوبًا بخط يوناني في ورق من الذهب مفصَّص بالجواهر، ووجد فيها كتابًا يُذكَر فيه منافع الأحجار والنبات، والمدائن والقرى، والطلاسم، وعلم الكيمياء من الذهب والفضة، ووجد كتابًا آخر يُحكى فيه صناعة صياغة اليواقيت والأحجار، وتركيب السموم والترياقات، وصورة شكل الأرض والبحار والبلدان والمعادن، ووجد فيها قاعة كبيرة ملآنة من الإكسير الذي الدرهم منه يقلب ألف درهم من الفضة ذهبًا خالصًا، ووجد بها مرآة كبيرة مستديرة عجيبة مصنوعة من أخلاط صُنِعت لنبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، إذا نظر الناظر فيها رأى الأقاليم السبعة عيانًا،

ووجد فيها ليوانًا فيه من الياقوت البهرماني ما لا يحيط به وصف؛ فحمل ذلك كله إلى الوليد بن عبد الملك، وتفرَّق العرب في مدنها، وهي من أعظم البلاد.

حكاية الخليفة والأعرابي

ومما يُحكى أيضًا أن هشام بن عبد الملك بن مروان كان ذهب إلى الصيد في بعض الأيام، فنظر إلى ظبي فتبعه بالكلاب، فبينما هو خلف الظبي إذ نظر إلى صبي من الأعراب يرعى غنمًا، فقال هشام لبعض غلمانه: يا غلام، دونك هذا الصبي فَأْتِني به. فرفع رأسه إليه وقال: يا جاهل بقدر الأخيار، لقد نظرت إليَّ بالاستصغار، وكلَّمتني بالاحتقار، فكلامك كلام جبار، وفعلك فعل حمار. فقال له هشام: ويلك! أَمَا تعرفني؟ فقال: قد عرَّفني بك سوءُ أدبك؛ إذ بدأتني بكلامك دون سلامك. فقال له: ويلك! أنا هشام بن عبد الملك. فقال له الأعرابي: لا قرَّبَ الله ديارك، ولا حيًّا مزارك، فما أكثر كلامك وأقل إكرامك! فما استتم كلامه حتى أحدقت به الجند من كل جانب، وكل واحد منهم يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال هشام: أقصروا عن هذا الكلام، واحفظوا هذا الغلام. فقبضوا عليه، فلما رأى الغلام كثرة الحجَّاب والوزراء وأرباب الدولة لم يكترث بهم، ولم يسأل عنهم، بل جعل ذقنه على صدره، ونظر حيث يقع قدمه إلى أن وصل إلى هشام، فوقف بين يديه، ونكس رأسه إلى الأرض، وسكت عن السلام، وامتنع من الكلام. فقال له بعض الخدام: يا كلب العرب، ما منعك أن تسلم على أمير المؤمنين؟ فالتفت إلى الخادم مغضبًا وقال: يا برذعة الحمار، منعني من ذلك طول الطريق، وصعود الدرجة والتعريق. فقال هشام وقد تزايد به الغضب: يا صبي، لقد حضرتَ في يوم حضر فيه أَجَلُك، وغاب عنك أملك، وانصرف عمرك. فقال: والله يا هشام، لئن كان في المدة تأخير، ولم يكن في الأصل تقصير، فما ضرَّني من كلامك لا قليل ولا كثير. فقال له الحاجب: هل بلغ من مقامك يا أخس العرب أن تخاطب أمير المؤمنين كلمة بكلمة؟ فقال مسرعًا: لقيتَ الخبل، ولا فارقك الويل والهبل، أَمَا سمعت ما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾؟ فعند ذلك اغتاظ هشام غيظًا شديدًا وقال: يا سيَّاف، عليَّ برأس هذا الغلام؛ فإنه أكثر بالكلام، ولم يخشَ الملام. فأخذ الغلام ونزل به إلى نطع الدم، وسلَّ سيفه على رأسه وقال: يا أمير المؤمنين، هذا عبدك المدل بنفسه، الصائر إلى رمسه، هل أضرب عنقه وأنا بريء من دمه؟ قال: نعم. فاستأذن ثانيًا فأذن له، فاستأذن ثالثًا ففهم الفتى أنه إن أذن له في هذه المرة يقتله؛ فضحك حتى بدت نواجذه، فازداد هشام غضبًا، وقال: يا صبي، أظنك معتوهًا،

أَمَا ترى أنك مفارق الدنيا؟ فكيف تضحك هزءًا بنفسك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لئن كان في العمر تأخير لا يضرُّني قليل ولا كثير، ولكن حضرتني أبيات فاسمعها، فإنَّ قتلي لا يفوتك. فقال هشام: هاتِ وأوجز. فأنشد هذه الأبيات:

نُبِّئْتُ أَنَّ الْبَازَ صَادَفَ مَرَّةً عُصْفُورَ حَقْلٍ سَاقَهُ الْمَقْدُورُ
فَتَكَلَّمَ الْعُصْفُورُ فِي أَظْفَارِهِ وَالْبَازُ مُنْهَمِكٌ عَلَيْهِ يَطِيرُ
مَا فِيَّ مَا يُغْنِي لِمِثْلِكَ شَبْعَةً وَلَئِنْ أُكِلْتُ فَإِنَّنِي لَحَقِيرُ
فَتَبَسَّمَ الْبَازُ الْمُدِلُّ بِنَفْسِهِ عَجَبًا وَأَفْلَتَ ذَلِكَ الْعُصْفُورُ

فتبسم هشام وقال: وحق قرابتي من رسول الله ﷺ لو تلفَّظ بهذا اللفظ في أول كلامه وطلب ما دون الخلافة لأعطيته إياه، يا خادم، احْشُ فاه جوهرًا، وأَحْسِن جائزته. فأعطاه الخادم صلة عظيمة، فأخذها وانصرف إلى حال سبيله. انتهى.

حكاية إبراهيم بن المهدي

ومن لطيف الحكايات أن إبراهيم بن المهدي أخا هارون الرشيد، لما آل أمر الخلافة إلى المأمون ابن أخيه هارون الرشيد لم يبايعه، بل ذهب إلى الري وادَّعى الخلافة لنفسه، وأقام على ذلك سنة واحدة وأحد عشر شهرًا واثني عشر يومًا، وابن أخيه المأمون يتوقع منه العود إلى الطاعة وانتظامه في سلك الجماعة حتى يئس من عوده، فركب بخيله ورجله وذهب إلى الري، فلما بلغ إبراهيم الخبرُ، لم يسعه إلا أنه ذهب إلى بغداد واختفى خوفًا على دمه، فجعل المأمون لِمَن يدل عليه مائة ألف دينار، قال إبراهيم: لما سمعتُ بهذه الجعالة خفتُ على نفسي … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إبراهيم قال: لما سمعت بهذه الجعالة خفتُ على نفسي وتحيَّرت في أمري، فخرجت من داري وقت الظهيرة وأنا لا أدري أين أتوجه، فدخلت شارعًا غير نافذ، فرأيت في صدر الدرب رجلًا حلاقًا قائمًا على باب داره، فتقدمتُ إليه وقلت له: هل عندك موضع أختفي فيه ساعة؟ قال: نعم. وفتح الباب فدخلت إلى بيت نظيف، ثم إنه بعد أن أدخلني، أغلق عليَّ الباب ومضى، فتوهمت أنه سمع بالجعالة، فقلت في نفسي: إنه خرج يدل عليَّ. فبقيت أغلي مثل القدر على النار وأنا متفكر في أمري، فبينما أنا كذلك إذ أقبل وصحبته حمال معه كل ما يحتاج إليه، ثم التفت إليَّ وقال لي: جُعِلت فداك.

قال إبراهيم: وكان لي حاجة إلى الطعام فطبخت لنفسي قدرًا ما أذكر أني أكلتُ مثلها، فلما قضيت أربي من الطعام قال: يا سيدي، ليس من قدري أني أحادثك، فإن أردت أن تشرف عبدك، فلَكَ علوُّ الرأي. فقلت له وما أظن أنه يعرفني: ومن أين لك أني أحسن المسامرة؟ فقال: سبحان الله، مولانا أشهر من ذلك، أنت سيدي إبراهيم بن المهدي الذي جعل فيك المأمون لَمَن دلَّ عليك مائة ألف دينار. قال إبراهيم: فلما قال ذلك، عظم في عيني وثبتت مروءته عندي، فوافقته على بغيته، وخطر ببالي ذكر ولدي وعيالي، فجعلت أقول:

وَعَسَى الَّذِي أَهْدَى لِيُوسُفَ أَهْلَهُ … وَأَعَزَّهُ فِي السِّجْنِ وَهْوَ أَسِيرُ
أَنْ يَسْتَجِيبَ لَنَا وَيَجْمَعَ شَمْلَنَا … وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدِيرُ

فلما سمع ذلك مني قال: يا سيدي، أتأذن لي أن أقول ما سنح بخاطري؟ فقلت له: هات. فأنشد هذه الأبيات:

شَكَوْنَا إِلَى أَحْبَابِنَا طُولَ لَيْلِنَا … فَقَالُوا لَنَا: مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا
وَذَاكَ لِأَنَّ النَّوْمَ يَغْشَى عُيُونَنَا … سَرِيعًا وَلَا يَغْشَى الْهَنَاءُ قُلُوبَنَا

إِذَا مَا دَنَا اللَّيْلُ الْمُضِرُّ بِذِي الْهَوَى حَزِنَا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ إِذَا دَنَا
فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُلَاقُونَ مِثْلَ مَا نُلَاقِي لَكَانُوا فِي الْمَضَاجِعِ مِثْلَنَا

قال إبراهيم: فقلت له: لقد أحسنتَ كلَّ الإحسان، وأذهبتَ عني ألمَ الأحزان، فزدني من هذه الترهات. فأنشد هذه الأبيات:

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ
وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُنَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَنُنْكِرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ وَلَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ

قال إبراهيم: فلما سمعتُ منه هذا الشعر، تعجَّبْتُ منه غاية العجب ومال بي عظيم الطرب، وأخذت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير كثيرة، ورميت بها إليه وقلت له: أستودعك الله، فإني متوجِّه من عندك وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك، ولك عندي الجزاء الزائد إذا أمنت من خوفي. فردَّ عليَّ الخريطة وقال: يا سيدي، إن الصعاليك منَّا لا قدرَ لهم عندكم، ولكن بمقتضى مروءتي كيف آخذ ثمنًا على ما وهبه لي الزمان من قربك وحلولك عندي؟ واللهِ لئن راجعتني في هذا الكلام ورميت بالخريطة إليَّ مرةً أخرى لَأقتلن نفسي. قال إبراهيم: فأخذت الخريطة في كمي وقد أثقلني حملها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إبراهيم بن المهدي قال: فأخذت الخريطة في كمي وقد أثقلني حملها وانصرفت، فلما انتهيت إلى باب داره قال: يا سيدي، هذا المكان أخفي لك من غيره، وليس عليَّ في مئونتك ثقل، فأَقِمْ عندي إلى أن يفرِّج الله عنك. فقلت له: بشرط أن تنفق من تلك الخريطة. فأوهمني الرضا بذاك الشرط، ثم أقمتُ عنده أيامًا على تلك الحالة ولم يصرف من الخريطة شيئًا، ثم تزيَّيْتُ بزيِّ النساء كالخف والنقاب وخرجت من داره، فلما صرتُ في الطريق داخَلَني من الخوف أمر شديد، وجئتُ لأعبر الجسر، وإذا أنا بموضع مرشوش، فنظرني جندي ممن كان يخدمني فعرفني وصاح وقال: هذه حاجة المأمون. ثم تعلَّقَ بي، فدفعته هو وفرسه ورميتهما في ذلك الزلق وصار عبرةً لَمن اعتبر، وتبادرت الناس إليه، فاجتهدت أنا في مشيتي حتى قطعت الجسر، ثم دخلتُ شارعًا فوجدت باب دار وامرأة واقفة في دهليز، فقلت: يا سيدتي، احقني دمي فإني رجل خائف. فقالت: لا بأس عليك. وأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي فيها، وقدَّمت لي طعامًا وقالت لي: ليهدأ روعك. فبينما هي كذلك وإذا بالباب يدق دقًّا عنيفًا، فخرجتُ وفتحتُ الباب، وإذا بصاحبي الذي دفعته على الجسر مقبل وهو مشدود الرأس ودمه يجري على ثيابه، وليس معه فرسه، فقالت له: يا هذا ما دهاك؟ فقال: كنتُ ظفرت بالفتى وانفلت مني. وأخبرها بالحال، فأخرجت خرقة وعصبت بها رأسه وفرشت له ونام عليلًا، ثم طلعت إليَّ وقالت لي: أظنك صاحب القضية. فقلت لها: نعم. فقالت: لا بأس عليك. ثم جدَّدَتْ لي الكرامة، فأقمتُ عندها ثلاثةَ أيام، ثم قالت: إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فتقع فيما تخافه، فَانْجُ بنفسك. فسألتها المهلة إلى الليل فقالت: لا بأس بذلك.

فلما دخل الليل، لبست زيَّ النساء وخرجتُ من عندها، فأتيت إلى بيت مولاة كانت لنا، فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدت الله تعالى على سلامتي، وخرجت وكأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة، فما شعرت إلا وإبراهيم الموصلي مقبل في غلمانه وجنده وامرأة قدامهم، فتأمَّلْتُها فإذا هي المولاة صاحبة الدار التي أنا بها، ولم تزل ماشية قدامهم حتى سلَّمتني إليهم، وحُمِلت بالزي الذي أنا فيه إلى المأمون، فعقد مجلسًا عامًّا وأدخلني عليه، فلما دخلت سلَّمت عليه بالخلافة فقال: لا سلَّمَك الله ولا حيَّاك. فقلت له: على رسلك يا أمير المؤمنين، إنك ولي الأمر فتحكم في القصاص والعفو، ولكن العفو أقرب للتقوى، وقد جعل الله عفوك فوق كل عفوٍ، كما جعل ذنبي فوق كل ذنب يا أمير المؤمنين، فإنْ تأخذ فبحقك، وإنْ تعفُ فبفضلك. ثم أنشدت هذه الأبيات:

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ ... وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
فَخُذْ بِحَقِّكَ أَوْ لَا ... وَاصْفَحْ بِحِلْمِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي ... مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

قال إبراهيم: فرفع المأمون إليَّ رأسه، فبادرت إليه بإنشاد هذين البيتين:

أَتَيْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا ... وَأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلُ
فَإِنْ عَفَوْتَ فَمَنٌّ ... وَإِنْ جَزَيْتَ فَعَدْلُ

فأطرق المأمون رأسه وأنشد هذين البيتين:

وَكُنْتُ إِذَا الصَّدِيقُ أَرَادَ غَيْظِي ... وَأَشْرَقَنِي عَلَى حَنَقِي بِرِيقِي
غَفَرْتُ ذُنُوبَهُ وَعَفَوْتُ عَنْهُ ... مَخَافَةَ أَنْ أَعِيشَ بِلَا صَدِيقِ

فلما سمعت منه هذا الكلام استروحت منه رائحة الرحمة، ثم أقبل على ابن عمه وأخيه أبي إسحاق وجميع مَن حضر من خاصته وقال لهم: ما ترون في أمره؟ فكلٌّ أشار عليه بقتلي إلا أنهم اختلفوا في كيفية القتل. فقال المأمون لأحمد بن خالد: ما تقول يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنْ قتلتَه وجدنا مثلك قتَلَ مثلَه، وإنْ عفوتَ عنه فما وجدنا مثلك عفا عن مثله.

فقالت دنيازاد لأختها شهرزاد: ما أحسن حديثك وأطيبه وأحلاه وأعذبه! فقالت: وأين هذا مما أحدِّثكم به الليلة القابلة إنْ عشتُ وأبقاني الملك. فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شهرزاد قالت: وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة؟ فقالت لها أختها: يا أختي، أتممي لنا حديثك. فقالت: حبًّا وكرامة. ثم قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين المأمون لما سمع كلام أحمد بن خالد، نكس رأسه وأنشد قول الشاعر:

قُومِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي   فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

وأنشد أيضًا قول الشاعر:

سَامِحْ أَخَاكَ إِذَا خَلَطْ   مِنْهُ الْإِصَابَةَ بِالْغَلَطْ
وَاحْفَظْ صَنِيعَكَ عِنْدَهُ   شَكَرَ الصَّنِيعَةَ أَمْ غَمَطْ
وَتَجَافَ عَنْ تَعْنِيفِهِ   إِنْ زَاغَ يَوْمًا أَوْ قَسَطْ
أَوَمَا تَرَى الْمَحْبُوبَ وَالْـ   ـمَكْرُوهَ لَذَّا فِي نَمَطْ
وَلَذَاذَةُ الْعُمْرِ الطَّوِيـ   ـلِ يَشُوبُهَا نَغْصُ الشَّمَطْ
وَالْوَرْدُ يَبْدُو فِي الْغُصُو   نِ مَعَ الْجَنِيِّ الْمُلْتَقَطْ
مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ   وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ
وَلَوِ اخْتَبَرْتَ بَنِي الزَّمَا   نِ وَجَدْتَ أَكْثَرَهُمْ سَقَطْ

فلما سمعت منه هذه الأبيات، كشفت المقنعة عن رأسي وكَبَّرْتُ تكبيرة عظيمة، وقلت: عفا الله عنك يا أمير المؤمنين. فقال: لا بأس عليك يا عم. فقلت: ذنبي يا أمير المؤمنين

أعظم من أن أتفوَّه معه بعُذْرٍ، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر. وأطربتُ بالنغمات وأنشدتُ هذه الأبيات:

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْمَكَارِمَ حَازَهَا فِي صُلْبِ آدَمَ لِلْإِمَامِ السَّابِعِ
مُلِئَتْ قُلُوبُ النَّاسِ مِنْكَ مَهَابَةً وَالْكُلُّ تَكْلَؤُهُمْ بِقَلْبٍ خَاشِعِ
مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالْغِوَايَةُ غَامِرِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بِنِيَّةِ طَامِعِ
فَعَفَوْتُ عَنْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِثْلُهُ عَفْوٌ وَلَمْ يَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعِ
وَرَحَمْتَ أَفْرَاخًا كَأَفْرَاخِ الْقَطَا وَحَنِينَ وَالِدَةٍ بِقَلْبٍ جَازِعِ

فقال المأمون: أقول اقتداءً بسيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام: لا تثريب عليكم اليومَ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، وقد رددتُ عليك أموالَك وضياعَك يا عم، ولا بأس عليك. فابتهلْتُ له بصالح الدعوات، وأنشدت هذه الأبيات:

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَنْتَ دَمِي
فَلَوْ بَذَلْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ وَالْمَالَ حَتَّى أَسُلَّ النَّعْلَ مِنْ قَدَمِي
فَإِنْ جَحَدْتُكَ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ إِنِّي إِلَى اللُّؤْمِ أَوْلَى مِنْكَ بِالْكَرَمِ

فأكرمه المأمون وأنعم عليه وقال له: يا عم، إن أبا إسحاق والعباس أشارَا عليَّ بقتلك. فقلت: إن أبا إسحاق والعباس نصحاك يا أمير المؤمنين، ولكنك أتيتَ بما أنت أهله، ودفعت ما خفت بما رجوت. فقال المأمون: إني أمت حقدي بحياتك وقد عفوتُ عنك ولم أحملك منَّة الشافعين. ثم سجد المأمون طويلًا ورفع رأسه وقال: يا عمي، أتدري لأي شيء سجدتُ؟ قلت: لعلَّك سجدتَ شكرًا لله الذي ظفرك بعدوك. فقال: ما أردتُ ذلك، ولكن شكر الله الذي ألهمني العفو عنك. قال إبراهيم: فشرحت له صورة أمري وما جرى لي مع الحجام، والجندي وزوجته، والمولاة التي غمزت عليَّ، فأمر المأمون بإحضار المولاة، وهي في دارها تنتظر إرسال الجائزة إليها، فلما حضرت بين يدَيِ المأمون قال لها: ما حملك على ما فعلتِ مع سيدك؟ قالت: الرغبة في المال. فقال: هل لك ولد أو زوج؟ فقالت: لا. فأمر بضربها مائة سوط وأن تخلد في السجن، ثم أحضر الجندي وامرأته والحجام فحضروا جميعًا، فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل، فقال: الرغبة في المال. فقال المأمون: يجب أن تكون حجَّامًا، ووكل به مَن يضعه في دكان حجام ليعلِّمه

الحجامة، وأكرم زوجة الجندي وأدخلها القصر وقال: هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات. ثم قال للحجَّام: قد ظهر من مروءتك ما يُوجِب المبالغة في إكرامك. وأمر أن يُسلَّم إليه دار الجندي، وأعطاه زيادةً على ذلك خمسة عشر ألف دينار.

حكاية عبد الله بن أبي قلابة وإرم ذات العماد

وحُكِي أن عبد الله بن أبي قلابة خرج في طلب إبل شردت له، فبينما هو سائر في صحارى أراضي اليمن وأرض سبأ، إذا به وقع على مدينة عظيمة وحولها حصن عظيم، وحول ذلك الحصن قصور شاهقة في الجو، فلما دنا منها ظنَّ أن بها سكانًا يسألهم عن إبله فقصدها، فلما وصل إليها وجدها قفراء ليس فيها أنيس. قال: فنزلت عن ناقتي … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله بن أبي قلابة قال: فنزلت عن ناقتي وعقلتها، ثم سليت نفسي ودخلت البلد ودنوتُ من الحصن، فوجدت له بابين عظيمين لم يَرَ في الدنيا مثلهما في العِظَم والارتفاع، وهما مرصَّعان بأنواع الجواهر واليواقيت ما بين أبيض وأحمر وأصفر وأخضر، فلما رأيتُ ذلك تعجَّبْتُ منه غاية العجب، وتعاظمني ذلك الأمر، فدخلت الحصن وأنا مرعوب ذاهل اللب، فرأيت ذلك الحصن طويلًا مديدًا مثل المدينة في السعة، وبه قصور شاهقة، في كل قصر منها غُرَف وكلها مبنِيَّة بالذهب والفضة، ومرصَّعة باليواقيت والزبرجد واللؤلؤ والجواهر الملوَّنة، ومصاريع أبواب تلك القصور كمصاريع الحصن في الحُسْن، وقد فُرشت أرضها باللآلئ الكبار، وبنادق المسك والعنبر والزعفران، فلما انتهيت إلى داخل المدينة لم أَرَ بها مخلوقًا من بني آدم، فكدت أن أموت من الفزع، ثم نظرت من أعالي الغرف والقصور فرأيت الأنهار تجري من تحتها، وشوارعها فيها الأشجار المثمرات والنخيل الباسقات، وبناؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضة، فقلت في نفسي: لا شك أن هذه هي الجنة الموعود بها في الآخرة. فحملت من جواهر حصبائها ومسك ترابها ما أمكنني حمله، وعدتُ إلى بلادي وأعلمت الناس بذلك، فبلغ الخبر إلى معاوية بن أبي سفيان وهو يؤمئذٍ خليفة بالحجاز، فكتب إلى عامله بصنعاء اليمن: أن أحضِرْ ذلك الرجل واسأله عن حقيقة الأمر. فأحضرني عامله واستخبرني عمَّا كان من أمري وما وقع لي، فأخبرته بما رأيته، فأرسلني إلى معاوية فأخبرته أيضًا بما رأيته، فأنكر ذلك معاوية، فأظهرت له شيئًا من ذلك اللؤلؤ وبنادق العنبر والمسك والزعفران، وفيها بعض رائحة طيبة، ولكن اللؤلؤ قد اصفرَّ وتغيَّرَ لونه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله بن أبي قلابة قال: ولكن اللؤلؤ قد اصفرَّ وتغيَّرَ لونه، فتعجَّبَ من ذلك معاوية بن أبي سفيان لما رأى مع أبي قلابة اللؤلؤ وبنادق المسك والعنبر، وبعث إلى كعب الأحبار فأحضره وقال له: يا كعب الأحبار، إني دعوتك لأمر أطلب تحقيقه، وأرجو أن يكون عندك حقيقة خبره. فقال له: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال له معاوية: هل عندك علم بأنه يوجد مدينة مبنِيَّة بالذهب والفضة، عمدانها من الزبرجد والياقوت، وحصباؤها من اللؤلؤ وبنادق المسك والعنبر والزعفران؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، هي إرم ذات العماد، التي لم يُخلَق مثلها في البلاد، وقد بناها شداد بن عاد الأكبر. قال معاوية: حدِّثنا بشيء من حديثها.

قال كعب الأحبار: إن عاد الأكبر كان له ولدان شديد وشداد، فلما هلك أبوهما، ملك البلاد بعده شديد وأخوه شداد، ولم يكن أحد من ملوك الأرض إلا تحت طاعتهما، فمات شديد بن عاد فملك أخوه شداد الأرض من بعده على الانفراد، وكان مولعًا بقراءة الكتب القديمة، فلما مر به ذِكْرُ الآخرة والجنة، وما فيهما من القصور والغُرَف والأشجار والثمار وغيرها مما في الجنة، دعته نفسه إلى أن يبني مثلها في الدنيا على هذه الهيئة المتقدم ذكرها، وكان تحت يه مائة ألف ملك، تحت يد كل ملك مائة ألف قهرمان، تحت يد كل قهرمان مائة ألف عسكر، فأحضر الجميع بين يديه وقال لهم: إني أسمع في الكتب القديمة والأخبار بصفة الجنة التي توجد في الآخرة، وأنا أحب أن أجعل مثلها في الدنيا، فانطلِقوا إلى أطيب فلاة في الأرض وأوسعها، وابنوا لي فيها مدينة من الذهب والفضة، واجعلوا حصاها الزبرجد والياقوت واللؤلؤ، واجعلوا تحت عقود تلك المدينة أعمدة من زبرجد واملَئُوها قصورًا، واجعلوا فوق القصور غرفًا، واغرسوا تحت القصور في أزقتها وشوارعها أصناف الأشجار المختلفة الأثمار اليانعة، وأجروا تحتها الأنهار في قنوات الذهب

والفضة. قالوا جميعهم: كيف نقدر على ما وصفتَ لنا؟ وكيف بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ الذي ذكرتَ؟ قال: ألستم تعلمون أن ملوك الدنيا طوعًا لي وتحت يدي، وكل مَن فيها لا يخالف أمري؟ قالوا: نِعْمَ ذلك. قال: فانطلِقوا إلى معادن الزبرجد والياقوت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شداد قال لجماعته: انطلِقوا إلى معادن الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة، فاستخرجوها واجمعوا ما بها من الأرض ولا تبقوا مجهودًا مع ذلك، فخذوا ما بأيدي العالم من أصناف ذلك ولا تبقوا ولا تذروا واحذروا المخالفة. ثم كتب كتابًا إلى كل ملك كان في أقطار الأرض، وأمرهم أن يجمعوا ما كان عند الناس من أصناف ذلك، وأن يذهبوا إلى معادنها ويستخرجوا ما فيها من الأحجار النفيسة، ولو من قعور البحار، فجمعوا ذلك في مدة عشرين سنة، وكان عدة الملوك المتمكنين في الأرض ثلاثمائة وستين ملكًا، ثم أخرج المهندسين والحكماء والفعلاء والصناع من سائر البلاد والبقاع، وانتشروا في البراري والقفار والجهات والأقطار حتى وصلوا إلى صحراء فيها فسحة عظيمة نقية خالية من الآكام والجبال، وبها عيون نافعة وأنهار جارية، فقالوا: هذه صفة الأرض التي أَمَرَنا بها الملكُ وندبنا إليها. ثم اشتغلوا ببنائها على قدر ما أمرهم به الملك شداد ملك الأرض في الطول والعرض، وأجروا بها قنوات الأنهار، ووضعوا الأساسات على المقدار المذكور، وأرسل إليها ملوكُ الأقطارِ الجواهرَ والأحجار، واللآلئ الكبار والصغار، والعتيق والنضار على الجمال في البراري والقفار، وأرسلوا بها السفن الكبار في البحار، ووصل إلى العمال من تلك الأصناف ما لا يُوصَف ولا يُحصَى ولا يُكيَّف، فأقاموا في عمل ذلك ثلاثمائة سنة، فلما فرغوا من ذلك أتوا إلى الملك وأخبروه بالإتمام، فقال لهم: انطلِقوا فاجعلوا عليها حصنًا منيعًا شاهقًا رفيعًا، واجعلوا حول الحصن ألف قصر، تحت كل قصر ألف علم، ليكون في كل قصر منها وزير. فمضوا من وقتهم وفعلوا في عشرين سنة، ثم حضروا بين يدَيْ شداد وأخبروه بحصول الغرض، فأمر وزراءه وهم ألف، وكذلك أمر خاصته ومَن يثق به من الجنود وغيرهم؛ أن يستعِدُّوا للرحلة ويتهيَّئُوا

للنقلة إلى إرم ذات العماد، تحت ركاب ملك الدنيا شداد بن عاد، وأَمَرَ مَن أراد من نسائه وحريمه كجواريه وخدمه أن يأخذوا في التهجير، فأقاموا في أخذ الأهبة عشرين سنة، ثم سار شداد ومَن معه من الجيوش ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٧٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شدادًا بن عاد سار هو ومَن معه من الجيوش مسرورًا ببلوغ المرام، حتى بقي بينه وبين إرم ذات العماد مرحلة، فأرسل الله عليه وعلى مَن معه من الكفرة الجاحدين صيحةً من سماء قدرته، فأهلكتهم جميعًا بصوت عظيم، ولم يصل شداد ولا أحد ممَّن كان معه إليها ولم يشرف عليها، ومحا الله آثار محجتها فهي باقية على حالها في مكانها إلى قيام الساعة. فتعجَّبَ معاوية من أخبار كعب الأحبار بهذا الخبر، وقال له: هل يصل أحد إلى تلك المدينة من البشر؟ قال: نعم. رجل من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، وهو بصفة هذا الرجل الجالس بلا شك ولا إيهام. وقال الشعبي: حُكِي عن علماء حمير من اليمن أنه لما هلك شداد ومَن معه من الصيحة، ملك بعده ابنه شداد الأصغر، وكان أبوه شداد الأكبر خلفه على ملكه بأرض حضرموت وسبأ، بعد أن ارتحل بمَن معه من العساكر إلى إرم ذات العماد، فلما بلغه خبر موت أبيه في الطريق قبل وصوله إلى مدينة إرم، أمر بحمل أبيه من تلك المفاوز إلى حضرموت، وأمر أن يُحفَر له حفيرة في مغارة، فلما حفروا تلك الحفيرة وضعه فيها على سرير من الذهب، وألقى عليه سبعين حلة منسوجة بالذهب مرصَّعة بنفيس الجواهر، ووضع عند رأسه لوحًا من الذهب مكتوبًا فيه هذا الشعر:

اعْتَبِرْ يَا أَيُّهَا الْمَغْـــ ـــرُورُ بِالْعُمْرِ الْمَدِيدِ
أَنَّ شَـــدَّادُ بْـــنُ عَـــادٍ صَاحِبُ الْحِصْنِ الْعَمِيدِ
صَاحِبُ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّ ةِ وَالْـبَـأْسِ الـشَّـدِيـدِ
كَانَ أَهْلُ الْأَرْضِ طَوْعِي خَوْفَ قَهْرِي وَوَعِيدِي

وَمَلَكْتُ الشَّرْقَ وَالْغَرْ بَ بِسُلْطَانٍ شَدِيدِ
فَدَعَانَا لِلْهُدَى مَنْ جَاءَ بِالْأَمْرِ الرَّشِيدِ
فَعَصَيْنَاهُ وَقُلْنَا لَيْسَ عَنْهُ مِنْ مَحِيدِ
فَأَتَتْنَا صَيْحَةٌ مِنْ جَانِبِ الْأُفْقِ الْبَعِيدِ
فَتَرَامَيْنَا كَزَرْعٍ وَسْطَ بَيْدَا فِي الْحَصِيدِ
وَانْتَظَرْنَا تَحْتَ أَطْبَا قِ الثَّرَى يَوْمَ الْوَعِيدِ

قال الثعالبي: واتفق أن رجلين دخلا هذه المغارة فوجدَا في صدرها دَرَجًا فنزلا، فوجدا حفيرة طولها مقدار مائة ذراع، وعرضها أربعون ذراعًا، وارتفاعها مائة ذراع، وفي وسط تلك الحفيرة سرير من الذهب، وعليه رجل عظيم الجسم قد أخذ طول السرير وعرضه، وعليه الحلي والحلل المنسوجة بالذهب والفضة، وعلى رأسه لوح من ذهب فيه كتابة؛ فأخذَا ذلك اللوح وحملا من ذلك الموضع ما أطاقا حمله من قضبان الذهب والفضة وغير ذلك.

زواج المأمون

ومما يُحكَى أن إسحاق الموصلي قال: خرجت ليلة من عند المأمون متوجِّهًا إلى بيتي فضايقني حصر البول، فعمدت إلى زقاق وقمت أبول خوفًا أن يضرَّ بي شيء، إذ جلست في جانب الحيطان فرأيت شيئًا معلَّقًا من تلك الدور، فلمسته لأعرف ما هو فوجدته زنبيلًا كبيرًا بأربعة آذان ملبسًا ديباجًا، فقلت في نفسي: لا بد لهذا من سبب. وصرت متحيرًا في أمري، فحملني السُّكْر على أن أجلس فيه، فجلستُ فيه وإذا بأصحاب الدار جذبوه بي، وظنوا أنني الذي كانوا يرتقبونه، ثم رفعوا الزنبيل إلى رأس الحائط، وإذا بأربع جوارٍ يقلن لي: انزل على الرحب والسعة. ومشت بين يدي جارية بشمعة حتى نزلت إلى دار فيها مجالس مفروشة لم أَرَ مثلها إلا في دار الخلافة، فجلست فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رُفِعت في ناحية من الجدار، وإذا بوصائف يتماشين وفي أيديهن الشموع ومجامر البخور من العود القاقلي، وبينهن جارية كأنها البدر الطالع، فنهضَتْ وقالت: مرحبًا بك من زائر! ثم أجلستني وسألتني عن خبري، فقلت لها: إني انصرفت من عند بعض إخواني، وغرَّ بي الوقت، وحصرني البول في الطريق، فملت إلى هذا الزقاق فوجدتُ زنبيلًا مُلقًى فأجلسني النبيذ في الزنبيل، ورُفِع بي الزنبيل إلى هذه الدار، هذا ما كان من أمري.

فقالت: لا ضير عليك، وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك. ثم قالت لي: فما صناعتك؟ فقلت: تاجر في سوق بغداد. فقالت: هل تروي من الأشعار شيئًا؟ قلتُ: أروي شيئًا ضعيفًا. قالت: فذاكِرْنا فيه، وأنشدنا شيئًا منه. فقلت: إن للداخل دهشة، ولكن تبدئين أنتِ. قالت: صدقتَ. ثم أنشدت شعرًا رقيقًا من كلام القدماء والمحدثين، وهو من أجود أقاويلهم، وأنا أسمع ولا أدري أأعجب من حُسْنها وجمالها أم من حُسْن روايتها؟ ثم قالت: هل ذهب ما كان عندك من الدهشة؟ قلت: إي والله. قالت: إنْ شئتَ فأنشدنا شيئًا من روايتك. فأنشدتها لجماعة من القدماء ما فيه الكفاية، فاستحسنت ذلك، ثم قالت: والله ما ظننتُ أن يوجد في أبناء السوقة مثل هذا. ثم أمرَتْ بالطعام.

فقالت لها أختها دنيازاد: ما أحلى حديثك، وأحسنه، وأطيبه، وأعذبه! فقالت: وأين هذا ممَّا أحدِّثكم به الليلة القابلة إنْ عشتُ وأبقاني الملك؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٨٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن إسحاق الموصلي قال: ثم إن الجارية أمرَتْ بإحضار الطعام فحضر؛ فجعلت تأخذ وتضع قدَّامي، وكان في المجلس من أصناف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند الملوك، ثم دعت بالشراب فشربت قدحًا، ثم ناولتني قدحًا وقالت: هذا أوان المذاكرة والأخبار. فاندفعتُ أذاكرها وقلت: بلغني أنه كان كذا وكذا، وكان رجل يقول كذا، حتى حكيت لها عدة أخبار حسان، فانسرَّتْ بذلك وقالت: إني لَأعجب كيف يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذه الأخبار، وإنما هي أحاديث ملوك. فقلت: كان لي جار يحادث الملوك وينادمهم، وإذا تعطَّلَ حضرتُ بيته، فربما حدَّث بما سمعت. فقالت: لعمري لقد أحسنتَ الحفظ.

ثم أخذنا في المذاكرة، وكلما أسكت ابتدأت هي حتى قطعنا أكثر الليل، وبخور العود يعبق، وأنا في حالةٍ لو توهَّمَها المأمون لَطار شوقًا إليها، فقالت لي: إنك من ألطف الرجال وأظرفهم؛ لأنك ذو أدب بارع، وما بقي إلا شيء واحد. فقلت لها: وما هو؟ قالت: لو كنتَ تترنم بالأشعار على العود. فقلت لها: إني كنتُ تعلَّقت بهذا قديمًا، ولكن لمَّا لم أُرزَق حظًّا فيه أعرضتُ عنه وفي قلبي منه حرارة، وكنت أحب في هذا المجلس أن أُحسِن شيئًا منه لتكمل ليلتي. قالت: كأنك عرضت بإحضار العود. فقلت: الرأي لك، وأنت صاحبة الفضل، ولك المنة في ذلك. فأمرت بعود فحضر، وغنَّت بصوت ما سمعتُ بمثل حُسْنه مع حُسْن الأدب وجودة الضرب والكمال الراجح، ثم قالت: هل تعرف هذا الصوت لمَن؟ وهل تعرف الشعر لمَن؟ قلتُ: لا. قالت: الشعر لفلان، والمغنى لإسحاق. قلت: وهل إسحاق — جُعِلتُ فداكِ — بهذه الصفة؟ قالت: بخٍ بخٍ! إسحاق بارع في هذا الشأن. فقلت: سبحان الله الذي أعطى هذا الرجل ما لم يُعْطِه أحدًا سواه! قالت: فكيف لو سمعتَ هذا

الصوت منه! ثم لم نزل على ذلك حتى إذا كان انشقاق الفجر أقبلَتْ عليها عجوز كأنها داية لها، وقالت: إن الوقت قد حضر. فنهضت عند قولها، وقالت: لتستر ما كان منَّا، فإن المجالس بالأمانات. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٨١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: لتستر ما كان منَّا، فإن المجالس بالأمانات. فقلتُ لها: جُعِلت فداكِ، لم أكن محتاجًا إلى وصية في ذلك. ثم ودَّعْتُها وأرسلت جارية تمشي بين يدي إلى باب الدار، ففتحت لي وخرجت متوجِّهًا إلى داري، فصلَّيْتُ الصبح ونمت، فأتاني رسول المأمون فسرت إليه، وأقمت نهاري عنده، فلما كان وقت العشاء تفكَّرت ما كنتُ فيه البارحة، وهو شيء لا يصبر عنه إلا جاهل؛ فخرجتُ وجئتُ إلى الزنبيل وجلست فيه، ورُفِعت إلى موضعي الذي كنتُ فيه البارحة، فقالت لي الجارية: لقد عاودت. فقلت: لا أظن، إلا أنني قد غفلت. ثم أخذنا في المحادثة على عادتنا في الليلة السالفة من المذاكرة والمناشدة وغريب الحكايات منها ومني إلى الفجر، ثم انصرفت إلى منزلي، وصلَّيت الصبح ونمت، فأتى رسول المأمون فمضيتُ إليه، وأقمتُ نهاري عنده. فلما كان وقت العشاء قال لي أمير المؤمنين: أقسمتُ عليك أن تجلس حتى أذهب إلى غرضٍ وأحضر. فلما ذهب الخليفة وغاب عني، جالت وساوسي، وتذكَّرت ما كنت فيه، فهان عليَّ ما يحصل لي من أمير المؤمنين؛ فوثبت مدبرًا وخرجت جاريًا حتى وصلت إلى الزنبيل فجلست فيه، ورُفِع بي إلى مجلسي، فقالت: لعلك صديقنا. قلت: إي والله. قالت: أجعلتنا دارَ إقامةٍ؟ قلت: جُعِلتُ فداكِ! حقُّ الضيافة ثلاثة أيام، فإن رجعت بعد ذلك فأنتم في حِلٍّ من دمي. ثم جلسنا على تلك الحالة، فلما قرب الوقت علمت أن المأمون لا بد أن يسألني فلا يقنع إلا بشرح القصة. فقلت لها: أراك ممَّن يعجب بالغناء، ولي ابن عم أحسن مني وجهًا، وأشرف قدرًا، وأكثر أدبًا، وهو أعرف خلق الله تعالى بإسحاق. قالت: أطفيليٌّ وتقترح؟ قلت لها: أنت المحكَّمة في الأمر. فقالت: إن كان ابن عمك على ما تصفه فما نكره معرفته. ثم جاء الوقت فنهضت، وقمت متوجهًا إلى داري، فلم أصل إلى داري إلا ورُسُل المأمون قد هجموا عليَّ وحملوني حملًا عنيفًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٨٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن إسحاق الموصلي قال: فلم أصل إلى داري إلا ورُسُل المأمون قد هجموا عليَّ وحملوني حملًا عنيفًا، وذهبوا بي إليه، فوجدته قاعدًا على كرسي وهو مغتاظ مني، فقال: يا إسحاق، أخروجًا عن الطاعة؟ فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين. قال: فما قصتك؟ اصدُقني الخبر. فقلت: نعم، ولكن في خلوة. فأومأ إلى مَن بين يدَيْه فتنحَّوْا، فحدَّثته الحديث وقلت له: إني وعدتها بحضورك. قال: أحسنتَ. ثم أخذنا في لذتنا ذلك اليوم، والمأمون متعلق القلب بها، فما صدقنا بمجيء الوقت، وسرنا وأنا أوصيه وأقول له: تجنَّبْ أن تناديني باسمي قدَّامها، بل أنا لك تبع في حضرتها. واتفقنا على ذلك، ثم سرنا إلى أن أتينا مكانَ الزنبيل، فوجدنا زنبيلين فقعدنا فيهما، ورُفِعا بنا إلى الموضع المعهود، فأقبلَتْ وسلَّمَتْ علينا، فلما رآها المأمون تحيَّرَ من حُسْنها وجمالها، وأخذت تذاكره الأخبار، وتناشده الأشعار، ثم أحضرت النبيذ فشربنا وهي مقبلة عليه مسرورة به، وهو أيضًا مقبل عليها مسرور بها، ثم أخذَتِ العود وغنَّت طريقة، وبعد ذلك قالت لي: وهل ابن عمك من التجار (وأشارت إلى المأمون)؟ قلت: نعم. قالت: إنكما لَقريبَا الشبه من بعضكما. قلت: نعم. فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخَلَه الفرحُ والطربُ، فصاح وقال: يا إسحاق. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: غنِّ بهذه الطريقة. فلما علمَتْ أنه الخليفة مضت إلى مكان ودخلت فيه، فلما فرغتُ من الغناء، قال لي المأمون: انظر مَن ربُّ هذه الدار. فبادرَتْ عجوز بالجواب وقالت: هي للحسن بن سهل. فقال: عليَّ به. فغابت العجوز ساعة، وإذا بالحسن قد حضر. فقال له المأمون: ألك بنت؟ قال: نعم، اسمها خديجة. قال له: هل هي متزوجة؟ قال: لا والله. قال: فإني أخطبها منك. قال: هي جاريتك، وأمرها إليك يا أمير المؤمنين. قال الخليفة: قد تزوَّجْتُها على نقد ثلاثين ألف دينار تُحمَل إليك صبيحة يومنا هذا، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتها. قال: سمعًا وطاعة. ثم

خرجنا فقال: يا إسحاق، لا تقصَّ هذا الحديث على أحدٍ. فسترتُه إلى أن مات المأمون، فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لي هذه الأربعة أيام: مجالسة المأمون بالنهار، ومجالسة خديجة بالليل، والله ما رأيت أحدًا من الرجال مثل المأمون، ولا شاهدتُ امرأة من النساء مثل خديجة، بل ولا تُقارِب خديجة فهمًا، ولا عقلًا، ولا لفظًا. والله أعلم.

حكاية الحشَّاش والسيدة النبيلة

ومما يُحكَى أنه كان أوان الحج والناس في الطواف، فبينما المطاف مزدحم بالناس وإذا بإنسان متعلق بأستار الكعبة وهو يقول من صميم قلبه: أسألك يا ألله أنها تغضب على زوجها وأجامعها. قال: فسمعه جماعة من الحجاج فقبضوا عليه وأتوا به إلى أمير الحاج بعد أن أشبعوه ضربًا، وقالوا له: أيها الأمير، إنا وجدنا هذا في الأماكن الشريفة يقول كذا وكذا. فأمر أمير الحاج بشنقه، فقال له: أيها الأمير، بحق رسول الله ﷺ أن تسمع قصتي وحديثي، وبعد ذلك فافعل بي ما تريد. قال: تحدَّثْ. قال: اعلم أيها الأمير أنني رجل حشاش أعمل في مسالخ الغنم، فأحمل الدم والوسخ إلى الكيمان، فاتفق أنني رائح بحماري يومًا من الأيام وهو محمَّل، فوجدت الناس هاربين، فقال واحد منهم: ادخل هذا الزقاق لئلا يقتلوك. فقلت: ما للناس هاربين؟ فقال لي واحد خدام: هذا حريم لبعض الأكابر. وصار الخدم يُنحُّون الناس من الطريق قدَّامها، ويضربون جميع الناس، ولا يبالون بأحد، فدخلت بالحمار عطفة ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٨٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل قال: فدخلت بالحمار عطفة، ووقفت أنتظر انفضاض الزحمة، فرأيت الخدم وبأيديهم العصي، ومعهم نحو ثلاثين امرأة وبينهم واحدة كأنها قضيب بان، كاملة الحسن والظرف والدلال، والجميع في خدمتها. فلما وصلت إلى باب العطفة التي أنا واقف بها التفتَتْ يمينًا وشمالًا، ثم دعت بطواشي فحضر بين يديها فسارَّتْه في أذنه، وإذا بالطواشي جاء إليَّ وقبض عليَّ، فتهاربت الناس، وإذا بطواشي آخَر أخذ حماري ومضى به، ثم جاء الطواشي وربطني بحبل وجرَّني خلفه، وأنا لم أعرف ما الخبر، والناس من خلفنا يصيحون ويقولون: ما يحل من الله، هذا رجل حشاش فقير الحال، ما سبب ربطه بالحبال؟ ويقولون للطواشية: ارحموه يرحمكم الله تعالى، وأطلقوه. فقلت أنا في نفسي: ما أخذني الطواشية إلا لأن سيدتهم شمت رائحة الوسخ فاشمأزت من ذلك، أو تكون حبلى أو حصل لها ضرر، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وما زلتُ ماشيًا خلفهم إلى أن وصلوا إلى باب دار كبيرة فدخلوا وأنا خلفهم، واستمروا داخلين بي حتى وصلت إلى قاعة كبيرة ما أعرف كيف أصف محاسنها، وهي مفروشة بفرش عظيم. ثم دخلت النساء تلك القاعة وأنا مربوط مع الطواشي، فقلت في نفسي: لا بد أنهم يعاقبونني في هذا البيت حتى أموت، ولا يدري بموتي أحد. ثم بعد ذلك أدخلوني حمَّامًا لطيفًا من داخل القاعة، فبينما أنا في الحمام، وإذا بثلاث جوارٍ دخلن وقعدن حولي، وقلن لي: اقلع شراميطك. فقلعت ما عليَّ من الخلقان، وصارت واحدة منهن تحُكُّ رجلي، وواحدة منهن تغسل رأسي، وواحدة تكبسني، فلما فرغن من ذلك حطوا لي بقجة قماش، وقالوا لي: البس هذه. فقلت، والله ما أعرف كيف ألبس. فتقدَّمْنَ إليَّ وألبسنني وهنَّ يتضاحكن عليَّ، ثم جئن بقماقم مملوءة بماء الورد ورششن عليَّ، وخرجتُ معهن إلى قاعة أخرى، والله ما أعرف كيف أصف محاسنها من كثرة ما فيها من النقش والفرش؛ فلما دخلت تلك القاعة وجدت واحدة قاعدة على تخت من الخيزران. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٨٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل قال: لما دخلت تلك القاعة وجدت واحدة قاعدة على تخت من الخيزران، قوائمه من عاج، وبين يديها جملة جوارٍ، فلما رأتني قامت إليَّ ونادتني فجئتُ عندها، فأمرتني بالجلوس فجلست إلى جانبها، وأمرت الجواري أن يقدِّمن الطعام، فقدمن لي طعامًا فاخرًا من سائر الألوان ما أعرف اسمه، ولا أعرف صفته في عمري، فأكلت منه على قدر كفايتي، وبعد رفع الزبادي وغسل الأيادي أمرَتْ بإحضار الفواكه، فحضرت بين يديها في الحال، فأمرتني بالأكل فأكلت، فلما فرغنا من الأكل أمرَتْ بعض الجواري بإحضار سلاحيات الشراب، فأحضرن شيئًا مختلف الألوان، ثم أطلقن المباخر من جميع البخور، وقامت جارية مثل القمر تسقينا على نغمات الأوتار، فسكرت أنا وتلك السيدة الجالسة. كل ذلك جرى وأنا أعتقد أنه حلم في المنام، ثم بعد ذلك أشارت إلى بعض الجواري أن يفرشن لنا في مكان، ففرشن في المكان الذي أمرَتْ به، ثم قامت وأخذت بيدي إلى ذلك المكان المفروش، ونامت ونمت معها إلى الصباح، وكنت كلما ضممتها إلى صدري أشم منها رائحة المسك والطيب، وما أعتقد إلا أني في الجنة أو أنني أحلم في المنام. فلما أصبحت سألتني عن مكاني فقلت: في المحل الفلاني. فأمرت بخروجي، وأعطتني منديلًا مطرزًا بالذهب والفضة، وعليه شيء مربوط، فقالت لي: ادخل الحمام بهذا. ففرحت وقلت في نفسي: إن كان ما عليه خمسة فلوس فهي غدائي في هذا اليوم. ثم خرجت من عندها كأني خارج من الجنة، وجئت إلى المخزن الذي أنا فيه، ففتحت المنديل فوجدتُ فيه خمسين مثقالًا من الذهب، فدفنْتُها وقعدتُ عند الباب بعد أن اشتريت بفلسين خبزًا وأُدمًا وتغدَّيت، ثم صرت متفكرًا في أمري.

فبينما أنا كذلك إلى وقت العصر، وإذا بجارية قد أتت وقالت لي: إن سيدتي تطلبك. فخرجت معها إلى باب الدار واستأذنت لي، فدخلت وقبَّلت الأرض بين يديها فأمرتني

بالجلوس، وأمرت بإحضار الطعام والشراب على العادة، ثم نمت معها على جري العادة التي تقدَّمت أول ليلة. فلما أصبحت ناولتني منديلًا ثانيًا فيه خمسون مثقالًا من الذهب، فأخذتها وخرجت وجئتُ إلى المخزن ودفنتها، ومكثتُ على هذه الحالة مدة ثمانية أيام، أدخل عندها في كلِّ يومٍ العصرَ، وأخرج من عندها في أول النهار. فبينما أنا نائم عندها ليلة ثامن يوم، وإذا بجارية دخلت وهي تجري، وقالت لي: قم اطلع إلى هذه الطبقة. فطلعت إلى تلك الطبقة فوجدتها تشرف على وجه الطريق، فبينما أنا جالس، وإذا بضجة عظيمة، ودربكة خيل في الزقاق، وكان في الطبقة طاقة تشرف على الباب، فنظرت منها فرأيت شابًّا راكبًا كأنه القمر الطالع ليلة تمامه، وبين يدَيْه مماليك وجند يمشون في خدمته، فتقدَّم إلى الباب وترجَّل ودخل القاعة، فرآها قاعدة على السرير، فقبَّل الأرض بين يديها، ثم تقدَّمَ وقبَّل يدها فلم تكلِّمه، فما برح يتخضَّع لها حتى صالحها ونام عندها تلك الليلة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٨٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصبية لما صالحها زوجها نام عندها تلك الليلة، فلما أصبح الصباح أتته الجنود، وركب وخرج من الباب، فطلعت عندي وقالت لي: أرأيت هذا؟ قلت لها: نعم. قالت: هو زوجي، وأحكي لك ما جرى لي معه؛ اتفق أنني كنتُ أنا وإياه يومًا قاعدين في الجنينة داخل البيت، وإذا هو قد قام من جانبي وغاب عني ساعة طويلة، فاستبطأته فقلت في نفسي: لعله يكون في بيت الخلاء. فنهضت إلى بيت الخلاء فلم أجده، فدخلت المطبخ فرأيت جارية فسألتها عنه فأرتني إياه وهو راقد مع جارية من جواري المطبخ، فعند ذلك حلفت يمينًا عظيمةً إنني لا بد أن أزني مع أوسخ الناس وأقذرهم، ويوم قبض عليك الطواشي كان لي أربعة أيام وأنا أدوِّر في البلد على واحد يكون بهذه الصفة، فما وجدتُ أحدًا أوسخ ولا أقذر منك؛ فطلبتُك، وقد كان ما كان من قضاء الله علينا، وقد خلصت من اليمين التي حلفتها. ثم قالت: فمتى وقع زوجي على الجارية ورقَدَ معها مرةً أخرى أعدْتُك إلى ما كنتَ عليه معي. فلما سمعتُ منها هذا الكلام، ورمَتْ قلبي من لحاظها بالسهام، جرت دموعي حتى قرحت المحاجر، وأنشدتُ قول الشاعر:

مَكِّنِينِي مِنْ بَوْسِ يُسْرَاكِ عَشْرًا وَاعْرِفِي فَضْلَهَا عَلَى يُمْنَاكِ
إِنَّ يُسْرَاكِ لَهْيَ أَقْرَبُ عَهْدًا وَقْتَ غَسْلِ الْخَرَا بِمُسْتَنْجَاكِ

ثم إنها أمرت بخروجي من عندها، وقد تحصَّل لي منها أربعمائة مثقال من الذهب، فأنا أصرف منها، وجئت إلى ها هنا أدعو الله — سبحانه وتعالى — أنَّ زوجها يعود إلى الجارية مرةً أخرى، لعلِّي أعود إلى ما كنتُ عليه. فلما سمع أمير الحاج قصة الرجل أطلقه، وقال للحاضرين: بالله عليكم أن تدعوا له فإنه معذور.

حكاية الخليفة المزوَّر

ومما يُحكَى أن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي قلقًا شديدًا، فاستدعى وزيره جعفر البرمكي وقال له: إن صدري ضيِّق، ومرادي في هذه الليلة أن أتفرَّج في شوارع بغداد، وأنظر في مصالح العباد، بشرط أننا نتزيَّا بزيِّ التجار حتى لا يعرفنا أحد من الناس. فقال له الوزير: سمعًا وطاعة. ثم قاموا في الوقت والساعة، ونزعوا ما عليهم من ثياب الافتخار، ولبسوا ثياب التجار، وكانوا ثلاثة: الخليفة، وجعفر، ومسرور السيَّاف، وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدجلة، فرأوا شيخًا قاعدًا في زورق، فتقدَّموا إليه وسلَّموا عليه، وقالوا له: يا شيخ، إنا نشتهي من فضلك وإحسانك أن تفرجنا في مركبك هذه، وخذ هذا الدينار في أجرتك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٨٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنهم لما قالوا للشيخ: إنا نشتهي أن تفرجنا في مركبك، وخذ هذا الدينار. قال لهم: مَن ذا الذي يقدر على الفرجة، والخليفة هارون الرشيد ينزل في كل ليلة بحر الدجلة في زورق صغير، ومعه منادٍ ينادي ويقول: يا معشر الناس كافة من كبير وصغير، وخاص وعام، وصبي وغلام، كل مَن نزل في مركب وشق في الدجلة، ضربت عنقه أو شنقته على صاري مركبه؟ وكأنكم به في هذه الساعة وزورقه مقبل. فقال الخليفة وجعفر: يا شيخ، خذ هذين الدينارين، وادخل بنا قبة من هذه القباب إلى أن يروح زورق الخليفة. فقال لهم الشيخ: هاتوا الذهب، والتوكل على الله تعالى. فأخذ الذهب وعوَّم بهم قليلًا، وإذا بالزورق قد أقبل من كبد الدجلة، وفيه الشموع والمشاعل مضيئة، فقال لهم الشيخ: أَمَا قلتُ لكم إن الخليفة يشق في كل ليلة؟ ثم إن الشيخ صار يقول: يا ستار لا تكشف الأستار. ودخل بهم في قبة، ووضع عليهم ميزرًا أسود، وصاروا يتفرجون من تحت الميزر، فرأوا في مقدم الزورق رجلًا بيده مشعل من الذهب الأحمر، وهو يشعل فيه بالعود القاقلي، وعلى ذلك قباء من الأطلس الأحمر، وعلى كتفه مزركش أصفر، وعلى رأسه شاش موصلي، وعلى كتفه الآخَر مخلاة من الحرير الأخضر ملآنة بالعود القاقلي يوقد منها المشعل عوضًا عن الحطب، ورأوا رجلًا آخَر في مؤخر الزورق لابسًا مثل لبسه، وبيده مشعل مثل المشعل الذي معه، ورأوا في الزورق مائتَيْ مملوك واقفين يمينًا ويسارًا، ووجد كرسيًّا من الذهب الأحمر منصوبًا، وعليه شاب حسن جالس كالقمر، وعليه خلعة سوداء بطرازات من الذهب الأصفر، وبين يديه إنسان كأنه الوزير جعفر، وعلى رأسه خادم واقف كأنه مسرور، وبيده سيف مشهور، ورأوا عشرين نديمًا؛ فلما رأى الخليفة ذلك قال: يا جعفر. فقال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: لعل هذا واحد من أولادي؛ إما المأمون وإما الأمين. ثم تأمل الشاب وهو جالس على الكرسي، فرآه كامل

الحسن والجمال، والقدِّ والاعتدال، فلما تأمله التفت إلى الوزير وقال: يا وزير. قال: لبيك. قال: والله إن هذا الجالس لم يترك شيئًا من شكل الخلافة، والذي بين يدَيْه كأنه أنت يا جعفر، والخادم الذي واقف على رأسه كأنه مسرور، وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائي، وقد حار عقلي في هذا الأمر.

فقالت لها أختها دنيازاد: ما أحسن حديثك، وأطيبه، وأحلاه، وأعذبه! فقالت: وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك. فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

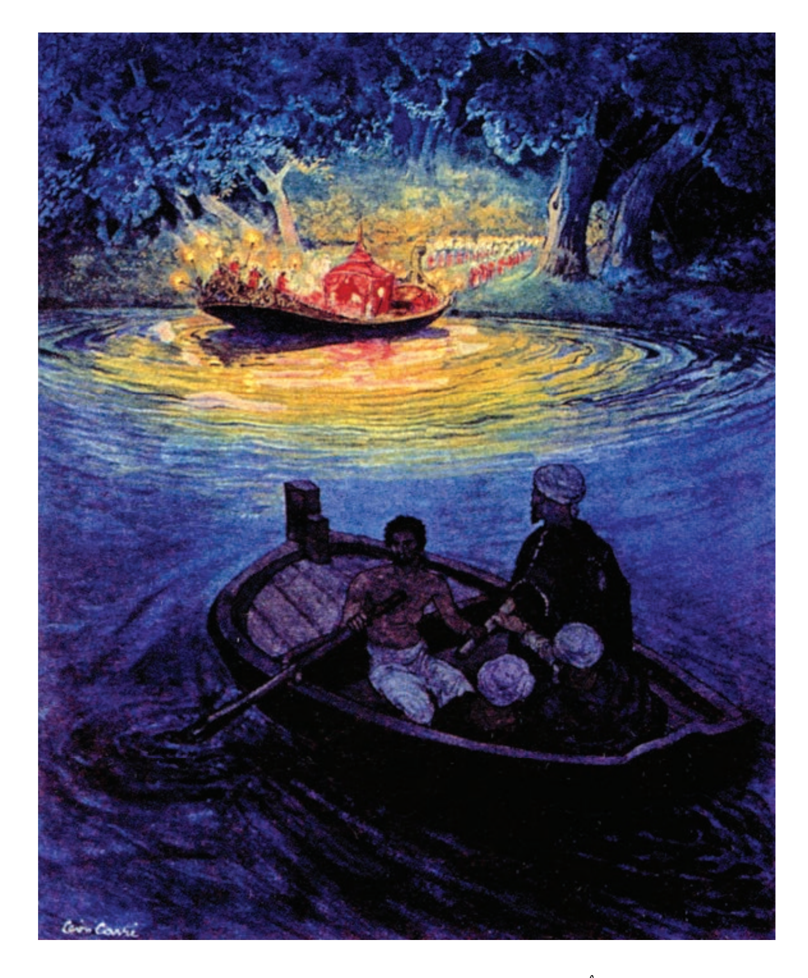
فلما كانت الليلة ٢٨٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة لما رأى هذا الأمر تحيَّرَ في عقله وقال: والله إني تعجَّبْتُ من هذا الأمر يا جعفر. فقال له جعفر: وأنا والله يا أمير المؤمنين. ثم ذهب الزورق حتى غاب عن العين، فعند ذلك خرج الشيخ بزورقه وقال: الحمد لله على السلامة حيث لم يصادفنا أحد. فقال الخليفة: يا شيخ، وهل الخليفة في كل ليلة ينزل الدجلة؟ قال: نعم يا سيدي، وله على هذه الحالة سنة كاملة. فقال: يا شيخ، نشتهي من فضلك أن تقف لنا هنا الليلة القابلة، ونحن نعطيك خمسة دنانير ذهبًا، فإننا قوم غرباء وقصدنا النزهة، ونحن نازلون في الخندق. فقال له الشيخ: حبًّا وكرامة. ثم إن الخليفة وجعفرًا ومسرورًا توجَّهوا من عند الشيخ إلى القصر، وقلعوا ما كان عليهم من لبس التجار، ولبسوا ثياب الملك، وجلس كل واحد في مرتبته، ودخل الأمراء والوزراء والحجَّاب والنوَّاب، وانعقد المجلس بالناس. فلما انقضى النهار وتفرَّقت أجناس الناس، وراح كل واحد إلى حال سبيله، قال الخليفة هارون الرشيد: يا جعفر، انهض بنا للفرجة على الخليفة الثاني. فضحك جعفر ومسرور، ولبسوا لبس التجار، وخرجوا يشقون وهم في غاية الانشراح، وكان خروجهم من باب السر، فلما وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الزورق قاعدًا لهم في الانتظار، فنزلوا عنده في المركب، فما استقر بهم الجلوس مع الشيخ ساعةً حتى جاء زورق الخليفة الثاني وأقبل عليهم؛ فالتفتوا إليه وأمعنوا فيه النظر فوجدوا فيه مائتَيْ مملوك غير المماليك الأُوَل، والمشاعلية ينادون على عادتهم، فقال الخليفة: يا وزير، هذا شيء لو سمعتُ به ما كنتُ أصدِّقه، ولكنني رأيت ذلك عيانًا. ثم إن الخليفة قال لصاحب الزورق الذي هم فيه: خذ يا شيخ هذه العشرة دنانير، وسِر بنا في محاذاتهم، فإنهم في النور ونحن في الظلام، فننظرهم ونتفرَّج عليهم وهم لا ينظروننا. فأخذ الشيخ العشرة دنانير ومشى بزورقه في محاذاتهم، وسار في ظلام زورقهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٨٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة هارون الرشيد قال للشيخ: خذ هذه العشرة دنانير، وسر بنا في محاذاتهم. فقال: سمعًا وطاعة. ثم أخذ الدنانير وسار بهم، وما زالوا سائرين في ظلام الزورق إلى البساتين، فلما وصلوا إلى البساتين رأوا زربية فرسى عليها الزورق، وإذا بغلمان واقفين ومعهم بغلة مسرجة ملجمة، فطلع الخليفة الثاني وركب البغلة، وسار بين الندماء، وصاحت المشاعلية، واشتغلت الغاشية بشأن الخليفة الثاني، فطلع هارون الرشيد هو وجعفر ومسرور إلى البر، وشقُّوا بين المماليك، وساروا قدَّامهم، فلاحت من المشاعلية التفاتة فرأوا ثلاثة أشخاص لبسهم لبس تجار، وهم غرباء الديار، فأنكروا عليهم، وغمزوا عليهم، وأحضروهم بين يدي الخليفة الثاني، فلما نظرهم قال لهم: كيف وصلتم إلى هذا المكان؟ وما الذي جاء بكم في هذا الوقت؟ قالوا: يا مولانا، نحن قوم من التجار غرباء الديار، وقدمنا في هذا اليوم، وخرجنا نتمشى الليلة، وإذا بكم قد أقبلتم فجاء هؤلاء وقبضوا علينا، وأوقفونا بين يديك، وهذا خبرنا. فقال الخليفة الثاني: لا بأس عليكم، لأنكم قوم غرباء، ولو كنتم من بغداد ضربت أعناقكم. ثم التفت إلى وزيره وقال له: خذ هؤلاء صحبتك فإنهم ضيوفنا في هذه الليلة. فقال: سمعًا وطاعةً لك يا مولانا. ثم سار وهم معه إلى أن وصلوا إلى قصر عالٍ عظيم الشأن، محكم البنيان، ما حواه سلطان قام من التراب، وتعلق بأكتاف السحاب، وبابه من خشب الساج، مرصَّع بالذهب الوهَّاج، يصل منه الداخل إلى إيوان بفسقية وشاذروان، وبسط ومخدَّات من الديباج، ونمارق وطوالات، وهناك ستر مسبول، وفرش يذهل العقول، ويعجز مَن يقول، وعلى الباب مكتوب هذان البيتان:

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ   خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْأَيَّامُ
فِيهِ الْعَجَائِبُ وَالْغَرَائِبُ نُوِّعَتْ   فَتَحَيَّرَتْ فِي فَنِّهَا الْأَقْلَامُ



فأمَرهم الخليفةُ بالسير، وما زالوا سائرين في ظلام الزورق إلى البساتين.

ثم دخل الخليفة الثاني والجماعة صحبته إلى أن جلس على كرسي من الذهب مرصَّع بالجواهر، وعلى الكرسي سجادة من الحرير الأصفر، وقد جلست الندماء، ووقف سيَّاف النقمة بين يديه، فمدوا السماط وأكلوا، ورُفِعت الأواني، وغُسِلت الأيادي، وأحضروا آلة المدام، واصطفَّت القناني والكاسات، ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد فامتنع من الشراب، فقال الخليفة الثاني لجعفر: ما بال صاحبك لا يشرب؟ فقال: يا مولاي،

إن له مدة ما شرب من هذا. فقال الخليفة الثاني: عندي مشروب غير هذا يصلح لصاحبك، وهو من شراب التفاح. ثم أمر به فأحضروه في الحال، فتقدَّم الخليفة الثاني بين يدي هارون الرشيد وقال له: كلما وصل إليك الدور فاشرب من هذا الشراب. وما زالوا في انشراح وتعاطي أقداح الراح إلى أن تمكَّنَ الشراب من رءوسهم، واستولى على عقولهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٨٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة الثاني هو وجلساءه ما زالوا يشربون حتى تمكن الشراب من رءوسهم، واستولى على عقولهم، فقال الخليفة هارون الرشيد لوزيره: يا جعفر، والله ما عندنا آنية مثل هذه الآنية، فيا ليت شعري ما شأن هذا الشاب؟ فبينما هما يتحدثان سرًّا إذ لاحت من الشاب التفاتة فوجد الوزير يتسارر مع الخليفة، فقال: إن المسارَرة عربدة. فقال الوزير: ما ثمَّ عربدة، إلا أن رفيقي هذا يقول إني سافرت إلى غالب البلاد، ونادمت أكابر الملوك وعاشرت الأجناد، فما رأيتُ أحسن من هذا النظام، ولا أبهج من هذه الليلة، غير أن أهل بغداد يقولون: الشراب بلا سماع ربما أورث الصداع. فلما سمع الخليفة الثاني ذلك الكلام تبسَّم وانشرح، وكان بيده قضيب فضرب به على مدورة، وإذا بباب فُتِح وخرج منه خادم يحمل كرسيًّا من العاج مصفَّحًا بالذهب الوهَّاج، وخلفه جارية بارعة في الحسن والجمال، والبهاء والكمال، فنصب الخادم الكرسي، وجلست عليه الجارية، وهي كالشمس الضاحية في السماء الصاحية، وبيدها عود عمل صناع الهنود، فوضعته في حجرها وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها، وغنَّت عليه بعد أن طربت، وقلبت أربعًا وعشرين طريقة حتى أذهلت العقول، ثم عادت إلى طريقتها الأولى، وأطربت بالنغمات، وأنشدت هذه الأبيات:

لِسَانُ الْهَوَى فِي مُهْجَتِي لَكَ نَاطِقُ … يُخَبِّرُ عَنِّي أَنَّنِي لَكَ عَاشِقُ
وَلِي شَاهِدٌ مِنْ حَرِّ قَلْبٍ مُعَذَّبٍ … وَطَرْفٍ قَرِيحٍ وَالدُّمُوعُ سَوَابِقُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ حُبِّكَ مَا الْهَوَى … وَلَكِنْ قَضَاءُ اللهِ فِي الْخَلْقِ سَابِقُ

فلما سمع الخليفة الثاني هذا الشعر من الجارية صرخ صرخة عظيمة، وشقَّ البدلة التي كانت عليه إلى الذيل، وسبلت عليه الستارة، وأتوه ببدلة غيرها أحسن منها فلبسها، ثم جلس على عادته، فلما وصل إليه القدح ضرب بالقضيب على المدورة، وإذا بباب قد فُتِح وخرج منه خادم يحمل كرسيًّا من الذهب، وخلفه جارية أحسن من الجارية الأولى، فجلست على ذلك الكرسي وبيدها عود يكمد قلب الحسود، فغنَّتْ عليه بهذين البيتين:

كَيْفَ اصْطِبَارِي وَنَارُ الشَّوْقِ فِي كَبِدِي وَالدَّمْعُ مِنْ مُقْلَتِي طُوفَانُ لِلْأَبَدِ
وَاللهِ مَا طَابَ لِي عَيْشٌ أُسَرُّ بِهِ فَكَيْفَ يَفْرَحُ قَلْبٌ حَشْوُهُ كَمَدِي

فلما سمع الشاب هذا الشعر صرخ صرخة عظيمة، وشق ما عليه من الثياب إلى الذيل، وانسبلت عليه الستارة، وأتوه ببدلةٍ أخرى فلبسها، واستوى جالسًا ورجع إلى حالته الأولى، وانبسط في الكلام، فلما وصل القدح إليه ضرب على المدورة، فخرج خادم ووراءه جارية أحسن من التي قبلها، ومعه كرسي، فجلست الجارية على الكرسي وبيدها عود، فغنت عليه بهذه الأبيات:

اقْصُرُوا هَجْرَكُمْ وَقِلُّوا جَفَاكُمْ فَفُؤَادِي وَحَقِّكُمْ مَا سَلَاكُمْ
وَارْحَمُوا مُدْنَفًا كَئِيبًا حَزِينًا ذَا غَرَامٍ مُتَيَّمًا فِي هَوَاكُمْ
قَدْ بَرَتْهُ السِّقَامُ مِنْ فَرْطِ وَجْدٍ فَتَمَنَّى مِنَ الْإِلَهِ رِضَاكُمْ
يَا بُدُورًا مَحَلُّهُمْ فِي فُؤَادِي كَيْفَ أَخْتَارُ فِي الْأَنَامِ سِوَاكُمْ

فلما سمع الشاب هذه الأبيات صرخ صرخة عظيمة، وشق ما كان عليه من الثياب، فأرخوا عليه الستارة، وأتوه بثياب غيرها، ثم عاد إلى حالته مع ندمائه، ودارت الأقداح، فلما وصل القدح إليه ضرب على المدورة، فانفتح الباب وخرج منه غلام معه كرسي، وخلفه جارية فنصب لها الكرسي وجلست عليه، وأخذت العود وأصلحته، وغنَّت عليه بهذه الأبيات:

حَتَّى مَتَى يَمْضِي التَّهَاجُرُ وَالْقِلَى وَيَعُودُ لِي مَا قَدْ مَضَى لِي أَوَّلَا
مِنْ أَمْسِ كُنَّا وَالدِّيَارُ تَلُمُّنَا فِي أُنْسِنَا وَنَرَى الْحَوَاسِدَ غُفَّلَا
غَدَرَ الزَّمَانُ بِنَا وَفَرَّقَ شَمْلَنَا مِنْ بَعْدِ مَا تَرَكَ الْمَنَازِلَ كَالْخَلَا

أَتَرُومُ مِنِّي يَا عَذُولِي سَلْوَةً وَأَرَى فُؤَادِي لَا يُطِيعُ الْعُذَّلَا
فَدَعِ الْمَلَامَ وَخَلِّنِي بِصَبَابَتِي فَالْقَلْبُ مِنْ أُنْسِ الْأَحِبَّةِ مَا خَلَا
يَا سَادَةً نَقَضُوا الْعُهُودَ وَبَدَّلُوا لَا تَحْسَبُوا قَلْبِي الْمُتَيَّمَ قَدْ سَلَا

فلما سمع الخليفة الثاني إنشاد الجارية صرخ صرخة عظيمة، وشق ما عليه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة الثاني لما سمع شعر الجارية صرخ صرخة عظيمة، وشقَّ ما عليه من الثياب، وخرَّ مغشيًّا عليه، فأرادوا أن يرخوا عليه الستارة بحسب العادة فتوقفت حبالها، فلاحت من هارون الرشيد التفاتة إليه، فنظر على بدنه آثار ضرب مقارع، فقال الرشيد بعد النظر والتأكيد: يا جعفر، والله إنه شاب مليح إلا أنه لص قبيح. فقال جعفر: من أين عرفت ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أَمَا رأيتَ ما على جنبَيْه من أثر السياط؟ ثم أسبلوا عليه الستارة، وأتوه ببدلة غير التي كانت عليه فلبسها واستوى جالسًا على حالته الأولى مع الندماء، فلاحت منه التفاتة فوجد الخليفة وجعفرًا يتحدثان سرًّا، فقال لهما: ما الخبر يا فتيان؟ فقال جعفر: يا مولانا خير، غير أنه لا خفاء عليك أن رفيقي هذا من التجار، وقد سافر جميع الأمصار والأقطار، وصحب الملوك والأخيار، وهو يقول لي: إن الذي حصل من مولانا الخليفة في هذه الليلة إسراف عظيم، ولم أَرَ أحدًا فعل مثل فعله في سائر الأقاليم؛ لأنه شقَّ كذا وكذا بدلة، كل بدلة بألف دينار، وهذا إسراف زائد. فقال الخليفة الثاني: يا هذا، إن المال مالي، والقماش قماشي، وهذا من بعض الأنعام على الخدام والحواشي، فإن كل بدلة شققتها لواحد من الندماء الحضار، وقد رسمت لهم مع كل بدلة خمسمائة دينار. فقال الوزير جعفر: نِعْمَ ما فعلتَ يا مولانا. ثم أنشد هذين البيتين:

بَنَتِ الْمَكَارِمُ وَسْطَ كَفِّكَ مَنْزِلًا ... وَجَعَلْتَ مَا لَكَ لِلْأَنَامِ مُبَاحَا
فَإِذَا الْمَكَارِمُ أَغْلَقَتْ أَبْوَابَهَا ... كَانَتْ يَدَاكَ لِقُفْلِهَا مِفْتَاحَا



وإذ بكرسي من ذهب، فبانَت تلك الجارية عن وجهٍ كأنه القمر، والعِقْد في عُنقها.

فلما سمع الشاب هذا الشعر من الوزير جعفر رسم له ألف دينار وبدلة، ثم دارت بينهم الأقداح، وطاب لهم الراح، فقال الرشيد: يا جعفر، اسأله عن الضرب الذي على جنبَيْه حتى ننظر ما يقول في جوابه. فقال: لا تعجل يا مولانا، وترفَّق بنفسك، فإن الصبر أجمل. فقال: وحياة رأسي، وتربة العباس إن لم تسأله لأخمدنَّ منك الأنفاس. فعند ذلك التفت الشاب إلى الوزير، وقال له: ما لك مع رفيقك تتسارران؟ فأخبرني بشأنكما. فقال: خير.

فقال الشاب: سألتك بالله أن تخبرني بخبركم، ولا تكتم عني شيئًا من أمركم. فقال: يا مولاي، إنه أبصر على جنبَيْك ضربًا، وأثر سياط ومقارع، فتعجَّبَ من ذلك غاية العجب، وقال: كيف يُضرَب الخليفة؟ وقصدُه أن يعلم ما السبب. فلما سمع الشاب ذلك تبسَّمَ وقال: اعلموا أن حديثي غريب، وأمري عجيب، لو كُتِب بالإبر على آماق البصر لَكان عبرة لَمَن اعتبر. ثم صعَّد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

حَدِيثِي عَجِيبٌ فَاقَ كُلَّ الْعَجَائِبِ وَحَقِّ الْهَوَى ضَاقَتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي
إِذَا مَا أَرَدْتُمْ أَنْ أَقُولَ فَأَنْصِتُوا وَيَسْكُتُ هَذَا الْجَمْعُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
وَأَصْغُوا إِلَى قَوْلِي فَفِيهِ إِشَارَةٌ وَإِنَّ كَلَامِي صَادِقٌ غَيْرُ كَاذِبِ
فَإِنِّي قَتِيلٌ مِنْ غَرَامٍ وَلَوْعَةٍ وَقَاتِلَتِي فَاقَتْ جَمِيعَ الْكَوَاعِبِ
لَهَا مُقْلَةٌ كَحْلَاءُ مِثْلُ مُهَنَّدٍ وَتَرْمِي سِهَامًا مِنْ قِسِيِّ الْحَوَاجِبِ
وَقَدْ حَسَّ قَلْبِي أَنَّ فِيكُمْ إِمَامَنَا خَلِيفَةَ هَذَا الْوَقْتِ وَابْنَ الْأَطَايِبِ
وَثَانِيكُمُ وَهْوَ الْمُنَادَى بِجَعْفَرٍ لَدَيْهِ وَزِيرٌ صَاحِبٌ وَابْنُ صَاحِبِ
وَثَالِثُكُمْ مَسْرُورُ سَيَّافُ نِقْمَةٍ فَإِنْ كَانَ هَذَا الْقَوْلُ لَيْسَ بِكَاذِبِ
لَقَدْ نِلْتُ مَا أَرْجُو مِنَ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَجَاءَ سُرُورُ الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

فلما سمعوا منه هذا الكلام، حلف له جعفر ووري في يمينه أنهم لم يكونوا المذكورين؛ فضحك الشاب وقال: اعلموا يا سادتي أنني لست أمير المؤمنين، وإنما سميتُ نفسي بهذا الاسم لأبلغ ما أريد من أولاد المدينة، وإنما اسمي محمد علي بن علي الجوهري، وكان أبي من الأعيان فمات، وخلَّف لي مالًا كثيرًا من ذهب، وفضة، ولؤلؤ، ومرجان، وياقوت، وزبرجد، وجواهر، وعقارات، وحمامات، وغيطان، وبساتين، ودكاكين، وطوابين، وعبيد، وجوارٍ، وغلمان؛ فاتفق في بعض الأيام أنني كنت جالسًا في دكاني، وحولي الخدم والحشم، وإذا بجارية قد أقبلت راكبة على بغلة، وفي خدمتها ثلاث جوارٍ كأنهن الأقمار، فلما قربت مني نزلت على دكاني وجلست عندي، وقالت لي: هل أنت محمد الجوهري؟ فقلت لها: نعم هو، أنا مملوكك وعبدك. فقالت: هل عندك عقد جوهر يصلح لي؟ فقلت: يا سيدتي، الذي عندي أعرضه عليك، وأحضره بين يديك، فإن أعجبك منه شيء كان يسعد المملوك، وإن لم يعجبك شيء فبسوء حظي. وكان عندي مائة عقد من الجوهر فعرضت عليها الجميع، فلم يعجبها شيء من ذلك، وقالت: أريد أحسن مما رأيت. وكان عندي عقد صغير اشتراه والدي بمائة ألف دينار، ولم يوجد مثله عند أحد من السلاطين الكبار، فقلت لها: يا سيدتي،

بقي عندي عقد الفصوص والجواهر، الذي لا يملك مثله أحد من الأكابر والأصاغر. فقالت لي: أرني إياه. فلما رأته قالت: هذا مطلوبي، وهو الذي طول عمري أتمناه. ثم قالت لي: كم ثمنه؟ فقلت لها: ثمنه على والدي مائة ألف دينار. فقالت: ولك خمسة آلاف دينار فائدة. فقلت: يا سيدتي، العقد وصاحبه بين يديك، ولا خلاف عندي. فقالت: لا بد من الفائدة، ولك المنة الزائدة. ثم قامت من وقتها وركبت البغلة بسرعة، وقالت لي: يا سيدي، باسم الله تفضل صحبتنا لتأخذ الثمن، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن. فقمت وقفلت الدكان وسرت معها في أمان إلى أن وصلنا الدار، فوجدتها دارًا عليها آثار السعادة لائحة، وبابها مزركش بالذهب والفضة واللازورد، ومكتوب عليه هذان البيتان:

أَلَا يَا دَارُ لَا يَدْخُلْكِ حُزْنُ وَلَا يَغْدُرْ بِصَاحِبِكِ الزَّمَانُ
فَنِعْمَ الدَّارُ أَنْتِ لِكُلِّ ضَيْفٍ إِذَا مَا ضَاقَ بِالضَّيْفِ الْمَكَانُ

فنزلت الجارية ودخلت الدار، وأمرتني بالجلوس على مصطبة الباب إلى أن يأتي الصيرفي، فجلستُ على باب الدار ساعة، وإذا بجارية خرجت إليَّ وقالت: يا سيدي، ادخل الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح. فقمت ودخلت الدهليز، وجلست على الدكة، فبينما أنا جالس، وإذا بجارية خرجت إليَّ وقالت لي: يا سيدي، إن سيدتي تقول لك: ادخل واجلس على باب الإيوان حتى تقبض مالك. فقمت ودخلت البيت وجلست لحظة، وإذا بكرسي من الذهب وعليه ستارة من الحرير، وإذا بتلك الستارة قد رُفِعت، فبان من تحتها تلك الجارية التي اشترت مني ذلك العقد، وقد أسفرت عن وجهٍ كأنه دائرة القمر، والعقد في عنقها، فطاش عقلي واندهش لُبِّي من رؤية تلك الجارية لفرط حُسْنها وجمالها، فلما رأتني قامت من فوق الكرسي وسعت إلى نحوي، وقالت لي: يا نور عيني، هل كل مَن كان مليحًا مثلك ما يرثي لمحبوبته؟ فقلت: يا سيدتي، الحسن كله فيكِ، وهو من بعض معانيكِ. فقالت: يا جوهري، اعلم أني أحبك، وما صدقت أني أجيء بك عندي. ثم إنها مالت عليَّ فقبَّلتُها وقبَّلتني، وإلى جهتها جذبتني، وعلى صدرها رمتني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري قال: ثم إنها مالت عليَّ وقبَّلتني، وإلى جهتها جذبتني، وعلى صدرها رمتني، وعلمت من حالي أني أريد وصالها، فقالت: يا سيدي، أتريد أن تجتمع بي في الحرام؟ والله لا كان مَن يفعل مثل هذه الآثام، ويرضى بقبيح الكلام، فإني بكر عذراء ما دَنَا مني أحد، ولست مجهولة في البلد، أتعلم مَن أنا؟ فقلت: لا والله يا سيدتي. فقالت: أنا السيدة دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكي، وأخي جعفر وزير الخليفة. فلما سمعت ذلك منها أحجمت بخاطري عنها، وقلت لها: يا سيدتي، ما لي ذنب في التهجُّم عليكِ، أنتِ التي أطمعتِني في وصالك بالوصول إليك. فقالت: لا بأس عليك، ولا بد من بلوغك المراد بما يُرضِي الله، فإن أمري بيدي، والقاضي ولي عقدي، والقصد أن أكون لك أهلًا، وتكون لي بعلًا. ثم إنها دعت بالقاضي والشهود، وبذلت المجهود؛ فلما حضروا قالت لهم: محمد علي بن علي الجوهري قد طلب زواجي، ودفع لي هذا العقد في مهري، وأنا قبلت ورضيت. فكتبوا كتابي عليها ودخلت بها، وأُحضرت آلات الراح، ودارت الأقداح بأحسن نظام وأتم إحكام، ولما شعشعت الخمرة في رءوسنا أمرت جارية عوَّادة أن تغني، فأخذت العود وأطربت بالنغمات، وأنشدت هذه الأبيات:

بَدَا فَأَرَانِي الظَّبْيَ وَالْغُصْنَ وَالْبَدْرَا ... فَتَبًّا لِقَلْبٍ لَا يَبِيتُ بِهِ مُغْرَى
مَلِيحٌ أَرَادَ اللهُ إِطْفَاءَ فِتْنَةٍ ... بِعَارِضِهِ فَاسْتَأْنَفَتْ فِتْنَةٌ أُخْرَى
أُغَالِطُ عُذَّالِي إِذَا ذَكَرُوا لَهُ ... حَدِيثًا كَأَنِّي لَا أُحِبُّ لَهُ ذِكْرَا
وَأُصْغِي إِذَا ذَكَرُوا لِغَيْرِ حَدِيثِهِ ... بِسَمْعِي وَلَكِنِّي أَذُوبُ بِهِ فِكْرَا
نَبِيُّ جَمَالٍ كُلُّ مَا فِيهِ مُعْجِزٌ ... مِنَ الْحُسْنِ لَكِنْ وَجْهُهُ الْآيَةُ الْكُبْرَى

أَقَامَ هِلَالُ الْخَالِ فِي صَحْنِ خَدِّهِ يُرَاقِبُ مِنْ لَأْلَاءِ غُرَّتِهِ الْفَجْرَا
يُرِيدُ سُلُوِّي الْعَاذِلُونَ جَهَالَةً وَمَا كُنْتُ أَرْضَى بَعْدَ إِيمَانِيَ الْكُفْرَا

فأطربت الجارية بما أبدته من نغمات الأوتار ورقيق الأشعار، ولم تزل الجواري تغني جارية بعد جارية، وينشدن الأشعار إلى أن غنَّتْ عشرُ جوارٍ، وبعد ذلك أخذت السيدة دنيا العود وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

قَسَمًا بِلِينِ قَوَامِكَ الْمَيَّاسِ إِنِّي لَنَارُ الْهَجْرِ مِنْكَ أُقَاسِي
فَارْحَمْ حَشًا بِلَظَى هَوَاكَ تَسَعَّرَتْ يَا بَدْرُ تِمٍّ فِي دُجَى الْأَغْلَاسِ
أَنْعِمْ بِوَصْلِكَ لِي فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ أَجْلُو جَمَالَكَ فِي ضِيَاءِ الْكَاسِ
مَا بَيْنَ وَرْدٍ نُوِّعَتْ أَلْوَانُهُ وَزَهَتْ مَحَاسِنُهُ خَلَالَ الْآسِ

فلما فرغت من شعرها أخذتُ العود منها وضربتُ عليه غريب الضربات وغنَّيتُ بهذه الأبيات:

سُبْحَانَ رَبِّ جَمِيعَ الْحُسْنِ أَعْطَاكِ حَتَّى بَقِيتُ أَنَا مِنْ بَعْضِ أَسْرَاكِ
يَا مَنْ لَهَا نَاظِرٌ تَسْبِي الْأَنَامَ بِهِ سَلِي الْأَمَانَ لَنَا مِنْ سَهْمِ مَرْمَاكِ
ضِدَّانِ مَاءٌ وَنَارٌ فِي سَنَا لَهَبٍ حَوَتْهُمَا بِغَرِيبِ الشَّكْلِ خَدَّاكِ
أَنْتِ السَّعِيرُ بِقَلْبِي وَالنَّعِيمُ لَهُ فَمَا أَمَرَّكِ فِي قَلْبِي وَأَحْلَاكِ

فلما سمعت مني هذا المعنى فرحت فرحًا شديدًا، ثم إنها صرفت الجواري، وقمنا إلى أحسن مكان قد فُرِش لنا فيه فرش من سائر الألوان، ونزعت ما عليها من الثياب، وخلوت بها خلوة الأحباب؛ فوجدتها درَّة لم تُثقَب، ومُهْرَة لم تُركَب، ففرحت بها، ولم أَرَ في عمري ليلة أطيب من تلك الليلة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن محمد بن علي الجوهري قال: لما دخلت بالسيدة دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكي رأيتها درَّة لم تُثقب، ومُهْرَة لم تُركَب، فأنشدتُ هذين البيتين:

طَوَّقْتُهُ طَوْقَ الْحَمَامِ بِسَاعِدِي ... وَجَعَلْتُ كَفِّي لِلِّثَامِ مُبَاحَا
هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَلَمْ نَزَلْ ... مُتَعَانِقَيْنِ فَلَا نُرِيدُ بَرَاحَا

ثم أقمت عندها شهرًا كاملًا، وقد تركت الدكان، والأهل والأوطان، فقالت لي يومًا من الأيام: يا نور العين يا سيدي محمد، إني قد عزمت اليومَ على المسير إلى الحمام، فاستقر أنت على هذا السرير، ولا تنتقل من مكانك إلى أن أرجع إليك. وحلَّفتني على ذلك، فقلت لها: سمعًا وطاعة. ثم إنها حلَّفتني أني لا أنتقل من موضعي، وأخذت جواريها وذهبت إلى الحمام، فوالله يا إخواني ما لحقت أن تصل إلى رأس الزقاق إلا والباب قد فُتِح، ودخلَتْ منه عجوز، وقالت: يا سيدي محمد، إن السيدة زبيدة تدعوك، فإنها سمعت بأدبك وظرفك وحسن غنائك. فقلت لها: والله ما أقوم من مكاني حتى تأتي السيدة دنيا. فقالت العجوز: يا سيدي، لا تخلِّ السيدة زبيدة تغضب عليك وتبقى عدوتك، فقُمْ كلِّمها وارجع إلى مكانك. فقمتُ من وقتي وتوجَّهت إليها، والعجوز أمامي إلى أن وصَّلتني إلى السيدة زبيدة، فلما وصلت إليها قالت لي: يا نور العين، هل أنت معشوق السيدة دنيا؟ فقلت: أنا مملوكك وعبدك. فقالت: صدق الذي وصفك بالحُسْن والجمال، والأدب والكمال؛ فإنك فوق الوصف والمقال، ولكن غنِّ لي حتى أسمعك. فقلت لها: سمعًا وطاعة. فأتتني بعود فغنَّيت عليه بهذه الأبيات:

قَلْبُ الْمُحِبِّ مَعَ الْأَحْبَابِ مَتْعُوبُ ... وَجِسْمُهُ بِيَدِ الْأَسْقَامِ مَنْهُوبُ

مَا فِي الرِّحَالِ وَقَدْ زُمَّتْ رَكَائِبُهُمْ   إِلَّا مُحِبٌّ لَهُ فِي الرَّكْبِ مَحْبُوبُ
أَسْتَوْدِعُ اللهَ فِي إِطْنَابِكُمْ قَمَرًا   يَهْوَاهُ قَلْبِي وَعَنْ عَيْنَيَّ مَحْجُوبُ
يَرْضَى وَيَغْضَبُ مَا أَحْلَى تَدَلُّـلَهُ   وَكُلُّ مَا يَفْعَلُ الْمَحْبُوبُ مَحْبُوبُ

فلما فرغتُ من المغنى قالت لي: أصح الله بدنك، وطيَّب أنفاسك، فلقد كملت في الحُسْن والأدب والمغنى، فقم وامضِ إلى مكانك قبل أن تجيء السيدة دنيا فلا تجدك فتغضب عليك. فقبَّلتُ الأرضَ بين يدَيْها وخرجت والعجوز أمامي إلى أن وصلت إلى الباب الذي خرجتُ منه، فدخلتُ وجئتُ إلى السرير فوجدتها قد جاءت من الحمام، وهي نائمة على السرير، فقعدت عند رجليها وكبستهما، ففتحت عينَيْها فرأتني، فجمعت رجليها ورفصتني فرمتني من فوق السرير، وقالت لي: يا خائن! خنت اليمين وحنثت فيه، ووعدتني أنك لا تنتقل من مكانك وأخلفت الوعد، وذهبت إلى السيدة زبيدة، والله لولا خوفي من الفضيحة لَهدمتُ قصرها على رأسها. ثم قالت لعبدها: يا صواب، قم اضرب رقبة الكذَّاب، فلا حاجةَ لنا به. فتقدَّمَ العبدُ وشرط من ذيله رقعة وعصب بها عينيَّ، وأراد أن يضرب عنقي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن محمدًا الجوهري قال: فتقدَّمَ العبد وشرط من ذيله رقعة وعصب بها عينيَّ، وأراد أن يضرب عنقي، فقامت إليها الجواري الكبار والصغار وقلن لها: يا سيدتنا، ليس هذا أول مَن أخطأ، وهو لا يعرف خلقك، وما فعل ذنبًا يوجب القتل. فقالت: والله لا بد أن أعمل فيه أثرًا. ثم أمرت بضربي، فضربوني على أضلاعي، وهذا الذي رأيتموه أثر ذلك الضرب، وبعد ذلك أمرت بإخراجي، فأخرجوني وأبعدوني عن القصر ورموني، فحملتُ نفسي ومشيت قليلًا قليلًا حتى وصلت إلى منزلي، وأحضرت جراحيًّا وأريته الضرب، فلاطفني وسعى في مداواتي. فلما شفيت ودخلت الحمام، وزالت عني الأوجاع والأسقام، جئت إلى الدكان وأخذت جميع ما فيها وبعته، وجمعت ثمنه واشتريت لي أربعمائة مملوك ما جمعهم أحد من الملوك، وصار يركب معي منهم في كل يوم مائتان، وعملت هذا الزورق، وصرفت عليه خمسة آلاف دينار من الذهب، وسمَّيتُ نفسي بالخليفة، ورتَّبتُ مَن معي من الخدم كل واحد في وظيفة واحد من أتباع الخليفة، وهيَّأتُه بهيئته، وناديت: كلُّ مَن تفرَّجَ في الدجلة ضربتُ عنقه بلا مهلة. ولي على هذا الحال سنة كاملة، وأنا لم أسمع لها خبرًا، ولم أقف لها على أثر. ثم إنه بكى وأفاض العبرات، وأنشد هذه الأبيات:

وَاللهِ مَا كُنْتُ طُولَ الدَّهْرِ نَاسِيهَا ... وَلَا دَنَوْتُ إِلَى مَنْ لَيْسَ يُدْنِيهَا
كَأَنَّهَا الْبَدْرُ فِي تَكْوِينِ خِلْقَتِهَا ... سُبْحَانَ خَالِقِهَا سُبْحَانَ بَارِيهَا
قَدْ صَيَّرَتْنِي حَزِينًا سَاهِرًا دَنِفًا ... وَالْقَلْبُ قَدْ حَارَ مِنِّي فِي مَعَانِيهَا

فلما سمع هارون الرشيد كلامه، وعرف وَجْده ولوعته وغرامه، تدلَّهَ ولهًا، وتحيَّر عجبًا، وقال: سبحان الله الذي جعل لكل شيء سببًا! ثم إنهم استأذنوا الشاب في الانصراف فأذن لهم، وأضمر له الرشيد على الإنصاف، وأن يتحفه غاية الإتحاف، ثم انصرفوا من عنده سائرين وإلى محل الخلافة متوجِّهين، فلما استقر بهم الجلوس، وغيَّروا ما عليهم من الملبوس، ولبسوا أثواب المواكب، ووقف بين أيديهم مسرور سيَّاف النقمة، فقال الخليفة لجعفر: يا وزير، عليَّ بالشاب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة قال للوزير: عليَّ بالشاب الذي كنَّا عنده في الليلة الماضية. فقال: سمعًا وطاعة. ثم توجَّه إليه وسلَّم عليه، وقال له: أجب أمير المؤمنين الخليفة هارون الرشيد. فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم عليه في حصر، فلما دخل على الخليفة قبَّل الأرض بين يديه، ودعا له بدوام العز والإقبال وبلوغ الآمال، ودوام النِّعَم وإزالة البؤس والنقم، وقد أحسن ما به تكلَّمَ حيث قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وحامي حومة الدين. ثم أنشد هذين البيتين:

لَا زَالَ بَابُكَ كَعْبَةً مَقْصُودَةً　　وَتُرَابُهَا فَوْقَ الْجِبَاهِ رُسُومُ
حَتَّى يُنَادَى فِي الْبِلَادِ بِأَسْرِهَا　　هَذَا الْمَقَامُ وَأَنْتَ إِبْرَاهِيمُ

فتبسَّم الخليفة في وجهه وردَّ عليه السلام، والتفت إليه بعين الإكرام، وقرَّبه وأجلسه بين يديه، وقال له: يا محمد علي، أريد منك أن تحدِّثني بما وقع في هذه الليلة، فإنه من العجائب وبديع الغرائب. فقال الشاب: العفو يا أمير المؤمنين، أعطني منديل الأمان ليسكن روعي ويطمئن قلبي. فقال له الخليفة: لك الأمان من الخوف والأحزان. فشرع الشاب يحدِّثه بالذي حصل له من أوله إلى آخِره. فعلم الخليفة أن الصبي عاشق، وللمعشوق مفارق، فقال له: أتحب أن أردَّها عليك؟ قال: هذا من فضل أمير المؤمنين. ثم أنشد هذين البيتين:

الْثَمْ أَنَامِلَهُ فَلَسْنَ أَنَامِلًا　　لَكِنَّهُنَّ مَفَاتِحُ الْأَرْزَاقِ
وَاشْكُرْ صَنَائِعَهُ فَلَسْنَ صَنَائِعًا　　لَكِنَّهُنَّ قَلَائِدُ الْأَعْنَاقِ

فعند ذلك التفت الخليفة إلى الوزير وقال له: يا جعفر، أحضر لي أختك السيدة دنيا بنت الوزير يحيى بن خالد. فقال: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين. ثم أحضرها في الوقت والساعة، فلما تمثَّلت بين يديه قال لها الخليفة: أتعرفين مَن هذا؟ قالت: يا أمير المؤمنين، من أين للنساء معرفة الرجال؟ فتبسَّمَ الخليفة وقال لها: يا دنيا، هذا حبيبك محمد علي بن الجوهري، وقد عرفنا الحال، وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخِرها، وفهمنا ظاهرها وباطنها، والأمر لا يخفى وإنْ كان مستورًا. فقالت: يا أمير المؤمنين، كان ذلك في الكتاب مسطورًا، وأنا أستغفر الله العظيم ممَّا جرى مني، وأسألك من فضلك العفو عني. فضحك الخليفة هارون الرشيد، وأحضر القاضي والشهود، وجدَّدَ عقدها على زوجها محمد علي بن الجوهري، وحصل لها وله سعد السعود، وإكماد الحسود، وجعله من جملة ندمائه، واستمروا في سرور ولذة وحبور، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات.

حكاية علي العجمي

ومما يُحكَى أيضًا أن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي فاستدعى وزيره، فلما حضر بين يدَيْه قال له: يا جعفر، إني قلقت الليلة قلقًا عظيمًا وضاق صدري، وأريد منك شيئًا يسرُّ خاطري، وينشرح به صدري. فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن لي صديقًا اسمه علي العجمي، وعنده من الحكايات والأخبار المطربة ما يسرُّ النفوس، ويزيل عن القلب البؤس. فقال: عليَّ به. فقال: سمعًا وطاعة. ثم إن جعفرًا خرج من عند الخليفة في طلب العجمي فأرسل خلفه، فلما حضر قال له: أجِبْ أمير المؤمنين. فقال: سمعًا وطاعة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجمي قال: سمعًا وطاعة. ثم توجَّهَ معه إلى الخليفة، فلما تمثَّلَ بين يدَيْه أذن له بالجلوس فجلس، فقال له الخليفة: يا علي، إنه ضاق صدري في هذه الليلة، وقد سمعت عنك أنك تحفظ حكايات وأخبارًا، وأريد منك أن تُسمعني ما يزيل همي، ويصقل فكري. فقال: يا أمير المؤمنين، هل أحدثك بالذي رأيته بعيني أم بالذي سمعته بأذني؟ فقال: إن كنتَ رأيتَ شيئًا فاحكِهِ. فقال: سمعًا وطاعة، اعلم يا أمير المؤمنين أني سافرت في بعض السنين من بلدي هذه، وهي مدينة بغداد، وصحبتي غلام، ومعه جراب لطيف، ودخلنا مدينة، فبينما أنا أبيع وأشتري وإذا برجل كردي ظالم متعدٍّ قد هجم عليَّ وأخذ مني الجراب، وقال: هذا جرابي، وكل ما فيه متاعي. فقلت: يا معشر المسلمين، خلصوني من يد أفجر الظالمين. فقال الناس جميعًا: اذهبا إلى القاضي، واقبلا حكمه بالتراضي. فتوجَّهنا إلى القاضي وأنا بحكمه راضٍ، فلما دخلنا عليه وتمثَّلنا بين يديه، قال القاضي: في أي شيء جئتما؟ وما قضية خبركما؟ فقلت: نحن خصمان إليك تداعينا، وبحكمك تراضينا. فقال: أيكما المدَّعِي؟ فتقدَّمَ الكردي وقال: أيَّدَ الله مولانا القاضي، إن هذا الجراب جرابي، وكل ما فيه متاعي، وقد ضاع مني، ووجدته مع هذا الرجل. فقال القاضي: ومتى ضاع منك؟ فقال الكردي: من أمس هذا اليوم، وبتُّ لفقده بلا نوم. فقال القاضي: إن كنت عرفته فصِفْ لي ما فيه؟ فقال الكردي: في جرابي هذا مِرْودان من لُجين، وفيه أكحال للعين، ومنديل لليدين، ووضعت فيه شربتين مذهَّبتين، وشمعدانين، وهو مشتمل على بيتين، وطبقين، ومعلقتين، ومخدة، ونطعين، وإبريقين، وصينية وطشتين، وقدرة وزلعتين، ومغرفة ومسلَّة ومِزْوَدين، وهرة وكلبتين، وقصعة وقعيدتين، وجبَّة وفروتين، وبقرة وعجلين، وعنز وشاتين، ونعجة وسخلين، وصيوانين أخضرين، وجمل وناقتين، وجاموسة وثورين، ولبوة وسَبْعَين، ودبَّة وثعلبين، ومرتبة

وسريرين، وقصر وقاعتين، ورواق ومقعدين، ومطبخ ببابين، وجماعة أكراد يشهدون أن الجراب جرابي.

فقال القاضي: ما تقول أنت يا هذا؟ فتقدَّمت إليه يا أمير المؤمنين، وقد أبهتني الكردي بكلامه، فقلت: أعز الله مولانا القاضي، أنا ما في جرابي هذا إلا دويرة خراب، وأخرى بلا باب، ومقصورة للكلاب، وفيه للصبيان كتاب، وشباب يلعبون بالكعاب، وفيه خيام وأطناب، ومدينة البصرة وبغداد، وقصر شدَّاد بن عاد، وكور حداد، وشبكة صياد، وعصيٌّ وأوتاد، وبنات وأولاد، وألف قوَّاد يشهدون أن الجراب جرابي.

فلما سمع الكردي هذا الكلام بكى وانتحب، وقال: يا مولانا القاضي، إن جرابي هذا معروف، وكل ما فيه موصوف؛ في جرابي هذا حصون وقلاع، وكراكي وسباع، ورجال يلعبون بالشطرنج والرقاع، وفي جرابي هذا حجرة ومُهْران، وفحل وحصانان، ورمحان طويلان، وهو مشتمل على سبع وأرنبَيْن، ومدينة وقريتين، وقحبة وقوَّادين شاطرين، ومخنَّث وعلقين، وأعمى وبصيرين، وأعرج ومكسحين، وشماسين، وبطرك وراهبين، وقاضٍ وشاهدين، وهم يشهدون أن الجراب جرابي. فقال القاضي: ما تقول يا علي؟ فامتلأت غيظًا يا أمير المؤمنين، وتقدمت إليه وقلت: أيَّد الله مولانا القاضي ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن العجمي قال: فامتلأتُ غيظًا يا أمير المؤمنين، وتقدَّمْتُ إليه وقلت: أيَّد الله مولانا القاضي، أنا في جرابي هذا زرد وصفاح، وخزائن سلاح، وألف كبش نطاح، وفيه للغنم مراح، وألف كلب نبَّاح، وبساتين وكروم، وأزهار ومشموم، وتين وتفاح وأشباح، وقناني وأقداح، وعرايس ملاح، ومغانٍ وأفراح، وهرج وصياح، وأقطار فساح، وإخوة نجاح، ورفقة صباح، ومعهم سيوف ورماح، وقسيٌّ ونشَّاب، وأصدقاء وأحباب، وخلان وأصحاب، ومحابس للعقاب، وندماء للشراب، وطنبور ونايات، وأعلام ورايات، وصبيان وبنات، وعرائس مجليات، وجوارٍ مغنيات، وخمس حبشيات، وثلاث هنديات، وأربع مدنيات، وعشرون روميات، وخمسون تركيات، وسبعون عجميات، وثمانون كرديات، وتسعون جرجيات، والدجلة والفرات، وشبكة صياد، وقدَّاحة وزناد، وإرم ذات العماد، وألف علق وقوَّاد، وميادين وإصطبلات، ومساجد وحمامات، وبناء وتجار، وخشبة ومسمار، وعبد أسود بمزمار، ومقدم وراكبدار، ومدن وأمصار، ومائة ألف دينار، والكوفة مع الأنبار، وعشرون صندوقًا ملآنة بالقماش، وخمسون حاصلًا للمعاش، وغزة وعسقلان، ومن دمياط إلى أصوان، وإيوان كسرى أنوشروان، وملك سليمان، ومن وادي نعمان إلى أرض خراسان، وبلخ وأصبهان، ومن الهند إلى بلاد السودان، وفيه — أطال الله عمر مولانا القاضي — غلائل وعراضي، وألف موسى ماضٍ تحلق ذقن القاضي إن لم يخشَ عقابي، ولم يحكم بأن الجراب جرابي.

فلما سمع القاضي كلام الكردي تحيَّر عقله من ذلك، وقال: ما أراكما إلا شخصين نحسين، أو رجلين زنديقين، تلعبان بالقضاة والحكام، ولا تخشيان من الملام؛ لأنه ما وصف الواصفون، ولا سمع السامعون بأعجب مما وصفتما، ولا تكلم بمثل ما تكلمتما،

والله إن من الصين إلى شجرة أم غيلان، ومن بلاد فارس إلى أرض السودان، ومن وادي نعمان إلى أرض خراسان لا يسع ما ذكرتماه، ولا يُصدَّق ما ادَّعيتماه، فهل هذا الجراب بحر ليس له قرار، ويوم العرض الذي يجمع الأبرار والفجار؟ ثم إن القاضي أمر بفتح الجراب ففتحه، وإذا فيه خبز وليمون، وجبن وزيتون، ثم رميتُ الجراب قدَّام الكردي ومضيت. فلما سمع الخليفة هذه الحكاية من علي العجمي استلقى على قفاه من الضحك، وأحسن جائزته.

حكاية هارون الرشيد وأبي يوسف

ومما يُحكَى أن جعفر البرمكي نادم الرشيد ليلةً، فقال الرشيد: يا جعفر، بلغني أنك اشتريت الجارية الفلانية، ولي مدة أتطلبها؛ فإنها على غاية من الجمال، وقلبي بحبها في اشتغال، فبعها لي. فقال: لا أبيعها يا أمير المؤمنين. فقال: هبها لي. فقال: لا أهبها. فقال الرشيد: زبيدة طالق ثلاثًا إن لم تبعها لي أو تهبها لي. قال جعفر: زوجتي طالق ثلاثًا إن بعتها أو وهبتها لك. ثم أفاقا من نشوتهما، وعلما أنهما وقعَا في أمر عظيم، وعجزَا عن تدبير الحيلة، فقال الرشيد: هذه واقعة ليس لها غير أبي يوسف. فطلبوه، وكان ذلك في نصف الليل، فلما جاء الرسول قام فزعًا وقال في نفسه: ما طُلِبت في هذا الوقت إلا لأمر حدث في الإسلام. ثم خرج مسرعًا وركب بغلته، وقال لغلامه: خذ معك مخلاة البغلة لعلها لم تستوف عليقها، فإذا دخلنا دار الخلافة فضع لها المخلاة حتى تأكل ما بقي من عليقها إلى حين خروجي إذا لم تستوفِ عليقها في هذه الليلة. فقال الغلام: سمعًا وطاعة. فلما دخل على الرشيد قام له، وأجلسه على سريره بجانبه، وكان لا يُجلِس معه أحدًا غيره، وقال له: ما طلبناك في هذا الوقت إلا لأمر مهم وهو كذا وكذا، وقد عجزنا في تدبير الحيلة. فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر أسهل ما يكون. ثم قال: يا جعفر، بِعْ لأمير المؤمنين نصفها، وهَبْ له نصفها، وتبرآن في يمينكما بذلك. فانسرَّ أمير المؤمنين بذلك، وفعلَا ما أمرهما به. ثم قال الرشيد: أحضروا الجارية في هذا الوقت … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة هارون الرشيد قال: أحضروا الجارية في هذا الوقت؛ فإني شديد الشوق إليها. فأحضروها، وقال للقاضي أبي يوسف: أريد وطأها في هذا الوقت؛ فإني لا أطيق الصبر عنها إلى مضي مدة الاستبراء، وما الحيلة في ذلك؟ فقال أبو يوسف: ائتوني بمملوك من مماليك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم العتق. فأحضروا مملوكًا، فقال أبو يوسف: ائذن لي أن أزوجها منه، ثم يطلقها قبل الدخول، فيحل وطؤها في هذا الوقت من غير استبراء. فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول، فلما حضر المملوك قال الخليفة للقاضي: أذنت لك في العقد. فأوجب القاضي النكاح، ثم قبله المملوك، وبعد ذلك قال له القاضي: طلقها ولك مائة دينار. فقال: لا أفعل. ولم يزل يزيده وهو يمتنع إلى أن عرض عليه ألف دينار، ثم قال للقاضي: هل الطلاق بيدي أم بيدك أم بيد أمير المؤمنين؟ قال: بل بيدك. قال: والله لا أفعل أبدًا. فاشتدَّ غضب أمير المؤمنين، وقال: ما الحيلة يا أبا يوسف؟ قال القاضي أبو يوسف: يا أمير المؤمنين لا تجزع؛ فإن الأمر هيِّن، ملِّك هذا المملوك للجارية. قال: ملَّكته لها. قال لها القاضي: قولي قبلت. فقالت: قبلت. فقال القاضي: حكمتُ بينهما بالتفريق؛ لأنه دخل في ملكها فانفسخ النكاح. فقام أمير المؤمنين على قدمَيْه وقال: مثلك مَن يكون قاضيًا في زماني. واستدعى أطباق الذهب فأُفرِغت بين يدَيْه، وقال للقاضي: هل معك شيء تضعه فيه؟ فتذكَّرَ مخلاة البغلة فاستدعاها، فمُلِئت له ذهبًا، فأخذها وانصرف إلى بيته. فلما أصبح الصباح قال لأصحابه: لا طريق إلى الدين والدنيا أسهل وأقرب من طريق العلم؛ فإني أُعطِيت هذا المال العظيم في مسألتين أو ثلاث. فانظر أيها المتأدب إلى لطف هذه الواقعة؛ فإنها اشتملت على محاسن، منها: دلال الوزير على الرشيد، وعلم الخليفة، وزيادة علم القاضي، فرحم الله تعالى أرواحهم أجمعين.

حكاية خالد بن عبد الله مع السارق المزيَّف

ومما يُحكَى أن خالد بن عبد الله القسري كان أمير البصرة، فجاء إليه جماعة متعلقون بشاب ذي جمال باهر، وأدب ظاهر، وعقل وافر، وهو حسن الصورة طيب الرائحة، وعليه سكينة ووقار، فقدَّموه إلى خالد، فسألهم عن قصته، فقالوا: هذا لص أصبناه البارحة في منزلنا. فنظر إليه خالد فأعجبه حسن هيئته ونظافته، فقال: اخلوا عنه. ثم دَنَا منه وسأله عن قصته فقال: إن القوم صادقون فيما قالوه، والأمر على ما ذكروا. فقال له خالد: ما حملك على ذلك وأنت في هيئة جميلة وصورة حسنة؟ قال: حملني على ذلك الطمع في الدنيا، وقضاء الله سبحانه وتعالى. فقال له خالد: ثكلتك أمك! أَمَا كان لك في جمال وجهك وكمال عقلك وحُسْن أدبك، زاجرٌ يزجرك عن السرقة؟ قال: دَعْ عنك هذا أيها الأمير، وامض إلى ما أمر الله تعالى، فذلك بما كسبَتْ يداي، وما الله بظلَّام للعبيد. فسكت خالد ساعة يفكِّر في أمر الفتى، ثم أدناه منه وقال له: إن اعترافك على رءوس الأشهاد قد رابني، وأنا ما أظنك سارقًا، ولعل لك قصة غير السرقة فأخبرني بها. قال: أيها الأمير، لا يقع في نفسك شيء سوى ما اعترفتُ به عندك، وليس لي قصة أشرحها إلا أني دخلت دار هؤلاء فسرقت ما أمكنني فأدركوني، وأخذوه مني، وحملوني إليك. فأمر خالد بحبسه، وأمر مناديًا ينادي بالبصرة: أَلَا مَن أَحَبَّ أن ينظر إلى عقوبة فلان اللص وقطع يده، فَلْيحضر من الغداة إلى المحل الفلاني. فلما استقرَّ الفتى في الحبس، ووضعوا في رجليه الحديد، تنفَّسَ الصعداء وأفاض العَبَرات، وأنشد هذه الأبيات:

هَدَّدَنِي خَالِدٌ بِقَطْعِ يَدِي ... إِذْ لَمْ أَبُحْ عِنْدَهُ بِقِصَّتِهَا
فَقُلْتُ هَيْهَاتَ أَنْ أَبُوحَ بِمَا ... تَضَمَّنَ الْقَلْبُ مِنْ مَحَبَّتِهَا
قَطْعُ يَدِي بِالَّذِي اعْتَرَفْتُ بِهِ ... أَهْوَنُ لِلْقَلْبِ مِنْ فَضِيحَتِهَا

فسمع ذلك الموكلون به، فأتوا خالدًا وأخبروه بما حصل منه؛ فلما جنَّ الليل أَمَرَ بإحضاره عنده، فلما حضر استنطقه فرآه عاقلًا أديبًا فَطِنًا ظريفًا لبيبًا، فأمر له بطعام فأكل، وتحدَّثَ معه ساعةً، ثم قال له خالد: قد علمتُ أن لك قصة غير السرقة، فإذا كان الصباح وحضر الناس وحضر القاضي، وسألك عن السرقة فأنكرها، واذكر ما يدرأ عنك حدَّ القطع، فقد قال رسول الله ﷺ: «ادرءُوا الحدودَ بالشبهات.» ثم أمر به إلى السجن. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خالدًا بعد أن تحدَّثَ مع الشاب، أمر به إلى السجن فمكث فيه ليلته، فلما أصبح الصباح حضر الناس ينظرون قطْعَ يد الشاب، ولم يَبْقَ أحد في البصرة من رجل ولا امرأة إلا وقد حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى، وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم، ثم استدعى القضاء، وأمر بإحضار الفتى، فأقبل يحجل في قيوده، ولم يره أحد من الناس إلا بكى عليه، وارتفعت أصوات النساء بالنحيب؛ فأمر القاضي بتسكيت النساء، ثم قال له: إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم، وسرقت مالهم، لعلك سرقت دون النصاب. قال: بل سرقت نصابًا كاملًا. قال: لعلك شريك القوم في شيء منه. قال: بل هو جميعه لهم لا حقَّ لي فيه. فغضب خالد، وقام إليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط، وقال متمثِّلًا بهذا البيت:

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُعْطَى مُنَاهُ   وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا مَا يُرِيدُ

ثم دعا بالجزار ليقطع يده، فحضر وأخرج السكين ومد يده ووضع عليها السكين؛ فبادرت جارية من وسط النساء عليها أطمار وسخة، فصرخت ورمت نفسها عليه، ثم أسفرت عن وجه كأنه القمر، وارتفعت في الناس ضجة عظيمة، وكاد أن يقع بسبب ذلك فتنة طائرة الشرر، ثم نادت تلك الجارية بأعلى صوتها: ناشدتك الله أيها الأمير، لا تعجِّلْ بالقطع حتى تقرأ هذه الرقعة. ثم دفعت إليه رقعة؛ ففتحها خالد وقرأها، فإذا مكتوب فيها هذه الأبيات:

أَخَالِدُ هَذَا مُسْتَهَامٌ مُتَيَّمٌ   رَمَتْهُ لِحَاظِي عَنْ قَسِيِّ الْحَمَالِقِ
فَأَصْمَاهُ سَهْمُ اللَّحْظِ مِنِّي لِأَنَّهُ   حَلِيفُ جَوًى مِنْ دَائِهِ غَيْرُ فَائِقِ

أَقَـرَّ بِـمَـا لَـمْ يَـقْـتَـرِفْـهُ كَـأَنَّـهُ رَأَى ذَاكَ خَيْرًا مِنْ هَتِيكَةِ عَاشِقِ
فَمَهْلًا عَنِ الصَّبِّ الْكَئِيبِ فَإِنَّهُ كَرِيمُ السَّجَايَا فِي الْوَرَى غَيْرُ سَارِقِ

فلما قرأ خالد الأبيات تنحَّى، وانفرد عن الناس، وأحضر المرأة، ثم سألها عن القصة؛ فأخبرته بأن هذا الفتى عاشق لها، وهي عاشقة له، وإنما أراد زيارتها فتوجَّه إلى دار أهلها، ورمى حجرًا في الدار ليُعلِمها بمجيئه، فسمع أبوها وإخوتها صوت الحجر فصعدوا إليه، فلما أحسَّ بهم جمع قماش البيت كله وأراهم أنه سارق سترًا على معشوقته، فلما رأوه على هذه الحالة أخذوه وقالوا: هذا سارق. وأتوا به إليك فاعترف بالسرقة، وأصرَّ على ذلك حتى لا يفضحني، وقد ارتكب هذه الأمور مَن رمى نفسه بالسرقة لفرْطِ مروءته وكرم نفسه. فقال خالد: إنه لَخليق بأن يُسعَف بمراده. ثم استدعى الفتى إليه فقبَّله بين عينيه، وأمر بإحضار أبي الجارية، وقال له: يا شيخ، إنَّا كنا عزمنا على إنفاذ الحكم في هذا الفتى بالقطع، ولكن الله — عز وجل — قد حفظه من ذلك، وقد أمرت له بعشرة آلاف درهم لبذله يده حفظًا لعرضك وعرض بنتك، وصيانتكما من العار، وقد أمرت لابنتك بعشرة آلاف درهم حيث أخبرتني بحقيقة الأمر، وأنا أسألك أن تأذن لي في تزويجها منه. فقال الشيخ: أيها الأمير، قد أذنت لك في ذلك. فحمد اللهَ خالدٌ وأثنى عليه، وخطب خطبة حسنة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٢٩٩

حكاية جعفر البرمكي والفوَّال

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خالدًا حمد الله وأثنى عليه، وخطب خطبة حسنة، وقال للفتى: قد زوَّجتك هذه الجارية فلانة الحاضرة بإذنها ورضائها وإذن أبيها على هذا المال، وقدره عشرة آلاف درهم. فقال الفتى: قبلت منك هذا التزويج. ثم إن خالدًا أمر بحمل المال إلى دار الفتى مزفوفًا في الصواني، وانصرف الناس وهم مسرورون، فما رأيت يومًا أعجب من ذلك اليوم، أوله بكاء وشرور، وآخِره فرح وسرور.

ومما يُحكَى أن جعفر البرمكي لما صلبه هارون الرشيد، أمر بصلب كلِّ مَن نعاه أو رثاه، فكفَّ الناس عن ذلك، فاتفق أن أعرابيًّا كان ببادية بعيدة، وفي كل سنة يأتي بقصيدة إلى جعفر البرمكي المذكور، فيعطيه ألف دينار جائزة على تلك القصيدة، فيأخذها وينصرف ويستمر ينفق منها على عياله إلى آخِر العام، فجاءه ذلك الأعرابي بالقصيدة على عادته، فلما جاء وجد جعفر مصلوبًا، فجاء إلى المحل الذي هو مصلوب به وأناخ راحلته وبكى بكاءً شديدًا، وحزن حزنًا عظيمًا، وأنشد القصيدة ونام، فرأى جعفر البرمكي في المنام يقول له: إنك قد أتعبت نفسك وجئتنا فوجدتنا على ما رأيت، ولكن توجَّهْ إلى البصرة واسأل عن رجلٍ اسمه كذا وكذا من تجار البصرة وقل له: إن جعفر البرمكي يُقرِئك السلام ويقول لك: أعطني ألف دينار بأمارة الفولة.

فلما انتبه الأعرابي من نومه توجَّهَ إلى البصرة، فسأل عن ذلك التاجر واجتمع به وبلغه ما قاله جعفر في المنام، فبكى التاجر بكاءً شديدًا حتى كاد أن يفارق الدنيا، ثم إنه أكرم الأعرابي وأجلسه عنده وأحسن مثواه، ومكث عنده ثلاثة أيام مكرمًا، ولما أراد الانصراف أعطاه ألفًا وخمسمائة دينار، وقال له: الألف هي المأمور لك بها، والخمسمائة

إكرام مني إليك، ولك في كل سنة ألف دينار. وعند انصرافه قال للتاجر: بالله عليك أن تخبرني بخبر الفولة حتى أعرف أصلها. فقال له: أنا كنت في ابتداء الأمر فقير الحال أطوف بالفول الحار في شوارع بغداد وأبيعه حيلة على المعاش، فخرجت في يوم بارد ماطر وليس على بدني ما يقيني من البرد، فتارةً أرتعد من شدة البرد، وتارةً أقع في ماء المطر وأنا في حالة كريهة تقشعر منها الجلود، وكان جعفر في ذلك اليوم جالسًا في قصر مشرف على الشارع، وعنده خواصه ومحاظيه، فوقع نظره عليَّ فرَقَّ لحالي وأرسَلَ إليَّ بعضَ أتباعه، فأخذني إليه وأدخلني عليه، فلما رآني قال لي: بِعْ ما معك من الفول على طائفتي. فأخذت أكيله بمكيال كان معي، فكلُّ مَن أخذ كيلة فول يملؤها ذهبًا حتى فرغ جميع ما معي ولم يَبْقَ في القفة شيء، ثم جمعت الذهب الذي حصل لي على بعضه، فقال لي: هل بقي معك شيء من الفول؟ قلت: لا أدري، ثم فتشت القفة فلم أجد فيها سوى فولة واحدة، فأخذها مني جعفر وفلقها نصفين: فأخذ نصفها وأعطى النصف الثاني لإحدى محاظيه وقال: بكَمْ تشترين نصفَ هذه الفولة؟ فقالت: بقدر هذا الذهب مرتين. فصرتُ متحيِّرًا في أمري وقلت في نفسي: هذا محال. فبينما أنا متعجِّب وإذا بالمحظية أمرت بعض جواريها فأحضرت ذهبًا قدر الذهب المجتمع مرتين، فقال جعفر: وأنا أشتري النصف الذي أخذتُه بقدر الجميع مرتين. ثم قال لي جعفر: خذ ثمن فولك. وأمر بعض خدَّامه فجمع المال كله ووضعه في قفتي، فأخذته وانصرفت، ثم جئتُ إلى البصرة واتجرت بما معي من المال، فوسَّعَ الله عليَّ ولله الحمد والمنة، فإذا أعطيتُكَ في كل سنة ألف دينار من بعض إحسان جعفر، ما ضَرَّني شيء. فانظر مكارم أخلاق جعفر، والثناء عليه حيًّا وميتًا رحمة الله تعالى عليه.

حكاية أبي محمد الكسلان

ومما يُحكَى أن هارون الرشيد كان جالسًا ذات يوم في تخت الخلافة، إذ دخل عليه غلام من الطواشية، ومعه تاج من الذهب الأحمر مرصَّع بالدر والجوهر، وفيه من سائر اليواقيت والجواهر ما لا يفي به مال، ثم إن ذلك الرجل قبَّل الأرض بين يدي الخليفة وقال له: يا أمير المؤمنين، إن السيدة زبيدة … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فقالت لها أختها: ما أحسن حديثك، وأطيبه، وأحلاه، وأعذبه! فقالت: وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقاني الملك! فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٣٠٠

قالت لها أختها: يا أختي أتممي لنا حديثك. قالت: حبًّا وكرامة إن أذن لي الملك. فقال الملك: احكي يا شهرزاد.

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الغلام قال للخليفة: إن السيدة زبيدة تقبِّل الأرض بين يديك، وتقول لك: أنت تعرف أنها قد عملت هذا التاج، وأنه محتاج إلى جوهرة كبيرة تكون في رأسه، وفتشت دخائرها فلم تجد فيها جوهرة كبيرة على غرضها. فقال الخليفة للحجَّاب والنوَّاب: فتشوا على جوهرة كبيرة على غرض زبيدة. ففتشوا فلم يجدوا شيئًا يوافقها، فأعلموا الخليفة بذلك، فضاق صدره وقال: كيف أكون خليفة وملك الأرض وأعجز عن جوهرة؟! ويلكم! فاسألوا التجار. فسألوا التجار فقالوا لهم: لا يجد مولانا الخليفة الجوهرة إلا عند رجل من البصرة يُسمَّى أبا محمد الكسلان. فأخبروا الخليفة بذلك، فأمر وزيره جعفرًا أن يرسل بطاقة إلى الأمير محمد الزبيدي المتولِّي على البصرة أن يجهِّز أبا محمد الكسلان، ويحضر به بين يدي أمير المؤمنين، فكتب الوزير بطاقة بمضمون ذلك، وأرسلها مع مسرور.

ثم توجَّه مسرور بالبطاقة إلى مدينة البصرة، ودخل على الأمير محمد الزبيدي ففرح به، وأكرمه غاية الإكرام، ثم قرأ عليه بطاقة أمير المؤمنين هارون الرشيد فقال: سمعًا وطاعة. ثم أرسل مسرورًا مع جماعة من أتباعه إلى أبي محمد الكسلان، فتوجهوا إليه وطرقوا عليه الباب، فخرج لهم أحد الغلمان، فقال له مسرور: قل لسيدك إن أمير المؤمنين يطلبك. فدخل الغلام وأخبره بذلك، فخرج فوجده مسرورًا حاجب الخليفة، ومعه أتباع الأمير محمد الزبيدي، فقبَّل الأرض بين يديه، وقال: سمعًا وطاعة لأمير المؤمنين، ولكن ادخلوا عندنا. فقالوا: ما نقدر على ذلك إلا على عجل كما أمرنا أمير المؤمنين، فإنه ينتظر قدومك. فقال: اصبروا عليَّ يسيرًا حتى أجهِّز أمري. ثم دخلوا معه إلى الدار بعد استعطاف

زائد، فرأوا في الدهليز ستورًا من الديباج الأزرق المطرز بالذهب الأحمر. ثم إن أبا محمد الكسلان أمر بعض غلمانه أن يدخلوا مع مسرور الحمام الذي في الدار ففعلوا، فرأى حيطانه ورخامه من الغرائب، وهو مزركش بالذهب والفضة، وماؤه ممزوج بماء الورد، واحتفل الغلمان بمسرور ومَن معه وخدموهم أتمَّ الخدمة، ولما خرجوا من الحمام ألبسوهم خلعًا من الديباج منسوجة بالذهب، ثم دخل مسرور وأصحابه فوجدوا أبا محمد الكسلان جالسًا في قصره، وقد عُلِّقت على رأسه ستور من الديباج المنسوج بالذهب المرصع بالدر والجوهر، والقصر مفروش بمساند مزركشة بالذهب الأحمر، وهو جالس على مرتبته، والمرتبة على سرير مرصع بالجواهر.

فلما دخل عليه مسرور رحَّبَ به وتلقَّاه وأجلسه بجانبه، ثم أمر بإحضار السماط، فلما رأى مسرور ذلك السماط قال: والله ما رأيت عند أمير المؤمنين مثل ذلك السماط أبدًا. وكان في ذلك السماط أنواع الأطعمة، وكلها موضوعة في أطباق صيني مذهبة، قال مسرور: فأكلنا وشربنا، وفرحنا إلى آخر النهار، ثم أعطانا كل واحد خمسة آلاف دينار، ولما كان اليوم الثاني ألبسونا خلعًا خضراء مذهبة، وأكرمونا غاية الإكرام، ثم قال له مسرور: لا يمكننا أن نقعد زيادة على تلك المدة خوفًا من الخليفة. فقال له أبو محمد الكسلان: يا مولانا، اصبر علينا إلى غدٍ حتى نتجهَّزَ ونسير معكم. فقعدوا ذلك اليوم وباتوا إلى الصباح، ثم إن الغلمان شدوا لأبي محمد الكسلان بغلة بسرج من الذهب مرصَّع بأنواع الدر والجواهر، فقال مسرور في نفسه: يا ترى إذا حضر أبو محمد بين يدي الخليفة بتلك الصفة، هل يسأله عن سبب تلك الأموال؟ ثم بعد ذلك ودَّعوا أبا محمد الزبيدي، وطلعوا من البصرة وساروا، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى مدينة بغداد، فلما دخلوا على الخليفة ووقفوا بين يديه أمره بالجلوس فجلس، ثم تكلم بأدب وقال: يا أمير المؤمنين، إني جئت معي بهدية على وجه الخدمة، فهل أحضرها عن إذنك؟ قال الرشيد: لا بأس بذلك. فأمر بصندوق وفتحه وأخرج منه تحفًا، من جملتها أشجار من الذهب، وأوراقها من الزمرد الأبيض، وثمارها ياقوت أحمر وأصفر ولؤلؤ أبيض. فتعجَّبَ الخليفة من ذلك، ثم أحضر صندوقًا ثانيًا وأخرج منه خيمة من الديباج مكللة باللؤلؤ والياقوت والزمرد والزبرجد وأنواع الجواهر، وقوائمها من عود هندي رطب، وأذيال تلك الخيمة مرصعة بالزمرد الأخضر، وفيها تصوير كل الصور من سائر الحيوانات والطيور والوحوش، وتلك الصور مكللة بالجواهر واليواقيت والزمرد والزبرجد والبلخش وسائر المعادن.

فلما رأى الرشيد ذلك فرح فرحًا شديدًا، ثم قال أبو محمد الكسلان: يا أمير المؤمنين، لا تظن أني حملت لك هذا فزعًا من شيء، ولا طمعًا في شيء، وإنما رأيت نفسي رجلًا

عاميًّا، ورأيت هذا لا يصلح إلا لأمير المؤمنين، وإن أذنت لي فرجتك على بعض ما أقدر عليه. فقال الرشيد: افعل ما شئت حتى ننظر. فقال: سمعًا وطاعة. ثم حرَّك شفتيه وأومأ إلى شراريف القصر فمالت إليه، ثم أشار إليها فرجعت إلى موضعها، ثم أشار بعينه فظهرت إليه مقاصير مقفلة الأبواب، ثم تكلم عليها وإذا بأصوات طيور تجاوبه؛ فتعجَّبَ الرشيد من ذلك غاية العجب وقال له: من أين لك هذا كله، وأنت ما تُعرَف إلا بأبي محمد الكسلان، وأخبروني أن أباك كان حجَّامًا يخدم في حمام، وما خلَّف لك شيئًا. فقال: يا أمير المؤمنين اسمع حديثي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٠١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن أبا محمد الكسلان قال للخليفة: يا أمير المؤمنين اسمع حديثي؛ فإنه عجيب وأمره غريب، لو كُتِب بالإبر على آماق البصر لَكان عبرةً لمَن اعتبر. فقال الرشيد: حدِّث بما عندك، وأخبرني به يا أبا محمد. فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أدام الله لك العز والتمكُّن، من أخبار الناس بأني أُعرَف بالكسلان، وأن أبي لم يخلف لي مالًا صدق؛ لأن أبي لم يكن إلا كما ذكرت، فإنه كان حجَّامًا في حمام، وكنتُ أنا في صغري أكسل مَن يوجد على وجه الأرض، وبلغ من كسلي أني إذا كنتُ نائمًا في أيام الحر وطلعت عليَّ الشمس، أكسل عن أن أقوم وأنتقل من الشمس إلى الظل، وأقمت على ذلك خمسة عشر عامًا، ثم إن أبي توفي إلى رحمة الله تعالى، ولم يخلف لي شيئًا، وكانت أمي تخدم الناس وتطعمني وتسقيني وأنا راقد على جنبي. فاتفق أن أمي دخلت عليَّ في بعض الأيام ومعها خمسة دراهم من الفضة، وقالت لي: يا ولدي، بلغني أن الشيخ أبا المظفر عزم على أن يسافر إلى الصين. وكان ذلك الشيخ يحب الفقراء، وهو من أهل الخير، فقالت أمي: يا ولدي، خذ هذه الخمسة دراهم وامضِ بنا إليه، ونسأله أن يشتري لك بها شيئًا من بلاد الصين، لعله يحصل لك فيه ربح من فضل الله تعالى. فكسلت عن القيام معها، فأقسمَتْ بالله إنْ لَمْ أَقُمْ معها إنها لا تُطعِمني ولا تسقيني ولا تدخل عليَّ، بل تتركني أموت جوعًا وعطشًا.

فلما سمعت كلامها يا أمير المؤمنين علمت أنها تفعل ذلك لما تعلم من كسلي، فقلت لها: أقعديني. فأقعدتني وأنا باكي العين، وقلت: ائتيني بمداسي. فأتتني به، فقلت: ضعيه في رجليَّ. فوضعته فيهما، فقلت لها: احمليني حتى ترفعيني عن الأرض. ففعلَتْ ذلك، فقلت: اسنديني حتى أمشي. فصارت تسندني، وما زلت أمشي وأتعثر في أذيالي إلى أن وصلنا إلى ساحل البحر، فسلمنا على الشيخ، وقلت له: يا عم أنت أبو المظفر؟ قال: لبيك.

قلت: خذ هذه الدراهم، واشترِ بها لي شيئًا من بلاد الصين، عسى الله أن يربحني فيه. فقال الشيخ أبو المظفر لأصحابه: أتعرفون هذا الشاب؟ قالوا: نعم، هذا يُعرَف بأبي محمد الكسلان، وما رأيناه قطُّ خرج من داره إلا في هذا الوقت. فقال الشيخ أبو المظفر: يا ولدي، هات الدراهم على بركة الله تعالى. ثم أخذ مني الدراهم وقال: باسم الله. ثم رجعت مع أمي إلى البيت، وتوجَّه الشيخ أبو المظفر إلى السفر، ومعه جماعة من التجار، ولم يزالوا مسافرين حتى وصلوا إلى بلاد الصين، ثم إن الشيخ باع واشترى، وبعد ذلك توجَّه إلى الرجوع هو ومَن معه بعد قضاء أغراضهم، وساروا في البحر ثلاثة أيام، فقال الشيخ لأصحابه: قفوا بالمركب. فقال التجار: ما حاجتك؟ فقال: اعلموا أن الرسالة التي معي لأبي محمد الكسلان نسيتها، فارجعوا بنا حتى نشتري له بها شيئًا ينتفع به. فقالوا له: سألناك بالله تعالى ألَّا تردنا؛ فإننا قطعنا مسافة طويلة زائدة، وحصل لنا في ذلك أهوال عظيمة ومشقة زائدة. فقال: لا بد لنا من الرجوع. فقالوا: خذ منا أضعاف ربح الخمسة دراهم ولا تردَّنا. فسمع منهم، وجمعوا له مالًا جزيلًا، ثم ساروا حتى أشرفوا على جزيرة فيها خلق كثير فأرسوا عليها، وطلع التجار يشترون منها متجرًا من معادن وجواهر ولؤلؤ وغير ذلك.

ثم رأى أبو المظفر رجلًا جالسًا وبين يديه قرود كثيرة، وبينهم قرد منتوف الشعر، وكانت تلك القرود كلما غفل صاحبهم يمسكون ذلك القرد المنتوف ويضربونه ويرمونه على صاحبهم، فيقوم ويضربهم ويقيِّدهم ويعذبهم على ذلك، فتغتاظ القرود كلها من ذلك القرد ويضربونه، ثم إن الشيخ أبا المظفر لما رأى ذلك القرد حزن عليه ورفق به، فقال لصاحبه: أتبيعني هذا القرد؟ قال: اشترِ. قال: إن معي لصبي يتيم خمسة دراهم، هل تبيعني إياه بها؟ قال له: بعتك، بارك الله لك فيه. ثم تسلَّمَه وأقبضه الدراهم، وأخذ القرد عبيد الشيخ وربطوه في المركب، ثم حلوا وسافروا إلى جزيرة أخرى فأرسوا عليها، فنزل الغطاسون الذين يغطسون على المعادن واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك، فأعطاهم التجار دراهم أجرة على الغطاس فغطسوا، فرآهم القرد يفعلون ذلك فحلَّ نفسه من رباطه ونطَّ من المركب وغطس معهم، فقال أبو المظفر: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قد عدم القرد منَّا بخت هذا المسكين الذي أخذناه له. ويئسوا من القرد، ثم طلع جماعة من الغطاسين، وإذا بالقرد طلع معهم، وفي يديه نفائس الجواهر، فرماها بين يدي أبي المظفر، فتعجَّبَ من ذلك وقال: إن هذا القرد فيه سر عظيم. ثم حلوا وسافروا إلى أن وصلوا جزيرةً تُسمَّى جزيرة الزنوج، وهم قوم من السودان يأكلون لحم بني آدم، ورآهم

السودان فركبوا عليهم في القوارب وأتوا إليهم، وأخذوا كلَّ مَن في المركب، وكتفوهم وأتوا بهم إلى الملك، فأمرهم بذبح جماعة من التجار، فذبحوهم وأكلوا لحومهم، ثم إن بقية التجار باتوا محبوسين وهم في نكد عظيم، فلما كان وقت الليل قام القرد إلى أبي المظفر وحلَّ قيده، فلما رأى التجار أبا المظفر قد انحلَّ قالوا: عسى الله أن يكون خلاصنا على يدَيْك يا أبا المظفر. فقال لهم: اعلموا أنه ما خلَّصني بإرادة الله تعالى إلَّا هذا القرد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٠٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا المظفر قال: ما خلَّصني بإرادة الله تعالى إلا هذا القرد، وقد خرجت له عن ألف دينار. فقال التجار: نحن كذلك، كل واحد منَّا خرج له عن ألف دينار إن خلَّصنا. فقام القرد إليهم وصار يحل واحدًا بعد واحد حتى حلَّ الجميع من قيودهم، وذهبوا إلى المركب وطلعوا عليها، فوجدوها سالمة ولم ينقص منها شيء، ثم حلُّوا وسافروا، فقال أبو المظفر: يا تجار، أوفوا بالذي قلتم عليه للقرد. فقالوا: سمعًا وطاعة. ودفع له كل واحد منهم ألف دينار، وأخرج أبو المظفر من ماله ألف دينار؛ فاجتمع للقرد من المال شيء عظيم، ثم سافروا حتى وصلوا إلى مدينة البصرة فتلقَّاهم أصحابهم حين طلعوا من المركب، فقال أبو المظفر: أين أبو محمد الكسلان؟ فبلغ الخبر إلى أمي، فبينما أنا نائم إذ أقبلت عليَّ أمي وقالت: يا ولدي، إن الشيخ أبا المظفر قد أتى ووصل إلى المدينة، فقم وتوجَّه إليه وسلِّم عليه، واسأله عن الذي جاء به لك، فلعل الله تعالى يكون قد فتح عليك بشيء. فقلت لها: احمليني عن الأرض، واسنديني حتى أخرج وأمشي إلى ساحل البحر. ثم مشيت وأنا أتعثر في أذيالي حتى وصلت إلى الشيخ أبي المظفر، فلما رآني قال لي: أهلًا بمَن كانت دراهمه سببًا لخلاصي وخلاص هؤلاء التجار بإرادة الله تعالى. ثم قال لي: خذ هذا القرد فإني اشتريته لك، وامضِ به إلى بيتك حتى أجيء إليك. فأخذت القرد بين يدي ومضيت، وقلت في نفسي: والله ما هذا إلَّا متجر عظيم. ثم دخلت بيتي وقلت لأمي: كلما أنام تأمريني بالقيام لأتَّجر، فانظري بعينك هذا المتجر. ثم جلستُ.

فبينما أنا جالس، وإذا بعبيد أبي المظفر قد أقبلوا عليَّ وقالوا لي: هل أنت أبو محمد الكسلان؟ فقلت لهم: نعم. وإذا بأبي المظفر أقبل خلفهم، فقمت إليه وقبَّلت يديه، فقال لي: سِرْ معي إلى داري. فقلت: سمعًا وطاعة. وسرت معه إلى أن دخلت الدار، فأمر عبيده

أن يحضروا بالمال، فحضروا به، فقال: يا ولدي، لقد فتح الله عليك بهذا المال من ربح الخمسة دراهم. ثم حملوه في صناديق على رءوسهم، وأعطاني مفاتيح تلك الصناديق، وقال لي: امضِ قدَّام العبيد إلى دارك فإن هذا المال كله لك. فمضيت إلى أمي ففرحت بذلك، وقالت: يا ولدي، لقد فتح الله عليك بهذا المال الكثير، فدع عنك هذا الكسل، وانزل السوق، وبِعْ واشترِ. فتركت الكسل وفتحت دكانًا في السوق، وصار القرد يجلس معي على مرتبتي، فإذا أكلت يأكل معي، وإذا شربت يشرب معي، وصار كل يوم من بكرة النهار يغيب إلى وقت الظهر، ثم يأتي ومعه كيس فيه ألف دينار فيضعه في جانبي ويجلس، ولم يزل على هذه الحالة مدة من الزمان حتى اجتمع عندي مال كثير؛ فاشتريت يا أمير المؤمنين الأملاك والربوع، وغرست البساتين، واشتريت المماليك والعبيد والجواري. فاتفق في بعض الأيام أنني كنت جالسًا والقرد جالس معي على المرتبة، وإذا به التفت يمينًا وشمالًا، فقلت في نفسي: أي شيء خبر هذا؟ فأنطق الله القرد بلسان فصيح، وقال: يا أبا محمد. فلما سمعت كلامه فزعت فزعًا شديدًا، فقال لي: لا تفزع، أنا أخبرك بحالي، إني مارد من الجن، ولكن جئتُك بسبب ضعف حالك، وأنت اليوم لا تدري قدر مالك، وقد وقعت لي عندك حاجة، وهي خير لك. فقلت: ما هي؟ قال: أريد أن أزوجك بصبية مثل البدر. فقلت له: وكيف ذلك؟ فقال لي: في غد البس قماشك الفاخر، واركب بغلتك بالسرج الذهب، وامضِ إلى سوق العلَّافين، واسأل عن دكان الشريف، واجلس عنده وقل له: إني جئتك خاطبًا راغبًا في ابنتك. فإن قال لك: أنت ليس لك مال ولا حسب ولا نسب. فادفع له ألف دينار، فإن قال لك: زدني. فزده ورغِّبه في المال. فقلت: سمعًا وطاعة، في غد أفعل ذلك إن شاء الله تعالى. قال أبو محمد: فلما أصبحت لبست أفخر قماشي، وركبت البغلة بالسرج الذهب، ثم مضيت إلى سوق العلافين وسألت عن دكان الشريف، فوجدته جالسًا في دكانه، فنزلت وسلَّمت عليه وجلست عنده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٠٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا محمد الكسلان قال: فنزلت وسلَّمت عليه وجلست عنده، وكان معي عشرة من العبيد والمماليك، فقال الشريف: لعل لك عندنا حاجة نفوز بقضائها. فقلت: نعم، لي عندك حاجة. قال: وما حاجتك؟ فقلت: جئتك خاطبًا راغبًا في ابنتك. فقال لي: أنت ليس لك مال ولا حسب ولا نسب. فأخرجت له كيسًا فيه ألف دينار ذهبًا أحمر، وقلت له: هذا حسبي ونسبي، وقد قال ﷺ: «نِعم الحسب المال.» وما أحسن قول مَن قال:

مَنْ كَانَ يَمْلُكُ دِرْهَمَيْنِ تَعَلَّمَتْ   شَفَتَاهُ أَنْوَاعَ الْكَلَامِ فَقَالَا
وَتَقَدَّمَ الْإِخْوَانُ فَاسْتَمَعُوا لَهُ   وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ الْوَرَى مُخْتَالَا
لَوْلَا دَرَاهِمُهُ الَّتِي يَزْهُو بِهَا   لَوَجَدْتَهُ فِي النَّاسِ أَسْوَأَ حَالَا
إِنَّ الْغَنِيَّ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْخَطَا   قَالُوا صَدَقْتَ وَمَا نَطَقْتَ مُحَالَا
أَمَّا الْفَقِيرُ إِذَا تَكَلَّمَ صَادِقًا   قَالُوا كَذَبْتَ وَأَبْطَلُوا مَا قَالَا
إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا   تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَمَالَا
فَهْيَ اللِّسَانُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً   وَهْيَ السِّلَاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالَا

فلما سمع الشريف مني هذا الكلام، وفهم الشعر والنظام، أطرق برأسه إلى الأرض ساعة، ثم رفع رأسه وقال لي: إن كان ولا بد فإني أريد منك ثلاثة آلاف دينار أخرى. فقلت: سمعًا وطاعة. ثم أرسلت بعض المماليك إلى منزلي، فجاء لي بالمال الذي طلبه، فلما رأى ذلك وصل إليه، قام من الدكان وقال لغلمانه: اقفلوها. ثم دعا أصحابه من السوق إلى

داره، وكتب كتابي على بنته، وقال لي: بعد عشرة أيام أدخلك عليها. ثم مضيت إلى منزلي وأنا فرحان، فخلوت مع القرد وأخبرته بما جرى لي، فقال: نِعم ما فعلت. فلما قرب ميعاد الشريف، قال لي القرد: إن لي عندك حاجة إن قضيتها لي فلك عندي ما شئتَ. قلت: وما حاجتك؟ قال لي: إن في صدر القاعة التي تدخل فيها على بنت الشريف خزانة، وعلى بابها حلقة من نحاس، والمفاتيح تحت الحلقة، فخذها وافتح الباب تجد صندوقًا من حديد على أركانه أربع رايات من الطلسم، وفي وسط ذلك طشت ملآن من المال، وفي جانبه إحدى عشرة حية، وفي الطشت ديك أفرق أبيض مربوط، وهناك سكين بجنب الصندوق، فخذ السكين واذبح بها الديك، واقطع الرايات وكُب الصندوق، وبعد ذلك اخرج للعروسة وأَزِلْ بكارتها، فهذه حاجتي عندك. فقلت له: سمعًا وطاعة. ثم مضيت إلى دار الشريف فدخلت القاعة، ونظرت إلى الخزانة التي وصفها لي القرد، فلما خلوت بالعروسة تعجَّبْتُ من حُسْنها وجمالها، وقدِّها واعتدالها؛ لأنها لا تستطيع الألسن أن تصف حسنها وجمالها، ثم فرحت بها فرحًا شديدًا.

فلما كان نصف الليل ونامت العروسة، قمت أخذت المفاتيح وفتحت الخزانة، وأخذت السكين وذبحت الديك، ورميت الرايات وقلبت الصندوق، فاستيقظت الصبية فرأت الخزانة قد فُتِحت، والديك قد ذُبِح، فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قد أخذني المارد. فما استتمَّتْ كلامها إلا وقد أحاط المارد بالدار وخطف العروسة، فعند ذلك وقعت الضجة، وإذا بالشريف قد أقبل وهو يلطم على وجهه، وقال: يا أبا محمد، ما هذا الفعل الذي فعلتَه معنا؟ هل هذا جزاؤنا منك؟ وأنا قد عملت هذا الطلسم في هذه الخزنة خوفًا على بنتي من هذا الملعون، فإنه كان يقصد أخذ هذه الصبية من منذ ست سنين، ولا يقدر على ذلك، ولكن ما بقي لك عندنا مقام، فامضِ إلى حال سبيلك. فخرجت من دار الشريف وجئت إلى داري، وفتَّشت على القرد فلم أجده، ولم أرَ له أثرًا؛ فعلمت أنه هو المارد الذي أخذ زوجتي، وتحيَّلَ عليَّ حتى فعلتُ ذلك بالطلسم والديك اللذين كانَا يمنعانه من أخذها، فندمتُ وقطَّعت أثوابي، ولطمت على وجهي، ولم تسعني الأرض؛ فخرجت من ساعتي وقصدت البرية، ولم أزل سائرًا إلى أن أمسى عليَّ المساء ولا أعلم أين أروح. فبينما أنا مشغول الفكر، إذ أقبل عليَّ حيَّتان؛ واحدة سمراء والأخرى بيضاء، وهما يتقاتلان، فأخذت حجرًا من الأرض، وضربت به الحية السمراء فقتلتُها؛ فإنها كانت باغية على البيضاء، ثم ذهبت الحية البيضاء فغابت ساعة، وعادت ومعها عشر حيَّات بيض، فجاءوا إلى الحية التي ماتت وقطَّعوها قطعًا حتى لم يَبْقَ إلا رأسها، ثم مضوا إلى حال سبيلهم،

واضطجعت في مكاني من التعب. فبينما أنا مضطجع متفكِّر في أمري، وإذا أنا بهاتف أسمع صوته، ولم أرَ شخصه وهو يقول هذين البيتين:

دَعِ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعِنَّتِهَا وَلَا تَبِيتَنَّ إِلَّا خَالِيَ الْبَالِ
مَا بَيْنَ طَرْفَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا يُغَيِّرُ اللهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ

فلما سمعتُ ذلك لحقني — يا أمير المؤمنين — أمرٌ شديد، وفِكْر ما عليه من مزيد، وإذا بصوت من خلفي أسمعه ينشد هذين البيتين:

يَا مُسْلِمًا أَمَامَهُ الْقُرْآنُ أَبْشِرْ بِهِ قَدْ جَاءَكَ الْأَمَانُ
وَلَا تَخَفْ مَا سَوَّلَ الشَّيْطَانُ فَنَحْنُ قَوْمٌ دِينُنَا الْإِيمَانُ

فقلت له: بحق معبودك أن تعرِّفني مَن أنت؟ فانقلب ذلك الهاتف في صورة إنسان وقال لي: لا تَخَفْ، فإن جميلك قد وصل إلينا، ونحن قوم من جن المؤمنين، فإن كان لك حاجة فأخبرنا بها حتى نفوز بقضائها. فقلت له: إن لي حاجة عظيمة؛ لأني أُصِبت بمصيبة جسيمة، ومَن الذي حصل له مثل مصيبتي؟ فقال لي: لعلك أبو محمد الكسلان. فقلت: نعم. فقال: يا أبا محمد، أنا أخو الحية البيضاء التي قتلتَ أنت عدوَّها، ونحن أربع إخوة من أب وأم، وكلنا شاكرون لفضلك، واعلم أن الذي كان على صورة القرد وفعل معك المكيدة مارد من مَرَدَة الجن، ولولا أنه تحيَّلَ بهذه الحيلة ما كان يقدر على أخذها أبدًا؛ لأن له مدة طويلة وهو يريد أخذها فيمنعه من ذلك هذا الطلسم، ولو بقي ذلك الطلسم ما كان يمكنه الوصول إليها، ولكن لا تجزع من هذا الأمر، فنحن نوصِّلك إليها، ونقتل المارد؛ فإن جميلك لا يضيع عندنا. ثم إنه صاح صيحة عظيمة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٠٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العفريت قال: فإنَّ جميلك لا يضيع عندنا. ثم إنه صاح صيحة عظيمة بصوت هائل، وإذا بجماعة قد أقبلوا عليه، فسألهم عن القرد، فقال واحد منهم: أنا أعرف مستقرَّه. قال: أين مستقرُّه؟ قال: في مدينة النحاس التي لا تطلع عليها الشمس. فقال: يا أبا محمد، خذ عبدًا من عبيدنا وهو يحملك على ظهره ويعلمك كيف تأخذ الصبية، واعلم أن ذلك العبد مارد من المردة، فإذا حملك لا تذكر اسم الله وهو حاملك؛ فإنه يهرب منك فتقع وتهلك. فقلت: سمعًا وطاعة. وأخذت عبدًا من عبيدهم فانحنى وقال: اركب. فركبت، ثم طار بي في الجو حتى غاب عن الدنيا، ورأيت النجوم كالجبال الرواسي، وسمعت تسبيح الملائكة في السماء؛ كل هذا والمارد يحدِّثني ويفرِّجني ويلهيني عن ذكر الله تعالى.

فبينما أنا كذلك، وإذا بشخص عليه لباس أخضر، وله ذوائب شعر ووجه منير، وفي يده حربة يطير منها الشرر قد أقبل عليَّ وقال لي: يا أبا محمد، قل لا إله إلا الله محمد رسول الله، وإلا ضربتك بهذه الحربة. وكانت مهجتي قد تقطَّعت من سكوتي عن ذِكْر الله تعالى، فقلت: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم إن ذلك الشخص ضرب المارد بالحربة فذاب وصار رمادًا، وسقطتُ من فوق ظهره، فصرت أهوي إلى الأرض حتى وقعت في بحر عجاج متلاطم بالأمواج، وإذا بسفينة فيها خمسة أشخاص بحرية، فلما رأوني أتوا إليَّ وحملوني إلى السفينة، وجعلوا يكلمونني بكلام لا أعرفه، فأشرت لهم أني لا أعرف كلامهم، فساروا إلى آخر النهار، ثم رموا شبكة واصطادوا حوتًا، وشووه وأطعموني، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا بي إلى مدينتهم، فدخلوا بي إلى ملكهم وأوقفوني بين يدَيْه، فقبَّلت الأرض فخلع عليَّ، وكان ذلك الملك يعرف العربية، فقال: قد جعلتُكَ من أعواني. فقلتُ له: ما اسم هذه المدينة؟ قال: اسمها هناد، وهي من بلاد الصين. ثم إن الملك سلَّمني إلى وزير

المدينة، وأمره أن يفرِّجني في المدينة، وكان أهل تلك المدينة في الزمن الأول كفارًا، فمسخهم الله تعالى حجارة، فتفرجت فيها ولم أرَ أكثر من أشجارها وأثمارها. فأقمت فيها مدة شهر ثم أتيت إلى نهر، وجلست على شاطئه، فبينما أنا جالس وإذا بفارس قد أتى وقال: هل أنت أبو محمد الكسلان؟ فقلت له: نعم. قال: لا تخف فإن جميلك وصل إلينا. فقلت له: مَن أنت؟ قال: أنا أخو الحيَّة، وأنت قريب من مكان الصبية التي تريد الوصول إليها. ثم خلع أثوابه وألبسني إياها، وقال لي: لا تخف؛ فإن العبد الذي هلك من تحتك بعض عبيدنا. ثم إن ذلك الفارس أردفني خلفه، وسار بي إلى برية، وقال: انزل من خلفي، وسر بين هذين الجبلين حتى ترى مدينة النحاس، فقف بعيدًا عنها ولا تدخلها حتى أعود إليك وأقول لك كيف تصنع. فقلت له: سمعًا وطاعة. ونزلت من خلفه ومشيت حتى وصلت إلى المدينة، فرأيت سورها من نحاس، فجعلت أدور حولها لعلي أجد لها بابًا فما وجدت لها.

فبينما أنا أدور حولها، وإذا بأخي الحية قد أقبل عليَّ، وأعطاني سيفًا مطلسمًا حتى لا يراني أحد، ثم إنه مضى إلى حال سبيله، فلم يغب عني إلا قليلًا، وإذا بصياح قد علا، ورأيت خلقًا كثيرًا وأعينهم في صدورهم، فلما رأوني قالوا: مَن أنت؟ وما الذي رماك في هذا المكان؟ فأخبرتهم بالواقعة فقالوا: إن الصبية التي ذكرتها مع المارد في هذه المدينة، وما ندري ما فعل بها، ونحن إخوة الحية. ثم قالوا: امضِ إلى تلك العين وانظر من أين يدخل الماء وادخل معه؛ فإنه يوصلك إلى المدينة. ففعلت ذلك ودخلت مع الماء في سرداب تحت الأرض، ثم طلعت منه فرأيت نفسي في وسط المدينة، ووجدت الصبيَّة جالسةً على سريرٍ من ذهب، وعليها ستارة من ديباج، وحول الستارة بستان فيه أشجار من الذهب، وأثمارها من نفيس الجواهر كالياقوت والزبرجد واللؤلؤ والمرجان، فلما رأتني تلك الصبية عرفتني، وابتدأتني بالسلام، وقالت لي: يا سيدي، مَن أوصلك إلى هذا المكان؟ فأخبرتها بما جرى، فقالت: اعلم أن هذا الملعون من كثرة محبته لي أعلمني بالذي يضره والذي ينفعه، وأعلمني أن في هذه المدينة طلسمًا إنْ شاء هلاك جميع مَن في المدينة أهلكهم به، ومهما أمر العفاريت فإنهم يمتثلون أمره، وذلك الطلسم في عمود. فقلت لها: وأين العمود؟ فقالت: في المكان الفلاني. فقلت: وأي شيء يكون ذلك الطلسم؟ قالت: هو صورة عُقاب، وعليه كتابة لا أعرفها، فخذه بين يديك، وخذ مجمرة نار وارمِ فيه شيئًا من المسك، فيطلع دخان يجذب العفاريت، فإذا فعلت ذلك فإنهم يحضرون بين يديك كلهم، ولا يغيب منهم أحد، ويمتثلون أمرك، ومهما أمرتهم به فإنهم يفعلونه، فقُمْ وافعل ذلك على بركة الله تعالى. فقلت لها: سمعًا وطاعة. ثم قمت وذهبت إلى ذلك العمود، وفعلت جميع ما أمرتني

به؛ فجاءت العفاريت وحضرت بين يدي، وقالوا: لبيك يا سيدي، فمهما أمرتنا به فعلناه. فقلت لهم: قيِّدوا المارد الذي جاء بهذه الصبية من مكانها. فقالوا: سمعًا وطاعة. ثم ذهبوا إلى ذلك المارد وقيَّدوه وشدُّوا وثاقه ورجعوا إليَّ وقالوا: قد فعلنا ما أمرتنا به. فأمرتهم بالرجوع، ثم رجعت إلى الصبية وأخبرتها بما حصل، ثم قلت: يا زوجتي، هل تروحين معي؟ فقالت: نعم. ثم إني طلعت بها من السرداب الذي دخلت منه، وسرنا حتى وصلنا إلى القوم الذي كانوا دلُّوني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٠٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه قال: وسرنا حتى وصلنا إلى القوم الذين كانوا دلُّوني عليها، ثم قلت: دلوني على طريق توصلني إلى بلادي. فدلوني ومشوا معي إلى ساحل البحر، وأنزلوني في مركب، وطاب لنا الريح وسار بنا ذلك المركب حتى وصلنا إلى مدينة البصرة، فلما دخلت الصبية دار أبيها رآها أهلها ففرحوا بها فرحًا شديدًا. ثم إني بخَّرت العقاب بالمسك، وإذا بالعفاريت قد أقبلوا عليَّ من كل مكان، وقالوا: لبيك، فما تريد أن نفعل؟ فأمرتهم أن ينقلوا كل ما في مدينة النحاس من المال والمعادن والجواهر إلى داري التي في البصرة، ففعلوا ذلك، ثم أمرتهم أن يأتوا بالقرد، فأتوا به ذليلًا حقيرًا، فقلت له: يا ملعون، لأي شيء غدرتَ بي؟ ثم أمرتهم أن يدخلوه في قمقم من نحاس، فأدخلوه في قمقم ضيِّق من نحاس، وسدوا عليه بالرصاص، وأقمت أنا وزوجتي في هناء وسرور، وعندي الآن يا أمير المؤمنين من نفائس الذخائر وغرائب الجواهر وكثير الأموال، ما لا يحيط به عدٌّ ولا يحصره حدٌّ، وإذا طلبتَ شيئًا من المال أو غيره أمرت الجن أن يأتوا لك به في الحال، وكل ذلك من فضل الله تعالى. فتعجَّبَ أمير المؤمنين من ذلك غاية العجب، ثم أعطاه من مواهب الخلافة عوضًا عن هديته، وأنعم عليه إنعامًا بما يليق به.

حكاية يحيى بن خالد

ومما يُحكَى أن هارون الرشيد استدعى رجلًا من أعوانه يقال له صالح، قبل الوقت الذي تغير فيه على البرامكة، فلما حضر بين يديه قال له: يا صالح، سِرْ إلى منصور وقل له: إن لنا عندك ألف ألف درهم، والرأي قد اقتضى أنك تحمل لنا هذا المبلغ في هذه الساعة، وقد أمرتك يا صالح أنه إن لم يحصل لك ذلك المبلغ من هذه الساعة إلى قبل المغرب، أن تزيل

رأسه عن جسده وتأتيني به. فقال صالح: سمعًا وطاعة. ثم سار إلى منصور وأخبره بما ذكره أمير المؤمنين، فقال منصور: قد هلكتُ والله، فإن جميع متعلقاتي وما تملكه يدي إذا بيعت بأغلى قيمة لا يزيد ثمنها على مائة ألف، فمن أين أقدر يا صالح على التسعمائة ألف درهم الباقية؟ فقال له صالح: دبِّرْ لك حيلة تتخلَّص بها عاجلًا وإلا هلكتَ، فإني لا أقدر أن أتمهَّل عليك لحظة بعد المدة التي عيَّنَها لي الخليفة، ولا أقدر أن أخلَّ بشيء مما أمرني به أمير المؤمنين، فأَسْرِعْ بحيلة تخلص بها نفسك قبل أن تنصرم الأوقات. فقال منصور: يا صالح، أسألك من فضلك أن تحملني إلى بيتي لأودِّع أولادي وأهلي وأوصي أقاربي. قال صالح: فمضيت معه إلى بيته، فجعل يودِّع أهله وارتفع الضجيج في منزله وعلا البكاء والصياح والاستغاثة بالله تعالى، فقال صالح: قد خطر ببالي أن الله يجعل لك الفرج على يد البرامكة، فأذهب بنا إلى دار يحيى بن خالد.

فلما ذهبَا إلى يحيى بن خالد أخبره بحاله، فاغتمَّ لذلك وأطرق إلى الأرض ساعة، ثم رفع رأسه واستدعى خازن داره وقال له: كم في خزنتنا من الدراهم؟ فقال له: مقدار خمسة آلاف درهم. فأمر بإحضارها، ثم أرسل رسولًا إلى ولده الفضل برسالة مضمونها: «إنه قد عرض عليَّ للبيع جليلة لا تخرب أبدًا، فأرسِلْ لنا شيئًا من الدراهم.» فأرسل إليه ألف درهم، ثم أرسل إنسانًا آخر إلى ولده جعفر برسالة مضمونها: «إنه حصل لنا شغل مهم ونحتاج فيه إلى شيء من الدراهم.» فأنفذ له جعفر في الحال ألف ألف درهم، ولم يزل يحيى يرسل إلى البرامكة حتى جمع منهم لمنصور مالًا كثيرًا، وصالح ومنصور لا يعلمان هذا، فقال منصور ليحيى: يا مولاي، قد تمسكت بذلك وما أعرف هذا المال إلا منك كما هو عادة كرمك، فتمِّمْ لي بقية ديني واجعلني عتيقك. فأطرق يحيى وبكى وقال: يا غلام، إن أمير المؤمنين قد كان وهب لجاريتنا «دنانير» جوهرةً عظيمة القيمة، فاذهب إليها وقل لها ترسل لنا هذه الجوهرة. فمضى الغلام وأتى بها إليه فقال: يا صالح، أنا ابتعت هذه الجوهرة لأمير المؤمنين من التجار بمائتَيْ ألف دينار، ووهبها أمير المؤمنين لجاريتنا دنانير العوادة، وإذا رآها معك عرفها وأكرمك وحقن دمك من أجلنا إكرامًا لنا، وقد تمَّ الآن مالُكَ يا منصور. قال صالح: فحملت المال والجوهرة إلى الرشيد ومنصور معي، فبينما نحن في الطريق إذ سمعته يتمثَّل بهذا البيت:

وَمَا حُبًّا سَعَتْ قَدَمِي إِلَيْهِمْ   وَلَكِنْ خِفْتُ مِنْ ضَرْبِ النِّبَالِ

فعجبت من سوء طبعه ورداءته وفساده وخبث أصله وميلاده، ورددتُ عليه وقلت له: ما على وجه الأرض خير من البرامكة، ولا أخبث ولا أشر منك، فإنهم اشتروك من الموت، وأنقذوك من الهلاك، ومنوا عليك بالفكاك، ولم تشكرهم ولم تحمدهم ولم تفعل فعل الأحرار، بل قابلتَ إحسانهم بهذا المقال. ثم مضيت إلى الرشيد وقصصتُ عليه القصة وأخبرته بجميع ما جرى. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٠٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن صالحًا قال: فقصصت القصة على أمير المؤمنين وأخبرته بجميع ما جرى، فتعجَّبَ الرشيد من كرم يحيى وسخائه ومروءته وخساسة منصور ورداءته، وأمر أن تُرَدَّ الجوهرة إلى يحيى بن خالد وقال: كل شيء قد وهبناه لا يجوز أن نعود فيه. وعاد صالح إلى يحيى بن خالد وذكر له قصة منصور وسوء فعله، فقال يحيى: يا صالح، إذا كان الإنسان مثلًا ضيق الصدر مشغول الفكر، فمهما صدر منه لا يُؤاخَذ به؛ لأنه ليس ناشئًا عن قلبه. وصار يتطلَّب العذر لمنصور، فبكى صالح وقال: لا يجري الفلك الدائر بإبراز رجل إلى الوجود مثلك، فوا أسفًا! كيف يتوارى مَن له خُلُقٌ مثل خُلُقك، وكرمٌ مثل كرمك تحت التراب! وأنشد هذين البيتين:

بَادِرْ إِلَى أَيِّ مَعْرُوفٍ هَمَمْتَ بِهِ　　فَلَيْسَ فِي كُلِّ وَقْتٍ يُمْكِنُ الْكَرَمُ
كَمْ مَانِعٍ نَفْسَهُ إِمْضَاءَ مَكْرُمَةٍ　　عِنْدَ التَّمَكُّنِ حَتَّى عَاقَهُ الْعَدَمُ

حكاية المزوِّر

ومما يُحكَى أنه كان بين يحيى بن خالد وبين عبد الله بن مالك الخزاعي عداوة في السر ما كانا يظهرانها، وسبب العداوة بينهما أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان يحب عبد الله بن مالك محبة عظيمة، بحيث إن يحيى بن خالد وأولاده كانوا يقولون: إن عبد الله يسحر أمير المؤمنين. حتى مضى على ذلك زمان طويل والحقد في قلوبهما، فاتفق أن الرشيد قلَّدَ ولايةَ أرمينية لعبد الله بن مالك الخزاعي وسيَّرَه إليها، فلما استقرَّ في تختها قصده رجل من أهل العراق كان فيه فضل أدب وذكاء وفطنة، إلا أنه ضاق ما بيده وفني ما له واضمحل حاله، فزوَّرَ كتابًا على لسان يحيى بن خالد إلى عبد الله بن مالك وسافَرَ إليه في

أرمينية، فلما وصل إلى بابه سلَّمَ الكتابَ إلى بعض حجَّابه، فأخذ الحاجب الكتاب وسلَّمَه إلى عبد الله بن مالك بن الخزاعي، ففتحه وقرأه وتدبَّرَه، فعلم أنه مزوَّر، فأمر بإحضار الرجل، فلما تمثَّلَ بين يدَيْه دعا له وأثنى عليه وعلى أهل مجلسه، فقال له عبد الله بن مالك: ما حملك على بُعْد المشقة ومجيئك إليَّ بكتاب مزوَّر؟ ولكن طِبْ نفسًا فإننا لا نخيِّب سعيك. فقال الرجل: أطال الله بقاء مولانا الوزير، إن كان ثقل عليك وصولي فلا تحتج في منعي بحجة، فإن أرض الله واسعة، والرازق حي، والكتاب الذي أوصلتُه إليك من يحيى بن خالد صحيح غير مزوَّر. فقال عبد الله: أنا أكتب كتابًا لوكيلي ببغداد وآمره فيه أن يسأل عن حال هذا الكتاب الذي أتيتني به، فإن كان ذلك حقًّا صحيحًا غير مزوَّر، قلَّدْتُك إمارةَ بعض بلادي أو أعطيتك مائتَيْ ألف درهم مع الخيل والنجب الجليلة والتشريف إنْ أردتَ العطاء، وإنْ كان الكتابُ مزوَّرًا أمرتُ أن تُضرَب مائتَيْ خشبة وأن تحلق لحيتك. ثم أمر به عبد الله أن يُحمَل إلى حجرة، وأن يُجعَل له فيها ما يحتاج إليه حتى يتحقَّق أمره، ثم كتب كتابًا إلى وكيله ببغداد مضمونه: «إنه قد وصل إليَّ رجل ومعه كتاب يزعم أنه من يحيى بن خالد، وأنا أسيء الظن بهذا الكتاب، فيجب ألَّا تهمل هذا الأمر، بل تمضي بنفسك وتحقق أمر هذا الكتاب، وتُسرِع إليَّ بردِّ الجواب لأجل أن نعلم صدقه من كذبه.» فلما وصل إليه الكتاب ببغداد ركب … وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٠٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن وكيل عبد الله بن مالك الخزاعي لما وصل إليه الكتاب ببغداد، ركب من ساعته ومضى إلى دار يحيى بن خالد فوجده جالسًا مع ندمائه وخواصه، فسلَّمَ عليه وسلَّمَ إليه الكتاب، فقرأه يحيى بن خالد ثم قال للوكيل: عُدْ إليَّ من الغد حتى أكتب لك الجواب. ثم التفت إلى ندمائه بعد انصراف الوكيل وقال: ما جزاء مَن تحمَّل عني كتابًا مزوَّرًا وذهب به إلى عدوي؟ فقال كل واحد من الندماء مقالًا، وجعل كلٌّ واحد منهم يذكر نوعًا من العذاب، فقال لهم يحيى: لقد أخطأتم فيما ذكرتم، وهذا الذي أشرتم به من دناءة الهمم وخستها، وكلكم تعرفون قرب منزلة عبد الله من أمير المؤمنين، وتعلمون ما بيني وبينه من الغضب والعداوة، وقد سبَّبَ الله تعالى هذا الرجل وجعله واسطة في الصلح بيننا ووفَّقَه لذلك، وقيَّدَه ليخمد نار الحقد من قلوبنا، وهي تتزايد من مدة عشرين سنة وتصطلح بواسطته شئوننا، وقد وجب عليَّ أن أَفِي لهذا الرجل بتحقيق ظنونه وإصلاح شئونه، واكتب له كتابًا إلى عبد الله بن مالك الخزاعي مضمونه أنه يزيد في إكرامه ويستمر على أعذاره واحترامه. فلما سمع الندماء ذلك دعوا له بالخيرات، وتعجَّبوا من كرمه ووفور مروءته، ثم إنه طلب الورقة والدواة، وكتب إلى عبد الله بن مالك كتابًا بخط يده مضمونه:

> بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتابك — أطال الله بقاءَك — وقرأته وسررت بسلامتك، وابتهجت باستقامتك وشمول سعادتك، وكان ظنك ذلك الرجل الحر زوَّرَ عني كتابًا ولم يحمل مني خطابًا، وليس الأمر كذلك، فإن الكتاب أنا كتبته وليس بمزوَّر ورجائي من إكرامك وإحسانك وحسن شيمتك أن تفي لذلك الرجل الكريم بأمله وأمنيته، وترعى له حقَّ حرمته وتوصله إلى غرضه، وأن

تخصَّه منك بغامر الإحسان ووافر الامتنان، ومهما فعلته في حقِّه فأنا المقصود به والشاكر عليه.

ثم عنون الكتاب وختمه وسلَّمَه إلى الوكيل، فأنفذه الوكيل إلى عبد الله، فحين قرأه ابتهج بما حواه وأحضر ذلك الرجل وقال له: أي الأمرين اللذين وعدتك بهما أحبُّ إليك لأحضره لك بين يديك؟ فقال الرجل: العطاء أحبُّ إليَّ من كل شيء. فأمر له بمائتَيْ ألف درهم وعشرة أفراس عربية؛ خمسة منها بالجلال الحرير، وخمسة بسروج المواكب المحلاة، وبعشرين تختًا من الثياب، وعشرة من المماليك ركاب خيل، وما يليق بذلك من الجواهر المثمنة، ثم خلع عليه وأحسن إليه ووجهه إلى بغداد في هيئة عظيمة، فلما وصل إلى بغداد قصد باب دار يحيى بن خالد قبل أن يصل إلى أهله، وطلب الإذن في الدخول عليه، فدخل الحاجب إلى يحيى وقال له: يا مولاي، إن ببابنا رجلًا ظاهرَ الحشمة، جميلَ الخلقة، حَسَنَ الحال، كثير الغلمان، يريد الدخول عليك. فأذن له بالدخول، فلما دخل عليه قبَّلَ الأرض بين يديه، فقال له يحيى: مَن أنت؟ فقال له الرجل: أيها السيد، أنا الذي كنت ميتًا من جور الزمان، فأحييتَني من رمس النوائب، وبعثتني إلى جنة المطالب، أنا الذي زوَّرت كتابًا عنك وأوصلته إلى عبد الله بن مالك الخزاعي. فقال له يحيى: ما الذي فعل معك؟ وأي شيء أعطاك؟ فقال: أعطاني من يدك وجميل طويتك وشمول نِعَمك وعموم كرمك وعلو همتك وواسع فضلك، حتى أغناني وخولني وهاداني، وقد حملت جميع عطيته ومواهبه، وها هي ببابك والأمر إليك والحكم في يديك. فقال له يحيى: إن صنيعك معي أجمل من صنيعي معك، ولك عليَّ المنَّة العظيمة واليد البيضاء الجسيمة؛ حيث بدَّلْتَ العداوة التي كانت بيني وبين ذلك الرجل المحتشم بالصداقة والمودة، فأنا أهب لك من المال مثل ما وهب لك عبد الله بن مالك. ثم أمر له من المال والخيل والتخوت بمثل ما أعطاه عبد الله، فعادت لذلك الرجل نعمته كما كانت بمروءة هذين الكريمين.

حكاية المأمون والفقيه الغريب

ورُوِي أن المأمون لم يكن في خلفاء بني العباس خليفة أعلم منه في جميع العلوم، وكان له في كل أسبوع يومان يجلس فيهما لمناظرة العلماء، فيجلس المناظرون من الفقهاء والمتكلمين بحضرته على طبقاتهم ومراتبهم، فبينما هو جالس معهم إذ دخل في مجلسه رجل غريب وعليه ثياب بيض رثَّة، فجلس في آخِر الناس وقعد من وراء الفقهاء في

مكان مجهول، فلما ابتدءوا في الكلام وشرعوا في معضلات المسائل، وكان من عادتهم أنهم يديرون المسألة على أهل المجلس واحدًا بعد واحد، فكلٌّ مَن وجد زيادة لطيفة أو نكته غريبة ذكرها، فدارت المسألة إلى أن وصلت إلى ذلك الرجل الغريب، فتكلَّمَ وأجاب بجواب أحسن من أجوبة الفقهاء كلهم، فاستحسن الخليفة كلامه ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٠٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة المأمون استحسن كلامه وأمر أن يرفع ذلك المكان إلى أعلى منه، فلما وصلَتْ إليه المسألةُ الثانية أجاب بجواب أحسن من الجواب الأول، فأمر المأمون أن يُرفَع إلى أعلى من تلك الرتبة، فلما دارت المسألة الثالثة أجاب بجواب أحسن وأصوب من الجوابين الأولين، فأمر المأمون أن يجلس قريبًا منه، فلما انقضت المناظرة، أحضروا الماء وغسلوا أيديهم وأحضروا الطعام فأكلوا، ثم نهض الفقهاء فخرجوا ومنع المأمون ذلك الشخص من الخروج معهم، وأدناه منه ولاطَفَه ووعده بالإحسان إليه والإنعام عليه، ثم تهيَّأ مجلس الشراب وحضر الندماء الملاح ودارت الراح، فلما وصل الدور إلى ذلك الرجل وثَبَ قائمًا على قدميه وقال: إنْ أذن لي أمير المؤمنين تكلَّمْتُ كلمة واحدة. قال له: قل ما تشاء. فقال: قد علم الرأي العالي زاده الله علوًّا أن العبد كان اليومَ في هذا المجلس الشريف من مجاهيل الناس ووضعاء الجلَّاس، وأن أمير المؤمنين قرَّبَه وأدناه بيسيرٍ من العقل الذي أبداه، وجعله مرفوعًا على درجة غيره، وبلغ به الغايةَ التي لم تسمُ إليها همتُه، والآن يريد أن يفرِّق بينه وبين ذلك القدر اليسير من العقل الذي أعَزَّه بعد الذلة، وكثَّرَه بعد القلة، وحاشا وكلا أن يحسده أمير المؤمنين على هذا القدر الذي معه من العقل والنباهة والفضل؛ لأن العبد إذا شرب الشراب تباعَدَ عنه العقل، وقَرُب منه الجهلُ، وسُلِب أدبه، وعاد إلى تلك الدرجة الحقيرة كما كان، وصار في أعين الناس حقيرًا مجهولًا، فأرجو من الرأي العالي أنه لا يسلب منه هذه الجوهرة بفضله وكرمه وسيادته وحُسْن شِيَمه. فلما سمع الخليفة المأمون منه هذا القول، مدحه وشكره وأجلسه في رتبته ووقَّرَه وأمر له بمائة ألف درهم، وحمله على فرس وأعطاه ثيابًا فاخرة، وكان في كل مجلس يرفعه ويقرٌّ به على جماعة الفقهاء حتى صار أرفع منهم درجةً وأعلى مرتبةً، والله أعلم.

حكاية علي شار وزمرد

وحُكِي أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، تاجر من التجار في بلاد خراسان اسمه مجد الدين، وله مال كثير، وعبيد ومماليك وغلمان، إلا أنه بلغ من العمر ستين سنة، ولم يُرزَق ولدًا، وبعد ذلك رزقه الله تعالى ولدًا فسمَّاه عليًّا. فلما نشأ ذلك الغلام صار كالبدر ليلة التمام، ولما بلغ مبلغ الرجال، وحاز صفات الكمال، ضعف والده بمرض الموت، فدعا بولده وقال له: يا ولدي، إنه قد قرب وقت المنية، وأريد أن أوصيك وصية. فقال له: وما هي يا والدي؟ فقال له: أوصيك أنك لا تعاشِر أحدًا من الناس، وتجتنب ما يجلب الضرَّ والبأس، وإياك وجليس السوء، فإنه كالحدَّاد إن لم تحرقك ناره يضرك دخانه، وما أحسن قول الشاعر:

مَا فِي زَمَانِكَ مَنْ تَرْجُو مَوَدَّتَهُ وَلَا صَدِيقٌ إِذَا خَانَ الزَّمَانُ وَفَى
فَعِشْ فَرِيدًا وَلَا تَرْكَنْ إِلَى أَحَدٍ هَا قَدْ نَصَحْتُكَ فِيمَا قُلْتُهُ وَكَفَى

وقول الآخر:

النَّاسُ دَاءٌ دَفِينٌ لَا تَرْكُنَنَّ إِلَيْهِمْ
فِيهِمْ خِدَاعٌ وَمَكْرٌ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ

وقول الآخر:

لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا سِوَى الْهَذَيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ
فَأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا لِأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ حَالِ

وقول الآخر:

إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمُ ذَوَاقَا
فَلَمْ أَرَ وُدَّهُمْ إِلَّا خِدَاعًا وَلَمْ أَرَ دِينَهُمْ إِلَّا نِفَاقَا

فقال: يا أبي، سمعتُ وأطعتُ، ثم ماذا أفعل؟ فقال: افعل الخير إذا قدرتَ عليه، ودُمْ على صنع الجميل مع الناس، واغتنم بذل المعروف، فما في كل وقت ينجح الطلب، وما أحسن قول الشاعر:

لَيْسَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانِ تَتَأَتَّى صَنَائِعُ الْإِحْسَانِ
فَإِذَا أَمْكَنَتْكَ بَادِرْ إِلَيْهَا حَذَرًا مِنْ تَعَذُّرِ الْإِمْكَانِ

فقال: سمعت وأطعت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٣٠٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصبي قال لأبيه: سمعت وأطعت، ثم ماذا؟ قال: يا ولدي، احفظ الله يحفظك، وصن مالك ولا تفرِّط فيه، فإنك إن فرَّطت فيه تحتَجْ إلى أقل الناس، واعلم أن قيمة المرء ما ملكت يمينه، وما أحسن قول الشاعر:

إِنْ قَلَّ مَالِي فَلَا خِلٌّ يُصَاحِبُنِي ... أَوْ زَادَ مَالِي فَكُلُّ النَّاسِ خِلَّانِي
فَكَمْ عَدُوٍّ لِأَجْلِ الْمَالِ صَاحَبَنِي ... وَكَمْ صَدِيقٍ لِفَقْدِ الْمَالِ عَادَانِي

فقال: ثم ماذا؟ قال: يا ولدي، شاور مَن هو أكبر منك سنًّا، ولا تعجل في الأمر الذي تريده، وارحم مَن هو دونك يرحمك مَن هو فوقك، ولا تظلم أحدًا فيسلط الله عليك مَن يظلمك، وما أحسن قول الشاعر:

اقْرِنْ بِرَأْيِكَ رَأْيَ غَيْرِكَ وَاسْتَشِرْ ... فَالرَّأْيُ لَا يَخْفَى عَلَى الْإِثْنَيْنِ
فَالْمَرْءُ مِرَآةٌ تُرِيهِ وَجْهَهُ ... وَيَرَى قَفَاهُ بِجَمْعِ مِرْآتَيْنِ

وقول الآخَر:

تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ لِأَمْرٍ تُرِيدُهُ ... وَكُنْ رَاحِمًا لِلنَّاسِ تُبْلَ بِرَاحِمِ
فَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللهِ فَوْقَهَا ... وَلَا ظَالِمٌ إِلَّا سَيُبْلَى بِأَظْلَمِ

وقول الآخر:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا ... إِنَّ الظَّلُومَ عَلَى حَدٍّ مِنَ النِّقَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ ... يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمْ

وإياك وشرب الخمر، فهو رأس كل شر، وشُربه مُذهِب للعقول، ويزري بصاحبه، وما أحسن قول الشاعر:

تَاللهِ لَا خَامَرَتْنِي الْخَمْرُ مَا عَلِقَتْ رُوحِي بِجِسْمِي وَأَقْوَالِي بِإِفْصَاحِي
وَلَا صَبَوْتُ إِلَى مَشْمُولَةٍ أَبَدًا يَوْمًا وَلَا اخْتَرْتُ نَدْمَانِي سِوَى الصَّاحِي

فهذه وصيتي لك فاجعلها بين عينيك، والله خليفتي عليك. ثم غشي عليه فسكت ساعة واستفاق فاستغفر الله وتشهَّد، وتوفي إلى رحمة الله تعالى؛ فبكى عليه ولده وانتحب، ثم أخذ في تجهيزه على ما يجب، ومشت في جنازته الأكابر والأصاغر، وصار القراء يقرءون حول تابوته، وما ترك ولده من حقِّه شيئًا إلا وفعله، ثم صلوا عليه وواروه في التراب، وكتبوا على قبره هذين البيتين:

خُلِقْتَ مِنَ التُّرَابِ فَصِرْتَ حَيًّا وَعُلِّمْتَ الْفَصَاحَةَ فِي الْخِطَابِ
وَعُدْتَ إِلَى التُّرَابِ فَصِرْتَ مَيْتًا كَأَنَّكَ مَا بَرِحْتَ مِنَ التُّرَابِ

وحزن عليه ولده علي شار حزنًا شديدًا، وعمل عزاءه على عادة الأعيان، واستمر حزينًا على أبيه إلى أن ماتت أمه بعده بمدة يسيرة، ففعل بوالدته مثل ما فعل بأبيه، ثم بعد ذلك جلس في الدكان يبيع ويشتري، ولا يعاشر أحدًا من خلق الله تعالى عملًا بوصية أبيه، واستمر على ذلك مدة سنة، وبعد السنة دخل عليه أولاد النساء الزواني بالحِيَل، وصاحبوه حتى مال معهم إلى الفساد، وأعرض عن طريق الرشاد، وشرب الراح بالأقداح، وإلى الملاح غدا وراح، وقال في نفسه: إن والدي جمع لي هذا المال، وأنا إن لم أتصرَّف فيه فلمَن أخلِّيه؟ والله لا أفعل إلا كما قال الشاعر:

إِنْ كُنْتَ دَهْرَكَ كُلَّهُ تَحْوِي إِلَيْكَ وَتَجْمَعُ
فَمَتَى بِمَا حَصَّلْتَهُ وَحَوَيْتَهُ تَتَمَتَّعُ

وما زال علي شار يبذل في المال آناء الليل وأطراف النهار حتى أذهَبَ ماله كله وافتقر؛ فساء حاله، وتكدَّر باله، وباع الدكان والأماكن وغيرها، ثم بعد ذلك باع ثياب بدنه، ولم يترك لنفسه غير بدلة واحدة. فلما ذهبت السكرة وجاءت الفكرة وقع في الحسرة، وقعد يومًا من الصبح إلى العصر بغير إفطار، فقال في نفسه: أنا أدور على الذين كنتُ أنفق

مالي عليهم، لعل أحدًا منهم يُطعِمني في هذا اليوم. فدار عليهم جميعًا، وكلما طرق باب أحد منهم ينكر نفسه ويتوارى منه حتى أحرقه الجوع، ثم ذهب إلى سوق التجار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.




هنداوي